

الطبعة الشرعية الوحيدة بمصر

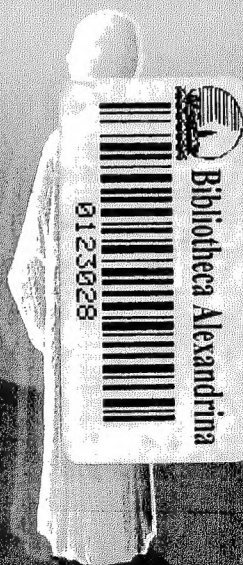
تَهْنِئَاتٌ وَمَدَائِحُ السَّالِكِينَ

كتبه

الإمام ابن لقسيم الجوزية

هذبه

عبد المنعم صالح العلي الغزي



297.5

~ 1

0

14345

الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية	
237.5	رقم الشيفرة
٥٠٢٠٢٠٢	رقم التسجيل

الخلاء الساريف



Bibliotheca Alexandrina



حقوق الطبع محفوظة

1417 هـ - 1997 م

☐ الكتاب : تهذيب مدارج السالكين

☐ الكاتب : الإمام / ابن القيم الجوزية

تهذيب / عبد المتعم صالح العلي العزى

☐ الطبعة : الأولى الشرعية في مصر 1997 م .

☐ الناشر : دار البشير للثقافة والعلوم - طنطا .

☐ التوزيع : دار البشير - طنطا - أمام كلية الحرية التوعية

322404 فاكس 331800 - 228277

☐ التجهيز الفني : شركة الندي للتجهيزات الفنية - اخلة الكبرى ص.ب 265

☐ الإيداع القانوني : 97/2118

☐ الترقيم الدولي : 7 - 043 - 278 - 977 I.S.B.N.

١٨٦٧٠

نَهْذِيْبُ مِذَاجِ السَّنَالِكِيْتِ

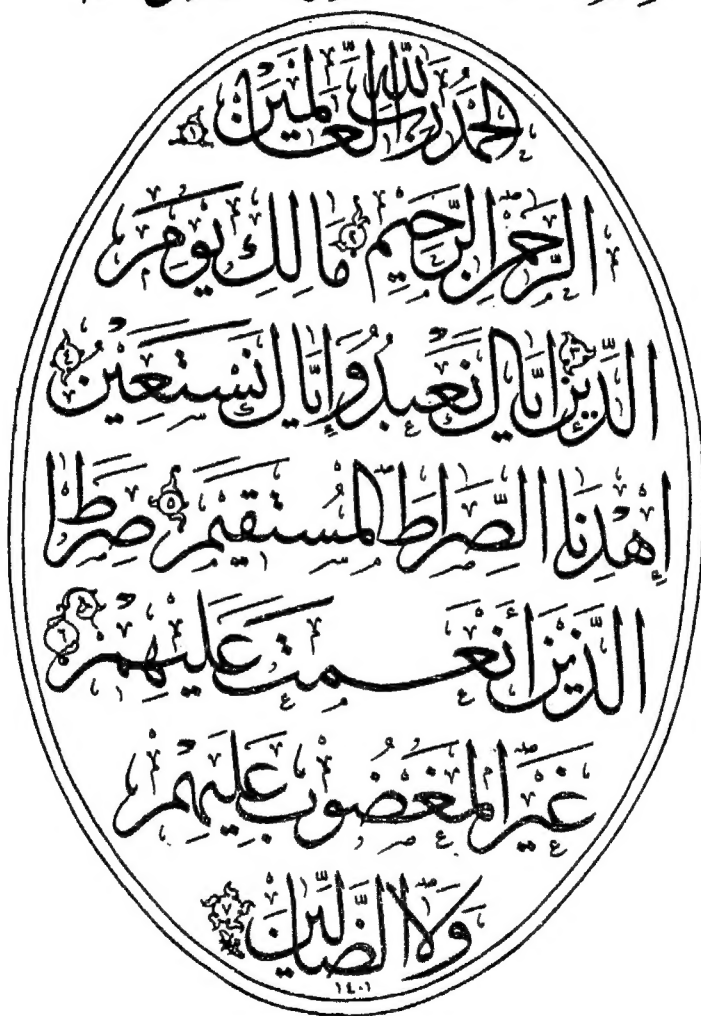
كتبه
الإمام ابن القسيم الجوزية

هذبه
عبد المنعم صالح العلي العزى

الطبعة الشرعية الوصية بمصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



مُقَدِّمَةٌ . . هَذَا الْكِتَابِ

الحمد لله رب العالمين، الذي تَمَيَّزَ طريق الهداية عن متاهات الغواية، وبَيَّنَ محاسن الاخلاق الابحاثية، وجعلها مدارج صاعدة الى جناته، مفتوحة امام اول الهمة من العابدين.
ثم الحمد لله، والصلاة والسلام على نبينا محمد افضل وأزكى مَنْ حَرَّصَ على هذه الاخلاق، فكان ابرع السالكين، وأول الواصلين.

ورضى الله تعالى عن صحابته الطاهرين اجمعين، الذين اتبعوا النور، وامتثلوا الأمر، وعافوا بهارج الدنيا، وتجردوا للعبادة والجهاد، حتى صاروا خير مثال للتربية الكريمة النبوية، وعلى تابعيهم باخيان، وتمن تبعهم من أخيار القرون الاولى، ومن سار على نهجهم واقتدى بهديهم، من السلف الصالح ومن لحق بهم غلى مَرِّ المصير، من الفقهاء الزهاد، والدعاة العاملين، والقادة المشتمين.

وفي رجال الاسلام اليوم بركة، ولم وثا تحية ودعاء.

وبعد :

فان الصحوة الاسلامية الحاضرة التي واكبت انتشارها مقدّم القرن الهجري المبارك الجديد تُعتبر من اهم أحداث التاريخ الاسلامي المعاصر، وفي سمتها واندفاعاتها ما يبيح للحرص على إبراز معالم ماضي الاسلام ان يجعلها تنويحاً ونهاية لسلسلة المفاخر التي قدمتها الدعوة الاسلامية في القرن الرابع عشر، كما ان في مضاه عزيمة رجالها ووعيم لضرورة الجد في استدراك النقص ما يبيح من باب آخر للمتفائل ان يعدّها أول تابشير الحقائق التي تؤكد وتجزم باذن الله تعالى بأن المستقبل لهذا الدين القيم في القرن الخامس عشر.

وصحوة هذا شأنها في تجميل التراث السالف وتقريب المستقبل الباسم من حقها علينا أن سبادر لرعايتها وإغنائها وتتين عملياتها التربوية التي يُفترض فيها أن ترتقي بمستويات اهلهاء، وتأخذ منهم مزيداً من العطاء والبذل، وتضرم في اقتدتهم لهيباً من الحماسة والشجاعة، مثلما تمنحهم نقاء البعيدة، بارجاعها الى حَمْدِها السلفي الاصيل من غير بدعة، وجمال الاخلاق، بإحياء سمت المروءة ومكارم الاعمال القلبية بلا تكلف، ووضع الفقه، باسناده الى صحاح النصوص ومقالات جمهور الفقهاء دونما شذوذ، وشمول الوعي، بإحلال تناسب في الفن العملي مع أعراف المجتمعات الحاضرة وإبعادها المدنية.

ولقد كان من احتفادنا في ذلك: اختيار كتاب «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد

وابساک نستعين» والقيام بتهذيبه، وتقديمه الى شباب الاسلام، عنواناً للمساهمة في هذه التنمية العملية التربوية، ورديفاً لتهذيب شرح العقيدة الطحاوية.

ولا يعزف قيمة «المدارج» حق معرفتها إلا من درج، وكتاب الامام ابن القيم هذا عمل لهذه، تعزيز المنفعة، بليغ العبارة، وفيه من دقة استخراج المعاني الایمانية ولطف الاشارات القلبية ما ليس في غيره، حتى ان الكتابات الاخرى لابن القيم لا تستطيع ان تنافس نفسه فيه، وكأنني به قد كُتِبَ واعتكف له في أبهى أيامه وأثناء وصوله الى ذروة صفاء حياته، فان كل مصلح او مؤلف او شاعر يرتفع في حياته مرة الى علو قد لا يتكرر والمدارج إنتاج تأملات تلك الايام العوالي في حياة ابن القيم، حتى انه هو نفسه لم يستطع الحفاظ على هذا المستوى يوم اختصر المدارج في المختصر الذي سماه: «طريق المجريين»، وشقان ما بين الاسلوبين والروحين.

● منازل سير وميزان اعتدال

والاصل الذي حَكَم ترتيب كلام ابن القيم هو كتاب «منازل السائرین» لشيخ الاسلام ابي اسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الانصاري المروني الجنبي الصوفي المتوفى سنة ٤٨١ هـ، فقد قسم طريق سير المؤمن الى الله تعالى الى مائة منزل، هي مثل محطات التزود في اي طريق طویل، او هي منازل طيقة ودرجات صعود ومدارج انطلاق، تتوالى في تتابع، وجعل لكل منزلة مفهوماً وحداً يليق لعامة المسلمين، وآخر لحاجة المؤمنين، ثم لحاجة الخاصة، مما اضطره الى كثير من التكلف المعنوي واللفظي الذي تأباه طبيعة السكينة الایمانية.

ولم تكن متابعة ابن القيم للشيخ المروني هدفاً له، ولا هي من اهدافنا، ولكنه وجد بعض المتبعة يُروِّجون لاختطاء وقع فيها المروني، وشطحات واوهام تجتج اليها بسبب مشربه الصوفي، رغم اتباعه لعقيدة وفقه وطريقة سلوك الامام احمد بن حنبل على وجه الاجال، فرَّد ابن القيم هذه الاختطاء، وأوضح الاوهام، وأذاه رَدَّه وإيضاحه الى استطراد مليء بالمخاطبات القلبية كانت انفع وأهم من الرد، وهذه الاستطرادات هي مبتغانا، لقيمتها التربوية، وهي التي أبقى عليها هذا التهذيب.

كان المروني من أجل أئمة السلف، ولكن الله ابي ان تكون العصمة لأحد.

قال ابن القيم:

(صاحب المنازل رحمه الله كان شديد الإثبات للاسماء والصفات، مضافاً للجهمية من كل وجه، وله كتاب «الفاروق»: استوعب فيه احاديث الصفات وآثارها، ولم يُنبئ الى

مشله، وكتاب «ذم الكلام وأهله»: طريقته فيه أحسن طريقة، وكتاب لطيف في أصول الدين يسلك فيه طريقة أهل الإثبات ويقرها، وله مع الجهمية المقامات المشهودة، وسقوا بقتله إلى السلطان مراراً غديدة، والله يصممه منهم، ورموه بالتشبيه والتجسيم، على عادة بهت الجهمية والمعتزلة لاهل السنة والحديث، الذين لم يتحيزوا إلى مقالة غير مادل عليه الكتاب والسنة^(١).
وأكد ابن القيم أنه (بريء مما رماه به أعداؤه الجهمية من التشبيه والتعطيل، على عادتهم في رمي أهل الحديث)^(٢) (وهو بريء منهم عقلاً ودينًا وحالاً ومعرفة)^(٣). وفي بعض كلام المروزي ما (يدل على رسوخ الشيخ في العلم، ووقوفه مع أهل السنة، وفقهه في هذا الشأن)^(٤).
وينال انصاف ابن القيم اعجابنا واحترامنا، إذ كان صاحب ميزان اعتدال بجله شديد الحرص على انتفاع المسلمين من احسان المحسن الذي يحتلط صوابه باخطاء، وهو يرى ان ما وقع فيه المروزي من مجانبة الصواب انما هو (من الشطحات التي ترجى مغفرتها بكثرة الحسنات، ويستغفرها كمال الصديق، وصحة المعاملة، وقوة الاخلاص، وتجريد التوحيد، ولم تضمن العصمة لبشر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم)^(٥).

وتشفع سيرة المروزي له شفاعة قوية، وتنتصب مواقفه قرينة ترجح حسن الظن به، وتحمل على الاعتقاد بأنه ضحية التأويل فيما اخطأ فيه؛ وقد (كان شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: عمله خير من علمه).

قال ابن القيم: (وصدق رحمه الله، فسيرته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجهاد أهل البدع، لا يشق له فيها غبار، وله المقامات المشهورة في نصرة الله ورسوله، وأبى الله ان يكسو ثوب العصمة لغير الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه وسلم)^(٦).

ومن الخير ان يظل القارئ في عافية من تكبر بولده ذكره فوات الشيخ المروزي، ويكنيه ان يتابع ابن القيم في انصافه والعمل بقاعدة الموازنة بين صواب رجال الاسلام واخطائهم، وعلومهم واعمالهم. ثم اولى له ان يدعو للمروزي مع ابن القيم فيقول: (الله يشكر لشيخ الاسلام سعيه، ويملئ درجته، ويمزيه افضل جزائه، ويجمع بيننا وبينه في عل كرامته)^(٧).

● منهج هذا التهذيب

وقد حرصنا في هذا التهذيب على تخلص كتاب المدارج من جميع سلبياته التي كانت تقطع

(١) إلى (٧): مدارج السالكين ١/٢٦٣، ٢/٨٧، ١/٥٠، ٣/٢١٨، ٢/٣٩، ٣/٣٩٤، ٢/٥٢.

على القارىء استرساله واندماجه القلبي مع المعاني الواعظة، فان اخطاء الهروي ومحاولة ابراز
المبتدعة لها قد اضطر ابن القيم الى ان يطيل النفس في مواضع كثيرة في قضيح عقيدة وحدة
الوجود الزائفة، وإلى ان يبين تهاافت من يرى نفي الاسباب، وقد حرصنا على حذف كل ذلك
إلا نزرأ يسيراً، لقلة حاجة المسلمين اليوم الى التفقه في الرد عليها، تبعاً لنصيق دائرة ذكرها،
وانقراض هذا النوع من المبتدعة تقريباً من اغلب بلاد الاسلام، وبروز بدع من جنس آخر،
وسيفضل كتاب (المدارج) الاصل مُنتصباً كالتاريخيين فمن يحتاج الى أن يرد اهل وحدة الوجود
ونفاة الاسباب، إن ذئدن منهم أحد.

وبما حذفته أيضاً: الكثير من كلام الهروي المتكلف، لا مجرد عباراته الحاططة، وقد رأيت أن
أدمج كلماته القليلة مع كلمات ابن القيم من دون حصرها بقوس، حتى عاد لإييزها القارىء،
إلا في مواضع قليلة، وربما غيّرت بعض الفاظه الى الاوضح، وانما فعلت ذلك اجتهاداً، طلباً
لتسام الاسترسال وقطعاً للتضطيق والاستئناف، ولم أجد في ذلك بأساً كبيراً، إذ أن بإمكان من
يحتاج تمييز كلمات الهروي ان يراجع الاصل غير المهذب ليجدها كاملة مفصلة.

وبنفس المقياس عاملت الحواشي التي اضافها الشيخ محمد حامد الفقي رحمه الله خلال
تحقيقه للكتاب، فقد حذفت الكثير منها، إما لتكرار المعنى، او لخشونة الفاظه وشدة نقده،
وأبقيت على بعضها النافع والضروري، ولكن رفعتها عن الهامش ووضعتها في مواضع لائقة بين
كلمات ابن القيم نفسه من دون فصل، ولتمييزها طبعناها بحرف أصغر من الحرف الذي طبع
به عموم الكتاب.

والغيت أيضاً: الاستطرادات الفقهية التي لجأ اليها ابن القيم ان لم يكن ذكرها ضرورياً،
وهي تستطيل الى عشر صفحات احياناً، وهذه الاستطرادات مليئة بالمنافع وغزيرة الفوائد،
ولكنها ليست من أصل موضوع الكتاب.

وكذلك كان حذف الاستطرادات اللغوية، والشواهد الشعرية، والالفاظ الغريبة التي لم
تُعد متداولة، والاصطلاحات الصوفية الغامضة، والاحاديث الضعيفة، والآثار الاسرائيلية،
والاقوال المنسوبة الى زهاد مجرّوحين، والمعاني المكررة، والمنازل التي ظن الهروي انها من
منازل الايمان ولكنها مرجوحة ولا تشهد لها النصوص أو آداب السلف.

وكنت احذف احياناً اسطرّاً لمجرد طلب الاختصار في مواضع التطويل، ومجتلاً أحسن
بذوقي وتجربتي صواب رفعها والاستغناء عنها، وابتائاً من قطع شرعية نظمها ابن القيم نفسه،
لضعف ملكته في باب الشعر وبرودة اكثر ما أورده.

والسلبية الوحيدة التي لم استطع التخلص منها: ما في الشرح من اضطراب ابن القيم لمجاراة
ابن اسماعيل الهروي في استعمال اصطلاحات المتصوفة المهمة، كالسالك، والحرّيد، والحال.

والمقام، وغير ذلك، ولم أَر في الإبقاء عليها شيئاً من المخرج، طالما لا يفتقرن بهذه الاصطلاحات المعنى الخاطيء، فإن هذا الكتاب كتاب شلّقي على نهج أهل الحديث، ربطت معانيه باصطلاحات يمكننا أن نفهم من مطلق بمعانيها المعنى الصحيح الذي لا ينكره النص وإن أراد بها البعض معنى خاصاً.

و يلحق بهذا السلب: عدم تحقيقنا للكمية الباقية من الاحاديث النبوية الكريمة او نسبتها الى روايتها، اذ حال دون ذلك عامل السرعة في اخراج الكتاب، مراعاة لفوائد انقضت التعجيل، وإن كان يشفع لنا في ذلك ان معظم هذه الاحاديث هي احاديث صحيحة مشهورة يجدها المتبحر بسهولة في الصحيحين والسنن الاربعة ومسند أحمد، وقد أشار ابن القيم الى صحتها او حسنها في مواضع كثيرة.

ومقابل هذا الحذف: أنشأت وأضفتُ جميع العناوين الثانوية الجزئية المميّزة بدائرة صغيرة سوداء بين الفقرات، واخترت لها أجمل العبارات التي تناسب السياق، وهي اضافة اراها مهمة، تزيد الوضوح، وتبرز المعاني، وتؤسس للقارئ انتباهاً متواصلاً. وقد ساعد على نيل هذا الوضوح ايضاً بعض تقديم وتأخير لجأت اليه، ومناقشات من موضع الى موضع، ومن جزء الى جزء، تجمعت المعاني المتشاكلة في مكان واحد، ثم زاد الوضوح بإظهار متناسق لبدائيات الفصول والمنازل، وترقيمتها، وعجود ترتيبها.

وهكذا فاني اظن ان كتاب «مدارج السالكين» الصعب المُقْلَع قد أصبح بهذا التهذيب والترتيب كتاباً بسيطاً سلساً قريباً من الجميع، وصار أهلاً أن أقدمه وأرشعه كمنهج متكامل لمادة الاخلاق الاسلامية، ومنهج اضافي لمادة العقيدة، يُعتمد تدريسه في كليات الشريعة والمعاهد الدينية، وفي جميع مدارس وزارات التربية. كما انه يعتبر مورداً رئيساً ورافداً ثرياً يعين الواعظ، وشيخ طيب الجمعة، وامام المسجد، ويصلح ان يوضع منهجاً تأديبياً لعموم شباب الدعوة الاسلامية، وهو الآن، بصورته المهدبة هذه، من خير ما يُقرأ على الاصحاب والجلساء في مجالس السمر الغمامة في بيوت أهل البيت في الحواضر، اوفي دواوين الضيافة عند رؤساء البوادي والارياف، ووصفتي لدعاة الاسلام خاصة ان يقرأوه مرة، بعد مرة، بعد مرة، وأن يحفظوا المهم من سطورهم وشواهدهم من الآيات والاحاديث، فانهم — إن فعلوا ذلك — ارتقوا الى ارفع درجات للقدرة على الوعظ والخطابة والتبليغ والتأثير والافتناع.

● لذة الفصاحة العربية

وقد تكون ترجمة هذا الكتاب الى اللغات الاخرى جلة مفيدة، لتبليغ من لا يحسن العربية

هذه المعاني الاساسية المهمة، ولكن التذاذب بها سوف لا يرقى الى مثل لذة القارىء العربي، إذ هيئات ثم هيئات ان تُثقل هذه البلاغة الفذة المقتبسة من مشكاة البيان العربي القرآني الى لغة اخرى دون ان تفقد رونقها، فان الهروي متفنن في الفاظه، كما ان ابن القيم كان في اقصى انغماسه الايماني حين كتب هذا الشرح، فجاءت عباراته سهلة جميلة ذات طلاوة تمتنع على الترجمة من غير نقصان بها. وتتكرر هذه الظاهرة في كتب كثيرة، وهي تهيب بالمسلمين غير العرب أن يتعلموا العربية باقتان ليتسنى لهم فهم معنى وتبيل لذة ما هم بحائزين له ولا ينالونها من خلال الترجمات قط.

• اعتراض ... ولكن

وقد يعترض البعض فينتقد هذه الخطة التي اتبعتها في هذا التهذيب لهذا الكتاب القيم، ويأتني المعترض بشواهد من أعراف الناس في الاختصار، او ينطلق من منطق حماسه في التصدي للمبتدعة، إلا ان تجربتي في التربية لا تترك لي مجالاً اتنازل فيه عن الاعتقاد بأن هذا المقدار الذي اخترته من الكتاب، بهذا الترتيب والاخراج، هو انفع لشباب الاسلام من المتن الكامل اضعافاً مضاعفة، وان عدد الذين سيفهمونه منهم هم انصاف عدد الذين يفهمون الاصل، مع زيادة لذة واندماج مع هذه الاسطر الباقية، في استرسال هادئ يلين القلوب لم يكونوا يواجهونه لما كان هذا الكلام غثلاً بالتقاش مع الفلاسفة والمبتدعة، او لما كان الكلام مُقَطَّعاً بالتفريع، والاستطراد الجانبي، والموامش، والفصل بين كلام الهروي والشرح.

انا لم استصوب أن تقف أعراف المؤلفين حائلاً دون جعل تهذيب المدارج وثيقة تربوية سليمة في يد الشباب المسلم، فان الذين يهذبون الكتب يحرسون على جميع المعاني في الأصل، ولكن في عبارات موجزة، ولستأ نريد ذلك، بل غايتنا اعانة شباب الاسلام على تزكية قلوبهم وتعميرها بأخلاق الايمان، دون إقلاقها بذكر البدع والرد عليها، فان أكثر هذه البدع اليوم تكاد ان لاتجد لها معتيقاً، إلا قلة يحرصون انفسهم في دوائر ضيقة، وفي بعض البلاد دون بعض، مما سوغ لنا ان ندع سمع الشباب في عافية من هذا التخليط الذي فضحه ابن القيم، وأن نترك افشدهم منسابة مع حلالة التذكير، دونما نقاش يصحبه التعكير. فمن واقفنا في طريقتنا التهذيبية هذه: كانت موافقة قرينة على مقاربه تجربته التربوية لتجاربنا، ومن أبى وأنكر علينا ما حذفناه وبذلناه: دعوانا الى ان يعتبر «تهذيب مدارج السالكين» مؤلفاً جديداً كان

المدارج مصدره الوحيد، ولا نحب ان تحول الشكليات دون تعميم الفوائد، وليس المهم أن نحفظ فخرًا لابن القيم، لنميز عباراته، ولا سبقاً للهروي، لنبقي على استقلال الفاظه، فإن ذلك محفوف لهما في طبعة المدارج الكاملة، ولكن المهم ان نضع خلاصة تربوية بين يدي المربي والتعليم معاً، تعين على ترقيق قلوبهم، وتركيز نفوسهم، ولو أنني كنت صنعت هذا الذي صنعتُه تجاه كتاب محطوط لم يُنشر من قبل لجاز هذا الاعتراض علينا، ولكني لم أزد على ان اخترت منهجاً من أصل مطبوع متداول يسهل على طالب نصوصه الكاملة ان يظفر به.

● سَلَفِي وَصُوفِي معاً

وكان هذا الكتاب سيكون جامعاً ان شاء الله ، تجتمع عليه قلوب اصحاب المشارب المختلفة من المسلمين، فانه مجموعة تَمَانٍ وتقريرات سَلَفِيَّة، مشروحة مؤداة بِلُغَةٍ صُوفِيَّة. ولا تعجل فتذكر علينا أن لم نخلصه من هذه اللغة الصوفية، فإن القارئ بروية وامعان لهذا الكتاب النفيس سيُدرك — كما ادركنا — انه من ارقى ما دونته المدرسة السلفية، وانه لا يمكن تأدية نفس ما آذاه ابن القيم فيه اذا عَرَّينا اسلوبه عن هذه الاصطلاحات الصوفية، ولذلك لم نجد في الابقاء على مجاراته لاسلوب شيخ الاسلام الهروي ضيراً، طالما ان ابن القيم كان موقفاً في هذا الكتاب كما هو موفق في جميع كتاباته لبيان خطئ البدع والتمثيل والتأويل والتعطيل.

وملكني شعور في النهاية بأن فضل الله تعالى عليّ كبير حين الممني ان أجعل لاخواني دعاة الاسلام وعموم العابدين شغل خير بتهذيب المدارج والاشراف على طبعه، والترويج له، والحث على مطالعته، منذ سنوات من قبل طبعه، فملأت أوقاتهم بالضع وخواطر الجدة، وروّضت السنتهم على التلطف بالاقتوال اللطاف والرياق الواعظة، فضيّقت على وساوس السوء الثغرات التي تليج منها، وغزّلت الفاظ الشيطان ان تتحرك بها اللسان، وتلك نعمة يجب عليّ شكرها، وحسنة وُفِّقْتُ لها يحق لي أن أملاً قلبي سروراً بها، وانا أُرْجو كل منتفع من هذا التهذيب ان يطيل الاستغفار لي، نعتاً لتمهيدي درب فراره الى اله عز وجل، وأن يشكر لوزارة العدل والشؤون الاسلامية والاوقاف بدولة الامارات العربية المتحدة حُسن احتفالها بقديم القرن الهجري المبارك الخامس عشر، وحرصها على المشاركة في تمهيد الطريق للسالكين من خلال المساهمة بتبني الطبعة الاولى من هذه التوطئة لمدارج الايمان.

وكذلك هو الطريق الأعلى دائماً، يوصلنا اليه التواضع، والسجود، ونخفض الجناح،
والإحبات.
وفي كل آخِر يُلَق استئناف الحمد لرب رؤوف رحيم .

عبد المنعم صالح العلي العزّي
خبير البحوث الإسلامية
بوزارة العدل والشؤون الإسلامية والأوقاف
بدولة الامارات العربية المتحدة
محرم الحرام ١٤٠٢ هـ

مُؤْتَسِرٌ بِمُؤْتَسِرٍ

الشيخ محمد إمام الفقيه

الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين. والعاقبة للمتقين. ولا عدوان إلا على الظالمين. وصل الله وسلم وبارك على خاتم المرسلين، وإمام المهتدين. من اصطفاه الله ربنا، فأرسله رحمة للعالمين، وأحسن قدوة للمتقين. عبدالله ورسوله محمد، وعلى آله أجمعين. وجعلنا من آله وحزبه المفلحين في الدنيا و يوم الدين.

وبعد، فهذا كتاب «مدارج السالكين» تأليف شيخ الإسلام والمسلمين، القائم ببيان الحق ونصر الدين، الذاب — بما أوتى من قوة — عن سنة سيد المرسلين، الطاعن بسنان قلمه الحاد في نحور المبتدعين، القاطع بسيف حقه البتار أعناق المخرفين، ترجمان القرآن، ذي الفنون البديعة الحسان. اللهم من ربه القيام بالهدى والبيان، المؤيد من الله بواضح الحجة وناصع البرهان أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، المعروف بمواقفه الخالدة:

الزُّقْمِيُّ الْجَوْنِيُّ

غفر الله لنا وله وللمؤمنين، واسكنه فسيح جنته. وألحقنا به على صادق الإيمان حاول فيه — رحمه الله ورضى عنه — أن يجعل من كتاب «منازل السائرين» لأبي إسماعيل — عبد الله بن محمد بن علي المروى الحنبلي، المتوفى في سنة ٤٨١ هجرية — منارا يهدي إلى الرشد، ودليلا على صراط الله المستقيم.

وإنما يقوم هذا الإسلام على العبودية التامة بكل خصائصها للجميع، وأن تكون في كل مواضعها صادقة، بكل ذل وحب، واستسلام وإذعان وانقياد، وطاعة تامة لله رب العالمين. الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد. و (ليس كمثله شيء). وهو السميع البصير لا تجهل ولا تغفل ولا تنسى. ولا تقول على الله وفي الله، إلا ما قال الله. وقال رسوله. تشكر نعمة الله على الجميع في الإنسانية السمعية البصيرة العاقلة المميزة الكريمة. وفي هدى الفطرة وهدى الرسالة وتحرص أشد الحرص على إعطاء كل ذي حق حقه. مؤمنة بأن الله ماخلق

السموات والأرض وما بينهما باطلا. وإنما خلق كل شيء بالحق الثابت الذي لا يتغير بهي
الإنسان وجهه، وباطل أمانه، فالله ربنا هو الحق، ووعد الحق وقوله الحق، وكتب الحق،
وقضاؤه الحق.

ودين الجاهلية، دين شياطين الإنس والجن، دين أعداء الله وأعداء رسله. وأعداء أنفسهم:
يعتد كذلك. ويحاول أن يظلم ويتمكن (لأنه قد نالهم صراطك المستقيم. ثم لأنهم من
بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم. ولا تحمد أكثرهم شاكرين) ويروج
هذا الدين ويقوم على سوقه ويشدد كلما تكاثفت ظلمات الجاهلية التقليدية. وكلما انتشر غف
الإعراض والعمى عن آثار أسماء الله وصفاته في الأنفس والآفاق، وعن سنن الله وآياته في
الأنفس والآفاق. وعن كتبه وفهمها وتدبرها، وعن هدى رسله. فيضل الناس حيث طرقت
الرشد والخير. ويعصوا عن الحقائق الثابتة في السموات والأرض، وفي أنفسهم. ويشقون بغير فهم
هراء عدوهم الشيطان في كل واد من أودية الملكة. معرضين غافلين ناسين لآيات الله — في
الأنفس والآفاق — التي تذكرهم بأسمائه وصفاته (ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة
ضنكا. ونحشره يوم القيامة أعمى. قال رب لم حسرتني أعمى، وقد كنت بصيرا؟ قال:
كذلك أتتك آياتنا فكسيتها وكذلك اليوم تنسى. وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن
بآيات ربه. وللعذاب الآخرة أشد وأبقى).

ومن أعمى النظر والفكر في آيات الله الكونية. وآياته القرآنية. وتأمل وتدبر صادقا مخلصا —
بما آتاه الله من أسباب العلم والهدى في سمعه وبصره وعقله هو — في آي القرآن وقصصه
وتذكريه ووعدته ونذره وعبره. وألقى السمع وهو شهيد. فإنه ينكشف له تمام الانكشاف: أن
كل ما تشقى به البشرية اليوم — وفي كل عصر — من الكفر، والفسوق، والعصيان، إنما تولد
كله بحذافيره من طريق التقليد الأعمى، الذي زينه وأوحى به أعداء الرسل من شياطين الجن
والإنس. وزخرفوا القول به غورا (ولو شاء ربك مافعلوه. فذروهم وما يفترون. ولتصفي إليه
أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة. وليرسلوه وليفتروا ما هم مقترفون) من بدع يشرعونها،
وخرافات وأهواء يستحسنونها، وشهوات يروجونها، حتى تقسو عليها القلوب، فتظلم النفوس،
وتعمى القلوب التي في الصدور. وما أصدق نصيحة رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس لو
عقلوا ونصحو لا أنفسهم. إذ قال «ترككم على المحجة البيضاء، ليلها نهارها. لا يزيغ عنها
إلا هالك» وقال «تركتم فيكم ما إن تمسكتكم به لن تضلوا: كتاب الله وسنتي».

فما أشد حاجة البشرية — في شرق الأرض وغربها — اليوم إلى الرجوع إلى هذه المحبة البيضاء . مستسكين بحبل الله المتين . من هدى كلامه ، الذي لا يزال غضا طريا ، كما نزل به جبريل على صفوة خلقه ، وأكرم عباده ، وخاتم رسله ، من عند الله رب الناس . ملك الناس ، إليه الناس . — هدى وشفا لما في الصدور ، وهاديا لهم إلى التي هي أقوم في كل شأن وكل عمل . إنهم — والله — لو فعلوا ، ورجعوا إلى ربهم وإلى فهم كتابه صادقين مخلصين ، ولأنفسهم ناصحين : لهدوا إلى الطيب من القول ، وهدوا إلى صراط العزيز الحميد .

وفي الحق أن كتاب «مدارج السالكين» من خير ما كتب الإمام ابن القيم — وحسبك بإبن القيم — في تهذيب النفوس والأخلاق والتأديب بآداب المتقين الصادقين . مما يدل أوضح دلالة على أنه كان من أولئك المهتدين الصادقين . الذين طابت نفوسهم بتقوى الله ، واستنارت بصائرهم بهدى الله . وأنه — إن شاء الله — في جنة الرضوان مع المتقين الصادقين .

ولما كان مكان كتاب «مدارج السالكين» كذلك . وكانت الطبعة الاولى — التي طبعت في مطبعة المنار سنة ١٣٣٤ هـ — قد نفدت ، واشتد حرص الناس عليه ، وعظمت حاجتهم إليه بالأخص في هذا العصر الذي أغرق الناس فيه طوفان المادة ، واشتد تعلقهم بها ، وتعليق نجاحهم في كل شأن من الشؤون بأذيالها . فاشتعلت نيران العداوة والبغضاء بينهم ، واشتد الوحشية في كل مجتمعاتهم . واشتد لذلك متاعبهم ، وتضاعفت همومهم ، وتراكت أسباب الشقاء ، ونكد العيش ، وتضافرت المحن والفتن ، وألحت عليهم من كل ناحية ، متولدة من احتكاكات المادة ، وتركيز الانظار إليها ، وتكريس الجهود فيها . حتى صارت إلههم المسيطر على قلوبهم .

لأجل ذلك توجهت المهمة إلى طبعه هذه الطبعة المجودة الأنيقة . ليسد الحاجة الماسة إليه في عصر المادة . راجيا أن ينفع الله به ، ويجمع به إلى هذا النشاط المادي عند الناس ، صفاء الأرواح ، وتقوى النفوس ، وتهذيب الأخلاق . حتى يجعل الله للعرب والمسلمين — فيما آتاهم من الأسباب المادية ، والغنى والثراء الحاضر ، والمتنظر في المستقبل ، إن شاء الله — حياة عزيزة كريمة طيبة آمنة في ظل الإسلام ، على مثال ما كان عليه سلفنا الصالح رضي الله عنهم ، الذين جمع الله لهم الدين والدنيا . فمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم . وبدلهم من بعد خوفهم أمناً ، لأنهم كانوا يعبدونه لا يشركون به شيأ .

وكتبه فقير عفو الله

محمد حامد الفقي

١٣٧٥ هـ — ١٩٥٥ م

القاهرة

مَقَامُ الْإِزْقَامِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(وبه نستعين. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم)

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له رب العالمين، وإله المرسلين، وقيوم السموات والأرضين. وأشهد أن محمدا عبده ورسوله المبعوث بالكتاب المبين، الفارق بين الهدى والضلال، والقي والرشاد، والشك واليقين. أنزله لنقرأه تدبراً، وتأمله تبصراً، ونسعد به تذكراً، ونحمله على أحسن وجوهه ومعانيه، ونصدق به ونجتهد على إقامة أوامره ونواهيه. ونجتني ثمار علوه النافعة الموصلة إلى الله سبحانه من أشجاره، ورياحين الحكيم من بين رياضه وأزهاره. فهو كتابه الدالُّ عليه لمن أراد معرفته، وطريقه الموصلة لساكنها إليه، ونوره المبين الذي أشرقت له الظلمات، ورحته المهداة التي بها صلاح جميع المخلوقات، والسبب الواصل بينه وبين عباده إذا انقطعت الأسباب، وبابه الأعظم الذي منه الدخول، فلا يفلق إذا عُلِّقت الأبواب. وهو الصراط المستقيم الذي لا تحيل به الآراء، والذكر الحكيم الذي لا تزيف به الأهواء، والثقل الكريم الذي لا يشيع منه العلماء، لا تغني عجائبه، ولا تفلح سحائبه، ولا تنفسي آياته، ولا تختلف دلالاته، كلاً ازدادت البصائر فيه تأملاً وتفكيراً، زادها هداية وتبصيراً. وكلما تجسست مئنةً فجَّرها بنابيع الحكمة تفجيراً. فهو نور البصائر من عماها، وشفاء الصدور من أدوائها وجوَّهاها، وحياة القلوب، ولذة النفوس، ورياض القلوب، وحادي الأرواح، إلى بلاد الأفراح، والمنادى بالمساء والصباح: يا أهل الفلاح، حتى على الفلاح. نادى منادي الإيمان على رأس الصراط المستقيم (٤٦: ٣١) يا قومنا أجبوا داعي الله وأمنوا به يَغْفِرْ لَكُمْ من ذنوبكم وَيُجَزِّمْ من عذاب أليم).

ولقد كان كمال الإنسان بالعلم النافع، والعمل الصالح. وما الهدى ودين الحق، وبشكمله لغيره في هذين الأمرين، كما قال تعالى (وَالْقَصْرَ إِذْ يُسَاقَرُ فِيهِ السَّبْعُ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ. وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) أقم سبحانه أن كل أحد خاسر إلا من تحمّل قوته العلمية بالإيمان، وقوته العملية بالعمل الصالح، وكمل غيره

بالتوصية بالحق والصبر عليه، فالحق هو الإيمان والعمل، ولا يتيمان إلا بالصبر عليهما، والتواصي بهما — كان حقيقاً بالإنسان أن يُنفق ساعات عمره — بل أنفاسه — فيما ينال به المطالب العالية، ويُخلص به من الحسرات المبين. وليس ذلك إلا بالإقبال على القرآن وتفهمه وتدبره واستخراج كنوزه وإثارة ذمائه، وصرف العناية إليه، والعكوف بالهمة عليه. فإنه الكفيل بمصالح العباد، في المعاش والمعاد. والموصول لهم إلى سبيل الرشاد.

ونحن — بعمون الله — ننسب على هذا بالكلام على فاتحة الكتاب وأم القرآن، وعلى بعض ماتضمنته هذه السورة من هذه المطالب، وماتضمنته من الرد على جميع طوائف أهل البدع والضلال. وماتضمنته من منازل السائرين، ومقامات العارفين، والفرق بين وسائلها وغاياتها، وبيان أنه لا يقوم غير هذه السورة مقامها، ولا يسد مسدها. ولذلك لم ينزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في القرآن مثلاً.

والله المستعان، وعليه التكلان. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

• • •

فَاتِحَةُ طَالِبَاتِ الْعَالِيَةِ

اعلم أن هذه السورة اشتملت على أمهات المطالب العالية أتم اشتمال، وتضمنتها أكمل تضمن.

فاشتملت على التعريف بالمعبود - تبارك وتعالى - بثلاثة أسماء: مرجع الأسماء الحسنى والصفات العليا إليها، ومدارها عليها. وهي «الله، الرب، الرحمن» وبنيت السورة على الإلهية، والربوبية، والرحمة - «أيالك نعبد» مبنى على الإلهية. و«إياك نستعين» على الربوبية. وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم بصفة الرحمة. والحمد يتضمن الأمور الثلاثة. فهو المحمود في إلهيته، وربوبيته، ورحمته.

وتضمنت إثبات المعاد، وجزاء العباد بأعمالهم، حسنها وسيئها. وتفرّد الرب تعالى بالحكم إذ ذاك بين الخلاق، وكون حكمه بالعدل. وكل هذا تحت قوله «مالك يوم الدين».

وتضمنت إثبات النبوات من جهات عديدة.

أحدها: كونه رب العالمين. فلا يليق به أن يترك عباده شدى هتلاً لا يعرفهم ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم وما يضرهم فيهما، فهذا هضم للربوبية، ونسبة الرب تعالى إلى مالا يليق به. وما قدره حق قدره من نسبه إليه.

الثاني: أخذها من اسم «الله» وهو المألوه المعبود. ولا سبيل للعباد إلى معرفة عبادته إلا من طريق رسله.

الموضع الثالث: من اسمه «الرحمن» فإن رحمته تقع إجمال عباده، وعدم تعريفهم ما ينالون به غاية كمالهم. فمن أعطى اسم «الرحمن» حقه عرف أنه متضمن لإرسال الرسل، وإنزال الكتب، أعظم من تضمنه إنزال الفيث وإنبات الكلأ، وإخراج الحب. فاقضاء الرحمة لما تحصل به حياة القلوب والأرواح أعظم من اقتضائها لما تحصل به حياة الأبدان والأشباح، لكن المحجوبون إنما أدركوا من هذا الاسم حظ البهائم والدواب. وأدرك منه أولو الأبواب أمراً وراء ذلك.

الموضع الرابع: من ذكر «يوم الدين» فإنه اليوم الذي يدين الله العباد فيه بأعمالهم، فيثيبهم على الخيرات؛ ويعاقبهم على المعاصي والسيئات. وما كان الله ليعذب أحداً قبل إقامة

الحجة عليه. والحجة إنما قامت برسله وكتبه. وبهم اشتحق الثواب والعقاب. وبهم قام سوق يوم الدين. وسبق الأبرار إلى النعيم. والفجار إلى الجحيم.

الموضع الخامس: من قوله «أيالك تعبد» فإن ما يُعبد به الرب تعالى لا يكون إلا على ما يحبه ويرضاه. وعبادته — وهي شكره وحبه وخشيته — فطرى ومعقول للعقول السليمة. لكن طريق التعميد وما يُعبد به لا سبيل إلى معرفته إلا برسله وبيانهم. وفي هذا بيان أن إرسال الرسل أمر مستقر في العقول. يستحيل تعطيل العالم عنه، كما يستحيل تعطيله عن الصانع. فمن أنكر الرسول فقد أنكر المرسل. ولم يؤمن به. ولهذا جعل الله سبحانه الكفر برسله كفراً به.

الموضع السادس: من قوله «اهدنا الصراط المستقيم» فالهداية: هي البيان والدلالة، ثم التوفيق والإلهام، وهو بعد البيان والدلالة. ولا سبيل إلى البيان والدلالة إلا من جهة الرسل. فإذا حصل البيان والدلالة والتعريف ترتب عليه هداية التوفيق، وجعل الإيمان في القلب، وتوجيهه إليه، وتزيينه في القلب. وجعله مؤثراً له، راضياً به. راضياً فيه.

وهما هدايتان مستقلتان، لا يحصل الفلاح إلا بهما. وهما متضمنتان تعريف مالم نعلمه من الحق تفصيلاً وإجمالاً. وإلهامنا له، وجعلنا مريدين لا تبعاه ظاهراً وباطناً. ثم خلق القدرة على القيام بموجب الهدى بالقول والعمل والعزم. ثم ادامه ذلك لنا وتثبيتنا عليه إلى الوفاة. ومن هنا يعلم اضطرار العبد إلى سؤال هذه الدعوة فوق كل ضرورة، وبطلان قول من يقول: إذا كنا مهتدين، فكيف نسال الهداية؟ فإن المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم. ومالا نريد فعله تهاوناً وكسلاً مثل ما نريده، أو أكثر منه أو دونه. ومالا نقدر عليه — بما نريده — كذلك. وما نعرف جلسته ولا نهدي لتفاصيله فأمر يفوت الحصر. ونحن محتاجون إلى الهداية التامة. فمن كملت له هذه الأمور كان سؤال الهداية له سؤال التثبيت والدوام.

وللهداية مرتبة أخرى — وهي آخر مراتبها — وهي الهداية يوم القيامة إلى طريق الجنة. وهو الصراط الموصل إليها، فمن هدى في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم، الذي أرسل به رسله، وأنزل به كتبه، لهدى هناك إلى الصراط المستقيم، الموصل إلى جنته ودار ثوابه. وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار، يكون ثبوت قدمه على الصراط المنصوب على قسطن جهنم. وعلى قدر سيره على هذا الصراط يكون سيره على ذلك الصراط. فمنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالطرف، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كشدة الركاب، ومنهم من يسعى سعياً، ومنهم من يمشي مشياً، ومنهم من يحب حياً، ومنهم المخدوش المسلم، ومنهم المكردس في النار. فليُنظر العبد سيره على ذلك الصراط من سيره على هذا، حذو القذة بالقذة، جزاء وفاقا (هل تحزون إلا ما كنتم تعملون؟).

ولينظر الشبهات والشبهات التي تعوقه عن سيره على هذا الصراط المستقيم. فإنها الكلايب التي بتنتى ذاك الصراط ، تحطه وتعوقه عن المرور عليه. فإن كثرت هنا وقوت فكذلك هي هناك (وما ربك بظالم للعبيد).

فوال الهداية متضمن لحصول كل خير، والسلامة من كل شر.

الموضع السابع: من معرفة نفس المسؤول. وهو الصراط المستقيم. ولا تكون الطريق صراطاً حتى تتضمن خمسة أمور: الاستقامة، والإيصال إلى المقصود، والقرب، وسعة المارين عليه، وتبعية طريقاً للمقصود. ولا يخفى تضمن الصراط المستقيم لهذه الأمور الخمسة.

فوصفه بالاستقامة يتضمن قربه، لأن الخط المستقيم هو أقرب خط فاصل بين نقطتين. وكلما توجع طال وبعد. واستقامته تتضمن إيصاله إلى المقصود ونصبه لجميع من يمر عليه يستلزم سقته. وإضافته إلى المنعم عليهم، ووصفه بمخالفة صراط أهل الغضب والضلال، يستلزم تبعية طريقاً.

و «الصراط» تارة يضاف إلى الله، إذ هو الذي شرعه ونصبه، كقوله تعالى (١٥٣:٦) وأن هذا صراطي مستقيماً) وقوله (١٥٣:٤٢) وأنك لتهدى إلى صراط مستقيم: صراط الله) وتارة يضاف إلى العباد، كما في الفاتحة. لكونهم أهل سلوكه. وهو المنسوب لهم. وهم المارون عليه.

الموضع الثامن: من ذكر المنعم عليهم، وتبعية عن طائفتي الغضب والضلال.

فانقسم الناس بحسب معرفة الحق والعمل به إلى هذه الأقسام الثلاثة. لأن العبد إما أن يكون عالماً بالحق. أو جاهلاً به. والعالم بالحق إما أن يكون عاملاً بوجبه أو مخالفاً له. فهذه أقسام المكلفين. لا يخرجون عنها ألبتة. فالعالم بالحق العامل به: هو المنعم عليه. وهو الذي زكى نفسه بالعلم بالنافع والعمل الصالح. وهو المفلح (٩:٩١) قد أفلح من زكاه) والعالم به المتبع هو: هو المخطوب عليه. والجاهل بالحق: هو الضال. والمخطوب عليه ضال عن هداية العمل. والضال مخطوب عليه لضلاله عن العلم الموجب للعمل. فكل منهما ضال مخطوب عليه، ولكن تارك العمل بالحق بعد معرفته به أولى بوصف الغضب وأحق به. ومن هنا كان اليهود أحق به. وهو متغلظ في مجتهم. كقوله تعالى في حقهم (٩٠:٢) بشما اشتروا به أنفسهم: أن يكفروا بما أنزل الله بغيماً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده، فباءوا بغضب على غضب) وقال تعالى (٦٠:٥) قل هل أنبشكم بشر من ذلك فتوبة عند الله؟ من لعنه الله وغضب عليه، وجعل منهم القردة والخنازير وحبطة الطافوت. أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل) والجاهل بالحق: أحق باسم الضلال. ومن هنا وصفت النصارى به في قوله تعالى (٧٧:٥) قل يا أهل الكتاب لا تغفلوا في دينكم غير الحق، ولا تتبعوا أهواء قوم قد

هبطوا من قبل وأهملوا كثيراً ، وهبطوا عن سواء السبيل) فالأول: في سياق الخطاب مع اليهود . والثانية : في سياق مع النصارى. وفي الترمذي وصحيح ابن جبان. من حديث عدي ابن حاتم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «اليهود مغضوب عليهم. والنصارى هالكون».

ففي ذكر المنعم عليهم — وهم من عرف الحق واتبعه — والمغضوب عليهم — وهم من عرفه واتبع هواه — والضالين وهم من جهله — : ما يستلزم ثبوت الرسالة والنبوة . لأن انقسام الناس إلى ذلك هو الواقع المشهود . وهذه القسمة إنما أوجبها ثبوت الرسالة . وأضاف النعمة إليه ، وحذف فاعل الغضب لوجوه .

منها: أن النعمة هي الخير والفضل . والغضب من باب الانتقام والعدل . والرحمة تغلب الغضب ، فأضاف إلى نفسه أكمل الأمرين ، وأسبقهما وأتواهما . وهذه طريقة القرآن في إسناد الخيرات والنعمة إليه . وحذف الفاعل في مقابلتهما . كقول مؤمنى الجن (٧٢: ١٠) وأنا لآلئدرى أشرف أريد بمن في الأرض ، أم أراد بهم ربهم رشداً (٩١) ومنه قول الخضر في شأن الجدار واليتيمين (١٨: ٨٢) فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما) وقال في حرق السفينة (١٨: ٧٩) فأردت أن أعيبها) ثم قال بعد ذلك (وما فعلته عن أمري).

الوجه الثاني: أن الله سبحانه هو المنفرد بالنعمة (١٦: ٥٣) وما بكم من نعمة فمن الله) فأضيف إليه ما هو منفرد به . وإن أضيف إلى غيره فلكونه طريقاً وتبشيراً للنعمة . وأما الغضب على أعدائه: فلا يختص به تعالى ، بل ملائكته وأنبيأؤه وأوليأؤه يفضيرون لغضبه . فكان في لفظة «المغضوب عليهم» موافقة أوليائه له: من الدلالة على تفردّه بالإتعام ، وأن النعمة المطلقة منه وحده ، هو المنفرد بها — مالم يس في لفظة «المنعم عليهم» .

الوجه الثالث: أن في حذف فاعل الغضب من الإشعار بإهانة المغضوب عليه ، وتحقيره وتصغير شأنه مالم يس في ذكر فاعل النعمة ، من إكرام المنعم عليه والإشادة بذكوره ، ورفع قدره ، مالم يس في حذفه ، فإذا رأيت من قد أكرمه ملك وشرفه ، ورفع قدره قللت: هذا الذي أكرمه السلطان ، وخلع عليه وأعطاه ماتقناه . كان أبلغ في الثناء والتعظيم من قولك: هذا الذي أكرم وخلع عليه وشرف وأعطى .

وتأمل سراً بديعاً في ذكر السبب والجزاء للطوائف الثلاثة بأوجز لفظ وأخصره . فإن الإتمام عليهم يتضمن إنعامه بالمهداية ، التي هي العلم النافع والعمل الصالح . وهي الهدى ودين الحق ، ويتضمن كمال الإتمام بحسن الثواب والجزاء . فهذا تمام النعمة . ولفظ «أنعمت عليهم» يتضمن الأمرين .

وذكر غضبه على المغضوب عليهم يتضمن أيضاً أمرين: الجزاء بالغضب الذي موجه غاية

العذاب والهوان، والسبب الذي استحقوا به غضبه سبحانه. فإنه أرجح وأراف من أن يغضب بلا جناية منهم ولا ضلال؛ فكان الغضب عليهم مستلزم لضلالهم. وذكر الضالين مستلزم لغضبه عليهم وعقابه لهم. فإن من ضل استحق العقوبة التي هي موجب ضلاله، وغضب الله عليه. فاستلزم وصف كل واحد من الطوائف الثلاث للسبب والجزاء أئين استلزام، واقتضاه أكمل اقتضاء، في غاية الایجاز والبيان والفصاحة، مع ذكر الفاعل في أهل السعادة، وحذفه في أهل الغضب. وإسناد الفعل إلى السبب في أهل الضلال.

وتأمل المقابلة بين الهداية والنعمة، والغضب والضلال. فذكر «المغضوب عليهم» و«الضالين» في مقابلة المهتين النعم عليهم. وهذا كثير في القرآن، يقرن بين الضلال والشقاء، وبين الهدى والفلاح. فالثاني كقوله (٤: ٢) أولئك على هدى من ربهم، وأولئك هم المفلحون وقوله (٨٢: ٦) أولئك هم الأمن وهم مهتدون) والأول كقوله تعالى (٤٧: ٥٤) إن المجرمين في ضلال وسوء وقوله (٧: ٢) ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم، وعلى أبصارهم غشاوة. ولهم عذاب عظيم) وقد جمع سبحانه بين الأمور الأربعة في قوله (١٢٣: ٢٠) فإذا يأتينكم منى الهدى، فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى) فهذا الهدى والسعادة. ثم قال (١٤: ٢٠) ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً. ونحشره يوم القيامة أعمى. قال: رب لم حشرتني أعمى، وقد كنت بصيراً؟ قال: كذلك أتتك آياتنا فنسيتها، وكذلك اليوم نُنسى) فذكر الضلال والشقاء. قاهدى والسعادة متلازمان. والضلال والشقاء متلازمان.

● الهداية تورث الاستعلاء

وذكر «الصراط المستقيم» مفرداً معرباً تعريفين: تعريفاً باللام، وتعريفاً بالاضافة. وذلك يفيد تعيينه واختصاصه، وأنه صراط واحد. وأما طرق أهل الغضب والضلال فإنه يجمعها ويقردها، كقوله (١٥٣: ٦) وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) فوجد لفظ «الصراط» و«سبيله». وجمع «السبل» المخالفة له. وقال ابن مسعود «خلق لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاً وقال: هذا سبيل الله، ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن يساره، وقال: هذه سبل، على كل سبيل شيطان يدعو إليه، ثم قرأ قوله تعالى (وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله). ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) وهذا لأن الطريق الموصل إلى الله واحد. وهو ما بحث به رسله وأنزل به كتبه. لا يصل إليه أحد إلا من هذا الطريق. ولو أتى الناس من كل طريق، واستفتحوا

من كل باب ، فالطرق عليهم مسدودة ، والابواب عليهم مغلقة ، إلا من هذا الطريق الواحد . فإنه متصل بالله ، موصل إلى الله . قال الله تعالى (١٥ : ٤١) هذا صراط علي مستقيم قال الحسن : معناه صراط إلى مستقيم . وهذا يحتمل أمرين : أن يكون أراد به أنه من باب إقامة الأدوات بعضها مقام بعض فقامت أداة «على» مقام «إلى» والثاني : أنه أراد التفسير على المعنى . وهو الأشبه بطريق السلف . أي صراط موصل إلى . وقال مجاهد : الحق يرجع إلى الله ، وعليه طريقه ، لا يتعرج على شيء . وهذا مثل قول الحسن وأبين منه . وهو من أصح ما قيل في الآية . وقيل : «على» فيه للوجوب ، أي عليّ بيانه وتعريفه والدلالة عليه . والقولان نظير القولين في آية النحل . وهي (١٦ : ٩) وعلى الله قصد السبيل) والصحيح فيها كالصحيح في آية الحجر : أن السبيل المقاصد — وهو المستقيم المعتدل — يرجع إلى الله — ويوصل إليه . قال طفيف الفتوى .

تَصَوُّوا سَلَفًا ، قَصَّدَ السَّبِيلَ عَلَيْهِمْ وَصَرَّفَ الْمَنَایَا بِالرِّجَالِ تَتَقَلَّبُ
أَي عَمَرْنَا عَلَيْهِمْ ، وَرَالِهِمْ وَصَوَّلْنَا . وَقَالَ الْآخَرُ :

فَهَنَ الْمَنَایَا : أَي وَادَ سَلَكُوهَ عَلَيْهَا طَرِيقِي ، أَوْ عَلَيَّ طَرِيقَهَا

فإن قيل : لو أريد هذا المعنى لكان الأليق به أداة «إلى» التي هي للانتهاء ، لا أداة «على» التي هي للوجوب . ألا ترى أنه لما أراد الوصول قال (٨٨ : ٢٢ ، ٢٣) إِنْ إِلَيْنَا يَأْتِيهِمْ ، ثُمَّ إِنْ عَلَيْنَا حِسَابُهُمْ) وقال (٣٠ : ٢٣) إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ) وقال (٦ : ١٠٨) ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ) وقال لما أراد الوجوب (٨٨ : ٢٦) إِنْ عَلَيْنَا حِسَابُهُمْ) وقال (٧٥ : ١٧) إِنْ عَلَيْنَا جُمُعَهُ وَقُرْآنَهُ) وقال (٦ : ٣٨) وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا) ونظائر ذلك ؟ .
قيل : في أداة «على» سر لطيف . وهو الاشارة بكون السالك على هذا الصراط على هدى . وهو حق . كما قال في حق المؤمنين (٢ : ٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ) وقال لرسوله صل الله عليه وسلم (٢٧ : ٢٩) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ) والله عز وجل هو الحق ، وصراطه حق ، ودينه حق ، فمن استقام على صراطه فهو على الحق والهدى . فكان في أداة «على» على هذا المعنى ما ليس في أداة «إلى» فتأمل ، فإنه سر بديع .
فإن قلت : فما الفائدة في ذكر «على» في ذلك أيضاً . وكيف يكون المؤمن مستعلياً على الحق ، وعلى الهدى ؟ .

قلت : لما فيه من استعلاجه وعلوه بالحق والهدى ، مع ثباته عليه ، واستقامته إليه . فكان في الإتيان بأداة «على» ما يدل على علوه وثبوته واستقامته . وهذا بخلاف الضلال والريب . فإنه يؤتَى فيه بأداة «في» الدالة على انغماس صاحبه ، وانغماسه وتدبسه فيه ، كقوله تعالى (٩ : ٤٥)

فهم في ربهم يترددون) وقوله (٣٩:٦) والذين كذبوا بآياتنا صُمُّ بُكْمٌ في الظلمات) وقوله (٢٤:٢٣) فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ) وقوله (١٤:٤٢) وَأَنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ).
وتأمل قوله تعالى (٢٤:٣٤) وَإِنَّا أَوْيَاكُمْ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) فإن طريق الحق تأخذ علواً صاعدة بصاحبها إلى العلى الكبير، وطريق الضلال تأخذ سُفْلاً، هاوية بسالكها في أسفل سافلين.

● إن ربي على صراط مستقيم

والصراط المستقيم: هو صراط الله. وهو يخبر أن الصراط عليه سبحانه، كما ذكرنا، ويخبر أنه سبحانه على الصراط المستقيم. وهذا في موضعين من القرآن: في هود، والنحل. قال في هود (٥٦:١١) مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا، إن ربي على صراط مستقيم) وقال في النحل (٧٦:١٦) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا: رَجُلَيْنِ، أَحَدُهُمَا أَنْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ، وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ، أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ، هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ؟) فهذا مثل ضربه الله للأصنام التي لا تسمع. ولا تنطق ولا تعقل، وهي كَلٌّ على عابدها، يحتاج الصنم إلى أن يحمله عابده، ويضعه و يقيمه ويخدمه. فكيف يسوونه في العادة بالله الذي يأمر بالعدل والتوحيد؟ وهو قادر متكلم، غنى. وهو على صراط مستقيم في قوله وفعله. فقلوه صدق ورشد ونصح وهدى. وفعله حكمة وعدل ورحمة ومصلحة. هذا أصح الأقوال في الآية. وهو الذي لم يذكر كثير من المفسرين غيره.

ودلالته لنا على الصراط هي من موجب كونه سبحانه على الصراط المستقيم. فإن دلالة بفعله وقوله، وهو على الصراط المستقيم في أفعاله وأقواله. فلا يناقض قول من قال: إنه سبحانه على الصراط المستقيم.

قال : وقيل: هو رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بالعدل . وهو على صراط مستقيم.
قلت: وهذا حق لا يناقض القول الأول. فالله على الصراط المستقيم، ورسوله عليه. فإنه لا يأمر ولا يفعل إلا مقتضاه وموجبه. وعلى هذا يكون المثل مضروباً لإمام الكفار وهادبيهم، وهو الصنم الذي هو أنكم، لا يقدر على هدى ولا خير. وإمام الأبرار، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم.
وعلى القول الأول : يكون مضروباً لمعبود الكفار ومعبود الأبرار. والقولان متلازمان.

فبعضهم ذكر هذا. وبعضهم ذكر هذا. وكلاهما مراد من الآية. قال، وقيل: كلاهما للمؤمن والكافر. يرويه عطية عن ابن عباس. وقال عطاء: ألا بكم أبي بن خلف، ومن يأمر بالعدل: حمزة وعثمان بن عفان، وعثمان بن مظعون.

قلت: والآية محتملة، ولا يناقض القولين قبله، فإن الله على صراط مستقيم، ورسوله وأتباع رسوله. ضد ذلك: معبود الكفار وهاديتهم، والكافر التابع والتبوع والمعبود. فيكون بعض السلف ذكر أعلى الأنواع. وبعضهم ذكر الهادى. وبعضهم ذكر المستجيب القابل. وتكون الآية متناولة لذلك كله. ولذلك نظائر كثيرة في القرآن.

وأما آية هود: فصرحة لا تحتمل إلا معنى واحداً. وهو أن الله سبحانه على صراط مستقيم. وهو سبحانه أحق من كان على صراط مستقيم. فإن أقواله كلها صدق ورشد وهدى وعدل وحكمة (١١٥:٦) وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً، وأفعاله كلها مصالح وحكم، ورحمة وعدل وخير، فالشر لا يدخل في أفعاله ولا أقواله البتة، لخروج الشر عن الصراط المستقيم. فكيف يدخل في أفعال من هو على الصراط المستقيم، أو أقواله؟ وإنما يدخل في أفعال من خرج عنه وفي أقواله.

وفي دعائه عليه الصلاة والسلام «إليك وسعديك، والخير كله بيدك، والشر ليس إليك» ولا يلتفت إلى تفسير من فسره بقوله: والشر لا يقترب به إليك، أو لا يصعد إليك. فإن المعنى أجل من ذلك، وأكبر وأعظم قدراً. فإن من أسماؤه كلها حسنى، وأوصافه كلها كمال، وأفعاله كلها حكم، وأقواله كلها صدق وعدل: يستجبل دخول الشر في أسماؤه أو أوصافه، أو أفعاله أو أقواله. فطابق بين هذا المعنى وبين قوله (إن ربي على صراط مستقيم) وتأمل كيف ذكر هذا عقيب قوله (١١:٥٦) إني توكلت على الله ربي وربكم أي هو ربي، فلا يسلمنى ولا يضيعنى. وهو ربكم فلا يسلطكم على ولا يمكنكم منى. فإن نواصيكم بيده، لا تفعلون شيئاً بدون مشيئته. فإن ناصية كل دابة بيده، لا يمكنها أن تتحرك إلا بإذنه. فهو المتصرف فيها. ومع هذا، فهو في تصرفه فيها وتحريره لها، ونفوذ قضائه وقدره فيها: على صراط مستقيم. لا يفعل ما يفعل من ذلك إلا بحكمة وعدل ومصلحة. ولو سلطكم على قله من الحكمة في ذلك ماله الحمد عليه. لأنه تسليط من هو على صراط مستقيم. لا يظلم ولا يفعل شيئاً عبثاً بغير حكمة.

• وَخْشَةُ التَّفَرُّدِ عِلَاجُهَا عَدَمُ الْاِتِّفَاتِ

ولما كان طالب الصراط المستقيم طالب أمر أكثر الناس فأكبر، مريداً لسلوك طريقه. سرافقه فيها في غاية القلة والعزلة. والنفوس مجبولة على وحشة التفرد، وعمل الأُنس بالرفيق، نه

الله سبحانه على الرفيق في هذا الطريق، وأنهم هم الذين (أنعم الله عليهم من النبيين
والمصديقين والشهداء والصالحين. وحسن أولئك رفيقاً) فأضاف الصراط إلى الرفيق
السالكين له. وهم الذين أنعم الله عليهم، ليزول عن الطالب للهداية وسلك الصراط وحشة
تفرده عن أهل زمانه وبنى جسده. وليعلم أن رفيقه في هذا الصراط: هم الذين أنعم الله عليهم.
فلا يكثر بمخالفة الناكين عنه له. فإنهم هم الأقولون قدراً، وإن كانوا الأكثرين عدداً، كما
قال بعض السلف «عليك بطريق الحق، ولا تستوحش لقلة السالكين. وإياك وطريق الباطل،
ولا تنفتر بكثرة الهالكين» وكلما استوحشت في تفردك فانظر إلى الرفيق السابق، واحرص على
اللاحاق بهم. وغض الطرف عن سواهم. فإنهم لن يفتنوا عنك من الله شيئاً. وإذا صاحوا بك
في طريق سيرك، فلا تلتفت إليهم. فإنك متى التفت إليهم أخذوك وعاقوك.
وقد ضربت لذلك مثلين. فليكونا منك على بال.

المثل الأول: رجل خرج من بيته إلى الصلاة، لا يريد غيرها. ففرض له في طريقه شيطان
من شياطين الإنس، فألقى عليه كلاماً يؤذيه. فوقف ورد عليه، وتماسكا. فرما كان شيطان
الإنس أقوى منه، فتهرأ، ومنعه عن الوصول إلى المسجد، حتى فاته الصلاة. وربما كان الرجل
أقوى من شيطان الإنس، ولكن اشتغل بمهاوشته عن الصف الأول، وكما إدراك الجماعة.
فإن التفت إليه أطمعه في نفسه. وربما فترت عزيمته. فإن كان له معرفة وعلم زاد في السعي بقدر
التفاتة أو أكثر. فإن أعرض عنه واشتغل بما هو بصدد، وخاف فوت الصلاة أو الوقت: لم يبلغ
عدوه منه ما شاء.

المثل الثاني: الظبي أشد سعيًا من الكلب، ولكنه إذا أحس به التفت إليه فيضعف سعيه.
فيدركه الكلب فيأخذه.

والقصد: أن في ذكر هذا الرفيق: ما يزيل وحشة التفرد، ويحث على السير والتشمير لللاحق
بهم.

وهذه إحدى الفوائد في دعاء القنوت «اللهم اهدني فيمن هديت» أي أدخلني في هذه
الزمرة، واجعلني رفيقاً لهم ومعهم.

والفائدة الثانية: أنه توسل إلى الله بنعمه، وإحسانه إلى من أنعم عليه بالهداية أي قد أنعمت
بالهداية على من هديت، وكان ذلك نعمة منك، فاجعل لي نصيباً من هذه النعمة، واجعلني
واحداً من هؤلاء النعم عليهم. فهو توسل إلى الله بإحسانه.

والفائدة الثالثة: كما يقول السائل للكریم: تصدق علىّ في جملة من تصدقت عليهم.
وعلمي في جملة من علمته. وأحسن إليّ في جملة من شملته بإحسانك.

• تتوسل الى الله باسمائه وبعبوديته

ولما كان سؤال الله الهداية إلى الصراط المستقيم أجل المطالب ، وتبَّله أشرف المواهب : علم الله عباده كيفية سؤاله ، وأمرهم أن يقدموا بين يديه حمده والثناء عليه ، وتمجيدته . ثم ذكر عبوديتهم وتوحيدهم . فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم . توسل إليه باسمائه وصفاته ، وتوسل إليه بعبوديته . وهاتان الوسيلتان لا يكاد يرد معهما الدعاء . ويؤيدهما الوسيلتان المذكورتان في حديثي الاسم الأعظم اللذين رواهما ابن حبان في صحيحه . والإمام أحمد والترمذي .

أحدهما : حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه قال «سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً يدعو ، ويقول : اللهم إني أسألك بأنني أشهد أنك الله الذي لا إله إلا أنت ، الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد . فقال : والذي نفسي بيده ، لقد سألك الله باسمه الأعظم ، الذي إذا دُعي به أجاب ، وإذا سئل به أعطى» قال الترمذي : حديث صحيح . فهذا توسل إلى الله بتوحيده ، وشهادة الداعي له بالوحدانية . وثبوت صفاته المدلول عليها باسم «الصمد» وهو كما قال ابن عباس «العالم الذي كمل علمه ، القادر الذي كملت قدرته» وفي رواية عنه «هو السيد الذي قد كمل فيه جميع أنواع السؤدد» وقال أبو وائل «هو السيد الذي انتهى سؤدده» وقال سعيد بن جبير «هو الكامل في جميع صفاته وأفعاله وأقواله» وبنفي التشبيه والتشليل عنه بقوله «ولم يكن له كفواً أحد» وهذه ترجمة عقيدة أهل السنة . والتوسل بالإيمان بذلك ، والشهادة به هو الاسم الأعظم .

والثاني : حديث أنس «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلاً يدعو : اللهم إني أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت ، المتأن ، بديع السموات والأرض . ذا الجلال والإكرام ، يا حي يا قيوم . فقال : لقد سألك الله باسمه الأعظم» فهذا توسل إليه باسمائه وصفاته .

وقد جمعت الفاتحة الوسيلتين وهما التوسل بالحمد ، والثناء عليه وتمجيدته ، والتوسل إليه بعبوديته وتوحيده . ثم جاء سؤال أهم المطالب ، وأنجح الرغائب . وهو الهداية بعد الوسيلتين . فالداعي به حقيق بالإجابة .

وتظير هذا : دعاء النبي صلى الله عليه وسلم ، الذي كان يدعو به إذا قام يصلي من الليل . رواه البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس «اللهم لك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن . ولك الحمد ، أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن . ولك الحمد ،

انت الحق، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق، والجنة حق ، والنار حق، والنبيون حق،
والساعة حق، ومحمد حق، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك
أنبت. وبك خاصمت ، وإليك حاكمت . فاغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت
وما أعنتت ، أنت إلهي لا إله إلا أنت» فذكر التوسل إليه بحمده والثناء عليه وبعبوديته له .
ثم سأله المغفرة.

فَلَمْ يَخْشَ التَّوْحِيدَ

تشتمل الفاتحة على أنواع التوحيد الثلاثة التي اتفقت عليها الرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

والتوحيد نوعان: نوع في العلم والاعتقاد. ونوع في الإرادة والقصد. ويسمى الأول: التوحيد العلمي. والثاني: التوحيد القصدي الإرادي. لتعلق الأول بالأخبار والمعرفة. والثاني بالقصد والإرادة. وهذا الثاني أيضاً نوعان: توحيد في الربوبية، وتوحيد في الإلهية. فهذه ثلاثة أنواع.

فأما توحيد العلم: فمداره على إثبات صفات الكمال، وعلى نفي التشبيه والمثال. والتنزيه عن العيوب والنقائص. وقد دل على هذا شيان: مجمل، ومفصل. أما المجمل: فإثبات الحمد له سبحانه. وأما المفصل: فذكر صفة الإلهية والربوبية، ورحمة الملك. وعلى هذه الأربع مدار الاسماء والصفات.

فأما تضمن الحمد لذلك: فإن الحمد يتضمن مدح المحمود بصفات كماله، ونعوت جلاله، مع محبته والرضا عنه، والخضوع له. فلا يكون حامداً من جحد صفات المحمود، ولا من أعرض عن محبته والخضوع له. وكلما كانت صفات كمال المحمود أكثر كان حمده أكمل، وكلما نقص من صفات كماله نقص من حمده بحسبها. ولهذا كان الحمد كله لله حمداً لا يحصيه سواه، لكمال صفاته وكثرتها. ولأجل هذا لا يحصى أحد من خلقه ثناء عليه، لما له من صفات الكمال ونعوت الجلال التي لا يحصيها سواه. ولهذا ذم الله تعالى آلهة الكفار، وعابها بسلب أوصاف الكمال عنها. فعابها بأنها لا تسمع ولا تبصر، ولا تتكلم ولا تهدي، ولا تنفع ولا تضر. وهذه صفة إله الجهمية، التي عاب بها الأصنام، نسبوها إليه، تعالى الله عما يقول الظالمون وجاهدون علواً كبيراً. فقال تعالى حكاية عن خليله إبراهيم عليه السلام في حاجته لأبيه (٢٢: ١٩) يا أبت لم تعبد إلا ما يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً؟ فلو كان إله إبراهيم بهذه الصفة والمثابة لقال له أزر: وأنت إلهك بهذه المثابة، فكيف تنكر علي؟ لكن كان — مع شركه — اعرف بالله من الجهمية وكذلك كفار قريش كانوا — مع شركهم — مقربين بصفات انصانع سبحانه وعلوه على خلقه. وقال تعالى (١٤٨: ٧) واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار. ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً؟ اغذوه وكانوا

ظالمين) غلو كان إله الخلق سبحانه كذلك لم يكن في هذا إنكار عليهم، واستدلال على بطلان الإلهية بذلك.

فإن قيل : قاله تعالى لا يكلم عباده.

قيل: بل، قد كلمهم. فمنهم من كلمه الله من وراء حجاب، منه إليه بلا واسطة، كموسى . ومنهم من كلمه الله على لسان رسوله الملكي. وهم الأنبياء. وكلم الله سائر الناس على ألسنة رسله . فأنزل عليهم كلامه الذي بلغته رسله عنه.

وقالوا لهم : هذا كلام الله الذي تكلم به، وأمرنا بتبليغه إليكم. ومن ههنا قال السلف: من أنكر كون الله متكلماً فقد أنكر رسالة الرسل كلهم. لأن حقيقتها تبليغ كلامه الذي تكلم به إلى عباده. فإذا انتفى كلامه انتفت الرسالة. وقال تعالى في سورة طه عن السامري (٢٠: ٨٨) فأخرجهم عجلًا جسداً له خوار، فقالوا: هذا إلهكم وإله موسى، فنسى . أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا، ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً؟) وزبح القول: هو التكلم والتكليم. وقال تعالى (١٦: ٧٦) ضرب الله مثلاً: رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء، وهو كلٌّ على هوله، أينما يوجهه لا يأت بخير، هل يستوي هو ومن بأمر بالعدل، وهو على صراط مستقيم؟) فجعل نفى صفة الكلام موجبا لبطلان الإلهية. وهذا أمر معلوم بالفطر والعقول السليمة والكتب السماوية: أن فاقد صفات الكمال لا يكون إلهاً، ولا مدبراً، ولا رباً، بل هو مذموم، معيب ناقص، ليس له الحمد، لافي الأولى، ولا في الآخرة. وإنما الحمد في الأولى والآخرة لمن له صفات الكمال، ونعوت الجلال، التي لأجلها استحق الحمد. ولهذا سعى السلف كتبهم التي صنّفوها في السنة، وإثبات صفات الرب علوه على خلقه، وكلامه وتكليمه: توحيداً. لأن نفى ذلك وإنكاره والكفر به إنكار للصانع، وجحد له. وإنما توحيده: إثبات صفات كماله، وتزويه عن التشبيه والنقائص. فجعل المصلحة جحد الصفات وتعطيل الصانع عنها توحيداً. وجعلوا إثباتها لله تشبيهاً وتجبساً وتركيباً. فسموا الباطل باسم الحق، ترغيباً فيه، وزخرفاً يُنفقونه به. وسموا الحق باسم الباطل تنفيراً عنه. والناس أكثرهم ليس لهم نقد النقاد (١٨: ١٧) من يهد الله فهو المهتدي . ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً) والمحمود لا يحمده على العدم والسكوت أبته، إلا إذا كانت سلب عيوب ونقائص، تتضمن إثبات أضدادها من الكمالات الثبوتية، وإلا فالسلب المحض لا يحد فيه، ولا مدح ولا كمال.

وكذلك حمده لنفسه على عدم اتخاذ الولد المتضمن لكمال صمدية وغناه وملكوته، وتعبيد كل شيء له. فاتخاذ الولد ينفي ذلك، كما قال تعالى (١٠: ٩٧) قالوا اتخذ الله ولداً، سبحانه، هو الغني . له مافي السموات ومافي الأرض).

وحد نفسه على عدم الشريك، المتضمن تفرد بالربوبية والإلهية، وتوحده بصفات الكمال التي لا يوصف بها غيره، فيكون شريكاً له . فلو عدمها لكان كل موجود أكمل منه . لأن الموجود أكمل من المعدوم . ولهذا لا يحمده نفسه سبحانه بعدم إلا إذا كان متضمناً لثبوت كمال . كما حمد نفسه بكونه لا يموت لتضمنه كمال حياته . وحمد نفسه بكونه لا تأخذه سنة ولا نوم، لتضمن ذلك كمال قيوميته . وحمد نفسه بأنه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، لكمال علمه وإحاطته . وحمد نفسه بأنه لا يظلم أحداً، لكمال عدله وإحسانه . وحمد نفسه بأنه لا تدركه الأبصار ، لكمال عظمته ، لا يرى ولا يدرك ، كما أنه يعلم ولا يحاط به علماً . فمجرد نفي الرؤية ليس بكمال . لأن العدم لا يرى . فليس في كون الشيء لا يرى كمال ألبتة . وإنما الكمال في كونه لا يحاط به رؤية ولا إدراكاً ، لعظمته في نفسه، وتعاليه عن إدراك المخلوق له وكذلك حمد نفسه بعدم الغفلة والنسيان، لكمال علمه .

فكل سلب في القرآن حمد الله به نفسه فلمضادته لثبوت ضده، وتضمنه كمال ثبوت ضده . فقلت أن حقيقة الحمد تابعة لثبوت أوصاف الكمال ، وأن نفيها نفي لحمده، ونفي الحمد مستلزم لثبوت ضده .

● لاننفي معاني الاسماء

فهذه دلالة على توحيد الأسماء والصفات .
وأما دلالة الأسماء الخمسة عليها، وهي «الله، والرب، الرحمن، الرحيم، والملك» فمبنى على أصلين:

أحدهما: أن أسماء الرب تبارك وتعالى دالة على صفات كماله . فهي مشتقة من الصفات . فهي أسماء، وهي أوصاف . وبذلك كانت حُشِي، إذ لو كانت ألفاظاً لامعاني فيها لم تكن حسنى، ولا كانت دالة على مدح ولا كمال . ولساغ وقوع أسماء الانتقام والغضب في مقام الرحمة والإحسان، وبالعكس . فيقال: اللهم إني ظلمت نفسي، فاغفر لي إنك أنت المنتقم . واللهم أعطني، فإنك أنت الضار المانع، ونحو ذلك .

ونفى معاني أسمائه الحسنى من أعظم الإلحاد فيها . قال تعالى (٧: ١٧٠) وذروا الذين يلحدون في أسمائه، سيجزون ما كانوا يعملون) ولأنها لو لم تدل على معان وأوصاف لم يجز أن يخبر عنها بمصادرها ويوصف بها . لكن الله أخبر عن نفسه بمصادرها، وأثبتها لنفسه، وأثبتها له رسوله، كقوله تعالى (٥١: ٥٨) إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) فلم أن «القرئ» من أسمائه، ومعناه الموصوف بالقوة . وكذلك قوله (٣٥: ١٠) قلله العزة جميعاً)

فالمعزى من له العزة، فلولا ثبوت القوة والعزة له لم يسم قوياً ولا عزيزاً. وكذلك قوله (١٦٦:٤) أنزله بعلمه (١٤:١١) فاعلموا أنما أنزل بعلم الله) .

وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» فأثبت المصدر الذي اشتق منه اسمه «البصير».

وفي صحيح البخاري عن عائشة رضى الله عنها «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات».

وفي الصحيح حديث الاستخارة «اللهم إني أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك» فهو قادر بقدره.

وقال تعالى لموسى (١٤٤:٧) إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي) فهو متكلم بكلام.

وهو العظيم الذي له العظمة ، كما في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم «يقول الله تعالى: العظمة إزاري، والكبرياء ردائي» وهو الحكيم الذي له الحكم (١٢:٤٠) فالحكم لله الخلق الكبير، وأجمع المسلمون أنه لو حلف بحياة الله، أو سمعه، أو بصره، أو قوته، أو عزته، أو عظمت: انعدت يمينه، وكانت مكفرة. لأن هذه صفات كماله التي اشتقت منها أسماءه.

وأيضاً : لو لم تكن أسماءه مشتملة على معان وصفات لم يسع أن يخبر عنه بأفعالها. فلا يقال: يسمع ويرى، ويعلم ويقدر ويريد. فإن ثبوت أحكام الصفات فرع ثبوتها. فإذا انتفى أصل الصفة انتحال ثبوت حكمها.

وأيضاً فلولم تكن أسماءه ذوات معان وأوصاف لكانت جامدة كالأعلام المحضة، التي لم توضع لمسماها باعتبار معنى قام به. فكانت كلها سواء، ولم يكن فرق بين مدلولاتها. وهذا مكابرة صريحة، وبهتة بئس. فإن من جعل معنى اسم «التقدير» هو معنى اسم «السميع، البصير» ومعنى اسم «التواب» هو معنى اسم «المنتقم» ومعنى اسم «المعطي» هو معنى اسم «المانع» فقد كابر العقل واللغة والفطرة.

فتفى معاني أسمائه من أعظم الإلحاد فيها.

• ضرورة فهم لوازم الصفات

الأصل الثاني: أن الاسم من أسمائه تبارك وتعالى كما يدل على الذات والصفة التي اشتق منها بالمطابقة، فإنه يدل عليه دالتين أخريين بالتضمن واللزم. فيدل على الصفة بمفردها بالتضمن، وكذلك على الذات المجردة عن الصفة. ويدل على الصفة الأخرى باللزم. فإن اسم «السميع» يدل على ذات الرب وسمعه بالمطابقة. وعلى الذات وحدها. وعلى السمع وحده بالتضمن. ويدل على اسم «الحي» وصفة الحياة بالالتزام. وكذلك سائر أسمائه وصفاته. ولكن يتفاوت الناس في معرفة اللزوم وعدمه ومن ههنا يقع اختلافهم في كثير من الأسماء والصفات والأحكام. فإن من علم أن الفعل الاختياري لازم للحياة، وأن السمع والبصر لازم للحياة الكاملة، وأن سائر الكمال من لوازم الحياة الكاملة؛ أثبت من أسماء الرب وصفاته وأفعاله ما ينكره من لم يعرف لزوم ذلك، ولا عرف حقيقة الحياة ولوازمها، وكذلك سائر صفاته.

فإن اسم «العظيم» له لوازم ينكرها من لم يعرف عظمة الله ولوازمها.

وكذلك اسم «العلي» واسم «الحكيم» وسائر أسمائه، فإن من لوازم اسم «العلي» العلو المطلق، بكل اعتبار. فله العلو المطلق من جميع الوجوه: علو القدر، وعلو القهر، وعلو الذات. فمن جحد علو الذات فقد جحد لوازم اسمه «العلي».

وكذلك اسمه «الظاهر» من لوازمه: أن لا يكون فوق شيء، كما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم «وَأَنَّ الظَّاهِرَ، فَلَيْسَ فَوْقَ شَيْءٍ» بل هو سبحانه فوق كل شيء. فمن جحد فوقيته سبحانه فقد جحد لوازم اسمه «الظاهر» ولا يصح أن يكون «الظاهر» هو من له فوقية القدر فقط، كما يقال: الذهب فوق الفضة، والجوهر فوق الزجاج، لأن هذه الفوقية تتعلق بالظهور، بل قد يكون المَفْقُوظُ أظهر من الفائتِ فيها، ولا يصح أن يكون ظهور القهر والغلبة فقط، وإن كان سبحانه ظاهراً بالقهر والغلبة، لمقابلة الاسم بـ «الباطن» وهو الذي ليس دونه شيء، كما قابل «الأول» الذي ليس قبله شيء، بـ «الآخر» الذي ليس بعده شيء.

وكذلك اسم «الحكيم» من لوازمه ثبوت الغايات المحمودة المقصودة له بأفعاله، ووضع الأشياء في مواضعها، وإيقاعها على أحسن الوجوه. فإنكار ذلك إنكار لهذا الاسم ولوازمه. وكذلك سائر أسمائه الحسنى.

● دلالة اسم (الله) على جميع الاسماء الحسنى

. إذا تقرر هذان الأصلان . فاسم «الله» دال على جميع الأسماء الحسنى، والصفات العليا بالدلالات الثلاث. فإنه دال على إلهيته المتضمنة لثبوت صفات الإلهية له، مع نفي أضعافها عنه.

وصفات الإلهية: هي صفات الكمال، المنزهة عن التشبيه والمثال، وعن العيوب والنقائص . ولهذا يضيف الله تعالى سائر الأسماء الحسنى إلى هذا الاسم العظيم، كقوله تعالى (١٨٠:٧) ولله الأسماء الحسنى) ويقال «الرحمن والرحيم . والقدوس والسلام ، والعزیز ، والحكيم» من أسماء الله، ولا يقال: «الله» من أسماء «الرحمن» ولا من أسماء «العزیز». ونحو ذلك.

فعلم أن اسمه «الله» مستلزم لجميع معاني الأسماء الحسنى، دال عليها بالإجمال. والأسماء الحسنى تفصيل وتبيين لصفات الإلهية، التي اشتق منها اسم «الله» واسم «الله» دال على كونه مألوهاً معبوداً، تأله الخلق عبدة وتعظيماً ونخوفاً، وفزعاً إليه في الحاجات والنوائب. وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته، المتضمنين لكمال الملك والحمد. وإلهيته وربوبيته ورحمانيته وملكوته مستلزم لجميع صفات كماله. إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحى، ولا سميع، ولا بصير، ولا قادر، ولا متكلم، ولا فاعل لما يريد، ولا حكيم في أفعاله. وصفات الجلال والجمال: أخص باسم «الله».

وصفات الفعل والقدرة، والتفرد بالضر والنفع، والمطاء والمنع، ونفوذ المشيئة وكمال القوة ، وتديرو أمر الخلق: أخص باسم «الرب».

وصفات الإحسان ، والجود والبر، والحنان والمنة، والرأفة واللفظ: أخص باسم «الرحمن» وكرر إيداناً بثبوت الوصف، وحصول أثره ، وتعلقه بتملقاته.

فالرحمن: الذي الرحمة وصفه. والرحيم: الراحم لعباده. ولهذا يقول تعالى (٤٣:٣٣) وكان بالمؤمنين رحيماً) (١١٧:٩) إنه بهم رؤوف رحيم) ولم يحىء رحمان بعباده، ولا رحمان بالمؤمنين، مع ما في اسم «الرحمن» الذي هو على وزن فعلان من سعة هذا الوصف ، وثبوت جميع معناه الموصوف به.

ألا ترى أنهم يقولون: غضبان، للممتلئ غضباً، وتندمان وحيران وسكران وهفان لمن ملء بذلك، فبنا فعلان للسعة والشمول. ولهذا يقرن استواءه على العرش بهذا الإسم كثيراً، كقوله تعالى (٥:٢٠) الرحمن على العرش استوى) (٥٩:٢٦) ثم استوى على العرش الرحمن)

قامستوى على عرشه باسم الرحمن، لأن العرش محيط بال مخلوقات ، قد وسعها . والرحمة محيطه
بالمخلوق واسعة لهم، كما قال تعالى (١٥٦:٧) **وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ** فاستوى على أوسع
المخلوقات بأوسع الصفات. فلذلك سعت رحمته كل شيء. وفي الصحيح من حديث أبي هريرة
رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم **«لما قضى الله الخلق كتب في
كتاب، فهو عنده موضوع على العرش. إن رحمتي تغلب غضبي»**، وفي لفظ **«فهو عنده على
العرش»**.

فتأمل اختصاص هذا الكتاب بذكر الرحمة، ووضعه عنده على العرش، وطابق بين ذلك
وبين قوله **(الرحمن على العرش استوى)** وقوله (١٥٦:٢٥) **ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ**
فَأَسْأَلُ بِهِ خَبِيرًا يفتح لك باب عظيم من معرفة الرب تبارك وتعالى.
وصفات العدل، والقبض والبسط، والحفص والرفع، والعطاء والمنع، والإعزاز والإذلال،
والقهر والحكم ونحوها، أحص باسم **«الملك»** ونحصر بيوم الدين، وهو الجزاء بالعدل، ولتفرده
بالحكم فيه وحده، ولأنه اليوم الحق، وما قبله كساعة. ولأنه الغاية، وأيام الدنيا مراحل إليه.

● معنى الرب والرحمن

وتأمل ارتباط الخلق والأمر بهذه الأسماء الثلاثة. وهي **«الله والرب، والرحمن»** كيف نشأ
عنها الخلق، والأمر، والثواب، والعقاب؟ وكيف جمعت الخلق وفرقتهم؟ فلها الجمع . ولها
الفرق.

فاسم **«الرب»** له الجمع الجامع لجميع المخلوقات. فهو رب كل شيء وخالقه، والقادر عليه،
لا يخرج شيء عن ربوبيته. وكل من في السموات والأرض عبد له في قبضته، وتحت قهره.
فاجتمعوا بصفة الربوبية، واختلفوا بصفة الإلهية، فألهم وحده السعاده، وأقروا له طوعاً بأنه الله
الذي لا إله إلا هو، الذي لا تنبغى العبادة والتوكل والرجاء والخوف، والحب والإنابة
والإخبات والخشية، والتذلل والخضوع إلا له.

وهنا افرق الناس، وصاروا فريقين: فريقاً مشركين في السعير، وفريقاً موحدين في الجنة.
فالإلهية هي التي فرقتهم، كما أن الربوبية هي التي جمعتهم.
فالدين والشرع، والأمر والنهي — مظهره، وقيامه —: من صفة الإلهية. والخلق والإيجاد
والتدبير والفعل: من صفة الربوبية. والجزاء بالثواب والعقاب والجنة والنار: من صفة الملك. وهو
ملك يوم الدين. فأمرهم بإلهيته، وأعانهم ووقتهم وهداهم وأصلهم بربوبيته. وأتاهم وعاقبهم
بملكه وعدله . وكل واحدة من هذه الأمور لا تنفك عن الأخرى.
وأما الرحمة: فهي التعلق، والسبب الذي بين الله وبين عباده. فالتأليه منهم له. والربوبية

منه لهم.. والرحمة سبب واصل بينه وبين عبادته، بها أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه. وبها هداهم. وبها أسكنهم دار ثوابه. وبها رزقهم وعافاهم وأنعم عليهم. فبينهم وبينه سبب العبودية، وبينه وبينهم سبب الرحمة.

واقتران ربوبيته برحمته كاقتران استوائه على عرشه برحمته. فـ (الرحمن على العرش استوى) مطابق لقوله (رب العالمين، الرحمن الرحيم) فإن شمول الربوبية وسعتها بحيث لا يخرج شيء عنها اقتضى شمول الرحمة وسعتها. فوسع كل شيء برحمته وربوبيته، مع أن في كونه رباً للعالمين ما يدل على علوه على خلقه، وكونه فوق كل شيء، كما يأتي بيانه إن شاء الله.

● المحمود

في ذكر هذه الأسماء بعد الحمد وإيقاع الحمد على مضمونها ومقتضاها: ما يدل على أنه محمود في إلهيته، محمود في ربوبيته، محمود في رحانيته، محمود في ملكه، وأنه إله محمود، ورب محمود، ورحمان محمود، وملك محمود. فله بذلك جميع أقسام الكمال: كمال من هذا الاسم بفرده، وكمال من الآخر بفرده، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر.

مثال ذلك: قوله تعالى (والله غني حميد) (والله عليم حكيم) (والله قدير والله غفور رحيم) فالغنى صفة كمال. والحمد صفة كمال، واقتران غناه بحمده كمال أيضاً. وعلمه كمال، وحكمته كمال، واقتران العلم بالحكمة كمال أيضاً. وقدرته كمال ومغفرته كمال، واقتران القدرة بالمغفرة كمال، وكذلك العفوبعد القدرة (١٤: ٤) إن الله كان عفواً قديراً واقتران العلم بالحلم (١١: ٤) والله عليم حلیم).

فما كل من قدر عفاً، ولا كل من عفا يعفو عن قدرة، ولا كل من علم يكون حلیمًا، ولا كل حلیم عالم. فما قرن شيء إلى شيء أزين من حلم إلى علم. ومن عفو إلى قدرة، ومن ملك إلى حمد، ومن عزة إلى رحمة (٩: ٢٦) وإن ربك هو العزيز الرحيم) ومن ههنا كان قول المسيح عليه السلام (١٢١: ٥) إن تعذبهم فإنهم عبادك. وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) أحسن من أن يقول: وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم. أي إن غفرت لهم كان مصدر مغفرتك عن عزة. وهي كمال القدرة. وعن حكمة، وهي كمال العلم. فمن غفر عن عجز وجهل بجرم الجاني لا يكون قادراً حكيماً عليمًا. بل لا يكون ذلك إلا عجزاً فأنت لا تغفر إلا عن قدرة تامة، وعلم تام، وحكمة تضع بها الأشياء مواضعها. فهذا أحسن من ذكر «الغفور الرحيم» في هذا الموضع، الدال ذكره على التعريض بطلب المغفرة في غير حينها، وقد فانت. فإنه لو قال: وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم. كان في هذا — من الاستعطاف والتعريض

بتطلب المغفرة لمن لا يستحقها — ما ينزه عنه منصب المسيح عليه السلام، لاسيما والموقف موقف عظمة وجلال، وموقف انتقام ممن جعل لله ولداً، واتخذته إلهاً من دونه فذكر العزة والحكمة فيه اليق من ذكر الرحمة والمغفرة. وهذا بخلاف قول الخليل عليه السلام (١٤: ٣٥ و ٣٦) واجنبي وبني أن نعبد الأصنام. رب إنهن أضللن كثيراً من الناس. فمن تبعتني فإنه مني، ومن عصاني فإنك غفور رحيم) ولم يقل: فإنك عزيز حكيم. لأن المقام مقام استعطاف وتعريض بالدعاء، أي إن تغفر لهم وترحمهم، بأن توقعهم للرجوع من الشرك إلى التوحيد، ومن المعصية إلى الطاعة، كما في الحديث «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

وفي هذا أظهر الدلالة على أن أسماء الرب تعالى مشتقة من أوصاف ومعان قامت به، وأن كل اسم يناسب ما ذكر معه، واقترن به، من فعله وأمره. والله الموفق للصواب.

مراتب الهداية

مراتب الهداية الخاصة والعامة عشر مراتب:

● المرتبة الأولى: مرتبة تكليم الله عز وجل لعبده بقطة بلا واسطة ، بل منه إليه . وهذه أهل مراتبها ، كما كلم موسى بن عمران ، صلوات الله وسلامه على نبيينا وعليه . قال الله تعالى (١٦٣:٤) وكلم الله موسى تكليماً فذكر في أول الآية وحيه إلى نوح والنبيين من بعده ، ثم خص موسى من بينهم بالإخبار بأنه كلمه . وهذا يدل على أن التكليم الذي حصل له أحسن من مطلق الوحي الذي ذكر في أول الآية . ثم أكد به المصدر الحقيقي الذي هو مصدر «كلم» وهو «التكليم» رفعا لما يتوهم المعطلة والجهمية والمعتزلة وغيرهم من أنه إلهام ، أو إشارة ، أو تعريف للمعنى النفسي بشيء غير التكليم . فأكد به المصدر المفيد لتحقيق النسبة ورفع توهم المجاز . قال القراء : العرب تسمى ما يوصل إلى الإنسان كلاماً بأي طريق وصل . ولكن لا تحققه بالمصدر فإذا حققته بالمصدر لم يكن إلا حقيقة الكلام ، كالإرادة . يقال : فلان أراد إرادة ، يريدون حقيقة الإرادة . ويقال : أراد الجدار ، ولا يقال : إرادة . لأنه مجاز غير حقيقة . هذا كلامه . وقال تعالى (١٤٢:٧) ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ، قال : رب أرني أنظر إليك وهذا التكليم غير التكليم الأول الذي أرسله به إلى فرعون . وفي هذا التكليم الثاني سأك النظر ، لا في الأول . وفيه أعطى الألواح . وكان عن مواعدة من الله له . والتكليم الأول لم يكن عن مواعدة . وفيه قال الله له (١٤٣:٧) يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي أي بتكليمي لك بإجماع السلف .

وقد أخبر سبحانه في كتابه : أنه ناداه ونجاه . فالنداء من بُعد ، والنجاه من قرب . وفي حديث الإسراء في رؤية موسى في السماء السادسة أو السابعة ، على اختلاف الرواية ، قال : «وذلك بتفضيله بكلام الله» ولو كان التكليم الذي حصل له من جنس ما حصل لغيره من الأنبياء لم يكن لهذا التخصيص به في هذه الأحاديث معنى . ولا كان يسمى «كليم الرحمن» وقال تعالى (٥١:٤٢) وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً ، أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء ففرق بين تكليم الوحي ، والتكليم بإرسال الرسول ، والتكليم من وراء حجاب .

• المرتبة الثانية: مرتبة الوحي المختص بالأنبياء. قال الله تعالى (١٢٦:٤) إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده) وقال (٥١:٤٢) وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب - الآية) فجعل الوحي في هذه الآية قسماً من أقسام التكليم. وجعله في آية النساء قسماً للتكليم. وذلك باعتبارين. فإنه قسم التكليم الخاص الذي هو بلا واسطة، وقسم من التكليم العام الذي هو إيصال المعنى بطرق متعددة.

والوحي في اللغة: هو الاعلام السريع الخفي، ويقال في فعله: وَحَى، وأوحى. قال رؤبة • وَحَى لها القرار فاستقرت • وهو أقسام، كما سذكره.

• المرتبة الثالثة: إرسال الرسول الملكي إلى الرسول البشري. فيوحي إليه عن الله ما أمره أن يوصله إليه.

فهذه المراتب الثلاث خاصة بالأنبياء، لا تكون لغيرهم.

ثم هذا الرسول الملكي قد يتمثل للرسول البشري رجلاً، يراه عياناً ومخاطبه. وقد يراه على صورته التي خلق عليها. وقد يدخل فيه الملك، ويوحى إليه ما يوحيه، ثم يقصم عنه، أي يقطع. والثلاثة حصلت لنبينا صلى الله عليه وسلم.

• المرتبة الرابعة: مرتبة التحديث. وهذه دون مرتبة الوحي الخاص، وتكون دون مرتبة الصديقين، كما كانت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم «انه كان في الأمم قبلكم محدثون، فإن يكن في هذه الأمة فعمربن الخطاب».

وسمعت شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية رحمه الله يقول: جزم بأنهم كائنون في الأمم قبلنا وخلق وجودهم في هذه الأمة بـ «إن» الشرطية، مع أنها أفضل الأمم، لاحتياج الأمم قبلنا إليهم، واستغناء هذه الأمة عنهم بكمال نبيها ورسالته، فلم يحوج الله الأمة بعده إلى محدث ولا ملهم، ولا صاحب كشف ولا منام، فهذا التعليق لكمال الأمة واستغنائها لا لتقصها.

والمحدث: هو الذي يحدث في سره وقلبه بالشيء، فيكون كما يحدث به.

قال شيخنا: والصديق أكمل من المحدث. لأنه استغنى بكمال صديقيته ومتابعته عن التحديث والإلهام والكشف. فإنه قد سَلَّم قلبه كله وسره وظاهره وباطنه للرسول صلى الله عليه وسلم.

قال: وكان هذا المحدث يعرض ما يحدث به على ما جاء به الرسول. فإن وافقه قبله، وإلا رده. فعلم أن مرتبة الصديقية فوق مرتبة التحديث.

قال: ولأما ما يقوله كثير من أصحاب الخيالات والجهالات «حدثني قلبي عن ربي» فصحيح أن قلبه حدثه، ولكن عَمَّن؟ عن شيطانه، أو عن ربه؟ فإذا قال «حدثني قلبي عن

ربي» كان مستنداً الحديث إلى من لم يعلم أنه حدثه به، وذلك كذب.
 قال: وحدث الأمة لم يكن يقول ذلك، ولا تفوّ به يوماً من الدهر. وقد أعاده الله من أن
 يقول ذلك. بل كتب كاتبه يوماً «هذا ما أرى الله أمير المؤمنين، عمر بن الخطاب» فقال «لا.
 اتخذه، واكتب: هذا ما رأى عمر بن الخطاب. فإن كان صواباً فمن الله، وإن كان خطأ فمن
 عمره، والله ورسوله منه يرى» وقال في الكلالة «أقول فيها برأى. فإن يكن صواباً فمن الله.
 وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان».
 فانظر إلى ما بين القائلين والمرتبين والقولين والحالين. وأعط كل ذي حق حقه، ولا تجعل
 الزغل والخفاص شيئاً واحداً.

• المرتبة الخامسة: مرتبة الإفهام. قال الله تعالى (٧٨: ٧٩) وداود وسليمان إذ
 يحكمان في الحرت، إذ نَفَسَتْ فيه غم القوم، وكنا لحكمهم شاهدين. ففهمناها سليمان،
 وكلا آتينا حكماً وعلماً فذكر هذين النبيين الكريمين، وأثنى عليهما بالعلم والحكم. ونخص
 سليمان بالفهم في هذه الواقعة المعينة. وقال عل ابن أبي طالب — وقد سئل «هل خصكم
 رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء دون الناس؟» — فقال «لا، والذي قلّق الحبة
 وبرأ النسمة، إلا فهماً يؤتیه الله عبداً في كتابه، وما في هذه الصحيفة. وكان فيها
 العقل، وهو الدييات، وفكالك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر» وفي كتاب عمر بن
 الخطاب لأبي موسى الأشعري رضى الله عنهما «والفهم الفهم فيما أدلى إليك» فالفهم نعمة
 من الله على عبده، ونور يقذفه الله في قلبه. يعرف به، ويدرك ما لا يدركه غيره ولا يعرفه، فيفهم
 من النص ما لا يفهمه غيره، مع استوائهما في حفظه. وفهم أصل معناه.

قالفهم عن الله ورسوله عنوان الصديقية، ومنشور الولاية النبوية، وفيه تفاوتت مراتب
 العلماء، حتى غلّ ألف بواحد. فانظر إلى فهم ابن عباس، وقد سأله عمر، ومن حضر من أهل
 بدر وغيرهم عن سورة (إذا جاء نصر الله والفتح) وما خص به ابن عباس من فهمه منها «أنها
 نفّسُ الله سبحانه نبيه إلى نفسه» وأعلامه بحضور أجله، وموافقة عمر له على ذلك، وخفائه عن
 غيرهما من الصحابة وابن عباس إذ ذاك أحدثهم سناً. وأين تجد في هذه السورة الإعلام بأجله،
 لولا المفهم الخاص؟ ويدق هذا حتى يصل إلى مراتب تتقاصر عنها أفهام أكثر الناس، فيحتاج
 مع النص إلى غير. ولا يقع الاستغناء بالنصوص في حقه. أما في حق صاحب الفهم: فلا يحتاج
 مع النص إلى غيرها.

المرتبة السادسة: مرتبة البيان العام. وهوتبيين الحق وتمييزه من الباطل بأدلته وشواهد
 وأعلامه. بحيث يصير مشهوداً للقلب، كشهود العين للمراتب.
 وهذه المرتبة هي حجة الله على خلقه، التي لا يعذب أحداً ولا يضل إلا بعد وصوله إليها.

قال الله تعالى (٩: ١١٥) وما كان الله ليُغَيِّلَ قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون فهذا الإضلال عقوبة منه لهم ، حين بين لهم ، فلم يقبلوا ما بينه لهم ، ولم يعملوا به . فعاقبهم بأن أضلهم عن الهدى ، وما أضل الله سبحانه أحداً قط إلا بعد هذا البيان .

وإذا عرفت هذا عرفت سر القدر، وزالت عنك شكوك كثيرة ، وشبهات في هذا الباب . وعلمت حكمة الله في إضلاله من يضلّه من عباده . والقرآن يصرح بهذا في غير موضع ، كقوله (٥: ٦١) فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) (٤: ١٥٥) وقولهم قلوبنا غلفت . بل طبع الله عليها بكفرهم) فالأول : كفر عناد . والثاني : كفر طبع ، وقوله (٦: ١١٠) وثقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ، ونذرهم في طغيانهم يعمهون) فعاقبهم على ترك الإيمان به حين يتقوه وتحققوه ، بأن قلب أفئدتهم وأبصارهم فلم يهتدوا له . فتأمل هذا الموضع حق التأمل . فإنه موضع عظيم .

وقال تعالى (٤١: ١٧) وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فهذا هدى بعد البيان والدلالة . وهو شرط لاموجب . فإنه إن لم يقترن به هدى آخر بعده لم يحصل به كمال الاهتداء . وهو هدى التوفيق والإلهام .

وهذا البيان نوعان : بيان بالآيات المسموعة المتلوة ، وبيان بالآيات المشهودة المرئية . وكلاهما أدلة وآيات على توحيد الله وأسمائه وصفاته وكماله ، وصدق ما أخبرت به رسله عنه . ولهذا يدعو عباده بآياته المتلوة إلى التفكر في آياته المشهودة ويحضهم على التفكر في هذه وهذه . وهذا البيان هو الذي بعث به الرسل . وجعل إليهم وإلى العلماء بعدهم ، وبعد ذلك يضل الله من يشاء . قال الله تعالى (٦٤: ٤) وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم . فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء . وهو العزيز الحكيم) فالرسل تبين . والله هو الذي يضل من يشاء ويهدي من يشاء بعزته وحكمته .

● المرتبة السابعة : البيان الخاص . وهو البيان المستلزم للهداية الخاصة ، وهولبيان تقارنه العناية والتوفيق والاجتناب ، وقطع أسباب الخذلان وموادها عن القلب فلا تتخلل عنه الهداية البتة . قال تعالى في هذه المرتبة (١٦: ٣٧) إن نحصر على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل) وقال (٣٨: ٥٦) إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) فالبيان الأول شرط . وهذا موجب .

● المرتبة الثامنة : مرتبة الإسماع . قال الله تعالى (٨: ٢٣) ولو علم الله فيهم خيراً لاستمعهم ولو أسمعهم لتولّوا وهم معرضون) وقد قال تعالى (٣٥: ٢٢) وما يستوي الأعمى والبصير . ولا الظلمات ولا النور . ولا الظل ولا الخور . وما يستوي الأحياء ولا الأموات . إن الله يسمع من يشاء . وما أنت بمسمع من في القبور . إن أنت إلا نذير) وهذا الاسماع

فتخص من إسماع الحجة والتلخيص . فإن ذلك حاصل لهم ، وبه قامت الحجة عليهم . لكن ذاك إسماع الآذان ، وهذا إسماع القلوب . فإن الكلام له لفظ ومعنى ، وله نسبة إلى الأذن والقلب وتعلق بهما . فسماع لفظه حظ الأذن ، وسماع حقيقة معناه ومقصوده حظ القلب . فإنه سبحانه تضى عن الكفار سماع المقصود والمراد الذي هو حظ القلب ، وأثبت لهم سماع الألفاظ الذي هو حظ الأذن في قوله (٢١: ٧ ما يأتيهم من ذكر من ربهم مُخَدَّثَاتٌ إِلَّا اسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يُبْمِونُ ، لَاهِيَةً قُلُوبِهِمْ) وهذا السماع لا يفيد السامع الا قيام الحجة عليه ، أو تمكنه منها . وأما مقصود السماع وثمرته ، والمطلوب منه : فلا يحصل مع لهو القلب وغفلة وأعراضه ، بل يخرج السامع قاتلاً للحاضر معه (٤٧: ١٦ ماذا قال أنفأ ؟ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم) .

والفرق بين هذه المرتبة ومرتبة الإلهام : أن هذه المرتبة إنما تحصل بواسطة الأذن ، ومرتبة الإلهام أعم . فهي أنخص من مرتبة الفهم من هذا الوجه . ومرتبة الفهم أنخص من وجه آخر . وهي أنها تتعلق بالمعنى المراد ولوازمه ومتعلقاته وإشاراته . ومرتبة السماع مدارها على إيصال المقصود بالخطاب إلى القلب ويترب على هذا السماع سماع القبول .

فهو إذن ثلاث مراتب : سماع الأذن ، وسماع القلب ، وسماع القبول والإجابة .

● المرتبة التاسعة : مرتبة الإلهام . قال تعالى (٩١: ٨ ونفسي وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها) وقال النبي صلى الله عليه وسلم لحصين بن منذر الخزاعي لما أسلم « قل : اللهم ألهمني رشدي ، وقني شر نفسي » .

والإلهام أعم من التحديث ، فإن الإلهام عام للمؤمنين بحسب إيمانهم فكل مؤمن قد ألهمه الله رشده الذي حصل له به الإيمان . فأما التحديث : فالنبي صلى الله عليه وسلم قال فيه « إن يكن في هذه الأمة أحد فعمر » يعني من المحدثين . فالتحديث إلهام خاص . وهو الوحي إلى غير الأنبياء إما من المكلفين ، كقوله تعالى (٢٨: ٧ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه) وقوله (٥: ١١١) وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي) وإما من غير المكلفين ، كقوله تعالى (١٦: ٢٩ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر وما يعرشون) فهذا كله وحي إلهام .

وصورته الشائعة : ان يكون خطاباً يُلقى في قلب المؤمن يخاطب به الملك روحه ، كما في الحديث المشهور : « إن للملك لئمة بقلب ابن آدم . وللشيطان لئمة . فلمة الملك : إبعاد الخير ، وتصديق بالوعد . وئمة الشيطان : إبعاد بالشر وتكذيب بالوعد » ثم قرأ (٢: ٢٦٨) الشيطان يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ . وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً) وقال تعالى (٨: ١٢) إذ يوحى ربك إلى الملائكة : أني معكم . فثبتوا الذين آمنوا) قيل في تفسيرها : قُوتُوا قُلُوبَكُمْ ،

وبشروهم بالنصر. وقيل : احضروا معهم القتال. والقولان حق. فإنهم حضروا معهم القتال، وثبتوا قلوبهم.

ومن هذا الخطاب: واعظ الله عز وجل في قلوب عباده المؤمنين. كما في جامع الترمذي ومستند أحمد من حديث النّوّاس بن سميان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إن الله تعالى ضرب مثلاً: صراطاً مستقيماً. وعلى كنفتي الصراط سوران، هما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وداع يدعو على رأس الصراط. وداع يدعو فوق الصراط. فالصراط المستقيم: الإسلام. والسوران: حدود الله. والأبواب المفتحة: محارم الله. فلا يقع أحد في حيز من حدود الله حتى يكشف الستر. والداعي على رأس الصراط: كتاب الله. والداعي فوق الصراط: واعظ الله في قلب كل مؤمن» فهذا الواظ في قلوب المؤمنين هو الإلهام الإلهي بواسطة الملائكة.

وأما كلمة الشيطان فهي وعده وتثنيته حين يبعث الإنسى ، ويأمره وينهاه. كما قال تعالى (٤: ١٢٠) يهديهم ويضلهم. وما يهديهم الشيطان إلا غروراً، وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لثعلبان بن سلمة - وهو من الصحابة لما طلق نساءه، وقسم ماله بين بنيه - «إني لأظن الشيطان - فيما يسترق من السمع - سمع يموتك. فقذفه في نفسك».

وعلمة هذا الشيطاني أن خطاه كثير، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبن صائد «هاتري؟ قال: أرى صادقاً وكاذباً. فقال: لبس عليك» فالكشف الشيطاني لا بد أن يكذب. ولا يستمر صدقه أبداً.

● المرتبة العاشرة من مراتب الهداية: الرؤيا الصادقة. وهي من أجزاء النبوة كما ثبتت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة» والرؤيا: مبدأ الوحي. وصدقها بحسب صدق الرائي. وأصدق الناس رؤيا أصدقهم حديثاً. وهي عند اقتراب الزمان لا تكاد تخطئ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم. وذلك ليعد العهد بالنبوة وآثارها. فيتعوض المؤمنون بالرؤيا. وأما في زمن قوة نور النبوة: ففي ظهور نورها وقوته ما يغني عن الرؤيا.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم «لم يبق من النبوة إلا المبشرات. قيل: وما المبشرات، يا رسول الله؟ قال: الرؤيا الصالحة، يراها المؤمن أو ترى له» وإذا تواطأت رؤيا المسلمين لم تكذب. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه لما أروا ليلة القدر في العشر الأواخر قال «أرى رؤياكم قد تواطأت في العشر الأواخر. فمن كان منكم متحريراً فليتها في العشر الأواخر من رمضان».

والرؤيا كالكشف، منها رحمني. ومنها نفساني. ومنها شيطاني. وقال النبي صلى الله عليه

وسلم «الرؤيا ثلاثة: رؤيا من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث به الرجل نفسه في اليقظة . فيراه في المنام»

والذي هو من أسباب الهداية: هو الرؤيا التي من الله خاصة.

ورؤيا الأنبياء وحى. فإنها معصومة من الشيطان. وهذا باتفاق الأمة، ولهذا أقدم الخليل على ذبح ابنه إسماعيل عليهما السلام بالرؤيا.

وأما رؤيا غيرهم: فتعرض على الوحي الصريح. فإن وافقته وإلا لم يعمل بها.

فإن قيل: فما تقولون إذا كانت رؤيا صادقة، أو تواطأت؟

قلنا: متى كانت كذلك استحال مخالفتها للوحي، بل لا تكون إلا مطابقة له، منبهة عليه، أو منبهة على اندراج قضية خاصة في حكمه، لم يعرف الرائي اندراجها فيه، فينتبه بالرؤيا على ذلك. ومن أراد أن تصدق رؤياه فليتحجر الصدق وأكل الحلال، والمحافظة على الأمر والنهي. ولينم على طهارة كاملة مستقبل القبلة. ويذكر الله حتى تغلبه عيناه. فإن رؤياه لا تكاد تكذب ألبتة.

وأصدق الرؤيا: رؤيا الأسحار. فإنه وقت النزول الإلهي، واقتراب الرحمة والمغفرة، وسكون الشياطين. وعكسه رؤيا القتمة، عند انتشار الشياطين والأرواح الشيطانية. وقال عبادة بن الصامت رضى الله عنه «رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده في المنام».

الغاية الشريفة

وقد اشتملت الفاتحة على الشفاهين:

شفاء القلوب ، وشفاء الأبدان

فأما اشتمالها على شفاء القلوب : فإنها اشتملت عليه أتم اشتغال . فإن مدار اعتلال القلوب وأسقامها على أصلين : فساد العلم . وفساد القصد . ويترتب عليهما داءان قاتلان ، وهما الضلال والغضب . فالضلال نتيجة فساد العلم . والغضب نتيجة فساد القصد . وهذان المرضان هما ملاك أمراض القلوب جيمها . فهداية الصراط المستقيم : تتضمن الشفاء من مرض الضلال . ولذلك كان سؤال هذه الهداية : أفرض دعاء على كل عبد . وأوجبه عليه كل يوم وليلة . في كل صلاة ، لشدة ضرورته وفاقته إلى الهداية المطلوبة . ولا يقوم غير هذا السؤال مقامه .

والتحقق بـ (إياك نعبد وإياك نستعين) علماً ومعرفة ، وعملاً وحالاً : يتضمن الشفاء من مرض فساد القلب والقصد . فإن فساد القصد يتعلق بالغايات والوسائل . فمن طلب غاية منقطعة مضمحلة فانية ، وتوصل إليها بأنواع الوسائل الموصلة إليها كان كلا نوعي قصده فاسداً . وهذا شأن كل من كان غاية مطلوبة غير الله وعبوديته : من المشركين ، ومتبعي الشهوات ، الذين لا غاية لهم وراءها ، وأصحاب الرياسات المتبعين لإقامة رياستهم بأي طريق كان من حق أو باطل . فإذا جاء الحق معارضاً في طريق رياستهم طحنوه وداسوه بأرجلهم . فإن عجزوا عن ذلك دفعوه دفع الصائل . فإن عجزوا عن ذلك حبسوه في الطريق ، وحادوا عنه إلى طريق أخرى . وهم مستعدون لدفعه بحسب الإمكان وعزله عن التصرف والحكم والتنفيذ ، وإن جاء الحق ناصراً لهم وكان لهم صالوا به وجالوا ، وأتوا إليه مذعنين . لا لأنه حق ، بل لموافقة غرضهم وأهواءهم ، وانتصارهم به (٤٨ : ٢٤) — ٥٠ وإذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون . وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين . أفي قلوبهم مرض ، أم ارتابوا ؟ أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ؟ بل أولئك هم الظالمون .

والمقصود : أن قصد هؤلاء فاسد في غاياتهم ووسائلهم . وهؤلاء إذا بطلت الغايات التي طلبوها . واضمحلت وفيت ، حصلوا على أعظم الخسران والخسرات . وهم أعظم الناس ندامة

وتخسراً، إذا حَقَّ الحق وبطل الباطل، وتقطعت بهم أسباب الوصول التي كانت بينهم، وتيقنوا انقطاعهم عن رُحْب الفلاح والسعادة. وهذا يظهر كثيراً في الدنيا. ويظهر أقوى من ذلك عند الرحيل منها والقدوم على الله: ويشهد ظهوره وتحققه في البرزخ. وينكشف كل الانكشاف يوم اللقاء، إذا حقت الحقائق. وفاز المحقون وخسر المبطون. وعلموا أنهم كانوا كاذبين، وكانوا غدوعين مغرورين. فيأله هناك من علم لا ينفذ عالمه، ويقين لا ينجي مستيقنه.

وكذلك من طلب الغاية العليا والمطلب الأسمى، ولكن لم يتوصل إليه بالوسيلة الموصلة له وإليه، بل توسل إليه بوسيلة ظننها موصلة إليه، وهي من أعظم القواطع عنه. فعناله أيضاً كحال هذا. وكلاهما فاسد القصد. ولاشفاء من هذا المرض إلا بدواء «إياك نعبد وإياك نستعين».

فإن هذا الدواء مركب من ستة أجزاء (١) عبودية الله لا غيره (٢) بأمره وشرعه (٣) لا بالهوى (٤) ولا بأراء الرجال وأوضاعهم، ورسومهم، وأفكارهم (٥) بالاستعانة على عبوديته به (٦) لا بنفس العبد وقوته وحوله ولا بغيره.

فهذه هي أجزاء «إياك نعبد وإياك نستعين» فإذا ركبها الطبيب اللطيف، العالم بالمرض، واستعملها المريض، حصل بها الشفاء التام. وما نقص من الشفاء فهو لفوات جزء من أجزائها، أو اثنين أو أكثر.

ثم إن القلب يعرض له مرضان عظيمان، إن لم يتداركهما العبد ترامياً به إلى التلف ولا بد. وهما الزيادة، والكبر. فدواء الزيادة «إياك نعبد» ودواء الكبر «إياك نستعين».

وكثيراً ما كنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول «إياك نعبد» تدفع الرياء «وإياك نستعين» تدفع الكبرياء.

فإذا عوق من مرض الرياء بـ «إياك نعبد» ومن مرض الكبرياء والعجب بـ «إياك نستعين» ومن مرض الضلال والجهل بـ «اهدنا الصراط المستقيم» عوق من أمراضه وأسقامه، وورقن في أبواب العافية، وتمت عليه النعمة. وكان من المنعم عليهم «غير المغضوب عليهم» وهم أهل فساد القصد، الذين عرفوا الحق وعدلوا عنه «والضالين» وهم أهل فساد العلم، الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه.

وحق لسورة تشتمل على هذين الشفاءين: أن يُشَفَّقَ بها من كل مرض، ولهذا لما اشتملت على هذا الشفاء الذي هو أعظم الشفاءين، كان حصول الشفاء الأدنى بها أولى، كما سنبينه. فلا شيء أشقى للقلوب التي عقلت عن الله كلامه، وفهمت عنه فهماً خاصاً، اختصها به، من معاني هذه السورة.

وأما تضمينها لشفاء الأبدان: فنذكر منه ما جاءت به السنة.

ففي الصحيح من حديث أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري «أن ناساً من

أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مروا بختى من العرب . فلم يقرؤهم ، ولم يضئوهم
فلدغ سيد الحى . فأتوهم . فقالوا : هل عندكم من رقية ، أو هل فيكم من
راق ؟ فقالوا : نعم ، ولكنكم لم تقرؤنا . فلا نفعل حتى تعملوا لنا جعلاً ، فجعلوا لهم على
ذلك قطيعاً من الغنم ، فجعل رجل منا يقرأ عليه بقائمة الكتاب . فقام كأن لم يكن به
قَلْبَة . فقلنا : لا تعملوا حتى نأتي النبي صلى الله عليه وسلم . فأتيناه ، فذكرنا له ذلك .
فقال : ما يدريك أنها رقية ؟ كلوا ، واضربوا لي معكم بسهم»

فقد تضمن هذا الحديث حصول شفاء هذا اللدغ بقراءة القائمة عليه . فأغتنه عن الدواء .
وربما بلغت من شفاءه ما لم يبلغه الدواء .

هذا مع كون الحبل غير قابل ، إما لكون هؤلاء الحى غير مسلمين ، أو أهل بخل ولؤم .
فكيف إذا كان الحبل قابلاً .

فَاتِحَةُ التَّضْيِيءِ

وايضاً ، فقد اشتملت الفاتحة الرد على الباطلين من اهل الملل والنحل، والرد على اهل البدع والضلال من هذه الامة.

وهذا يعلم بطريقتين، مجمل ومفصل:

أما المجمل : فهو أن الصراط المستقيم متضمن معرفة الحق ، وإشاره ، وتقديمه على غيره ، وعيته والانقياد له ، والدعوة إليه ، وجهاد أعدائه بحسب الإمكان.

والحق : هو ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وما جاء به علماً وعملاً في باب صفات الرب سبحانه ، وأسمائه وتوحيده ، وأمره ونهيه ، ووعده وعيده ، وفي حقائق الإيمان ، التي هي منازل السائرين إلى الله تعالى . وكل ذلك مسلم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، دون آراء الرجال وأوضاعهم وأفكارهم واصطلاحاتهم.

فكل علم أو عمل خرج من مشكاة نبوته ، وعليه السكة الحميدة ، بحيث يكون من ضرب المدينة . فهو من الصراط المستقيم ومالم يكن كذلك فهو من صراط اهل الغضب والضلال . فما تَمَّ خروج عن هذه الطرق الثلاث : طريق الرسول صلى الله عليه وسلم وما جاء به ، وطريق اهل الغضب ، وهي طريق من عرف الحق وعانده . وطريق اهل الضلال : وهي طريق من أضله الله عنه . ولهذا قال عبدالله بن عباس وجابر بن عبدالله رضي الله عنهم «الصراط المستقيم: هو الإسلام» وقال عبدالله بن مسعود وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما «هو القرآن» وفيه حديث مرفوع في الترمذي وغيره ، وقال سهل بن عبدالله «طريق السنة والجماعة» وقال بكر بن عبدالله المزني «طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم».

ولاريب ان ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه علماً وعملاً وهو معرفة الحق وتقديمه ، وإشاره على غيره . فهو الصراط المستقيم.

وكل هذه الأقوال المتقدمة دالة عليه جامعة له .

فبهذا الطريق المجمل يعلم أن كل مانخالفه فباطل . وهو من صراط الأمتين: الأمة التضيبية ، وأمة اهل الضلال .

• اثبات الربوبية لا يحتاج الى دليل

وأما الفصل : فيمعرفة المذاهب الباطلة ، واشتمال كلمات الفاتحة على إبطالها . فنقول :
الناس قسمان : مقرر بالحق تعالى ، وجاحد له . فتضمنت الفاتحة إثبات الخالق تعالى ، والرد
على من جحده ، بإثبات ربوبيته تعالى للعالمين .

وتأمل حال العالم كله ، علويه وسفليه ، بجميع أجزائه : تجده شاهداً بإثبات صانعه وفطره
ومليكه . فإنكار صانعه وجحده في العقول والفطر بمنزلة إنكار العلم وجحده ، لافرق بينهما ،
بل دلالة الخالق على المخلوق ، والفعال على الفعل ، والصابغ على أحوال المصنوع عند العقول
الزكية المشرقة العارضة ، والفطر الصحيحة ، أظهر من العكس .

فالعارفون أرباب البصائر يستدلون بالله على أفعاله وصنعه ، إذا استدل الناس بصنعه
وأفعاله عليه . ولا ريب أنهم طريقتان صحيحان ، كل منهما حق والقرآن مشتمل عليهما .

فأما الاستدلال بالصنعة فكثير . وأما الاستدلال بالصانع فله شأن . وهو الذي أشارت إليه
الرسالة بقولهم لأمرهم (١٠ : ١٤) أي الله شك ؟ أي أشك في الله حتى يطلب إقامة الدليل على
وجوده ؟ وأي دليل أصح وأظهر من هذا المدلول ؟ فكيف يستدل على الأظهر بالأخفى ؟ ثم نيهوا
على الدليل بقولهم (فاطر السموات والأرض) .

وسمعت شيخ الاسلام تقي الدين بن تيمية - قدس الله روحه - يقول : كيف يطلب
الدليل على من هو دليل على كل شيء ؟ وكان كثيراً ما يمثل بهذا البيت :

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل .

ومعلوم أن وجود الرب تعالى أظهر للعقول والفطر من وجود النهار ، ومن لم ير ذلك في عقله
وفطرته فليتهمها .

• اختلاف الناس في الالهوية

ولكن من الناس طوائف تربهم فطرتهم هذا المقدار من الحق ، فلا يشركون بالله في ربوبيته
احداً ، ولا يشبّهون معه خالقاً آخر ، لكنهم اهل إشراك به في إلهيته . وهم المقرون بأنه وحده رب
كل شيء ، ومليكه وخالقه ، وأنه ربهم ورب آبائهم الأولين ، ورب السموات السبع ، ورب
العرش العظيم . وهم مع هذا يعبدون غيره ، ويعدلون به سواء في المحبة والطاعة والتعظيم .

وهم الذين اتخذوا من دون الله أندادا. فهؤلاء لم يوقوا «إياك نعبد» حقّه، وإن كان لهم نصيب من «نعبدك» لكن ليس لهم نصيب من «إياك نعبد» المتضمن معنى: لا نعبد إلا إياك، حباً وخوفاً ورجاء وطاعة وتعظيماً، فـ «إياك نعبد» تحقيق لهذا التوحيد، وإبطال للشرك في الإلهية، كما أن «إياك نستعين» تحقيق لتوحيد الربوبية، وإبطال للشرك به فيها، وكذلك قوله (اهدنا الصراط المستقيم • صراط الذين أنعمت عليهم) فإنهم أهل التوحيد، وهم أهل تحقيق «إياك نعبد، وإياك نستعين» وأهل الإشراك: هم أهل الغضب والضلال.

• تعطيل التعطيل

وقد تضمنت الفاتحة الرد على الجهمية مُعظلة الصفات، أهل التوحيد الناقص، الذين ينفون أن تكون ذات الله عز وجل متصفة بالعلم والقدرة والرزق ونحو ذلك من وجوه: أحدها: من قوله (الحمد لله) فإن إثبات الحمد الكامل له يقتضي ثبوت كل ما يحمده عليه، من صفات كماله، ونعمت جلاله. إذ من عدم صفات الكمال فليس بحمده على الإطلاق. وغايته: أنه معمود من وجه دون وجه، ولا يكون محمداً بكل وجه، وبكل اعتبار بجميع أنواع الحمد: إلا من استولى على صفات الكمال جميعها. فلو عدم منها صفة واحدة لنقص من حده بحسبها.

وكذلك في إثبات صفة الرحمة له: ما يتضمن إثبات الصفات التي تستلزمها: من الحياة، والإرادة والقدرة، والسمع والبصر، وغيرها. وكذلك صفة الربوبية: تستلزم جميع صفات الفعل وصفة الإلهية تستلزم جميع أوصاف الكمال: ذاتاً وأفعالاً، كما تقدم بيانه.

فكونه محمداً إلهاً رباً، رحماناً رحيماً، ملكاً مبدواً، مستعاناً، هادياً منعماً، يرضى ويغضب - مع نفي قيام الصفات به - : جمع بين التقيضين. وهو من أهل المحال. وهذه الطريق تتضمن إثبات الصفات الخيرية من وجهين:

أحدهما: أنها من لوازم كماله المطلق. فإن استواءه على عرشه من لوازم علوه، ونزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا في نصف الليل الثاني: : لوازم رحمته وربوبيته. وهكذا سائر الصفات الخيرية.

الوجه الثاني: أن السمع ورد بها، ثناء على الله ومدحاً له، وتعرفاً منه إلى عبادته بها. فجلدها وتحريفها عما دلت عليه، وعما أريد بها: مناقض لما جاءت به. فلك أن تستدل بطريق السمع على أنها كمال، وأن تستدل بالعقل كما تقدم.

● كسر الجبر

وكذلك تضمنت الرد على الجبرية، الذين يقولون ان افعال العباد كلها لاخيار لهم فيها. وذلك من وجوه:

أحدهما: من إثبات عموم حمله سبحانه. فإنه يقتضي أن لا يعاقب عبيده على ما لا قدرة لهم عليه، ولا هو من فعلهم. بل هو بمنزلة ألوانهم، وطولهم وقصرهم، بل هو يعاقبهم على نفس فعله بهم. فهو الفاعل لقباحاتهم في الحقيقة. وهو المعاقب لهم عليها. فحمده عليها يأبى ذلك أشد الإيذاء، وينفيه أعظم النفي. فتعالى من له الحمد كله عن ذلك علواً كبيراً، بل إنما يعاقبهم على نفس أفعالهم التي فعلوها حقيقة. فهي لأفعاله. وإنما أفعاله العدل، والإحسان والخيرات. الوجه الثاني: إثبات رحمته ورحانيته ينفي ذلك. إذ لا يمكن اجتماع هذين الأمرين قط — أن يكون رحماناً رحيماً — و يعاقب العبد على ما لا قدرة له عليه، ولا هو من فعله، بل يكلفه ما لا يطيقه، ولله عليه قدرة ألبتة، ثم يعاقبه عليه. وهل هذا إلا ضد الرحمة. ونقض لها وإبطال؟ وهل يصح في معقول أحد اجتماع ذلك، والرحمة التامة الكاملة، في ذات واحدة؟

الوجه الثالث: إثبات العبادة والاستعانة لهم، ونسبتها إليهم، بقولهم «نعبد، ونستعين» وهي نسبة حقيقة لا مجازية. والله لا يصح وصفه بالعبادة والاستعانة التي هي من أفعال عبيده، بل العبد حقيقة هو العابد المستعين. والله هو المعبود المستعان به.

● إثبات النبوات

وتضمنت الفاتحة الرد على متكري النبوات.

وذلك من وجوه:

أحدها: إثبات حمله التام. فإنه يقتضي كمال حكمته، وأن لا يخلق خلقه عبثاً، ولا يتركهم شدي، لا يؤثرون ولا ينهون. ولذلك قرأه الله نفسه عن هذا في غير موضع من كتابه. وأخير أن من أنكر الرسالة والنبوة. وأن يكون ما أنزل على بشر من شيء — فإنه ما عرفه حق معرفته، ولا يحيطه حق تعظيمه، ولا قدره حق قدره، بل نسب إلى ما لا يليق به، ويأباه حمله ومجده.

فمن أعطى الحمد حقه — علماً ومعرفة وبصيرة — استنبط منه «أشهد أن محمداً رسول الله» كما يستنبط منه «أشهد أن لا إله إلا الله» وعلم قطعاً أن تعطيل النبوات في منافاته للحمد، كتعطيل صفات الكمال، وكإثبات الشركاء والأنداد.

الثاني: إلهيته، وكونه الهاً. فإن ذلك مستلزم لكونه معبوداً مطاعاً. ولا سبيل إلى معرفة

ما يعبد به و يطاع إلا من جهة رسله.

الثالث: كونه رباً. فإن الربوبية تقتضي أمر العباد ونهيهم. وجزاء محنتهم بإحسانه، ومسيئتهم بإساءته. هذا حقيقة الربوبية. وذلك لا يتم إلا بالرسالة والنبوة.

الرابع: كونه رحماناً رحيماً. فإن من كمال رحمته: أن يُعرف عباده نفسه وصفاته ويدلهم على ما يقربهم إليه، ويباعدهم منه. ويشيهم على طاعته، ويمزيهم بالحسنى. ذلك لا يتم إلا بالرسالة والنبوة. فكانت رحمته مقتضية لها.

الخامس: ملكه. فإن الملك يقتضي التصرف بالقول، كما أن الملك يقضى التصرف بالفعل، فالملك هو المتصرف بأمره وقوله فتنفذ أوامره ومراسيمه حيث شاء. والمالك هو المتصرف في ملكه بفعله. والله له الملك. وهو المتصرف في خلقه بالقول والفعل.

وتصرفه بقوله نوحان: تصرف بكلماته الكونية، وتصرف بكلماته الدينية، وكمال الملك بهما.

فإرسال الرسل: موجب كمال ملكه وسلطانه، وهذا هو الملك المقول في فطر الناس وعقولهم. فكل تلك لا تكون له رسل يثبثهم في أقطار مملكته فليس بملك. وبهذه الطريق يعلم وجود ملائكته، وأن الإيمان بهم من لوازم الإيمان بملكه. فإنهم رسل الله في خلقه وأمره.

السادس: ثبوت «يوم الدين» وهو يوم الجزاء، الذي يدين الله فيه العباد بأعمالهم خيراً وشرّاً. وهذا لا يكون إلا بعد ثبوت الرسالة والنبوة، وقيام الحجة التي بسببها يُدان المطيع والعاصي.

السابع: كونه معبوداً. فإنه لا يعبد إلا بما يحبه ويرضاه. ولا سبيل للخلق إلى معرفة ما يحبه ويرضاه إلا من جهة رسله. فإنكار رسله إنكار لكونه معبوداً.

الثامن: كونه هادياً إلى الصراط المستقيم. وهو معرفة الحق والعمل به، وهو أقرب الطرق الموصلة إلى المطلوب. فإن الخط المستقيم: هو أقرب خط موصل بين نقطتين. وذلك لا يعلم إلا من جهة الرسل. فتوقفه على الرسل ضروري، أعظم من توقف الطريق الحسى على سلامة الحواس.

التاسع: كونه منعماً على أهل الهداية إلى الصراط المستقيم. فإن إنعامه عليهم إنما تم بإرسال الرسل إليهم، وجعلهم قائلين الرسالة، مستجيبين لدعوته. وبذلك ذكّرهم بمثته عليهم، وإنعامه في كتابه.

العاشر: انتقام خلقه إلى منعم عليهم، ومغضوب عليهم، وضالين. فإن هذا الانتقام ضروري بحسب انتقامهم في معرفة الحق، والعمل به إلى عالم به، عامل بموجبه. وهم أهل النعمة. وعالم به معاند له. وهم أهل الغضب. وجاهل به وهم الضالون. هذا الانتقام إنما

نشأ بعد إرسال الرسل . فلو لا الرسل لكانوا أمة واحدة . فانقسامهم إلى هذه الأقسام مستحيل بدون الرسالة . وهذا الانقسام ضروري بحسب الواقع . فالرسالة ضرورية .
وقد تبين لك بهذه الطريق ، والتي قبلها : بيان تضمنتها لثبوت الثواب والعقاب والأمر والنهي . وهو الحق الذي خلقت به وله السموات والأرض ، والدنيا والآخرة . وهو مقتضى الخلق والأمر ، ونفيه نفى لهما .

• وكلم الله موسى تكليماً

إذا ثبتت النبوات والرسالة ثبتت صفة التكلم والتكليم
فإن حقيقة الرسالة : تبليغ كلام المرسل . فإذا لم يكن ثم كلام فماذا يبلغ الرسول ؟ بل كيف يعقل كونه رسولا ؟ ولهذا قال غير واحد من السلف : من أنكر أن يكون الله متكلماً ، أو يكون القرآن كلامه : فقد أنكر رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، بل ورسالة جميع الرسل ، التي حقيقتها : تبليغ كلام الله تبارك وتعالى . ولهذا قال منكر ورسالته صلى الله عليه وسلم عن القرآن (٧٤: ٢٤، ٢٥) **إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ . إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ** وأما عنوا القرآن المسموع الذي بلغوه ، وأنذروا به .

فمن قال : إن الله لم يتكلم به ، فقد ضاها قولهم . تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

غَيْبُ كَلَامَةِ وَاسْتِنَعَا

وسر الخلق والأمر، والكتب والشرائع، والثواب والمقاب : انتهى إلى هاتين الكلمتين.
وهما الكلمتان المقسومتان بين الرب وبين عبده نصفين . فنصفهما له تعالى وهو «إياك
نعبد» ونصفهما لعبده . وهو «إياك نستعين».

و «العبادة» تجمع أصليين : غاية الحب بغاية الذل والخضوع . والعرب تقول : طريق معبد
أي مذل . والتعبد : التذلل والخضوع . فمن أحببته ولم تكن خاضعاً له ، لم تكن عابداً له .
ومن خضعت له بلا محبة ، لم تكن عابداً له ، حتى تكون عبداً خاضعاً . ومن ههنا كان المنكرون
محبة العباد لربهم منكرين حقيقة العبودية ، والمنكرون لكونه محبوباً لهم . بل هو غاية مطلوبهم
— وجهه الأعلى نهاية غيتهم — منكرين لكونه إلهاً ، وإن أقروا بكونه رباً للعالمين وشالفاً لهم .
فهذا غاية توحيدهم . وهو توحيد الربوبية ، الذي اعترف به مشركو العرب ، ولم يخرجوا به
عن الشرك ، كما قال تعالى (٤٣: ٨٧) ولئن سألتهم من خلقهم؟ ليقولن الله) وقال تعالى
(٣٩: ٣٨) ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض؟ ليقولن الله) (٢٢: ٨٤ — ٨٩
قل لمن الأرض ومن فيها؟ — إلى قوله — يقولون لله . قل فأنى تُشخرون؟) ولهذا يمتنع
عليهم به على توحيد إلهيته ، وأنه لا ينبغي أن يعبد غيره ، كما أنه لا خالق غيره ، ولا رب سواه .

و «الاستعانة» تجمع أصليين : الثقة بالله والاعتماد عليه . فإن العبد قد يثق بالواحد من
الناس ، ولا يعتمد عليه في أموره — مع ثقته به — لاستغناؤه عنه . وقد يعتمد عليه — مع عدم ثقته
به — لحاجته إليه ، ولعدم من يقوم مقامه . فيحتاج إلى اعتماده عليه . مع أنه غير واثق به .
و «التوكل» معنى يلتزم من أصليين : من الثقة ، والاعتماد . وهو حقيقة «إياك نعبد وإياك
نستعين» وهذاان الأصلان — وهما التوكل ، والعبادة — قد ذكرا في القرآن في عدة مواضع ، قرن
بينهما فيها . هذا أحدها .

الثاني : قول شعيب (١١: ٨٨) وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب) .
الثالث : قوله تعالى (١٠: ١٢٣) ولله غيب السموات والأرض ، وإليه يرجع الأمر
كله ، فاعبده وتوكل عليه) .

الرابع : قوله تعالى حكاية عن المؤمنين (٤:٦٠) ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير) .

الخامس : قوله تعالى (٩،٨:٧٣) واذكر اسم ربك وتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتَلًا. رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو ، فاتخذهُ وكيلاً).

السادس : قوله تعالى (١٠:٤٣) قل: هوربي . لا إله إلا هو، عليه توكلت وإليه أنيب).

فهذه ستة مواضع يجمع فيها بين الأصلين . وهما «إياك نعبد وإياك نستعين» .
وتقديم «العبادة» على «الاستعانة» في الفاتحة من باب تقديم الغايات على الوسائل . إذ «العبادة» غاية العباد التي خلقوا لها ، و «الاستعانة» وسيلة إليها . ولأن «إياك نعبد» متعلق بألوهيته واسمهِ «الله» و «إياك نستعين» متعلق بربوبيته واسمهِ «الرب» فقدم «إياك نعبد» على «إياك نستعين» كما قدم اسم «الله» على «الرب» في أول السورة . لأن «إياك نعبد» قسم الرب . فكان من الشطر الأول ، الذي هو ثناء على الله تعالى ، لكونه أولى به . و «إياك نستعين» قسم العبد . فكان من الشطر الذي له ، وهو «اهدنا الصراط المستقيم» إلى آخر السورة .

ولأن «الاستعانة» جزء من «العبادة» من غير عكس . ولأن «الاستعانة» طلب منه ، و «العبادة» طلب له .

ولأن العبادة لا تكون إلا من غلص ، و «الاستعانة» تكون من غلص ومن غير غلص .
ولأن «العبادة» حقه الذي أوجبه عليك ، و «الاستعانة» طلب العون على العبادة . وهو بيان صدقته التي تصدق بها عليك . وأداء حقه : أهم من التعرض لصدقته .
ولأن «العبادة» شكر نعمته عليك ، والله يحب أن يشكر ، و «الإعانة» فعله بك وتوفيقه لك . فإذا التزمت عبوديته ، ودخلت تحت رفقها أعانك عليها . فكان التزامها والدخول تحت رفقها سبباً لنيل الإعانة . وكلما كان العبد أتم عبودية كانت الإعانة من الله له أعظم .
و «المعبودية» مغفوفة بإعانتين : إعانة قبلها على التزامها والقيام بها ، وإعانة بعدها على عبودية أخرى ، وهكذا أبداً ، حتى يقضى العبد تحبته .

فهذه الأسراريتين بها حكمة تقديم «إياك نعبد» على «إياك نستعين» .
وأما تقديم المعبود والمستعان على الفعلين ، ففيه : أدبهم مع الله بتقديم اسمه على فعلهم . وفيه الاهتمام وشدة العناية به . وفيه الإيذان بالاختصاص ، المسمى بالخضر . فهو في قوة : لانعبد إلا إياك ، ولا نستعين إلا بك . والحاكم في ذلك ذوق العريية والفقه فيها .
وتأمل قوله تعالى (٤٠:٢) وإياى فارهبون (٤١:٢) وإياى فاتقون) كيف تجده في قوة :

لا ترهبوا غيري ، ولا تتقوا سواي ؟ وكذلك «إياك نعبد وإياك نستعين» هو في قوة : لانعبد غيرك ولا نستعين بسواك . وكل ذي ذوق سليم يفهم هذا الاختصاص من علة السياق .
وفي إعادة «إياك» مرة أخرى دلالة على تعلق هذه الأمور بكل واحد من الفعلين . ففي إعادة الضمير من قوة الاقتضاء لذلك ما ليس في حذفه ، فإذا قلت لملك مثلاً : إياك أحب ، وإياك أخاف . كان فيه من اختصاص الحب والخوف بذاته ، والاهتمام بذكره ، ما ليس في قولك : إياك أحب وأخاف .

• نستعين بالله على عبادته

إذا عرفت هذا؛ فالناس في هذين الأصلين — وهما العبادة والاستعانة — أربعة أقسام .
أجلها وأفضلها : أهل العبادة والاستعانة بالله عليها . فعبادة الله غاية مرادهم وطلبهم منه أن يعينهم عليها ، ويوفقهم للقيام بها . ولهذا كان من أفضل ما يُسأل الرب تبارك وتعالى : الإعانة على مرضاته ، وهو الذي علّمه النبي صلى الله عليه وسلم لحيّه معاذ بن جبل رضى الله عنه ، فقال «يا معاذ ، والله إنني لأحبك . فلا تنس أن تقول دُبر كل صلاة : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك» .
فأنفع الدعاء : طلب العون على مرضاته . وأفضل المواهب : إسعافه بهذا المطلوب . وجميع الأدعية الماثورة مدارها على هذا ، وعلى دفع ما يضاهاه ، وعلى تكميله وتيسير أسبابه . فتأملها .
وقال شيخ الإسلام ابن تيمية — قدس الله روحه — : تأملت أنفع الدعاء : فإذا هو سؤال العون على مرضاته . ثم رأيته في الفاتحة في «إياك نعبد وإياك نستعين» .

• إمداد الكافر : زيادة حُجّة عليه

ومقابل هؤلاء : القسم الثاني . وهم المعرضون عن عبادته والاستعانة به . فلا عبادة ولا استعانة . بل إن سأله أحدهم واستعان به . فعل حظوظه وشهوته ، لا على مرضاة ربه وحقوقه . فإنه سبحانه يسأله من في السموات والأرض : يسأله أولياؤه وأعداؤه ويُؤدّ هؤلاء وهؤلاء . وأبغض خلقه : عدوه إبليس ، ومع هذا فقد سأله حاجة فأعطاه إياها ، ومتمه بها . ولكن لما لم تكن عوناً له على مرضاته . كانت زيادة له في شقوته ، وبعده عن الله وطرده عنه . وهكذا كل من استعان به على أمر وسأله إياه ، ولم يكن عوناً على طاعته : كان مبعداً له عن مرضاته قاطعاً له عنه ولا بد .

وليتأمل العاقل هذا في نفسه وفي غيره . وليعلم أن إجابة الله لسائله ليست لكرامة السائل عليه ، بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها له ، وفيها هلاكه وشقوته . ويكون قضاؤها له من هوانه عليه ، وسقوطه من عينه . ويكون منه منها لكرامته عليه وعجته له ، فيمنعه حماة وصيانة . وحفظاً ، لا يخلأ . وهذا إنما يفعله بعبده الذي يريد كرامته وعجته ، ويعامله بلطفه . فيظن — بحجته — أن الله لا يحب ولا يكرمه . ويراه يقضي حوائج غيره ، فيسيء ظنه بربه . وهذا حشو قلبه ولا يشعر به . والمعصوم من عصمه الله . والإنسان على نفسه بصيرة ، وعلامة هذا : حمله على الأقدار . وعتابه الباطن لها . كما قيل :

وعاجز الرأي يضياع لفرسته حتى إذا فات أمر عائب القدرا

فوالله لو كشف عن حاصله وسره لرأى هناك معاتبة القدر واتهامه ، وأنه قد كان ينبغي أن يكون كذا وكذا ، ولكن ما حيلتي ، والأمر ليس إليّ ؟ والعاقل خصم نفسه . والجاهل خصم أقدار ربه .

فاحذر كل الحذر أن تسأله شيئاً معيئاً خيرته وعاقبته مغيبة عنك . وإذا لم تجد من سؤاله بداً ، فقله على شرط علمه تعالى فيه الخيرة . وقدم بين يدي سؤالك الاستخارة . ولا تكن استخارة باللسان بلا معرفة ، بل استخارة من لاعلم له بمصالحه ، ولا قدرة له عليها ، ولا اهتداء له إلى تفاصيلها . ولا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً ، بل إن وكل إلى نفسه هلك كل الهلاك ، وانفرط عليه أمره .

وإذا أعطاك ما أعطاك بلا سؤال : تسأله أن يجعله عوناً لك على طاعته وبلاغاً إلى مرضاته ، ولا يجعله قاطعاً لك عنه ، ولا مبعداً عن مرضاته . ولا تظن أن عطاءه كل ما أعطى لكرامة عبده عليه ؛ ولا منعه كل ما يمنعه هوان عبده عليه ؛ ولكن عطاءه ومنعه ابتلاء وامتحان يمتحن بهما عباده قال الله تعالى (٨٩ : ١٥ و ١٦) فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه ، فيقول : ربي أكرمتني . وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول : ربي أهانتني * كلا أي ليس كل من أعطيته ونعمته وخلوته : فقد أكرمته وما ذاك لكرامته على . ولكنه ابتلاء مني ، وامتحان له : أيشكرني فأعطيه فوق ذلك ، أم يكفرني فأسلبه إياه ، وأخول فيه غيره ؟ وليس كل من ابتليته فضيقت عليه رزقه ، وجعلته بقدر لا يفضل عنه ، فذلك من هوانه على . ولكنه ابتلاء وامتحان مني له : أيعصير؟ فأعطيه أضعاف أضعاف ما فاته من سعة الرزق ، أم يستخط؟ فيكون حظه السخط .

فرد الله سبحانه على من ظن أن سعة الرزق إكرام ، وأن الفقر إهانة ، فقال : لم أبتل عبدي بالغنى لكرامته على ، ولم أبتله بالفقر لهوانه على . فأخبر أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرزق وتقليده . فإنه سبحانه يوسع على الكافر لا لكرامته ، ويقتصر على المؤمن لا

لإيهانته. إنفسا يكرم من يكرمه بمعرفته ومحبة وطاعته، ويهين من يهينه بالإعراض عنه
ومصيئته. فله الحمد على هذا وعلى هذا. وهو الغني الحميد.
فعمدت سعادة الدنيا والآخرة إلى «إياك نعبد وإياك نستعين».

• العادة بلا استعانة : نقض

القسم الثالث : من له نوع عبادة بلا استعانة . وهؤلاء نوعان .
أحدهما : القدرية ، القائلون بأنه قد فعل بالعبد جميع مقدوره من الألفاظ ، وأنه لم يبق في
مقدوره إعانة له على الفعل فإنه قد أعانه بخلق الآلات وسلامتها ، وتعريف الطريق ، وإرسال
الرسول ، وتمكينه من الفعل . فلم يبق بعد هذا إعانة مقدورة يسألها إياها . بل قد ساوى بين
أوليائه وأعدائه في الإعانة . فأعان هؤلاء كما أعان هؤلاء . ولكن أوليائه اختاروا لنفسهم
الإيمان ، وأعدائه اختاروا لنفسهم الكفر ، من غير أن يكون الله سبحانه وفق هؤلاء بتوفيق
زائد ، أوجب لهم الإيمان . وتخذل هؤلاء بأمر آخر ، أوجب لهم الكفر . فهؤلاء لهم نصيب
منقص من العبادة ، لا استعانة معه . فهم موكولون إلى أنفسهم . مسدود عليهم طريق
الاستعانة والتوحيد . قال ابن عباس رضى الله عنهما : الإيمان بالقدر نظام التوحيد ، فمن آمن
بالله وكذب بقدره نقض تكذيبه توحيده.

النوع الثاني : من لهم عبادات وأوراد ، ولكن حظهم ناقص من التوكل والاستعانة ، لم
تتسع قلوبهم لارتباط الأسباب بالقدر ، وتلاشيها في ضمنه ، وقيامها به ، وأنها بدون القدر
كالموت الذي لا تأثير له ، بل كالعدم الذي لا وجود له ، وأن القدر كالروح المحرك لها ، والمحول
على المحرك الأول.

فلم تنفذ قوى بصائرهم من المتحرك إلى المحرك ، ومن السبب إلى المسبب . ومن الآلة إلى
الفاعل . فضعفت عزائمهم ونصرت همهم ، فقل نصيبهم من «إياك نستعين» ولم يجدوا ذوق
التعبد بالتوكل والاستعانة ، وإن وجدوا ذوقه بالأزاد والوظائف .

فهؤلاء لهم نصيب من التوفيق والنفوذ والتأثير ، بحسب استعانتهم وتوكلهم . ولهم من
الخذلان والضعف والمهانة والعجز بحسب قلة استعانتهم وتوكلهم . ولو توكل العبد على الله حق
توكله في إزالة جبل عن مكانه ، وكان مأموراً بإزالته ، لأزاله .
فإن قلت : فما معنى التوكل والاستعانة ؟

قلت : هو نوال للقلب ينشأ عن معرفته بالله ، والإيمان بتفرد بالخلق ، والتدبير والضرر
والنفع ، والعطاء والمنع ، وأنه ما شاء كان ، وإن لم يشأ الناس ، وما لم يشأ لم يكن ، وإن

شَاءه الناس . فيوجب له هذا اعتماداً عليه ، وتقويضاً إليه ، وطمانينة به ، وثقة به ، و يقيناً بكفائته لما توكل عليه فيه ، وأنه تولى به ، ولا يكون إلا بمشيئته ، شاءه الناس أم أبوه .

فتشبه حالته حالة الطفل مع أبويه فيما يتو به من رغبة ورهبة هما تزيان بهما . فانظر في تجرد قلبه عن الالتفات إلى غير أبويه ، وحبس همه على إزال ما يتو بهما . فهذه حال المتوكل . ومن كان هكذا مع الله فالله كافيه ولا يد . قال الله تعالى (٦٥ : ٣) ومن يتوكل على الله فهو حسبه) أي كافيه . و«الحسب» الكافي . فإن كان — مع هذا — من أهل التقوى كانت له العاقبة الحميدة ، وإن لم يكن من أهل التقوى فهو :

القسم الرابع : وهو من شهد تفرد الله بالنفع والضر ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ولم يلد مع ما يحبه ويرضاه . فتوكل عليه ، واستعان به على حفظه وشهوته وأغراضه ، وطلبها منه ، وأزلهما به . فقضيت له ، وأسف بها . سواء كانت أموالاً أو رياسة أو جاهاً عند الخلق ، أو أحوالاً من كشف وتأثير وقوة وتمكين ، ولكن لعاقبة له . فإنها من جنس الملك الظاهر والأموال ولا تستلزم الإسلام ، فضلاً عن الولاية والقرب من الله . فإن الملك والجاه والمال والحال مطاعة للبر والفاجر ، والمؤمن والكافر . فمن استدل بشيء من ذلك على محبة الله لمن آتاه إياه ورضاه عنه ، وأنه من أوليائه المقربين . فهو من أجهل الجاهلين ، وأبعدهم عن معرفة الله ومعرفة دينه ، والتحميز بين ما يحبه ويرضاه ، ويكرهه ويسخطه . فالحال من الدنيا . فهو كالملك والمال ، إن أعان صاحبه على طاعة الله ومرضاه ، وتنفيذ أوامره : ألحقه بالملوك العادلين البررة ، وإلا فهو وبال على صاحبه ، ومبعد له عن الله ، وملحق له بالملوك الظلمة ، والأغنياء الفجرة .

● متابعة وإخلاص

إذا عرف هذا : فلا يكون العبد متحققاً بـ «إياك نعبد» إلا بأصلين عظيمين .

أحدهما : متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم .

والثاني : الإخلاص للمعبود . فهذا تحقيق «إياك نعبد» .

والناس منقسمون بحسب هذين الأصلين أيضاً إلى أربعة أقسام .

● الضرب الأول : أهل الإخلاص للمعبود والمتابعة . وهم أهل «إياك نعبد» حقيقة .

فأعمالهم كلها لله ، وأقوالهم لله ، وعطاؤهم لله ، ومنعهم لله ، وجههم لله ، وبغضهم لله . فمعاملتهم ظاهراً وباطناً لوجه الله وحده . لا يريدون بذلك من الناس جزاء ولا شكراً ، ولا ابتغاء لجاه عندهم ، ولا طلب المحمدة ، والمنزلة في قلوبهم ، ولا هرباً من ذمهم . بل قد غدوا الناس بمنزلة أصحاب القبور ، لا يملكون لهم ضرراً ولا نفعاً ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً . فالعمل

لأجل الناس ، وابتغاء الجاه والمنزلة عندهم ، ورجائهم للضر والنفع منهم : لا يكون من عارف بهم ألبتة ، بل من جاهل بشأنهم ، وجاهل بربه . فمن عرف الناس أقر لهم منازلهم . ومن عرف الله أحلص له أعماله وأقواله ، وعطاءه ومنعه وحبه وبغضه . ولا يعامل أحد الخلق دون الله إلا لجهله بالله وجهله بالخلق ، وإلا فإذا عرف الله وعرف الناس أثر معاملة الله على معاملتهم .

وكذلك أعمالهم كلها وعبادتهم موافقة لأمر الله ، ولما يحبه ويرضاه . وهذا هو العمل الذي لا يقبل الله من عامل سواه . وهو الذي يتلا عباده بالموت والحياة لأجله قال الله تعالى (٢:٦٧) الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وجعل ما على الأرض زينة لما ليختبرهم أيهم أحسن عملاً . قال الفضيل بن عياض : العمل الحسن هو أخلصه وأصوبه . قالوا : يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً : لم يقبل وإذا كان صواباً ، ولم يكن خالصاً : لم يقبل ، حتى يكون خالصاً وصواباً . والخالص : ما كان لله . والصواب : ما كان على السنة . وهذا هو المذكور في قوله تعالى (١٨:١١٠) فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) وفي قوله (٤:١٢٥) ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن) فلا يقبل الله من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه ، على متابعة أمره . وما عدا ذلك فهو مردود على عامله ، يُرد عليه — أخرج ما هو إليه — هباء منثوراً . وفي الصحيح من حديث عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم «كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد» وكل عمل بلا اقتداء فإنه لا يزيد عامله من الله إلا بئداً . فإن الله تعالى إنما يُعبد بأمره ، لا بالأراء والأهواء .

● الضرب الثاني : من لا إخلاص له ولا متابعة . فليس عمله موافقاً لشرع ، وليس هو خالصاً للمعبود ، كأعمال المتزينين للناس ، الرائين لهم بما لم يشرعه الله ورسوله . وهؤلاء شرار الخلق ، وأمقتهم إلى الله عز وجل . ولهم أوفر نصيب من قوله (٣:١٨٨) لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا . فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب . ولهم عذاب أليم) يفرحون بما أتوا من البدعة والضلالة والشرك ، ويحبون أن يمدحوا باتباع السنة والإخلاص .

وهذا الضرب يكثر فيمن انحرف — من المنتسبين إلى العلم والفقر والعبادة — عن الصراط المستقيم . فإنهم يرتكبون البدع والضلالات ، والرياء والسبحة ويحبون أن يمدحوا بما لم يفعلوه من الإتياع والإخلاص والعلم . فهم أهل الغضب والضلال .

● الضرب الثالث : من هو غلص في أعماله ، لكنها على غير متابعة الأمر كجهال العبادة ، والمنسبين إلى طريق الزهد والفقر ، وكل من عبد الله بغير أمره واعتقد عبادته هذه قرينة إلى الله

فهذا حاله . كمن يظن أن سماع الشكوى والتصدية قربة ، وأن الخلوة التي يترك فيها الجمعة والجماعة قربة ، وأن مواصلة صوم النهار بالليل قربة ، وأن صيام يوم فطر الناس كلهم قربة . وأمثال ذلك .

● الضرب الزايع : من أعماله على متابعة الأمر ، لكنها لغير الله . كطاعة المرائين ، وكالرجل يقاتل رياء وحيية وشجاعة ، ويحج ليقال ، ويقرأ القرآن ليقال . فهؤلاء أعمالهم ظاهرها أعمال صالحة مأمور بها ، لكنها غير صالحة . فلا تقبل (٩٨: ٥) وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) فكل أحد لم يؤمر إلا بعبادة الله بما أمر . والإخلاص له في العبادة . وهم أهل «إياك نعبد وإياك نستعين» .

● الميزان الصحيح لأفضلية العبادة

ثم أهل مقام «إياك نعبد» لهم في أفضل العبادة وأنفعها وأحقها بالإيثار والتخصيص أربع طرق . فهم في ذلك أربعة أصناف .

الصنف الأول: عندهم أنفع العبادات وأفضلها : أشقها على النفوس وأصعبها .

قالوا : لأنه أبعد الأشياء عن هواها ، وهو حقيقة التعبد .

قالوا: والأجر على قدر المشقة . ورووا حديثاً لا أصل له «أفضل الأعمال أحرها» أي أصعبها وأشقها .

وهؤلاء : هم أهل المجاهدات والجور على النفوس .

قالوا: وإنما تستقيم النفوس بذلك . إذ طبعها الكسل والمهانة ، والإخلاق إلى الأرض . فلا تستقيم إلا بركوب الأهوال وتحمل المشاق .

الصنف الثاني، قالوا: أفضل العبادات التجرد ، والزهد في الدنيا ، والتقلل منها غاية الإمكان ، وإقتران الاهتمام بها ، وعدم الاكتراث بكل ما هو منها .

ثم هؤلاء قسمان:

فعمومهم : ظنوا أن هذا غاية ، فشمروا إليه وعملوا عليه . ودعوا الناس إليه ، وقالوا: هو أفضل من درجة العلم والعبادة . فرأوا الزهد في الدنيا غاية كل عبادة ورأسها .

وخواصهم : رأوا هذا مقصوداً لغيره ، وأن المقصود به عكوف القلب على الله ، وجمع المهمة عليه ، وتفرغ القلب لمحبهه ، والإنابة إليه . والتوكل عليه ، والاشتغال بمرضاته ، ودوام ذكره بالقلب واللسان ، والاشتغال بمراقبته ، دون كل ما فيه تفرق القلب وتشيت له .

الصنف الثالث: رأوا أن أنفع العبادات وأفضلها : ما كان فيه نفع متعد ، فأروه أفضل من

ففي النفع القاصر . فرأوا خدمة الفقراء ، والاشتغال بمصالح الناس وقضاء حوائجهم ، ومساعدتهم بالمال والجاء والنفع أفضل . فتصدوا له وعملوا عليه واحتجوا بقول النبي صلى الله عليه وسلم «الخلق كلهم عيال الله . وأحبهم إليه أنفعهم لعياله» رواه أبو يعلى . واحتجوا بأن عمل العابد قاصر على نفسه ، وعمل النافع متعد إلى الغير ، وأين أحدهما من الآخر؟

قالوا: ولهذا كان فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب . قالوا: وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب رضى الله عنه «لأن يهذى الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمْر النعم» وهذا التفصيل إنما هو للنفع المتعدى . واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه ، من غير أن ينقص من أجورهم شيء» .

واحتجوا بأن صاحب العبادة إذا مات انقطع عمله ، وصاحب النفع لا ينقطع عمله ، مادام نفعه الذي نسب إليه .

واحتجوا بأن الأنبياء إنما بعثوا بالإحسان إلى الخلق وهدايتهم ، ونفعهم في معاشهم ومماتهم . لم يبعثوا بالخلوات والانقطاع عن الناس والترهب . ولهذا أنكر النبي صلى الله عليه وسلم على أولئك نفر الذين هموا بالانقطاع للتعبد ، وترك مخالطة الناس .

الصنف الرابع ، قالوا : إن أفضل العبادة : العمل على مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته . فأفضل العبادات في وقت الجهاد : الجهاد ، وإن آل إلى تركه إلا ورا ، من صلاة الليل وصيام النهار . بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض ، كما في حالة الأمن .

والأفضل في وقت حضور الضيف مثلاً : القيام بحقه ، والاشتغال به عن الورد المستحب . وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل .

والأفضل في أوقات السحر : الاشتغال بالصلاة والقرآن ، والدعاء والذكر والاستغفار . والأفضل في وقت استرشاد الطالب ، وتعليم الجاهل : الإقبال على تعليمه والاشتغال به . والأفضل في أوقات الأذان : ترك ما هو فيه من ورده ، والاشتغال بإجابة المؤذن . والأفضل في أوقات الصلوات الخمس : الجِد والنصح في إيقاعها على أكمل الوجوه ، والبادرة إليها في أول الوقت ، والخروج إلى الجامع . وإن بعد كان أفضل . والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاء ، أو البدن ، أو المال الاشتغال بمساعدته ، وإغاثة لهفته ، وإيثار ذلك على أورادك وخلوتك . والأفضل في وقت قراءة القرآن : جمع القلب والهمة على تدبره وتفهمه . حتى كأن الله

تمال مخاطبك به . فتجتمع عليك كل فهمه وتدبره ، والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعة قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك .

والأفضل في وقت الوقوف يعرفه : الاجتهاد في التضرع والدعاء والذكر دون الصوم المضعف عن ذلك .

والأفضل في أيام عشر ذي الحجة : الإكثار من التعب ، لاسيما التكبير والتهليل والتحميد . فهو أفضل من الجهاد غير المتعين .

والأفضل في العشر الأخير من رمضان : لزوم المسجد فيه والحلوة والاعتكاف دون التصدي لمخالطة الناس والاشتغال بهم ، حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم ، وإقرائهم القرآن ، عند كثير من العلماء .

والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته : عيادته ، وحضور جنازته وتشيعه .

والأفضل في وقت نزول النازل وأداة الناس لك : أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم ، دون الحرب منهم . فإن المؤمن الذي يخالط الناس ليصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يذونه .

والأفضل خلطتهم في الخير فهي خير من اعتزالهم فيه ، واعتزالهم في الشر فهو أفضل من خلطتهم فيه . فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قلله فخلطتهم حيث أفضل من اعتزالهم .
فالأفضل في كل وقت وحال : إثارة مرضاة الله في ذلك الوقت والحال . والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه .

وهؤلاء هم أهل التعب المطلق . والأصناف قبلهم أهل التعب المقيد . فمضى خرج أحدهم عن النوع الذي تعلق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته . فهو يعبد الله على وجه واحد ، وصاحب التعب المطلق ليس له غرض في تعب بعينه يؤثره على غيره ، بل لا يزال متنقلاً في منازل العبودية . كلما رفعت له منزلة عمل على سيره إليها ، واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى . فهذا دأبه في السير حتى ينتهي سيره . فإن رأى العلماء رأيت معهم . وإن رأيت العباد رأيت معهم . وإن رأيت المجاهدين رأيت معهم . وإن رأيت الذاكرين رأيت معهم ، وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيت معهم .

فهذا هو العبد المطلق ، الذي لم تملكه الرسوم ، ولم تقيده القيود ، ولم يكن عمله على مراد نفسه ، ومافيه لذتها وراحتها من العبادات . بل هو على مراد ربه ، ولو كانت راحة نفسه ولذتها في سواه . فهذا هو الملتحق بـ «إياك نعبد وإياك نستعين» حقاً ، القائم بهما صدقاً . ملبسه ماتهياً . ومأكله ماتيسر . واشتغاله بما أمر الله به في كل وقت وبوقته . وجلسه حيث انتهى به المكان ووجده خالياً . لاهلكه إشارة . ولا يتعمده قيد . ولا يستولى عليه رسم . حر مجرد . دائر

مع ، و مرحب دار ، يدين يدين الامر انى توجهت ركائبه . و يدور معه حيث استقلت مضاربه .
يأنس به كل محق . ويستوحش منه كل مبطل ، كالغيث حيث وقع نفع . وكالخلقة
لايسقط ورقها . وكلها متفعة حتى شوكتها . وهو موضع النظفة منه على المخالفين لأمر الله ،
والغضب إذا انتهكت هارم الله . فهو لله وبالله ومع الله . قد صحب الله بلاخلق ، وصحب
الناس بلا نفس . بل إذا كان مع الله عزل الخلاق عن الين ، وتخل عنهم . وإذا كان مع
خلقه عزل نفسه من الوسط وتخل عنها . فواهاً له ! ما أغرته بين الناس ! وما أشد وحشة منهم !
وما أعظم أنسه بالله وفرحه به ، وطمانيته وسكونه إليه !! والله المستعان . وعليه التكلان .

● جِرمَانُ التَّجْبِرِي مِنْ حِلَاوَةِ الْعِبَادَةِ

ثم للناس في منفعة العبادة وحكمتها ومقصودها طرق أربعة . وهم في ذلك أربعة أصناف .
الصنف الأول : التجبرية الذين يردون الأمر إلى محض المشيئة ، وصرّف الإرادة ، فهؤلاء
عندهم القيام بها ليس إلا لمجرد الأمر ، من غير أن تكون سبباً لسعادة في معاش ولا معاد ،
ولاسبباً لنجاة . وإنما القيام بها لمجرد الأمر ومحض المشيئة .
وهؤلاء لا يجدون حلاوة العبادة ولا لذتها ، ولا يتمتعون بها . وليست الصلاة قرة أعينهم .
وليست الأوامر سرور قلوبهم ، وغذاء أرواحهم وحياتهم . ولهذا يسمونها «تكاليف» أي قد
كلفوا بها . ولو سمي تدع لمحبة ملك من الملوك أو غيره ما يأمره به تكليفاً يوقال إني إنما أفعله
بكلفة ! لم يمه أحد عبداً له . ولهذا أنكر هؤلاء — أو كثير منهم — محبة العبد لربه . وقالوا : إنما
يجب ثوابه وما يخلقه له من النعيم الذي يتمتع به . لا أنه يجب ذاته . فجعوا المحبة لمخلوقه دونه .
وحقيقة المبودية هي كمال المحبة . فأنكروا حقيقة العبودية ولّبها . وحقيقة الإلهية : كونه مألوهاً
محبوباً بغاية الحب ، المقرون بغاية الذل والخضوع ، والإجلال والتعظيم . فأنكروا كونه محبوباً .
وذلك إنكار لإلهيته ، وشيخ هؤلاء : هو التجند بن درهم الذي ضحى به خالد بن عبد الله القسري
في يوم أضحى . وقال «إنه زعم أن الله لم يكلم موسى تكليماً ، ولم يتخذ إبراهيم خليلاً» وإنما
كان إنكاره : لكونه تعالى محبوباً عبداً ، لم ينكر حاجة إبراهيم إليه ، التي هي الخلقة عند الجهمية ،
التي يشترك فيها جميع الخلاق . فكلهم أخلاء لله عندهم .

● وَبَعْضُ يَمْتُونُ إِسْلَامَهُمْ

الصنف الثاني : القدرية الثفاة ، الذين يقولون أن العبادات شرعت أثماناً لما يناله العباد

من الثواب والنعيم ، وأنها بمنزلة استيفاء أجره الأجير.

قالوا: ولهذا يجعلها الله تعالى عوضاً لقوله (٤٣:٧) وتودوا أن تُلْكَم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون) وقوله (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) وقوله (هل تحزنون إلا ما كنتم تعملون) وقوله صلى الله عليه وسلم — فيما يحكى عن ربه عز وجل — «يا عبادي ، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفىكم بإياها» وقوله تعالى (١٠:٣٩) إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب).

قالوا: وقد سماه الله سبحانه جزاء وأجرًا وثواباً . لأنه يثوب إلى العامل من عمله ، أي يرجع إليه منه .

وإنما كان الجزاء ثواباً — والله أعلم — لأنه يثوب إلى العامل ، وترجع إليه ثمرة عمله في الدنيا لينقدها بحسب نفسه عليها ، ويعرف ما في عمله من نقص وانحراف عن الجادة — ولا بد — بقدر ما وجد في ثمرته التي ثابت . ورجعت إليه في الدنيا ، ككل الشؤون والأعمال الدنيوية ، من صناعة وزراعة وتجارة وغيرها ، فيستدرك العبد النقص ، ويتحرى الصراط المستقيم . فإذا لم ينقده عمله ، ولم يحاسب نفسه ، لما يغلب عليه من الغفلة والجهالة والتقليد الأعشى ، كان ذلك قاطعاً لعذره يوم القيامة .

قالوا: ولولا ارتباطه بالعمل لم يكن تسميته جزاء ولا أجرًا ولا ثواباً معنى .

قالوا: ويدل عليه الوزن . فلولا تعلق الثواب والعقاب بالأعمال واقتضائها لها ، وكونها كالأثمان لها ، لم يكن للوزن معنى . وقد قال تعالى (٨:٧) والوزن يومئذ الحق . فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خففت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون) .

وهاتان الطائفتان متقابلتان أشد التقابل . وبينهما أعظم التباين .

فالجبرية لم تجعل للأعمال ارتباطاً بالجزاء البتة . وجوزت أن يعذب الله من أفنى عمره في طاعته ، وينعم من أفنى عمره في معصيته . وكلاهما بالنسبة إليه سواء . وجوزت أن يرفع صاحب العجل القليل على من هو أعظم منه عملاً ، وأكثر وأفضل درجات . والكل عندهم رجع إلى محض المشيئة ، من غير تعليل ولا سبب ، ولا حكمة تقتضي تخصيص هذا بالثواب ، وهذا بالعقاب .

والقدرية أوجبت على الله سبحانه رعاية الأصلح . وجعلت ذلك كنهه بمحض الأعمال وثمرتها ، وأن وصول الثواب إلى العبد بدون عمله فيه تنقيص باحتمال ميّة الصدقة عليه بلا ثمن . فقاتلهم الله . ما أجهلهم بالله وأغرهم به ! جعلوا تفضله وإحسانه إن عبده بمنزلة صدقة العبد العبيد ، حتى قالوا: إن إعطاءه ما يعطيه أجره على عمله أحب إلى العبد وأطيب له من أن

يعطيه فضلاً منه بلا عمل.

فقابلتهم الجبرية أشد المقابلة . ولم يجعلوا للأعمال تأثيراً في الجزاء البتة.

والطائفتان جائزتان ، منحرفتان عن الصراط المستقيم ، الذي فطر الله عليه عباده ، وجاءت به الرسل ، وتزلت به الكتب . وهو أن الأعمال أسباب موصلة إلى الثواب والعقاب . مقتضية لهما كإقتضاء سائر الأسباب لمسيباتها ، وأن الأعمال الصالحة من توفيق الله وفضله وقته ، وصدقته على عبده . إن أعانه عليها ووقفه لها ، وخلق فيه إرادتها والقدره عليها ، وحَبَّيها إليه ، وَزَيَّنْها في قلبه وكَرَّمْها إليه أَضدادها . ومع هذا فليست ثمتاً لجزائه وثوابه ، ولا هي على قدره ، بل غاييتها — إذا بذل العبد فيها تَصَحُّه وجهده ، وأوقعها على أكمل الوجوه — أن تقع شكراً له على بعض نعمه عليه . فلو طال به يحقه لبقى عليه من الشكر على تلك النعمة بقية لم يقدِّم بشكرها . فلذلك لو عَذَّبَ أهل سمواته وأهل أرضه لعذبتهم وهو غير ظالم لهم . ولورحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم . كما ثبت ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم . ولهذا نفى النبي صلى الله عليه وسلم دخول الجنة بالعمل ، كما قال «لن يدخل أحدكم الجنة بعمله» — وفي لفظ : لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله . وفي لفظ : لن ينجي أحدكم بعمله — قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل» وأثبت سبحانه دخول الجنة بالعمل ، كما في قوله (٣٢:١٦) ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ولا تنافي بينهما . إذ توارد النفي والإثبات ليس على معنى واحد . فالمنفى استحقاقها بمجرد الأعمال ، وكون الأعمال ثمتاً وعرضاً لها ، رداً على القدرة المجوسية ، التي زعمت أن الفضل بالثواب ابتداء متضمن لتكرير المنة.

وهذه الطائفة من أجهل الخلق بالله ، وأغلظهم عنه حجاباً . وحقَّ لهم أن يكونوا مجوس هذه الأمة . ويكفي في جهلهم بالله : أنهم لم يعلموا أن أهل سمواته وأرضه في مِثْنَةٍ . وأن من تمام الفرج والسرور ، والخبطة واللذة : اغتباطهم بمنة سيدهم ومولاهم الحق ، وأنهم إنما طاب لهم عيشهم بهذه المنة . وأعظمهم منه منزلة ، وأقربهم إليه : أعرفهم بهذه المنة ، وأعظمهم إقراراً بها ، وذكرها لها ، وشكراً عليها ، وعبة له لأجلها . فهل يتقلب أحد قط إلا في منتهى ؟ (١٧:٤٩) يَمْشُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ، قُلْ لَا تَقْنُؤْا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ ، بل الله بمن عليكم أن هذا لكم للإيمان إن كنتم صادقين).

واحتمال منة المخلوق : إنما كانت نقصاً لأنه نظيره . فإذا مرَّ عليه استعلى عليه ، ورأى المسنوء عليه نفسه دونه . هذا مع أنه ليس في كل مخلوق ، فلرسول الله صلى الله عليه وسلم المنة على أمته ، وكان أصحابه يقولون «الله ورسوله آمن» ولا تنقص في منة الوالد على ولده ، ولا عار عليه في احتمالها ، فكيف برب العالمين الذي إنما يتقلب الخلاق في بحر منتهى عليهم ، ومحض

صدقته عليهم ، بلاعرض منهم البتة ؟ وإن كانت أعمالهم أسباباً لما ينالونه من كرمه وجوده . فهو المشان عليهم ، بأن وقفهم لتلك الأسباب وهداهم لها ، وأعانهم عليها وكملها لهم ، وقبلها منهم على ما فيها ؟ وهذا هو المعنى الذي أثبت به دخول الجنة في قوله (إما كنتم تعملون) . فهذه باء السببية ، رداً على القدرية والجبرية ، الذين يقولون : لا ارتباط بين الأعمال والجزاء ولا هي أسباب له .

فالنصوص مبطللة لقول هؤلاء . كما هي مبطللة لقول أولئك . وأدلة المعقول والفطرة أيضاً تبطل قول الفريقين . وتبين لمن له قلب ولب . مقدار قول أهل السنة . وهم الفرقة الوسط المثبتون لعموم مشيئة الله . وقدرته ، وخلقه العباد وأعمالهم ، وحكمته التامة المتضمنة ربط الأسباب بسبباتها ، وانقادها بها شرعاً وقدرأ وترتيبها عليها عاجلاً وأجلاً . وكل واحدة من الطائفتين المتحرفتين تركت نوعاً من الحق ، وارتكبت لأجله نوعاً من الباطل بل أنواعاً . وهدى الله أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه (٢: ٢١٣) والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) و (٦٢: ٤) ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم) .

● تَفَلُّسْ

الصنف الثالث: الذين زعموا أن فائدة العبادة : رياضة النفوس ، واستعدادها لفيض العلوم عليها ، وخروج قواها عن قوى النفوس البهيمية . فلو غطلت عن العبادات لكانت من جنس نفوس السباع والبهائم . والعبادات تخرجها عن مألوفاتها وعوائدها ، وتنقلها إلى مشابهة العقول المجردة . فتصير عالمة قابلة لانتقاش صور العلوم والمعارف فيها .

● المحبة اساس العبادة

وأما الصنف الرابع : فهم الطائفة المحمدية الابراهيمية ، أتباع الخليلين ، العارفون بالله وحكمته في أمره وشرعه وخلقه ، وأهل البصائر في عبادته ، ومراده بها . قالطوائف الثلاث مجربون عنهم بما عندهم من الشبه الباطلة ، والقواعد الفاسدة . ما عندهم وراء ذلك شيء . قد فرحوا بما عندهم من المحال ، وقتنوا بما ألفوه من الخيال . ولو علموا أن وراءه ما هو أجل منه وأعظم ، لما ارتضوا بدونه ، ولكن عقولهم قصرت عنه ، ولم يهتدوا إليه

يستور النبوة ، ولم يشعروا به ، ليجتهدوا في طلبه ، ورأوا أن مامهم خير من الجهل ، ورأوا تناقض ما مع غيرهم وفساده .

فتركب من هذه الأمور إشاراً ما عندهم على ما سواه . وهذه بلية الطوائف . والمعاني من عافاه الله .

فاعلم أن سر العبودية ، وغايتها وحكمتها : إنما يطلع عليها من عرف صفات الرب عز وجل ، ولم يعطلها . وعرف معنى الإلهية وحقيقتها ، ومعنى كونه إلهاً ، بل هو الإله الحق ، وكل إله سواه باطل ، بل أبطل الباطل . وأن حقيقة الإلهية لا تنبغي إلا له ، وأن العبادة موجب إغيبته وأثرها ومقتضاها ، وارتباطها بها كارتباط المعلوم بالعلم ، والمقدور بالمقدرة ، والأصوات بالسمع ، والإحسان بالرحمة ، والطاء بالجود .

فمن أنكر حقيقة الإلهية ولم يعرفها كيف يستقيم له معرفة حكمة العبادات وغاياتها ومقاصدها ، وما شرعت لأجله ؟ وكيف يستقيم له العلم بأنها هي الغاية المقصودة بالخلق ، والتي لما خلقوا ، ولما أرسلت الرسل ، وأنزلت الكتب ، ولأجلها خلقت الجنة والنار ؟ وأن فرض تعطيل الخليفة عنها : نسبة لله إلى ما لا يليق به ، ويتعالى عنه فمن خلق السموات والأرض بالحق ، ولم يخلقها باطلاً . ولم يخلق الإنسان عبثاً ولم يتركه شدي مهملًا . قال تعالى (٢٣: ١١٥) أفحسبتم أننا خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ؟ أي لغرض شيء ولا حكمة ولا لمبادتي ويمحازاتي لكم ، وقد صرح تعالى بهذا في قوله (٥١: ٥٦) وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون فالعبادة : هي الغاية التي خلق لها الجن والإنس والخلق كلها . قال الله تعالى (٧٥: ٣٦) يحسب الإنسان أن يترك شدي ؟ أي مهملًا . قال الشافعي : لا يؤمر ولا يئس ، وقال غيره : لا يئيب ولا يعاقب . والصحيح : الأمران . فإن الثواب والعقاب مترتيبان على الأمر والنهي . والأمر والنهي طلب العبادة وإرادتها . وحقيقة العبادة امتثالها . وقال تعالى (٣: ١٩١) ويتفكرون في خلق السموات والأرض : ربنا ما خلقت هذا باطلاً ، سبحانه ! فبقينا عذاب النار وقال (١٥: ٨٥) وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وقال (٤٥: ٢٢) وخلق الله السموات والأرض بالحق ، ولتجزى كل نفس بما كسبت .

فأخبر أنه خلق السموات والأرض بالحق المتضمن أمره ونهيه وثوابه وعقابه . فليتأمل اللبيب الفرقان بين هذه الأقوال ، وبين ما دل عليه صريح الوحي يجد أن أصحاب هذه الأقوال ما قدروا الله حق قدره ، ولا عرفوه حق معرفته .

فالله تعالى إنما خلق الخلق لعبادته ، الجامعة لكمال محبته . مع الخضوع له والانقياد لأمره . فأصل العبادة : محبة الله ، بل إفراده بالمحبة ، وأن يكون الحب كله لله . فلا يحب معه سواه ، وإنما يحب لأجله وفيه ، كما يحب أنبياءه ورسله وما تكنه وأوليائه . فمحبتنا لهم من تمام محبته ،

وليس عجة معه ، كمحبة من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحُبِّهِ .
 وإذا كانت المحبة له هي حقيقة عبوديته وسرها . فهي إنما تتحقق باتباع أمره . واجتناب
 نهيه . فعند اتباع الأمر واجتناب النهي تتبين حقيقة العبودية والمحبة . ولهذا جعل تعالى اتباع
 رسوله علماً عليها ، وشاهداً لمن ادعاه ، فقال تعالى (٣١ : ٣) قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني
 يُخَيِّبْكُمْ اللَّهُ) فجعل اتباع رسوله مشروطاً بحبهم لله ، وشرطاً لمحبة الله لهم . ووجود المشروط
 ممتنع بدون وجود شرطه وتحققه بتحقيقه . فعلم انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة . فانتفاء محبتهم لله
 لازم لانتفاء المتابعة لرسوله ، وانتفاء المتابعة ملزوم لانتفاء عجة الله لهم . فيستحيل إذاً ثبوت
 محبتهم لله ، وثبوت عجة الله لهم بدون المتابعة لرسوله .

ودل على أن متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم : هي حب الله ورسوله ، وطاعة أمره .
 ولا يكفي ذلك في العبودية ، حتى يكون الله ورسوله أحبَّ إلى العبد مما سواهما . فلا يكون عنده
 شيء أحب إليه من الله ورسوله . ومتى كان عنده شيء أحب إليه منهما فهذا هو الشرك الذي
 لا يغفره الله لصاحبه أبدياً ، ولا يهديه الله . قال تعالى (٢٤ : ٩) قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم
 وأخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموالٌ اقترتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن
 ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله ، فربصوا حتى يأتي الله بأمره .
 والله لا يهدي القوم الفاسقين) .

فكل من قدم طاعة أحد من هؤلاء على طاعة الله ورسوله ، أو قول أحد منهم على قول الله
 ورسوله ، أو مرضاة أحد منهم على مرضاة الله ورسوله ، أو خوف أحد منهم ورجاءه والتوكل
 عليه على خوف الله ورجائه والتوكل عليه . أو معاملة أحدهم على معاملة الله . فهو بمن ليس
 الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما وإن قاله بلسانه فهو كذب منه ، وإخبار بخلاف ما هو عليه .
 وكذلك من قدم حكم أحد على حكم الله ورسوله .

• الأركان الاربعة للعبادة التامة

وبنى «إياك نعبد» على أربع قواعد : التحقق بما يحبه الله ورسوله ويرضاه ، من قول اللسان
 والقلب ، وعمل القلب والجوارح .
 فالعبودية : اسم جامع لهذه المراتب الأربع . فأصحاب «إياك نعبد» حقاً هم أصحابها .
 فقول القلب : هو اعتقاد ما أخبر الله سبحانه به عن نفسه ، وعن أسمائه وصفاته وأفعاله .
 وملاكمته ولفاته على لسان رسله .

وقول اللسان : الإخبار عنه بذلك ، والدعوة إليه ، والذب عنه ، وتبيين بطلان البدع المخالفة له والقيام بذكره ، وتبليغ أوامره .
وعمل القلب : كالمحبة له والتوكل عليه ، والإنابة إليه ، والخوف منه والرجاء له ، وإخلاص الدين له ، والصبر على أوامره ، وعن تواهيه ، وعلى أقداره ، والرضا به وعنه ، والموالة فيه ، والمعاداة فيه ، والذل له والخضوع ، والإخبات إليه ، والطمأنينة به ، وغير ذلك من أعمال القلوب ، وعمل الجوارح بدونها إما عديم المنفعة أو قليل المنفعة .
وأعمال الجوارح : كالصلاة والجهاد ، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات ، ومساعدة العاجز ، والإحسان إلى الخلق ونحو ذلك .
فـ «إياك نعبد» التزام لأحكام هذه الأربعة ، وإقرار بها ، و «إياك نستعين» طلب للإعانة عليها والتوفيق لها ، و «اهدنا الصراط المستقيم» متضمن للتعريف بالأمرين على التفصيل ، وإلهام القيام بهما ، وسلوك طريق السالكين إلى الله بها .

● العبودية ذروة الشرف

وجميع الرسل إنما دعوا إلى «إياك نعبد ، وإياك نستعين» فإنهم كلهم دعوا إلى توحيد الله وإخلاص عبادته ، من أولهم إلى آخرهم . فقال نوح لقومه (٥٩:٧) اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) وكذلك قال هود وصالح وشعيب (٦٥:٧ و٧٣:٨٥) وإبراهيم . قال الله تعالى (٣٦:١٦) ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) وقال (٢٥:٢١) وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقال تعالى (٥١:٢٣ ، ٥٢) يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا . إني بما تعملون عليم ، وإن هذه أمتكم أمة واحدة . وأنا ربكم فاتقون).

والله تعالى جعل العبودية وصفاً أكمل خلقه ، وأقر بهم إليه . فقال (١٧٢:٤) لن يَسْتَنْكِفَ المسيح أن يكون عبداً لله ، ولا الملائكة المقربون . ومن يستكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً) وقال (٢٠٦:٧) إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون) وهذا يبين أن الوقف التام في قوله في سورة الأنبياء (١٩:٢١) وله من في السموات والأرض) ههنا . ثم يتدنى (وقمن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون . يسبحون الليل والنهار لا يفترون) فهما جملتان تامتان مستقلتان ، أي إن له من في السموات ومن في الأرض عبيداً وملكا . ثم استأنف جملة أخرى فقال (وقمن عنده لا يستكبرون عن عبادته) يعني أن الملائكة الذين عنده لا يستكبرون عن عبادته يعني لا يأنفون

عنها ولا يتماثلون ولا يستحسرون ، فيعيون وينقطعون — يقال : حَسَرَ واستحسر ، إذا تعب وأعبا — بل عبادتهم وتسييحهم كالنفس لبني آدم. فالأول : وصف لعبيد ربوبيته ، والثاني ، وصف لعبيد إلهيته. وقال تعالى (٦٣:٢٥) — ٧٧ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً) إلى آخر السورة . وقال (٦:٧٦) عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً) وقال (١٧:٣٨) واذكر عبداً ذاود) وقال (٤١:٣٨) واذكر عبداً أبوب) وقال (٤٥:٣٨) واذكر عبداً إبراهيم واسحق ويعقوب) وقال عن سليمان (٣٠:٣٨) نعم العيد إنه أوأب) وقال عن المسيح (٥٩:٤٣) إن هو إلا عبد أنعمنا عليه) فجعل غاية العبودية لا الإلهية ، كما يقول أعداؤه النصارى . ووصف أكرم خلقه عليه ، وأعلامه عنده منزلة بالعبودية في أشرف مقاماته . فقال تعالى (٢٥:٢) وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبداً) وقال تبارك وتعالى (١:٢٥) تبارك الذي نزل الفرقان على عبده) وقال (١:١٨) الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب) فذكره بالعبودية في مقام إنزال الكتاب عليه ، وفي مقام التحدي بأن يأتي بمثله ، وقال (١٩:٧٢) وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً) فذكره بالعبودية في مقام الدعوة إليه . وقال (١:١٧) سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً) فذكره بالعبودية في مقام الإسراء. وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال «لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح بن مريم فإنما أنا عبد . فقولوا عبد الله ورسوله» وفي الحديث «أنا عبد . آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد» وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمرو قال «قرأت في التوراة صفة محمد صلى الله عليه وسلم : محمد رسول الله، عبدي ورسولي، سمعته المتوكل، ليس بلفظ . ولا غليظ ، ولا صخاب بالأسواق، ولا يجزى بالسينة السيئة، ولكن يَغْفُو ويغفر» .

وجعل الله سبحانه البشارة المطلقة لعباده . فقال تعالى (١٨:٣٩) فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) وجعل الأمن المطلق لهم . فقال تعالى (٦٨:٤٣) ، ٦٩ يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون . الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين) وعزل الشيطان عن سلطانه عليهم خاصة ، وجعل سلطانه على من تولاه وأشرك به . فقال (٤٢:١٥) إن عبادي ليس لك عليهم سلطان، إلا من اتبعك من الغاوين) وقال (٩٩:١٦) ، ١٠٠ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) .

وجعل النبي صلى الله عليه وسلم إحسان العبودية أعلى مراتب الدين ، وهو الإحسان . فقال في حديث جبريل — وقد سأله عن الإحسان — «أن تعبد الله كأنك تراه . فإن لم تكن تراه فإنه يراك» .

• لزوم (إياك نعبد) لكل عبد الى الموت

قال الله تعالى لرسوله (٩٩:١٥) واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) وقال أهل النار (٤٦:٧٤، ٤٧) وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين) واليقين ههنا: هو الموت بإجماع أهل التفسير. وفي الصحيح — في قصة موت عثمان بن مظعون رضى الله عنه وارضاه — أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «أما عثمان فقد جاءه اليقين من ربه» أي الموت وما فيه . فلا ينتفك العبد من العبودية مادام في دار التكليف ، بل عليه في البرزخ عبودية أخرى لما يسأله الملكان «من كان يعبد؟ وما يقول في رسول الله صلى الله عليه وسلم؟» و يلتسان منه الجواب . وعليه عبودية أخرى يوم القيامة ، يوم يدعو الله الخلق كلهم إلى السجود . فيسجد المؤمنون . ويبقى الكفار والمنافقون لا يستطيعون السجود . فإذا دخلوا دار الثواب والعقاب انقطع التكليف هناك ، وصارت عبودية أهل الثواب تسبيحا مقروناً بأنفسهم لا يجدون له تعباً ولا نصيباً .

ومن زعم أنه يصل إلى مقام يسقط عنه فيه التعبد، فهو زنديق كافر بالله ورسوله. وإنما وصل إلى مقام الكفر بالله، والانسلاخ من دينه. بل كلما تمكن العبد في منازل العبودية كانت عبيديته أعظم، والواجب عليه منها أكبر وأكثر من الواجب على من دونه. ولهذا كان الواجب على رسول الله صلى الله عليه وسلم — بل على جميع الرسل — أعظم من الواجب على أممهم . والواجب على أولي العزم: أعظم من الواجب على من دونهم. والواجب على أولي العلم: أعظم من الواجب على من دونهم. وكل أحد بحسب مرتبته.

• انقسام العبودية الى عامة وخاصة

العبودية نوعان: عامة، وخاصة:

فالعبودية العامة: عبودية أهل السموات والأرض كلهم لله ، يترهم وقاجرهم، مؤمنهم وكافرهم . فهذه عبودية التهر والملك . قال تعالى (٨٨:١٩) وقالوا اتخذ الرحمن ولداً . لقد جئتم شيئا إداً . تكاد السموات يتفكرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال خداً . أن دعوا للرحمن ولداً . وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً . إن كل من في السموات والأرض إلا آتني الرحمن عبداً) فهذا يدخل فيه مؤمنهم وكافرهم.

وقال تعالى (١٧:٢٥) ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله . فيقول: أنتم أهملتم عبادي هؤلاء؟ فسامعهم عبادهم مع ضلالهم . لكن تسمية مقيدة بالإشارة . وأما المطلقة: فلم

عبيء إلا لأهل النوع الثاني، كما سيأتي بيانه إن شاء الله .

وقال تعالى (٤٦:٣٩) قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون) وقال (٣١:٤٠) وما الله يريد ظلماً للعباد) وقال (٤٨:٤٠) إن الله قد حكم بين العباد) فهذا يتناول العبودية الخاصة والعامة.

وأما النوع الثاني: فعبودية الطاعة والمحبة ، واتباع الأوامر . قال تعالى (٦٨:٤٣) يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون) وقال (١٨:٣٩) فيشر عبادي الذين يستمعون القول فيستمعون أحسنه) وقال (٦٣:٢٥) ٦٤ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا * وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) وقال تعالى عن إبليس (٤٠:١٥) لا غوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين) وقال تعالى عنهم (٤١:١٥) إن عبادي ليس لك عليهم سلطان). فالخلق كلهم عبيد ربوبيته . وأهل طاعته وولايته : هم عبيد الهيته .

ولا يخفى في القرآن إضافة العباد إليه مطلقاً إلا هؤلاء .

وأما وصف عبيد ربوبيته بالعبودية : فلا يأتي إلا على أحد خسة أوجه : إما مُتَّكِرًا . كقوله (إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً) والثاني : معرفاً باللام، كقوله (٣١:٤٠) وما الله يريد ظلماً للعباد) (٤٨:٤٠) إن الله قد حكم بين العباد).

الثالث : مقيداً بالإشارة أو نحوها ، كقوله (أنتم أضللتم عبادي هؤلاء).

الرابع : أن يذكر في عموم عباده . فيندرجوا مع أهل طاعته في الذكر . كقوله (٤٦:٣٩) أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون).

الخامس : أن يذكر في موصوفين بفعلهم . كقوله (٥٣:٣٩) قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله).

وقد يقال : إنما سماهم «عباده» إذ لم يقنطوا من رحمة ، وأنابوا إليه ، واتبعوا أحسن ما أنزل إليهم من ربهم ، فيكونون من عبيد الإلهية والطاعة .

وإنما انقسمت العبودية الى خاصة وعامة ، لأن أصل معنى اللفظة : الذل والخضوع . يقال «طريق مُتَّعَبِد» إذا كان مثلاً لبطء الأقدام ، و«فلان عبيد الحب» إذا ذلله ، لكن أولياؤه خضوعاً له وذُلُّوا طوعاً واختياراً ، وانقياداً لأمره ونهيهِ . وأعداؤه خضوعاً له قهراً ورضاً .

ونظير انقسام العبودية الى خاصة وعامة : انقسام «الفتن» الى خاص وعام ، و«السجود» كذلك . قال تعالى في الفتنة الخاصة (٩:٣٩) أَقْبَلُ هُوَ قَاتِ آتَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا؟ يَخِذُّرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ) وقال في حق مريم (١٢:٦٦) وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ) وهو كثير في القرآن .

وقال في الفتنة العام (١٧٦:٢) وَلَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلِّ لَه قَانِتُونَ) أي

خاضعون أذلاء.

وقال في السجود الخاص (٢٠٦:٧) إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون) وقال (٥٨:١٩) إذا قبل عليهم آيات الرحمن خروا سُجُودًا وَبُكْيًا) وهو كثير في القرآن.

وقال في السجود العام (١٥:١٣) ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدور والآصال).

ولهذا كان هذا السجود الكثرة غير السجود المذكور في قوله (١٨:٢٢) ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجال والشجر والدواب وكثير من الناس) فخص بالسجود عنا كثيراً من الناس وعيهم بالسجود في سورة النحل (٤٩:١٦) ولله يسجد ما في السموات والأرض من دابة والملائكة) وهو سجد الذل والقهر والخضوع. فكل أحد خاضع لربوبيته، دليل لمزته. مقهور تحت سلطانه تعالى.

• مراتب (إياك نعبد) علماء وعملاً

للعبودية مراتب، بحسب العلم والعمل. فأما مراتبها العلمية فمرتبتان:

إحداها: العلم بالله. والثانية: العلم بدينه.

فأما العلم به سبحانه، فخمس مراتب: العلم بذاته، وصفاته، وأفعاله، وأسمائه، وتنزيهه عما لا يليق به.

والعلم بدينه مرتبتان. إحداها: دينه الأمرى الشرعي. وهو الصراط المستقيم الموصل إليه. والثانية: دينه الجزائي، المتضمن ثوابه وعقابه. وقد دخل في هذا العلم العلم بملائكته

وكتبه ورسله.

وأما مراتبها العلمية، فمرتبتان: مرتبة لأصحاب اليمين، ومرتبة للسابقين المقربين.

فأما مرتبة أصحاب اليمين: فأداء الواجبات، وترك المحرمات، مع ارتكاب المباحات، وبعض المكروهات، وترك بعض المستحبات.

وأما مرتبة المقربين: فالقيام بالواجبات والمندوبات. وترك المحرمات والمكروهات، زاهدين فيما لا ينفعهم في معادهم، متورعين عما يخافون ضرره.

خاصتهم: قد انقلبت المباحات في حقهم طاعات وقرابات بحسن النية. في تلقى هذه النعم والآلاء من ربهم العليم الحكيم، الذي ما أعطى عباده هذه النعم إلا ليربهم بها، وينمي فيهم ملكات الخير، ويزيدهم بها من عناصر الإنسانية الكريمة يرقون بها على معارج الخير والاحسان والرشد والحكمة،

فيكونون من الأبرار . فهم في كل شؤونهم وأحوالهم عابدون ذاكرون لربهم الرحمن . بكل أنواع الذل والخضوع والمحبة والإسلام . فهم في حقهم عابدون ، وفي متاجرهم عابدون ، وفي مفاجعتهم مع أزواجهم عابدون ، وهكذا لا يرون في شيء مما آتاهم الله ما يشغلهم عن ربهم وينسيهم أسماءه ، وما يرون في شيء إلا أنه عنصر جديد من عناصر التزكية والإحسان ، فيزدادون لمسديها إليهم سبحانه شكراً وخباً وخضوعاً وذلاً وإسلاماً وطاعة .

فليس في حقهم مباح متساوي الطرفين ، بل كل أعمالهم راجحة . ومن دونهم يترك المباحات مشتغلاً عنها بالمعادات . وهؤلاء يأتونها طاعات وقربات . لأهل هاتين المرتبتين درجات لا يحصيها إلا الله .

● قواعد العبودية

ورعى العبودية على خمس عشرة قاعدة . من كملها كمل مراتب العبودية . وبیانها : أن العبودية منقسمة على القلب ، واللسان ، والجوارح . وعلى كل منها عبودية تخصه .

والأحكام التي للعبودية خمسة : واجب ، ومستحب ، وحرام ، ومكروه ، ومباح . وهي لكل واحد من القلب ، واللسان ، والجوارح .

فواجب القلب : منه متفق على وجوبه ، ويختلف فيه . فالمتفق على وجوبه : كالإخلاص ، والتوكل ، والمحبة ، والصبر ، والإنابة ، والخوف ، والرجاء ، والتصديق الجازم ، والنية في العبادة . فهذا قدر زائد على الإخلاص . فإن الإخلاص هو أفراد المعبود عن غيره .

ونية العبادة لها مرتبتان .

إحداهما : تمييز العبادة عن العادة .

والثانية : تمييز مراتب العبادات بعضها عن بعض .

والأقسام الثلاثة واجبة .

واتفقت الأمة على وجوب هذه الأعمال على القلب من حيث الجملة .

وكذلك التصح في العبودية . ومدار الدين عليه . وهوبذل الجهد في إيقاع العبودية على الوجه المحبوب للرب المرضي له . وأصل هذا واجب . وكماله مرتبة المقربين .

وكذلك كل واحد من هذه الواجبات القلبية له طرقات ، واجب مستحق ، وهو مرتبة أصحاب اليمين ، وكمال مستحب . وهو مرتبة المقربين .

وكذلك الصبر واجب باتفاق الأمة ، قال الإمام أحمد: ذكر الله الصبر في تسعين موضعاً من القرآن، أوبضاً وتسعين، وله طرفان أيضاً: واجب مستحق ، وكمال مستحب .
وأما المختلف فيه فكارضا . فإن في وجوبه قولين :
فمن أوجبه قال: السخط حرام . ولا خلاص عنه إلا بالرضا . وما لا خلاص عن الجرام إلا به فهو واجب .

ومن قال هو مستحب ، قال: لم يبيح الأمر به في القرآن ولا في السنة ، بخلاف الصبر ، فإن الله أمر به في مواضع كثيرة من كتابه . وكذلك التوكل . قال (١٠: ٨٤) إِنْ كُنْتُمْ أَتَيْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ) وأمر بالإتيان . فقال (٣٩: ٥٤) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ) وأمر بالإخلاص كقوله (٩٨: ٥) وَمَا أُمُّرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) وكذلك الخوف كقوله (٣: ١٧٥) فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) وقوله (٢: ١٥٠) فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْا) وقوله (٢: ٤٠) وَإِنِّي فَارِهِبُونَ) وكذلك الصدق . قال تعالى (٩: ١١٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) وكذلك المحبة . وهي فرض الواجبات . إذ هي قلب العبادة المأمور بها ، ومُتَحَنُّا وروحها .

وأما الرضا: فإنما جاء في القرآن مدح أهله ، والثناء عليهم . لا الأمر به .
وقد أشكل على بعض الناس اجتماع الرضا مع التألم ، وظن أنهما متباينان وليس كما ظنه . فالمرضى الشارب للدواء الكريه متألم به راض به ، والصائم في شهر رمضان في شدة الحر متألم بصومه راض به ، والبخيل متألم بإخراج زكاة ماله راض بها . فالتألم كما لا يتنافى الصبر لا يتنافى الرضا به .

وهذا الخلاف بينهم ، إنما هو في الرضا بقضائه الكوني ، وأما الرضا به ربياً وإلهياً ، والرضا بأمره الديني: فمتفق على فرضيته ، بل لا يصير العبد مسلماً إلا بهذا الرضا : أن يرضى بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً .
ومن هذا أيضاً اختلافهم في الخشوع في الصلاة . وفيه قولان للفقهاء ، وهما في مذهب أحمد وغيره .

وعلى القولين اختلافهم في وجوب الإعادة على من غلب عليه الوسواس في صلاته . فأوجبها ابن حامد من أصحاب أحمد ، وأبو حامد الغزالي في إحيائه ، ولم يوجبها أكثر الفقهاء .
واحتجوا بأن النبي صلى الله عليه وسلم أمر من سها في صلاته بسجدة السهو ولم يأمره بالإعادة مع قوله «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْتِي أَحَدَكُمْ فِي صَلَاتِهِ» فيقول : اذكر كذا ، اذكر كذا — لما لم يكن يذكر — حتى يضل الرجل أن يدري كم صلى » ولكن لاتزاع أن هذه الصلاة لا يشاب على شيء منها إلا بقدر حضور قلبه وخضوعه . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم «إِنْ

العبد لينصرف من الصلاة ولم يكتب له إلا نصفها ، ثلثها ، ربعها — حتى يبلغ عشرين» وقال ابن عباس رضى الله عنهما «ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها» فليست صحيحة باعتبار ترتب كمال مقصودها عليها، وإن سميت صحيحة باعتبار أنا لا نأمره بالإعادة، ولا ينبغي أن يعلق لفظ الصحة عليها. فيقال «صلاة صحيحة» مع أنه لا يثاب عليها فاعليها، والقول بأن الصلاة التي لا خشوع فيها أئبة ولا تدبر للقراءة والذكر تسمى صحيحة، مبنى على أن كلمة «الصحة»، إنما تطلق على ما اجتمعت الشروط الاصطلاحية في أعمالها البدنية الظاهرة، دون الأعمال الباطنة كالإخلاص، كما تطلق في عرف الأطباء على سلامة الجسد. دون سلامة النفس من فساد العقائد والأخلاق. وصحة الصلاة بهذا المعنى لا تقتضي سقوط الفرض وعدم المأخذة في الآخرة. والمراد أنها صحيحة ظاهراً كسمية الماتق مسلماً في الظاهر.

والقصد : أن هذه الأعمال : — وأجبتها ومستحبها — هي عبودية القلب. فمن عطلها فقد عطل عبودية الملك، وإن قام بعبودية رعيته من الجوارح. والمقصود : أن يكون ملك الأعضاء — وهو القلب — قائماً بعبوديته لله سبحانه، هو ورعيته. وأما المحرمات التي عليه : فالكبر، والرياء، والعجب، والحسد، والغفلة، والنفاق. وهي نوعان : كفر، ومعصية.

فالكفر : كالشك، والنفاق، والشرك، وتوابعها.

والمعصية نوعان : كبائر، وصغائر.

فالكبائر : كالرياء، والعجب، والكبر، والفخر، والخيلاء، والقنوط من رحمة الله، والياس من روح الله، والأمن من مكر الله، والفرح والسرور بأذى المسلمين، والشماتة بمصيبتهم، وعجة أن تشيع الفاحشة فيهم، وحسدكم على ما آتاهم الله من فضله، وتبني زوال ذلك عنهم، وتوابع هذه الأمور التي هي أشد تحريماً من الزنا، وشرب الخمر وغيرها من الكبائر الظاهرة. ولا صلاح للقلب ولا للجسد إلا باجتنابها، والتوبة منها. وإلا فهو قلب فاسد. وإذا فسد القلب فسد البدن.

وهذه الآفات إما تنشأ من الجهل بعبودية القلب، وترك القيام بها.

فوظيفته «إياك نعبد» على القلب قبل الجوارح. فإذا جهلها وترك القيام بها ابتلاءً بأضدادها ولا بد. وبحسب قيامه بها يتخلص من أضدادها.

وهذه الأمور ونحوها قد تكون صفائر في حق وقد تكون كبائر، بحسب قوتها وغلظتها، ونفختها ودقتها.

ومن الصفائر أيضاً : شهوة المحرمات وتبنيها. وتفاوت درجات الشهوة في الكبر والصغر، بحسب تفاوت درجات المشتته. فشهوة الكفر والشرك : كفر. وشهوة البدعة : فسق. وشهوة

الكبائر: معصية. فإن تركها لله مع قدرته عليها أثيب. وإن تركها عجزاً بعد بذله مقدوره في تحصيلها: استحق عقوبة الفاعل، لتنزيله منزلته في أحكام الثواب والعقاب، وإن لم ينزل منزلته في أحكام الشرع. ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، فالتقاتل والمقتول في النار. قالوا: هذا القاتل. يارسول الله. فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصاً على قتل صاحبه» فنزله منزلة القاتل، لحرصه على قتل صاحبه، في الإثم دون الحكم. وله نظائر كثيرة في الثواب والعقاب. وقد علم بهذا مستحب القلب ومباحه.

● عبودية اللسان

وأما عباديات اللسان الخمس. فواجبها: النطق بالشهادتين، وتلاوة ما يلزمه تلاوته من القرآن. وهو ما يتوقف صحة صلاته عليه، وتلفظه بالأذكار الواجبة في الصلاة التي أمر الله بها ورسوله، كما أمر بالتسبيح في الركوع والسجود، وأمر بقول «ربنا ولك الحمد» بعد الاعتدال، وأمر بالشهاد، وأمر بالتكبير.

ومن واجبه: رد السلام. وفي ابتدائه قولان. ومن واجبه: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم الجاهل، وإرشاد الضال، وأداء الشهادة المتعينة، وصدق الحديث.

وأما مستحبه: فتلاوة القرآن، ودوام ذكر الله، والمذاكرة في العلم النافع، وتوابع ذلك. وأما محرمة: فهو النطق بكل ما يغيضه الله ورسوله، كالنطق بالبدع المخالفة لما بعث الله به رسوله، والدعاء إليها، وتحسينها وتقويتها، وكالقذف وسب المسلم، وأداءه بكل قول. والكذب، وشهادة الزور، والقول على الله بلا علم. وهو أشدها تحريماً.

ومكروهه: التكلم بما تزكّه خير من الكلام به، مع عدم العقوبة عليه. وقد اختلف السلف: هل في حقه كلام مباح، متساوي الطرفين؟ على قولين. ذكرهما ابن المنذر وغيره. أحدهما: أنه لا يخلو كل ما يتكلم به: إما أن يكون له أو عليه. وليس في حقه شيء له ولا عليه.

واحتجوا بأنه يكتب عليه كلامه كله. ولا يكتب إلا الخير والشر. وقالت طائفة: بل هذا الكلام مباح، لاله ولا عليه، كما في حركات الجوارح. قالوا: لأن كثيراً من الكلام لا يتعلق به أمر ولا نهي. وهذا شأن المباح. ولتحقيق: أن حركة اللسان بالكلام لا تكون متساوية الطرفين، بل إما راجحة وإما

مرجوحة. لأن اللسان شأنًا ليس لسائر الجوارح، وأكثر ما يُكَبُّ الناس على متأخرهم في النار حصائد ألسنتهم. وكل ما يتلفظ به اللسان فإما أن يكون مما يرضى الله ورسوله أولاً فإن كان كذلك فهو الراجح، وإن لم يكن كذلك فهو المرجوح. وهذا بخلاف حركات سائر الجوارح. فإن صاحبها يتنفع بتحركها في المباح المستوي الطرفين، لما له في ذلك من الراحة والمنفعة، فأبيع له استعمالها فيما فيه منفعة له، ولا مضرة عليه فيه في الآخرة. وأما حركة اللسان بما لا يتنفع به فلا يكون إلا مضرة.

وربما كانت الجوارح في الحركة - مضرة، ومنفعة، ومسؤولة سواء، وظهور ذلك من اللسان: إنما هو لكثرة استعمال الإنسان له. فهو متنبه له، وغافل عن الجوارح الأخرى وتخصّصاً السمع والبصر. فإن قيل: فقد يتحرك بما فيه منفعة دنيوية مباحة مستوية الطرفين. فيكون حكم حركته حكم ذلك الفعل.

قيل: حركته بها عند الحاجة إليها راجحة، وعند عدم الحاجة إليها مرجوحة لا تفيد. فتكون عليه لا له.

فإن قيل: فإذا كان الفعل متساوي الطرفين، كانت حركة اللسان التي هي الوسيلة إليه كذلك، إذ الوسائل تابعة للمقصود في الحكم.

قيل: لا يلزم ذلك. فقد يكون الشيء مباحاً، بل واجباً، ووسيلته مكروهة - كالوفاء بالطاعة المنذورة - وهو واجب، مع أن وسيلته - وهو النذر - مكروه منهي عنه. وكذلك الحلف المكروه مرجوح، مع وجوب الوفاء به أو الكفارة، وكذلك سؤال الخلق عند الحاجة مكروه، ويباح له الانتفاع بما أخرجته له المسألة. وهذا كثيراً جداً. فقد تكون الوسيلة متضمنة لمفسدة تكبر أو تحرم لأجلها، وما جعلت وسيلة إليه ليس بحرام ولا مكروه.

• عبودية الجوارح

وأما العبوديات الخمس على الجوارح: فعل خمس وعشرين مرتبة أيضاً. إذ الحواس خمسة. وعلى كل حاسة خمس عبوديات.

فعل السمع: وجوب الإنصات، والامتناع لما أوجبه الله ورسوله عليه من استماع الإسلام والأيمان وفروضهما، وكذلك استماع القراءة في الصلاة إذا جهر الإمام بها، واستماع الخطبة للجمعة، في أصح قول العلماء.

ومحرم عليه استماع الكفر والبدع، إلا حيث يكون في استماعه مصلحة راجحة: من رده، أو

الشهادة على قائله، أو زيادة قوة الايمان والسنة بمعرفة ضدّها من الكفر والبدعة ونحو ذلك .
وكذلك استماع أصوات النساء الأجانب التي تُخشى الفتنة بأصواتهن، إذا لم تدع إليه
حاجة: من شهادة، أو معاملة، أو استفتاء، أو محاكمة، أو مداواة ونحوها.
وكذلك استماع العازف، وآلات الطرب واللهم، كالعود والطنبور والبرقع ونحوها. ولا يجب
عليه سدُّ أذنه إذا سمع الصوت، وهو لا يريد استماعه، إلا إذا خاف السكون إليه والإنصات .
فحيث يجب لتجنب سماعها وجوب سدِّ الذرائع.

ونظير هذا: نظرة الفجاءة لا تحرم على الناظر، وتحرم عليه النظرة الثانية إذا تعمدها.
وأما السمع المستحب: فكاستماع المستحب من العلم، وقراءة القرآن، وذكر الله،
واستماع كل ما يحبه الله، وليس يفرض.
والمكروه: عكسه. وهو استماع كل ما يكره ولا يعاقب عليه.

والمباح ظاهر.
وأما النظر الواجب: فالنظر في الصحف، وكتب العلم عند تعين تعلم الواجب منها، والنظر
إذا تعين لتمييز الحلال من الحرام في الأعيان التي يأكلها أو يتفقها أو يستمتع بها، والأمانات
التي يؤديها إلى أربابها ليميز بينها، ونحو ذلك.
والنظر الحرام: النظر إلى الاجتياحات لشهوة مطلقاً، وبغيرها إلا الحاجة، كنظر الخاطب،
والمستام والمعايل، والشاهد، والحاكم، والطبيب، وذو المحرم.
والمستحب: النظر في كتب العلم والدين التي يزداد بها الرجل إيماناً وعلماً، والنظر في آيات
الله المشهودة، ليستدل بها على توحيده ومعرفة وحكمته، وذلك أوجب الواجبات. فإنه قد ورد الأمر
المشد به في القرآن كثيراً جداً، وجاء التوعد الشديد لمن همى وغفل عن آيات الله الكونية. فإن العسى عنها
مؤد ولا بد إلى التكذيب بآيات الله في الأنفس والآفاق، ومن المحال أن يكون إيمان بالله وكتابه ورسوله إلا
ثمرة التفكر في آيات الله في الأنفس وفي الآفاق.

والمكروه: فضول النظر الذي لا مصلحة فيه. فإن له فضولاً كما للسان فضول. وكم قاد
فضولها إلى فضول عزّ التخلص منها، وأعنى دواؤها. وقال بعض السلف: كانوا يكرهون فضول
النظر، كما يكرهون فضول الكلام.

والمباح: النظر الذي لا مضرة فيه في العاجل والآجل ولا منفعة.

ومن النظر الحرام: النظر إلى الموراث. وهي قسمان.

عورة وراء الثياب وعورة وراء الأبواب.

ولو نظر في العورة التي وراء الأبواب فرمى صاحب العورة، ففقاً عنه، لم يكن عليه شيء،

وذهبت هذرا، بنص رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق على صحته عند البخاري
ومسلم من حديث أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «من اطلع
في بيت قوم بغير إذنه، فقد حل لهم أن يفتأوا عينه» ورواه أبو داود، وفيه «فففتأوا عينه
فقد هدرت». وهذا إذا لم يكن للناظر سبب يباح النظر لأجله، كمرة له هناك ينظرها، أو رية هو
مأمور - أو مأذون له - في الاطلاع عليها.

وأما الذوق الواجب: فتناول الطعام والشراب عند الاضطرار إليه، وخوف الموت. فإن تركه
حتى مات مات غاصياً قاتلاً لنفسه. قال الإمام أحمد وطاوس. من اضطر إلى أكل الميتة فلم
يأكل حتى مات، دخل النار.

والذوق الحرام: كذوق الخمر، والسموم القاتلة. والذوق الممنوع منه للصوم الواجب.
وأما المكروه: فكذوق المشبهات، والأكل فوق الحاجة، وذوق طعام الفجاءة. وهو الطعام
الذي تفجأ آكله. ولم يُرد أن يدعوك إليه، وكأكل أطعمة المرائين في الولائم والدعوات
ونحوها. وفي السنن: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم «نهى عن طعام المتبارين» وذوق
طعام من يطعمك حياء منك لا بطيعة نفس.

والذوق المستحب: أكل ما يعينك على طاعة الله عز وجل، مما أذن الله فيه. والأكل مع
الضيف ليطيب له الأكل، فينال منه غرضه. والأكل من طعام صاحب الدعوة الواجب
إجابتها أو المستحب.

وقد أوجب بعض الفقهاء الأكل من الوليمة الواجب إجابتها، للأمر به عن الشارع.
والذوق المباح: ما لم يكن فيه إثم ولا رجحان.
وأما تعلق العبوديات الخمس بحاسة الشم، فالشم الواجب: كل شم تعين طريقاً للتمييز
بين الحلال والحرام، كالشم الذي تعلم به هذه العين هل هي خبيثة أو طيبة؟ وهل هي سم
قاتل أو لامضرة فيه؟ أو يميز به بين ما يملك الانتفاع به، وما لا يملك؟ ومن هذا شم المقوم، ورب
الخبرة عند الحكم بالتقويم، ونحو ذلك.

وأما الشم الحرام: فالتعتمد لشم الطيب في الإحرام، وشم الطيب المنصوب والمسروق،
وتعتمد شم الطيب من النساء خشية الافتتان بما وراءه.
وأما الشم المستحب: فشم ما يعينك على طاعة الله، ويقوى الحواس، ويسيطر النفس للعلم
والعمل. ومن هذا: هدية الطيب والريحان إذا أهديت لك.

ففي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم «من غرض عليه ريحان فلا يردده. فإنه
طيب الريح، خفيف المحمل».

والمكروه: كشم طيب القلعة، وأصحاب الشبهات، ونحو ذلك.
 والمباح: ما لا يخفى فيه من الله ولا تقيّة، ولا فيه مصلحة دينية، ولا تعلق له بالشرع.
 وأما تعلق هذه الخمسة بحاسة اللمس، قال المصنف الواجب: كلمس الزوجة حين يجب جماعها .
 والحرام: لمس ما لا يحل من الأجنبية .
 والمستحب: إذا كان فيه غرض بصره، وكف نفسه عن الحرام، وإعفاف أهله .
 والمكروه: لمس الزوجة في الإجماع للذة. وكذلك في الاعتكاف، وفي الصيام، إذا لم يأمن
 على نفسه، ولمس فخذ الرجل، إذا قلنا: هي عورة .
 والمباح: ما لم يكن فيه مفسدة ولا مصلحة دينية .
 وهذه المراتب أيضاً مرتبة على البطش باليد، والمشي بالرجل. وأمثلتها لا تحصى .
 فالتكسب المقدور للنفقة على نفسه وأهله وهiale: واجب . وفي وجوبه لقضاء دينه خلاف .
 والصحيح: وجوبه ليمكّنه من أداء دينه ، ولا يجب لإخراج الزكاة، وفي وجوبه لأداء فريضة
 الحج نظر . والأقوى في الدليل: وجوبه لدخوله في الاستطاعة ، وتمكّنه بذلك من أداء النسك .
 والمشهور عدم وجوبه .

ومن البطش الواجب: إعاقة المضطر ، ورمي الجمار .
 والحرام: كقتل النفس التي حرم الله قتلها، ونهب المال المصوم، وضرب من لا يحل
 ضربه، ونحو ذلك وكأنواع اللعب المحرم بالنص كالنرد، أو ما هو أشدّ تحريماً منه عند أهل المدينة
 كالشطرنج، أو مثله عند فقهاء الحديث كأحد وغيره، أو دونه عند بعضهم . ونحو كتابة البدع
 المخالفة للسنة تصنيفاً أو نسخاً، إلا مقروناً بردها ونقضها، وكتابة الزور والظلم، والحكم الجائر،
 والقذف والتشبيب بالنساء الأجانب ، وكتابة ما فيه مضرة على المسلمين في دينهم أو دنياهم،
 ولا سيما إن كسبت عليه مالا (٢: ٧٩) فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون)
 وكذلك كتابة المفتي على الفتوى ما يخالف حكم الله ورسوله، إلا أن يكون مجتهداً خطئاً، فالإثم
 موضوع عنه .

وأما المكروه: فكالعبث واللعب الذي ليس بحرام ، وكتابة مالا فائدة في كتابته ، ولا منفعة
 فيه في الدنيا والآخرة .
 والمستحب: كتابة كل ما فيه منفعة في الدين، أو مصلحة لمسلم، والإحسان بيده بأن يعين
 صانعاً، أو يصنع لأخرق، أو يُفرغ من ذلّوه في دلو المستقى، أو يحمل له على دابته، أو يمسكها
 حتى يحمل عليها ، أو يعاونه بيده فيما يحتاج إليه ونحو ذلك . ومنه: لمس الركن بيده في
 الطواف ، وفي تقبيلها بعد اللمس قولان .
 والمباح: مالا مضرة فيه ولا ثواب .

وأما المشي الواجب: فالمشي إلى الجماعات والجماعات، في أصح القولين، لبضعة وعشرين دليلاً، مذكورة في غير هذا الموضع. والمشي حول البيت للطواف الواجب. والمشي بين الصفا والمروة بنفسه أو بركوبه، والمشي إلى حكم الله ورسوله إذا دُعي إليه، والمشي إلى صلة رحمه، وبر والديه، والمشي إلى مجالس العلم الواجب طلبه وتعلمه، والمشي إلى الحج إذا قربت المسافة ولم يكن عليه فيه ضرر.

والحرّام: المشي إلى معصية الله، وهومن زجل الشيطان. قال تعالى (١٧: ٦٤) وأجلب عليهم بغيلك وجلك قال مقاتل: استعن عليهم بركبان جندك ومُشاتهم. فكل راكب وماش في معصية الله فهو من جند إبليس.

وكذلك تتعلق هذه الأحكام الخمس بالركوب أيضاً.

فواجبه: في الركوب في القزى والجهاد، والحج الواجب.

ومستحبه: في الركوب المستحب من ذلك، ولطلب العلم، وصلة الرحم، وبر الوالدين. وفي الوقوف بعرة نزاع: هل الركوب فيه أفضل، أم على الأرض؟ والتحقيق: أن الركوب أفضل إذا تضمن مصلحة: من تعليم للمناسك، واقتداء به، وكان أعون على الدعاء. ولم يكن فيه ضرر على الدابة.

وحرامه: الركوب في معصية الله عز وجل.

ومكروهه: الركوب للهو واللعب، وكل ما ترغبه خير من فعله.

ومباحه: الركوب لما لم يتضمن فوت أجر، ولا تحصيل وزن.

فهذه خمس مرتبة على عشرة أشياء: القلب، واللسان، والسمع، والبصر، والأنف، والضم، واليد، والرجل، والفرج، والاستواء على ظهر الدابة.

مُظَنَّا فِي سَلْبَةِ

وقد اكثر الناس القول في صفة منازل «إياك نعبد» التي ينتقل فيها القلب منزلة منزلة في حال سيره الى الله تعالى ، واكثروا في غذاها ، فمنهم من جعلها الفأ ، ومنهم من جعلها مائة ، ومنهم من زاد ونقص ، فكل وصفها بحسب سيره وسلوكه .
ولأرباب السلوك اختلاف كثير في عدد المقامات وترتيبها ، وكل يصف منازل سيره ، وحال سلوكه . ولم اختلاف في بعض منازل السير: هل هي من قسم الأحوال ؟ والفرق بينهما: أن المقامات كسبية . والأحوال قهيبية . ومنهم من يقول: الأحوال من نتائج المقامات . والمقامات نتائج الأعمال ، فكل من كان أصلح عملا كان أعلى مقاما ، وكل من كان أعلى مقاما كان أعظم حالا .

والصحيح في هذا : أن الواردات لها أسماء باعتبار أحوالها ، فتكون لوازم وبارق ولوائح عند أول ظهورها ويُدَوِّها ، كما يلعب البارق و يلوح عن بعد ، فإذا تآزلقه و باشرها فهي أحوال ، فإذا تمكنت منه وثبتت له من غير انتقال فهي مقامات . وهي لوازم ولوائح في أولها ، وأحوال في أوسطها ، ومقامات في نهاياتها . فالذي كان بارقا هو بعينه الحال . والذي كان حالا هو بعينه المقام . وهذه الاسماء له باعتبار تعلقه بالقلب ، وظهوره له ، وثباته فيه .

فالحال ثمرة العلم ولا يصفو حال إلا بصفاء العلم المشر له .
وعلى هذا ، فإن الحال هو تكتيف القلب وانصباغه بحكم الواردات ، فهو يدعو صاحبه الى المقام الذي جاء منه الوارد ، كما تدعوه رائحة البستان الطيبة الى دخوله والمقام فيه .
وهذا لأن الرجل قد يكون عالما بالشيء ولا يكون متصفاً بالتخلق به واستعماله . فالعلم شيء والحال شيء آخر . فعلم العشق ، والصحة ، والشكر ، والعافية غير حصولها والاتصاف بها . فإذا غلب عليه حال تلك المعلومات صار عليه بها كالمفعول عنه . وليس بمفعول عنه . بل صار الحكم للحال .

فإن العبد يعرف الخوف من حيث العلم . ولكن إذا اتصف بالخوف ، وباشر الخوف قلبه : غلب عليه حال الخوف والازعاج ، واستغرق علمه في حاله . فلم يذكر علمه لقلبه حاله عليه .
ومثل هذه حالة فقد ظفر بالاستقامة . لأن العلوم إذا أثمرت الأحوال : كانت عنها الاستقامة في الأعمال . ووقعها على وجه الصواب . وتحقق صاحبها في الإشارة الى ما يوجد من الأحوال . ولم تكن إشارته عن تخمين وظن وحسبان . واستحق اسم النسبة — في صحة العبودية — الى الرحمن عز وجل . لقوله (١٥: ٤٢) : «إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ» وقوله (٢٥: ٦٣ — ٧٦) وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا — الآيات) وقوله (٧٦: ٦٣)

عيننا يشرب بها عباد الله) وقوله (٤٣: ٦٨) يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون).

والمقصود : أن هذا قد انتقل من أحكام العمل وحده الى أحكام الفعل بالحال المصاحب للعلم . فهو عامل بالمواجيد الحالية، المصحوبة بالعلوم النبوية . فان انفراد العلم عن الحال تعطيل وبطالة ، وانفراد الحال عن العلم : كفر وإلحاد . والأكمل : ان لا يغيب عن شهود العلم بالحال ، وإن استغرق الحال عن شهود العلم ، مع قيامه بأحكامه : لم يضره . وقد ينسلخ السالك من مقامه كما ينسلخ من الثوب ، وينزل إلى ما دونه . ثم قد يعود اليه ، وقد لا يعود .

ومن المقامات : ما يكون جامعاً لمقامين .

ومنها ما يكون جامعاً لأكثر من ذلك .

ومنها ما يندرج فيه جميع المقامات . فلا يستحق صاحبه اسمه إلا عند استجماع جميع المقامات فيه .

فالتوبة جامعة لمقام الحاسبة ومقام الخوف ، لا يتصور وجودها بدونهما .

و «التوكل» جامع لمقام التفويض والاستعانة والرضا . لا يتصور وجوده بدونهما .

و «الرجاء» جامع لمقام الخوف والإرادة .

و «الخوف» جامع لمقام الرجاء والإرادة .

و «الإنابة» جامعة لمقام المحبة والخشية . لا يكون العبد منيباً إلا باجتماعهما .

و «الإنجيات» له جامع لمقام المحبة والذل والخضوع . لا يكمل أحدها بدون الآخر إنجياتاً .

و «الزهد» جامع لمقام الرغبة والرغبة . لا يكون زاهداً من لم يرغب فيما يرجونفعه ، ويرهب مما يخاف ضرره .

ومقام «المحبة» جامع لمقام المعرفة والخوف والرجاء والإرادة . فالمحبة معنى يلتصق من هذه الأربعة . وبها تحققها .

ومقام «الخشية» جامع لمقام المعرفة بالله ، والمعرفة بحق عبيديه . فمتى عرف الله وعرف حقه اشتدت خشيته له . كما قال تعالى (٣٥: ٢٨) إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ فالعلماء به وبأمره هم أهل خشيته . قال النبي صلى الله عليه وسلم «أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية» .

ومقام «المهية» جامع لمقام المحبة والإجلال والتعظيم .

ومقام «الشكر» جامع لجميع مقامات الإيمان . ولذلك كان أرفعها وأعلاها . وهو فوق

«الرضا» وهو يتضمن «الصبر» من غير عكس . ويتضمن «التوكل» و«الانابة» و«الحب» و«الاحياء» و«الخشوع» و«الرجاء» فجميع المقامات متدرجة فيه . لا يستحق صاحبه اسمه على الاطلاق الا باستجماع المقامات له . ولهذا كان الإيمان نصفين : نصف صبر ، ونصف شكر . والصبر داخل في الشكر . فرجع الإيمان كله شكراً . والشاكرون هم أقل العباد ، كما قال تعالى (١٣:٣٤) **وقليل من عبادى الشكور** .

ومقام «الحياء» جامع لمقام المعرفة والمراقبة . ومقام «الأنس» جامع لمقام الحب مع القرب . فلو كان المحب بعيداً من محبوبه لم يأنس به . ولو كان قريباً من رجل ولم يحبه لم يأنس به ، حتى يجتمع له حبه مع القرب منه . ومقام «الصدق» جامع للإخلاص والعزم . فباجتماعهما يصبح له مقام الصدق . ومقام «المراقبة» جامع للمعرفة مع الخشية . فبحسبهما يصبح مقام المراقبة . ومقام «الطمأنينة» جامع للإنابة والتوكل ، والتفويض والرضا والتسليم . فهو معنى ملثم من هذه الأمور . إذا اجتمعت صار صاحبها صاحب طمأنينة . ومانقش منها نقص من الطمأنينة .

وكذلك «الرغبة» و«الرهبة» كل منهما ملثم من «الرجاء» و«الخوف» والرجاء على الرغبة أغلب ، والخوف على الرهبة أغلب . وكل مقام من هذه المقامات فالسالكون بالنسبة إليه نوعان : أبرار ، ومقربون . فالأبرار في أذنياله ، والمقربون في ذروة سنامه . وهكذا مراتب الإيمان جميعها . وكل من النوعين لا يحصى تفاوتهم ، وتفاضل درجاتهم إلا الله .

و«المريد» في الاصطلاح : هو الذي قد شرع في السير الى الله . وهو فوق العابد ، ودون الواصل . وهذا اصطلاح بحسب حال السالكين . وإلا فالعابد مريد ، والسالك مريد ، والواصل مريد . فالإرادة لا تفارق العبد مادام تحت حكم العبودية .

و«العارف» فوق السالك . ولا يفارقه السلوك ، لكنه مع السلوك قد ظفر بالمعرفة . فأخذ منها اسماً أخص من اسم السالك . وهكذا الشأن في سائر المقامات والأحوال . فإنها لا تفارق من ترقى فيها . ولكن إذا ترقى في مقام أخذ اسمه ، وكان أحق به مع ثبوت الأول له . والمتكلمون في هذا الشأن يرجحون «المعرفة» على «العلم» جداً . وكثير منهم لا يرفع بالعلم رأساً . ويعدّه قاطعاً وحجاباً دون المعرفة . وأهل الاستقامة منهم : أشد الناس وصية للمريدين بالعلم . وعندهم : أنه لا يكون ولى الله كامل الولاية من غير أولى العلم أبداً . فما اتخذ الله ولا يتخذ ولياً جاهلاً . والجهل رأس كل بدعة وضلالة ونقص . والعلم أصل كل خير وهدى وكمال .

والفرق بين «العلم» و«المعرفة» عند اهل الاستقامة من المتكلمين في هذا الشأن : ان «المعرفة» عندهم هي العلم الذي يقوم العالم بموجبه ومتقضاه . فلا يطلقون المعرفة على مدلول العلم وحده ، بل لا يصفون بالمعرفة إلا من كان عالماً بالله ، وبالطريق الموصلى الى الله ، وبآفاته وقواطعها . وله حال مع الله تشهد له بالمعرفة . فالعارف — عندهم — من عرف الله سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله . ثم صدق الله في معاملته . ثم اخلص له في قصوده ونياته . ثم انسلخ من اخلاقه الرديئة وآفاته ، ثم تطهر من اوساخه وادارائه ومخلفاته ، ثم صبر على أحكام الله في نعمه وبلياته . ثم دعا اليه على بصيرة بدينه وآياته . ثم جرد الدعوة اليه وحده بما جاء به رسوله ، ولم يشبها بأراء الرجال وأذواقهم ومواجيدهم ومقاييسهم ومعتولاتهم . ولم يزن بها ما جاء به الرسول عليه من الله أفضل صلواته . فهذا الذي يستحق اسم العارف على الحقيقة ، إذا سمى به غيره على الدعوى والاستعارة .

وحقيقة الفرق بين العلم والمعرفة من وجوه :

أحدها : ان «المعرفة» تتعلق بذات الشيء ، و«العلم» يتعلق بأحواله . فتقول : عرفت أباك ، وعلمتته صالحاً عاماً . ولذلك جاء الأمر في القرآن بالعلم دون المعرفة . كقوله تعالى (١٧: ٤٧) فاعلم أنه لا إله إلا الله) وقوله (٩٨: ٥) اعلموا أن الله شديد العقاب) وقوله (١٤: ١١) فاعلموا أنما أنزل بعلم الله).

فالمعرفة : حضور صورة الشيء ومثاله للعلمى في النفس . والعلم : حضور أحواله وصفاته ، ونسبتها اليه . فالمعرفة : تشبه التصور . والعلم : يشبه التصديق .

الثاني : ان «المعرفة» — في الغالب — تكون لما غاب عن القلب بعد ادراكه . فإذا ادركه قيل : عرفت ، أو تكون لما وصف له بصفات قامت في نفسه . فإذا رآه وعلم أنه الموصوف بها ، قيل : عرفت ، قال الله تعالى (٤٥: ١٠) ويوم نحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم) وقال تعالى (٥٨: ١٢) وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه . فعرفهم وهم له منكرون) وقال (٣٠: ٦) الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) لما كانت صفاته معلومة عندهم ، فأروه : عرفوه بتلك الصفات . وفي الحديث الصحيح «إن الله تعالى يقول لأخر أهل الجنة دخولا : أنعرف الزمان الذي كنت فيه ؟ فيقول : نعم . فيقول : تمن . فيستمنى على ربه» . وقال تعالى (٨٩: ٢) وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا . فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به) فالمعرفة : تشبه الذكر للشيء . وهو حضور ما كان غائباً عن الذكر . ولهذا كان ضد المعرفة : الإنكار . وضد العلم : الجهل . قال تعالى (٨٣: ١٦) يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها) ويقال : عرف الحق فأقر به . وعرفه فأنكره .

وقد وقع في القرآن لفظ «المعرفة» ولفظ «العلم» فلفظ «المعرفة» كقوله (ما عرفوا من الحق) وقوله (١٤٦:٦ و٣٠ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم). وأما لفظ «العلم» فهو أوسع إطلاقاً. كقوله (١٩:٤٧) فأعلم أنه لا إله إلا الله) وقوله (١٨:٣) شهد الله أنه لا إله إلا هو— الآية) وقوله (١١٤:٦) والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق) وقوله (١١٤:٣٠) وقل رب زدني علماً) وقوله (٢١:١٣) أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى؟) وقوله (٩:٣٩) قل: هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟) وقوله (٥٦:٣٠) وقال الذين أوتوا العلم والإيمان، لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث) وقوله (٨٠:٢٨) وقال الذين أوتوا العلم: ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً) وقوله (٤٣:٢٩) وتلك الأمثال نضربها للناس، وما يعقلها إلا العالمون) وقوله (٤٠:٢٧) قال الذي عنده علم من الكتاب) وقوله (١٧:٥٧) اعلموا أن الله ينجي الأرض بعد موتها) وقوله (٢٠:٥٧) اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو) وقوله (٢٢٣:٧) واتقوا الله واعلموا أنكم ملائكة) وقوله (١٤:١١) فاعلموا أنما أنزل يعلم الله) وهذا كثير.

واختار سبحانه لنفسه اسم «العلم» وما تصرف منه. فوصف نفسه بأنه عالم، وعليم، وعلام، وعليم، ويعلم. وأخبر أن له علماء، دون لفظ «المعرفة» في القرآن. ومعلوم أن الاسم الذي اختاره الله لنفسه أكمل نوعه المشارك له في معناه، ومن هاهنا تدرك أن هؤلاء القوم قد أخطأوا حين رجحوا اصطلاح «المعرفة» واكثروا الدفدنة حوله، وإنما جارياتهم في ذلك خروجاً من الخلاف، وحرصاً على المعاني المباركة الصائبة الكثيرة التي وصفوا بها العارفين.

وإنما جاء لفظ «المعرفة» في القرآن في مؤمنى أهل الكتاب خاصة. كقوله (٨٥:٥) ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون— إلى قوله — ما عرفوا من الحق) وقوله (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم).

والسالكون ضربان أيضاً من باب آخر: سالكون على الحال، ملتفتون إلى العلم. وسالكون على العلم، ملتفتون إلى الحال، حتى كأنهما غيران وحزبان، وكل فرقة منهما لا تأنس بالآخرى، ولا تعاشرها إلا على إغماض ونوع استكراه.

وهذا من تقصير الفريقين، حيث ضعف أحدهما عن السير في العلم. وضعف الآخر عن الحال في العلم. فلم يتمكن كل منهما من الجمع بين الحال والعلم. فأخذ هؤلاء العلم، وسبجه ونوره. وأخذ هؤلاء الحال وسلطانه وتمكيته. ورجحوه. وصار الصادق الضعيف من الفريقين: يسير بأحدهما ملتفتاً إلى الآخر.

فهذا مطيع للحال. وهذا مطيع للعلم. لكن المطيع للحال متى عصى به العلم: كان منقطعاً

عجوباً ، وإن كان له من الحال ما عساه أن يكون . والمطيع للمعلم متى أعرض به عن الحال كان مضيقاً منقوصاً ، مشتتاً بالوسيلة عن الغاية .

وصاحب التمكن : يتصرف علمه في حاله . ويحكم عليه فيقاد لحكمه ، ويتصرف حاله في علمه . فلا يدعه أن يقف معه . بل يدعوه الى غاية العلم . فيجيبه و يلبي دعوته . فهذه حال الكمل من هذه الأمة . ومن استقرأ أحوال الصحابة رضى الله عنهم وجدها كذلك .

فلما فرق المتأخرون بين الحال والعلم : دخل عليهم النقص والخلل . والله المستعان (٤٢: ٤٩ ، ٥٠) بهب لمن يشاء إفتاناً ، وبهب لمن يشاء الذكور . أو زوجهم ذكراناً وإفتاناً . ويعمل من يشاء عقيماً . إنه عليم قدير) فكذلك يهب لمن يشاء علماً . ولمن يشاء حالاً . ويجمع بينهما لمن يشاء . ويحلى منهما من يشاء .

واعلم أن الترتيب الذي يتكبر اليه كل مرتب للمنازل لا يخلو عن تحكم ، ودعوى من غير مطابقة . فإن العبد إذا التزم عقد الإسلام ، ودخل فيه كله . فقد التزم لوازمه الظاهرة والباطنة ، ومقاماته وأحواله . وله في كل عقد من عقود وواجب من واجباته أحوال ومقامات . لا يكون موفياً لذلك العقد والواجب إلا بها . وكلما وفى واجبا اشرف على واجب آخر بعده . وكلما قطع منزلة استقبل أخرى .

وقد يعرض له أعلى المقامات والأحوال في اول بداية سيره . فيفتتح عليه من حال المحبة والرضا والأنس والطمانينة ما لم يحصل بعد لسالك في نهايته . ويحتاج هذا السالك في نهايته الى أمور — من البصيرة ، والتوبة ، والمحاسبة — أعظم من حاجة صاحب البداية إليها . فليس في ذلك ترتيب كل لازم للسلوك .

بل أن التوبة — التي جعلوها من أول المقامات — هي غاية العارفين ، ونهاية أولياء الله المقربين . ولاريب أن حاجتهم الى المحاسبة في نهايتهم ، فوق حاجتهم إليها في بدايتهم .

واعلم أيضاً ان السائر الى الله لا ينقطع سيره اليه مادام في قيد الحياة . ولا يصل العبد مادام حياً الى الله وصولاً يستغني به عن السير اليه أليته وهذا عين الحال . بل يشتد سيره الى الله كلما زادت ملاحظته لتوحيده ، وأسمائه وصفاته . ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم الخلق اجتهاداً وقياماً بالأعمال ، ومحافظه عليها الى أن توفاه الله . وهو أعظم ما كان اجتهاداً وقياماً بوظائف العبودية . فلو أتى العبد بأعمال الثقلين جميعها لم تفارقه حقيقة السير الى الله . وكان بعد في طريق الطلب والارادة .

وعلى هذا فان تقسيم السائرين الى الله الى طالب ، وسائر ، واصل . او الى مريد ، يريد الله ، وممراد ، اعلى منه ، يريد الله ويجذبه اليه : تقسيم فيه مساهلة ، لا تقسيماً حقيقياً ، فان الطلب والسلوك والارادة لو فارق العبد : لا تنقطع عن الله بالكلية .

ولحرماته، وإجلالاً له، وخشية من سقوط المنزلة عنده، عن البعد والطرده عنه، والحجاب عن رؤية وجهه في الدار الآخرة. فهذه التوبة لون، وتوبة أصحاب الملل لون.

ومن اتهام التوبة أيضاً: ضعف العزيمة، والتفات القلب إلى الذنب الفئنة بعد الفئنة، وتذكير حلاوة مواقفه. فرما تنفس. وربما هاج هائجه.

ومن اتهام التوبة: طمأنينته ووثوقه من نفسه بأنه قد تاب، حتى كأنه قد بُسط منشوراً بالأمان. فهذا من علامات التهمة.

ومن علاماتها: جود العين، واستمرار الغفلة، وأن لا يستحدث بعد التوبة أعمالاً صالحة لم تكن له قبل الخطيئة.

فالتوبة المقبولة الصحيحة لها علامات.

منها: أن يكون بعد التوبة خيراً مما كان عليه قبلها.

ومنها: أنه لا يزال الخوف مصاحباً له لا يأمن مكر الله طرفة عين. فخوفه مستمر إلى أن يسمع قول الرسل لقبض روحه (٣٠: ٤١) أن لا تخافوا ولا تحزنوا. وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون) فهناك يزول الخوف.

ومنها: انخلاع قلبه، وتقطعه تدمعاً وخوفاً. وهذا على قدر عظم الجناية وصغرها. وهذا تأويل ابن عبيسة لقوله تعالى (٩: ١١٠) لا يزال بُنيانهم الذي بنوا ريبةً في قلوبهم، إلا أن يُفْلَقَ قلوبهم قال: تقطعها بالتوبة. ولا ريب أن الخوف الشديد من العقوبة العظيمة يوجب انصداع القلب وانخلاعه. وهذا هو تقطعه. وهذا حقيقة التوبة. لأنه يتقطع قلبه حسرة على ما فرط منه، وخوفاً من سوء عاقبته، فمن لم يتقطع قلبه في الدنيا على ما فرط حسرة وخوفاً، تقطع في الآخرة إذا حُشَّت الحقائق. وعاین ثواب المطيعين، وعقاب العاصين. فلا بد من تقطع القلب إما في الدنيا وإما في الآخرة.

ومن موجبات التوبة الصحيحة أيضاً: كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شيء. ولا تكون لغير المذنب. لا تحصل بجوع، ولا حب مجرد. وإنما هي أمر وراء هذا كله. تكسر القلب بين يدي الرب كسرة تامة. قد أحاطت به من جميع جهاته، وألقت بين يدي ربه طريحاً ذليلاً خاشعاً.

فليس شيء أحب إلى الله من هذه الكسرة، والخضوع والتذلل، والإخبات، والانطراح بين يديه، والاستسلام له. فله ما أحل قوله في هذه الحال «أسألك بعزك وذلي إلا رحمتي. أسألك بقوتك وضعفى، وبغناك عنى وفقرى إليك. هذه ناصيتى الكاذبة الخاطئة بين يديك، عبيدك سوى كثير. وليس لي سيد سواك. لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك. أسألك مسألة المسكين. وأبتهل إليك ابتهاج الخاضع الذليل. وأدعوك دعاء الخائف المضرب، سؤال من خضعت لك رقبته، ورثمت لك أنفه، وفاضت لك عيناه، وذلل لك قلبه».

فهذا وأمثاله من آثار التوبة المقبولة. فمن لم يجد ذلك في قلبه فليتهم توبته وليرجم إلى نصحيحها، فما أصعب التوبة الصحيحة بالحقيقة. وما أسهلها باللسان والدعوى! وما عالج الصادق بشيء أشق عليه من التوبة الخالصة الصادقة. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

● قَدَر... وخيار

وأما الغيرة لله تعالى عند مخالفة الناس لاوامره وعدم الاعتذار عنهم بالقدر فلأن الله عز وجل أرحم وأغنى وأعدل من أن يعاقب صاحب عذر. فلا أحد أحب إليه العذر من الله. ومن أجل ذلك أرسل الرسل وأنزل الكتب، إزالة لأعذار خلقه. فلا يكون لهم عليه حجة. ومعلوم أن طالب عذرهم ومصححهم مقيم لحجة قد أبطلها الله من جميع الوجوه، ولله الحجة البالغة.

والشأن: أنه لا عذر لأحد ألبتة في معصية الله، ومخالفة أمره. مع علمه بذلك، وتمكنه من الفعل والترك. ولو كان له عذر لما استحق العقوبة واللوم. لافي الدنيا ولا في العقبى، ومن ادعى أن ذنبه كان قدراً مقدوراً عليه لم يستطع دفعه فهو ظالم جاهل، ولولا جهله وظلمه لعلم أن بلاءه من نفسه ومصابه منها، وإنما أولى بكل ذم وظلم، وأنها مأوى كل سوء. و«١٠٠:٩ إن الإنسان لربه لكنود». قال ابن عباس ومجاهد وقتادة «كفور جحوداً لنعم الله» وقال الحسن «هو الذي يُعَدُّ المصائب. وينسى النعم» وقال أبو عبيدة «هو قليل الخير» والأرض «الكنود» التي لا تبت بها وقيل: التي لا تبت شيئاً من المنافع، وقال الفضل بن عباس «الكنود: الذي أنسته الخصلة الواحدة من الإساءة الخصال الكثيرة من الإحسان».

ولولا جهله لعلم أنه هو القاعد على طريق مصالحه يقطعها عن الوصول إليه، فهو الحجر في طريق الماء الذي به حياته. وهو الشجر الذي قد سد مجرى الماء إلى بستان قلبه، ويستغيث مع ذلك: العطش العطش، وقد وقف في طريق الماء. ومنع وصوله إليه. فهو حجاب قلبه عن سر غيبه. وهو الغيم المانع للإشراق شمس الهدى على القلب. فما عليه أضر منه، ولا له أعداء أبلغ في نكايته وعداوته منه.

ما يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه

فتباً له ظالمًا في صورة مظلوم، وشاكياً والجنانية منه. قد جد في الإعراض وهو ينادي: طردوني وأبعدوني.

- يأخذ الشقيق بحجزته عن النار. وهو يجاذبه ثوبه ويقلبه ويقتحمها، ويستغيث: ما

الْبَيْتُ الْاَلَا بُعْدُ الْاَسْلاَمِ الْاَوَّلِي

الْيَقْظَةُ (١) الْفُكْرَةُ (٢)

الْبَصَائِرُ (٣) الْعَيْنُ الْمُرَّةُ (٤)

• انتفاضة اليقظة

فأول منازل العبودية «اليقظة» وهي انتزاع القلب لروعة الانتباه من رقدة الغافلين . ولله ما أنفع هذه الروعة! وما أعظم قدرها وخطرها! وما أشد إغاتها على السلوك! فمن أحس بها فقد أحس والله بالفلاح، وإلا فهو في سكرات الغفلة فإذا انتبه شمر لله بهمت إلى السفر إلى منزله الأولى، وأوطانه التي شئ منها.

واعلم أن العبد قبل وصول الداعي إليه في نوم الغفلة، قلبه نائم وظلّه يقظان. فصاح به الناصح. وأسمعه داعي النجاح. وأذن به مؤذن الرحمن: حتى على الفلاح.

فأول مراتب هذا النائم: اليقظة والانتباه من النوم . وقد ذكرنا : أنها انتزاع القلب لروعة الانتباه.

وكانها هي القوة لله المذكورة في قوله (٤٦:٣٤) قُلْ: إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بَواحدة. أن تقوموا لله متشي وفرادى).

فالقوة لله هي اليقظة من سعة الغفلة، والنهوض عن ورطة الفترة. وهي أول ما يستنير قلب العبد بالحياة لرؤية نور التنبيه. وأول انوارها: تحط القلب إلى النعمة، على اليأس من عذها، والوقوف على حدها، والتفرغ إلى معرفة المنة بها، والعلم بالتقصير في حقها.

وهذا هو موجب اليقظة وأثرها . فإنه إذا نهض من ورطة الغفلة لاستنارة قلبه برؤية نور التنبيه. أوجب له ملاحظة نعم الله الباطنة والظاهرة. وكلما حدّق قلبه وطرّف فيها، شاهد عظمتها وكثرتها، فيش من عدها، والوقوف على حدها. وفرغ قلبه لمشاهدة مئة الله عليه بها، من غير استحقاق، ولا استجلاب لها بشمن . فتبين حينئذ تقصيره في واجبها. وهو القيام بشكرها.

فأوجب له شهود تلك المنّة والتقصير نوعين جليين من العبودية : محبة الممنع . واللهج بذكره وتذكر الله وخضوعه له، وإزاراه على نفسه. حيث عجز عن شكر نعمه . فصار متحققاً بـ «أبوه لك بنعمتك على» وأبوه بذنبي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» وعلم حينئذ أن

هذا الاستغفار حقيق بأن يكون سيد الاستغفار. وعلم حينئذ أن الله لوعذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبتهم وهو غير ظالم لهم. ولورحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم. وعلم أن العبد دائماً سائر إلى الله بين مطالعة المنة ، ومشاهدة التقصير.

وهذا اللحظ يؤدي به إلى مطالعة الجناية، والوقوف على الخطر فيها، والتشهير لتداركها، والتخلص من رقتها، وطلب النجاة بتمحيصها.

فينظر إلى ماسلف منه من الإساءة . ويعلم أنه على خطر عظيم فيها وأنه مشرف على الهلاك بمؤاخذه صاحب الحق بموجب حقه . وقد ذمَّ الله تعالى في كتابه مَنْ نَسِيَ مَا تَقَدَّمَ يَدَاهُ . فقال (٥٧:١٨) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ فَإِذَا طَالَعَ جَنَابَتَهُ شَرَّ لَا سِتْدَارَكَ الْفَارِطُ بِالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ . وتخلص من رِقِّ الجناية بالاستغفار والندم . وطلب التمحيص . وهو تخلص بإيمانه ومعرفته من خَبَثِ الجناية . كتمحيص الذهب والفضة ، وهو تخليصهما من خبثهما . ولا يمكن دخوله الجنة إلا بعد هذا التمحيص . فإنها طيبة لا يدخلها إلا طيب . ولهذا تقول لهم الملائكة (٣٩:٧٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوا خَالِدِينَ) وقال تعالى (١٦:٣٢) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ) فليس في الجنة ذرَّةٌ خبث .

وهذا التمحيص يكون في دار الدنيا بأربعة أشياء : بالتوبة ، والاستغفار ، وعمل الحسنات الماحية ، والمصائب المكفرة . فإن عصته هذه الأربعة وخلصته : كان من الذين تتوفاهم الملائكة طيبين . يشرئونهم بالجنة وكان من الذين (٤١:٣٠ - ٣٢) تنزل عليهم الملائكة عند الموت (أن لا تخافوا ولا تحزنوا . وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون . نزلاً من غفور رحيم).

وإن لم تف هذه الأربعة بتمحيصه وتخليصه ، فلم تكن التوبة نصوحاً — وهى العامة الشاملة الصادقة — ولم يكن الاستغفار كاملاً تاماً — وهو المصحوب بمقارعة الذنب ، والندم عليه — وهذا هو الاستغفار النافع ، لا استغفار من في يده قدح السكر . وهو يقول : أستغفر الله ، ثم يبرقه إلى فيه . ولم تكن الحسنات في كميتها وكيفيتها وافية بالكفر ، ولا المصائب . وهذا إما لعظم الجناية ، وإما لضعف المحص ، وإما لهما — : مُخَصَّصٌ في البرزخ بثلاثة أشياء .

أحدها: صلاة أهل الإيمان الجنائز عليه ، واستغفارهم له ، وشفاعتهم فيه .

الثاني: تمحيصه بفتنة القبر ، وروعة الفتن ، والقصرة والانتهاز ، وتوابع ذلك .

الثالث: ما يهتدى إخوانه المسلمون إليه من هدايا الأعمال ، من الصدقة عنه ، والنجح ، والصيام عنه ، وقراءة القرآن عنه ، والصلاة . وجعل ثواب ذلك له . وقد أجمع الناس على وصول

انصتقة والدعاء . قال الإمام أحمد: لا يختلفون في ذلك . وما عداها فيه اختلاف . والأكثرون يقولون بوصول الحج . وأبو حنيفة يقول: إنما يصل إليه الإنفاق ، وأحد ومن وافقه: مذهبهم في ذلك أوسع المذاهب . يقولون : يصل إليه ثواب جميع القرب . بذئبها وما إليها .

فإن لم تف هذه بالتمحيص . مُنْصَح بين يدي ربه في الموقف بأربعة أشياء: أهوال القيامة . وشدة الموقف . وشفاعة الشفعاء . وعفو الله عز وجل .

فإن لم تف هذه الثلاثة بتمحيصه فلا بد له من دخول الكبر ، رحمة في حقه ليتخلص ويتمحص ، ويتطهر في النار فتكون النار ظهرة له وتحيصاً لحبته . ويكون مكثه فيها على حسب كثرة الخبث وقلته ، وشدة وضعفه وتراكمه . فإذا خرج خبثه وصُفِّي ذهبه . وصار خالصاً طيباً ، أخرج من النار ، وأدخل الجنة .

ثم إن من اعل مراتب اليقظة : الانتباه لمعرفة الزيادة والنقصان من الأيام ، والتوصل من تضييعها ، والنظر الى الظن بها لتدرك قائتها ، وتعمير باقيها .

فيعرف مامعه من الزيادة والنقصان . فيتدارك ما فاتته في بقية عمره التي لا ثمن لها ، ويبخل بساعاته — بل بأنفاسه — عن ذهابها ضياعاً في غير ما يُقَرَّب به الى الله . فهذا هو حقيقة الحشران المشترك بين الناس ، مع تفاوتهم في قدره ، قلة وكثرة . فكل نفس يخرج في غير ما يقرب الى الله فهو حسرة على العبد في معاده ، ووقفة له في طريق سيره ، أو نكسة إن استمر ، أو حجاب إن انقطع به .

فأما معرفة النعمة : فإنها تصفو بثلاثة أشياء : بنور العقل ، ونسيم بروق البيئة ، والاعتبار بأهل البلاء .

فهو النور الذي أوجب اليقظة ، فاستنار القلب به لرؤية التنبيه . وعلى حسب — قوة وضعف — تصفوله مشاهدة النعمة . فإن من لم ير نعمة الله عليه إلا في مأكله وملبسه ، وعافية بدنه ، وقيام وجهه بين الناس . فليس له نصيب من هذا النور البتة . فنعمة الله بالإسلام والإيمان ، وجذب عبده إلى الإقبال عليه ، والتنعم بذكركه ، والتلذذ بطاعته : هو أعظم النعم . وهذا إنما يدرك بنور العقل ، وهداية التوفيق .

وكذلك شيمه بروق ممن الله عليه . وهو النظر إليها ، ومطالعها من خلال شُحْب الطبع ، وظلمات النفس . والنظر الى أهل البلاء — وهم أهل الغفلة عن الله ، والابتداع في دين الله — فهذان الصنفان هم أهل البلاء حقاً . فإذا رآهم ، وعلم ما هم عليه ، عظمت نعمة الله عليه في قلبه ، وصفت له وعرف قدرها • فالضد يُظْهِر حسنة الضد • وبضدها تتميز الأشياء •

حتى إن من تمام نعيم أهل الجنة : رؤية أهل النار وما هم فيه من العذاب . وأما مطالعة الجنائية : فإنها تصح بثلاثة أشياء : بتعظيم الحق ، ومعرفة النفس ، وتصديق

الوعيد.

فمن كملت عظمة الحق تعالى في قلبه عظمت عنده مخالفته. لأن مخالفة العظيم ليست كمخالفة من هودونه. ومن عرف قدر نفسه وحقيقتها، وفقرها الذاتي الى مولاه الحق في كل لحظة ونفَس، وشدة حاجتها إليه، عظمت عنده جناية المخالفة لمن هو شديد الضرورة اليه في كل لحظة ونفَس.

وأيضاً فإذا عرف حقارتها — مع عظم قدر من خالفه — عظمت الجناية عنده. فشر في التخلص منها. وبحسب تصديقه بالوعيد و يقينه به، يكون تسميره في التخلص من الجناية التي تلحق به.

ومدار السعادة، وقطب رحاها: على التصديق بالوعيد. فإذا تعطل من قلبه التصديق بالوعيد خرب خراباً لا يرجى معه فلاح ألبته. والله تعالى أخبر أنه إنما تنفع الآيات والتدبر لمن صدق بالوعيد. وخاف عذاب الآخرة، فهؤلاء هم المقصودون بالإنذار، والمتفكرون بالآيات، دون من عداهم. قال الله تعالى (١٠٣: ١١) إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة) وقال (٤٥: ٧٩) إنما أنت منذر من يخشاها) وقال (٤٥: ٥٠) فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) وأخبر تعالى أن أهل النجاة في الدنيا والآخرة هم المصدقون بالوعيد، الخائفون منه. فقال تعالى (١٤: ١٣) وَلَنُكَبِّنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ. ذلك لمن خاف مقامى وعيد).

وأما معرفة الزيادة والنقصان من الأيام: فإنها تستقيم بثلاثة أشياء: سماع العلم، وإجابة داعي الحرمة، وصحبة الصالحين. وملاك ذلك كله: خلع العادات. ذلك أن السالك: على حسب علمه بمراتب الأعمال، ونفائس الكسب. تكون معرفته بالزيادة والنقصان في حاله وإيمانه. وكذلك تتقَدُّ إجابة داعي تعظيم حرمان الله من قلبه: هل هو سريع الإجابة لها، أم هو بطيء عنها؟ فيحبس إجابة الداعي — سرعة وإبطاء — تكون زيادته ونقصانه.

وكذلك صحبة أرباب العزائم، المشرمين إلى اللهاق بالملا الأعلى، يعرف به مامعه من الزيادة والنقصان.

والذي يملك به ذلك كله خروجه عن العادات والمألوفات، وتوطين النفس على مفارقتها، والغربة بين أهل الغفلة والإعراض. وما على العبد أضر من ملك العادات له. وما عارض الكفائر الرسل إلا بالعادات المستقرة، المورثة لهم عن الأسلاف الماضين. فمن لم يوطن نفسه على مفارقتها والخروج عنها، والاستعداد للمطلوب منه: فهو مقطوع، وعن فلاحه وفوزه ممنوع (٤٦: ٩) ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عهداً. ولكن كره الله انبعاثهم. فنبطهم. وقيل: اقموا مع القاعدين).

● منزلة الفكرة

فإذا استحكمت يقظته أوجبت له الفكرة . وهي — كما تقدم — تحديق القلب إلى جهة ملوب التماساً له .

والفكرة فكرتان : فكرة تتعلق بالعلم والمعرفة ، وفكرة تتعلق بالطلب والإرادة .
فالتى تتعلق بالعلم والمعرفة : فكرة التمييز بين الحق والباطل ، والثابت والمنفي . والتي تعلق بالطلب والإرادة : هي الفكرة التي تميز بين النافع والضار .
ثم يترتب عليها فكرة أخرى في الطريق إلى حصول ماينفع ، فيسلكها ، والطريق إلى مايفضر فيتركها .

فهذه ستة أقسام . لا سابع لها ، هي مجال أفكار العقلاء .
وأصلها : الفكرة في التوحيد : وهي استحضار أدلته ، وشواهد الدلالة على بطلان الشرك واستحاثاته ، وأن الإلهية يستحيل ثبوتها لاثنين ، كما يستحيل ثبوت الربوبية لاثنين . فذلك من أبطل الباطل عبادة اثنين ، والتوكل على اثنين . بل لا تصح العبادة إلا للإله الحق ، والرب الحق . وهو الله الواحد القهار .

وهذه الفكرة هي حقيقة البراء والولاء . البراء من عبادة غير الله ، والولاء لله ، كما قال تعالى (٤:٦٠) قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه ، إذ قالوا لقومهم : إنا برءاء منكم وما نقبذون من دون الله كافرين بكم . وبدأ بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده) وقال (٢٧:٢٦:٤٣) وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه : إني براء مما تعبدون * إلا الذي فطرني ، فإنه سيهدين) وقال أيضاً (٧٩:٧٨:٦) يا قوم إني برىء مما تشركون * إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً مسلماً) وقال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم (قل يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون إلى آخرها .
وهذه براءة منهم ومن معبودهم وسماها براءة من الشرك .

وهي حقيقة المحر والإثبات . فيمحو عمة ماسوى الله عز وجل من قلبه ، علماً وقصداً وعبادة ، كما هي متشوقة من الوجود . ويثبت فيه إلهيته سبحانه وحده .
وهي حقيقة الجمع والفرق . فيفرق بين الإله الحق وبين من ادَّعيت له الإلهية بالباطل . ويجمع تأليهه وعبادته وجه وخوفه ورجاءه وتوكله واستعانه على إله الحق الذي لا إله سواه .
وهي حقيقة التجريد والتفريد . فيتجرد عن عبادة ماسواه ، ويفرده وحده بالعبادة فالتجريد نفي ، والتفريد إثبات . ومجموعهما هو التوحيد .
فهذا الولاء والبراء . والمحر والإثبات ، والجمع والتجريد . والتفرد المتعلق بتوحيد الإلهية : هو النافع الثمر . المنجي . الذي به تنال السعادة والفلاح .

● بصائر تهدي

فإذا صحت فكرته أوجبت له «البصيرة»، فهي نور في القلب يبصر به الوعد والوعيد ، والجنة والنار، وما أعد الله في هذه لأوليائه، وفي هذه لأعدائه. فأبصر الناس وقد خرجوا من قبورهم مُهْطِينَ لدعوة الحق ، وقد نزلت ملائكة السموات فأحاطت بهم ، ووُضِعَ الكتاب ، وجرى بالنبيين والشهداء . وقد نُصِبَ الميزان ، وتطايرت الصحف . واجتمعت الخصوم . وتعلق كل غريم بغريمه . ولاح الجوفس وأكوابه عن كُتُب . وكثر العطاش وقل الوارد . ونُصِبَ الجسر للعبور، وكُرِّزَ الناس إليه . وقسمت الأنوار دون ظلمته للعبور عليه . والنار يُحْطِمُ بعضها بعضاً تحته . والمتساقطون، فيها أضعافاً أضعاف الناجين .

فيستفتح في قلبه عين يرى بها ذلك . ويقوم بقلبه شاهد من شواهد الآخرة يريه الآخرة ودوامها، والدنيا وسرعة انقضائها .

فـ «البصيرة» نور يقذفه الله في القلب ، يرى به حقيقة ما أخبرت به الرسل . كأنه يشاهده رأى عين . فيتحقق — مع ذلك — انتفاعه بما دعت إليه الرسل، وتضرره بمخالفتهم . وهذا معنى قول بعض المارفين «البصيرة: تحقق الانتفاع بالشيء والتضرره به» وقال بعضهم «البصيرة: ما خلصك من الحيرة، إما بإيمان وإما بيمان» .

و «البصيرة» على ثلاث درجات . من استكملها فقد استكمل البصيرة: بصيرة في الأسماء والصفات ، وبصيرة في الأمر والنهي ، وبصيرة في الوعد والوعيد .

● المرتبة الاولى من البصيرة

فالبصيرة في الأسماء والصفات : أن لا يتأثر إيمانك بشبهة تعارض ما وصف الله به نفسه، ووصفه به رسوله . بل تكون الشبهة المعارضة لذلك عندك بمنزلة الشبهة والشكوك في وجود الله . فكلاهما سواء في البلاء عند أهل البصائر .

وعقد هذا: أن يشهد قلبك الرب تبارك وتعالى مستوياً على عرشه ، متكلاً بأمره ونهيه ، بصيراً بحركات العالم علويه وسُفْلِيّه، وأشخاصه وذواته ، سميعاً لأصواتهم، رقيباً على ضمائرهم وأسرارهم ، وأمر الممالك تحت تدبيره، نازل من عنده وصاعد إليه، وأملاكه بين يديه تنفذ أوامره في أقطار الممالك . موصوفاً بصفات الكمال ، منبوتا بنموت الجلال، منزها عن العيوب والنقائص والمثالب . فهو كما وصف نفسه في كتابه ، وفوق ما يصفه به خلقه . حي لا يموت . قيوم لا ينام . علیم لا يخفى عليه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض . بصير يرى

ذبيب النملة السوداء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء. سميع يسمع ضجيج له صيرت باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات. تمت كلماته جِدًا وعدلا، وجنت صفاته أن تقاس صفات خلقه سبها ومثلا. وتعال ذاتة أن تشبه شيئا من الذوات أصلا. ووسعت الخليفة أفعاله عدلا. وحكمة ورحمة وإحسانا وفضلا. له الخلق والأمر. وله النعمة والفضل. وله الملك والحمد. وله الثناء والمجد. أولّ ليس قبله شيء. وآخر ليس بعده شيء. ظاهر ليس فوقه شيء. باطن ليس دونه شيء. أسماؤه كلها أسماء مُدَحِّح ومُذَنِّع ونناء وتمجيد. ولذلك كانت حسنى. وصفاته كلها صفات كمال، ونعمته كلها نعمت جلال، وأفعاله كلها حكمة ورحمة ومصلحة وعدل. كل شيء من مخلوقاته دال عليه، ومرشد لمن رآه بعين البصيرة إليه. لم يخلق السموات والأرض وما بينهما باطلا، ولا ترك الإنسان سُدى عاطلا. بل خلق الخلق لقيام توحيده وعبادته، وأسبغ عليهم نعمته ليتولوا بشكرها إلى زيادة كرامته. تعرّف إلى عبادته بأنواع التعريفات. وصرف لهم الآيات. ونوع لهم الدلالات. ودعاهم إلى محبته من جميع الأبواب. ومدّ بينه وبينهم من عهده أقوى الأسباب. فأتمّ عليهم نعمه السابقة. وأقام عليهم حجة البالغة، أفاض عليهم النعمة، وكتب على نفسه الرحمة. وضمن الكتاب الذي كتبه: أن رحمة تغلب غضبه.

وتفاوت الناس في هذه البصيرة بحسب تفاوتهم في معرفة النصوص النبوية وفهمها، والعلم بفساد الشبه المخالفة لحقائقها.

وتجد أضعف الناس بصيرة أهل الكلام الباطل المذموم الذي ذمه السلف، لجهلهم بالنصوص ومعانيها، ويمكن الشبه الباطلة من قلوبهم. وإذا تأملت حال العامة — الذين ليسوا مؤمنين عند أكثرهم — رأيهم أتم بصيرة منهم، وأقوى إيمانا، وأعظم تليما للوحي، وانقيادا للحق.

● المرتبة الثانية من البصيرة

البصيرة في الأمر والنهي. وهي تجريده عن المدرسة بتأويل، أو تقليد، أو هوى. فلا يقوم بقلبه شبهة تعارض العلم بأمر الله ونهيه، ولا شهوة تمنع من تنفيذه وامتناله، والأخذ به، ولا تقليد يرمعه عن بذل الجهد في تلقي الأحكام من مشكاة النصوص. وقد علمت بهذا أهل البصائر من العلماء من غيرهم.

● المرتبة الثالثة: البصيرة في الوعد والوعيد

وهي أن تشهد قيام الله على كل نفس بما كسبت في الخير والشر، عاجلا وآجلا، في دار

العمل ودار الجزاء ، وأن ذلك هو موجب إلهيته وربوبيته ، وعدله وحكمته . فإن الشك في ذلك شك في إلهيته وربوبيته . بل شك في وجوده . فإنه يستحيل عليه خلاف ذلك . ولا يليق أن ينسب إليه تعطيل الخليقة ، وإرسالها هملأ ، وتركها سدى . تعالى الله عن هذا الحسبان علواً كبيراً .

فشهادة العقل بالجزاء كشهادته بالوحدانية . ولهذا كان الصحيح : أن المعاد معلوم بالعقل . وإنما اهتدى إلى تفاصيله بالوحي . ولهذا يجعل الله سبحانه إنكار المعاد ككراً به سبحانه . لأنه إنكار لقدرته وإلهيته . وكلاهما مستلزم للكفر به ! قال تعالى (١٣: ٥) وإن تعجب ! فعجب قولهم : أئذا كنا تراباً أئنا لفي خلقٍ جديد؟ أولئك الذين كفروا بربهم . وأولئك الأغلال في أعناقهم . وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . وفي الآية قولان :

أحدهما : إن تعجب من قولهم «أئذا كنا تراباً أئنا لفي خلقٍ جديد» فعجب قولهم ! كيف ينكرون هذا . وقد خلقوا من تراب ولم يكونوا شيئاً .

والثاني : إن تعجب من شركهم مع الله غيره ، وعدم انقيادهم لتوحيده وعبادته وحده لاشريك له . فانكارهم للبعث ، وقولهم «أئذا كنا تراباً أئنا لفي خلقٍ جديد» أعجب . وعلى التقديرين : فانكار المعاد عجب من الإنسان . وهو محض إنكار الرب والكفر به ، والجدل لإلهيته . وقدرته ، وحكمته وعدله وسلطانه .

ولصاحب كتاب منازل السائرين الذي نشره ، شيخ الاسلام الهروي ، في «البصيرة» طريقة أخرى ، إذ جمل : «البصيرة ما يخلصك من الحيرة» ، وجعل الدرجة الأولى منها : ان تعلم ان خير رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من حقق ان تؤديه يقيناً ، وتغضب له غيرة» . ومعنى كلامه : أن ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم صادر عن حقيقة صادقة ، لا يخاف متبعها فيما بعد مكروهاً . بل يكون آمناً من عاقبة اتباعها . إذ هي حق . ومتبع الحق لا خوف عليه . ومن حق ذلك الخبر عليك : أن تؤذي ما أمرت به منه من غير شك ولا شكوى ، والأجوط بك والذي لا تبرأ ذمتك إلا به تناول الامر بامتنال صادر عن تصديق محقق ، لا يصحبه شك ، وأن تغضب على من خالف ذلك غيرة عليه أن يضييع حقه ، ويهمل جانبه .

وإنما كانت الغيرة عند شيخ الاسلام من قام «البصيرة» لأنه على قدر المعرفة بالحق ومستحقه وعيته وإجلاله : تكون الغيرة عليه أن يضيع ، والغضب على من أضاعه . فإن ذلك دليل على محبة صاحب الحق وإجلاله وتعظيمه . وذلك عين البصيرة . فكما أن الشك القادح في كمال الامتنان مُعمٍ لعين البصيرة ، فكذلك عدم الغضب والغيرة على حقوق الله — إذا ضيعت ، ومهارمه إذا انتهكت — معمٍ لعين البصيرة .

ثم جعل الدرجة الثانية: أن تشهد في هداية الله للناس وإضلاله لهم : إصابة العدل، وتمايز في جذب إياك من نفسك الامتارة بالسوء : حبل التوصل.

يريد — رحمه الله — بشهود العدل في هدايته من هداة، وفي إضلاله من أضلّه: أمرين. أحدهما: تفريده بالخلق، والمهدى والضلال.

والثاني: وقوع ذلك منه على وجه الحكمة والعدل، لا بالاتفاق، ولا بمحض المشيئة المجردة عن وضع الأشياء مواضعها، وتنزيلها منازلها، بل بحكمة قتضت هدى من علم أنه يزكو على الهدى، ويقبله ويشكره عليه، ويثمر عنده. فالله أعلم حيث يجعل رسالته، أصلاً وميراثاً. قال تعالى (٥٣:٦) وكذلك فتننا بعضهم ببعض ليقولوا: أهؤلاء من الله عليهم من بيننا؟ أليس الله بأعلم بالشاكرين؟ وهم الذين يعرفون قدر نعمته بالهدى، ويشكرونه عليها، ومحبيته ويمجدونه على أن جعلهم من أهله. فهو سبحانه ماعدل عن موجب العدل والإحسان في هداية من هدى وإضلال من أضل، ولم يطرده عن إياه، ولم يعد عن جنبه، من يليق به التقريب والهدى والإكرام، بل طرد من لا يليق به إلا الطرد والإبعاد. وحكمته وحده تأبى تقريبه وإكرامه، وجعله من أهله وخاصته وأوليائه.

ولا يبقى إلا أن يقال: قلم خلق من هو بهذه المثابة؟

فهذا سؤال جاهل ظالم ضال، مغرط في الجهل والظلم والضلال. لأن خلق الاضداد والمتقابلات هو من كمال الربوبية، كالليل والنهار، والحار والبرد، واللذة والألم، والخير والشر، والتعظيم والجحيم.

أما قوله الآخر فيريد به أن تعين في توفيقه لك للطاعة، وجذبه إياك من نفسك: أنه يريد تقريبك منه. فاستعار للتوفيق الخاص الجذب، وللتقريب الوصال. وأراد بالحبل السبب الموصل لك إليه.

فأشار بهذا إلى أنك تستدل بتوفيقه لك، وجذبك نفسك، وجعلك متسكاً بحبه — الذي هو عهده ووصيته إلى عبادته — على تقريبه لك. تشاهد ذلك ليكون أقوى في المحبة والشكر، وبذل النصيحة في العبودية. وهذا كله من تمام البصيرة التي تؤدي إلى درجة ثالثة منها رآها الهروي تفجّر المعرفة، وثبتت الفراسة.

وصدق — رحمه الله — فإن بهذه البصيرة تتفجر من قلب صاحبها ينابيع من المعارف، التي لا تنال بكسب ولا دراسة. إن هو إلا فهم يؤتيه الله عبداً في كتابه ودينه، عى قدر بصيرة قلبه.

● الفراسة ثمرة البصيرة

فالْبصيرة تنبت في أرض القلب الفراسة الصادقة. وهي نور يقذفه الله في القلب. يفرق به

بين الحق والباطل ، والصادق والكاذب . قال الله تعالى (٧٥:١٥) إن في ذلك لآيات للمتوسمين) قال مجاهد: للمتوسمين . وفي الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «اتقوا فريسة المؤمن . فإنه ينظر بنور الله عز وجل» ثم قرأ (إن في ذلك لآيات للمتوسمين).

و«التوسم» تفعل من السيماء . وهي العلامة . فسمى المتوسم متوسماً . لأنه يستدل بما يشهد على ماغاب . فيستدل باليمان على الإيمان . ولهذا خص الله تعالى بالآيات والانتفاع بها هؤلاء . لأنهم يستدلون بما يشاهدون منها على حقيقة ما أخبرت به الرسل ، من الأمر والنهي ، والشواب والعقاب . وقد أتم الله ذلك لأدم ، وعلمه إياه حين علمه أسماء كل شيء ، وآتاه من السمع والبصر والفؤاد وغيرها ما عرف به حقائق الأشياء ومزاياها وصفاتها ، ليشكرها بحسن الانتفاع بها ، ووضعها في مواضعها الصالحة لما بأصل الخلق والقطرة لأنها إنما خلقت وسخرت له ، وبنيته هم نسخته وخلفاؤه . فكل قلب فهو قابل لذلك . وهو فيه بالقوة . وبه تقوم المحبة ، وتحصل العبادة ، وتصح الدلالة . ويحث الله رسله مذكّرين ومنبهين ومكملين لهذا الاستعداد ، بنور الوحي والإيمان . فيضاد ذلك إلى نور الفراسة والاستعداد . فيصير نوراً على نور . فتتقوى البصيرة ، ويعظم النور ، ويدوم ، بزيادة مادته ودوامها . ولا يزال في تزايد حتى يبرى على الوجه والجوارح ، والكلام والأعمال . ومن لم يقبل هدى الله ولم يرفع به رأساً دخل قلبه في التلاف والأكلية . فأظلم ، وعسى عن البصيرة . فحجبت عنه حقائق الإيمان . فبرى الحق باطلاً ، والباطل حقاً ، والرشد غيياً ، والغى رشداً . قال تعالى (١٤:٨٣) كلا ، بل رآن على قلوبهم ما كانوا يكسبون) و«الرين» و«الران» هو الحجاب الكثيف المانع للقلب من رؤية الحق والالتقياد له .

وعلى حسب قوة البصيرة وضعفها تكون الفراسة . ففراسة الصادقين ، العارفين بالله وأمره: متصلة بالله ، ذلك ان همته لما تعلقت بحبة الله ومعرفته وعبوديته ، ودعوة الخلق إليه على بصيرة . كانت فراستهم متعلقة بنور الوحي مع نور الايمان . فميزت بين ما يوجب الله وما يغيظه ، من الأعيان والأقوال والأعمال . وميزت بين الخبيث والطيب ، والحق والمبطل ، والصادق والكاذب . وعرفت مقادير استعداد السالكين الى الله . فحملت كل إنسان على قدر استعداده ، علماً وإرادة وعملاً .

ففراسة هؤلاء دائماً حائمة حول كشف طريق الرسول وتعريفها ، وتخليصها من بين سائر الطرق ، وبين كشف عيوب النفس ، وأفات الأعمال العائقة عن سلوك طريق المرسلين . فهذا أشرف أنواع البصيرة والفراسة . وأنفعها للعبد في معاشه ومعاده .

● قصدهُ بحثُ على الاقتحام

فإذا انتبه وأبصر أخذ في «القصده» وصدق الإرادة. وأجمع القصده والنية على سفر المجرة إلى الله. وعلم وتيقن أنه لابد له منه. فأخذ في ألوية السفر، وتقبلة الزاد ليوم المعاد. والتجرد عن عوائق السفر، وقطع العلائق التي تقنه من الخروج. وقد رآه الشيخ الهروي:

«قصداً يبحث على الارتياض، ويُخلص من التردد، ويدعو إلى مجانبة الأغراض». فهو يبحث على السلوك بلا توقف، ولا تردد، ولا علة غير العبودية، من رياء أو سمعة، أو طلب عمدة، أو جاهد ومشتركة عند الخلق، بحيث لا يلقى سبباً يُعوق عن المقصود إلا قطعه، ولا حائلاً دونهُ إلا تنمعه، ولا صعوبة إلا تسهلها، فيجعل دينه الاستسلام لتهديب العلم، وإجابة داعي الحكم.

فهو ينقاد إلى العلم ليتهدب به ويصلح. ويقصد إجابة داعي الحكم الديني الأمري كلما دعاه. فإن للحكم في كل مسألة من مسائل العلم متادياً يتنادى للإيمان بها علماً وعملاً. فيقصد إجابة داعيها.

أما الأسرار والحكم الداعية إلى شرع الحكم. فإجابتها قدر زائد على مجرد الامتثال. فإنها تدعو إلى المحبة والإجلال، والمعرفة والحمد. فالأمر يدعو إلى الامتثال. وما تضمنته من الحكم. والغايات تدعو إلى المعرفة والمحبة.

● ابتداء العزم على الانتهاء

فإذا استحکم قصده صار «عزماً» جازماً، مستلزماً للشروع في السفر، مقروناً بالتوكل على الله. قال تعالى (١٥٩:٣) فإذا عزمت فتوكل على الله).

و «العزم» هو القصد الجازم المتصل بالفعل. ولذلك قيل: إنه أول الشروع في الحركة لطلب المقصود، وأن التحقيق: أن الشروع في الحركة ناشئ عن العزم، لا أنه هو نفسه، ولكن لما اتصل به من غير فصل ظن أنه هو.

وحقيقته: هو اجتماع قوى الإرادة على الفعل.

و «العزم» نوعان: أحدهما: عزم المرید على الدخول في الطريق. وهو من البدايات. والثاني: عزم في حال السير معه. وهو أخص من هذا. وهو من المقامات. وسنذكره في موضعه إن شاء الله.

وفي هذه المنزلة يحتاج السالك إلى تمييز ما لهُ بما عليه، ليستصحب ماله ويؤدي ماعليه. وهو «المحاسبة» وهي قبل «التوبة» في المرتبة. فإنه إذا عرف ماله وماعليه أخذ في أداء ماعليه، والخروج منه. وهو «التوبة».

واعلم أن ترتيب هذه المقامات ليس باعتبار أن السالك يقطع المقام، ويفارقه وينتقل إلى الثاني. كمنازل السير الحسى. هذا محال. ألا ترى أن «اليقظة» معه في كل مقام لا تفارقه، وكذلك «البصيرة» و «الإرادة» و «الغزم» وكذلك «التوبة» فإنها كما أنها من أول المقامات فهي آخرها أيضاً. بل هي في كل مقام مُستصحبة. ولهذا جعلها الله تعالى آخر مقامات خاصته. فقال تعالى في غزوة تبوك. وهي آخر الغزوات التي قطعوا فيها الأودية والبدابات والأحوال والنهايات (٩: ١١٧) لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريقتهم منهم. ثم تاب عليهم. إنه بهم رؤوف رحيم) فجعل التوبة أول أمرهم وآخره. وقال في سورة أجيل رسول الله صلى الله عليه وسلم التي هي آخر سورة أنزلت (إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخولون في دين الله أفواجا). فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً).

وفي الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما صلى صلاة بعد إذ أنزلت عليه هذه السورة إلا قال في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم ربنا وبحممدك، اللهم اغفر لي، يتأول القرآن» فالتوبة هي نهاية كل سالك وكل ولى لله. وهي الغاية التي يجري إليها العارفون بالله وعبوديته. وما ينبغي له. قال تعالى (٣٣: ٧٢، ٧٣) إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها

الإنسان. إنه كان ظلوماً جهولاً * ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات. وكان الله غفوراً رحيماً) فجعل سبحانه التوبة غاية كل مؤمن ومؤمنة.

وكذلك «الصبر» فإنه لا ينفك عنه في مقام من المقامات.

وإنما هذا الترتيب ترتيب المشروط المتوقف على شرطه المصاحب له.

ومثال ذلك: أن «الرضا» مترتب على «الصبر» لتوقف الرضا عليه. واستحالة ثبوته بدونه. فإذا قيل: إن مقام «الرضا» بعد مقام «الصبر» لا يعني به أنه يفارق الصبر وينتقل إلى الرضا وإنما يعني أنه لا يحصل له مقام الرضا حتى يتقدم له قبله مقام الصبر. فافهم هذا الترتيب في مقامات العبودية.

وإذا كان كذلك علمت أن «القصـد» و «العزم» متقدم على سائر المنازل، وعلمت بذلك أن «المحاسبة» متقدمة على «التوبة» بالرتبة أيضاً. فإنه إذا حاسب العبد نفسه خرج مما عليه. وهي حقيقة التوبة. وأن منزلة «التوكل» قبل منزلة «الإنابة» لأنه يتوكل في حصولها. فالتوكل وسيلة . والإنابة غاية.

(٥) منزلة المحاسبية

ذكرنا «اليقظة» و«الفكرة» و«البصيرة» و«العزم» .

وهذه المنازل الأربعة لساكن المنازل كالأساس للبيان. وعليها مدار منازل السفر إلى الله. ولا يتصور السفر بدون نزولها ألبتة. وهي على ترتيب السير الحسى. فإن المقيم في وطنه لا يتأتى منه السفر حتى يستيقظ من غفلته عن السفر. ثم يتعبر في أمر سفره وتحظره، وما فيه من المنفعة له والمصلحة. ثم يفكر في أهبة السفر والتزود وإعداد عدته. ثم يعزم عليه. فإذا عزم عليه وأجمع قصده انتقل إلى منزلة «المحاسبة» وهي «التمييز» بين ماله وما عليه. فيستصحب ماله. ويؤدي ما عليه. لأنه مسافر سقّر من لا يعود.

ومن منزلة «المحاسبة» يصلح له نزول منزلة «التوبة» لأنه إذا حاسب نفسه، عرف ما عليه من الحق، فخرج منه، وتنصل منه إلى صاحبه. وهي حقيقة «التوبة» فكان تقديم «المحاسبة» عليها لذلك أولى.

ولتأخيرها عنها وجه أيضاً. وهوان «المحاسبة» لا تكون إلا بعد تصحيح التوبة.

والتحقيق: أن التوبة بين محاسبتين. محاسبة قبلها، تقتضي وجوبها. ومحاسبة بعدها، تقتضي حفظها. فالتوبة محفوفة بمحاسبتين. وقد دل على المحاسبة قوله تعالى (١٨:٥٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ، وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ فأمربحانته العبد أن ينظر ما قدم لغد. وذلك يتضمن محاسبة نفسه على ذلك، والنظر: هل يصلح ما قدمه أن يلقى الله به أو لا يصلح؟.

والمقصود من هذا النظر: ما يوجب ويقتضيه. من كمال الاستعداد ليوم الماد. وتقديم ما ينجيه من عذاب الله، ويبيض وجهه عند الله. وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه (حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا. وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتزينوا للعرض الأكبر) (١٨:٦٨) يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية) أو قال «على من لا تخفى عليه أعمالكم».

● ما غرك بربك الكريم؟

وبداية المحاسبة أن تقايس بين نعمته عز وجل، وجناتك، فحينئذ يظهر لك التفاوت، وتعلم انه ليس إلا عفوه ورحمته، أو الهلاك والعقاب.

وبهذه المقايسة تعلم أن الرب رب والعبد عبد. ويتبين لك حقيقة النفس وصفاتها، وعظمة جلال الربوبية، وتفرد الرب بالكمال والإفضال. وأن كل نعمة منه فضل. وكل نقمة

منه عدل. وأنت قبل هذه المقايسة جاهل بحقيقة نفسك، وبربوبة فاطرها ونخالقتها. فإذا قاينست ظهر لك أنها منبع كل شر، وأساس كل نقص. وأن حذها: الجاهلة الظالمة، وأنه لولا فضل الله ورحمته يتركته لها مازكت أبدأ. ولولا هداه ما اهتدت. ولولا إرشاده وتوقفه لما كان لها وصول إلى خير ألبتة. وأن حصول ذلك لها من بارئها وقاطرها. وتوقفه عليه كتوقف وجودها على إيجاده. فكما أنها ليس لها من ذاتها وجود. فكذلك ليس لها من ذاتها كمال الوجود. فليس لها من ذاتها إلا عدم — عدم الذات، وعدم الكمال — فهناك تقول حقا «أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبي».

ثم تقايس بين الحسنات والسيئات. فتعلم بهذه المقايسة: أيهما أكثر وأرجح قدرًا وصفة. وهذه المقايسة الثانية مقايسة بين أفعالك وما منك خاصة.

● آلات المقايسة

إلا أن هذه المقايسة تشق على من ليس له نور الحكمة، وسوء الظن بالنفس، وتعيير النعمة من الفتنة، فهي تتوقف على نور الحكمة، وهو النور الذي نور الله به قلوب أتباع الرسل، فيقدره ترى التفاوت، وتتمكن من المحاسبة.

ونور الحكمة ههنا: هو العلم الذي يميزه العبد بين الحق والباطل، والهدى والضلال. والضر والنافع. والكامل والناقص. والخير والشر. ويصير به مراتب الأعمال، راجعها ومرجوحها، ومقبولها ومردودها. وكلما كان حظه من هذا النور أقوى، كان حظه من المحاسبة أكمل وأتم.

وأما سوء الظن بالنفس: فإنما احتاج إليه لأن حسن الظن بالنفس يمنع من كمال التفتيش. ويُكبس عليه. فيرى المساوىء محاسن، والعيوب كمالا. فإن المحب يرى مساوىء محبوبه ويعيوبه كذلك.

فحين الرضا عن كل عيب كليلية كما أن عين الشُّخْط تُبْدى المساوئ ولا يسيء الظن بنفسه إلا من عرفها. ومن أحسن ظنه بنفسه فهو من أجهل الناس بنفسه. وأما تمييز النعمة من الفتنة: فليفرق بين النعمة التي يرى بها الإحسان واللطف، ويعان بها على تحصيل سعادته الأبدية. وبين النعمة التي يرى بها الاستدراج، فحكم من مُسْتَدْرَج بالنعيم وهو لا يشعر، مفتون بثناء الجهال عليه، مغرور بقضاء الله حوائجه وستره عليه! وأكثر الخلق عندهم: أن هذه الثلاثة علامة السعادة والنجاح. ذلك مبلغهم من العلم. فإذا كملت هذه الثلاثة فيه عرف حيثئذ أن ما كان من نعم الله عليه بجمعه على الله فهو

سمة حقيقة. ومافرقه عنه وأخذ منه فهو البلاء في صورة النعمة ، والمحنة في صورة المنحة. فليحذر إنما هو مستدرج. ويميز بذلك أيضاً بين المنة والحجة. فكم تلتبس إحداها عليه بالأخرى!

فإن العبد بين منة من الله عليه، وحجة منه عليه، ولا ينفك عنهما، وذلك قول الله تعالى (١٦٤:٣) لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ (وقوله (١٧:٤٩) بلِ اللَّهِ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَذَا كَمِ لِلْإِيمَانِ) وقوله (١٤٩:٦) فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ).

وكل قوة ظاهرة وباطنة صاحبها تنفيذ لمرساته وأوامره فهي منة. وإلا فهي حجة. وكل حال صاحبه تأثير في نصرة دينه، والدعوة إليه فهو منة منه. وإلا فهو حجة. وكل مال اقترن به إنفاق في سبيل الله وطاعته، لا لطلب الجزاء ولا الشكوى فهو منة من الله عليه. وإلا فهو حجة.

وكل فراغ اقترن به اشتغال بما يريد الرب من عبده فهو منة عليه، وإلا فهو حجة. وكل قبول في الناس، وتعظيم وعبادة له، اتصل به خضوع للرب، وذل وانكسار ومعرفة عيب النفس والعمل، وبذل التصحبة للخلق فهو منة، وإلا فهو حجة.

وكل بصيرة وموعظة، وتذكير وتعريف من تعريفات الحق سبحانه إلى العبد، اتصل به عبادة ومزيد في العقل، ومعرفة في الإيمان فهي منة، وإلا فهي حجة.

وكل حال مع الله تعالى، أو مقام اتصل به السير إلى الله، وإيثار مراده على مراد العبد. فهو منة من الله. وإن صاحبه الموقف عنده والرضا به، وإيثار مقتضاه، من لذة النفس به وطمانيتها إليه، وركونها إليه، فهو حجة من الله عليه.

فليتأمل العبد هذا الموضع العظيم الخطر. ويميز بين مواقع اللذات والحن. والحجج والنعم. فما أكثر ما يلتبس ذلك على خواص الناس وأرباب السلوك (٢١٣:٢) والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم).

● لك وعليك !

فإذا توغلت في هذه المقاييس: فتحت المحاسبة لك باباً من التمييز بين ما عليك لله من وجوب العبودية والتزام الطاعة، واجتناب المعصية، وبين مالك. فالذي لك: هو المباح الشرعي، فعليك حق، ولك حق، فأد ما عليك: يؤتك ما لك.

ولا بد من التمييز بين مالك وما عليك. وإعطاء كل ذي حق حقه. وكثير من الناس يجعل كثيراً مما عليه من الحق من قسم ماله. فيتحير بين فعله وتركه، وإن فعله رأى أنه فضل قام به لاحق أداه.

وبإزاء هؤلاء من يرى كثيراً مما له فعله وتركه من قسم ماعليه فعله أو تركه.
فيتعبد بترك ماله فعله، كترك كثير من المباحات. ويظن ذلك حقاً عليه، كمن يتعبد بترك
النكاح، أو ترك أكل اللحم، أو الفاكهة مثلاً، أو الطيبات من المطاعم والملابس. و يرى —
بجهله — أن ذلك مما عليه. فيوجب على نفسه تركه. أو يرى تركه من أفضل القرب، وأجل
الطاعات. وقد أنكر النبي صلى الله عليه وسلم على من زعم ذلك، ففي الصحيح «أن نفراً من
أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم سألوا عن عبادته في السر؟ فكانهم تقولها. فقال
أحدهم: أما أنا فلا أكل اللحم. وقال الآخر: أما أنا فلا أتزوج النساء. وقال الآخر: أما
أنا فلا أنام على فراش. فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم مقاتهم. فخطب، وقال: ما بال
أقوام يقول أحدهم: أما أنا فلا أكل اللحم. ويقول الآخر: أما أنا فلا أتزوج ويقول
الآخر: أما أنا فلا أنام على فراش؟ لكني أتزوج النساء، وأكل اللحم. وأنام وأقوم.
وأصوم وأفطر. فمن رغب عن سنتي فليس مني» فتبرأ من رغب عن سنته، وتعيد لله بترك
ما أباح لعباده من الطيبات، رغبة عنه، واعتقاداً أن الرغبة عنه وهجره عبادة. فهذا لم يميز بين
ما عليه وماله.

• الكثير... القليل!

ومن تمام هذا التمييز أن يعلم أن رضاء العبد بطاعته دليل على حسن ظنه بنفسه. وجهله
بحقوق العبودية. وعدم عمله بما يستحقه الرب جل جلاله و يليق أن يعامل به.
وحاصل ذلك: أن جهله بنفسه وصفاته وأقاناتها وعبوب عمله، وجهله بربه وحقوقه
وما ينبغي أن يعامل به، يتولد منهما رضاء بطاعته، وإحسان ظنه بها. ويتولد من ذلك: من
المعجب والكبر والآفات ما هو أكبر من الكبائر الظاهرة من الزنا، وشرب الخمر، والفرار من
الزحف ونحوها.

فالرضا بالطاعة من رعونات النفس وحققتها.

وأرباب العزائم والبصائر أشد ما يكونون استغفاراً عقيب الطاعات، لشهودهم تقصيرهم
فيها، وترك القيام لله بها كما يليق بجلاله وكبريائه. وأنه لولا الأمر لما أقدم أحدهم على مثل
هذه العبودية، ولا رضيها لسيده.

وقد أمر الله تعالى وقده وحجاج بيته بأن يستغفروه عقيب إفاضتهم من عرفات. وهو أجل
المواقف وأفضلها. فقال (٢: ١٩٨، ١٩٩) فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشقر
الحرام. واذكروه كما هداكم. وإن كنتم من قبله لمن الضالين. ثم أفيضوا من حيث

أفاض الناس. واستغفروا الله، إن الله غفور رحيم) وقال تعالى (١٧:٣) والمستغفرين
بالأسحار قال الحسن: مدوا الصلاة إلى السحر. ثم جلسوا يستغفرون الله عز وجل. وفي
الصحيح «أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا سلم من الصلاة استغفر ثلاثاً. ثم قال:
اللهم أنت السلام. ومنك السلام. تباركت يا ذا الجلال والإكرام» وأمره الله تعالى
بالاستغفار بعد أداء الرسالة، والقيام بما عليه من أعبائها، وقضاء فرض الحج، واقترب أجله.
فقال في آخر سورة أنزلت عليه (إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين
الله أفواجا) • فسيح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً).

ومن ههنا فهم عمر وابن عباس -رضي الله عنهم- أن هذا أجل رسول الله صلى الله
عليه وسلم أعلمه به، فأمره أن يستغفره عقيب أداء ما كان عليه. فكانه إعلام بأنك قد أديت ما
عليك، ولم يبق عليك شيء. فاجعل خاتمة الاستغفار، كما كان خاتمة الصلاة والحج وقيام
الليل. وخاتمة الوضوء أيضاً أن يقول بعد فراغه «سبحانك اللهم وبحمدك. أشهد أن لا إله
إلا أنت. أستغفرك وأتوب إليك، اللهم اجعلني من التوابين. واجعلني من المتطهرين».

فهذا شأن من عرف ما ينبغي لله، و يلقى بجلاله من حقوق العبودية وشرائطها.
وقال بعض العارفين: متى رضيت نفسك وعملك لله، فاعلم أنه غير راض به. ومن عرف
أن نفسه مأوى كل عيب وشر، وعمله عرضة لكل آفة ونقص، كيف يرضى لله نفسه وعمله؟
ولله در الشيخ أبي مدين حيث يقول: من تحقق بالعبودية نظر أفعاله بعين الرباء، وأحواله
بعين الدعوى، وأقواله بعين الافتراء. وكلما عظم المطلوب في قلبك، صغرت نفسك عندك،
وتضاءلت القيمة التي تبذلها في تحصيله. وكلما شهدت حقيقة الربوبية وحقيقة العبودية،
وعرفت الله، وعرفت النفس: تبين لك أن ما معك من البضاعة لا يصلح للملك الحق، ولوجئت
بعمل الثقلين بخشيت عاقبته وإنما يقبله بكرمه وجوده وتفضله. و يثيبك عليه أيضاً بكرمه وجوده
وتفضله.

• إزدراء البطيء وزاء!

ولا يكمل هذا المعنى إلا بأن ترأى بنفسك عن تعيير المقصرين، فعل تعييرك لأخيك بذنبه
أعظم إثماً من ذنبه. وأشد من معصيته. لما فيه من صولة الطاعة، وتركية النفس، وشكرها،
والمناداة عليها بالبراءة من الذنب. وأن أخاك باء به. ولعل كسرتك بذنبه. وما أحدث له من
الذلة والخضوع، والإضرار على نفسه، والتخلص من مرض الدعوى، والكبر والعجب، ووقوفه بين
يدي الله ناكس الرأس، خباشع الطرف، منكسر القلب: أنفع له، وخير من صولة طاعتك،

وَتَكْثُرْكَ بِهَا وَالْإِعْتِدَادُ بِهَا، وَالثِّقَةُ عَلَى اللَّهِ وَخَلْقُهُ بِهَا. فَمَا أَقْرَبَ هَذَا الْعَاصِيَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ! وَمَا أَقْرَبَ هَذَا الْمُبْدِلَ مِنْ مَقَاتِلِ اللَّهِ. فَذَنْبٌ تَذُلُ بِهِ لَدَيْهِ، أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ طَاعَةٍ تُدِلُّ بِهَا عَلَيْهِ. وَإِنَّكَ أَنْ تَسْبِيْتَ قَائِماً وَتَصْبِيحَ قَائِماً، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَبِيْتَ قَائِماً وَتَصْبِيحَ مُعْجِياً، فَإِنَّ الْمُعْجِبَ لَا يَصْعَدُ لَهُ عَمَلٌ. وَإِنَّكَ أَنْ تَضْحَكَ وَأَنْتَ مُعْتَرِفٌ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَبْكِي وَأَنْتَ مُدَلٌّ. وَأَيْنِ الْمَذْنِبِينَ، أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ زَجَلِ الْمُسَبِّحِينَ الْمَذْلُومِينَ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَسْقَاهُ بِهَذَا الذَّنْبِ دَوَاءً اسْتَخْرَجَ بِهِ دَاءَهُ قَاتِلاً هَرَفِيكَ وَلَا تَشْعُرَ.

فَلِلَّهِ فِي أَهْلِ طَاعَتِهِ وَمَعْصِيَتِهِ أَسْرَارٌ لَا يَعْطِيهَا إِلَّا هُوَ. وَلَا يَطَالِعُهَا إِلَّا أَهْلُ الْبَصَائِرِ. فَيَعْرِفُونَ مِنْهَا بِقَدْرِ مَا تَنَالَهُ مَعَارِفُ الْبَشَرِ، وَوَرَاءَ ذَلِكَ مَا لَا يَنْقَلِعُ عَلَيْهِ الْكَاتِبُونَ. وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «إِذَا زِنْتَ أُمَّةً أَحَدَكُمْ، فَلْيَقِيمْ عَلَيْهَا الْحَدَّ وَلَا تَبْزُبْ» أَيُّ لَا يَعْصِي، مِنْ قَوْلِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِإِخْوَتِهِ (١٢: ٩٢) لَا تَرِيْبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ فَإِنَّ الْمِيزَانَ بِيَدِ اللَّهِ. وَالْحَكْمُ لِلَّهِ. فَالْضُّوْطُ الَّذِي شُرِبَ بِهِ هَذَا الْعَاصِيَ يَبْدُو مُقْلَبَ الْقُلُوبِ. وَالْقَصْدُ إِقَامَةُ الْحَدِّ لَا التَّخْيِيرُ وَالْتَرِيْبَ. وَلَا يَأْمَنُ كُرَّاتُ الْقَدْرِ وَسَطَوْتُهُ إِلَّا أَهْلُ الْجَهْلِ بِاللَّهِ. وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَا أَعْلَمُ الْخَلْقَ بِهِ، وَأَقْرَبُهُمْ إِلَيْهِ وَسِيلَةً (١٧: ٧٤) وَلَوْ لَا أَنْ تَبْتَكَأَ لَقَدْ كَذَبْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً) وَقَالَ يُوسُفَ الصِّدِّيقُ (١٢: ٣٣) وَلَا تَضْرِبْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْحَابُ الْإِيْمَنِ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ) وَكَانَتْ عَامَةً يَمِينُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «لَا تُقْلَبُ الْقُلُوبُ» وَقَالَ «مَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا وَهُوَ مِنْ أَصْبَعِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ. إِنْ شَاءَ أَنْ أَقَامَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَنْ يُزَيِّغَهُ أَزَاغَهُ» ثُمَّ قَالَ «اللَّهُمَّ مَقْلَبُ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ، اللَّهُمَّ مُصَوِّرُ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ».

(٦) مَنَزِلَةُ التَّوْبَةِ

فإذا صبح هذا المقام ، ونزل العبد في هذه المنزلة ، أشرف منها على مقام «التوبة» لأنه بالحاسبة قد تميز عنده ماله مما عليه . فليجمع همته وعزمه على النزول فيه والتشجير إليه الى الممات .

ومنزل «التوبة» أول المنازل ، وأوسطها ، وآخرها . فلا يفارقه العبد السالك ، ولا يزال فيه الى الممات . وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل به . واستصحبه معه ونزل به . فالتوبة هي بداية العبد ونهايته . وحاجته إليها في النهاية ضرورية . كما أن حاجته إليها في البداية كذلك . وقد قال تعالى (٢٤:٣١) وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون وهذه الآية في سورة مدنية ، خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه ، بعد إيمانهم وصبرهم ، وهجرتهم وجهادهم . ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق السبب بسببه . وأتى بإداة «لعل» المشفرة بالترجي ، إيذاناً بأنكم إذا تبتُّم كنتم على رجاء الفلاح . فلا يرجو الفلاح إلا التائبون . جعلنا الله منهم . قال تعالى (٤٩:١١) ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون قسم العباد إلى تائب وظالم ، وما تمَّ قسم ثالث أليته . وأوقع اسم «الظالم» على من لم يتب . ولا أظلم منه ، لجهله بربه وبحقه ، وبعب نفسه وآفات أعماله . وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال «يا أيها الناس ، توبوا إلى الله ، فوالله اني لأتوب اليه في اليوم أكثر من سبعين مرة» وكان أصحابه يُؤذون له في المجلس الواحد قبل أن يقوم «رب اغفر لي وتب عليّ إنك أنت التواب الغفور ، مائة مرة» وما صلى صلاة قط بعد إذ أنزلت عليه (إذا جاء نصر الله والفتح) إلى آخرها . إلا قال فيها «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك . اللهم اغفر لي» وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال «لن يتجى أحداً منكم عمله . قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل» .

فصلوات الله وسلامه على أعلم الخلق بالله وحقوقه ، وعظمته وما يستحقه جلاله من العبودية ، وأعزرفهم بالعبودية وحقوقها وأقومهم بها .

● فاتحة التوبة

ولما كانت «التوبة» هي رجوع العبد إلى الله ، ومفارقة لصرائط المغضوب عليهم والضالين ، وذلك لا يحصل إلا بهداية الله الى الصراط المستقيم ولا تحصل هدايته إلا بإعانتة وتوحيده ، فقد انتسطمتها سورة الفاتحة أحسن انتظام ، وتضمنتها أبلغ تضمن . فمن أعطى الفاتحة حقها — علماً

وشهوداً وحالاً ومعرفة — علم أنه لا تصح له قراءتها على العبودية إلا بالتوبة النصوح. فإن الهداية
البتامة إلى الصراط المستقيم لا تكون مع الجهل بالذنوب ، ولا مع الإصرار عليها. فإن الأول
جهل يتنافى مبغضة الهدى والثاني غي يتنافى قصده وإرادته. فذلك لا تصح التوبة إلا بعد معرفة
الذنب، والاعتراف به، وطلب التخلص من سوء عواقبه أولاً وآخراً.

● الاعتصام أو الذنوب

وأول معاني التوبة : أن تنظر الى ما كان من انخلاعك عن الاعتصام بالله حين إتيان
الذنب ، وإن الله منع عصيته عنك، وإن تنظر الى ما كان من فرحك عند ظفرك بذلك الذنب ،
وقعودك عن تداركه ، مُبْصِراً عليه ، مع تيقنك نظر الحق اليك، فإن العبد لو اعتصم بالله لما خرج
عن هداية الطاعة . قال الله تعالى (٣: ١٠١) ومن يعتصم بالله فقد هُدي إلى صراط
مستقيم) فلو كملت عصيته بالله لم يخذله أبداً: قال الله تعالى (٢٢: ٧٨) واعتصموا بالله هو
مولاكم . فنعم المولى ونعم النصير) أي متى اعتصمت به تولاكم. ونصركم على أنفسكم
وعلى الشيطان . وهما العدوان اللذان لا يفارقان العبد. وعداوتهما أضر من عداوة العدو الخارج.
فالنصر على هذا العدو أهم، والعبد إليه أحوج . وكمال النصرة على العدو بحسب كمال
الاعتصام بالله ، ونقص هذا الاعتصام يؤدي الى الانخلاع من عصمة الله، وهو حقيقة الخذلان
فما خَلَّى الله بينك وبين الذنب إلا بعد أن خذلك ، وتخل بينك وبين نفسك. ولو عصمتك
ووقفك لما وجد الذنب إليك سبيلاً.

فقد أجمع العارفون بالله على أن الخذلان : أن يَكِلَكَ الله إلى نفسك، ويخل بينك وبينها.
والتوفيق : أن لا يَكِلَكَ الله إلى نفسك. وله سبحانه في هذه التخلية — بينك وبين الذنب
وخذلاتك حتى واقعته — حِكْمٌ وأسرار . سنذكر بعضها.

وهكذا ترجع «التوبة» إلى اعتصامك به وعصمتك لك.

وتشتد الخلة على مقارف الذنب حتى يفرح عند ظفره بشهوته المحرمة، وهذا الفرح بالمعصية
دليل على شدة الرغبة فيها والجهل بقدر من عصاه، والجهل بسوء عاقبتها وعظم خطيئها. ففرحه
بها غطى عليه ذلك كله. وفرحه بها أشد ضرراً عليه من مواقعتها. والمؤمن لا تتم له لذة بمعصية
أبداً. ولا يكمل بها فرحه. بل لا يباشرها إلا والحزن غالط لقلبه، ولكن شكر الشهوة يحجبه عن
الشعور به. ومتى خلى قلبه من هذا الحزن. واشتدت غبطته وسروره، فَلْيَتَّهِمْ إيمانه. وَلْيَبْكْ على
موت قلبه، فإنه لو كان حياً لأحزنه ارتكاب للذنوب، وغاظه وصعب عليه. ولا يحس القلب
بذلك، فحيث لم يُحَسَّ به فما لُجِرَ بميت إيلام.

وهذه النكته في الذنب قل من يهتدي إليها أو ينتبه لها . وهي موضع مخوف جداً ، مترام الى هلاك إن لم يُتدارك بثلاثة أشياء : خوف من الموافاة عليه قبل التوبة . وندم على ما فاتته من الله بخالفه أمره ، وتشمير للجدد في استدراكه .

فإذا اشتدت غفلته الى هذا الحد : ثقلته ولا بد الى الإصرار ، وهو الاستقرار على المخالفة . والعزم على المعاودة وذلك ذنب آخر ، لعلة أعظم من الذنب الأول بكثير . وهذا من عقوبة الذنب : أنه يوجب ذنباً أكبر منه . ثم الثاني كذلك . ثم الثالث كذلك ، حتى يستحكم الهلاك . فالإصرار على المعصية معصية أخرى . والقعود عن تدارك الفارط من المعصية إصرار ورضا بها ، وطمأنينة إليها . وذلك علامة الهلاك . وأشد من هذا كله : المجاهرة بالذنب ، مع يقين نظر "سرب جل جلاله من فوق عرشه إليه . فإن آمن بنظره إليه وأقدم على المجاهرة فعظيم . وإن لم يؤمن بنظره إليه وإطلاعه عليه فذلك كفر ، وانسلاخ من الإسلام بالكلية . فهدائيين الأمرين : بين قلة الحياء ، ومجاهرة نظر الله إليه ، وبين الكفر والانسلاخ من الدين . فذلك يشترط في صحة التوبة يتقنه إن الله كان ناظراً — ولا يزال — إليه مطلقاً عليه . يراه جهره عند موافاة الذنب . لأن التوبة لا تصح الا من مسلم ، الا أن يكون كافراً بنظر الله إليه جاحداً له . فتوبته دخوله في الإسلام ، وإقراره بصفات الرب جل جلاله ، إذ حقيقة التوبة : الرجوع الى الله . ولا يصح الرجوع ويتم إلا بمعرفة الرب بأسمائه وصفاته وآثارها في نفسه وفي الآفاق . ومعرفة أنه كان فاراً من ربه ، أسيراً في قبضة عدوه . وأنه ما وقع في مغالب عدوه إلا بسبب جهله بربه ، وجرأته عليه . فلا بد أن يعرف كيف جهل ؟ ومتى جهل ؟ وكيف وقع أسيراً ، ومتى وقع ؟ ويؤمن أن التوبة إنما هي عملية شاقة بمجهود كبير ، وبقطة تامة لتستخلص من العدو والرجوع والفرار إلى ربه الرحمن الرحيم . والعود من طريق الهلاك الذي أخذه عدوه اليه ، ومعرفة مقدار الخطوات التي يمد بها عن ربه ، والمجهود والعقبات التي لابد من الحرس على اقتحامها للعود إلى صراط الله المستقيم .

وشرائط التوبة ثلاثة : الندم . والإقلاع . والاعتذار .

فحقيقة التوبة : هي الندم على ما سلف منه في الماضي . والإقلاع عنه في الحال . والعزم على أن لا يعاوده في المستقبل .

والثلاثة تجتمع في الوقت الذي تقع فيه التوبة : فإنه في ذلك الوقت يندم ، ويقلم ، ويعزم .

فحينئذ يرجع الى العبودية التي خلق لها . وهذا الرجوع هو حقيقة التوبة .

ولما كان متوقفاً على تلك الثلاثة جعلت شرائط له .

فأما الندم : فإنه لا يتحقق التوبة إلا به ، إذ من لم يندم على القبيح فذلك دليل على رضا

به . وإصراره عليه . وفي المسند «الندم توبة» .

وأما الإقلاع : فتستحيل التوبة مع مباشرة الذنب .

واما الاعتذار فإنه من تمام التوبة ايضاً ، ولا نقصد به الاعتذار الذي هو محاجة عن الجناية ، بل بأن يقول في قلبه ولسانه : اللهم لا إبرةاء لي من ذنب فأعتذر ، ولا قوة لي فأنتصر ، ولكنى مذنب مستغفر . اللهم لا عذر لي . وإنما هو محض حقد ، ومحض جناية . فإن عفوت وإلا فالحق لك . فهو اعتذار باظهار الضعف والمسكنة ، وانه ضحية غلبة الشيطان العدو وقوة سلطان النفس الامارة بالسوء ، والقول بلسانه : يارب : لم يكن منى ما كان عن استهانة بحقدك ، ولا جهلاً به ، ولا إنكاراً لاطلاعك ، ولا استهانة بوعيدك . وإنما كان من غلبة الهوى ، وضعف القوة عن مقاومة مرض الشهوة ، وطمعاً في مغفرتك واتكالا على عفوك ، وحسن ظن بك ، ورجاء لكرمك ، وطمعاً في سعة حلمك ورحمتك . وغرّني بك الغرور ، والنفس الامارة بالسوء ، وستر المريحى على ، وأعاننى جهلي ، ولا سبيل إلى الاعتصام لى إلا بك . ولا معونة على طاعتك إلا بتوفيقك . ونحو هذا من الكلام المتضمن للاستعطاف والتذلل والافتقار والاعتراف بالمعجز ، والإقرار بالمبودية .

فهذا من تمام التوبة . وإنما يسلكه الأكياس المتملقون لربهم عز وجل ، والله يحب من عبده أن يتملق له .

• حقائق التوبة

وحقائق التوبة ثلاثة أشياء : تعظيم الجناية ، واتهام التوبة ، والغيرة لله والغضب له اذا خولفت أوامره وعدم الاعتذار للمخالف بأن حكم القدر قد جرى عليه . فأما تعظيم الجناية : فإنه اذا استهان بها لم يندم عليها . وعلى قدر تعظيمها يكون ندمه على ارتكابها . فإن من استهان بإضاعة قلـس — مثلاً — لم يندم على إضاعته . فإذا علم أنه ديتار اشتد ندمه ، وعظمت إضاعته عنده .

وتعظيم الجناية يصدر عن ثلاثة أشياء : تعظيم الأمر ، وتعظيم الأمر . والتصديق بالجزاء . وأما اتهام التوبة : فلأنها حق عليه . لا يتيقن أنه أدى هذا الحق على الوجه المطلوب منه ، الذي ينبغي له أن يؤديه عليه ، فيخاف أنه ما وفاها حقها ، وأنها لم تقبل منه ، وأنه لم يبذل جهده في صحتها ، وأنها توبة عيلة وهو لا يشعر بها ، كتوبة أرباب الخوائج والإفلاس ، والمحافظين على حاجاتهم ومنازلهم بين الناس ، أو أنه تاب محافظة على حاله . فتاب للحال ، لا خوفاً من ذي الجلال . أو أنه تاب طلباً للراحة من الكد في تحصيل الذنب ، أو اتقاء ما يخافه على عرضه وماله ومنصبه ، أو لضعف داعي المعصية في قلبه ، وخود نار شهوته ، أو لمناقاة المعصية لما يطلبه من العلم والرزق ، ونحو ذلك من العلل التي تقدر في كون التوبة خوفاً من الله ، وتعظيماً له

ولكن هذا التقسيم باعتبار تنقل العبد في أحوال سيره والا فإرادة العبد المراد ، وطلبه وسيره : أشد من إرادة غيره ، وطلبه وسيره .

وأيضاً فإنه مراد أولاً ، حيث أقيم في مقام الطلب ، وجذب الى السير . فكل مرید مراد . وكل واصل وسالك وطالب لا يفارقه طلبه ولا سيره ، وإن تنوعت طرق السير بحسب اختلاف حال العبد .

فمن السالكين : من يكون سيره ببدنه وجوارحه أغلبية عليه من سيره بقلبه وروحه .

ومنهم : من سيره بقلبه أغلب عليه ، أعني قوة سيره وحدته .

ومنهم — وهم الكمل الأقوياء — من يعطي كل مرتبة حقها . فيسير الى الله ببدنه وجوارحه ، وقلبه وروحه .

وقد أخبر الله سبحانه عن صفوة أوليائه بأنهم دائمي مقام الإرادة له . فقال تعالى (٥٢:٦) ولا تعطروا الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) وقال تعالى (١٩:٩٢) وما لأحد عنده من نعمة تجزى ، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى . وسوف يرعى) فالعبد أحسن أوصافه ، وأعل مقاماته : أن يكون مریداً صادق الإرادة ، عبداً في إرادته . بحيث يكون مراده تبعاً لمراد ربه الديني منه . ليس له إرادة في سواه .

فالأولى الكلام في هذه المقامات على طريقة المتقدمين من أئمة القوم كلاماً مطلقاً في كل مقام مقام . ببيان حقيقته وموجبه ، وآفته المانعة من حصوله ، والقاطع عنه ، وذكر عامه وخاصه . فكللام أئمة الطريق هو على هذا المنهاج ، فمن تأمله — كسهل بن عبد الله التستري ، وأبي طالب المكي ، والجنيد بن محمد ، وأبي عثمان النيسابوري ، ويحيى بن معاذ الرازي — وأرفع من هؤلاء طبقة ، مثل أبي سليمان الداراني ، وعون بن عبدالله — الذي كان يقال له حكيم الأمة وأضرابهما ... فإنهم تكلّموا على أعمال القلوب ، وعلى الأحوال كلاماً مفصلاً جامعاً مبيناً مطلقاً من غير ترتيب . ولا حصر للمقامات بعدد معلوم . فإنهم كانوا أجل من هذا . ومهمهم أعل وأشرف ، إنما هم حائسون على اقتباس الحكمة والمعرفة ، وطهارة القلوب ، وزكاة النفوس ، بتصحيح المعاملة . ولهذا كلامهم قليل فيه البركة . وكلام المتأخرين كثير طويل قليل البركة . واعلم ان مُنتهى همة الصادقين ارباب البصائر الى ثلاثة اشياء :

أحدها : الكشف عن منازل السير .

والثاني : الكشف عن عيوب النفس ، وآفات الأعمال ومفسداتها .

والثالث : الكشف عن معاني الأسماء والصفات ، وحقائق التوحيد والمعرفة .

وهذه الأبواب الثلاثة : هي مجامع علوم القوم . وعليها يحومون . وحولها يدندنون . وإليها شحرون . فمنهم من جُلَّ كلامه ومعظمه : في السير وصفة المنازل . ومنهم من جل كلامه : في

الآفات والقواطع. ومنهم من جل كلامه: في التوحيد والمعرفة، وحقائق الأسماء والصفات.
والصادق الذكي يأخذ من كلّ منهم ما عنده من الحق. فيستعين به على مطلبه. ولا يريد
ما يجده عنده من الحق لتقصيره في الحق الآخر، ويهدره به. فالكمال المطلق لله رب العالمين،
وما من العباد إلا له مقام معلوم.

ولا بد من مخاطبة أهل الزمان باصطلاحهم. إذ لا قوة لهم للتشهير إلى تلقى السلوك عن
السلف الأول وكلماتهم وهدْيهم. ولويرز لهم هديهم وحالهم لأنكروه، ولعدوه سلوكاً عاماً،
وللخاصة سلوك آخر، كما يقول ضلال المتكلمين وجهلهم «ان القوم كانوا أسلم. وان طريقنا
أعلم» وكما يقول من لم يقدر قدرهم من المتتبعين إلى الفقه «إنهم لم يتفرغوا لاستنباطه.
وضبط قواعده وأحكامه. اشتغالا منهم بغيره. والمتأخرون تفرغوا لذلك. فهم أفقه».

فكل هؤلاء محجوبون عن معرفة مقادير السلف، وعن غنى علومهم، وقلة تكلفهم،
وكمال بصائرهم. وتالله ما امتاز عنهم المتأخرون إلا بالتكلف والاشتغال بالأطراف التي
كانت همه القوم مراعاة أصولها، وضبط قواعدها، وشد معاهدها، وهمهم مشمرة إلى المطالب
العالية في كل شيء. فالتأخرون في شأن والقوم في شأن، و (قد جعل الله لكل شيء قدراً).

قالاً ولي بنا: أن نذكر منازل «العبودية» الواردة في القرآن والسنة. ونشير إلى معرفة حدودها
ومراتبها. إذ معرفة ذلك من قام معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله. وقد وصف الله تعالى من
لم يعرفها بالجهل والشقاق. فقال تعالى (٩٧: ٩) الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر أن
لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله) في معرفة حدودها دراية، والقيام بها رعاية: يستكمل
العبد الإيمان. ويكون من أهل «إياك نعبد وإياك نستعين».

ونذكر لها ترتيباً غير مستحق، بل مستحسن، بحسب ترتيب السير الحسنى، ليكون ذلك
أقرب إلى تنزيل المقول منزلة المشهود بالحس. فيكون التصديق أتم. ومعرفة أكمل. وضبطه
أسهل.

فهذه فائدة ضرب الأمثال، وهي خاصة العقل وليه. ولهذا أكثر الله تعالى أمثاله في القرآن.
ونفى عقلها عن غير العلماء. فقال تعالى (٤٣: ٢٩) وتلك الأمثال نضربها للناس. وما
يقلبها إلا العالمون).

حيلتي؟ وقد قدّموني الى الخُفيرة وقذفوني فيها. والله كم صاح به الناصح: الحذر الحذر، إياك إياك، وكُم أمسك بثوبه. وكُم أراه مصارع المقتحمين وهو يأبى إلا الاقتحام.
يا ويله ظهيراً للشيطان على ربه، خصماً لله مع نفسه، جبرى المعاصي، قدّرى الطاعات، عاجز الرأى مضياً لفرسته، قاعد عن مصالحه، معاتب لأقدار ربه. يحتاج على ربه بما لا يقبله من ولده وامرأته، إذا احتجوا به عليه في التهاون في بعض أمره. فلو أمر أحدهم بأمر ففرط فيه، أو نهاه عن شيء فارتكبه، وقال: القدر ساقنى إلى ذلك. لما قيل منه هذه الحجة، ولباقتر إلى عقوبته.

فإن كان القدر حجة لك أيها الظالم الجاهل في ترك حق ربك، فهلا كان حجة لامراتك في ترك بعض حقك؟ بل إذا أساء إليك مسيء، وجنى عليك جان، واحتج بالقدر: لاشتد غضبك عليه. وتضاعف جرمه عندك، ورأيت حجة حاضفة. ثم تحتج على ربك به. وتراه عذراً لنفسك؟! فمن أولى بالظلم والجهل من هذه حاله؟.

هذا مع تواتر إحسان الله إليك على مدى الأنفاس: أنزاع عيالك، وتمنك من التزود إلى حجّته، وبعث إليك الدليل، وأعطاك مؤنة السفر، وما تحارب به قطاع الطريق عليك. فأعطاك السمع والبصر والفؤاد، وعزّك الخير والشر، والنافع والضار، وأرسل إليك رسوله. وأنزل إليك كتابه، ويَسِّرُهُ للذكر والفهم والعمل. وأعانك جدد من جنده الكرام، يشبّونك ويحرسونك. ويحاربون عدوك ويطردونه عنك. ويريدون منك أن لا تميل إليه ولا تصالحه، وهم يكفونك مؤنته. وأنت تأبى إلا مظاهرتهم، ومولاته دونهم. بل تُظاهره وتواليه دون وَلِيِّك الحق الذي هو أولى بك. قال الله تعالى (٥٠: ١٨) وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم. فسجدوا إلا إبليس، كان من الجن. فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ، أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي، وهم لكم عدوٌّ؟ بئس للظالمين بديلاً.

أمرك الله بشكره، لاجل حاجته إليك، ولكن لتنال به المزيد من فضله، فجعلت كفر نعمه والاستعانة بها على مساخطه: من أكبر اسباب صرفها عنك.

وأمرك بذكره ليزكرك باحسانه، فجعلت نسيانه سبباً لنسيان الله لك (١٩: ٥٩) نسوا الله فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ (٩٧: ٩) نسوا الله فَنَسِيَهُمْ).

أمرك بسؤاله ليعطيك، فلم تسأله، بل أعطاك أجلّ العطايا بلا سؤال، فلم تقبل. تشكّرتن يرحمك الى من لا يرحمك، وتتظلم ممن لا يظلمك، وتدع من يعاديك و يظلمك، وإن انعم عليك بالصحة والعافية والمال والجاه استمتعت بنعمه على معاصيه!.

دعاك الى بابه فما وقتت عليه ولا طرقته، ثم فتحه لك فما ولجته!
أرسل إليك رسوله يدعوك الى دار كرامته، فعصيت الرسول، وقلت: لا أترك ما أراه لشيء

سمعت به.

ومع هذا فلم يؤسك من رحته. بل قال: متى جئتني قبلتك. إن أتيتني ليلاً قبلتك. وإن أتيتني نهاراً قبلتك. وإن تقربت منى شبراً تقربت منك ذراعاً. وإن تقربت منى ذراعاً تقربت منك باعاً. وإن مشيت إليّ هرولاً إليك. ولوليتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً، أتيتك بقرابها مغفرة، ولوليت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني غفرت لك. وقرن أعظم منى جوداً وكرماً؟

عبادي ببارزوني بالعظائم، وأنا أكلوهم على رؤسهم، إني والجن والإنس في نبأ عظيم: أخلق وبعيد غيري، وأرزق ويشكر سواي. خيرني إلى العباد نازل. وشرهم إليّ صاعد. أعجب إليهم ينعمي، وأنا ألذني عنهم. ويتبغضون إليّ بالمعاصي، وهم أقدر شيء إليّ.

من أقبل إليّ تلقيت من بعيد. ومن أعرض عني ناديت من قريب. ومن ترك لأجل أعطيت فوق المزيد. ومن أراد رضاي أردت ما يريد. ومن تصرف بحولي وقوتى أنت له الحديد.

أهل ذكرى أهل مجالستي. وأهل شكري أهل زيادتي. وأهل طاعتي أهل كرامتي. وأهل معصيتي لا أقسطهم من رحمتي. إن تابوا إليّ فأنا طيبهم. فإني أحب التوابين وأحب المتطهرين، وإن لم يتوبوا إليّ فأنا طيبهم. أبتليهم بالمصائب، لأظهرهم من المعاييب.

من آثرني على سواي آثرته على سواه. الحسنة عندي بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة. والسيف عندي بواحدة. فإن ندم عليها واستغفرتني غفرتها له.

أشكر السير من العمل. وأغفر الكثير من الزلل. رحمتي سبقت غضبي. وحلمي سبق مؤاخذتي. وعفوي سبق عقوبتي. أنا أرحم بعبادي من الوالدة بولدها «لله أشد فرحاً بتوبة عبده من رجل أضلّ راحلته بأرض مهلكة دؤوبة عليها طعامه وشرابه. فطلبها حتى إذا أيس من حصولها. نام في أصل شجرة ينتظر الموت. فاستيقظ فإذا هي على رأسه. قد تعلق خطامها بالشجرة. فالله أفرح بتوبة عبده من هذا براحلته».

وهذه فرحة إحسان وبر ولفظ، لافحة محتاج إلى توبة عبده، منتقم بها. وكذلك موالاته لعبده إحساناً إليه، وعبة وبراً به. لا يتكثر به من قلة، ولا يترزبه من ذلة، ولا ينصر به من غلبة. ولا يثمه لنائبة. ولا يستعين به في أمر (١٧: ١١١) وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً. ولم يكن له شريك في الملك. ولم يكن له ولي من الدن. وكبره تكبيراً) فنفي أن يكون له ولي من الدن. والله ولي الذين آمنوا. وهم أولياؤه.

فهذا شأن الرب وشأن العبد. وهم يقيمون أعذار أنفسهم. ويعملون ذنوبهم على أقذاره.

استأثر الله بالمحامد والمجد. - سد، وولى اللامعة الرجلا

التحقيق: أن الغيرة لله، والغضب له، من حقائق التوبة. فتعطيل عذر الخليفة في مخالفة

الأمر والنهي، وشدة الغضب: هو من علامات تعظيم الحزمة، ومن حقائق التوبة.

ولاسيما أنه يدخل في العذر: عذر عباد الأصنام والأوثان، وقتلة الأنبياء. وفرعون وهامان، وغرود بن كنعان، وأبي جهل وأصحابه، وإبليس وجنوده، وكل كافر وظالم، ومتعد حدود الله، ومنتهك محارم الله. فإنهم كلهم تحت القدر. وهم من الخليقة.

وان الثائنين حقاً، المؤمنين بالقدر حقاً، هم الذين ينتظرون سفينة الأمر الرباني، فلما قربت منهم ناداهم الربان (١١:٤١) اركبوا فيها. بسم الله مَجْرِيهَا وَفُرْسَاهَا) فهي سفينة نوح حقاً. وسفينة من بعده من الرسل. من ركبها نجا. ومن تخلف عنها غرق. فركبوا سفينة الأمر بالقدر. تجري بهم في تصاريف أمواجه على حكم التسليم لمن بيده التصرف في البحار. فلم يك إلا عَفْوَةٌ، حتى قيل لأرض الدنيا وسمائها: يا أرض ابلى ماءك، وياسماء أقملي، وبغض الماء. وقضى الأمر. واستوت على جودي دار القرار.

والمتخلفون عن السفينة — كقوم نوح — أغرقوا. ثم أحرقوا. ونودي عليهم على رؤوس العالمين (١١:٤٤) وقيل: بعداً للقوم الظالمين (١١:١٠٢) وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين) ثم نودي بلسان الشرع والقدس تحميقاً لتوحيده. وإثباتاً لحجته. وهو أعدل العادلين (٦:١٤٩) قل فله الحجة البالغة. فلو شاء هداكم أجمعين).

• نَدْفَعُ الْقَدْرَ بِالْقَدْرِ

وراكب هذا البحر في سفينة الأمر، وظيفته: مصادمة أمواج القدر، ومعارضتها ببعضها ببعض، وإلا هلك. فيرد القدر بالقدر. وهذا سرُّ أرباب العزائم من العارفين. وهو معنى قول الشيخ العارف القدوة عبدالقادر الكيلاني «الناس إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا، إلا أنا. فانفتحت لي فيه رَوْزَنَةٌ فنازعت أقدار الحق بالحق للحق، والرجل من يكون منازعاً للقدر، لامن يكون مستسلماً مع القدر» ولا تتم مصالح العباد في معاشهم إلا بدفع الأقدار ببعضها ببعض فكيف في معادهم؟.

والله تعالى أمر أن تُدْفَعَ السيئة — وهي من قدره — بالحسنة — وهي من قدره — وكذلك الجوع من قدره. وأمر بدفعه بالأكل الذي هو من قدره. ولو استسلم العبد لقدر الجوع، مع قدرته على دفعه بقدر الأكل، حتى مات: مات عاصياً. وكذلك البرد والحر والعطش. كلها من أقداره. وأمر بدفعها بأقدار تضادها. والدافع والمدفوع والدُّفْع من قدره.

وقد أنصح النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا المعنى كل الإفصاح، إذ قالوا: «يا رسول

الله، أرايت أدوية تنداوى بها، ورُقَى نسترقى بها، وثُقَى نتقي بها. هل تَرُدُّ من قدر الله شيئاً؟ قال: هي من قدر الله».

وفي الحديث الآخر «إن الدعاء والبلاء لَيَقْتُلُجَانِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ». وإذا طرق العدو من الكفار بلد الإسلام طرقوه بقدر الله. أفيحل للمسلمين الاستسلام للقدر، وترك دفعه بقدر مثله. وهو الجهاد الذي يدفعون به قدر الله بقدره؟ وكذلك المعصية إذا قُدِّرَتْ عليك، وفعلتها بالقدر. فادفع موجبتها بالتوبة النصوح. وهي من القدر.

ودفع القدر بالقدر نوعان: أحدهما: دفع القدر الذي قد انعدت أسبابه — ولما يقم — بأسباب أخرى من القدر تقابله. فيمتنع وقوعه. كدفع العدو بقتاله. ودفع الحر والبرد ونحوه. الثاني: دفع القدر الذي قد وقع واستقر بقدر آخر يرفعه ويزيله، كدفع قدر المرض بقدر التداوي. ودفع قدر الذنب بقدر التوبة. ودفع قدر الإساءة بقدر الإحسان. فهذا شأن المعارفين وشأن الأقدار، لا الاستسلام لها، وترك الحركة والحيلة، فإنه عجز. والله تعالى يلوم على العجز.

● شروط ثلاثة

وسرائر حقيقة التوبة ثلاثة أشياء: تمييز التَّيَّة من العِزَّة، ونسيان الجناية، والتوبة من التوبة. لأن التائب داخل في «الجميم» من قوله تعالى (٣١: ٢٤) وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) فأمر التائب بالتوبة مما خالط توبته من شوائب الإدلال بها.

وتمييز التَّيَّة من العِزَّة: أن يكون المقصود من التوبة تقوى الله. وهو خوفه وخشيته، والقيام بأمره، واجتناب نهيه. فيعمل بطاعة الله على نور من الله، يرجو ثواب الله. ويترك معصية الله على نور من الله. يخاف عقاب الله. لا يريد بذلك عز الطاعة. فإن للطاعة وللتوبة عزاً ظاهراً وباطناً. فلا يكون مقصوده العِزَّة، وإن علم أنها تحصل له بالطاعة والتوبة. فمن تاب لأجل العِزَّة فتوبته مدخولة.

وكثير من الصادقين قد يلتبس عليهم حال نفوسهم في ذلك. ولا يميزه إلا أولو البصائر منهم. وهم في الصادقين كالصادقين في الناس.

وأما نسيان الجناية: فهذا موضع تفصيل. فقد اختلف فيه أرباب الطريق. فمنهم: من رأى الاشتغال عن ذكر الذنب والإعراض عنه صفحاً. فصفاء الوقت مع الله

تعالى أولى بالتائب وأنفع له . ولهذا قيل : ذكر الجفا في وقت الصفا جفا .
ومنه : من رأى ابن الأوى أن لا ينسى ذنبه . بل لا يزال جاعلاً له نصب عينيه يلاحظه كل وقت . فيحدث له ذلك انكساراً وذلاً وخضوعاً ، أنفع له من صفا وقته .
قالوا : ولهذا نقش داوود الخطيئة في كَفِّه . وكان ينظر إليها ويبكى .
قالوا : ومتى نُكِّت عن الطريق فارجع إلى ذنبك تجد الطريق .
ومعنى ذلك : انك إذا رجعت الى ذنبك انكسرت وذلت . وأطرت بين يدي الله عز وجل ،
خاشعاً ذليلاً خائفاً . وهذه طريق المبودية .

والصواب : التفصيل في هذه المسألة . وهو أن يقال : إذا أحس العبد من نفسه حال الصفا غَيْشاً من الدعوى ، وورقة من العجب ونسيان المنة ، وحفظه نفسه عن حقيقة فقره ونقصه ، فذكر الذنب أنفع له . وإن كان في حال مشاهدته مِنة الله عليه ، وكمال افتقاره إليه ، وعدم استغنائه عنه في ذرته ، وقد خالط قلبه حال المحبة ، والفرح بالله . والأُنس به ، والشوق إلى لقاءه ، وشهود سعة رحمة وحلمه ، وعصفوه . وقد أشرقت على قلبه أنوار الأسماء والصفات . فنيان الجنات والإعراس عن الذنب : أولى به وأنفع . فإنه متى رجع إلى ذكر الجنات توارى عنه ذلك . وتزل من علو إلى أسفل ، ومن حال إلى حال ، بينهما من التفاوت أبعد مما بين السماء والأرض . وهذا من حسد الشيطان له . أراد أن يحطه عن مقامه ، وسير قلبه في ميادين المعرفة والمحبة .

وبعد هذا : يتوب من رؤية التوبة . فإنها إما حصلت له بمنة الله ومشيئته . ولو خلى ونفسه لم تسمح بها البتة . فإذا وآها وشهد صدورها منه ووقعها به . وغفل عن مِنة الله عليه : تاب من هذه الرؤية والغلظة .

وقد يكون في التوبة علة ونقص ، وآفة تمنع كمالها . وقد يشعر صاحبها بذلك . وقد لا يشعر به . فيتوب من نقصان التوبة ، وعدم توفيتها حقها ، والمقدار المفقود هو الذي يحتاج ان يتوب منه .

● الحليم العادل ... سبحانه

ولطائف اسرار التوبة ثلاثة اشياء : أن ينظر الجنات التي قضاه الله عليه فيعرف مراد الله فيها . إذ خلأك وإتيانها . فإن الله عز وجل إنما خلأ العبد والذنب لأجل معينين .
أحدهما : أن يعرف عزَّته في قضائه ، وبرِّه في ستره ، وحلمه في إمهال رأكبه ، وكرمه في قبول العذر منه ، وفضله في مغفرته .

الثاني: أن يُقيم على عبده حجة عدله. فيعاقبه على ذنبه بحجته.
وتفصيل ذلك أن صاحب البصيرة إذا صدرت منه الخطيئة فله نظر إلى خمسة أمور.
أحدها: أن ينظر إلى أمر الله ونهيه. فيحدث له ذلك الاعتراف بكونها خطيئة، والاقرار على نفسه بالذنب.

الثاني: أن ينظر إلى الوعد والوعيد. فيحدث له ذلك خوفاً وخشية، تحمله على التوبة.
الثالث: أن ينظر إلى تمكين الله له منها، وتخليته بينه وبينها، وتقديرها عليه، وأنه لو شاء لعصمه منها. فيحدث له ذلك أنواعاً من المعرفة بالله وأسمائه وصفاته، وحكمته، ورحمته، ومغفرته وعفوه، وحلمه وكرمه. وتوجب له هذه المعرفة عبودية بهذه الأسماء، لا تحصل بدون لوازمها البتة. ويعلم ارتباط الخلق والأم، والجزاء والوعد والوعيد بأسمائه وصفاته، وأن ذلك موجب الأسماء والصفات، وأثرها في الوجود، وأن كل اسم وصفة مقتض لأثره وموجبه، متعلق به لا بد منه.

وهذا المشهد يُظلمه على رياض شوقه من المعارف والإيمان، وأسرار القدر والحكمة، يضيّق عن التعبير عنها نطاق الكلم.

فمن بعضها: أن يعرف العبد عزته في قضائه، وهو أنه سبحانه العزيز الذي يقضى بما يشاء، وأنه لكمال عزته حكم على العبد وقضى عليه، بأن قلبه وصرف إرادته على ما يشاء. وحال بين العبد وقلبه. وجعله مريداً شائئاً لما شاء منه العزيز الحكيم. وهذا من كمال العزة. إذ لا يقدر على ذلك إلا الله. وغاية المخلوق: أن يتصرف في بدنك وظاهره. وأما جملك مريداً شائئاً لما يشاء منك ويريده: فلا يقدر عليه إلا ذو العزة الباهرة.

فإذا عرف العبد عز سيده ولاحظه بقلبه، وتمكن شهوده منه، كان الاشتغال به عن ذل المعصية أولى به وأنفع له، لأنه يصير مع الله لأمع نفسه.

ومن معرفة عزته في قضائه: أن يعرف أنه مدبر مقهور، ناصيته بيد غيره. لاعصمة له إلا بعصمته. ولا توفيق له إلا بمعنوته. فهو ذليل حقير، في قبضة عزيز حميد.

ومن شهود عزته أيضاً في قضائه: أن يشهد أن الكمال والحمد، والفناء التام، والعزة. كلها لله، وأن العبد نفسه أولى بالتقصير والذم، والعيب والظلم والحاجة. وكلما ازداد شهوده لذلك ونقصه وعيبه وقره، ازداد شهوده لعزة الله وكماله، وحده وغناه. وكذلك بالعكس. فنقص الذنب وذلة يطلعه على مشهد العزة.

ومنتها: أن يعرف برّه سبحانه في ستره عليه حال ارتكاب المعصية، مع كمال رؤيته له. ولو شاء لغضبه بين خلقه فحذروه. وهذا من كمال بره. ومن أسمائه «البرّ» وهذا البر من سيده كان عن كمال غناه عنه، وكمال فقر العبد إليه. فيشتغل بمطالعة هذه المنة، ومشاهدة هذا البر

والإحسان والكرم. فيذهل عن ذكر الخطيئة . فيبقى مع الله سبحانه . وذلك أنفع له من الاشتغال بجنائته . وشهود ذل معصيته . فإن الاشتغال بالله والتفلة عما سواه : هو المطلب الأعلى ، والمقصد الأسنى .

ولا يوجب هذا نسيان الخطيئة مطلقاً ، بل في هذه الحال . فإذا قددها فليرجع إلى مطالعة الخطيئة ، وذكر الجنابة ، ولكل وقت ومقام عبودية تليق به .
ومنها : شهود حلم الله سبحانه وتعالى في إمهال راكب الخطيئة . ولو شاء لعاجله بالعقوبة . ولكنه الحليم الذي لا يتعجل . فيحدث له ذلك معرفة ربه سبحانه بإسمه «الحليم» ومشاهدة صفة «الحلم» والتعبد بهذا الاسم .

ومنها : معرفة العبد كرم ربه في قبول العذر منه إذا اعتذر إليه ، فيقبل عذره بكرمه وجوده . فيوجب له ذلك اشتغالا بذكره وشكره ، وعبية أخرى لم تكن حاصلة له قبل ذلك . فإن محبتك لمن شكرك على إحسانك وجازاك به ، ثم غفر لك إسأءتك ولم يؤاخذك بها : أضاعف محبتك على شكر الإحسان وحده والواقع شاهد بذلك . فعبودية التوبة بعد الذنب لون . وهذا لون آخر .
ومنها : أن يشهد فضله في مغفرته ، فإن المغفرة فضل من الله . ولا فلو أخذك بمحض حقه ، كان عادلا محموداً . وإنما عفووه بفضله لا باستحقاقك . فيوجب لك ذلك أيضاً شكراً له وعبية ، وإنابة إليه ، وفرحاً وإبتهاجاً به ، ومعرفة له باسمه «الغفار» ومشاهدة هذه الصفة ، وتعبداً بمقتضاها . وذلك أكمل في العبودية ، والمحبة والمعرفة .

ومنها : أن يُكَمَّلَ لعبده مراتب الذل والخضوع والانكسار بين يديه ، والافتقار إليه . فإن النفس فيها مضاهاة للربوبية . ولو قدرت لقالت كقول فرعون . ولكنه قدر فأظهر . وَغَيَّرَهُ عِزْزَ فَأَضْمَرَ . وإنما يُخَلِّصُهَا من هذه المضاهاة ذل العبودية . وهو أربع مراتب .

المرتبة الأولى : مشتركة بين الخلق . وهى ذل الحاجة والفقر إلى الله . فأهل السموات والأرض جميعا محتاجون إليه ، فقراء إليه . وهو وحده الغنى عنهم . وكل أهل السموات والأرض يسألونه . وهو لا يسأل أحداً .

المرتبة الثانية : ذل الطاعة ، والعبودية . وهو ذل الاختيار . وهذا خاص بأهل طاعته . وهو سر العبودية .

المرتبة الثالثة : ذل المحبة . فإن المحب ذليل بالذات ، وعلى قدر محبته له يكون ذله ، فالمحبة أسست على الذلة للمحبيب ، كما قيل :

اخضَعْ وَذَلِّ لمن تحب . فليس في حكم الهوى أنف يُشَأَلُ و يعقد
اغترية الرابعة : ذل المعصية والجنابة .

فإذا اجتمعت هذه المراتب الأربع كان الذل لله والخضوع له أكمل وأتم . إذ يذل له خوفاً

وخشية، ومحبة وإثابة، وطاعة، وقرراً وفاقة.

وحقيقة ذلك: هو الفقر الذي يشير إليه القوم. وهذا المعنى أجل من أن يسمى بالفقر. بل هو لبُّ العبودية وسرها. وحصوله أنفع شيء للعبد، وأحب شيء إلى الله.

ومنها: أن أسماءه الحسنى تقتضى آثارها اقتضاء الأسباب الثامنة لسيئاتها. فاسم «الرزاق» يقتضى مرزوقاً. واسم «الرحيم» يقتضى مرحوماً. وكذلك أسماء «الغفور» و«العفو» و«التواب» و«الحليم» يقتضى من يغفر له، ويتوب عليه، ويعفوه عنه، ويعلم. ويستحيل تعطيل هذه الأسماء والصفات، إذ هي أسماء حسنى وصفات كمال، ونعوت جلال، وأفعال حكمة وإحسان وجود. فلا بد من ظهور آثارها في العالم. وقد أشار إلى هذا أعلم الخلق بالله. صلوات الله وسلامه عليه. حيث يقول «لَوْلَمْ تَذْنُبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِكُمْ بِقَوْمٍ يُذَنِّبُونَ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُونَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ».

وأنت إذا فرضت المعصية والخطيئة منتفية من العالم. فلن يغفر؟ وعمن يعفو؟ وعلى من يتوب ويعلم؟ وإذا فرضت الفاقات كلها قد شئت، والعبيد أغنياء مغافون. فأين السؤال والتضرع والابتهال؟ والإجابة وشهود الفضل والمنة، والتخصيص، بالإتعام والإكرام؟.

فسبحان من تعرف إلى خلقه بجميع أنواع التعريفات. ودلهم عليه بأنواع الدلالات. وفتح لهم إليه جميع الطرقات. ثم نصب إليه الصراط المستقيم. وعرفهم به ودلهم عليه (٤٧: ٨) لِيَهْدِيَكُمْ مِنْ هَٰذَا لَكُمْ مَخْرَجًا، وَيَخْتِي مَنْ حَتَّى عَنْ يَمِينِهِ. وإن الله لسميع عليم).

● الرحيم ... سبحانه

ومنها: السر الأعظم، الذي لا تقتحمه العبارة، ولا تجسر عليه الإشارة، ولا يتأدى عليه منادى الإيمان على رؤوس الأشهاد، بل شهادته قلوب خواص العباد. فازدادت به معرفة لربها ومحبة له. وطمانينة به وشوقاً إليه، ولهجاً بذكره. وشهوداً ليريه، ولطفه وكرمه وإحسانه، ومطالمة لسر العبودية، وإشفاقاً على حقيقة الإلهية. وهو ثابت في الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه. قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «اللَّهُ أَفْرَحُ بَتَوْبَةِ عَبْدِهِ - حين يتوب إليه - من أحدكم، كان على راحلة بأرض فلاة. فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه. فأيس منها. فأتى شجرة فاضطجع في ظلها. قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده. فأخذ بخطامها. ثم قال - من شدة الفرح - اللهم أنت عبدى وأنا ربك. أخطأ من شدة الفرح» هذا لفظ مسلم.

والقصد: أن هذا الفرح له شأن لا ينبنى للعبد إجماله والإعراض عنه، ولا يطلع عليه إلا من

له معرفة خاصة بالله وأسمائه وصفاته، وما يليق بجزلاله.

ذلك أن الله سبحانه وتعالى اختص نوع الإنسان من بين خلقه بأن كرمه وفضله . وشرفه . وخلق نفسه، وخلق كل شيء له . وخصه من معرفته ومحبه وقربه وإكرامه بما لم يعطه غيره . وسخر له مافي سماواته وأرضه وما بينهما، حتى ملائكته — الذين هم أهل قربه — استخدمهم له . وجعلهم حافظة له في مناسباته . ويقظته . وظلمته وإقامته . وأنزل إليه وعليه كنه . وأرسله وأرسل إليه . وخاطبه وكلمه منه إليه ، واتخذ منهم الخليل والكليم، والآية والخواص والأخبار . وجعلهم ممدن أسرار . وعمل حكيمته . وموضع حبه . وخلق لهم الجنة والنار . فالخلق والأمر، والشواب والعقاب، مداره على النوع الإنساني . فإنه خلاصة الخلق . وهو المقصود بالأمر والنهي . وعليه الثواب والعقاب .

قلل الإنسان شأن ليس لسائر المخلوقات . وقد خلق أباه بيده، ونفخ فيه من روحه . وأسجد له ملائكته . وعلمه أسماء كل شيء . وأظهر فضله على الملائكة فمن دونهم من جميع المخلوقات . وطرده إبليس عن قربه . وأبعد عن أباه، إذ لم يسجد له مع الساجدين . واتخذ عدواً له . فاللؤمن من نوع الإنسان : خير البرية على الإطلاق . وخيرة الله من العالمين فإنه خلقه ليتم نعمته عليه . وليتواتر إحسانه إليه . وليخصه من كرامته وفضله بما لم تنله أمنيته . ولم يخطر على باله ولم يشعر به . ليسأله من المواهب والمطايا الباطنة والظاهرة العاجلة والآجلة، التي لا تنال إلا بمحبته . ولا تنال محبته إلا بطاعته، وإيثاره على ما سواه . فاتخذ محبوباً له . وأعد له أفضل ما يمنه عب غني قادر جواد محبوب إذا قدم عليه . وعهد إليه عهداً تقدم إليه فيه بأوامره ونواهي . وأعلمه في عهده ما يقربه إليه . ويزيده محبة له وكرامة عليه، وما يبعده منه ويسخطه عليه، ويسقطه من عينه .

وللمحبيب عدو، هو أبغض خلقه إليه . قد جاهره بالعداوة وأمر عباده أن يكون دينهم وطاعتهم وعبادتهم له ، دون وليهم ومعبودهم الحق . واستقطع عبادته، واتخذ منهم حزباً ظاهرياً ووالوه على ربهم . وكانوا أعداء له مع هذا العدو . يدعون إلى سخطه . ويطعنون في ربوبيته وإلهيته ووحانيته، ويسبونه ويكذبونه . ويفتنون أوليائه، ويؤذونهم بأنواع الأذى . ويجهدون على إعدامهم من الوجود وإقامة الدولة لهم . وغو كل ما يحبه الله ويرضاه، وتبديله بكل ما يسخطه ويكرهه . فترقه بهذا العدو وطرائقهم وأعمالهم وبما لهم . وحذره مولاتهم والدخول في زميرهم والكون معهم .

وأخبره في عهده : أنه أجود الأجودين، وأكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين . وأنه سبقت رحمته غضبه، وحلمه عقوبته، وعفو مؤاخذته . وأنه قد أفاض على خلقه النعمة . وكتب على نفسه الرحمة . وأنه يحب الإحسان والجود والعطاء والبر . وأن الفضل كله بيده، والخير كله منه ، والجود

كله له. وأحب ما إليه: أن يجود على عباده ويؤيهم فضلاً. ويغفرهم إحساناً وجوداً. ويتم عليهم نعمته. ويضاعف لديهم منته. ويتعرف إليهم بأوصافه وأسمائه. ويتحجب إليهم بنعمه وآلائه.

فهو الجواد لذاته. وجود كل جواد خلقه الله، ويخلقه أبداً: أقل من ذرة بالقياس إلى جوده. فليس الجواد على الإطلاق إلا هو. وجود كل جواد فمن جوده. ومحبة للجود والإعطاء والإحسان، والبر والإنعام والإنصال: فوق ما يخطر ببال الخلق. أو يدور في أوهامهم. وفرحه ببعثاته وجوده وإفضاله أشد من فرح الآخذ بما يعطاه، يأخذه، أحوج ما هو إليه أعظم ما كان قدراً. فإذا اجتمع شدة الحاجة وعظم قدر العطية والنعم بها، فما الظن بفرح المعطى؟ ففرح المعطى سبحانه ببعثاته أشد وأعظم من فرح هذا بما يأخذه. ولله المثل الأعلى. إذ هذا شأن الجواد من الخلق. فإنه يحصل له من الفرح والسرور، والابتهاج واللذة ببعثاته وجوده، فوق ما يحصل لمن يعطيه. ولكن الآخذ غائب بلذة أخذه، عن لذة المعطى، وابتهاجه وسروره. هذا مع كمال حاجته إلى ما يعطيه وقره إليه، وعدم وثوقه باستغلاف مثله، وخوف الحاجة إليه عند ذهابه، والتعرض لذل الاستعانة بنظيره ومن هودونه. ونفسه قد طبع على الحرص والشح.

فما الظن بمن تقدس وتنزه عن ذلك كله؟ ولو أن أهل سماواته وأرضه، وأول خلقه وآخرهم، وإنسهم وجنهم، ورطبهم ويابسهم، قاموا في صعيد واحد فسألوه، فأعطى كل واحد ما سأل: ما نقص ذلك مما عنده مثقال ذرة.

وهو الجواد لذاته، كما أنه الحي لذاته، العليم لذاته، السميع البصير لذاته. فعبوده العالي من لوازم ذاته. والعفو أحب إليه من الانتقام. والرحمة أحب إليه من العقوبة. والقفل أحب إليه من العدل، والعطاء أحب إليه من المنع.

فإذا تعرض عبده ومحبوبه الذي خلقه لنفسه، وأعد له أنواع كرامته، وفضله على غيره وجعله محل معرفته، وأنزل إليه كتابه. وأرسل إليه رسوله، واعتنى بأمره ولم يهمله. ولم يتركه سدى، فتعرض لفضبه، وارتكب مساخطه، وما يكرهه وأبى منه. وإلى عدوه وظاهره عليه، وتميز إليه: وقطع طريق نعمه وإحسانه إليه التي هي أحب شيء إليه. وفتح طريق العقوبة والغضب والانتقام: فقد استدعى من الجواد الكريم خلاف ما هو موصوف به من الجود والإحسان والبر وتعرض لإغضابه وإسقاطه وانتقامه. وأن يصير غضبه وسخطه في موضع رضاه. وانتقامه وعقوبته في موضع كرمه وبره وعطائه. فاستدعى بمصيبته من أفعاله ما سواه أحب إليه منه، وخلاف ما هو من لوازم ذاته من الجود والإحسان.

وهذا موضع الحكاية المشهورة عن بعض العارفين: أنه رأى في بعض السكك باباً قد فتم. وخرج منه صبي يستغيث ويكس. وأمه خلقه تطرده، حتى خرج. فأغلقت الباب في وجهه

ودخلت. فذهب الصبي غير بعيد، ثم وقف مفكراً. فلم يجد له مأوى غير البيت الذي أخرج منه، ولا من يؤويه غير والدته. فرجع مكسور القلب حزناً. فوجد الباب مُرتجاً، فتوسده ووضع خده على عتبة الباب ونام، فخرجت أمه. فلما رآته على تلك الحال لم تملك أن رمت نفسها عليه، والتزمت مُقبّله وتبكي. وتقول: يا ولدي، أين تذهب عني؟ ومن يؤيك سوى؟ ألم أقل لك: لا تخالفني. ولا تحملي بمعصيتك لي على خلاف ما مجّلت عليه من الرحمة بك، والشفقة عليك، وإرادتي الخير لك؟ ثم أخذته ودخلت.

فتأمل قول الأم «لا تحملي بمعصيتك لي على خلاف ما مجّلت عليه من الرحمة والشفقة». وتأمل قوله صلى الله عليه وسلم «لَلَّهِ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنَ الْوَالِدَةِ بَوْلَدِهَا» وأين تقع رحمة الوالدة من رحمة الله التي وسعت كل شيء؟.

فإذا اغضب العبد بعصيته فقد استدعى منه صرف تلك الرحمة عنه. فإذا تاب إليه فقد استدعى منه ما هو أهله وأولى به.

فهذه نيفة سيرة تطلعك على سر فرح الله بتوبة عبده أعظم من فرح هذا الواجد لراحته في الأرض المهلكة، بعد اليأس منها.

هذا إذا نظرت إلى تعلق الفرح الإلهي بالاحسان والجود والبر. وأما إن لاحظت تعلقه بإيمته وكونه معبوداً؛ فذاك مشهد أجل من هذا وأعظم منه. وإنما يشهده خواص المحبين.

فإن الله سبحانه إذا خلق الخلق لمبادته، الجامعة لمحبته والخضوع له وطاعته. وهذا هو الحق الذي خلقت به السموات والأرض. وهو غاية الخلق والأمر، وهو سبحانه يحب أن يُقْبَدَ ويطاع ولا يعبأ بخلقهم شيئاً لولا محبتهم له، وطاعتهم له، ودعائهم له.

وقد أنكر على من زعم أنه خلقهم لغير ذلك، وأنهم لو خلقوا لغير عبادته وتوحيده وطاعته لكان خلقهم عبثاً وباطلاً وشدى. وذلك مما يتعالى عنه أحكم الحاكمين. والإله الحق. فإذا خرج العبد عما خُلق له من الطاعة والعبودية. فقد خرج عن أحب الأشياء إليه، وعن الغاية التي لأجلها خلقت الخليقة. وصار كأنه خُلق عبثاً لغير شيء، إذ لم تُخرج أرضه البذر الذي وضع فيها. بل قلبه شوكاً ودَغلاً. فإذا راجع ما خلق له وأوجد لأجله: فقد رجع إلى الغاية التي هي أحب الأشياء إلى خالقه وفاطره. ورجع إلى مقتضى الحكمة التي خلق لأجلها. وخرج عن معنى العبث والسدى والباطل. فاشتدت محبة الرب له. فإن الله يحب التوابين ويحب المستطهرين. فأوجبت هذه المحبة فرحاً كأعظم ما يُقدَّر من الفرح. ولو كان في الفرح المشهود في هذا العالم نوع أعظم من هذا الذي ذكره النبي صلى الله عليه وسلم لذكره، ولكن لا فرحة أعظم من فرحة هذا الواجد الفاقد لمادة حياته وبلاغه في سفره، بعد إياسه من أسباب الحياة

بفقدته . وهذا كشدة محبته لتوبة التائب المحب إذا اشتدت محبته للشيء وغاب عنه . ثم وجده وصار طوع يده . فلا فرحة أعظم من فرحته به .

فما الظن بمحبوب لك تحبه حباً شديداً ، أسره عدوك ، وحال بيتك وبينه . وأنت تعلم أن العدو سيسومه سوء العذاب ، ويُعرضه لأنواع الهلاك . وأنت أولى به منه . وهو غرضك وتريتك . ثم إنه انفلت من عدوه ، ووافاك على غير ميعاد فلم يفجأك إلا وهو على بابك ، يتملكك و يترضاك ويستعينك ، و يُمرغ تحديه على تراب أعتابك . فكيف يكون فرحك به ، وقد اختصصته لنفسك ، ورضيته لقربك ، وأثرته على سواه ؟ .

هذا . ولسك الذي أوجدته وخلقته . وأسبقت عليه نعمك ، والله عز وجل هو الذي أوجد عبده . وخلقه وكوّنه . وأسبغ عليه نعمه . وهو يحب أن يتمها عليه ، فيصير مظهراً لنعمه ، قابلاً لها ، شاكراً لها ، عباً لولائها ، مطيعاً له عابداً له ، معادياً لعدوه ، ميفضاً له عاصياً له . والله تعالى يحب من عبده معاداة عدوه ، ومعصيته ومخالفته ، كما يحب أن يوالى الله مولاة سبحانه ويطيعه وبعده . فتضاف محبته لعبادته وطاعته والإنابة إليه ، إلى عباده لعداوة عدوه . ومعصيته ومخالفته ، فتشتد المحبة منه سبحانه ، مع حصول محبته . وهذا هو حقيقة الفرح .

وفي صفة النبي صلى الله عليه وسلم في بعض الكتب المتقدمة «عبدني الذي شئت به نفسي» وهذا لكمال محبته له . جعله مما تسره نفسه سبحانه .

• ومع الفرح ... ضحك أيضاً!

ومن هذا «ضحك» سبحانه من عبده ، حين يأتي من عبوديته بأعظم ما يحبه . فيضحك سبحانه فرحاً ورضاً . كما يضحك من عبده إذا ثار عن وطانته وفراشه ومضاجعة حبيبه إلى خدمته ، يتلو آياته و يتملقه .

و يضحك من رجل هرب أصحابه عن العدو . فأقبل إليهم . وباع نفسه لله ولقاهم تحره ، حتى قُتل في محبته ورضاه .

و يضحك إلى من أخفى الصدقة عن أصحابه لسائل اعترضهم فلم يعطوه ، فتخلف بأعقابهم وأعطاه سرّاً ، حيث لا يراه إلا الله الذي أعطاه . فهذا الضحك منه حباً له ، وفرحاً به . وكذلك الشهيد حين يلقاه يوم القيامة . فيضحك إليه فرحاً به وبقدومه عليه .

وهو «فرح» ليس كمثله شيء ، و «ضحك» ليس كمثله شيء ، نؤمن بهما لورودهما في نص الحديث كإيماننا بسائر صفات الله التي اثبتتها النصوص .

● العقوبة بعد إقامة الحجة

لما أن الله عز وجل خلق نبي العبد والذنوب من أجل أن يقيم على عبده حجة عدله، فيعاقبه على ذنوبه بخبرته، فتمتازها أن اعتراف العبد بقيام حجة الله عليه من لوازم الإيمان، أطاع أم هوى. فإن حجة الله قامت على العبد بإرسال الرسول، وإزالة الكتاب، وبلغ ذلك إليه، وتكفنه من العلم به. سواء علم أو جهل. فكل من تمكن من معرفة ما أمر الله به ونهى عنه. فقصر عنه ولم يعرفه. فقد قامت عليه الحجة. والله سبحانه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه. فإذا عاقبه على ذنوبه عاقبه بحجته على ظلمه. قال الله تعالى (١٧: ١٥) وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وقال (٦٧: ٨، ٩) كلما اتقى فيها قوم ساءم خزنتها ألم يأتكم نذير؟ قالوا: بل قد جاءنا نذير. فكذبنا وقلنا : ما نزل الله من شيء) وقال (١١: ١١٧) وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها فصيلون).

وفي الآية قولان. أحدهما: ما كان ليهلكها بظلم منهم. الثاني: ما كان ليهلكها بظلم منه. والمعنى على القول الأول: ما كان ليهلكها بظلمهم المتقدم. وهم مصلحون الآن. أي إنهم بعد أن أصلحوا. وتابوا: لم يكن ليهلكهم بما سلف منهم من ظلم.

وعلى القول الثاني أنه لم يكن ظالماً لهم في إهلاكهم، فإنه لم يهلكهم وهم مصلحون وإنما أهلكهم وهم ظالمون. فهم الظالمون لمخالفتهم، وهو العادل في إهلاكهم. والقولان في آية الأنعام أيضاً (٦: ١٣١) ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون). وقال الله تعالى (٣٦: ١٦٩، ١٧٠) وما علمناه الشعر وما ينبغي له. إن هو إلا ذكر وقرآن مبين. لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين).

فأخبر سبحانه أن الناس قسمان: حى قابل للانتفاع. يقبل الإنذار وينتفع به، وميت لا يقبل الإنذار ولا ينتفع به. لأن أرضه غير زاكية ولا قابلة لخير البتة. فيحق عليه القول بالعذاب. وتكون عقوبته بعد قيام الحجة عليه. لا بمجرد كونه غير قابل للهدى والإيمان. بل لأنه غير قابل ولا فاعل. وإنما يتبين كونه غير قابل بعد قيام الحجة عليه بالرسول. إذ لو عذبه بكونه غير قابل لقال: لو جاءني رسول منك لامتثلت أمره. فأرسل إليه رسوله. فأمره ونهاه. فمضى الرسول بكونه غير قابل للهدى، فعوقب بكونه غير فاعل. فحق عليه القول: أنه لا يؤمن ولو جاءه الرسول، كما قال تعالى (١٠: ٣٣) وكذلك حققت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون) وحق عليه العذاب. كقوله تعالى (٤٠: ٦) وكذلك حققت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار).

فالكلمة التي حققت كلمتان: كلمة الإضلال، وكلمة العذاب. كما قال تعالى

٧١:٣٩) ولكن حققت كلمة العذاب على الكافرين) وكلمته سبحانه، إنما حققت عليهم بالعذاب بسبب كفرهم. فحققت عليهم كلمة حجته، وكلمة عدله بقويته.
وحاصل هذا كله: أن الله سبحانه، أمر العباد أن يكونوا مع مراده الديني منهم. لأمع مراد أنفسهم، مع علمه بموت قلوب بعضهم، فأهل طاعته آثروا الله ومراده على مرادهم، فاستحقوا كرامته. وأهل معصيته آثروا مرادهم على مراده، فقامت عليهم بالمعصية حجة عدله، فعاقبهم بظلمهم.

● نفس معيبة ... وِزْب متفضل

قد ذكرنا أن العبد في الذنب له نظر إلى أربعة أمور: نظر إلى الأمر والنهي. ونظر إلى الحكم والقضاء. وذكرنا ما يتعلق بهذين النظرين.
النظر الثالث: النظر إلى عمل الجناية ومصدرها. وهو النفس الأمارة بالسوء، فيعرف أنها جاهلة ظالمة. وأن الجهل والظلم يصدر عنهما كل قول وعمل قبيح، فيوجب له ذلك بذل الجهد في العلم النافع الذي يخرجها به عن وصف الجهل. والعمل الصالح الذي يخرجها به عن وصف الظلم. ومع هذا فجهلها أكثر من علمها وظلمها أعظم من عدلها.
فحقيق بمن هذا شأنه أن يرغب إلى خالقها وفاطرها أن يقيها شرها. وأن يؤتيها تقواها ويزكيها. فهو خير من زكاها. فإنه ربُّها ومولاه، وأن لا يكلِّه إليها طَرَفَةَ عين. فإنه إن وَّكَّله إليها هلك. فما هلك من هلك إلا حيث وُكِّلَ إلى نفسه. وقال النبي صلى الله عليه وسلم لحسين ابن المنذر «قل: اللهم أهمني رُشدي. وقني شَرَّ نفسي» وفي خطبة الحاجة «الحمد لله. نحمده ونستعينه، ونستغفره. ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا» وقد قال تعالى (١٧:٦٤) وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) وقال (٥٣:١٢) إِنَّ النِّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ).

فمن عرف حقيقة نفسه وما طُلبت عليه: علم أنها متَّبِع كل شر، وما وُي كل سوء، وأن كل خير فيها ففضل من الله مَنَّ به عليها. لم يكن منها. كما قال تعالى (٢١:٢٤) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَاكُمْ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا) وقال تعالى (٨:٤٩) وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانُ وَزَكَتُمْ فِي قُلُوبِكُمْ. وَكَرَّهَتْ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ. أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ) فهذا الحب وهذه الكراهة لم يكونا في النفس ولا بها. ولكن هو الله الذي مَنَّ بهما. فجعل العبد بسببهما من الراشدين (فَضْلًا من الله ونعمة والله عليهم حكيم) «عليهم» بمن يصلح لهذا الفضل ويزكو عليه وبه، ويشمر عنده. «حكيم» فلا يضعه عند غير أهله فيضيعها

بوضعه في غير موضعه.

اللطيفة الثانية من اسرار التوبة : أن يعلم أن نظر البصير الصادق في سيئته لم يبق له حسنة بحال . لأنه يسير بين مشاهدة البيئة . وتقلب عيب النفس والعمل ، فإن من له بصيرة بنفسه ، وببصيرة بحقوق الله . وهو صادق في طلبه : لم يبق له نظره في سيئاته حسنة أثبتة . فلا يلتقى الله الا بالإفلاس المحض ، والفقر الصّرف . لأنه إذا فُتس عن عيوب نفسه وعيوب عمله علم أنها لا تصلح لله ، وأن تلك البضاعة لا تُشترى بها النجاة من عذاب الله . فضلاً عن الفوز بعظيم ثواب الله . فإن خَلَصَ له عملٌ وحالٌ مع الله . وصفاً له معه وقت شاهد يثبته الله عليه به ، ويحرد فضله ، وأنه ليس من نفسه ، ولا هي أهل لذلك . فهو دائماً مشاهداً لمنة الله عليه ، ولعيوب نفسه وعمله . لأنه متى طلبها رآها .

وهذا من أجل أنواع المعارف وأنفعها للعبد . ولذلك كان سيد الاستغفار «اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت . خلقتني ، وأنا عبدك . وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت . أعوذ بك من شر ما صنعت . أبوء لك بنعمتك عليّ . وأبوء بذنبي . فاغفر لي . إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» .

فتضمن هذا الاستغفار : الاعتراف من العبد بربوبية الله ، وإلهيته وتوحيده . والاعتراف بأنه خالقه ، العالم به . إذ أنشأ نشأة تستلزم عجزه عن أداء حقه وتقديره فيه ، والاعتراف بأنه عبده الذي ناصيته بيده وفي قبضته . لا مهرب له منه . ولا ولي له سواه ، ثم التزام الدخول تحت عهده — وهو أمره ونهيهِ — الذي عهده إليه على لسان رسوله ، وأن ذلك يحسب استطاعتي ، لا بحسب أداء حَقِّكَ . فإنه غير مقدور للبشر . وإنما هو جُهد المَقْل ، وقدر الطاقة . ومع ذلك فأنا مصدق بوعدك الذي وعدته لأهل طاعتك بالثواب ، ولأهل معصيتك بالعقاب . فأنا مقيم على عهدك ، مصدق بوعدك . ثم أفرع إلى الاستعاذة والاعتصام بك من شر ما قُرِئْتُ فيه من أمرك ونهيكَ . فإنك إن لم تُعَذِّبني من شره ، والا احاطت بي المَلَكة . فإن إضاعة حَقِّكَ سبب الهلاك ، وأنا أقرُّ لك وألتزم بنعمتك عليّ . وأقرُّ وألتزم وأبْتَخُ بذنبي . فمنك النعمة والإحسان والفضل . ومنى الذنب والإساءة . فأسألك أن تغفر لي بمخوَذَّتي ، وأن تُغْفِرَني من شرِّهِ . إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت .

فلماذا كان هذا الدعاء سيد الاستغفار . وهو متضمن لمحض العبودية . فأَي حَسَنَةٍ تَبَقَى للبصير الصادق ، مع مشاهدته عيوب نفسه وعمله ، ومنته الله عليه ؟ فهذا الذي يعطيه نظره إلى نفسه ونقصه .

● الشيطان ملجأ بطيئ والياس

النظر الرابع: نظره إلى الامر له بالمحبة، المزين له فعلها، الحاض له عليها. وهو شيطانه الموكّل به.

فيفيده النظر إليه، وملاحظته: اتخاذه عدواً، وكمال الاحتراز منه، والتحفظ واليقظة. والانتباه لما يريد منه عدوه وهو لا يشعر. فإنه يريد أن يظفر به في عقبة من سبع عقبات، بعضها أصعب من بعض. لا ينزل منه من العقبة الشاقة إلى مادونها إلا إذا عجز عن الظفر به فيها. العقبة الأولى: عقبة الكفر بالله وبدينه ولقائه، وبصفات كماله، وبما أخبرت به رسله عنه. فإنه إن ظفر به في هذه العقبة بردّت نار عداوته واستراح. فإن اقتحم هذه العقبة ونجا منها ببصيرة الهداية، وسلم معه نور الإيمان طلبه على:

العقبة الثانية: وهي عقبة البدعة. إما باعتقاد خلاف الحق الذي أرسل الله به رسوله، وأنزل به كتابه. وإما بالتعميد بما لم يأذن به الله: من الأوضاع والرسوم المحدثّة في الدين، التي لا يقبل الله منها شيئاً، والبدعتان في الغالب متلازمتان. قل أن تنفك إحداها عن الأخرى.

فإن قطع هذه العقبة، وخلّص منها بتور السنة، واعتصم منها بحقيقة المتابعة، وما مضى عليه السلف الأخيار، من الصحابة والتابعين لهم بإحسان طلبه على:

العقبة الثالثة: وهي عقبة الكياف. فإن ظفر به فيها زينها له، وحسّنها في عينه. وسوف به. وفتح له باب الأرجاء. وقال له: الإيمان هو نفس التصديق، فلا تقدح فيه أعمال الفسوق والعصيان، فإن الشيطان يقول له — عند فتح باب الأرجاء — إن الإيمان هو نفس التصديق فلا تقدح فيه الأعمال السيئة والمعاصي. وهذا هو معنى الأرجاء الذي هو من شر البدع التي أفسدت الدين، وربما أجرى على لسانه وأذنه كلمة طالما أهلك بها الخلق، وهي قوله «لا يقصرُ مع التوحيد ذنب، كما لا ينفع مع الشرك حسنة» والظفر به في عقبة البدعة أحب إليه. لما تقتضيتها الدين، ودفعها لما بعث الله به رسوله. وصاحبها لا يتوب منها. ولا يرجع عنها، بل يدعو الخلق إليها، وتضمنها القول على الله بلا علم. ومعاداة صريح السنة. ومعاداة أهلها، والاجتهاد على إطفاء نور السنة. وتولية من عزّله الله ورسوله، وعزّل من ولاه الله ورسوله. واعتبار ما رده الله ورسوله، ورد ما اعتبره. وموالة من عاداه، ومعاداة من والاه. وإثبات ما نفاه. ونفي ما أثبت. وتكذيب الصادق. وتصديق الكاذب. ومعارضة الحق بالباطل. وقلب الحقائق، يجعل الحق باطلاً، والباطل حقاً. والإلحاد في دين الله، وتعمية الحق على القلوب. وطلب العوج لصراط الله المستقيم. وفتح باب تبديل الدين جملة، فإن البدع تستدرج بصغيرها إلى كبيرها، حتى ينسلخ

صاحبها من الدين . كما تنسل الشجرة من العجين . فمفسد البدع لا يقف عليها إلا أرباب البصائر ، والعميان ضالون في ظلمة العمى (٤٠ : ٢٤) ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور .

فإن قطع هذه العقبة بعصمة من الله ، أو بتوبة نصوح تنجيها منها ، طلبه على :
العقبة الرابعة : وهي عقبة الصفائر فيقول له : ما عليك إذا اجتبت الكبائر ما غشيت من اللثم ، أو ما علمت بأنها تكفر باجتناب الكبائر وبالחסنات . ولا يزال يهون عليه أمرها حتى يُعصر عليها . فيكون مرتكب الكبيرة الخائف الوجل التادم أحسن حالا منه . فالإصرار على الذنب أصبح منه . ولا كبيرة مع التوبة والاستغفار . ولا صغيرة مع الإصرار . وقد قال صل الله عليه وسلم «إياكم ومحقرات الذنوب، ثم ضرب لذلك مثلا يقوم نزلوا بقلا من الأرض . فأعوزهم الحطوب . فجعل هذا يحىء يعود، وهذا يعود . حتى جمعوا حطبا كثيرا . فأوقدوا نارا . وأنضجوا خبزتهم . فكذلك فإن محقرات الذنوب تجتمع على العبد وهو يستهين بشأنها حتى تهلكه» .

فإن نجا من هذه العقبة بالتحرز والتحفظ ، ودوام التوبة والاستغفار . وأتبع السيئة الحسنة . طلبه على :

العقبة الخامسة . وهي عقبة المباحات التي لا حرج على فاعلها . فشغله بها عن الاستكثار من الطاعات . وعن الاجتهاد في التزود لمعاده . ثم طمع فيه أن يستدرجه منها الى ترك السنن . ثم من ترك السنن الى ترك الواجبات . وأقل ما ينال منه : تقوئه الأرباح ، والمكاسب العظيمة . والمنازل العالية . ولو عرف السر لما فوت على نفسه شيئا من القربات . ولكنه جاهل بالسر .

فإن نجا من هذه العقبة ببصيرة تامة ونور هاد ، ومعرفة بقدر الطاعات والاستكثار منها ، وقلة المقام على الميئاد ، وخطر التجارة ، وكرم المشتري ، وقدر ما يعوض به التجار ، فيخل بأوقاته . وضمن بأنفسه أن تذهب في غير ربح . طلبه المدعو على :

العقبة السادسة : وهي عقبة الأعمال المربوطة المفضولة من الطاعات . فأمره بها . وحسنها في عينه . وزينها له . وأراه ما فيها من الفضل والربح ، ليشغله بها عما هو أفضل منها ، وأعظم كسبا وربحا . لأنه لما عجز عن تحصيل أصل الثواب ، طمع في تحصيله كماله وفضله ، ودرجاته العالية . فشغله بالمفضول عن الفاضل ، وبالمرجوح عن الراجح ، وبالحبيب لله عن الأحب إليه ، وبالمريض عن الأروى له .

ولكن أين أصحاب هذه العقبة ؟ فهم الأفراد في العالم ، والأكثرون قد ظفر بهم في العقبات الأولى .

فإن نجا منها بفقته في الأعمال ومراتبها عند الله ، ومنازلها في الفضل ، ومعرفة مقاديرها ، والتميز بين عاليها وسافلها ، ومفضوها وقاضلها ، ورئيسها ومرؤوسها ، سيد ومسودها ، فإن في الأعمال والاقوال سيذا ومسودا ورئيسا ومرؤوسا ، وذروة وما دونها ، كما في الحديث الصحيح «سيد الاستخفار: أن يقول العبد: اللهم أنت ربي . لا إله إلا أنت - الحديث» وفي الحديث الآخر «الجهاد ذروة سنام الأمر». ولا يقطع هذه العقبة إلا أهل البصائر والصدق من أولي العلم، البائرين على جادة التوفيق قد أنزلوا الأعغال منازلها، وأعطوا كل ذي حق حقه.

• عبودية المُرَاغمة

فإذا نجا مما سبق لم يبق هناك عقبة يطلبه العدو عليها سوى واحدة لا بد منها. ولنجا منها أحد لنجا منها رسل الله وأنبيأؤه، وأكرم الخلق عليه. وهى عقبة تسليط جنده عليه بأنواع الأذى، باليد واللسان والقلب، على حسب مرتبته في الخير. فكلما عُلّت مرتبته أُجْلِبَ عليه العدو بخيله ورجله. وظاهر عليه بجنده. وسلط عليه جزبه وأهله بأنواع التسليط. وهذه العقبة لاحيلة له في التخلص منها. فإنه كلما جد في الاستقامة والدعوة إلى الله ، والقيام له بأمره ، تجتهد العدو في إغراء التسفهاء به. فهو في هذه العقبة قد ليس لأمة الحرب. وأخذ في محاربة العدو لله وبالله. فعبوديته فيها عبودية خواص العارفين. وهى تسمى عبودية المُرَاغمة، ولا ينتبه لها إلا أولو البصائر الشامة. ولا شيء أحب إلى الله من مراغمة وليه لعدوه ، وإغاظته له. وقد أشار سبحانه الى هذه العبودية في مواضع من كتابه.

أحدها : قوله (١٠٠:٤) ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مُرَاغماً كثيراً وسعة) سسمى المهاجر الذي يهاجر إلى عبادة الله مُرَاغماً يراغم به عدو الله وعدوه. والله يحب من وليه مراغمة عدوه، وإغاظته. كما قال تعالى (١٢٠:٩) ذلك بأنهم لايصيبهم ظمأ ولا نقص ولا مضصة في سبيل الله ولا يقاتلون قوطناً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدوئنا إلا كُتِبَ لهم به عثل صالح. إن الله لايضيع أجر المحسنين) وقال تعالى في مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتباعه (٢٩:٤٨) ومنلهم في الإنجيل كرز أخرج شطأه فأزره. فاستغلف. فاستوى على سوقه. يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار) فمناظلة الكفار غاية محبوبة للرب مطلوبة له. فمواقفته فيها من كمال العبودية. وشرع النبي صلى الله عليه وسلم للمصلي إذا سها في صلاته سجدتين، وقال «إن كانت صلاته تامة كانتا ترغمان أنف الشيطان» وفي رواية «ترغما للشيطان» وسماها «المرغمتين».

فمن تعبد لله بمراغمة عدوه ، فقد أخذ من الصديقية بسهم وافر. وعلى قدر عبة العبد لربه،

وموالاته ومعاداته لعدوه ، يكون نصيبه من هذه المراجعة . ولأجل هذه المراجعة حمد التبخترين
الصنفين ، والخيلاء والتبختر عند صدقة السر ، حيث لا يراه إلا الله . لما في ذلك من إرغام العدو .
وبدل محبوبه من نفسه وماله لله عز وجل .
وهذا باب من العبودية لا يعرفه إلا القليل من الناس . ومن ذاق طعمه ولذته بكى على
أيامه الأول .

وبالله المنهان . وعليه التكلان . ولا حول ولا قوة إلا بالله .
وصاحب هذا المقام إذا نظر إلى الشيطان ، ولاحظه في الذنب ، رآه بالتوبة النصوح .
فأحدث له هذه المراجعة عبودية أخرى .
فهذه تبة من بعض لطائف أسرار «التوبة» لا تستهزئ بها . فملك لا تظفر بها في مصنف
آخر ألبته . والله الحمد والمنة . وبه التوفيق :

• الفِطْرَةُ بَابِي الْقَبَائِح

أما اللطيفة الثالثة من أسرار التوبة، ففي أن يرى التائب قبح مانهه الله عنه، وحسن ما أمر
به، وأنه كان مفسداً حين ركب مانهاه الله تعالى عنه، مُقَوِّناً لمصلحة حين قصر في تنفيذ ما أراده
الله منه، وإن الله تعالى مانهه إلا عن أمر قبيح بالذات، وما أمر إلا بأمر حسن الذات، فإن الله
مبجانه قَطَرَ عبادته على استحسان الصدق والعدل، والعفة والإحسان. ومقابلة النعم بالشكر .
وقَصَرَهُم على استقباح أفضدادها. ونسبة هذا إلى فطرهم وعقولهم كسبة الحلو والحامض إلى
أذواتهم، وكنسبة رائحة المسك ورائحة الثمن إلى مشاقهم، وكنسبة انصوت اللذيذ وضده إلى
أسماعهم . وكذلك كل ما يدركونه بمشاعرهم الظاهرة والباطنة . فيفترقون بين طيبه وخبيثه،
ونافسه وضاره.

من أدلة ذلك قوله تعالى (٢٨:٧، ٢٩) وإذا فعلوا فاحشة قالوا: وجدنا عليها آباءنا.
والله أمرنا بها قل: إن الله لا يأمر بالفحشاء. أتقولون على الله ما لا تعلمون؟ * قل أمر
رَبِّي بالقسط. وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد، وادعوه مخلصين له الدين، كما بدأكم
تعودون . فربقاً هدى . وفربقاً حق عليهم الضلالة . إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من
دون الله . ومحسبون أنهم مهتدون * يا بني آدم، خذوا زينتكم عند كل مسجد، واكلوا
واشربوا ، ولا تُسرفوا. إنه لا يحب المسرفين. قل: من حَرَّمَ زينة الله التي أخرج لعباده
والطيبات من الرزق؟ قل: هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة . كذلك

زين للمسرفين ما كانوا يعملون . قل : إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ،
والإثم والبغى بغير الحق ، وأن تشرکوا بالله ما لم يُنزل به سلطانا . وأن تقولوا على الله ما لا
تعلمون) فأخبر سبحانه أن فعلهم فاحشة قبل نهي عنه . وأمر باجتنابه بأخذ الزينة .
و«الفاحشة» ههنا هي طوافهم بالبيت حُرَاقَ الرجال والنساء — غير قريش ثم قال تعالى «إن
الله لا يأمر بالفحشاء» أي لا يأمر بما هو فاحشة في العقول والفطر، إذ كانت قريش هي التي تقوم
بتطويف الحجاج والمعتمرين، وقيادتهم في كل مناسك الحج وشعاره . يأخذون منهم ما يبيعون به ،
استجابة لدعوة أبيهم إبراهيم (٣٧: ١٤) ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم، ربنا
ليقيموا الصلاة . فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم . وارزقهم من الثمرات . لعلهم يشكرون) فرزقهم الله بما
أهوت إليهم أفئدتهم ، ولكن أكثرهم لم يقيم الصلاة كما أحب الله ، ولا شكر لله . بل كفروا ، واتخذوا الآلهة
والأنداد من الوثى ، فكانت صلتهم بأوليائهم أقوى من صلتهم بالله رب العالمين . وكان الشيطان مولاهم من
دون الله . قتل في أعينهم من نعمة الله فيما يسوق إليهم من الأرزاق . وأوحى إليهم أن يشركوا للناس بدعة
فاحشة : أن لا يطوف أحد بالبيت إلا في ثياب من عند فريش ، وهم الحرس وأن يخلعوا ثيابهم ويجعلوها لقي
تحت أقدام الطائفين حول الكعبة . فانقاد الناس لهم بالتقليد وأصبح موداً لقريش يتحكمون به في الناس
كما يشاءون . ثم أوحى إليهم أن يزيدوا في الأثمان كلما رأوا إقبال الناس . حتى عجز أكثر الناس . وطلبوا
من السادة المستكرين الرخصة عن الثمن . فقالوا : لا بد من ذلك ، وإلا فطوفوا عراة ، فطافوا عراة .

ثم قال «قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده . والطيبات من الرزق؟» دل على أنه
طيب قبل التحريم ، وأن وصف الطيب فيه مانع من تحريمه مناف للحكمة .

ثم قال «قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن» ، فهي فواحش قبل التحريم
وبعد ، والشارع كساها بنهي عنها قبحاً إلى قبحها . فكان قبحها من ذاتها ، وازدادت قبحاً عند
العقل بنهي الرب تعالى عنها ، وذمها لها ، وإخباره ببغضها وبغض فاعلها . كما أن العدل
والصدق والتوحيد ، ومقابلة نعم المنعم بالثناء والشكر : حسن في نفسه ، وازداد حسناً إلى حسنه
بأمر الرب به ، وثنائه على فاعله . وإخباره بمحبته ذلك ومحبة فاعله .

بل من أعلام نبوة محمد صلى الله عليه وسلم : أنه يفرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ،
ويحل لهم الطيبات . ويحرم عليهم الخبائث .

فالممدح والثناء والقلم الدال على نبوته : أن ما يأمر به تشهد العقول الصحيحة حسنة وكونه
معروفاً . وما ينهى عنه تشهد قبحه وكونه منكراً . وما يحله تشهد كونه طيباً . وما يحرمه تشهد
كونه خبيثاً . وهذه دعوة جميع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم . وهي بخلاف دعوة المتغلبين
الباطلين . والكذابين والسحرة . فإنهم يدعون إلى ما يوافق أهواءهم وأغراضهم من كل قبيح
ومنكر وبغي وإثم وظلم .

ولهذا قيل لبعض الأعراب — وقد أسلم ، لما عرف دعوته صلى الله عليه وسلم — عن أي

شيء أسلمت؟ وما رأيت منه مما ذلك على أنه رسول الله؟ قال «ما أمر بشيء فقال العقل: ليته نهى عنه. ولا نهى عن شيء، فقال العقل: ليته أمر به. ولا أحل شيئاً. فقال العقل: ليته حرمه. ولا حرم شيئاً، فقال العقل: ليته أباحه» فانظر إلى هذا الأعرابي، وصحة عقله وفطرته، وقوة إيمانه، واستدلالة على صحة دعوته بمطابقة أمره لكل ما حسن في العقل. وكذلك مطابقة تحليله وتحرره.

وقال تعالى (١١٥: ٢٣) أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون؟ أي لغير شيء، لا تؤمرون ولا تنهون. ولا تشابون ولا تعاقبون. والميث قبيح. فدل على أن قبح هذا مستقر في الفطر والعقول. ولذلك أنكره عليهم إنكار مُتَّبِعٍ لهم على الرجوع إلى عقولهم وفطرتهم. وأنهم لو فكروا وأبصروا لعلموا أنه لا يليق به، ولا يحسن منه أن يخلق خلقه عبثاً، لا لأمر ولا لنهي، ولا ثواب ولا لعقاب. وهذا يدل على أن حسن الأمر والنهي والجزاء مستقر في العقول والفطر. وأن من جَوَّزَ على الله الإخلال به فقد نسب إلى ما لا يليق به، وإلى ما تأباه أسماؤه الحسنى وصفاته العليا.

وقال تعالى (٢١: ٤٥) أم حسب الذين اجتروا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء بحياهم ومماتهم؟ ساء ما يحكمون) فأنكر سبحانه هذا الحساب إنكار منه للعقل على قبحه، وأنه يحكم سيء. والحاكم به سيء ظالم. وكذلك قوله (٢٨: ٢٨) أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض؟ أم نجعل المتقين كالفجار؟ وهذا استفهام إنكار. فدل على أن هذا قبيح في نفسه، منكر تنكره العقول والفطر. أنتظنون أن ذلك يليق بنا أو يحسن منا فعله؟ فأنكره سبحانه إنكار منه للعقل والفطرة على قبحه. وأنه لا يليق بالله نسبه إليه.

وكذلك إنكاره سبحانه قبح الشرك به في الهيته، بالبراهين الدالة على قبحه في صريح العقول والفطر؟ وأنه أقيح القبيح وأظلم الظلم؟ وأي شيء يصح في العقل إذا لم يكن فيه علم بقبح الشرك الذاتي، وأن العلم بقبحه يهديه معلوم بضرورة العقل، وأن الرسل نبهوا الأمم على ما في عقولهم وفطرتهم من قبحه، وأن أصحابه ليست لهم عقول ولا أبواب ولا أقدة. بل نفى عنهم السمع والبصر. والمراد: سمع القلب وبصره. فأخبر أنهم صم بكم عمى. وذلك وصف قلوبهم أنها لا تسمع ولا تبصر ولا تنطق. وشبههم بالأنعام التي لا عقول لها تميز بها بين الحسن والقبيح، والحق والباطل. ولذلك اعترفوا في النار بأنهم لم يكونوا من أهل السمع والعقل. وأنهم لو رجعوا إلى أسماعهم وعقولهم لعلموا حسن ما جاءت به الرسل وقبح مخالفتهم.

قال الله تعالى حاكياً عنهم (١١٠: ٦٧) وقالوا: لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير) وهم يقول لهم في كتابه (أفلا تعقلون؟) (لعلكم تعقلون). فينبههم على ما في

عقولهم وفطرهم من الحسن والقيح. ويحتج عليهم بها، ويخبر أنه أعطاهمها لينتفعوا بها، ويميزوا بها بين الحسن والقيح والحق والباطل.

وكرم في القرآن من حشل عقلى وحشى يتبه به العقول على حسن ما أمر به، وقبح ما نهى عنه.

والقرآن مملوء بهذا لمن تدبره. كقوله تعالى (٢٨:٣٠) ضرب لكم مثلا من أنفسكم: هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم. فأنتم فيه سواء، تخافونهم كخيفتكم أنفسكم؟ كذلك تفصل الآيات لقوم يعقلون) يحتج سبحانه عليهم بما في عقولهم من قبح كون مملوك أحدهم شريكا له. فإذا كان أحدكم يستقبح أن يكون مملوكه شريكه، ولا يرضى بذلك. فكيف تجعلون لى من عبيدي شركاء تعبدونهم كعبادتي؟ وهذا يبين أن قبح عبادة غير الله تعالى مستقر في العقول والفطر. والسمع ثبته العقول وأرشدنا الى معرفة ما أودع فيها من قبح ذلك.

وكذلك قوله تعالى (٢٩:٣٩) ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل، هل يستويان مثلا؟ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون) احتج سبحانه على قبح الشرك بما تعرفه العقول من الفرق بين حال مملوك يملكه أرباب متعاسرون سيئو الملكة، وحال عبيد يملكه سيد واحد قد سلّم كله له. فهل يصح في العقول استواء حال العبدین؟ فكذا حال المشرك والموحد الذي قد سلمت عبوديته لإله الحق؟ لا يستويان.

وكذلك قوله تعالى (٢٦٤:٢) مثلا لقبح الرياء المبطل للعمل، والمثل والأذى المبطل للصدقات بـ «صفوان» وهو الحجر الأملس «عليه تراب» غبار قد لصق به «فأصابه مطر» شديد فأزال ما عليه من التراب «فتركه صلدا» أملس لا شيء عليه. وهذا المثل في غاية المطابقة لمن فهمه. فد «الصفوان» وهو الحجر. كقلب الرائي والمأن والمؤذي. و «التراب» الذي لصق به ما تعلق به من أثر عمله وصدقه. و «الوابل» المطر الذي به حياة الأرض. فإذا صادفها كينة قابضة: تبت فيها الكلا وإذا صادف الصخور والحجارة الصم: لم ينبت فيها شيئا. فجاء هذا الوابل إلى التراب الذي على الحجر، فصادفه رقيقا، فأزاله. فأفضى إلى حجر غير قابل للنبات. وهذا يدل على أن قبح «المثل، والأذى، والرياء» مستقر في العقول. فكذا نبيهها على شبهة ومثاله.

وعكس ذلك قوله تعالى (٢٦٥:٢) ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتبئيا من أنفسهم، كمثل جنة بركة أصابها وابل. فآتت أكلها ضعفين. فإن لم يصبها وابل فبطل. والله بما تعملون بصير فإن كانت هذه الجنة - التى بموضع عال، حيث لا تحجب عنها الشمس والرياح، وقد أصابها مطر شديد. فأخرجت ثمرتها فيعتقي ما يخرج غيرها - إن

كانت مستحسنة في العقل والحس. فكذلك نفقة من أنفق ماله لوجه الله، لا لجزاء من الخلق، ولا لشكور، بل بثبات من نفسه، وقوة على الإنفاق، لا يخرج النفقة وقلبه يترجف على خروجها، ويدها ترتعشان، ويضعف قلبه، ويغور عند الانفاق. بخلاف نفقة صاحب التثبيت والقوة. ولما كان الناس في الانفاق على هذين القسمين: كان مثل نفقة صاحب الإخلاص والقوة والتثبيت: كمثل الوابل. ومثل نفقة الآخر كمثل الطل، وهو المطر الضعيف. فهذا بحسب كثرة الإنفاق وقلته. وكمال الإخلاص والقوة واليقين فيه وضعفه. أفلا تراه سبحانه يثب العقول على ما فيها من استحسان هذا، واستباح فعل الأول؟

وكذلك قوله (٢٦٦: ٢) أَيَوِّدُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ. وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ، وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضِعْفَاءُ فُأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ تَارٌ، فَأَحْرَقَتْ؟ كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون). فبه سبحانه العقول على ما فيها من قبح الأعمال السيئة التي تحيط ثواب الحسنات وتبهيها بحال شيخ كبير له ذرية ضعفاء، بحيث يجثى عليهم الضئعة وعلى نفسه. وله بستان هو مادة عيشه وعيش ذريته. فيه التخييل والأعتاب ومن كل الثمرات. فأرجى وأقتر ما هو له وأسر ما كان به إذ أصابه نار شديدة فأحرقته. فبه العقول على أن قبح المعاصي التي تفرق الطاعات كقبح هذه الحال. وبهذا فرها عصره، وابن عباس رضي الله عنهما «لرجل غني عمل بطاعة الله زمانا. فبعث الله له الشيطان. فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله» ذكره البخاري في صحيحه.

أفلا تراه يثب العقول على قبح المعصية بعد الطاعة، وضرب لقبها هذا المثل؟ ثم هؤلاء الفقهاء: يتكلمون في العلل والمناسبات الداعية لشرع الحكم. ويفرقون بين المصالح الخالصة والراجعة والمرجوة. والمفاسد التي هي كذلك. ويقدمون أرجح المصلحتين على مرجوحتهما. ويدفعون أقوى المفسدين باحتمال أدناهما. ولا يهتم لهم ذلك إلا باستخراج الحكم والعلل، ومعرفة المصالح والمفاسد الناشئة من الأفعال.

● يشاء الله السوء ولا يرضاه

وهذه اللطيفة الثالثة من أسرار التوبة التي يتضح فيها الحسن والقبح تقتضي رؤية الفرق بين محبة الله ورضاه، ومشيئته وإرادته الكونية، وعدم التسوية بينهما، أو اعتقاد تلازمهما، كما فعل الجبرية الذين قالوا: المشيئة والمحبة سواء، أو متلازمان، وإن كل ما شاءه الله فقد أحبه ورضيّه، وقالوا: إن الأفعال جميعها عجوبة للرب، إذ هي صادرة عن مشيئته، وهي عين محبته ورضاه، فلمن من ذلك أن صار أحدهم لا يستقبح سيئة، ولا يستنكر منكرا.

ولما ورد على هؤلاء قوله تعالى (٢: ٢٠٥ والله لا يحب الفساد) (٣٩: ٧ ولا يرضى لعباده الكفر) وقوله (١٧: ٣٨ كل ذلك كان سيئاً عند ربك مكروهاً) والتبس عليهم كيف يكون مكروهاً له. وقد أراد كونه؟ وكيف لا يحبه، وقد أراد وجوده؟ أولوا هذه الآيات ونحوها بأنه لا يحبها ديناً. ولا يرضاها شرعاً. ويكرهاها كذلك، بمعنى أنه لا يشرعها، مع كونه يجب وجودها ويريده.

ثم بنوا على ذلك أنهم مأمورون بالرضا بالقضاء. وهذه قضاء من قضائه. فنحن نرضى بها. فمالنا وإنكارها ومعاداة فاعلها، ونحن مأمورون بالرضا بالقضاء؟ فتركب من اعتقادهم: كونها محبوبة للرب، وكونهم مأمورين بالرضا بها، والتسوية بين الأفعال، وعدم استباح شيء منها أو إنكاره.

وانضاف إلى ذلك اعتقادهم جبر العبد عليها، وأنها ليست فعله. فلزم من ذلك: رفع الأمر والنهي، وظل بساط الشرع، والاستسلام للقدر، والذهاب معه حيث كان.

فمنشأ اللفظ: التسوية بين المشيئة والمحبة، واعتقادهم وجوب الرضا بالقضاء. ونحن نبين مافي الفصلين إن شاء الله تعالى. فإن القوة لله جميعاً. فأما المشيئة، والمحبة: فقد دل على الفرق بينهما القرآن والسنة، والعقل، والفطرة، وإجماع المسلمين.

قال الله تعالى (٤: ١٠٧ يستخفون من الناس، ولا يستخفون من الله وهو معهم. إذ يبييتون ما لا يرضى من القول) فقد أخبر أنه لا يرضى بما يبيتونه من القول، المتضمن البهت، ورضي البريء، وشهادة الزور، وبراءة الجاني. فإن الآية نزلت في قصة هذا شأنها، مع أن كله بمشيئته. إذ أجمع المسلمون على أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

وتأويل من تأول الآية على أنه لا يرضاه ديناً، مع محبته لوقوعه: مما ينبغي أن يسان كلام الله عنه. إذ المعنى عندهم: أنه محبوب له. ولكن لا يثاب فاعله عليه. فهو محبوب بالمشيئة، غير مثاب عليه شرعاً.

ومذهب سلف الأمة وأئمتها: أنه مسخوط للرب، مكروه له قدرأ وشرعاً، مع أنه وجد بمشيئته وقضائه. فإنه يخلق ما يحب وما يكره. وهذا كما أن الأعيان كلها خلقه. وفيها ما يبيغضه ويكرهه — كإبليس وجنوده، وسائر الأعيان الخبيثة — وفيها ما يحبه ويرضاه — كإنبيائه ورسله، وملائكته وأوليائه — وهكذا الأفعال كلها خلقه. ومنها ما هو محبوب له وما هو مكروه له. خلقه لحكمة له في خلق ما يكره ويبغض كالأعيان. وقال تعالى (٢: ٢٠٧ والله لا يحب الفساد) مع أنه بمشيئته وقضائه وقدره. وقال تعالى (٣٩: ٧) إن تكفروا فإن الله غني عنكم

ولا يرضى لعباده الكفر. وإن تشكروا يَرْضَهُ لَكُمْ) فالكفر والشكر واقعان بمشيئته وقدره .
وأحدهما محبوب له مرضى . والآخر مبغوض له مسخوط .

وكذلك قوله عقيب ما نهى عنه من الشرك والظلم والفواحش (٣٨:١٧) كُلِّ ذَلِكَ كَانَ
سَيِّئَةً عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا) فهو مكروه له ، مم وقوعه بمشيئته وقضائه وقدره .

وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «إن الله كره لكم ثلاثاً: قيل
وقال. وكثرة السؤال . وإضاعة المال» فهذه كراهة لموجود تعلقت به المشيئة .

وفي المسند «إن الله يحب أن يؤخذ برخصه ، كما يكره أن تؤتى معصيته» فهذه محبة
وكراهة لأمرين موجودين. اجتماعاً في المشيئة، وافتراقاً في المحبة والكراهة. وهذا في الكتاب
والسنة أكثر من أن يذكر جميعه .

وقد فطر الله عباده على قولهم : هذا الفعل يحبه الله . وهذا يكرهه الله ويغضه وفلان يفعل
مالا يحبه الله . والقرآن مملوء بذكر سخطه وغضبه على أعدائه . وذلك صفة قائمة به ، يترتب عليها
العذاب واللعة . لا أن السخط هو نفس العذاب واللعة بل هما اثر السخط والغضب وموجبهما .
ولهذا يفرق بينهما كما قال تعالى (٩٢:٤) وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا
فِيهَا . وغضب الله عليه ولعنه . وأعدّ له عذاباً عظيماً) ففرق بين عذابه وغضبه ولعنته . وجعل
كل واحد غير الآخر .

وكان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ
بمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك» .

فتأمل ذكر استعاذته صلى الله عليه وسلم بصفة «الرضا» من صفة «السخط» وبفعل
«المعافاة» من فعل «العقوبة» فالأول : للصفة ، والثاني : لأثرها المترتب عليها . ثم ربط
ذلك كله بذاته سبحانه ، وأن ذلك كله راجع إليه وحده . لا الى غيره . فما أعوذ منه : واقع
بمشيئتك وإرادتك . وما أعوذ به : من رضاك ومعافاتك هو بمشيئتك وإرادتك ، إن شئت أن ترضى
عن عبدك وتعافيه ، وإن شئت أن تغضب عليه وتعاقبه . فأعاذني مما أكره وأحذر ، ومنعه أن
يحل بي : هو بمشيئتك أيضاً . فالمحبيب والمكروه كله بقضائك ومشيتك . فعياذ بك منك :
عياذ بك بحولك وقوتك ، وقدرتك ورحمتك وإحسانك ، مما يكون بحولك وقوتك وقدرتك وعدلك
وحكمتك . فلا أستعiez بغيرك من غيرك . ولا أستعiez إلا بك من شيء هو صادر عن مشيتك
وخلقك . بل هو منك . ولا أستعiez بغيرك من شيء هو صادر عن مشيتك وقضائك ، بل أنت
الذي تعيذني بمشيئتك مما هو كائن بمشيئتك . فأعوذ بك منك .

ولا يعلم ما في هذه الكلمات — من التوحيد والمعارف والعبودية — إلا الراسخون في العلم
بالله ومعرفته .

وأشرنا إلى شيء يسير من معناها . ولو استقصينا شرحها لقام منه بيغر ضخم . ولكن قد فتح لك الباب . فإن دخلت رأيت مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت . ولا خطر على قلب بشر .
والمقصود : أن أنقسام الكون في أعيانه وصفاته وأفعاله إلى محبوب للرب مرضى له ، ومسوخ مبعوض له ، مكروه له : أمر معلوم بجميع أنواع الأدلة ، من العقل والنقل ، والقطرة والاعتبار . فمن سوى بين ذلك كله فقد خالف فطرة الله التي فطر عليها عباده . وخالف المعقول والمنقول .
ونخرج عما جاءت به الرسل .

ولأى شيء تَوَجَّعَ الله سبحانه العقوبات البليغة في الدنيا والآخرة . وأشهد عباده منها ما أشهدهم ؟ أولا شدة غضبه وسخطه على الفاعلين لما اشتدت كراهته وبغضه له . فأوجبت تلك الكراهة والبغض منه : وقوع أنواع المكار بهم ، كما أن محبة ما يحبه من الأفعال ويرضاه : أوجبت وقوع أنواع المحاب لمن فعلها . وشهود ماني العالم من إكرام أوليائه ، وإتمام نعمه عليهم ، ونصرهم وإعزازهم ، وإهانة أعدائه وعقوبتهم ، وإيقاع المكار بهم : من قُدِّرَ الدليل على حبه وبغضه وكراهته ، بل نفس مولاته لمن والاه ، ومعاداته لمن عاداه : هي عين محبة وبغضه . فإن الموالاة : أصلها الحب . والمعاداة : أصلها البغض . فإنكار صفة «المحبة» والكراهة : إنكار الحقيقة «الموالاة» ، والمعاداة» .

وبالجملة : فشهود القلوب لمحبة وكراهته ، كشهود العيان لكرامته وإهاتته . وأما مسألة «الرضا بالقضاء» فيقال :

أولاً : بأي كتاب ، أم بأي سنة ، أم بأي معقول : علمتم وجوب الرضا بكل ما يقضيه ويقدره ؟ بل بجواز ذلك ، فضلاً عن وجوبه ؟ هذا كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأدلة المعقول ليس في شيء منها الأمر بذلك ، ولا إباحته .

بل من المقتضى ما يرضى به ، ومنه ما يسخطه ويمقت . فلا نرضى بكل قضاء كما لا يرضى به القاضي لأقضيته سبحانه . بل من القضاء ما يسخطه ، كما ان من الأعيان المقتضية : ما يغضب عليه ، ويمقت عليه ، ويلعن ويذم .
ثم يقال : القضاء له وجهان .

أحدهما : تعلقه بالرب تعالى ، ونسبته إليه . فمن هذا الوجه : يرضى به كله .
الوجه الثاني : تعلقه بالعبد ، ونسبته إليه . فمن هذا الوجه : ينقسم إلى ما يرضى به ، وإلى مالا يرضى به .

مثال ذلك : قتل النفس — مثلاً — له اعتباران . فمن حيث إنه قدره الله وقضاه وكتبه وشاءه ، وجعله أجلاً للمقتول ، ونهاية لعمره : يرضى به . ومن حيث إنه صدر من القاتل ، وباشره وكسبه ، وأقدم عليه باختياره ، وعصى الله بفعله : يسخطه ولا يرضى به .

● راقِبْ عملك ... وناقِشْ نفسك

ومن العابدين الأساس توفرت مهمهم على استكثارهم من الحسنات . دون مطالعة عيب النفس والعمل، والتفتيش على دسائسهما . ويحملهم على استكثارها رؤيتها والإعجاب بها؛ ولوتفرغوا لتفتيشها، ومحاسبة النفس عليها، . والتمييز بين مافيهما من الحظ والحق . لتشغلهم ذلك عن استكثارها . ولأجل هذا كان عمل العابد القليل المراقبة لعمله خفيفاً عليه، فيستكثر منه، . ويصير بمنزلة العادة، فإذا أخذ نفسه بتخليصها من الشوائب، وتنقيتها من الكدر، ومافي ذلك من شوك الرياء: وجد لعمله ثقلًا كالجبال وقُلَّ في عينه . ولكن إذا وجد حلاوته سهل عليه حل ثقله، والقيام بأعبائه، والتلذذ والتنعم به مع ثقله .

وإذا أردت فهم هذا القدر كما ينبغي فانظر وقت أخذك في القراءة إذا أعرضت عن واجبها وتديرها وتعتقلها . وفهم ما أريد بكل آية، وحظك من الخطاب بها، وتنزيلها على أدواء قلبك والتقيدها بها، كيف تدرك الختمة . أو أكثرها، أو ما قرأت منها — بسهولة وحقة . مستكثراً من القراءة . فإذا ألزمت نفسك التدبير ومعرفة المراد، والنظر الى ما يخلصك منه والتعبد به، وتنزيل دوائه على أدواء قلبك، والاستشفاء به . لم تكد تحوز السورة أو الآية إلى غيرها . وكذلك إذا جمعت قلبك كله على ركعتين . أعطيتهما ما تقدر عليه من الحضور، والخشوع والمراقبة : لم تكد أن تصل غيرهما إلا بجهد . فإذا خلا القلب من ذلك عددت الركعات بلا حساب . فالاستكثار من الطاعات دون مراعاة آفاتها وعبوبها دليل على قلة الفقه .

وقد يرى فاعلها ان له حقاً على الله في مُجازاته على تلك الحسنات بالجنات والنعيم والرضوان، ولهذا كثرت في عينه مع غفلته عن اعماله، لا يدري انه لن يتجوأحد البتة من النار بعمله، إلا بعفو الله ورحمته .

ولا ريب ان مجرد القيام باعمال الجوارح، من غير حضور ولا مراقبة، ولا إقبال على الله: قليل المنفعة، دنيا وأخرى، كثير المونة . فهو كالعمل على غير متابعة الأمر والإخلاص للمعبود . فإنه — وإن كثر — متعب غير مفيد . فهكذا العمل الخارجى القشورى بمنزلة التخاله كثيرة المنظر قليلة الفائدة . فإن الله لا يكتب للمعبود من صلاته إلا ما عقل منها . وهكذا ينبغي أن يكون سائر الأعمال التى يؤمر بالحضور فيها والخشوع، كالطواف، وأعمال المناسك ونحوها .

ولكن احب العباد الى الله: الذين يستكثرون من الصالحات، مع مراقبة لما، فقد نذب الله تعالى الى ذلك فقال: (١٧:٥١، ١٨) كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون . وبالأسحارهم يستغفرون) قال الحسن: مدوا الصلاة إلى السحر . ثم جلسوا يستغفرون . وقال النبى صلى الله

عليه وسلم «تابعوا بين الحج والعمرة. فإنهما ينفيان الفقر والذنوب، كما ينفي الكبر خَبَثَ الحديد» وقال لمن سأله أن يوصيه بشيء يثبث به «لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله».

والدين كله استكثار من الطاعات ، وأحب خلق الله إليه : أعظمهم استكثاراً منها .
وفي الحديث الصحيح الإلهي «مَاتَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ . وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أَحِبَّهُ . فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يَبْصُرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا . فَبِمَا يَسْمَعُ . وَبِمَا يَبْصُرُ . وَبِمَا يَبْطِشُ . وَبِمَا يَمْشِي . وَلَنْ سَأَلَنِي لِأَعْظِيَّتِهِ وَلَنْ اسْتَعَاذَنِي لِأَعْيِدَنِهِ» .
فهذا جزاءه وكرامته للمستكثرين من طاعته .

● صغيرة المؤمن ... كبيرة

وأيضاً : فإن استقلال المعصية ذنب ، كما أن استكثار الطاعة ذنب والعارف من صفرت حسناته في عينه . وعظمت ذنوبه عنده . وكلما صفرت الحسنات في عينك كبرت عند الله . وكلما كبرت وعظمت في قلبك قلت وصرفت عند الله . وسيتأكد بالمعكس . ومن عرف الله وحقه وما ينبغي لمظلمته من العبودية : تلاشت حسناته عنده . وصرفت جداً في عينه . وعلم أنها ليست مما ينجوها من عذابه . وأن الذي يليق بعزته ، ويصلح له من العبودية : أمر آخر . وكلما استكثر منها استقلها واستصغرها . لأنه كلما استكثر منها فتحت له أبواب المعرفة بالله والقرب منه . فشاهد قلبه من عظمت سبحانه وجلاله ما يستصغرمه جميع أعماله . ولو كانت أعمال الثقلين . وإذا كثرت في عينه وعظمت دل على أنه محجوب عن الله ، غير عارف به وما ينبغي له . وبحسب هذه المعرفة ومعرفة بنفسه يستكثر ذنوبه . وتعظم في عينه . لمشاهدته الحق ومستحقته . وتقديره في القيام به . وإيقاعه على الوجه اللائق الموافق لما يحبه الرب ويرضاه من كل وجه .

● الوقوف ... رجوع

وتوبة الخواص تكون من تضييع الوقت في لغو أو لهو ، فانه يُفْضَى إلى درك النقيصة ، ويطفئ نور المراقبة ، وأما الحافظ لوقته فهو مترق على درجات الكمال . فإذا أضاعه لم يقب موضعه ، بل ينزل إلى درجات من النقص . فإن لم يكن في تقدم فهو متأخر ولا بد . فالعبد سائر لا واقف . فإما إلى فوق . وإما إلى أسفل . إما إلى أمام وإما إلى وراء . وليس في الطبيعة ، ولا في

الشريعة وقوف ألبتة. ما هو إلا مراحل تطوى أسرع على إلى الجنة أو إلى النار، فمسرّع ومبسط. ومتقدم ومتأخر. وليس في الطريق واقف ألبتة. وإنما يتخالفون في جهة السير. وفي السرعة والببطء (٣٧:٧٤) إنها لا تحدى الكبر نذيراً للبشر. لمن شاء منهم أن يتقدم أو يتأخر. ولم يذكر واقفاً. إذ لا منزل بين الجنة والنار. ولا طريق لسالك إلى غير الدارين ألبتة. فمن لم يتقدم إلى هذه الأعمال الصالحة فهو متأخر إلى تلك بالأعمال السيئة.

فإن قلت: كل مجد في طلب شيء لا بد أن يعرض له وقفة وفتر. ثم ينهض إلى طلبه. قلت: لا بد من ذلك. ولكن صاحب الوقفة له حالان: إما أن يقف ليحجم نفسه، ويعدّها للسير. فهذا وقفته سير. ولا تضره الوقفة. فإن «لكل عمل شرة... ولكل شرة فترة».

وإما أن يقف لداع دعاه من ورائه، وجاذب جذبه من خلفه. فإن أجابه أخره ولا بد. فإن تداركه الله برحمته، وأطلعه على سبق الركب له وعلى تأخره، نهض نهضة الغضبان الأسف على الانقطاع. ووثب واشتد سعياً ليلحق الركب. وإن استمرع داعي التأخر، وأصغى إليه لم يرض برده إلى حالته الأولى من الغفلة، وإجابة داعي الهوى، حتى يرده إلى أسوأ منها وأنزل دَرَكَاً. وهو بمنزلة النكسة الشديدة عقيب الإبلال من المرض. فإنها أخطر منه وأصعب.

وبالجملة: فإن تدارك الله سبحانه وتعالى هذا العبد بجذبة منه من يد عدوه، وتغلبه. وإلا فهو في تأخر إلى الممات. واجع القهقري ناكس على عقبيه، أو مؤلّ ظهره. ولا قوة إلا بالله. والمعصوم من عصمه الله.

وفوق هذا مقام آخر من التوبة، أنفع منه وأخص. لا يعرفه إلا الخواص المحبون، الذين يستقبلون في حق محبوبهم جميع أعمالهم وأقوالهم، فلا يرونها قط إلا بعين النقص والإرراء عليها، ويرون شأن محبوبهم أعظم، وقدره أعلى من أن يرضوا أنفسهم وأعمالهم له. فهم أشد شيء احتقاراً لها وإزراء عليها. وإذا غفلوا عن مراد محبوبهم منهم، ولم يوفوه حقه، تابوا إليه من ذلك توبة أرباب الكيثر منها. فالتوبة لا تفارقهم أبداً. وتوبتهم لون وتوبة غيرهم لون (٢٦:١٢) وفوق كل ذي علم عليم) وكلما ازدادوا حباً له ازدادوا معرفة بحقه، وشهوداً لتقصيرهم. فغطمت لذلك توبتهم. ولذلك كان خوفهم أشد. وإزراءهم على أنفسهم أعظم. وما يتوب منه هؤلاء قد يكون من كبار حسنات غيرهم.

مِنْ أَحْكَامِ التَّوْبَةِ

ونذكر نبذاً تتعلق بأحكام التوبة، تشتد الحاجة إليها . ولا يليق بالعبد جهلها .
منها : أن المبادرة إلى التوبة من الذنب فرض على الفور . ولا يجوز تأخيرها . فمتى أخرها
عصى بالتأخير . فإذا تاب من الذنب بقى عليه توبة أخرى . وهي توبته من تأخير التوبة . وقُلْ أن
تخطر هذه ببال التائب . بل عنده : أنه إذا تاب من الذنب لم يبق عليه شيء آخر . وقد بقى عليه
التوبة من تأخير التوبة . ولا ينجى من هذا إلا توبة عامة . مما يعلم من ذنوبه ومما لا يعلم . فإن
مالاً يعلمه العبد من ذنوبه أكثر مما يعلمه . ولا ينفعه في عدم الموازنة بها جهله إذا كان متمكناً
من العلم . فإنه عاص بترك العلم والعمل . فالمصيبة في حقه أشد . وفي صحيح ابن حبان : أن
النبي صلى الله عليه وسلم قال «الشرك في هذه الأمة أخفى من ديب النمل . فقال أبو
يكر: فكيف الخلاص منه يا رسول الله؟ قال: أن تقول: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك
بك وأنا أعلم . وأستغفرك لما لا أعلم» .

فهذا طلب الاستقار مما يعلمه الله أنه ذنب . ولا يعلمه العبد .
وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم «أنه كان يدعو في صلاته: اللهم اغفر لي
خطيئتي وجهلي . وإسرافي في أمري . وما أنت أعلم به مني . اللهم اغفر لي جدي وقزلي .
وخطأي وعمدي . وكل ذلك عندي . اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت . وما أسررت وما
أعلنت . وما أنت أعلم به مني . أنت إلهي لا إله إلا أنت» .
وفي الحديث الآخر «اللهم اغفر لي ذنبي كله . دقة وجله . غطاء وعمده . سره
وعلايته . أوله وآخره» .
فهذا التعميم وهذا الشمول لتأتي التوبة على ما علمه العبد من ذنوبه وما لم يعلمه .

• التوبة مُتَجَدِّدَةٌ أَبَدًا

ومن أحكام «التوبة» أنه : هل يشترط في صحتها أن لا يعود إلى الذنب أبداً . أم ليس ذلك
بشرط ؟ .
فشرط بعض الناس : عدم معاودة الذنب . وقال : متى عاد إليه تبين أن التوبة كانت باطلة
غير صحيحة .
والأكثرون على أن ذلك ليس بشرط . وإنما صحة التوبة تتوقف على الإقلاع عن الذنب .
والندم عليه . والعزم الجازم على ترك معاودته .

فإن كانت في حق آدمي : فهل يشترط تحمله ؟ فيه تفصيل — منذ كره إن شاء الله — فإذا عاوده ، مع عزمه حال التوبة على أن لا يعاوده . صار كمن ابتداء المعصية ، ولم تبطل توبته المتقدمة .

والسألة مبنية على أصل . وهو : أن العبد إذا تاب من الذنب ثم عاوده ، فهل يعود إليه إثم الذنب الذي قد تاب منه ثم عاوده ، بحيث يستحق العقوبة على الأول والآخر ، إن مات مصراً ؟ أو إن ذلك قد بطل بالكلية . فلا يعود إليه إثم . وإنما يعاقب على هذا الأخير ؟ وفي هذا الأصل قولان :

فأقول طائفة : يعود إليه إثم الذنب الأول : لفساد التوبة ، وبطلانها بالمعاودة . قالوا : لأن التوبة من الذنب بمنزلة الإسلام من الكفر . والكافر إذا أسلم هدم إسلامه ما قبله من إثم الكفر وتوابعه . فإذا ارتد عاد إليه الإثم الأول مع إثم الردة . كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية . ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر » فهذا حال من أسلم وأساء في إسلامه . ومعلوم أن الردة من أعظم الإساءة في الإسلام . فإذا أخذ بعدها بما كان منه في حال كفره . ولم يقطعه الإسلام المتخلل بينهما . فهكذا التوبة المتخللة بين الذنوب لا تسقط الإثم السابق ، كما لا تنفع الإثم اللاحق .

قالوا : ولأن صحة التوبة مشروطة باستمرارها ، والموافقة عليها ، والمعلق على الشرط يعدم عند عدم الشرط . كما أن صحة الإسلام مشروطة باستمراره والموافقة عليه . قالوا : والتوبة واجبة وجوباً مضيئاً مدى العمر . ففرقتها مدة العمر . إذ يجب عليه استصحاب حكمها في مدة عمره . فهي بالنسبة إلى العمر كالإمسك عن المفطرات في صوم اليوم . فإذا أمسك معظم النهار ، ثم نقض إمساكه بالمفطرات : بطل ما تقدم من صيامه . ولم يعتد به . وكان بمنزلة من لم يمسك شيئاً من يومه .

قالوا : ويدل على هذا : الحديث الصحيح . وهو قوله صلى الله عليه وسلم « إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها » وهذا أعم من أن يكون هذا العمل الثاني كفراً موجباً للخلود ، أو معصية موجبة للدخول . فإنه لم يقل « فيرتد فيفارق الإسلام » وإنما أخبر : أنه يعمل بعمل يوجب له النار . وفي بعض السنن « إن العبد ليعمل بطاعة الله ستين سنة . فإذا كان عند الموت جاراً في وصيته فدخل النار » فالخاتمة السيئة أعم من أن تكون خاتمة بكفر أو بمعصية والأعمال بالخواصم .

فإن قيل : فهذا يلزم منه إحياء الحسنات بالسيئات . وهذا قول المعتزلة . والقرآن والسنة قد

دلا على أن الحسنات هي التي تحبط السيئات لا العكس. كما قال (١١: ١١٤) إن الحسنات يَذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ وقال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ «أتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخُلُقٍ حسن».

قيل : والقرآن والسنة قد دلا على الموازنة. وإحباط الحسنات بالسيئات فلا يضرب كتاب الله بعضه ببعض. ولا يرد القرآن بمجرد كون المعتزلة قالوه — فقل أهل الهوى والتعصب — بل نقبل الحق من قاله. ونرد الباطل على من قاله.

فأما الموازنة : فمذكورة في سورة الأعراف (٧: ٨، ٩) والأنبياء (٢١: ٤٧) والمؤمنون (٢٣: ١٠١ — ١١١) والقارة، والحاقة (٦٩: ١١ — ٣٧).

وأما الإحباط : فقد قال الله تعالى (٤٧: ٢٣) يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم) وتفسير الإبطال هاهنا بالردة. لأنها أعظم المبطلات ، لا لأن المبطل ينحصر فيها . وقال تعالى (٢: ٢٦٤) يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمال والأذى) فهذان سببان غرضاً بعد للصدقة فأبطلها. شبه سبحانه بطلانها — بالمال والأذى — بحال المتصدق رياء في بطلان صدقة كل واحد منهما. وقال تعالى (٤٩: ٢) يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي. ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض : أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله» وقالت عائشة رضي الله عنها، لأُم ولد زيد بن أرقم — وقد باع بيع الغينة — «أخبري زيداً: أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ إلا أن يتوب» وقد نص أحد عل هذا في رواية ، فقال : ينبغي للعبد أن يتزوج إذا خاف على نفسه. فيستدين ويتزوج ، لا يقع في محذور فيحبط عمله.

فإذا استقرت قاعدة الشريعة — أن من السيئات ما يحبط الحسنات بالإجماع ومنها ما يحبطها بالنص — جاز أن تحبط سيئة المعاودة حسنة التوبة. فتصير التوبة كأنها لم تكن. فيلتي العملان ولا حاجز بينهما. فيكون التأثير لهما جميعاً.

قالوا : وقد دل القرآن ، والسنة ، وإجماع السلف على الموازنة . وفانتهت : اعتبار الراجح . فيكون التأثير والعمل له دون المرجوح . قال ابن مسعود «يُحَاسِبُ الناس يوم القيامة . فمن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار . ومن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة . ثم قرأ (٧: ٨ ، ٩) فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خففت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم) ثم قال «إن الميزان يخف بمقال حبة أو يرجع».

واحتج الفريق الآخر — وهم القائلون بأنه لا يعود إليه إثم الذنب الذي تاب منه بنقض التوبة — بأن ذلك الإثم قد ارتفع بالتوبة. وصار بمنزلة ما لم يعمل. وكأنه لم يكن. فلا يعود

إليه بعد ذلك، وإنما العائد إثم المستأنف لا الماضي.

قالوا: فلا يشترط في صحة التوبة العصمة إلى المات، بل إذا ندم وأقنع وعزم على الترك: مَحَى عنه إثم الذنب بمجرد ذلك. فإذا استأنفه استأنف إثم.

قالوا: فليس هذا كالكفر الذي يحبط الأعمال. فإن الكفر له شأن آخر. ولهذا يحبط جميع الحسنات. ومعاودة الذنب لا تحبط ما تقدمه من الحسنات.

قالوا: والتوبة من أكبر الحسنات. فلو أبطلتها معاودة الذنب: لأبطلت غيرها من الحسنات. وهذا باطل قطعاً. وهو يشبه مذهب الخوارج المكفرين بالذنب. والمعتزلة المخلدّين في النار بالكبيرة، التي تقدمها الإلوف من الحسنات. فإن الفريقين متفقان على خلود أرباب الكبائر في النار. ولكن الخوارج كفروهم، والمعتزلة فسقوهم. وكلا المذهبين باطل في دين الإسلام. مخالف للمقول والمقول وموجب العدل (٤: ٤٠) إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ. وَإِنْ تَكْ حَسَنَةٌ يضاعفها. وَيُؤْتِي مَنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا.

قالوا: وقد ذكر الإمام أحمد في مسنده مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ الْمُفْتَئِنَ التَّوَابَ».

قلت: وهو الذي كلما فتن بالذنب تاب منه. فلو كانت معاودته تبطل توبته لما كان محبوباً للرب، ولكان ذلك أدعى إلى مقتته.

قالوا: وقد علق الله سبحانه قبول التوبة بالاستغفار وعدم الإصرار دون المعاودة، فقال تعالى (٣: ١٣٥) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ. وَمَنْ يَغْفِرَ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ؟ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ) والإصرار: عَقْد القلب على ارتكاب الذنب متى ظفريه. فهذا الذي يمنع مغفرته.

قالوا: وأما استمرار التوبة: فشرط في صحة كمالها ونفعها. لاشترط في صحة ماضى منها. وليس كذلك العبادات، كصيام اليوم، وعدد ركعات الصلاة. فإن تلك عبادة واحدة. لا تكون مقبولة إلا بالإتيان بجميع أركانها وأجزائها. وأما التوبة: فهي عبادات متعددة بتعدد الذنوب. فكل ذنب له توبة تخصه. فإذا أتى بعبادة وترك أخرى، لم يكن مترك موجباً لبطلان ما فعل. كما تقدم تقريره.

بل نظير هذا: أن يصوم من رمضان و يفطر منه بلا عذر. فهل يكون ما أفطره منه مبطلاً لأجر ما صامه منه؟.

بل نظير من صلى ولم يصم. أو زكى ولم يحج.

ونكتة المسألة: أن التوبة المتقدمة حسنة، ومعاودة الذنب سيئة. فلا تبطل معاودته هذه الحسنة، كما لا تبطل ما قارنها من الحسنات.

قالوا: وهذا على أصول أهل السنة أظهر. فإنهم متفقون على أن الشخص الواحد يكون فيه ولاية لله وعداوة من وجهين مختلفين. ويكون محبوباً لله مبغوضاً له من وجهين أيضاً. بل يكون فيه إيمان ونفاق، وإيمان وكفر. ويكون إلى أحدهما أقرب منه إلى الآخر. فيكون من أهله. كما قال تعالى (١٦٧:٣) هم للكافرين مثله أقرب منهم للإيمان) وقال (١٠٦:١٢) وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) أثبت لهم الإيمان به، مع مقارنة الشرك. فإن كان مع هذا الشرك تكذيب لرسله لم ينفعهم ما معهم من الإيمان بالله. وإن كان معه تصديق لرسله، وهم مرتكبون لأنواع من الشرك لا تخرجهم عن الإيمان بالرسول وباليوم الآخر. فهؤلاء مستحقون للوعد أعظم من استحقاق أرباب الكيائر.

وشركهم قسمان: شرك خفي. وشرك جلي. فالخفي قد يغفر. وأما الجلي فلا يغفره الله إلا بالتوبة منه. فإن الله لا يعترف أن يشرك به.

وبهذا الأصل أثبت أهل السنة دخول أهل الكيائر النار، ثم خروجهم منها ودخولهم الجنة. لما قام بهم من السببين.

فإذا ثبت هذا، فمعاود الذنب: ميقوض لله من جهة معاودة الذنب، محبوب له من جهة توبته وحسناته السابقة. فيرتب الله سبحانه على كل سبب اثره ومسببه بالعدل والحكمة. ولا يظلم مثقال ذرة (٤٦:٤١) وما ربك بظلام للعبيد).

● تحسن الخاتمة بحفظ ذخيرة العمر

وإذا استغرقت سيئاته الحديثات حسناته القديمات وأبطلتها. ثم تاب منها توبة نصوحاً خالصة: عادت إليه حسناته. ولم يكن حكمه حكم المستأنف لها. بل يقال له: ثبت على ما أسلفت من خير. فالحسنات التي فعلتها في الإسلام أعظم من الحسنات التي فعلها الكافر في كفره: من عتاقة، وصدقة، وصلة. وقد قال حكيم بن حزام «يا رسول الله، أرايت عتاقة أعتقتها في الجاهلية، وصدقة تصدقت بها، وصلة وصلت بها رحي. فهل لي فيها من أجر؟ فقال: أسلمت على ما أسلفت من خير»، وذلك لأن الاساءة المتخللة بين الطاعتين قد ارتفعت بالتوبة. وصارت كأنها لم تكن. فتلاقت الطاعتان واجتمعتا. والله أعلم.

● توبة القلب تامة

ومن أحكامها: أن العاصي إذا حيل بينه وبين أسباب المعصية، وعجز عنها. بحيث يتمذر

وقرعها منه، هل تصح توبته؟ وهذا كالكاذب والقاذف، وشاهد الزور إذا طُلع لسانه، والزاني إذا جُبَّ، والسارق إذا أُلِّى على أطرافه الأربعة، والمزور إذا قُطعت يده. ومن وصل إلى حد بطلت معه دواعيه إلى معصية كان يرتكبها.

الأظهر: أن توبته صحيحة ممكنة. بل واقعة. فإن أركان التوبة مجتمعة فيه. والمقدور له منها الندم. وفي المسند مرفوعاً «الندم توبة» فإذا تحقق ندمه على الذنب ولو به نفسه عليه. فهذه توبة. وكيف يصح أن تسلب التوبة عنه، مع شدة ندمه على الذنب، ولو به نفسه عليه؟ ولا سيما ما يتبع ذلك من بكائه وحزنه وخوفه، وعزمه الجازم، ونيتة أنه لو كان صحيحاً والفعل مقدوراً له لما فعله.

وإذا كان الشارع قد نَزَلَ العاجز عن الطاعة منزلة الفاعل لها، إذا صحت نيته. كقوله في الحديث الصحيح «إذا مرض العبد أو سافر كتب له ما كان يعمل صحيحاً مقيماً» وفي الصحيح أيضاً عنه «إن بالمدينة أقواماً ما سرتهم سيرة، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم. قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: وهم بالمدينة. حبسهم العذر» وله نظائر في الحديث. فتزيل العاجز عن المعصية، التارك لها قهراً — مع نيته تركها اختياراً لو أمكنه — منزلة التارك المختار أولى.

● نتحلل الذي ظلمناه

ومن أحكامها: أنها إذا كانت متضمنة لحق آدمي: أن يخرج النائب إليه منه، إما بأدائه وإما باستحلاله منه بعد إعلامه به. وإن كان حقاً مالياً أو جنائياً على بدنه أو بدن موروثة. كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «من كان لأخيه عنده مظلمة من مال أو عرش، فليتحلله اليوم، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إلا الحسنات والسيئات».

وإن كانت المظلمة بقدر فيه، بغية أو قذف: فهل يشترط في توبته منها إعلامه بذلك بعينه التحلل منه؟ أو إعلامه بأنه قد نال من عرضه، ولا يشترط تعيينه، أو لا يشترط لاهذا ولا هذا، يكتفى في توبته أن يتوب بيته وبين الله من غير إعلام من قذفه واعتابه؟

على ثلاثة أقوال. وعن أحمد روايتان منصوصتان في حد القذف، هل يشترط في توبة قاذف: إعلام المَقْدُوف، والتحلل منه أم لا؟ ويخرج عليهما توبة المقتاب والشاتم. والمعروف في مذهب الشافعي، وأبي حنيفة، ومالك: اشتراط الإعلام والتحلل. هكذا كره أصحابهم في كتبهم.

والذين اشتروا ذلك احتجوا بأن الذنب حق آدمي: فلا يسقط إلا بإحلاله منه وإبرائه.

ثم من لم يصحح البراءة من الحق المجهول شرط إعلامه بعينه . لاسيما إذا كان من عليه الحق عارفا بقدره . فلا بد من إعلام مستحقه به . لأنه قد لا تسمح نفسه بالإبراء منه إذا عرف قدره .

واحتجوا بالحديث المذكور . وهو قوله صلى الله عليه وسلم (من كان لأخيه عنده مظلمة — من مال أو عرض — فليتحللها اليوم) .

قالوا: ولأن في هذه الجناية حقين: حقاً لله، وحقاً للآدمي . فالتوبة منها بتحلل الآدمي لأجل حقه، والندم فيما بينه وبين الله لأجل حقه .
قالوا: ولهذا كانت توبة القاتل لا تتم إلا بتمكين ولي الدم من نفسه، إن شاء اتصص وإن شاء عفا . وكذلك توبة قاطع الطريق .

والقول الآخر: أنه لا يشترط الإعلام بما نال من عرضه وقذفه واغتياؤه، بل يكفي توبته بينه وبين الله . وأن يذكر الغشاب والمقذوف في مواضع غيبته وقذفه ضد ما ذكره به من الغيبة . فيبذل غيبته بدمه والثناء عليه، وذكر عاصته، وقذفه بذكر عفته وإحصائه . ويستغفر له بقدر ما اغتياه .

وهذا اختيار شيخنا أبي العباس ابن تيمية . قدس الله روحه .
واحتج أصحاب هذه المقالة بأن إعلامه مفسدة محضة، لا تتضمن مصلحة . فإنه لا يزيده إلا أذى وحسناً وغماً، وقد كان مستريحاً قبل سماعه . فإذا سمعه ربما لم يصبر على حمله، وأورثته ضرراً في نفسه أو بدنه، كما قال الشاعر:

فإن الذي يؤذيكَ منه سماعه وإن الذي قالوا وراكَ لم يُقل

وما كان هكذا فإن الشارع لا يبيحه . فضلاً عن أن يوجبه ويأمر به .
قالوا: وربما كان إعلامه به سبباً للعداوة والحرب بينه وبين القاتل . فلا يصفو له أبداً . و يورثه علمه به عداوة وبغضاء مؤلدة لشر أكبر من شر الغيبة والقذف . وهذا ضد مقصود الشارع من تأليف القلوب، والتراحم والتعاطف والتحاب .

قالوا: والفرق بين ذلك وبين الحقوق المالية وجنابات الأبدان من وجهين .
أحدهما: أنه قد ينتفع بها إذا رجعت إليه . فلا يجوز إخفاؤها عنه . فإنه محض حقه . فيجب عليه أداؤه إليه . بخلاف الغيبة والقذف . فإنه ليس هناك شيء ينفعه يؤديه إليه إلا إضراره وتهيجه فقط . فقياس أحدهما على الآخر من أفسد القياس .

والثاني: أنه إذا أعلمه بها لم تؤذ، ولم تُهج منه غضباً ولا عداوة . بل ربما سره ذلك وفرح به . بخلاف إعلامه بما تزق به عرضه طول عمره ليلاً ونهاراً، من أنواع القذف والغبية والهجو . فاعتبار أحدهما بالآخر اعتبار فاسد . وهذا هو الصحيح في القولين كما رأيت . والله أعلم .

● اذا نزل بالذنب : صعد بالتوبة

ومن احكامها: أن العبد إذا تاب من الذنب: فهل يرجع إلى ما كان عليه قبل الذنب من الدرجة التي حطه عنها الذنب، أو لا يرجع إليها؟ الصحيح: أن من التائبين من لا يعود إلى درجته. ومنهم من يعود إليها. ومنهم من يعود إلى أعلى منها، فيصير خيراً مما كان قبل الذنب. وهذا بحسب حال التائب بعد توبته، وجده وعزمه. وحذره وتشميره فإن كان ذلك أعظم مما كان له قبل الذنب عاد خيراً مما كان وأعلى درجة. فإن كان مثله عاد إلى مثل حاله. وإن كان دونه لم يعد إلى درجته. وكان متحطاً عنها.

ويتبين هذا بمثلين مضروبين.

أحدهما: رجل مسافر سائر على الطريق بطمأنينة وأمن. فهو يعمد مرة وعشى أخرى، ويستريح تارة وينام أخرى. فيبينا هو كذلك إذ عرض له في سيره ظل ظليل، وماء بارد وتقليل، وروضة مزهرة. فغدخته نفسه إلى النزول على تلك الأماكن، فنزل عليها. فوثب عليه منها عدو، فأخذه وقيده. وكفه ومنعه عن السير. فهاين الهلاك. وظن أنه منقطع به، وأنه رزق الوحوش والسباع. وأنه قد حيل بينه وبين مقصده الذي يؤمه. فيبينا هو على ذلك تتقاذفه الطنون، إذ وقف على رأسه والده الشفيق القادر. فحلّ كفافه وقيده. وقال له: اركب الطريق واحذر هذا العدو. فإنه على منازل الطريق لك بالمرصاد. واعلم أنك مادمت حاذراً منه، متيقظاً له لا يقدر عليك. فإذا غفلت وثب عليك. وأنا متقدمك إلى المنزل، وفرط لك فاتبعني على الأثر.

فإذا كان هذا السائر كئيباً فطناً لييباً، حاضر الذهن والمقل، استقبل سيره استقبالا آخر، أقوى من الأول وأتم. واشتد حذره. وتأهب لهذا العدو. وأعد له عدته. فكان سيره الثاني أقوى من الأول، وخيراً منه. ووصله إلى المنزل أسرع. وإن غفل عن عدوه وعاد إلى مثل حاله الأول. من غير زيادة ولا نقصان ولا قوة حذرو ولا استعداد، عاد كما كان. وهو معرض لما عرض له أولاً.

وإن أورشه ذلك توانياً في سيره وفترراً، وتذكراً لطيب بقله، وحسن ذلك الروض وعذوبة مائه، وتفيؤ ظلاله، وسكوناً بقله إليه. لم يعد إلى مثل سيره ونقص عما كان.

المثل الثاني: عبد في صحة وعافية جسم، عرض له مرض أوجب له جثية وشرب دواء وتخفيفاً من التخليط. ونقص بذلك مادة ردية كانت متعصبة لكمال قوته وصحته. فعاد بعد المرض أقوى مما كان قبله، كما قيل:

لعل عتبك عمود عواقبه وربما صححت الأجسام بالعمال
وإن أوجب له ذلك المرض ضعفاً في القوة، وتداركه بثل ما نقص من قوته. عاد إلى مثل ما

كان.

وإن تداركه بدون ما نقص من قوته ، عاد إلى دون ما كان عليه من القوة.

وفي هذين المثلين كفاية لمن تدبرهما.

وقد ضرب لذلك مثل آخر برجل خرج من بيته يريد الصلاة في الصف الأول . لا يلبس على شيء في طريقه . فعرض له رجل من خلفه تجبذ ثوبه وأوقفه قليلاً . يريد تعويقه عن الصلاة . فله معه حالان.

أحدهما : أن يشتغل به حتى تفوته الصلاة . فهذه حال غير الطالب .

الثاني : أن يجاذبه على نفسه ، ويضلل منه ، فتلا تفوته الصلاة .

ثم له بعد هذا الضلل ثلاثة أحوال .

أحدها : أن يكون سيره تجزأاً ووثباً ، ليستدرك ما فاتته بتلك الوقفة . فرما استدركه وزاد عليه .

الثاني : أن يعود إلى مثل سيره .

الثالث : أن تورث تلك الوقفة فتوراً وتهاوناً . فيفوته فضيلة الصف الأول ، أو فضيلة الجماعة

وأول الوقت . فهكذا حال التائبين السائرين سواء .

مفصلة

و يتبين هذا بمسألة شريفة . وهى أنه : هل المطيع الذى لم يتعص خير من العاصى الذى تاب إلى الله توبة نصوحاً ، أو هذا التائب أفضل منه ؟
اختلف في ذلك .

• جمال البراءة

فطائفة رجحت من لم يعص على من عصى وتاب توبة نصوحاً . واحتجوا بوجوه .
أحدها : أن أكمل الخلق وأفضلهم : أطوعهم لله . وهذا الذى لم يعص أطوع . فيكون أفضل .

الثانى : أن في زمن اشتغال العاصى بمعصيته يسبقه المطيع عدة مراحل إلى فوق . فتكون درجته أعلى من درجته . وغايته : أنه إذا تاب استقبل سيره ليحقه . وذلك في سر آخر فأنى له بلحاظه ؟ فهما بمنزلة رجلين مشتركين في الكسب ، كلما كسب أحدهما شيئاً كسب الآخر مثله . فعمد أحدهما إلى كسبه فأضاعه ، وأمسك عن الكسب المستأنف . والآخر مُجِدُّ في الكسب . فإذا أدركته حمية المنافسة ، وعاد إلى الكسب : وجد صاحبه قد كسب في تلك المدة شيئاً كثيراً . فلا يكسب شيئاً إلا كسب صاحبه نظيره . فأنى له بمساواته ؟ .

الثالث : أن غاية التوبة : أن تمحو عن هذائياته ، ويصير بمنزلة من لم يعملها . فيكون سعيه في مدة المعصية لاله ولا عليه . فأين هذا السعى من سعى من هو كاسب رابع ؟ .

الرابع : أن الله يمقت على معاصيه ومخالفة أوامره . ففى مده اشتغال هذا بالذنوب : كان حفظه المقت ، وحظ المطيع الرضا . فالله لم يزل عنه راضياً . ولا ريب أن هذا خير من كان الله راضياً عنه ثم مقته ، ثم رضى عنه ، فإن الرضا المستمر خير من الذى تخلله المقت .

الخامس : أن الذنب بمنزلة شرب السم . والتوبة ترياقه ودواؤه ، والطاعة هى الصحة والعافية ، وصحة وعافية مستمرة ، خير من صحة تخللها مرض وشرب سم أفاق منه . وربما أديا به إلى التلف أو المرض أبداً .

السادس : أن العاصى على خطر شديد . فإنه دائرين ثلاثة . أشياء . أحدها : العطب والهلاك بشرب السم . الثانى : النقصان من القوة وضعفها ، إن سلم من الهلاك . والثالث : عود قوته إليه كما كانت أو خيراً منها بعيده .

والأكثر إنما هو التسمان الأ ولان . ولعل الثالث نادر جداً . فهو على يقين من ضرر السم ، وعلى رجاء من حصول العافية ، بخلاف من لم يتناول ذلك .

السابع : أن المطيع قد أحاط على بستان طاعته حائطا حصيناً ، لا يجد الأعداء إليه سبيلاً . فشمركه وزهرته وخضرته وبهجته في زيادة وفور أبداً . والعاصي قد فتح فيه ثغراً ، وتلثم فيه ثلماً . ويمكن منه السراق والأعداء . فدخلوا فعاثوا فيه يمينا وشمالاً : أفسدوا أغصانه ، وخرّبوا حيطانه . وقطّعوا شمراته ، وأحرقوا في نواحيه . وقطعوا ماءه . ونقصوا سقيه . فمتى يرجع هذا إلى حاله الأول ؟ فإذا تداركه قيمه ولم شفته ، وأصلح ما فسد منه ، وفتح طرق مائه ، وعمر ما خرب منه ، فإنه إما أن يعود كما كان ، أو أنقص ، أو خيراً . ولكن لا يلحق بستان صاحبه الذي لم يزل على نصارته وحسنه . بل في زيادة ونمو ، وتضاعف ثمرة ، وكثرة غرس .

الثامن : أن طمع العدو في هذا العاصي إما كان لضعف علمه وضعف عزيمته . ولذلك يسمى جاهلاً . قال قتادة : أجمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن كل ما غشى الله به فهو جهالة . وكذلك قال الله تعالى في حق آدم (١١٥ : ٢٠) ولم نجد له عزماً) وقال في حق غيره (٣٥ : ٤٦) فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) وأما من قويت عزيمته ، وكمل علمه ، وقوى إيمانه : لم يطمع فيه عدوه . وكان أفضل .

التاسع : أن المعصية لا بد أن تؤثر أثراً سيئاً ولا بد : إما هلاكاً كلياً . وإما خسراناً وعقاباً ، يعقبه : إما عفو ودخول الجنة ، وإما نقص درجة ، وإما خود مصباح الإيمان . وعمل الثابت في رفع هذه الآثار والتكفين وعمل المطيع في الزيادة ، ورفع الدرجات .

ولهذا كان قيام الليل نافذة للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة . فإنه يعمل في زيادة الدرجات ، وغيره يعمل في تكثير السيئات . وأين هذا من هذا ؟

العاشر : أن المقبل على الله المطيع له يسير بجملته أعماله . وكلما زادت طاعته وأعماله ازداد كسبه بها وعظم . وهو بمنزلة من سافر فكسب عشرة أضعاف رأس ماله . فسافر ثانياً برأس ماله الأول وكسبه . فكسب عشرة أضعافه أيضاً . فسافر ثالثاً أيضاً بهذا المال كله . وكان ربحه كذلك ، وهلم جرا . فإذا فتر عن السفر في آخر أمره ، مرة واحدة فاته من الربح بقدر جميع ما ربح أو أكثر منه . وهذا معنى قول الجنيد رحمه الله « لو أقبل صادق على الله ألف عام ثم أعرض عنه لحظة واحدة كان ما فاته أكثر مما ناله » وهو صحيح بهذا المعنى . فإنه قد فاته في مدة الاعراض ربح تلك الأعمال كلها . وهو أزيد من الربح المتقدم . فإذا كان هذا حال من أعرض ، فكيف من عصى وأذنّب ؟ وفي هذا الوجه كفاية .

● وللمستدرك جال . . . أيضاً .

وطائفة رجعت الثابت ، وإن لم تنكر كون الأول أكثر حسناً منه . واحتجت بوجوه .

أحدها: أن عبودية التوبة من أحب العبوديات إلى الله، وأكرمها عليه. فإنه سبحانه يحب التوابين. ولو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه، لما ابتلى بالذنوب أكرم الخلق عليه. فلمحبته لتوبة عبده ابتلاء بالذنوب الذي يوجب وقوع محبوبه من التوبة وزيادة حبه لعبده، فإن للتائبين عنده محبة خاصة. يوضح ذلك:

الوجه الثاني: أن للتوبة عنده سبحانه منزلة ليست لغيرها من الطاعات. ولهذا يفرح سبحانه بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرح يقدر، كما مثله النبي صلى الله عليه وسلم بفرح الواحد لراحته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض اللوثة المهلكة، بعد ما فقدتها، وأيسر من أسباب الحياة. ولم يحى هذا الفرح في شيء من الطاعات سوى التوبة. ومعلوم أن لهذا الفرح تأثيراً عظيماً في حال التائب وقلبه، ومزيده لا يعب عنه. وهومن أسرار تقدير الذنوب على العباد. فإن العبد ينال بالتوبة درجة المحبوبة. فيصير محبوباً لله. فإن الله يحب التوابين ويحب العبد المغتفر التواب. ويوضحه:

الوجه الثالث: أن عبودية التوبة فيها من الذل والانكسار، والخضوع، والتعلق لله، والتذلل له، ما هو أحب إليه من كثير من الأعمال الظاهرة. وإن زادت في القدر والكمية على عبودية التوبة. فإن الذل والانكسار روح العبودية، وشأنها ولبها. يوضحه:

الوجه الرابع: أن حصول مراتب الذل والانكسار للتائب أكمل منها لغيره. فإنه قد شارك من سُم يذنب في ذل الفقر، والعبودية، والمحبة. وامتاز عنه بانكسار قلبه بالمحبة. والله سبحانه أقرب ما يكون إلى عبده عند ذلّه، وانكسار قلبه. ولأجل هذا كان «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد» لأنه مقام ذل وانكسار بين يدي ربه.

وتأمل قول النبي صلى الله عليه وسلم. فيما يروى عن ربه عز وجل «أنه يقول يوم القيامة: يا ابن آدم، استطعمتك فلم تطعمني. قال: يا رب، كيف أطعمتك وأنت رب العالمين؟ قال: استطعمتك عبدي فلان فلم تطعمه، أما لو أطعمته لوجدت ذلك عندي. ابن آدم، استسقيتك فلم تسقني. قال: يا رب، كيف أسقيتك، وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه. أما لو سقيته لوجدت ذلك عندي. ابن آدم، مرضت فلم تعدني. قال: يا رب، كيف أعودك، وأنت رب العالمين؟ قال: أما إن عبدي فلاناً مرض فلم تعده، أما لو عُدته لوجدتني عنده» فقال في عيادة المريض «لوجدتني عنده» وقال في الإطعام، والإسقاء «لوجدت ذلك عندي» ففرق بينهما. فإن المريض مكسور القلب، ولو كان من كان، فلا بد أن يكسره المرض فإذا كان مؤمناً قد انكسر قلبه بالمرض كان الله عنده.

وهذا — والله أعلم — هو السرفى استجابة دعوة الثلاثة: المظلوم، والمسافر، والصائم، للكسرة التي في قلب كل واحد منهم. فإن غربة المسافر وكسرتة مما يجده العبد في نفسه. وكذلك الصوم، فإنه يكسر سورة النفس السبعة الحيوانية، ويذهب.

الوجه الخامس: أن الذنب قد يكون أنفع للعبد إذا اقترنت به التوبة، من كثير من الطاعات. وهذا معنى قول بعض السلف «قد يعمل العبد الذنب فيدخل به الجنة. ويعمل الطاعة فيدخل بها النار قالوا: وكيف ذلك؟ قال: يعمل الذنب فلا يزال تُصَبَّ عينيه، إن قام، وإن قعد، وإن مشى: ذكر ذنبه. فيحدث له انكساراً، وتوبة، واستغفاراً، وتندماً، فيكون ذلك سبب نجاته، ويعمل الحسنة. فلا تزال نصب عينيه. إن قام وإن قعد وإن مشى، كلما ذكرها أورثته عجباً وكبراً وثمة. فتكون سبب هلاكه. فيكون الذنب موجباً لترتب طاعات وحسنات، ومعاملات قلبية، من خوف الله والحياء منه، والإطراق بين يديه منكساً رأسه خجلاً، باكياً نادماً، مستقيلاً ربه. وكل واحد من هذه الآثار أنفع للعبد من طاعة توجب له صولة، وكبراً، وأزدراء بالناس، ورؤيتهم بعين الاحتقار. ولاريب أن هذا المذنب خير عند الله، وأقرب إلى النجاة والفوز من المعجب بطاعته، الصائل بها، المائى بها، وبحالته على الله عز وجل وعباده. وإن قال بلسانه خلاف ذلك. فإله شهيد على ما في قلبه. ويكاد يعادي الخلق إذا لم يعظموه ويرفعوه. ويخضعوا له. ويحسد في قلبه بغضة لمن لم يفعل به ذلك. ولو فتن نفسه حق التفتيش لرأى فيها ذلك كامناً. ولهذا تراه عاتباً على من لم يعظمه ويعرف له حقه. متطلباً لعيه في قالب حية لله، وغضب له، وإذا قام بمن يعظمه ويحترمه، ويخضع له من الذنوب أضعاف ما قام بهذا، فتح له باب المآذير والرجاء. وأغمض عنه عينه وسمعه. وكث لسانه وقلبه، وقال: باب العصمة عن غير الأنبياء مسدود. وربما ظن أن ذنوب من يعظمه تكفر بإجلاله وتعظيمه وإكرامه إياه.

فإذا أراد الله بهذا العبد خيراً ألقاه في ذنب يكسره به. ويعرفه قدره. ويكفي به عبادته شره. وينكسر به رأسه، ويستخرج به منه داء العجب والكبر والمنة عليه وعلى عبادته. فيكون هذا الذنب أنفع لهذا من طاعات كثيرة. ويكون بمنزلة شرب الدواء ليستخرج به الداء المضال. كما قيل بلسان الحال في قصة آدم وخروجه من الجنة بذنبه: يا آدم، لا تخزع من كأس زلل كانت سبب كَيْتِكَ. فقد استخرج بها منك داء لا يصلح أن تجاورنا به. وألبست بها حلة العبودية.

يا آدم إنما ابتليتك بالذنب لأنني أحب أن أظهر فضلي، وجودي وكرمي، على من عصاني «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم». يا آدم، إذا عصمتك وعصمت بنيك من الذنوب، فقل من أجود بحلمي؟ وعلى من أجود.

بعموى ومغفرتي، وتوبتي، وأنا التواب الرحيم؟.

يا آدم، لا تجزع من قولي لك (اخرج منها) فلك خلقتها، ولكن اهبط إلى دار الجاهدة،
وابذر بذر التقوى. وأمطر عليه سحاب الجفون. فإذا اشتد الحب واستغلظ، واستوى على شوقه،
فصال قاصده.

يا آدم، ما أهبطك من الجنة إلا لتتوسل إلى في الصدود، وما أخرجتك منها نفياً لك عنها،
ما أخرجتك منها إلا لتعود.

يا آدم، ذنب تذلل به لدينا، أحب إلينا من طاعة تُدَلُّ بها علينا.

يا آدم، أين المذنبين، أحب إلينا من تسييح المدلّين.

«يا ابن آدم، إنك مدهوتني ورجوتني، غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم،
لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرتُ لك. يا ابن آدم، لو لقيتني بقراب الأرض
خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً. أتيتك بقرابها مغفرة».

يذكر عن بعض العباد: أنه كان يسأل ربه في طوافه بالبيت، أن يعصمه ثم غلبته عيناه،
فنام. فسمع قائلاً يقول: أنت تسألني العصمة، وكل عبادي يسألونني العصمة. فإذا عصمتهم
فعل من أتفضل وأجود بمغفرتي وعفوى؟ وعلى من أتوب؟ وأين كرمى وعفوى ومغفرتي وفضل؟
ونحو هذا من الكلام.

يا ابن آدم، آمنت بي ولم تشرك بي شيئاً، أقمت حلة عرشي ومن حوله يسبحون بحمدي
و يستغفرون لك وأنت على فراشك. وفي الحديث العظيم الإلهي حديث أبي ذر «يا عبادي إنكم
تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً. فمن علم أنني ذو قدرة على المغفرة غفرت
له ولا أبالي» (٣٩: ٥٣) قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطروا من رحمة الله
إن الله يغفر الذنوب جميعاً. إنه هو الغفور الرحيم).

يا عبيدي! لا تعجز. فمنك الدعاء وعلى الإجابة. ومنك الاستغفار وعلى المغفرة.
ومنك التوبة وعلى تبديل سيئاتك حسنات» يوضحه:

الوجه السادس: وهو قوله تعالى (٢٥: ٧٠) إلا من تاب وعمل صالحاً
فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات. وكان الله غفوراً رحيماً وهذا من أعظم البشارة
للتائبين إذا اقترن بتوبتهم إيمان وعمل صالح. وهو حقيقة التوبة. قال ابن عباس رضى الله
عنهما «ما رأيت النبي صلى الله عليه وسلم فرح بشيء قط فرحه بهذه الآية لما أنزلت. وفرحه
بنزول (٤٨: ١) إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر».

واختلقوا في صفة التبديل، وهل هو في الدنيا، أو في الآخرة؟ على قولين.

فقال ابن عباس وأصحابه: هو تبديلهم بقبائح أعمالهم عاصتها: فبدلهم بالشرك إيماناً.

وبالزنا عيئة وإحصائاً، وبالكذب صدقاً، وبالحيانة أمانة.
فعل هذا معنى الآية: أن صفاتهم القبيحة، وأعمالهم السيئة، بدلوا عوضها صفات جميلة، وأعمالاً صالحة، كما يبذل المريض بالمرض صحة، والمبتلى ببلائه عافية.
وقال سعيد بن المسيب، وغيره من التابعين: هو تبديل الله سيئاتهم التي عملوها بحسنات يوم القيامة. فيعطيه مكان كل سيئة حسنة.

واحتج أصحاب هذا القول بما روى الترمذي في جامعه: حدثنا الحسين بن حريث قال: حدثنا وكيع قال: حدثنا الأعمش عن المروزي عن سويد عن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إني لأعلم آخر رجل يخرج من النار: يؤتى بالرجل يوم القيامة، فيقال: اعرضوا عليه صفار ذنوبه. ويخفى عنه كبارها، فيقال: عملت يوم كذا وكذا، وكذا، وهو مقرر لا ينكر، وهو مشفق من كبارها فيقال: أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة. فيقول: إن لي ذنوباً ما أراها هنا. قال أبو ذر: فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه».

فهذا حديث صحيح. ولكن في الاستدلال به على صحة هذا القول نظر، فإن هذا قد عذب بسببائه ودخل بها النار. ثم بعد ذلك أخرج منها، وأعطى مكان كل سيئة حسنة، صدقة تصدق الله بها عليه ابتداء بعدد ذنوبه. وليس في هذا تبديل تلك الذنوب بحسنات. إذ لو كان كذلك لما عوقب عليها كما لم يعاقب التائب. والكلام إنما هو في نائب أثبت له مكان كل سيئة حسنة، فزادت حسناته. فأين في هذا الحديث ما يدل على ذلك؟

والناس استقبلوا هذا الحديث مستدلين به في تفسير هذه الآية على هذا القول، وقد علمت ما فيه. لكن للسلف غور ودقة فهم لا يدركها كثير من المتأخرين.

فالاستدلال به صحيح، بعد عهد قاعدة، إذا عرفت عرف لطف الاستدلال به ودقته. وهي أن الذنب لا يبدل له من أثره وأثره يرتفع بالتوبة تارة، وبالحسنات الماحية تارة، وبالصائب المكفرة تارة، وبدخول النار ليتخلص من أثره تارة. وكذلك إذا اشتد أثره، ولم تقوتلك الأمور على محوه. فلا بد إذا من دخول النار لأن الجنة لا يكون فيها ذرة من الخبيث. ولا يدخلها إلا من طاب من كل وجه. فإذا بقي عليه شيء من خبث الذنوب أدخل كثير الامتحان، ليتخلص ذهب إيمانه من خبثه. فيصلح حينئذ لدار الملك.

إذا علم هذا فرواها موجب الذنب وأثره تارة يكون بالتوبة النصوح. وهي أقوى الأسباب وتارة يكون باستيفاء الحق منه وتطهيره في النار. فإذا تطهر بالنار، وزال أثر الوسخ والخبث عنه، أعطى مكان كل سيئة حسنة، فإذا تطهر بالتوبة النصوح، وزال عنه بها أثر الوسخ والخبث ذهب وخبثها، كان أولى بأن يعطى مكان كل سيئة حسنة. لأن إزالة التوبة لهذا الوسخ والخبث أعظم

من إزالة النار، وأحب إلى الله، وإزالة النار بدل منها، وهي الأصل، فهي أولى بالتبديل مما بعد الدخول. يوضحه:

الوجه السابع: وهو أن التائب قد بذل كل سيئة بندمه عليها حسنة. إذ هو توبة تلك السيئة، والندم توبة. والتوبة من كل ذنب حسنة. فصار كل ذنب عمله زائلاً بالتوبة التي حلت محله وهي حسنة. فصار له مكان كل سيئة حسنة بهذا الاعتبار. فتأمله فإنه من ألطف الوجوه.

وعنى هذا فقد تكون هذه الحسنة مساوية في القدر لتلك السيئة. وقد تكون دونها. وقد تكون فوقها. وهذا بحسب نصح هذه التوبة، وصدق التائب فيها، وما يقرن بها من عمل القلب الذي تزيد مصلحته وتفعه على مقسدة تلك السيئة. وهذا من أسرار مسائل التوبة ولطائفها. يوضحه:

الوجه الثامن: أن ذنب العارف بالله وبأمره قد يترتب عليه حسنات أكبر منه وأكثر، وأعظم ثمناً، وأحب إلى الله من عصبته من ذلك الذنب: من ذل وانكسار وخشية، وإنابة وندم، وتدارك بمراغمة العدو بحسنة أو حسنات أعظم منه، حتى يقول الشيطان: يا ليتني لم أوقعه فيما أوقعته فيه، ويندم الشيطان على إيقاعه في الذنب، كندامة فاعله على ارتكابه. لكن شتان ما بين السديم. والله تعالى يحب من عبده مراغمة عدوه وغضبه. كما تقدم أن هذا من العبودية من أسرار استجابة. فيحصل من العبد مراغمة العدو بالتوبة والتدارك، وحصول محبوب الله من التوبة. وما يتبعها من زيادة الأعمال هنا، ما يوجب جعل مكان السيئة حسنة بل حسنات.

وتأمل قوله (يبدل الله سيئاتهم حسنات) ولم يقل مكان كل واحدة واحدة فلماذا يجوز أن يبدل السيئة الواحدة بعدة حسنات بحسب حال المبدل.

واما في الحديث: فإن الذي عُذِّبَ على ذنوبه لم يبدلها في الدنيا بحسنات، من التوبة النصوح وتوابعها. فلم يكن له ما يجعل مكان السيئة حسنات. فأعطي مكان كل سيئة حسنة واحدة. وسكت النبي صلى الله عليه وسلم عن كبار ذنوبه، ولما انتهى إليها ضحك. ولم يبين ما يفعس الله بها. وأخبر أن الله يبدل مكان كل صغيرة حسنة. ولكن في الحديث إشارة لطيفة إلى أن هذا التبديل يعم كبارها وصغارها من وجهين.

أحدهما: قوله «أخبروا عنه كبارها» فهذا إشعار بأنه إذا رأى تبديل الصغائر ذكرها، وطمع في تبديلها. فيكون تبديلها أعظم موقعاً عنده من تبديل الصغائر. وهو به أشد فرحاً واعتباطاً. والثاني: ضحك النبي صلى الله عليه وسلم عند ذكر ذلك. وهذا الضحك مشعر بالتعجب مما يفعل به من الإحسان، وما يُقَرَّبُ به على نفسه من الذنوب، من غير أن يُقَرَّرَ عليها ولا يسأل عنها. وإنما عرضت عليه الصغائر.

فتشارك الله رب العالمين، وأجود الأجودين، وأكرم الأكرمين، البر اللطيف، المتودد إلى عباده بأنواع الإحسان، وإيصاله إليهم من كل طريق بكل نوع. لا إله إلا هو الرحمن الرحيم.

السكران لا الجملة

وكثير من الناس إنما يفسر التوبة بالعزم على أن لا يعاود الذنب ، وبالإقلاع عنه في الحال ، وبالندم عليه في الماضي . وإن كان في حق آدمي : فلا بد من أمر رابع . وهو التحلل منه . وهذا الذي ذكره بعض مسمى «التوبة» بل شرطها ، وإلا فالتوبة في كلام الله ورسوله — كما تتضمن ذلك — تتضمن العزم على فعل المأمور والتزامه ، بل وتتضمن مقت من يتركه ومقاطعته . والتزام الأمر به والنهي عن تركه ، فإن العمل الصالح — المشروط للتوبة ، في آية الفرقان — هو ضد ما كان يأتيه من سوء ، فلا يكون مجرد الإقلاع والعزم والندم تائباً ، حتى يوجد منه العزم الجازم على فعل المأمور ، والإتيان به . هذا حقيقة التوبة . وهي اسم لجمع الأمرين . لكنها إذا قرنت بفعل المأمور كانت عبارة عما ذكره ، فإذا أفردت تضمنت الأمرين . وهي كلفظة «التقوى» التي تقتضي عند أفرادها فعل ما أمر الله به ، وترك ما نهى الله عنه . وتقتضي عند اقترائها بفعل المأمور الانتهاء عن المحذور ، وإن كان معناها أعم ، إذ التقوى هي اتخاذ كل ما أعطى الله نهيًا من عافية ، وما كان ولد ، وليل ونهار ، وغير ذلك — وقاية يتق بها ما يكره ويخاف . في سيره إلى به ولد الأخرة فإن الطريق كله عقبات ، وأعداء : من النفس الأمارة بالمعصية والشيطان تشاوشه ، وتجذبه ، ومحاوله صده وإرجاعه وإهلاكه ، وقد ابتلاه الله بكل ذلك . وآتاه ما يمكنه من السلامة والعافية والتجريح . وذلك بحسن وضع النعمة من كل ذلك موضعه ، فإن الهلاك إنما يكون بوضع هذه النعم على غير وضعها ، بلجاهية واتباع الهوى ، وتغليب الشهوة البهيمية ، والإنسلاخ من آيات الله ، واتخاذ الشيطان ولياً من دون الله .

إن حقيقة «التوبة» الرجوع إلى الله بالتزام فعل ما يجب ، وترك ما يكره . فهي رجوع من مكروه إلى محبوب . فالرجوع إلى المحبوب جزء مماها . والرجوع عن المكروه الجزء الآخر . ولهذا علق سبحانه الفلاح المطلق على فعل المأمور وترك المحذور بها ، فقال (٢٤ : ٣١) وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون . لعلكم تفلحون فكل تائب مفلح . ولا يكون مفلحاً إلا من فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه . وقال تعالى (٤٩ : ١١) ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون وتارك المأمور ظالم ، كما أن فاعل المحذور ظالم . وزوال اسم «الظلم» عنه إنما يكون بالتوبة الجامعة للأمرين . فالتائب قسماً : تائب وظالم . ليس إلا . فالتائبون هم (٩ : ١١٢) العابدون الحامدون السائحون ، الراكعون الساجدون ، الآمرون بالمعروف والنهي عن المنكر ، والحافظون لحدود الله) فحفظ حدود الله : جزء التوبة . والتوبة هي مجموع هذه الأمور وإنما سمي تائباً : لرجوعه إلى أمر الله من نهيه ، وإلى طاعته من معصيته ، بل لرجوعه إلى الله مولاه وحبيبه . وتحليصه نفسه من عدوه . فإن عدوه يريد له شقائه . فيجذب به إلى بحل الحيوانية وسفها وجعلها وشهواتها . والله مولاه يريد له لسماته ، وهو يتودد إليه بجميع ما يعطيه في نفسه وما سخر له ، ويجذب به إليه

بأسباب نعمه التي لا تحصى. ومن أنوارها، آياته في الأنفس والآفاق، وسننه التي لا تتبدل. وما يوحى الله إلى رسله من الهدى والبصائر (١٠٤:٦) قد جاءكم بصائر من ربكم. فمن أبصر فلنفسه. ومن عمى فعليها. وما أنا عليكم بحفيظ).

فإذن: «التوبة» هي حقيقة دين الإسلام، والديسن كله داخل في مسمى «التوبة» وبهذا استحق التائب أن يكون حبيب الله. فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين. وإنما يحب الله من فعل ما أمره، وترك ما نهى عنه.

فإذن «التوبة» هي الرجوع مما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه ظاهراً وباطناً. ويدخل في مسماها الإسلام، والإيمان، والإحسان. وتتناول جميع المقامات. ولهذا كانت غاية كل مومن، وبداية الأمر وخاتمته. كما تقدم. وهي الغاية التي وجد لأجلها الخلق. والأمر والتوحيد جزء منها. بل هو جزؤها الأعظم الذي عليه بناؤها.

وأكثر الناس لا يعرفون قدر «التوبة» ولا حقيقتها، فضلاً عن القيام بها علماً وعملاً وحالاً. ولم يجعل الله تعالى محبة للتوابين إلا وهم خواص الخلق لديه.

ولولا أن «التوبة» اسم جامع لشرائع الإسلام، وحقائق الإيمان لم يكن الرب تعالى يفرح بتوبة عبده ذلك الفرح العظيم. فجميع ما يتكلم فيه الناس من المقامات والأحوال هو تفصيل «التوبة» وآثارها.

● نفارق الباطل ثم نرجع إلى الحق

وأما «الاستغفار» فهو نوعان. مفرد ومقرون بالتوبة. فالمفرد: كقول نوح عليه السلام لقومه (١١:٧١) استغفروا ربكم إنه كان غفاراً * يرسل السماء عليكم مدراراً) وكقول صالح لقومه (٤٦:٢٧) لتولا تستغفرون الله لعلكم ترحون) وكقوله تعالى (١٩٩:٢) واستغفروا الله إن الله غفور رحيم) وقوله (٣٣:٨) وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم. وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) والمقرون كقوله تعالى (٣:١١) استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ) وقول هود لقومه (٥٢:١١) استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً) وقول صالح لقومه (٦١:١١) هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها. فاستغفروا ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب) وقول شعيب (٩٠:١١) واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود) فالاستغفار المفرد كال்தوبة. بل هو التوبة بعينها. مع تضمنه طلب المغفرة من الله. وهو نحو الذنب، وإزالة أثره، ووقاية شره، لا كما ظنه بعض الناس: أنها الستر. فإن الله يستر على من

يغفر له ومن لا يغفره. ولكن الستر لازم مسماها أو جزؤه. فدلتها عليه إما بالتصميم وإما باللزوم.

وحقيقتهما: وقاية شر الذنب. ومنه المغفر، لما يقي الرأس من الأذى. والستر لازم لهذا المعنى. وإلا فالعمامة لا تسمى يغفر، ولا القبع ونحوه مع ستره. فلا بد في لفظ «المغفر» من الوقاية. وهذا الاستغفار هو الذى يمنع العذاب في قوله (٣٣:٨) وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) فإن الله لا يعذب مستغفراً. وأما من أصر على الذنب، وطلب من الله مغفرته. فهذا ليس باستغفار مطلق. ولهذا لا يمنع العذاب. فالاستغفار يتضمن التوبة، والتوبة تتضمن الاستغفار. وكل منهما يدخل في معنى الآخر عند الإطلاق.

ومع ذلك فلا مانع أن يكون معنى الاستغفار: طلب الغفر. وهو الستر، ستر العيوب والنقائص المهلكة الضارة وأكبر عيب الإنسان ونقصه: هوجله وظلمه. فبخطام الجهل والظلم يبره العدو إلى ما يهلكه ويرديه، وستره إنما يكون باليقظة والحرص على الانتفاع بما يودعه الله ربه من العلم والعدل والإحسان. وكلما غفل العبد عن كرامته الإنسانية، التى نفخها الله فيه من روحه. كلما أخذ إلى أرض البهيمية، فاشتد جهله وظلمه. وفضح نفسه. وكلما غنى بإنسانيته وغذاها بالتفكر في آيات الله وسنته الكونية في نفسه وفي الآفاق، وتدبر آياته العلمية المرسل بها رسله. كلما غفر الله له وستر من عيوبه ونقصاته. وبهذا يفهم قول الله لرسوله صلى الله عليه وسلم (١:٤٨) ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك) فإنه صلى الله عليه وسلم لم يأت منكراً قط ولا عمى ربه قط ولا فسق عن أمره. وإنما هو ستر عيوب البشرية وجبلاها بما أوتى من العلم والمهدى الذى يمكن له ربه به. من التحكم في هذه الطبايع البشرية، والإحسان بها وفيها. حتى كان أخيكيم الرشيد عليه الصلاة والسلام.

وما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى. فالاستغفار: طلب وقاية شر ما مضى. والتوبة: الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله. فيها هنا ذنبان: ذنب قد مضى. فالاستغفار منه: طلب وقاية شره. وذنب يخاف وقوعه، فالتوبة: العزم على أن لا يفعله. والرجوع إلى الله يتناول النوعين: رجوع إليه ليقبه شر ما مضى، ورجوع إليه ليقبه شر ما يستقبل من شر نفسه وسيئات أعماله.

ويضا فإن المذنب بمنزلة من ركب طريقاً تؤديه إلى هلاكه. ولا توصله إلى المقصود. فهو مأمور أن يوليها ظهره. ويرجع إلى الطريق التى فيها نجاته. والتى توصله إلى مقصوده. وفيها فلاحه

فهنا أمران لا بد منهما: مفارقة شيء والرجوع إلى غيره. فخصت «التوبة» بالرجوع، و«الاستغفار» بالمفارقة. وعند أفراد أحدهما يتناول الأمرين. ولهذا جاء — والله أعلم — الأمر بهما مرتباً بقوله (استغفروا ربكم ثم توبوا إليه) فإنه الرجوع إلى طريق الحق بعد مفارقة السيئات.

وأيضاً فالاستغفار من باب إزالة الضرر. والتوبة طلب جلب المنفعة. فالمغفرة أن يقيه شر الذنب. والتوبة: أن يحصل له بعد هذه الوقاية ما يحبه. وكل منهما يستلزم الآخر عند إفراده. والله أعلم.

• التوبة النصوح

وهذا يتبين بذكر التوبة النصوح وحقيقتها. قال الله تعالى (٨:٦٦) يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا. عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار فجعل وقاية شر السيئات — وهو تكفيرها — بزوال ما يكره العبد. ودخول الجنات — وهو حصول ما يحب العبد — متوطناً بحصول التوبة النصوح. و«النصوح» على وزن فعول المعدول به عن فاعل قصداً للمبالغة. كالشكور والصبور. وأصل مادة (ن ص ح) لخلاص الشيء من الغش والشوائب الغريبة. وهو ملاق في الاشتقاق الأكبر لتصح إذا خلاص. فالنصح في التوبة والعبادة والمشورة: تخليصها من كل غش ونقص وفساد. وإيقاعها على أكمل الوجوه. والنصح ضد الغش.

وقد اختلفت عبارات السلف عنها. ومرجعها إلى شيء واحد. فقال عمر بن الخطاب، وأبو ابن كعب رضي الله عنهما «التوبة النصوح: أن يتوب من الذنب ثم لا يعود إليه، كما لا يعود اللبني إلى الضرع» وقال الحسن البصري «هي أن يكون العبد نادماً على ما مضى، مجعاً على أن لا يعود فيه» وقال الكلبي «أن يستغفر باللسان، ويندم بالقلب، ويمسك بالبدن» وقال سعيد بن المسيب «توبة نصوحا. تنصحوح بها أنفسكم» جعلها بمعنى ناصحة للتائب كضروب المعدول عن ضارب.

وأصحاب القول الأول يجعلونها بمعنى المفعول، أي قد نصح فيها التائب ولم يشبها بغش. فهي إما بمعنى منصوح فيها، كركوبة وحلوبة، بمعنى مركوبة ومحلوبة، أو بمعنى الفاعل. أي ناصحة كخالصة وصادقة.

وقال محمد بن كعب القرظي: يجمعها أربعة أشياء: الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضمار ترك العود بالجنان، ومهاجرة سوء الإخوان.

قلت: النصح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء.

الأول: تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها بحيث لا تدع ذنباً إلا تناولته.

والثاني: إجماع العزم والصدق بكليته عليها. بحيث لا يبقى عنده تردد، ولا تلوم ولا انتظار. بل يجمع عليها كل إرادته وعزمته مبادراً بها.

الثالث: تخليصها من الشوائب والعلل القاذرة في إخلاصها، ووقوعها لمحض الخوف من اتسه وخشيته، والرغبة فيما لديه، والرهبة بما عنده. لا كمن يتوب لحفظ جاهه وحرمة، ومصعبه ورياسته، ولحفظ حاله، أو لحفظ قوته وماله، أو استدعاء حد الناس، أو الهروب من ذهم، أو لئلا يتسلط عليه السفهاء، أو لقتضاء نهمته من الدنيا، أو لإفلاسه وعجزه، ونحو ذلك من العلل التي تقدر في صحتها وخلوصها لله عز وجل.

فالأول: يتعلّق بما يتوب منه، والثالث: يتعلّق بمن يتوب إليه. واللاوسط: يتعلّق بذات التائب ونفسه. فتصح التوبة الصديق فيها، والإخلاص، وتعميم الذنوب بها. ولا ريب أن هذه التوبة تستلزم الاستغفار وتضمته، وتحوّج جميع الذنوب. وهي أكمل ما يكون من التوبة. والله استعان. وعليه التكلان. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

• إثابة أولي الإهام

وتوبة العيد إلى الله محفوفة بتوبة من الله عليه قبلها. وتوبة منه بعدها. فتوبته بين توبتين من ربه، سابقة ولاحقة. فإنه تاب عليه أولاً إذناً وتوفيقاً وإهاماً، فتاب العبد. فتاب الله عليه ثانياً، قبلاً وإثابة. قال الله سبحانه وتعالى (٩: ١١٧، ١١٨) لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريقي منهم. ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم. وعمل الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت. وضائق عليهم أنفسهم. وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه، ثم تاب عليهم ليتوبوا. إن الله هو التواب الرحيم) فأخبر سبحانه أن توبته عليهم سبقت توبتهم، وأنها هي التي جعلتهم تائبين. فكانت سبباً مقتضياً لتوبتهم. فدل على أنهم ما تابوا حتى تاب الله تعالى عليهم. والحكم ينتفى بانتفاء علته.

ونظير هذا: هدايته لعبده قبل الاهتداء، فقد أعطاه ربه هداية الفطرة (٣٠٢: ٧٦) إنا خلقنا الإنسان من نضفة أمشاج نبيليه. فجعلناه سميعاً بصيراً. إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً) فإن أحسن الاهتداء بهداية الفطرة في سمعه وبصره وفؤاده، وشكر ربه عليها باستمالها في إيصال المعلومات إلى فؤاده على حقيقتها التي خلقها الله، فعملها وأحسن ترتيبها والاستفادة منها. زاده الله هدى وزاده من نعمة التذكر واستأمل صفاء ونوراً، اهتدى به إلى الفقه في كلامه وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم (ومن لم يحمل الله له نوراً قسا له من نور).

فاذا اهتدى العبد: أوجبت له تلك الهداية هداية أخرى يثيبه الله بها هداية على هدايته. فإن من شراب الهدى: الهدى بعده، كما أن من عقوبة الضلالة: الضلالة بعدها. قال الله تعالى

(١٧:٤٧) والذين اهتدوا زادهم هدى) فهداهم أولا فاهتدوا، فزادهم هدى ثانياً. وعكسه في أهل الزيغ كقوله تعالى (٥:٦١) فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) فهذه الإزاغة الثانية عقوبة لهم على زيغهم.

وهذا القدر من سر اسميه «الأول»، والآخر» فهو المَعْدُ. وهو المَعْدُ ومنه السبب والسبب. وهو الذي يعيذ من نفسه بنفسه، كما قال أعرف الخلق به «وأعوذ بك منك» والعبد تواب. والله تواب. فتوبة العبد: رجوعه الى سيده بعد الإباق، وتوبة الله نوعان: إذن وتوفيق، وقبول وإمداد.

و«التوبة» لها مبدأ ومنتهى. فمبدأها: الرجوع إلى الله بسلوك صراطه المستقيم، الذي نصبه لعباده، موصلاً إلى رضوانه. وأمرهم بسلوكه بقوله تعالى: (١٥٣:٦) وَأَنْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ) وبقوله (٥٣:٤٢) وَأَنْتَ لَتَهْدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) وبقوله (٢٤:٢٢) وَلَهْدُوا إِلَى الطِّيبِ مِنَ الْقَوْلِ. وَلَهْدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ).

ونهايتها: الرجوع إليه في المعاد. وسلوك صراطه الذي نصبه موصلاً إلى جنته. فمن رجع إلى الله في هذه الدار بالتوبة: رجع إليه في المعاد بالثواب. وهذا هو أحد التأويلات في قوله تعالى (٧١:٢٥) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا) قال البغوي وغيره «يتوب إلى الله متاباً: يعود إليه بعد الموت، متاباً حسناً يفضل على غيره» فالتوبة الأولى — وهي قوله «ومن تاب» — رجوع عن الشرك. والثانية: رجوع إلى الله للجزاء والمكافأة.

والتأويل الثاني: أن الجزاء متضمن معنى الأوامر. والمعنى: ومن عزم على التوبة وأرادها، فليجمل توبته إلى الله وحده، ولوجهه خالصاً، لا لغيره.

والتأويل الثالث: أن المراد لازم هذا المعنى، وهو إشعار التائب وإعلامه بمن تاب إليه. ورجع إليه. والمعنى: فليعلم توبته إلى من؟ ورجوعه إلى من؟ فإنها إلى الله لا إلى غيره. ونظير هذا — على أحد التأويلين — قوله تعالى (٦٧:٥) يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ بَلِّغُوا مَا أَنزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ. وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا فَمَا بَلَّغْتُمْ رَسُولَهُ). أي أعلم ما يترتب على من عصى أوامره ولم يبلغ رسالته.

والتأويل الرابع: أن التوبة تكون أولاً بالقصد والعزم على فعلها. ثم إذا قوى العزم وصار جازماً: وُجِدَ به فعل التوبة. فالتوبة الأولى: بالعزم والقصد لفعلها. والثانية: بنفس إيقاع التوبة وإيجادها. والمعنى: فمن تاب إلى الله قصداً ونية وعزماً، فتوبته إلى الله عملاً وفعلًا. وهذا نظم قوله صلى الله عليه وسلم «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله. فهجرته إلى الله ورسوله. ومن كانت هجرته إلى ديارها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه».

صَغِيرَاتُ الذُّنُوبِ الْكَبِيرَاتِ

و«الذنوب» تنقسم إلى صغائر وكبائر. بنص القرآن والسنة، وإجماع السلف وبالاعتبار. قال الله تعالى (٣١:٤) إِنَّ تَحْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ تُكَفِّرْ عَنْكُمْ مِثْلَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ وقال تعالى (٥٣:٣١) وَالَّذِينَ يَحْتَبُونَ كِبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ) وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن، إذا اجتنبت الكبائر».

والذي جاء في لفظ الشارع، تسمية ذلك «لَمَمًا» و«مُحَقَّرَات» كما في الحديث «إياكم ومُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ» وقد قيل: إن «اللمم» المذكور في الآية من الكبائر. حكاه البغوي وغيره.

قالوا: ومعنى الاستثناء: أن يُلْمَ بالكبيرة مرة. ثم يتوب منها. ويقع فيها ثم ينتهي عنها، لا يتخذها دأبه. وعلى هذا يكون استثناء «اللمم» من الاجتناب إذ معناه: لا يصدر منهم، ولا تقع منهم الكبائر إلا لَمَمًا.

والجمهور على أنه استثناء من الكبائر. وهو منقطع. أي لكن يقع منهم اللمم. وحسَّ وقوع الانقطاع بعد الإيجاب — والغالب خلافه — أنه إنما يقع حيث يقع التفرغ. أذ في الإيجاب هنا معنى النفي صريحاً. فالعنى: لا يأتون ولا يفعلون كبائر الإثم والفواحش. فحسن استثناء اللمم.

ولعل هذا الذي شجع أبا إسحاق على أن قال «الذنوب كلها كبائر» إذ الأصل في الاستثناء الاتصال. ولا سيما وهو من موجب.

ولكن النصوص وإجماع السلف على انقسام الذنوب إلى صغائر وكبائر. ثم اختلفوا في فصلين. أحدهما: في «اللمم» ما هو؟ والثاني: في «الكبائر» وهل لها عدد يتحصرها، أو حدٌ يحدها؟ فلنذكر شيئاً يتعلق بالفصلين.

• تفسير اللمم

فأما «اللمم» فقد روى عن جماعة من السلف: أنه الإلزام بالذنب مرة، ثم لا يعود إليه. وإن كان كبيراً. قال البغوي: هذا قول أبي هريرة، ومجاهد، والحسن، ورواية عطاء عن ابن عباس. قال: وقال عبد الله بن عمرو بن العاص «اللمم ما دون الشرك» قال السدي: قال أبو صالح: شُئِلْتُ عن قول الله عز وجل «إلا اللمم؟» فقلت: «هو الرجل يُلْمَ بالذنب ثم لا يعاوده» فذكرت ذلك لابن عباس فقال «لقد أعانك عليها ملك كريم». والجمهور: على أن «اللمم» ما دون الكبائر. وهو أصح الروايتين عن ابن عباس، كما في

صحيح البخارى من حديث طاووس عنه قال «ما رأيت أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم: إن الله كتب على ابن آدم حلقه من الزنا. أدرك ذلك لا محالة. فزنا العين: النظر. وزنا اللسان: النطق. والنفس قَتْنَى وتشتهى. والفرجُ يصدق ذلك أو يكذبه» رواه مسلم من حديث سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة. وفيه «والعينان زناهما: النظر. والأذنان: زناهما الاستماع. واللسان: زناه الكلام. واليد: زناها البطش. والرجل: زناها الحُطْيُ».

وقال الكلبي «اللمم» على وجهين. كل ذنب لم يذكر الله عليه حَداً في الدنيا. ولا عذاباً في الآخرة. فذلك الذى تكفرو الصلوات الخمس، ما لم يبلغ الكبائر والفواحش. والوجه الآخر: هو الذنب العظيم، يُلَمُّ به المسلم المرة بعد المرة. فيتوب منه. قال سعيد بن المسيب: هو ما أَلَمَّ بالقلب. أى ما خطر عليه.

قال الحسين بن الفضل: «اللمم» النظر من غير تعمّد. فهو مغفور. فإن أعاد النظر. فليس بلمم، وهو ذنب. وقد روى عطاء عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن تغفر اللهم تغفر رجلاً * وأى عبد لك لا أُلما»

وهذه طائفة ثالثة إلى أن «اللمم» ما فعلوه في الجاهلية قبل إسلامهم. قاله لا يؤاخذهم به. وذلك أن المشركين قالوا للمسلمين «أنتم بالأمس كنتم تعملون معنا. فأنزل الله هذه الآية» وهذا قول زيد بن ثابت، وزيد بن أسلم.

والصحيح: قول الجمهور: أن اللمم صفائر الذنوب، كالنظرة، والغمرة، والقبلة، ونحو ذلك. هذا قول جمهور الصحابة ومن بعدهم. وهو قول أبى هريرة وعبد الله بن مسعود. وابن عباس، ومسروق، والشمسي. ولا ينافي هذا قول أبى هريرة، وابن عباس في الرواية الأخرى «إنه يلم بالكبيرة ثم لا يعود إليها» فإن «اللمم» إما أنه يتناول هذا وهذا، ويكون على وجهين. كما قال الكلبي، أو أن أبا هريرة، وابن عباس ألحقا من ارتكب الكبيرة مرة واحدة — ولم يصر عليها، بل حصلت منه قلّة في عمره — باللمم. ورأيا أنها إما تتغلّظ وتكبر وتعظم في حق من تكررت منه مراراً عديدة. وهذا من فقه الصحابة رضى الله عنهم وغور علومهم. ولاريب أن الله يسامح عبده المرة والمرة والثلاث. وإما يخاف القَتْنُ على من اتخذ الذنب عادته، وتكرر منه مراراً كثيرة. وفي ذلك آثار سلفية، والاعتبار بالواقع يدل على هذا. ويذكر عن على رضى الله عنه: أنه «دفع إليه سارق: فأمر بقطع يده، فقال: يا أمير المؤمنين، والله ماسرقت غير هذه المرة. فقال: كذبت. قلما قطعت يده قال: اصدقني، كم لك بهذه المرة؟ فقال: كذا وكذا مرة؟ فقال صدقت، إن الله لا يؤاخذ بأول ذنب» أو كما قال. فأول ذنب إن لم يكن هو اللمم. فهو من جنسه ونظيره. فالقولان حتى إبي هريرة، وابن عباس، متفقان غير مختلفين. والله اعلم.

وهذه اللفظة فيها معنى المقاربة والاعتاب بالفعل حيناً بعد حين، فإنه يقال: ألم بكذا، إذا قاربه ولم يغشه، ومن هذا سميت الثبلة والعقمة ثَمَةً، لأنها تُثْمُ بما بعدها، ويقال: فلان لا يزورنا إلا لماماً، أي حيناً بعد حين. فمعنى اللفظة ثابت في الوجهين اللذين فسر الصحابة بهما الآية. وليس معنى الآية «والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللغم» فإنهم لا يجتنبونه فإن هذا يكون ثناء عليهم بترك اجتناب اللغم، وهذا محال. وإنما هذا استثناء من مضمون الكلام ومعناه، فإن سياق الكلام في تقسيم الناس إلى عمن وممن، وأن الله يجزي هذا بإساءته وهذا بإحسانه، ثم ذكر المحسنين ووصفهم بأنهم يجتنبون كبائر الإثم والفواحش. ومضمون هذا: أنه لا يكون عسناً جزئياً بإحسانه، ناجياً من عذاب الله، إلا من اجتنب كبائر الإثم والفواحش. فحسُن حيثُ استثناء اللغم. وإن لم يدخل في الكبائر. فإنه داخل في جنس الإثم والفواحش.

وضابط الانقطاع: أن يكون له دخول في جنس المستثنى منه وإن لم يدخل في نفسه. ولم يتناوله لفظه. كقوله تعالى (١٩: ٦٢) لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً) فإن «السلم» داخل في الكلام الذي هو جنس اللغو والسلام. وكذلك قوله (٢٨: ٢٤) لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً إلا حميماً وغساقاً) فإن الحميم والغساق داخل في جنس الذوق المتقسم. فكانه قيل في الأول: لا يسمعون فيها شيئاً إلا سلاماً. وفي الثاني: لا يذوقون فيها شيئاً إلا حميماً وغساقاً. ونص على فرد من أفراد الجنس تصريحاً، ليكون نفيه بطريق التصريح والتنصيص، لا بطريق العموم الذي يتطرق إليه تخصيص هذا الفرد. وكذلك قوله تعالى (٤: ١٥٦) ما لهم به من علم إلا اتباع الظن) فإن الظن داخل في الشعور الذي هو جنس العلم والظن.

وأدق من هذا: دخول الانقطاع فيما يفهمه الكلام بلازمه، كقوله تعالى (٤: ٢٢) ولا تنكحوا ما نكح آبائكم من النساء إلا ما قد سلف) إذ مفهوم هذا: أن نكاح منكحات الآباء سبب للعقوبة إلا ما قد سلف منه قبل التحريم، فإنه عفو. وكذلك (٤: ٢٣) وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف) وإن كان المراد به: ما كان في شرع من تقدم فهو استثناء من القبح المفهوم من ذلك التحريم والذم لمن فعله، فحسن أن يقال «إلا ما قد سلف».

فتأمل هذا فإنه من فقه العربية.

وأما قوله (٤٤: ٥٦) لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى) فهذا الاستثناء هو لتحقيق دوام الحياة وعدم ذوق الموت. وهو يجعل النفي الأول العام بمنزلة النص الذي لا يتطرق إليه استثناء أبته. إذ لو تطرق إليه استثناء فرد من أفرادها لكان أولى بذكره من الصلوات عنه إلى الاستثناء المنقطع. فجرى هذا الاستثناء مجرى التأكيد، والتنصيص على حفظ العموم. وهذا جارٍ في كل منقطع. فتأمل فإنه من أسرار العربية.

وقريب من هذا لفظة «أو» في قوله تعالى (٧٤:٢) ثم قست قلوبكم من بعد ذلك. فهي كالحجارة أو أشد قسوة) وقوله (١٤٧:٣٧) وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون) هو كالتنصيص على أن المراد بالأول الحقيقة لا المبالغة. فإنها إن لم تزد قسوتها على الحجارة فهي كالحجارة في القسوة لا دونها. وأنه إن لم يزد عددهم على مائة ألف لم ينقص عنها. فذكر «أو» ههنا كالتنصيص على حفظ المائة ألف، وأنها ليست مما أريد بها المبالغة. والله أعلم.

● إحصاء الكبائر

وأما الكبائر: فاختلف السلف فيها اختلافا لا يرجع إلى تباين وتضاد، وأقوالهم متقاربة. وفي الصحيحين من حديث الشعبي عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس». وفيهما عن عبدالرحمن بن أبي بكر عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم «ألا أنيثكم بأكبر الكبائر؟ — ثلاثا — قالوا: بلى، يا رسول الله. قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين — وجلس وكان متكئا — فقال: ألا وقول الزور، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت».

وفي الصحيح من حديث أبي وائل عن عمرو بن شرحبيل عن عبد الله بن مسعود قال: قلت «يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك. قال قلت: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك مخافة أن يقطع معك. قال قلت: ثم أي؟ قال: أن تزاني بحليلة جارك. فأنزل الله تعالى تصديق قول النبي صلى الله عليه وسلم (٦٨:٢٥) والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر. ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون».

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «اجتنبوا السبع الموبقات. قالوا: يا رسول الله، وما هن؟ قال: الشرك بالله. والسحر. وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق. وأكل الربا. وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف. وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات».

وروى شعبة عن سعد بن إبراهيم: سمعت حميد بن عبد الرحمن يحدث عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «من أكبر الكبائر: أن يسب الرجل والديه. قالوا: وكيف يسب الرجل والديه؟ قال: يسب أبا الرجل، فيسب أباه. ويسب أمه، فيسب أمه».

وفي حديث أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إن من أكبر

الكبائر : استطالة الرجل في عرض أخيه المسلم بغير حق».

وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه «أكبر الكبائر: الشرك بالله. والأمن من مكر الله. والتفريط من رحمة الله. والياس من روح الله».

قال سعيد بن جبير: سألت رجلاً من عبّاس عن الكبائر «أسع هن؟ قال: هن إلى السبعمئة أقرب، إلا أنه لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار» وقال «كل شيء عصى الله به فهو كبيرة. من عمل شيئاً منها فليستغفر الله. فإن الله لا يغفل في النار من الأمة إلا من كان راجعاً عن الإسلام، أو جاحداً فريضة، أو مكذباً بالقدر».

وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه «مانهى الله عنه في سورة النساء من أولها إلى قوله (٣١:٤) إن تمجنّبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم) فهو كبيرة» وقال علي بن أبي طلحة: هي كل ذنب ختمه الله بنار، أو غضب أولئنه، أو عذاب.

وقال الضحاك: هي ما أوعده الله عليه حداً في الدنيا، أو عذاباً في الآخرة. وقال الحسين بن الفضل: ما ساء الله في القرآن كبيراً، أو عظيماً. نحو قوله (٣:٤) إنه كان خوباً كبيراً) (٣١:١٧) إن قتلهم كان خطئاً كبيراً) (١٣:٣١) إن الشرك لظلم عظيم) (٢٨:١٢) إن كيد كن عظيم) (١٦:٢٤) سبحانه! هذا بهتان عظيم) (٥٣:١٢) إن ذلكم كان عند الله عظيماً).

وقال مالك بن يقول: الكبائر ذنوب أهل البدع، والسيئات ذنوب أهل السنة. قلت: يريد أن البدعة من الكبائر، وأنها أكبر من كبائر أهل السنة. فكبائر أهل السنة صفائر بالنسبة إلى البدع. وهذا معنى قول بعض السلف: البدعة أحب إلى إبليس من المعصية. لأن البدعة لا يتاب منها. والمعصية يتاب منها.

وقالت فرقة: الصغائر مادون الحدين، والكبائر: ما تعلق بها أحد الحدين. ومرادهم بالحدين: عقوبة الدنيا والآخرة. فكل ذنب عليه عقوبة مشروعة محدودة في الدنيا، كالزنا وشرب الخمر. والسرقة والقذف. أو عليه وعيد في الآخرة، كأكل مال اليتيم، والشرب في آنية الفضة والذهب، وقتل الإنسان نفسه، وخيائنه أمانته، ونحو ذلك. فهو من الكبائر. وصدق ابن عباس رضى الله عنهما في قوله «هي إلى السبعمئة أقرب منها إلى السبع».

• حسنات المسيء تشفع له

وههنا أمرينبغي التفطن له، وهوان «الكبيرة» قد يقترن بها — من الحياء والخوف،

والاستعظام لها — ما يلحقها بالصغائر. وقد يقترون بالصغيرة — من قلة الحياء ، وعدم المبالاة ، وترك الخوف ، والاستهانة بها — ما يلحقها بالكبائر . بل يجعلها في أعلى رتبها . وهذا أمر مرجعه إلى ما يقوم بالقلب . وهو قدر زائد على مجرد الفعل . والإنسان يعرف ذلك من نفسه ومن غيره .

وأيضاً فإنه يُتَقَمَّى للمحب ، ولصاحب الإحسان العظيم ، مالا يعفى لغيره ، ويسامح بما لا يسامح به غيره .

وسمعت شيخ الاسلام ابن تيمية — قدس الله روحه — يقول : انظر إلى موسى — صلوات الله وسلامه عليه — رمى الألواح التي فيها كلام الله الذي كتبه بيده فكسرها ، وبجر بلحية نبيٍّ مثله ، وهو هارون ، ولطم عين ملك الموت فقأها ، وعاتب ربه ليلة الإسراء في محمد صلى الله عليه وسلم وزفيعه عليه ، ورؤيه تعالى يحتمل له ذلك كله ، ويحبه ويكرمه ، لأنه قام لله تلك المقامات العظيمة في مقابلة أعدى عدوه ، وصدع بأمره ، وعالج أمتى القبط وبنى إسرائيل أشد المعالجة . فكانت هذه الأمور كالشجرة في البحر .

وانظر إلى يونس بن ستى حيث لم يكن له هذه المقامات التي لموسى ، غاضب ربه مرة . فأخذه وسجنه في بطن الحوت . ولم يحتمل له ما احتمل لموسى . وقرق بين قمرٍ إذا أتى بذنب واحد ، ولم يكن له من الإحسان والمحاسن ما يشفع له ، وبين من إذا أتى بذنب جاءت محاسنه بكل شفيح . كما قيل :

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد جاءت محاسنه بألف شفيح

فالأعمال تشفع لصاحبها عند الله . وتذكر به إذا وقع في الشدائد . قال تعالى عن ذى النون (١٤٣: ١٤٤) فلولا أنه كان من المسبحين . لَلَيْتَ في بطنه إلى يوم يعثون . وفرعون لما لم تكن له سابقة خير تشفع له وقال (٩٠: ١٠) آمنتُ أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل) قال له جبريل (الآن وقد عصيت قبل ، وكنت من المفسدين ؟) .

ولهذا من رجعت حسناته على سيئاته أفلح ولم يعذب ، ووهبت له سيئاته لأجل حسناته . ولأجل هذا يغفر لصاحب التوحيد مالا يغفر لصاحب الإشراك . لأنه قد قام به بما يحبه الله ما اقتضى أن يغفر له . ويساعده مالا يسامح به المشرك . وكلما كان توحيد العبد أعظم . كانت مغفرة الله له أتم . فمن لقيه لا يشرك به شيئاً ألبتة غفر له ذنوبه كلها ، كائنة ما كانت . ولم يعذب بها .

ولسنا نقول : إنه لا يدخل النار أحد من أهل التوحيد . بل كثير منهم يدخل بذنوبه . ويعذب على مقدار جرمه . ثم يخرج منها . ولا تنافي بين الأمرين لمن أحاط علماً بما قلناه . وتزيد ههنا إيضاحاً لمعظم هذا المقام من شدة الحاجة إليه .

اعلم أن اشعة «لا إله إلا الله» تبدد من ضباب الذنوب وغيومها بقدر قوة ذلك الشعاع وضعفه. فلها نور. وتفاوت أهلها في ذلك النور — قوة، وضعفاً — لا يحصيه إلا الله تعالى.

فمن الناس: من نور هذه الكلمة في قلبه كالشمس.

ومنهم: من نورها في قلبه كالكوكب الدري.

ومنهم: من نورها في قلبه كالشمس العظيم.

وآخر: كالسراج المضيء. وآخر كالسراج الضعيف.

ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بأيمانهم، وبين أيديهم، على هذا المقدار، بحسب ما في

قلوبهم من نور هذه الكلمة، علماً وعملاً، ومعرفة وحالاً.

وكلما عظم نور هذه الكلمة واشتد: أحرق من الشبهات والشهوات بحسب قوته وشدته.

حتى إنه ربما وصل إلى حال لا يصادف معها شبهة ولا شهوة، ولا ذنباً، إلا أحرقه. وهذا حال

الصادق في توحيده. الذي لم يشرك بالله شيئاً. فأى ذنب أو شهوة أو شبهة دنت من هذا النور

أحرقها. فساء إيمانه قد حُرست بالنجوم من كل سارق لحسناته. فلا ينال منها السارق إلا على

غفلة وغفلة لا يد منها للبشر. فإذا استيقظ وعلم ما سرق منه استنقذه من سارقه. أو حصل أضعافه

بكبسه. فهو هكذا أبداً مع لصوص الجن والإنس. ليس كمن فتح لهم خزائنه، وتولى الباب

ظلمه.

وليس التوحيد مجرد إقرار العبد بأنه لا خالق إلا الله، وأن الله رب كل شيء ومليكه. كما

كان عبادة الأصنام مقربين بذلك وهم مشركون. بل التوحيد يتضمن — من هبة الله، والخضوع

له، والذل له، وكمال الانقياد لطاعته، وإخلاص العبادة له، وإرادة وجهه الأعلى بجميع

الأقوال والأعمال، والمنع، والعطاء، والحب، والبغض —: ما يحول بين صاحبه وبين الأسباب

الداعية إلى المعاصي، والإصرار عليها. ومن عرف هذا عرف قول النبي صلى الله عليه وسلم (إن

الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله) وقوله «لا يدخل النار

من قال: لا إله إلا الله» وما جاء من هذا الضرب من الأحاديث التي أشكلت على كثير من

الناس، حتى ظنوها ببعضهم منسوخة. وظنوها بعضهم قبلت قبل ورود الأمر والنواهي،

واستقرار الشرع.

والشارع — صلوات الله وسلامه عليه — لم يجعل ذلك حاصلاً بمجرد قول اللسان فقط. فإن

هذا خلاف المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام. فإن النافقين يقولونها بالسنتهم. وهم تحت

الجاحدين لما في الدرك الأسفل من النار. فلا بد من قول القلب، وقول اللسان. وقول القلب:

يتضمن من معرفتها، والتصديق بها، ومعرفة حقيقة ماتضمنته — من النفي والإثبات، ومعرفة

حقيقة الإلهية المنفية عن غير الله، المختصة به، التي يستحيل ثبوتها لغيره، وقيام هذا المعنى

بالقلب : علماً ومعرفة و يقيناً ، وحالاً — : ما يوجب تحريم قائلها على النار . وكل قول رتب الشارح مارتب عليه من الثواب ، فإنما هو القول التام . كقوله صلى الله عليه وسلم «من قال في يوم : سبحان الله وبحمده مائة مرة ، حُطَّتْ عنه خطاياه — أو غُفِرَتْ ذنوبه — ولو كانت مثل زَبَدِ البحر» وليس هذا مرتباً على مجرد قول اللسان .

نعم من قالها بلسانه ، غافلاً عن معناها ، معرضاً عن تدبرها ، ولم يواطىء قلبه لسانه . ولا عرف قدرها وحقيقتها . راجياً مع ذلك ثوابها . حَطَّتْ من خطاياه بحسب ما في قلبه . فإن الأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها . وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب . فتكون صورة العاملين واحدة . وبينهما في التفاضل كما بين السماء والأرض . والرجلان يكون مقامهما في الصف واحداً ، وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض .

وتأمل مقام بقلب قاتل المائة من حقائق الإيمان التي لم تشغله عند السياق عن السير إلى القرية . وحملته — وهو في تلك الحال — على أن جعل ينوء بصدرة . ويعالج سكرات الموت . فهذا أمر آخر ، وإيمان آخر . ولا جرم أن ألحق بالقرية الصالحة . وجعل من أهلها .

وقريب من هذا : مقام بقلب التبغي التي رأت ذلك الكلب — وقد اشدت به العطش يأكل الشرى — فقام بقلبها ذلك الوقت — مع عدم الآلة ، وعدم المعين وعدم من ترأيه بعملها — ماحلها على أن غررت بنفسها في نزول البئر ، وملء الماء في خُفِّها ، ولم تبأ بتعرضها للتلغف . وحملها خفها بفيها . وهو مألوف ، حتى أمكنها الرقي من البئر ، ثم تواضعها لهذا المخلوق الذي جرت عادة الناس بضربه ، فأمكنست له الخف بيدها حتى شرب . من غير أن ترجومه جزاء ولا شكراً . فأحرقت أنوار هذا القدر من التوحيد ماتقدم منها من البقاء ، ففقر لها .

فهكذا الأعمال والعمال عند الله . والغافل في غفلة من هذا الإكسير الكيماوي ، الذي إذا وضع منه مثقال ذرة على قناطر من نحاس الأعمال قلبها ذهباً . والله المستعان .

● علو المنزلة يوجب زيادة الانتباه

فإن قيل : قد ذكرت : أن المحب يسامح بما لا يسامح به غيره . ويعفى للولي عما لا يعفى لسواه .

فهذا الذي ذكرتم صحيح . وهو مقتضى الحكمة والجلود والإحسان ، ولكن ماذا تصنعون بالمعقوبة المضاعفة التي ورد التهديد بها في حق أولئك إن وقع منهم ما يكره ؟ كقوله تعالى (٣٣: ٣٠) يانسأ النبي ، من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين

وقوله تعالى (١٧: ٧٣، ٧٤) ولولا أن ثبتناك لقد كذبت تركن إليهم شيئاً قليلاً * إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات. ثم لا تعبد لك علينا نصيراً) أي لولا تثبيتنا لك لقد كذبت تركن إليهم بعض الشيء. ولو فعلت لأذقناك ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات. أي ضاعفتا لك العذاب في الدنيا والآخرة. وقال تعالى (٦٩: ٤٤ - ٤٦) ولولا نقول علينا بعض الأقاويل. لأخذنا منه باليمين. ثم لقطعنا منه الوتين) أي لو أنى بشيء من عند نفسه لأخذنا منه بيمينه. وقطعنا نياط قلبه وأهلكناه. وقد أعاده الله من الركون إلى أعدائه بذرة من قلبه. ومن تقول عليه سبحانه. وكم من راكن إلى أعدائه ومتقول عليه من قبل نفسه قد أمهله ولم يعأ به. كآرباب البدع كلهم، المتقولين على أسمائه وصفاته ودينه.

وما ذكرتم في قصة يونس: هو من هذا الباب. فإنه لم يسمع بغضبه. وسجن لأجلها في بطن الحوت. ويكفى حال أبي البشر حيث لم يسمع بلقمة. وكانت سبب إخراجه من الجنة. فالجواب: أن هذا أيضاً حق. ولا تنافي بين الأمرين. فإن من كملت عليه نعمة الله. واختصه منها بما لم يختص به غيره: في إعطائه منها ما حرمه غيره. فحُبُّه بالإتعام، وخص بالإكرام، وخص بمزيد التقريب. وجعل في منزلة الولي الحبيب، اقتضت حاله من حفظ مرتبة الولاية والقرب والاختصاص: بأن يراعى مرتبته من أدنى مشوش وقاطع. فلشدة الاعتناء به، ومزيد تقريبه، واتخاذ نفسه، واصطفائه على غيره. تكون حقوق وليه وسيدته عليه أتم. ونعمه عليه أكمل. والمطلوب منه فوق المطلوب من غيره. فهو إذا غفل وأخل بمقتضى مرتبته بُهِ بما لم ينه عليه البعيد البرائي، مع كونه يسمع بما لم يسمع به ذلك أيضاً. فيجتمع في حقه الأمران. وقد ظهر اعتبار هذا المعنى في الشرع، حيث جعل حدَّ من أنعم عليه بالتزويج إذا تعداه إلى الزنا: الرجم، وحدَّ من لم يعطه هذه النعمة الجلد.

فسبحان من بهرت حكمته في خلقه وأمره وجزائه عقول العالمين، وشهدت بأنه أحكم الحاكمين.

لله سر نحت كل لطيفة فأخو البصائر غائص يتماق

اجتناب المحرمات

ولا يستحق العبد اسم «التائب» حتى يتخلص من جميع اجتناس المحرمات. وهي اثنا عشر جنساً مذكورة في كتاب الله عز وجل: الكفر، والشرك، والنفاق، والفسوق، والعصيان، والاثم، والعدوان، والفحشاء، والمنكر، والبغي، والقول على الله بلا علم، واتباع غير سبيل المؤمنين.

فهذه الإثنا عشر جنساً عليها مدار كل ماحرم الله. وإليها انتهاء العالم بأسرهم إلا أتباع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم. وقد يكون في الرجل أكثرها وأقلها، أو واحدة منها. وقد يعلم ذلك. وقد لا يعلم.

قائومة النصوح: هي بالتخلص منها، والتحصن والتحرز من مواقعتها. وإفها يمكن التخلص منها لمن عرفها.

ونحن نذكرها، ونذكر ما اجتمعت فيه وما افتترقت. لتبين حدودها وحقائقها. والله الموفق لما وراء ذلك، كما وفق له. ولا حول ولا قوة إلا بالله. وهذا الفصل من أنفع فصول الكتاب. والعبد أوج شيء إليه.

• كفر دون كفر

قأما «الكفر» فتوعان: كفر أكبر، وكفر أصغر.

فالكفر الأكبر: هو الموجب للخلود في النار.

والأصغر: موجب لاستحقاق الوعيد دون الخلود. كما في قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث «أثنيتان في أمتي، هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة» وقوله «من أتى كاهناً أو عترافاً، فصداقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل الله على محمد» وقوله «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض» وهذا تأويل ابن عباس وعامة الصحابة في قوله تعالى (٤: ٥) ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون قال ابن عباس «ليس بكفر ينقل عن الملة، بل إذا فعله فهو به كفر. وليس كمن كفر بالله واليوم الآخر» وكذلك قال طاووس. وقال عطاء «هو كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق».

ومنهم: من تأول الآية على ترك الحكم بما أنزل الله جاحداً له. وهو قول عكرمة. وهو تأويل مرجوح. فإن نفس جحوده كفر، سواء حكم أو لم يحكم.

ومنهم: من تأولها على ترك الحكم بجميع ما أنزل الله. قال: ويدخل في ذلك الحكم بالتوحيد والإسلام. وهذا تأويل عبد العزيز الكناني. وهو أيضاً بعيد. إذ الوعيد على نفى الحكم بالمنزل وهو يتناول تعطيل الحكم بجميعه وبيعضه.

ومنهم: من تأولها على الحكم بمخالفة النص، تعمداً من غير جهل به ولا خطأ في التأويل. حكاه البغوي عن العلماء عموماً.

ومنهم: من تأولها على أهل الكتاب. وهو قول قتادة والضحاك وغيرهما. وهو بعيد، وهو خلاف ظاهر اللفظ. فلا يصار إليه.

ومنهم: من جعله كفراً ينقل عن الملة.

والصحيح: أن الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكافرين، الأصغر والأكبر بحسب حال الحاكم. فإنه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله في هذه الواقعة، وعدل عنه عصيانياً، مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة. فهذا كفر أصغر. وإن اعتقد أنه غير واجب، وأنه غير فيه. مع تيقنه أنه حكم الله. فهذا كفر أكبر. وإن جهله وأخطأه: فهذا عظمى، له حكم المخطئين.

والقصد: أن المعاصي كلها من نوع الكفر الأصغر. فإنها ضد الشكر، الذي هو العمل بالطاعة.

وأما الكفر الأكبر، فخمسة أنواع: كفر تكذيب، وكفر استكبار وإباء مع التصديق. وكفر إعراض. وكفر شرك. وكفر ففاق.

فأما كفر التكذيب: فهو اعتقاد كذب الرسل. وهذا القسم قليل في الكفار. فإن الله تعالى أيد رسله، وأعطاهم من البراهين والآيات على صدقهم ما أقام به الحجة. وأزال به المذعة. قال الله تعالى عن فرعون وقومه (٢٧: ١٤) وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً وقال لرسوله صلى الله عليه وسلم (٦: ٣٣) فإنهم لا يكذبونك. ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون).

وإن سُمي هذا كفر تكذيب أيضاً فصحيح. إذ هو تكذيب باللسان.

وأما كفر الإباء والاستكبار: فنحو كفر إبليس. فإنه لم يجحد أمر الله ولا قابله بالإنكار. وإنما تلقاه بالإباء والاستكبار. ومن هذا كفر من عرف صدق الرسول. وأنه جاء بالحق من عند الله، ولم يثق له إباء واستكباراً. وهو الغالب على كفر أعداء الرسل، كما حكى الله تعالى عن فرعون وقومه (٢٣: ٤٧) أنؤمن لبشرين مثلنا، وقومهما لنا عابدون؟) وقول الأئم لرسولهم (١٤: ١٠) إن أنتم إلا بشر مثلنا) وقوله (٩١: ١١) كذبت ثمود بطغواها) وهو كفر اليهود كما قال تعالى (٢: ٨٩) قلما جاءهم ماعرفوا كفروا به) وقال (٢: ١٤٦) يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) وهو كفر أبي طالب أيضاً. فإنه صدقه ولم يشك في صدقه. ولكن أخذته

الحمية، وتعظيم إياه ان يرغب عن ملتهم، ويشهد عليهم بالكفر .

وأما كفر الإعراض : فإن يعرض بسمعه وقلبه عن الرسول، ولا يصدقه ولا يكذبه. ولا يواليه ولا يعاديه. ولا يصغي إلى ما جاء به ألبتة، كما قال أحد بنى عبد اليل للنبي صلى الله عليه وسلم «والله أقول لك كلمة، إن كنت صادقا، فأنت أجل في عيني من أن أرد عليك. وإن كنت كاذبا، فأنت أحقر من أن أكلمك».

وهو كفر الملحدين اليوم من المسلمين بأسماء إسلامية، المقلدين للأفريج من اليهود والنصارى الملحدين عن كل حق وفضيلة، زاعمين بجاهليتهم وسفاههم: أن هذا هو سبيل الرقي والمدنية.

وأما كفر الشك: فإنه لا يجوز يصدقه ولا يكذبه، بل يشك في أمره. وهذا لا يستمر شكّه إلا إذا ألزم نفسه الإعراض عن النظر في آيات صدق الرسول صلى الله عليه وسلم جملة. فلا يسمحها ولا يلتفت إليها. وأما مع التفاته إليها، ونظرة فيها: فإنه لا يبقى معه شك. لأنها مستلزمة للصدق. ولا سيما مجموعها. فإن دلالتها على الصدق كدلالة الشمس على النهار.

وأما كفر النفاق: فهو أن يظهر بلسانه الإيمان، ويتطوى بقلبه على التكذيب. فهذا هو النفاق الأكبر. وسأيتي بيان أقسامه إن شاء الله تعالى.

وكفر الجحود نوعان: كفر مطلق عام، وكفر مقيد خاص.

فالطلق: أن يجحد جملة ما أنزله الله، وإرساله الرسول.

والخاص المقيد: أن يجحد فرضا من فروض الإسلام، أو تحريم محرم من محرماته، أو صفة وصف الله بها نفسه، أو خبراً أخبر الله به. عمداً، أو تقديماً لقول من خالفه عليه لفرض من الأغراض.

وأما جحد ذلك جهلاً، أو تأوًى لا يُعذرفيه صاحبه: فلا يكفر صاحبه به، كحديث الذي جحد قدرة الله عليه. وأمر أهله أن يحرقوه و يذروه في الريح. ومع هذا فقد غفر الله له، ورحمه لجهله. إذ كان ذلك الذي فعله مبلغ غلظه. ولم يجحد قدرة الله على إعادته عنادا أو تكديبا، والقصة مروية في صحيح البخاري وغيره.

• والشرك شركان ايضاً

وأما الشرك، فهو نوعان: أكبر وأصغر. فالأكبر: لا يغفره الله إلا بالتوبة منه. وهو أن يتخذ من دون الله نداً، يحبه كما يحب الله. وهو الشرك الذي تضمن تسوية آلهة المشركين برب العالمين. ولهذا قالوا لآلهتهم في النار (٩٧: ٩٨) تالله إن كنا لفي ضلال مبين * إذ نسويكم برب العالمين) منع إقرارهم بأن الله وحده خالق كل شيء، وربهم ومليكه، وأن آلهتهم

لا تخلق ولا ترزق، ولا تحيى ولا تميت. وإنما كانت هذه التسوية في المحبة والتعظيم والعبادة كما هو حال أكثر مشركي العالم، بل كلهم. يحبون معبوداتهم و يعظمونها و يوالونها من دون الله. وكثير منهم — بل أكثرهم — يحبون الهتهم اعظم من محبة الله. و يستبشرون بذكرهم أعظم من استبشارهم إذا ذكر الله وحده. و يغضبون لانتقص معبوديهم و آلهتهم — من المشايخ — أعظم مما يغضبون إذا انتقص أحد رب العالمين. وإذا انتهكت حرمة من حرمت آلهتهم و معبوداتهم غضبوا غضب الليث إذا حُرِد. وإذا انتهكت حرمت الله لم يغضبوا لها، بل إذا قام المنتهك لها بإطعامهم شيئاً رضوا عنه. ولم تنتكر له قلوبهم. وقد شاهدنا هذا نحن وغيرنا منهم بجملة. وترى أحدهم قد اتخذ ذكر إلهه و معبوده من دون الله على لسانه دليلاً له إن قام وإن قعد. وإن عثر وإن مرض وإن استوحش. فذكر إلهه و معبوده من دون الله هو الغالب على قلبه و لسانه. وهو لا يتكر ذلك. و يزعم أنه باب حاجته إلى الله، و شفيعه عنده. و وسيلته إليه.

وهكذا كان عباد الأصنام سواء. وهذا القدر هو الذي قام بقلوبهم، و توارثه المشركون بحسب اختلاف آلهتهم. فأولئك كانت آلهتهم من الحجر وغيرهم اتخذوها من البشر. قال الله تعالى، حاكياً عن أسلاف هؤلاء المشركين (٣: ٣٩) والذين اتخذوا من دونه أولياء: ما نعبدهم إلا ليقرّبونا إلى الله زلفى. إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون ثم شهد عليهم بالكفر والكذب. وأخبر: أنه لا يهديهم فقال (إن الله لا يهدي من هو كاذب كفان). فهذه حال من اتخذ من دون الله ولياً، يزعم أنه يقربه إلى الله. وما أضر من يخلص من هذا؟ بل ما أضر من لا يعادي من أنكره!

والذي في قلوب هؤلاء المشركين و سلفهم: أن آلهتهم تشفع لهم عند الله. وهذا عين الشرك. وقد أنكر الله عليهم ذلك في كتابه و أبطله. وأخبر أن الشفاعة كلها له، وأنه لا يشفع عنده أحد إلا لمن أذن الله أن يشفع فيه. ورضى قوله و عمله. وهم أهل التوحيد، الذين لم يتخذوا من دون الله شفعاء. فإنه سبحانه يأذن لمن شاء في الشفاعة لهم، حيث لم يتخذهم شفعاء من دونه. فيكون أسعد الناس بشفاعة من يأذن الله له: صاحب التوحيد الذي لم يتخذ شفيعاً من دون الله ربه و مولاه.

و «الشفاعة» التي أثبتها الله و رسوله: هي الشفاعة الصادرة عن إذنه لمن وَّحَّده. والتي نفاها الله: هي الشفاعة الشريكة، التي في قلوب المشركين، المتخذين من دون الله شفعاء. فيقاتلون بتقضى قسدهم من شفعاتهم. و يفوز بها الموحدون.

وتأمل قول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي هريرة — وقد سأله «من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله؟» — قال «أسعد الناس بشفاعتي: من قال لا إله إلا الله، خالصاً من قلبه» كيف جعل أعظم الأسباب التي تنال بها شفاعته: تجريد التوحيد، عكس

ما عند المشركين: أن الشفاعة تنال بانقاذهم أولياءهم شفعاء، وعبادتهم ومواليتهم من دون الله. فقلّب النبي صلى الله عليه وسلم ما في زعمهم الكاذب، وأخبر أن سبب الشفاعة: هو تجريد التوحيد. فحيث يأذن الله للشافع أن يشفع.

ومن تجهل المشرك: اعتقاده أن من اغتذ ولياً أو شفيماً: أنه يشفع له، ويتفهم عند الله، كما يكون خواص الملوك والولاة تنفع شفاعتهم من والاهم. ولم يعلموا أن الله لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، ولا يأذن في الشفاعة إلا لمن رضى قوله وعمله. كما قال تعالى في الفصل الأول (٢: ٢٥٥) من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه؟ وفي الفصل الثاني (٢١: ٢٨) ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) وبقي فصل ثالث، وهو أنه لا يرضى من القول والعمل إلا التوحيد، واتباع الرسول. وعن هاتين الكلمتين يسأل الأولين والآخرين. كما قال أبو العالية «كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرين: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟».

فهذه ثلاثة أصول. تقطع شجرة الشرك من قلب من وعها وعقلها: لاشفاعة إلا بإذنه. ولا يأذن إلا لمن رضى قوله وعمله. ولا يرضى من القول والعمل إلا توحيد، واتباع رسوله. فالله تعالى لا يفرق شرك العادلين به غيره، كما قال تعالى (٦: ١٠) ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) وأصح القولين: أنهم يعدلون به غيره في العبادة والموالاتة والمحبة، كما في الآية الأخرى (٢٦: ٩٧، ٩٨) تالله إن كنا لفي ضلال مبين * إذ نسويكم برب العالمين) وكما في آية البقرة (٢: ١٦٥) ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله).

وترى المشرك يكذب حاله وعمله وقوله، فإنه يقول: لا نحبهم كحب الله، ولا نسويهم بالله. ثم يغضب لهم ولحرمتهم — اذا انتهكت — أعظم مما يغضب لله، ويستبشّر بكفرهم، ويتشبهش به. سيما إذا ذكر عنهم ما ليس فيهم: من إغاثة اللهفات، وكشف الكربات، وقضاء الحاجات، وأنهم الباب بين الله وبين عباده. فإنك ترى المشرك يفرح ويُسَرُّ وَيَجُنُّ قلبه، وتهيج منه لواصع التعظيم والخضوع لهم والموالاتة، وإذا ذكرت له الله وحده، وتبرّكت توحيده لحقته وحُسنه، وضيق، وحرَج ورمال بنقص الإلهية التي له. وربما عاداك.

رأينا والله منهم هذا عياناً، ورمونا بمداوتهم. وبغوا لنا الغوائل. والله يحزّهم في الدنيا والآخرة. ولم تكن حجّتهم إلا أن قالوا، كما قال إخوانهم: عاب آهتنا، فقال هؤلاء: تنقصتم مشايخنا، وأبواب حوائجنا إلى الله. وهكذا قال النصارى للنبي صلى الله عليه وسلم، لما قال لهم «إن المسيح عبد الله» قالوا: تنقصت المسيح وعيّنته. وهكذا قال أشباه المشركين لمن منع انقاذ القبور أو ثنائاً تعبد، ومساجد تقصد، وأمر يزارتها على الوجه الذي أذن الله فيه ورسوله، قالوا: تنقصت أصحابها... وما ذلك بغير، قد قال الله تعالى (٣٩: ٤٥) وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون) والشرك الجديد هو بعينه القديم.

ومنشأ هذا جيتمه: التكذيب بيوم الدين، وأنه ليس على ما وصف الله العظيم الحكيم، من الجزاء العادل، ووزن الأعمال بالقيسط. وإنا هو — كما زعموا — بالأغراض والشفاعات التي لا يقدر الله — بزعمهم — على دفعها. وليست هذه هي الآخرة التي وصفها الله، وحذر عباده موافقتها. والمشركون — قديماً وحديثاً — يعتقدون أن أوليائهم فيهم شيء من خصائص الرب. ولذلك فهم يتأدبونهم، وقد ماتوا ودفنوا بهم. ويرجعون أنهم أحياء ليست حياة قبور وسؤال فيها، ولكن من جنس حياة الرب — سبحانه — يقدرون بها وفيها على ما لا يقدر عليه البشر الأحياء، فضلاً عن الموتى. فلما جاءت الرسل يقولون لهم: إنهم بشر ماتوا. قالوا لهم: أنتم تسبون أمتنا وتنتقمونها.

فتأملوا إلى هذا التشابه بين قلوبهم، حتى كأنهم قد تواصلوا به (١٧: ١٨) ومن يهتدي الله فهو المهتد. ومن يضل فلن تجد له ولياً مرشداً).

وقد قطع الله تعالى كل الأسباب التي تعلق بها المشركون جيتماً، قطعاً يعلم من تأمله وعرفه: أن من اتخذ من دون الله ولياً، أو شفعياً، فهو (٢٩: ٢٤) كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً. وإن أوتقن البيوت لبيث العنكبوت) فقال تعالى (٢٣: ٢٢: ٢٣) قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله. لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، وما لهم فيها من شرك، وما له منهم من ظهير. ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له).

فالمشرك إنما يتخذ مغبوه لما يعتقد أنه يحصل له به من النفع. والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع: إما مالك لما يريد عابده منه. فإن لم يكن مالكا كان شريكاً للمالك. فإن لم يكن شريكاً له كان نفعياً له وظهيراً، فإن لم يكن نفعياً ولا ظهيراً كان شفعياً عنده. فنحن سبحانه المراتب الأربع نفعياً مترتباً، منتقلاً من الأعلى إلى مادونه، فنحن المليك، والشركة، والمظاهرة، والشفاعة، التي يظنها المشرك. وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك، وهي الشفاعة بإذنه.

فكفى بهذه الآية نورا، وبرهاناً ونجاة، وتجريداً للتوحيد، وقطعاً لأصول الشرك ومتواده لمن عقلها. والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها. ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحتها، وتضمنه له. ويظنون في نوع وفي قوم قد حلوا من قبل ولم يُغيروا وأثارت. وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن.

ولعسر الله إن كان أولئك قد خلوا، فقد ورثهم من هو مثلهم، أو شر منهم، أو دونهم. وتناول القرآن لهم كتاباً له ولأولئك. ولكن الأمر كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه «إنا نتنفس عثرى الإسلام عروة عروة، إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية».

وهذا لأنه إذا لم يعرف الجاهلية والشركة، وما عابه القرآن ودفعه، وقع فيه وأقره، ودعا إليه وصوّبه وخسسه. وهو لا يعرف: أنه هو الذي كان عليه أهل الجاهلية، أو نظيره. أو شرمته، أو

ونه. فينتقص بذلك جرى الإسلام عن قلبه. ويعود المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، والبدع سنة، والسنة بدعة. ويكفر الرجل بمحض الإيمان وتجريد التوحيد. ويُذَّع بتجريد متابعة لرسول صلى الله عليه وسلم ومفارقة الأهواء والبدع. ومن له بصيرة وقلب حتى يرى ذلك عياناً، والله المستعان.

● إحصاء النفاق الأصغر

وأما الشرك الأصغر: فكيسر الرياء، والتصنع للخلق، والجلف بغير الله، كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «من حلف بغير الله فقد أشرك» وإنما كان الحلف بغير الله شركاً. لأن حقيقة اليمين ومقتضاه: أن الخالف يؤكد صدق خبره بأنه لو كان كاذباً ينتقم منه المحلوف به انتقاماً لا يقدر هو - ولا أحد من البشر - أن يدفعه. لأن المحلوف به يقدر أن يوصل انتقامه وبطشه من طريق فوق قدرة البشر وطاقتهم. وهذا لا يكون إلا لله القوى المتين ذي البطش الشديد. فقال كما يريد.

ومثله قول الرجل للرجل «ما شاء الله وشئت» و«هذا من الله ومنك» و«أنا بالله وبك» و«مالي إلا الله وأنت» و«أنا متوكل على الله وعليك» و«لولا أنت لم يكن كذا وكذا» وقد يكون هذا شركاً أكبر، بحسب قائله ومقصده. وصح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لرجل قال له «ما شاء الله وشئت»: «أجعلتني لله نداً؟ قل: ما شاء الله وحده» وهذا اللفظ أخف من غيره من الألفاظ.

ومن أنواعه: التوبة للشيوخ. فإنها شرك عظيم. فإن التوبة لا تكون إلا لله. كالصلاة، والصيام، والحج، والنسك. فهي خالص حق الله.

وفي المسند: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم «أتى بأسير فقال: اللهم إني أتوب إليك. ولا أتوب إلى محمد. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: عرف الحق لأهله». فالتوبة عبادة لا تنبئ إلا لله. كالسجود والصيام.

ومن أنواعه: النذر لغير الله. فإنه شرك. وهو أعظم من الحلف بغير الله. فإذا كان «من حلف بغير الله فقد أشرك» فكيف بمن نذر لغير الله؟ مع أن في السنن من حديث عقبة بن عامر عنه صلى الله عليه وسلم «النذر حيلة».

ومن أنواعه: الخوف من غير الله، والتوكل على غير الله، والعمل لغير الله، والإنابة والخضوع، والذل لغير الله. وابتغاء الرزق من عند غيره، وحمد غيره على ما أعطى. والغشية بذلك عن حمد سبحانه، والذم والسخط على ما لم يقسمه، ولم يجزبه القدر، وإضافة نعمه إلى غيره، واعتقاد أن يكون في الكون مالا يشاؤه.

ومن أنواعه: طلب الحوائج من الموتى، والاستغاثة بهم، والتوجه إليهم. وهذا أصل شرك العالم. فإن الميت قد انقطع عمله. وهو لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، فضلاً عما استغاث به، وسأله قضاء حاجته، أو سأله أن يشفع له إلى الله فيها. وهذا من جهله بالشافع والمشفوع له عنده، كما تقدم. فإنه لا يقدر أن يشفع له عند الله إلا بإذنه. والله لم يجعل استغاثته وسؤاله سبباً لإذنه. وإنما السبب لإذنه: كمال التوحيد. فجاء هذا المشرك بسبب يمنع الإذن. وهو بمنزلة من استعان في حاجة بما يمنع حصولها. وهذه حالة كل مشرك. والميت يحتاج إلى من يدعو له، ويترحم عليه، ويستغفر له، كما أوصانا النبي صل الله عليه وسلم، إذا زرنا قبر المسلمين «أن تترحم عليهم. ونسأل لهم العافية والمغفرة»

وما نجا من شرك هذا الشرك الأكبر إلا من جرد توحيده لله. وعادى المشركين في الله. وتقرب بمقتهم إلى الله. واتخذ الله وحده وليه وإلهه ومعبوده. فجرد حبه لله. وخوفه لله. ورجاه لله، وذله لله، وتوكله على الله، واستعانه بالله، والتجاء إلى الله، واستغاثته بالله. وأخلص قصده لله، متبهماً لأمره، متطلباً لمرضاته. إذا سأل سأل الله. وإذا استعان استعان بالله، وإذا عمل عمل لله. فهو لله. وبالله. ومع الله.

والشرك أنواع كثيرة لا يحصوها إلا الله. ولودهبنا نذكر أنواعه لا ننتع الكلام أعظم اتساع.

• داء النفاق

وأما النفاق: فالداء المضال الباطن، الذي يكون الرجل ممتلئاً منه، وهو لا يشعر. فإنه أمر خفى على الناس. وكثيراً ما يخفى على من تليس به. فيزعم أنه مصلح وهو مفسد. وهو نوعان: أكبر، وأصغر.

فالأكبر: يوجب الخلود في النار في دركها الأسفل. وهو أن يظهر للمسلمين إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. وهو في الباطن منسلخ من ذلك كله مكذب به. لا يؤمن بأن الله تكلم بكلام أنزله على بشر جملة رسولاً للناس، يهديهم بإذنه. وينذرهم بأسه، ويخونهم عقابه.

وقد هتك الله سبحانه أستار المنافقين. وكشف أسرارهم في القرآن. وجلى لعباده أمرهم. ليكونوا منها ومن أهلها على حذر. وذكر طوائف العالم الثلاثة في أول سورة البقرة: المؤمنين، والكفار، والمنافقين. فذكر في المؤمنين أربع آيات. وفي الكفار آيتين. وفي المنافقين ثلاث عشرة آية. لكثرتهم وعموم الابتلاء بهم. وشدة فتنتهم على الإسلام وأهله. فإن بلية الإسلام بهم

شديدة جداً. لأنهم منسوبون إليه، وإلى نصرته، وموالاته، وهم أعداؤه في الحقيقة. يخرجون عداوته في كل قالب يظن الجاهل أنه علم وإصلاح. وهو غاية الجهل والإفساد.

قللهم من مقتل للإسلام قد هدموه ١٢ وكمن من جحش له قد قتلوا أساسه ونهبوه ١٢ وكمن من علم له قد طمسوه ١٢ وكمن من لواء له مرفوع قد وضموه ١٢ وكمن من ضربوا بمحاول التثبي في أصول غراسه ليقتلوه ١٢ وكمن قتلوا عيون موارد بآرائهم ليدفنوها و يقطعوها ١٢.

فلا يزال الإسلام وأهله منهم في عنة وبلية. ولا يزال يطرحه من شهبهم سريّة بعد سريّة. ويزعمون أنهم بذلك مصلحون (٢: ١٢) ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون) • (١١: ٨ يريدون ليظفروا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون).

• قبائح الشخصية النفاقية

اتفقوا على مقارعة الوحي. فهم على ترك الاهتداء به مجتمعون (٢٣: ٥٣) وقطعوا أمرهم بينهم زُبراً. كل حزب بما لديهم فرحون) • (٦: ١١٢ يؤيى بعضهم إلى بعض زُفراً والقول غروراً) ولأجل ذلك (٢٥: ٣٠ اتخذوا هذا القرآن مهبجراً).

دّرت بمحالم الإيمان في قلوبهم فليسوا يعرفونها. وكررت معاهده عندهم فليسوا يصبرونها، وأقلّت كواكبه النيرة من قلوبهم فليسوا يميزونها. وكثفت شخسه عند اجتماع ظلم آرائهم وأفكارهم فليسوا يصبرونها. لم يقبلوا هدى الله الذي أرسل به رسوله. ولم يرفعوا به رأساً. ولم يبروا بالإعراض عنه إلى آرائهم وأفكارهم بأساً. خلعوا نصوص الوحي عن سلطة الحقيقة. وعزلوها عن ولاية اليقين. وشقوا عليها غارات التأويلات الباطلة، وقالوا: ما لنا ولظواهر القليلة لا تفيدنا شيئاً من اليقين؟ حسبتا ما وجدنا عليه خَلَقْنَا من المتأخرين. فإنهم أحلم بها من السلف الماضين، وأقدم بطرائق الحجاج والبراهين. وأولئك غلبت عليهم السذاجة وسلامة الصدور. ولم يتفرغوا لتمهيد قواعد النظر، ولكن صرفوا هميتهم إلى فعل المأمور وترك المحظور. فطريقة المتأخرين: أحلم وأحكم. وطريقة السلف الماضين: أجهل، لكنها أسلم.

قد نهكت أمراض الشبهات والشهوات قلوبهم فأهلكتها. وغلبت التصديغ النيفة على إرادتهم ونيتاتهم فأفسدتها. فسادهم قد تراسى إلى الملوك، فبزعزعه الأطباء العارفين (٢: ١٠) في قلوبهم مرض. فزادهم الله مرضاً ولم يذهب إليهم بما كانوا يكذبون)

أسماع قلوبهم قد ألقوا الوتر. فهي لا تسمع منادى الإيمان. وعيون بصائرهم عليها غشاة العمى. فهي لا تبصر حقائق القرآن. وألسنتهم بها خرّس عن الحق فهم به لا ينتفون (٢: ١٨) صُمُّ بُكْمٌ عُُمِّيٌّ فهم لا يرجعون)

هم علامات يُقرّون بها مبينة في السنة والقرآن. بادية لمن تدبرها من أهل بصائر الإيمان. قام بهم - والله - الرياء. وهو أقيح مقام قامه الإنسان وقعدهم الكسل عما أمروا به من أوامر الرحمن. فأصبح الإخلاص عليهم لذلك ثقيلاً (٤: ١٤٣) وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى. يراءون الناس. ولا يذكرون الله إلا قليلاً).

أحدهم كالشاة العائرة بين الغنمين، تبتغى إلى هذه مرة وإلى هذه مرة. ولا تستقر مع إحدى الغنمين. فهم واقفون بين الجمعين. ينظرون أنهم أقوى وأعز قبيلًا (٤: ١٤٣) مُدْبِدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ. لَا إِلَى هَؤُلَاءِ، وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ. وَمَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَلَنْ يَهْدِيَهُ إِلَّا سَبِيلًا).

يترى بصون الدوائر بأهل السنة والقرآن. فإن كان لهم فتح من الله، قالوا: ألم تكن معكم؟ وأقسموا على ذلك بالله جهد أيمانهم. وإن كان لأعداء الكتاب والسنة من النصرة نصيب، قالوا: ألم تعلموا أن عقد الإخاء بيننا محكم. وأن النسب بيننا قريب؟ فما من يريد معرفتهم، خذ صفاتهم من كلام رب العالمين. فلا تحتاج بعده دليلاً (٤: ١٤١) الذين يترى بصون بكم. فإن كان لكم فتح من الله، قالوا: ألم تكن معكم؟ وإن كان للكافرين نصيب، قالوا: ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين؟ فالله يحكم بينكم يوم القيامة. ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً).

يجب السامع قول أحدهم لحلاوته ولينه. ويشهد الله على ما في قلبه من كذبه وميته. فتراه عند الحق نائماً. وفي الباطل على الأقدام. فخذ وصفهم من قول القدوس السلام (٢: ٢٠٤) ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه. وهو ألد الخصام).

أوامرهم التي يأمرون بها أتباعهم متضمنة لفساد البلاد والعباد. ونواهيهم عنا فيه صلاحهم في المعاش والمعاد. وأحدهم تلقاه بين جماعة أهل الإيمان في الصلاة والذكر والزهد والاجتهاد (٢: ٣٠٥) وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل. والله لا يحب الفساد).

إن حاكمتهم إلى طريق الوحي وجدتهم عنه تافزين. وإن دعوتهم إلى حكم كتاب الله وستة رسالة صلى الله عليه وسلم رأيتهم عنه معرضين. فلو شهدت حقائقهم لرأيت بينها وبين الهدى أمداً بعيداً. ورأيتها معرضة عن الوحي إعراضاً شديداً (٤: ٦١) وإذا قيل لهم: تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول، رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً).

تسبق بين أحدهم كلامه من غير أن يعترض عليه. لعله أن قلوب أهل الإيمان لا تطمئن إليه. فيستبرأ بيمينه من سوء الفتن به وكشف مالهيه. وكذلك أهل الرية يكذبون. ويخلفون ليحسب السامع أنهم صادقون، قد (٢: ٦٣) اتخذوا أيمانهم جنة. فصعدوا عن سبيل الله.

إنهم ساء ما كانوا يعملون).

تَبَّأْهُمْ! برزوا إلى البيداء مع ركب الإيمان. فلما رأوا طول الطريق وبعُد الشقة تكصروا على أعقابهم ورجعوا وظنوا أنهم يتمتعون بطيب العيش ولذة المنام في ديارهم. فما مثعبا به ولا بتلك المجهدة انتفعوا. فكيف حالهم عند اللقاء؟ وقد عرفوا ثم أنكروا. وضوا بعد ما عاينوا الحق وأبصروا (٦٣: ٣) ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا. فطُيخَ على قلوبهم. فهم لا يفقهون). أحسن الناس أجساما، وأخْلَبهم لسانا. وألطفهم بيانا. وأخْشَبهم قلوبا. وأضعفهم خُجْنا. فهم كالحشْب السندة التي لا بُرْ لها. قد قُلعت من ممارسها فتساندت إلى حائط يقيمها، فلا يطاقها السالكون (٦٣: ٤) وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم. وإن يقولوا تسمع لقولهم. كأنهم خُشْب مُسْتَدَّة. يحسبون كل صيحة عليهم. هم المدو. فاحذرهم! فأنلهم الله. أَلَى يَوْفُكُون؟).

يُخْرُونَ الصلاة عن وقتها الأول، فالصبح عند طلوع الشمس والمصر عند الغروب. و يتقرونها تَقَرُّ الغراب. إذ هي صلاة الأبدان، لاصلاة القلوب. و يلتصق فيها التفات الثلب، إذ يتيقن أنه مطرود مطلوب. ولا يشهدون الجماعة، بل إن صلى أحدهم ففى البيت أو الدكان. إن أصاب أهل الكتاب والسنة عاقية ونصر وظهور ساءهم ذلك وعَثَمهم. وإن أصابهم ابتلاء من الله وامتحان يحص به ذنوبهم، و يكفر به عنهم سيئاتهم أفرحهم ذلك وسرهم (٣: ١٢٠) إن تمسكتم حسنة تسؤمهم. وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها).

كره الله طاعتهم، لخبث قلوبهم وفساد نياتهم. فَنَبِطَهم عنها وأقعدهم. وأبغض قُرْبهم منه وجواره، لميلهم إلى أعدائه. فطردهم عنه وأبعدهم. وأعرضوا عن وحيه فأعرض عنهم. وأشقاهم وما أسعدهم. وحكم عليهم بحكم عدل لا مطمع لهم في الفلاح بعده، إلا أن يكونوا من التائبين. فقال تعالى (٩: ٤٦) ولو أرادوا الخروج لأعدوا له هُدًى. ولكن كره الله انبعاثهم. فشبطهم. وقيل: أقعدوا مع القاعدين) ثم ذكر حكيمته في تشبيطهم وإقعادهم، وطردهم عن بابهِ وإبعادهم، وأن ذلك من لطفه بأوليائه وإسعادهم. فقال، وهو أحكم الحاكمين (٩: ٤٧) لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا. ولأضعوا خيالكم. يفتنونكم الفتنة. وفيكم سَمَاعُونَ لهم. والله عليم بالظالمين).

ثقلت عليهم النصوص فكهروها. وأعياهم حلها فالتقوها عن اكتافهم ووضعوها. وتفلت منهم السنن أن يحفظوها فأهلوها. وصالت عليهم نصوص الكتاب والسنة فوضعوها قوانين ردوها بها ودفعوها. ولقد هتك الله أستارهم. وكشف أسرارهم، وضرب لعباده أمثالهم. وأعلم أنه كلما انقضى منهم طوائف خلّفهم أمثالهم. فذكر أوصافهم لأوليائه ليكونوا منها على حذر. وبينها لهم. فقال (٤٧: ٩) ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم).

أسروا سرائر النفاق. فأظهرها الله على صفحات الوجوه منهم، وقلنات اللسان. ووسمهم لأجلها بسماء لا يخفون بها على أهل البصائر والإيمان. وعلتوا أنهم إذ كتموا كفرهم وأظهروا إيمانهم راجوا على الصيارف والنقاد. كيف؟ والناقد البصير قد كشفها لكم (٤٧: ٢٩، ٣٠) أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم؟ ولو نشاء لأريناكمهم. فلعرفتهم بسماهم * ولتعرفنهم في لحن القول. والله يعلم أعمالكم). فكيف إذا جمعوا ليم التلاقي، وتعالى الله — جلّ جلاله — للعباد وقد كُشف عن ساق؟ ودعوا إلى السجود فلا يستطيعون (٦٨: ٤٣) خاشعة أبصارهم تركّضهم ذلّة. وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون).

أم كيف بهم إذا حُشروا إلى جسر جهنم؟ وهو أذق من الشرة، وأخذ من الحسام. وهو دَحْضُ مزلة، مُظْلَم لا يقطعه أحد إلا بنور يصبره مواطيء الأقدام. فَشُمْتُ بين الناس الأنوار. وهم على قدر تفاوتها في المرور والذهاب. وأخطوا نوراً ظاهراً مع أهل الإسلام. كما كانوا بينهم في هذه الدار يأتون بالصلاة والزكاة والحج والصيام. فلما توسلوا الجسر خُصِفَتْ على أنوارهم أهوية النفاق. فاطقات ما بأيديهم من المصاييح. فوقفوا حيازى لا يستطيعون المرور. فَضُرب بينهم وبين أهل الإيمان يسور له باب. ولكن قد حيل بين القوم وبين المفاتيح، باطنه — الذى على المؤمنين — فيه الرحمة، وما يليهم من يَتْلَهُمُ العذاب والنقمة. ينادون من تقدمهم من وفد الإيمان، ومشاعل الركب تلوح على بعد كالنجوم. تبتدون لناظر الإنسان (٥٧: ١٣) انظرونا نَفْقِيسَ من نوركم) لتتمكن في هذا المضيق من العبور. فقد اطفئت أنوارنا. ولا جواز اليوم إلا بمصباح من النور (قيل: ارجعوا وراءكم. فالتمسوا نوراً) حيث قسمت الأنوار. فهيهات الوقوف لأحد في مثل هذا المضمار! كيف نلتمس الوقوف في هذا المضيق؟ فهل يلوى اليوم أحد على أحد في هذا الطريق؟ وهل يلتفت اليوم رفيق إلى رفيق؟ فذُكِّرْوهم باجتماعهم معهم وصحبتهم لهم في هذه الدار. كما يُذَكَّرُ الغريب صاحب الوطن بصحبته له في الأسفار (ألم نكن معكم؟) نصوم كما تصومون، ونصل كما تصلون. ونقرأ كما تقرأون. ونتصدق كما تصدقون. ونحج كما تحجون؟ فما الذى فرق بيننا اليوم، حتى انفردتم دوننا بالمرور؟ (قالوا: بل) ولكنكم كانت ظواهركم معنا وبواطنكم مع كل ملحد، وكل ظالم كفور (٥٧: ١٤) ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربضتم وأرقيتم، وغرركم الأمانى. حتى جاء أمر الله وغرركم بالله الغرور * فالسيوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا. ما يؤكم النار هي مولاكم. وبش المصير).

لا تستغل أوصاف القوم. فالتروك — والله — أكثر من المذكور. كاد القرآن أن يكون كله في شأنهم، لكشرتهم على ظهر الأرض وفي أجواف القبور. فلا تخلت بقاع الأرض منهم فلا

يستوحش المؤمنون في الطرقات. وتتمطل بهم أسباب المعاش، وتغطفهم الوحوش والسياع في الغلوات. سمع حذيفة رضي الله عنه رجلاً يقول: اللهم أهلك المنافقين. فقال «يا ابن أخی، لو هلك المنافقون لاستوحشت من طرقاتكم من قلة السالك».

تالله لقد قُطِع خوف النفاق قلوب السابقين الأولين. لعلهم بدق وجهه وتفصيله وجهه. ساءت ظنونهم بنفوسهم حتى خشوا أن يكونوا من جلة المنافقين. قال عمر بن الخطاب لحذيفة رضي الله عنهما «يا حذيفة، نشدك بالله، هل سمّاني لك رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم؟ قال: لا. ولا أركى بعدك أحداً» وقال ابن أبي مليكة «أدرکت ثلاثين من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول: إن إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل» ذكره البخاري. وذكر عن الحسن البصري «ما آمنه إلا منافق. وما خافه إلا مؤمن» ولقد ذكر عن بعض الصحابة: أنه كان يقول في دعائه «اللهم إني أهو بك من خشوع النفاق. قيل: وما خشوع النفاق؟ قال: أن يرى البدن عاشعاً والقلب ليس بخاشع».

تالله لقد مُلئت قلوب القوم إيماناً وقيتاً، وخوئهم من النفاق شديد. وقههم لذلك قتل، وسواهم كثير منهم لا يجاوز إيمانهم حناجرهم. وهم يدعون أن إيمانهم كإيمان جبريل وميكائيل. زرع النفاق يبت على ساقيتين: ساقية الكذب، وساقية الرياء. ومخرجهما من عينين: عين ضعف البصيرة، وعين ضعف العزيمة. فإذا تمّت هذه الأركان الأربعة: استحکم نبات النفاق وبنیانه. ولكنه بمدارج السيول على شفا جُرْف هار. فإذا شاهدوا سيل الحقائق يوم تُبلى السرائر، وكُشف المستور، وبثر ما في القبور، وشُقّل ما في الصدور. تبين حينئذ لمن كانت بضاعته النفاق: أن حواصله التي حَصَلها كانت كالسراب (٣٩:٢٤) يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً. ووجد الله عنده فوفّاه حسابه، والله سريع الحساب).

قلوبهم عن الخيرات لاهية. وأجسادهم إليها ساعية. والفاحشة في فتاجهم فاشية. وإذا سمعوا الحق كانت قلوبهم عن سماعه قاسية. وإذا حضروا الباطل وشهدوا الزور انفتحت أبصار قلوبهم، وكانت آذانهم وإعية.

فهذه — والله — أمارات النفاق. فاحذرها أيها الرجل قبل أن تنزل بك القاضية. إذا عاهدوا لم يفوا. وإن وعدوا أخلفوا. وإن قالوا لم ينصقوا. وإن دُعوا إلى الطاعة وقفوا. وإذا قيل لهم: تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول صدّقوا وإذا دعيتهم أهواؤهم إلى أغراضهم أسروا إليها وانصرفوا. فذرهم وما اختاروا لأنفسهم من الهوان. والحرى والحسران. فلا تثق بمعهودهم. ولا تطمئن إلى وعودهم. فإنهم فيها كاذبون. وهم لما سواها مغالون (٧٧-٧٥:٩) ومنهم من عاهد الله: لئن آتانا من فضله، لنصدقن ولنكونن من الصالحين. فلما آتاهم من فضله

بخلوا به وتولوا وهم معرضون. فأعقبهم نفاقا في قلوبهم الى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وما كانوا يكدبون).

• انواع الفسوق

وأما الفسوق: فهو في كتاب الله نوعان: مفرد مطلق. ومقرون بالعصيان.
والمفرد نوعان أيضاً: فسوق كفر، يخرج عن الإسلام. وفسوق لا يخرج عن الإسلام. فالمقرون
كقوله تعالى (٧: ٤٩) وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ، وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ. وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ
الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ، أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ.

والمفرد - الذي هو فسوق كفر - كقوله تعالى (٢٧: ٢٦) يضل به كثيراً ويهدى به
كثيراً. وما يضل به إلا الفاسقين. الذين ينقضون عهد الله - الآية) وقوله عز وجل (٢: ٩٩)
ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون) وقوله (٣٢: ٢٠) وأما الذين
فسقوا فمأواهم النار. كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها - الآية) فهذا كله فسوق
كفر.

وأما الفسوق، الذي لا يخرج عن الإسلام: فكقوله تعالى (٨٢: ٢) وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ
بِكُمْ - الآية) وقوله (٦: ٤٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ - الآية) فإن هذه
الآية أنزلت في الوليد بن عتبة بن أبي مُعَيْط لما بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني
المصطلق بعد الواقعة مُضْتَفًا. وكان بينه وبينهم عداوة في الجاهلية. فلما سمع القوم بمقدمه تَلَفَّوه،
تحظيماً لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم. فحدّثه الشيطان: أنهم يريدون قتله. فهاهم فرجع
من الطريق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: إن بني المصطلق منعوا صدقاتهم. وأرادوا
قتلي. فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهَمَّ أَنْ يَغْزُوهُمْ. فبلغ القوم رجوعه فأتوا رسول
الله، فقالوا يارسول الله سمعنا برسولك، فخرجنا نلتقاء ونكرمة. وتودى إلى ما قبلنا من حق
الله، فبدا له في الرجوع. فخشينا أنه إما رَدَّه من الطريق كتاب جاء منك لغضب غضبت علينا.
وإننا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله. فاتهمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم. وبعث خالد
ابن الوليد خفية في عسكر. وأمره أن يخفى عليهم قدومه. وقال له: انظر. فإن رأيت منهم ما يدل
على إيمانهم فخذ منهم زكاة أموالهم، وإن لم تر ذلك فاستعمل فيهم ما تستعمل في الكفار. ففعل
ذلك خالد. ووافاهم. فسمع منهم أذان صلاتي المغرب والعشاء، فأخذ منهم صدقاتهم. ولم ير
منهم إلا الطاعة والخير. فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره الخبر. فنزل (بأيها
الذين آمنوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا - الآية).

و «النبأ» هو الخبر الغائب عن المخبر إذا كان له شأن. و «التين» طلب بيان حقيقته والإحاطة بها علماً.

وههنا فائدة لطيفة. وهى أنه سبحانه لم يأمر برد خبر الفاسق وتكذيبه ورد شهادته جملة. وإنما أمر بالتين. فإن قامت قرائن وأدلة من خارج تدل على صدقه عمل بدليل الصدق. ولو أخبر به من أخبر. فهكذا يتبني الاعتماد فى روية الفاسق وشهادته وكثير من الفاسقين يصدقون فى أخبارهم ورواياتهم وشهاداتهم، بل كثير منهم يتحرى الصدق غاية التحرى. وفسقه من جهات أخر. فمثل هذا لا يرد خبره ولا شهادته. ولوردت شهادة مثل هذا وروايته لتعطلت أكثر الحقوق. وبطل كثير من الأخبار الصحيحة. ولا سيما من فسقه من جهة الاعتقاد والرأى. وهو مُتَحَرِّجٌ للصدق. فهذا لا يرد خبره ولا شهادته.

وأما من فسقه من جهة الكذب: فإن كثرت منه وتكرر، بحيث يغلب كذبه على صدقه، فهذا لا يقبل خبره ولا شهادته. وإن ندرته مرة ومرتين. ففى رد شهادته وخبره بذلك قولان للعلماء. وهم رايان عن الإمام أحمد رحمه الله.

والمنقوص: ذكر الفسوق الذى لا يخرج إلى كفر.

وغسوق الذى تجب التوبة منه أعم من الفسوق الذى ترد به الرواية والشهادة. وكلامنا الآن فيما تجب التوبة منه. وهو قسمان: فسق من جهة العمل.. وفسق من جهة الاعتقاد.

فسق العمل نوعان: مقرون بالمعصيان ومعه.

فالمقرون بالمعصيان: هو ارتكاب ما نهى الله عنه. والمعصيان: هو عصيان أمره. كما قال الله تعالى (٦٦:٦) لا يعصون الله ما أمرهم) وقال موسى لأخيه هرون عليهما السلام (٢٠:٩٢) ٩٣ ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعنى؟ أفمضيت أمرى؟ وقال الشاعر.

أمرتُك أمراً جازماً. فعصيتنى فأصبحت مسلوب الإمامة نادماً

فالفسق أخص بارتكاب النهى، وهـ يطلق عليه كثيراً. كقوله تعالى (٢٨٢:٢) وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم) والمعصية أخص بمخالفة الأمر كما تقدم. ويطلق كل منهما على صاحبه. كقوله تعالى (٢٠:٥٠) إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه) فسى مخالفته للأمر فسقاً. وقال (٢٠:١٢١) وعصى آدم ربه فغوى) فسى ارتكابه للنهى معصية. فهذا عند الأفراد. فإذا اقترنا كان أحدهما لمخالفة الأمر، والآخر لمخالفة النهى.

و «التقوى»: اتقاء مجموع الأمرين. وتحقيقها تصح التوبة من الفسوق والمعصيان، بأن يحسن العبد بطاعة الله على نور من الله، يرجو ثواب الله. ويترك معصية الله، على نور من الله. يخاف عقاب الله

ومن تأمل كلمة «التقوى» في كلام الله سبحانه وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم وكلام العرب — وقد سلم من التقليد وترديد الكلام بلا تدبر — علم أن «التقوى» هي أن يأخذ العبد من كل ما أعطاه الله ربه وقاية له من كل ما يكره ويغاف من الخيبة والخسران في الأول والأخرى، ويتحرى بكل بقطة وهدى وبصيرة أن يجعل منه سبباً لفلاحه في الأول والأخرى، مؤمناً بأن كل ما آتاه ربه في نفسه وماله وولده وما سخر له: صالح أن يكون سبباً للفلاح وسبباً للخسران، بل القرآن نفسه كذلك (٨٢: ١٧) ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين. ولا يزيد الظالمين إلا خساراً فضلاً عن غيره. ولذلك أوصانا الله ربنا أن نعوذ به ونلجأ إليه حال تلاوتنا لكل كلمة من القرآن من الشيطان الرجيم، حتى لا يضلنا في فهمها هل وضعا الذي أراد الله لنا منها فتكون من الحاسرين.

وأما فسق الاعتقاد: كفسق أهل البدع الذين يؤمنون بالله ورسوله واليوم الآخر ويمرهم ما حرم الله. ويوجبون ما أوجب الله. ولكن يتفنون كثيراً بما أثبت الله ورسوله، جهلاً وتأويلاً، وتقليداً للشيوخ. ويبتغون ما لم يثبت الله ورسوله كذلك.

فالتوبة من هذا الفسوق: بإثبات ما أثبت الله لنفسه ورسوله، من غير تشبيه ولا تمثيل، وتزجيئه عما تزه نفسه عنه وتزه عنه رسوله، من غير تحريف ولا تعطيل. وتلقى النفي والإثبات من مشكاة الوحي. لا من آراء الرجال ونتائج أفكارهم التي هي منشأ البدعة والفسالة.

فتوبة هؤلاء الفساق من جهة الاعتقادات الفاسدة: بحض اتباع السنة. ولا يكتفى منهم بذلك أيضاً حتى يبينوا فساد ما كانوا عليه من البدعة. إذ التوبة من ذنب هي بفعل ضده. ولهذا شرط الله تعالى في توبة الكاتمين ما أنزل الله من البينات والهدى: البيان. لأن ذنبهم لما كان بالكتمان، كانت توبتهم منه بالبيان. قال الله تعالى (١٦٠، ١٥٩: ٢) إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب، أولئك يلعنهم الله. ويلمعنهم اللاعنون، إلا الذين تابوا وأصلحوا وينوا. فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم) وذنب المبتدع فوق ذنب الكاتم. لأن ذاك كتم الحق. وهذا كتمه ودعا إلى خلافه. فكل مبتدع كاتم ولا ينمكس.

وشرط في توبة المنافق: الإخلاص. لأن ذنبه بالرياء. فقال تعالى (١٤٦، ١٤٥: ٤) إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار — ثم قال — إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله. فأولئك مع المؤمنين، وسوف يؤتي الله المؤمنين أجراً عظيماً).

• ألوان من السوء... أخرى

وأما «الإثم والعدوان» فهما قرينان. قال الله تعالى (٥: ٢) وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان (وكل منهما إذا أفرد تضمن الآخر. فكل إثم عدوان. إذ هو

فعل ما نهى الله عنه، أو ترك ما أمر الله به. فهو عدوان على أمره ونهيه، وكل عدوان إثم. فإنه يأنم به صاحبه. ولكن عند اقترانهما فهما شيان بحسب متعلقهما ووصفهما.
فـ «الإثم» ما كان محرم الجنس كالكذب، والزنا، وشرب الخمر، ونحو ذلك.
و «العدوان» ما كان محرم القدر والزيادة.

فالعدوان: تعدى ما أبيح منه إلى القدر المحرم والزيادة، كالاتداء في أخذ الحق من هو عليه، إما بأن يتعدى على ماله، أو بدنه أو عرضه. فإذا غصب خشية لم يرض عوضها إلا داره. وإذا أتلّف عليه شيئاً أتلّف عليه أضعافه. وإذا قال فيه كلمة قال فيه أضعافها. فهذا كله عدوان وتقيد للعدل.

وهذا العدوان نوعان: عدوان في حق الله، وعدوان في حق العبد، كما إذا تعدى ما أباح الله له من الوطء الحلال في الأزواج والملوكات إلى ما حرم عليه من سواهما. كما قال تعالى (٢٣: ٥ - ٧) والذين هم لغروجهم حافظون. إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم. فإنهم غير ملومين. فمن اجتنب وراء ذلك فأولئك هم العادون) وكذلك تعدى ما أبيح له من زوجته وأمه إلى ما حرم عليه منها، كوطئها في حيضها أو نفاسها، أو في إحرام أحدهما، أو صيامه الواجب. ونحو ذلك.

وكذلك كل من أبيح له منه قدر معين فتمدها إلى أكثر منه. فهو من العدوان، كمن أبيح له نظرة الخطبة، والشهادة، والمعاملة، والمداواة، فأطلق نظره في ميادين محاسن المنظور، فتعدى المباح إلى القدر المحظور، وحام حول الحيى المحيط المحجور.
و «الإثم» و «العدوان» هما الإثم والبغى المذكوران في سورة الأعراف (٣٣: ٧) مع أن «البغى» غالب استعماله في حقوق العباد والاستطالة عليهم.

وعلى هذا فإذا قرن البغى بالعدوان كان «البغى» ظلمهم بمحرم الجنس، كالسرقة والكذب، والبهت والابتداء بالأذى. و «العدوان» تعدى الحق في استيفائه إلى أكبر منه. فيكون البغى والعدوان في حقهم كالإثم والعدوان في حدود الله. فههنا أربعة أمور: حق لله وله حد، وحق لعباده وله حد. فالبغى والعدوان والظلم تجاوزا للحدين إلى ما وراءهما، أو التخصير عنهما. فلا يصل إليهما.

وأما «الفحشاء والمنكر» فالفحشاء. صفة لموصوف قد حذف تحريداً لقصد الصفة. وهى الفعلية الفحشاء، والخصلة الفحشاء وهو ما ظهر قبحها لكل أحد. واستفحش كل ذى عقل سليم. ولهذا قسرت بالزنا واللواط، وسماهما الله «فاحشة» لتناهى قبحهما. وكذلك القبيح من القول يسمى فحشا. وهو ما ظهر قبحه جداً من السب القبيح، والقذف ونحوه.
وأما «المنكر» فصفة لموصوف محذوف أيضاً. أى الفعل المنكر. وهو الذى تستنكره العقول

سقط. ونسبته إليها كنيسة الرائحة القبيحة إلى حاسة الشم. والمنظر القبيح إلى العين. والطعم
 مستكره إلى الذوق. والصوت المستنكر إلى الأذن. فما اشتد إنكار العقول والفطر له فهو فاحشة.
 كما فُحش إنكار الحواس له من هذه المدركات.
 فالمنكر لها: ما لم تعرفه ولم تألفه. والقبيح المستكره لها: الذي تشتد نفرتها عنه وهو
 الفاحشة. ولذلك قال ابن عباس «الفاحشة الزنا، والمنكر ما لم يعرف في شريعة ولا سنة».
 فتأمل تفرقه بين ما لم يعرف حُسنه ولم يؤلف، وبين ما استقر قبحه في الفطر والعقول.

● القول على الله بلا علم: أصل المفاسد

وأما «القول على الله بلا علم» فهو أشد هذه المحرمات تحريماً. وأعظمها إثماً. ولهذا ذكر في
 المرتبة الرابعة من المحرمات التي اتفقت عليها الشرائع والأديان. ولا تباح بحال. بل لا تكون
 إلا محرمة. وليست كالهيئة والدم ولحم الخنزير، الذي يباح في حال دون حال.
 فإن المحرمات نوعان: محرم لذاته لا يباح بحال، ومحرم في وقت دون وقت. وقال الله تعالى
 في المحرم لذاته (٣٣:٧) قل: إنما حَرَّمَ رَبِّي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ثم انتقل منه
 إلى ما هو أعظم منه فقال (والأنثى والبغي بغير الحق) ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه. فقال
 (وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً) ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه. فقال (وأن
 تقولوا على الله ما لا تعلمون) فهذا أعظم المحرمات عند الله وأشدّها إثماً. فإنه يتضمن الكذب
 على الله، ونسبته إلى ما لا يليق به، وتغيير دينه وتبديله، ونفى ما أثبتته وإثبات ما نفيه، وتحقيق ما
 أبطله وإبطال ما حققه، وعداوة من والاه وموالاته من عاداه، وحب ما أبغضه وبغض ما أحبه،
 ووصفه بما لا يليق به في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله.

فليس في أجناس المحرمات أعظم عند الله منه، ولا أشدّ إثماً. وهو أصل الشرك والكفر.
 وعليه أسست البدع والضلالات. فكل بدعة مضلة في الدين أساسها القول على الله بلا علم.
 ولهذا اشتد نكير السلف والأئمة لها. وصاحوا بأهلها من أقطار الأرض. وحذروا فتنهم
 أشد التحذير. وبالغوا في ذلك ما لم يبالغوا مثله في إنكار الفواحش، والظلم والعدوان. إذ مضرة
 البدع وهدمها للدين ومناقضتها له أشد. وقد أنكر تعالى على من نسب إلى دينه تحليل شيء أو
 تحريمه من عنده. بلا برهان من الله. فقال (١٦:١٦) ولا تقولوا لما تصف السنتكم
 الكذب: هذا حلال وهذا حرام. لتفتروا على الله الكذب — الآية).

فكيف بمن نسب إلى أوصافه سبحانه وتعالى ما لم يصف به نفسه؟ أو نفى عنه منها ما
 وصف به نفسه؟

قال بعض السلف: لِيَتَحَذَّرَ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقُولَ: أَحَلَّ اللَّهُ كَذَا. وَحَرَّمَ اللَّهُ كَذَا. فَيَقُولَ اللَّهُ: كَذِبٌ. لَمْ أَحَلِّ هَذَا، وَلَمْ أُحَرِّمْ هَذَا.

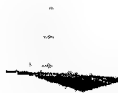
يعنى التحليل والتحرير بالرأى المجرد، بلا برهان من الله ورسوله. وأصل الشرك والكفر: هو القول على الله بلا علم. فإنَّ المشرك يزعم أنَّ من اتخذ معبوداً من دون الله، يقرب به إلى الله. ويشفع له عنده. ويقضى حاجته بواسطته، كما تكون الوسائط عند الملوك. فكل مشرك قاتل على الله بلا علم. دون العكس. إذ القول على الله بلا علم قد يتضمن التعطيل والابتداع في دين الله. فهو أعم من الشرك. والشرك فرد من أفراد.

ولهذا كان الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم موجباً لدخول النار، واتخاذ منزلة منها مُبْتَوًى، وهو المنزل اللازم الذى لا يفارقه صاحبه. لأنه متضمن للقول على الله بلا علم. كصريح الكذب عليه. لأن ما انضاف إلى الرسول فهو مضاف إلى المرسل. والقول على الله بلا علم صريح افتراء الكذب عليه (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا؟).

فذنوب أهل البدع كلها داخلة تحت هذا الجنس فلا تتحقق التوبة منه إلا بالتوبة من البدع.

وأنى بالتوبة منها لمن لم يعلم أنها بدعة، أو يظنها سنة، فهو يدعو إليها، ويحض عليها؟ فلا تنكشف لهذا ذنوبه التى تجب عليه التوبة منها إلا بتضلمه من السنة. وكثرة اطلاعه عليها، ودوام البحث والتفتيش عليها. ولا ترى صاحب بدعة كذلك أبداً.

فإنَّ السنن بالذات -تمحق البدعة. ولا تقوم لها. وإذا طلعت شمسها في قلب العبد قطعت من قلبه ضباب كل بدعة، وأزالت ظلمة كل ضلالة. إذ لاسلطان للظلمة مع سلطان الشمس. ولا يرى العبد الفرق بين السنة والبدعة، ويعينه على الخروج من ظلمتها إلى نور السنة، إلا المتابعة، والمجرة بقلبه كل وقت إلى الله، بالاستعانة والاخلاص، وصدق اللجأ إلى الله. والمجرة إلى رسوله، بالحرص على الوصول إلى أقواله وأعماله وهديه وسنته «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله» ومن هاجر إلى غير ذلك فهو حظه ونصيبه في الدنيا والآخرة. والله المستعان.



مَشْهَدُ الْبِلْعَصِيَّةِ

وهي: مشهد الحيوانية وقضاء الشهوة، ومشهد الجبر. ومشهد القدر. ومشهد الحكمة. ومشهد التوفيق والخذلان. ومشهد التوحيد. ومشهد الاسماء والصفات. ومشهد الايمان وتعدد شواهد. ومشهد الرحمة. ومشهد العجز والضعف. ومشهد الذل والافتقار. ومشهد المحبة والعبودية. فالثلاثة الأول: للمتحرفين، والبواقي لأهل الاستقامة. وهذا الفصل من أجل فصول الكتاب. وأنفعها لكل أحد. وهو حقيق بأن تُثنى عليه الخاصر، ولعلك لا تغفربه في كتاب سواء. إلا ما ذكرناه في كتابنا المسمى «سفر المهجرين في طريق السعادين».

• الطبائع الحيوانية في بعض البشر

فأما مشهد الحيوانية، وقضاء الشهوة: فمشهد الجهال، الذين لا فرق بينهم وبين سائر الحيوان، إلا في اعتدال القامة ونطق اللسان. ليس مهمم إلا مجرد نيل الشهوة بأي طريق أفضت إليها. فهؤلاء نفوسهم نفوس حيوانية، لم تترق عنها إلى درجة الإنسانية، فضلا عن درجة الملائكة. فهؤلاء حالم أخس من أن تذكر. وهم في أحوالهم متفاوتون بحسب تفاوت الحيوانات التي هم على أخلاقها وطباعها.

فمنهم: من نفسه كلبية. لو صادف جيفة تشيع ألف كلب لوقع عليها، وحامها من سائر الكلاب. ونبح كل كلب يدنو منها. فلا تقر بها الكلاب إلا على كره منه وغلبة. ولا يسمح لكلب بشيء منها. وهمه شبع بطنه من أي طعام اتفق: ميتة أو مذكى، خبيث أو طيب. ولا يستحي من قبيح. إن تخيل عليه يُلْهَث أو تتركه يلهث. إن أطعمته بصيص بذنبه ودار حولك. وإن منعه هَرَّك ونبحك.

ومنهم: من نفسه حمارية. لم تخلق إلا للكد والعلف. كلما زيد في علفه زيد في كده، أبكم الحيوان، وأقله بصيرة. ولهذا تثل الله سبحانه وتعالى به من حَمَلَهُ كتابه. فلم يحمله معرفة ولا فقهها ولا عملا. ومثل بالكلب عالم السوء الذي آتاه الله آياته فأنسلخ منها، وأخلد إلى الأرض واتبع هواه. وفي هذين المثلين أسرار عظيمة. ليس هذا موضع ذكرها.

ومنهم: من نفسه سبعية غضبية. همته العدوان على الناس، وقهرهم بما وصلت إليه قدرته، طبيعته تتقاضى ذلك كتقاضى طبيعة السبع لما يصدر منه.

وعلى هذا الشَّبه اعتماد أهل التعبير للرؤيا في رؤية هذا الحيوانات في المنام عند الإنسان وفي

داره، أو أنها تحاربه. وهو كما اعتمدوه. وقد وقع لنا ولغيرنا من ذلك في المنام وقائع كثيرة. فكان تأويلها مطابقاً لأرقام على طباع تلك الحيوانات. وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم في قصة أحد «بَقْرًا تُنَحَّر» فكان من أصيب من المؤمنين بنحر الكفار. فإن البقر أنفع الحيوانات للأرض. وبها صلاحها وفلاحها مع ما فيها من السكينة والمنافع، فإنها ذلول مذللة، متقادة غير أبية. ورأى عمر بن الخطاب كأن ديكاً نقره ثلاث نقرات، فكان طعن أبي لؤلؤة له. والديك رجل أعجمي شرير.

ومن الناس: من طبعه طبع خنزير، يمر بالطيبات فلا يلوى عليها. فإذا قام الإنسان عن رجليه قَمَّه. وهكذا كثير من الناس. يسمع منك و يرى من المحاسن أضعاف أضعاف المساوئ، فلا يحفظها ولا ينقلها ولا تناسبه. فإذا رأى سقطة أو كلمة عرواء وجد بفتية وما يناسبها. فجعلها فاكهته ونُقْله.

ومنهم: من هو على طبيعة الطاووس ليس له إلا التَّطَوس والتزين بالريش. وليس وراء ذلك من شيء.

وأحمد طبائع الحيوانات: طبائع الخيل التي هي أشرف الحيوانات نفوساً، وأكرمها طبعاً. وكذلك الغنم. وكل من أُلِفَ صَرْباً من ضروب هذه الحيوانات اكتسب من طبعه وخلقه. فإن تغذى بلحمه كان الشبه أقوى. فإن الغاذي شبيه بالمتغذى. ولهذا حرم الله أكل لحوم السباع وجوارح الطير، لما تورث آكلها من شبه نفوسها بها. والله أعلم.

والمقصود: أن أصحاب هذا المشهد ليس لهم شهود سوى ميل نفوسهم وشهواتهم. لا يعرفون ما وراء ذلك ألبتة.

● مشهد أصحاب الجبر

ثم مشهد أصحاب الجبر. وهم الذين يشهدون أنهم مجبرون على أفعالهم، وأنها واقعة بغير قدرتهم، بل لا يشهدون أنها أفعالهم ألبتة.

يقولون: إن أحدهم غير فاعل في الحقيقة ولا قادر، وأن الفاعل فيه غيره والمحرك له سواء. وأنه آلة محضة، وحركاته بمنزلة هبوب الرياح، وحركات الأشجار.

وهؤلاء إذا أنكرت عليهم أفعالهم احتجوا بالقدر. وحلوا ذنوبهم عليه. وقد يتغلبون في ذلك، حتى يروا أفعالهم كلها طاعات. خيرها وشرها، لمواقفتها للمشيئة والقدر.

ويقولون: كما أن موافقة الأمر طاعة، فموافقة المشيئة طاعة. كما حكى الله تعالى عن

المشركين إخوانهم: أنهم جعلوا مشيئة الله تعالى لأفعالهم دليلاً على أمره بها ورضاه. وهؤلاء شر من القدرية النفاة، وأشد منهم عداوة لله، ومناقضة لكتبه ورسله ودينه. حتى إن من هؤلاء من يتعذر عن إبليس، ويتوجع له، و يقيم عذره بجده. وينسب ربه تعالى إلى ظلمه بلسان الحال والمقال، ويقول: ما ذنبه، وقد صان وجهه عن السجود لغير خالقه؟ وقد وافق حكمه ومشيئته فيه وإرادته منه؟ ثم كيف يمكنه السجود، وهو الذي منعه منه وحال بينه وبينه؟ وهل كان في ترك السجود لغير الله إلا محسناً؟

وهؤلاء أعداء الله حقاً، وأولياء إبليس، وإخوانه. وإذا نأح منهم نائح على إبليس، رأيت من البكاء والحنين أمراً عجيباً. ورأيت من ظلمهم الأقدار، واتهامهم الجبار ما يبدو على فلتات ألسنتهم، وصفحات وجوههم، وتسمع من أحدهم من التظلم والترجع ما تسمعه من الخصم المغلوب العاجز عن خصمه.

● مشهد القدرية النفاة

ثم مشهد القدرية النفاة: يشهدون أن هذه الجنايات والذنوب، هم الذين أحدثوها، وأنها واقعة بمشيئتهم، دون مشيئة الله تعالى، وأن الله لم يُقدِّر ذلك عليهم ولم يكتبه، ولا شاء، ولا خلق أفعالهم، وأنه لا يقدر أن يهدي أحداً ولا يضلّه إلا بمجرد البيان. لا أنه يلهم الهدى والضلال، والفجور والتقوى، فيجعل ذلك في قلبه. ويشهدون أنه يكون في ملك الله ما لا يشاؤه، وأنه يشاء ما لا يكون، وأن العباد خالقون لأفعالهم بدون مشيئة الله.

فالمعاصي والذنوب خلقهم، وموجب مشيئتهم، لا أنها خلق الله. ولا تتعلق بمشيئته. وهم لذلك مبخوسوا الحظ جداً من الاستعانة بالله والتوكل عليه، والاعتصام به، وسؤاله أن يهديهم، وأن يُثبت قلوبهم، وأن لا يزيغها، وأن يوفقهم لمرضاته، ويحببهم معصيته. إذ هذا كله واقع بهم، وعين أفعالهم. لا يدخل تحت مشيئة الرب شيء منها. والشیطان قد رضى منهم بهذا القدر. فلا يورثهم إلى المعاصي ذلك الأثر، ولا يزعجهم إليها ذلك الإزعاج. وله في ذلك غرضان مهمان.

أحدهما: أن يقر في قلوبهم صحة هذا المشهد وهذه العقيدة. وانكم تاركون الذنوب والكبائر التي يقع فيها أهل السنة. فدل على أن الأمر مفوض إليكم واقع بكم، وانكم العاصمون لانفسكم، المانعون لها من المعصية. الغرض الثاني: أنه يصطاد على أيديهم الجهال. فإذا رأوهم أهل عبادة، وزهادة وتوابع عن

المعاصي، وتعظيم لما. قالوا: هؤلاء أهل الحق — واليدعة أثر عنده وأحب إليه من المعصية — فإذا ظفربها منهم، واصطاد الجهال على أيديهم، كيف يأمرهم بالمعصية؟ بل ينهاهم عنها ويقيحها في أعينهم وقلوبهم. ولا يكشف هذه الحقائق إلا أرباب البصائر.

• أول الاستقامة: اكتشاف حكمة الخلق

ولكن اهل الاستقامة يشهدون حكمة الله في تقديره على عبده ما يفضيه سبحانه ويكرهه، ويلوم ويعاقب عليه. وأنه لو شاء لمعصه منه، ولحال بيته وبيته. وأنه سبحانه لا يفتنى قسراً. وأنه لا يكون في العالم شيء إلا بمشيئته (٧: ٥٧) ألا له الخلق والأمر. تبارك الله رب العالمين).

وهؤلاء يشهدون أن الله سبحانه لم يخلق شيئاً عبثاً ولا سُدى، وأن له الحكمة البالغة في كل ما قدره وقضاه من خير وشر، وطاعة ومعصية، وحكمة باهرة تعجز العقول عن الإحاطة بكنهها. وتكلم الألسن عن التعبير عنها.

فمصدر فضائله وقدره، لما يفضيه ويسخطه: اسمه «الحكيم» الذي بهرت حكمته الأبواب، وقد قال تعالى لملائكته — لما قالوا (٢: ٣٠) أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟ ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) فأجابهم سبحانه بقوله (إني أعلم ما لا تعلمون) فله سبحانه في ظهور المعاصي والذنوب والجرائم، وترتب آثارها من الآيات والحكم. وأنواع التمرقات إلى خلقه، وتنوع آياته، ودلائل ربوبيته ووحدانيته، وإلهيته، وحكمته، وعزته، وقام ملكه، وكمال قدرته. وإحاطة علمه — : ما يشهده أولو البصائر عياناً ببصائر قلوبهم، فيقولون (٣: ١٩١) ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه! إن هي إلا حكمتك الباهرة، وآياتك الباهرة.

ولله في كل تحريكة وتسكينه أبدأ شاهد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

فكم من آية في الأرض بيته، دالة على الله، وعلى صدق رسله، وعلى أن لقاءه حق. كان سببها معاصي بنى آدم وذنوبهم، كآيته في إغراق قوم نوح، وعلو الماء على رؤوس الجبال، حتى أغرق جميع أهل الأرض، ونجى أوليائه، وأهل معرفته وتوحيده. فكم في ذلك من آية وعبرة، ودلالة باقية على عمر الدهور! وكذلك إهلاك قوم عاد وثمود.

وكذلك إظهاره سبحانه ما أظهر من جعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم، بسبب ذنوب قومه ومعاصيهم. وإلقائهم له في النار، حتى صارت تلك آية، وحتى نال إبراهيم بها ما نال من

كتاب الخلة.

وكذلك ما حصل للرسول من الكرامة والمنزلة والزلقى عند الله، والوجاهة عنده، بسبب صبرهم على أذى قويمهم. وعلى محاربتهم لهم ومعاداتهم.

وكذلك اتخاذ الله تعالى الشهداء والأولياء والأصفياء من بنى آدم، بسبب صبرهم على أذى بنى آدم من أهل المعاصي والظلم، ومجاهدتهم في الله، وتعملهم لأجله من أعدائه ما هو بعينه وعلمه، واستحقاقهم بذلك رفعة الدرجات.

إلى غير ذلك من المصالح والحكم التي وُجدت بسبب ظهور المعاصي والجرائم. وكان من سببها: تقدير ما يبغضه الله ويسخطه. وكان ذلك محض الحكمة، لما يترتب عليه مما هو أحب إليه وأثر عنده من قوته بتقدير عدم المعصية.

فحصول هذا المحبوب العظيم: أحب إليه من فوات ذلك المبغض المسخوط، فإن فواته وعدمه — وإن كان محبوباً له — لكن حصول هذا المحبوب الذي لم يكن يحصل بدون وجود ذلك المبغض أحب إليه. وفوات هذا المحبوب: أكره إليه من فوات ذلك المكروه المسخوط. وكمال حكمته تقتضي حصول أحب الأمرين إليه بفوات أدنى المجربين، وأن لا يعطل هذا الأحب بتعطيل ذلك المكروه. وفرض الذهن وجود هذا بدون هذا: كفرضه وجود المسببات بدون أسبابها، والملزومات بدون لوازمها، مما تمنعه حكمة الله، وكمال قدرته وربوبيته.

وكم في تسليط أوليائه على أعدائه، وتسليط أعدائه على أوليائه، والجمع بينهما في دار واحدة، وابتلاء بعضهم ببعض: من حكمة بالغة، ونعمة سابعة؟

وكم فيها من حصول محبوب للرب، وحد له من أهل سماواته وأرضه، وخضوع له وتذلل، وخشية وافتقار إليه وانكسار بين يديه: أن لا يجعلهم من أعدائه. إذ هم يشاهدونهم ويشاهدون خذلان الله لهم، وإعراضه عنهم، ومقتته لهم، وما أعد لهم من العذاب. وكل ذلك بمشيئته وإرادته، وتصرفه في مملكته. فأولياؤه من خشية خذلانه خاضعون مشفقون، على أشد وتجل، وأعظم مخافة، وأنتم انكسار.

فإذا رأت الملائكة إبليس وما جرى له، وهاروت وماروت: وضعت رؤوسها بين يدي الرب خضوعاً لعظمته، واستكانة لمزته، وخشية من إبعاده وطرده، وتذللًا لميئته، وافتقاراً إلى عصمته ورحمته، وعلمت بذلك منته عليهم، وإحسانه إليهم، وتخصيصه لهم بفضله وكرامته.

وكذلك أولياؤه المتقون، إذا شاهدوا أحوال أعدائه ومقتته لهم، وغضبه عليهم، وخذلانه لهم: ازدادوا خضوعاً وذلاً، وافتقاراً وانكساراً، وبه استعانة وإليه إنابة، وعليه توكلًا، وفيه رغبة، ومنه رهبة. وعلموا أنهم لا ملجأ لهم منه إلا إليه، وأنهم لا يعيذهم من بأسه إلا هو، ولا ينجيهم من

سخطه إلا مرضاته، فالفضل بيده أولاً وآخرًا.
وهذه قطرة من بحر حكمته المحيطة بخلقه. والبصير يطالع ببصيرته ما وراءه. فيطلعه على
عجائب من حكمته، لا تبلغها العبارة، ولا تنالها الصفة.
وأما حظ العبد في نفسه، وما يخصه من شهود هذه الحكمة: فبحسب استمداده وقوة بصيرته،
وكمال علمه ومعرفته بالله وأسمائه وصفاته، ومعرفته بحقوق العبودية والربوبية، وكل مؤمن له
من ذلك شِرْب معلوم، ومقام لا يتعداه ولا يتخطاه. والله الموفق والمعين.

● مشهد التوحيد

وهو أن يشهد انفراد الرب تبارك وتعالى بالخلق والحكم، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم
يكن، وأنه لا تتحرك ذرة إلا بإذنه. وأن الخلق مقهورون تحت قبضته، وأنه ما من قلب إلا وهو
بين إصبعين من أصابعه. إن شاء أن يقيه أقامه، وإن شاء أن يزيه أزاعه. فالقلوب بيده. وهو
مقلبها ومصرفها كيف شاء وكيف أراد، وأنه هو الذي آتى نفوس المؤمنين تقواها، وهو الذي
هداها وزكاها وألهم نفوس الفجار فجورها وأشقاها (٧: ١٨٥) من يهد الله فلا مضل له،
ومن يضلل فلا هادي له) يهدي من يشاء بفضله ورحمته، ويضل من يشاء بعذله وحكمته.
هذا فضله وعطاؤه. وما غفل الكريم بمنون. وهذا عدله وقضائه (٢١: ٢٣) لا يسأل عما
يفعل وهم يسألون).

قال ابن عباس رضى الله عنهما «الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن كذب بالقدر نقض
تكذيبه توحيد، ومن آمن بالقدر صدق إيمانه توحيد».

وفي هذا المشهد: يتحقق للعبد مقام (إياك نعبد وإياك نستعين) علماً وحالاً، فيثبت قدم
العبد في توحيد الربوبية، ثم يرقى منه صاعداً إلى توحيد الإلهية. فإنه إذا تيقن أن الضر والنفع،
والعطاء والمنع، والهدى والضلال، والسعادة والشقاء: كل ذلك بيد الله لا بيد غيره، وأنه الذي
يقلب القلوب، ويصرفها كيف يشاء. وأنه لا مؤق إلا من وقته وأمانه، ولا مخذول إلا من خذله
وأهانته وتخلّى عنه. وأن أصح القلوب وأسلمها وأقومها وأرقها وأصفها، وأشدّها وألينها: من
اتخذته وحده إلهاً ومعبوداً. فكان أحب إليه من كل ما سواه، وأخوف عنده من كل ما سواه،
وأرجى له من كل ما سواه. فتتقدم محبته في قلبه جميع المحاب، فتتساق المحاب تبعاً لما كمال
ينساق الجيش تبعاً للسلطان. ويتقدم خوفه في قلبه جميع المخوفات، فتتساق المخاوف كلها تبعاً
لخوفه. ويتقدم رجاؤه في قلبه جميع الرجاء، فينساق كل رجاء تبعاً لرجائه.

فهذا علامة توحيد الإلهية في هذا القلب، والباب الذي دخل إليه منه توحيد الربوبية، أي

باب توحيد الإلهية: هو توحيد الربوبية.

فإن أول ما يتعلق القلب يتعلق بتوحيد الربوبية. ثم يرتقى إلى توحيد الإلهية، كما يدعو الله سبحانه عباده في كتابه بهذا النوع من التوحيد إلى النوع الآخر. ويحتج عليهم به، ويقررهم به. ثم يخبر أنهم ينقضونه بشركهم به في الإلهية.

وفي هذا المشهد يتحقق له مقام (إياك نعبد) قال الله تعالى (٤٤: ٨٧) ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن: الله. فأنى يؤفكون؟ أى غافلين يصرفون عن شهادة أن لا إله إلا الله، وعن عبادته وحده، وهم يشهدون: أنه لا رب غيره، ولا خالق سواه. وكذلك قوله تعالى (٢٣: ٨٤) — ٨٩ قل لمن الأرض ومن فيها. إن كنتم تعلمون؟ يقولون: لله. قل: أفلا تذكرون؟ فتعلمون أنه إذا كان هو وحده مالك الأرض ومن فيها، وخالقهم وربهم ومليكهم، فهو وحده إلههم ومعبودهم. فكما لا رب لهم غيره، فهكذا لا إله لهم سواه (قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم؟ يقولون: لله. قل: أفلا تتقون؟ قل: من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه — الآيات) وهكذا قوله في سورة النمل (٢٧: ٥٩ — ٦٥ قل الحمد لله. وسلام على عباده الذين اصطفى، الله خير، أم ما يشركون؟ أمّن خلق السموات والأرض، وأنزل لكم من السماء ماء، فأنبثنا به حدائق ذات بهجة، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها، أإله مع الله؟ بل هم قوم बदلون — إلى آخر الآيات).

يحتج عليهم بأن من فعل لهم هذا وحده، فهو الإله لهم وحده. فإن كان معه رب فعل هذا فينبغي أن تمبدوه. وإن لم يكن معه رب فعل هذا. فكيف تجعلون معه إلهاً آخر؟ ولهذا كان الصحيح من القولين في تقدير الآية «إله مع الله فعل هذا؟» حتى يتم الدليل. فلا بد من الجواب بلا. فإذا لم يكن معه إله فعل كفعله. فكيف تعبدون آلهة أخرى سواه؟ فلمن أن إلهية ما سواه باطلة، كما أن ربوبية ما سواه باطلة بإقراركم وشهادتكم. ومن قال: المعنى «هل مع الله إله آخر؟» من غير أن يكون المعنى «فعل هذا» فقله ضعيف لوجهين.

أحدهما: أنهم كانوا يقولون: مع الله آلهة أخرى. ولا ينكرون ذلك. الثاني: أنه لا يتم الدليل، ولا يحصل إفحامهم وإقامة الحجة عليهم إلا بهذا التقدير أى فإذا كنتم تقولون: إنه ليس مع إله آخر فعل مثل فعله، فكيف تجعلون معه إلهاً آخر لا يخلق شيئاً وهو عاجز؟ وهذا كقوله (١٣: ١٦) أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم؟ قل: الله خالق كل شيء. وهو الواحد القهار وقوله (٣١: ١١) هذا خلق الله. فأروني: ماذا خلق الذين من دونه؟ وقوله (١٦: ١٧) أفمن يخلق كمن لا يخلق؟ وقوله (١٦: ٢٠) والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون وقوله (٢٥: ٣) واتخذوا من

دونه آله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون) وهو كثير في القرآن. وبه تتم الحجة كما تبين.
والمقصود: أن العبد يحصل له هذا في المشهد من مطالعة الجنايات والذنوب، وجريانها عليه
وعمل الخليقة بتقدير العزيز الحكيم. وأنه لا عاصم من غضبه وأسباب سخطه إلا هو. ولا سبيل
إلى طاعته إلا بمعونته. ولا وصول إلى مرضاته إلا بتوقيفه. فموارد الأمور كلها منه. ومصادرهما
إليه. وأزمة التوفيق جميعها بيديه فلا مستعان للعباد إلا به، ولا مُتَكَلِّفٌ إلا عليه. كما قال شبيب
خطيب الأنبياء. (١١: ٨٨ وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب).

● مشهد التوفيق والخذلان

وهو من تمام هذا المشهد وفروعه. ولكن أفرّد بالذكر لحاجة العبد إلى شهوده وانتفاعه به.
وقد أجمع العارفون بالله: أن «التوفيق» هو أن لا يكلك الله إلى نفسك، وأن «الخذلان» هو أن
يغلّ بيتك وبين نفسك. فالعبيد متقلبون بين توقيفه وخذلانه. بل العبد في الساعة الواحدة يتألم
نصيبه من هذا وهذا. فيطبعه ويرضيه، ويذكره ويشكره بتوقيفه له. ثم يعصيه ويخالفه
ويسخطه ويغفل عنه بخذلانه له. فهو دائرين توقيفه وخذلانه. فإن وفقه فبفضله ورحمته. وإن
خذله فبعده وحكمته. وهو المحمود على هذا وهذا. له أتم حمد وأكمل. ولم يمنع العبد شيئاً هو
له. وإنما منعه ما هو مجرد فضله وعطائه. وهو أعلم حيث يضعه وأين يجعله؟.

فمستى شهد العبد هذا المشهد وأعطاه حقه، علم شدة ضرورته وحاجته إلى التوفيق في كل
نفس وكل لحظة وطرفة عين. وأن إيمانه وتوحيده بيده تعالى. لو تخلى عنه طرفه عين لثُلَّ عرش
توحيده، ولخزّت سماء إيمانه على الأرض. وأن المسك له: هو من يمسك السماء أن تقع على
الأرض إلا بإذنه، قدأب لسانه «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، يا مصرف القلوب
صرف قلبي إلى طاعتك» ودعواه «يا حي يا قيوم، يا بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال
والإكرام، لا إله إلا أنت. برحمتك أستغيث. أصلح لي شأني كله. ولا تكلني إلى نفسي
ظرفة عين. ولا إلى أحد من خلقك».

ففي هذا المشهد يشهد توفيق الله وخذلانه، كما يشهد ربوبيته وخلقه. فيسأله توقيفه مسألة
المضطر. ويعرّضه من خذلانه، عياذ الملهوف. ويلقى نفسه بين يديه، طريحاً باباه مستسلماً له،
ناكس الرأس بين يديه، خاضعاً ذليلاً مستكيناً، لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة
ونشوراً.

و«التوفيق» إرادة الله من نفسه أن يفعل بعبد ما يصلح به العبد، بأن يجعله قادراً على فعل
ما يرضيه، مريداً له، محباً له، مؤثراً له على غيره. ويُتَقَضُّ إليه ما يسخطه، ويكرهه إليه. وهذا

بجرد فعله. والعبد عمل له. قال تعالى (٤٩: ٨٠٧) ولكن الله حبيب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم. وكثرة إليكم الكفر والفسوق والعصيان. أولئك هم الراشدون * فضلا من الله ونعمته، والله عليم حكيم) فهو سبحانه عليم بمن يصلح لهذا الفضل ومن لا يصلح له. حكيم يضمنه في مواضعه وعند أهله. لا يمنعه أهله، ولا يضمنه عند غير أهله. وذكر هذا عقيب قوله (٤٩: ٧) واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ثم جاء به بحرف الاستدراك فقال (ولكن الله حبيب إليكم الإيمان).

يقول سبحانه: لم تكن محبتكم للإيمان وإرادتكم له، وتزيينه في قلوبكم: منكم، ولكن الله هو الذى جعله في قلوبكم كذلك. فأثروا ورضيتموه، فلذلك لا تثقوا بين يدي رسول، ولا تقولوا حتى يقول. ولا تفعلوا حتى يأمر. فالذى حبيب إليكم الإيمان أعلم بمصالح عبادته منكم، وأنتم لولا توفيقه لكم لما أذعنت نفوسكم للإيمان. فلم يكن الإيمان بمشورتكم وتوفيق أنفسكم. ولا تقدمتم به إليها. فنفسكم تقصر وتعجز عن ذلك ولا تبلغه. فلو أطاعكم رسولي في كثير مما تريدون: لشق عليكم ذلك. ولهلكتم وفسدت مصالحكم وأنتم لا تشعرون. ولا تظنوا أن نفوسكم تريد لكم الرشاد والصالح، كما أردتم الإيمان. فلولا أنى حبيته إليكم وزينه في قلوبكم، وكرهت إليكم ضده لما وقع منكم. ولا سمحت به أنفسكم.

وقد فسرت القدرية الجبرية «التوفيق» بأنه خلق الطاعة «والإحذالان» بأنه خلق المعصية. ولكن بنوا ذلك على أصولهم الفاسدة من إنكار الأسباب والحكم، وردوا الأمر إلى محض المشيئة من غير سبب ولا حكمة.

وقابلهم القدرية النفاة، ففسروا «التوفيق» بالبيان العا. الطاعة والإقبال عليها. وتهيئة أسبابها. وهذا حاصل لكل كافرو ر ر ر ر ر الإيمان.

فالتوفيق عندهم: أمر مشترك بين الكفار والمؤمنين إذ الإقدار والتمكين والدلالة والبيان قد عم به الفريقين. ولم يفرق المؤمنين عندهم بتوفيق وقع به الإيمان منهم. والكفار بخذلان امتنع به الإيمان منهم. ولو فعل ذلك لكان عندهم محاباة وظلما.

وهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. فلم يرضوا بطريق هؤلاء، ولا بطريق هؤلاء وشهدوا انحراف الطريقين عن الصراط المستقيم. فأثبتوا القضاء والقدس وعموم مشيئة الله للكائنات. وأثبتوا الأسباب والحكم. والغايات والمصالح. ونزهوا الله عز وجل أن يكون في ملكه مالا يشاء، أو أن يقدر خلقه على مالا يدخل تحت قدرته ولا مشيئته، أو أن يكون شيء من أفعاله وأقما بغير اختياره وبدون مشيئته، ومن قال ذلك لم يعرف ربه، ولم يثبت له كمال الربوبية.

ونزوهه — مع ذلك — عن العبث وفعل القبيح، وأن يخلق شيئاً سدياً، وأن تخلو أفعاله عن
جحكم بالغة، لأجلها أوجدها، وأسباب بها سببها، وغايات جعلت طرقاً ووسائل إليها. وأن له
في كل ما خلقه وقضاه حكمة بالغة. وتلك الحكمة صفة له قائمة به. ليست مخلوقة كما تقول
القدرة النفاة للقدرة والحكمة في الحقيقة.

فأهل الصراط المستقيم: بريئون من الطائفتين، إلا من حق تضمنته مقالاً تهم. فإنهم
يوافقونهم عليه. ويجمعون حق كل منهما إلى حق الأخرى. ولا يطلون ما معهم من الحق لما
قالوه من الباطل. فهم شهداء الله على الطوائف، وأمناء عليهم، حكام بينهم، جاكمون
عليهم. ولا يحكم عليهم أحد منهم. يكشفون أحوال الطوائف، ولا يكشفهم إلا من كشف له
عن معرفة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وعرف الفرق بينه وبين غيره. ولم يلتبس
عليه. وهؤلاء أفراد العالم ونخبته وخلاصته، ليسوا من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً، ولا من
الذين تقطعوا أمرهم بينهم زبراً، بل من هو على بينة من ربه وبصيرة في إيمانه، ومعرفة بما عند
الناس. والله الموفق.

● مشهد الأسماء والصفات

وهو من أجل المشاهد. وهو أعلى مما قبله وأوسع.
والمطلع على هذا المشهد: معرفة تعلق الوجود خلقاً وأمراً بالأسماء الحسنى، والصفات العلّية،
وارتباطه بها. وإن كان العالم — بما فيه — من بعض آثارها ومقتضياتها.
وهذا من أجل المعارف وأشرفها، وكل اسم من أسمائه سبحانه له صفة خاصة. فإن
أسماءه أوصاف مدح وكمال. وكل صفة لها مقتضى وفعل: إما لازم. وإما متعدد. ولذلك الفعل
تعلق بفعول هو من لوازمه. وهذا في خلقه وأمره، وثوابه وعقابه. وكل ذلك آثار الأسماء الحسنى
وموجباتها.

ومن المحال تعطيل أسمائه عن أوصافها ومعانيها، وتعطيل الأوصاف عما تقتضيه
وتستدعيه من الأفعال، وتعطيل الأفعال عن المفعولات، كما أنه يستحيل تعطيل مفعوله عن
أفعاله وأفعاله عن صفاته، وصفاته عن أسمائه. وتعطيل أسمائه وأوصافه عن ذاته.
وإذا كانت أوصافه صفات كمال، وأفعاله حكماً ومصالح، وأسماءه حسنى: ففرض
تعطيلها عن موجباتها مستحيل في حقه. ولهذا ينكر سبحانه على من غطّله عن أمره ونهيه، وثوابه
وعقابه، وأنه بذلك نسبة إلى مالا يليق به وإلى ما ينتزه عنه وأن ذلك حكم سيئ من حكم به
عليه، وأن من نسبته إلى ذلك فما قدره حق قدره، ولا عظمه حق تعظيمه، كما قال تعالى في حق

منكرى النبوة وإرسال الرسل، وإنزال الكتب (٩١:٦) وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء) وقال تعالى في حق منكرى المعاد والثواب والعقاب (٦٧:٣٩) وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة، والسموات مطويات بيمينه) وقال في حق من جوز عليه التسوية بين المختلفين، كالأبرار والفجار، والمؤمنين والكفار (٢١:٤٥) أم حسب الذين اجتروا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم؟ ساء ما يحكمون) فأخبر أن هذا حكم سيء لا يليق به، تأباه أسماؤه وصفاته. وقال سبحانه (١١٦، ١١٥: ٢٣) أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون؟ فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم) عن هذا الظن والحسبان، الذى تأباه أسماؤه وصفاته.

ونظائر هذا في القرآن كثيرة. ينفي فيها عن نفسه خلاف موجب أسمائه وصفاته. إذ ذلك مستلزم تعطيلها عن كمالها ومقتضياتها.

فاسمه «الحميد، المجيد» يمنع ترك الإنسان سدى مهلاً معطلاً، لا يؤخر ولا ينهى. ولا يشاب ولا يعاقب. وكذلك اسمه «الحكيم» يأبى ذلك. وكذلك اسمه «الملك» واسمه «الحي» يمنع أن يكون معطلاً من الفعل. بل حقيقة «الحياة» الفعل. فكل حي فقال. وكونه سبحانه «خالقاً قيوماً» من موجبات حياته ومقتضياتها. واسمه «السميع البصير» يوجب مسموعاً ومرئياً. واسمه «الخالق» يقتضى مخلوقاً. وكذلك «الرازق» واسمه «الملك» يقتضى مملكة وتصرفاً وتديبيراً، وإعطاء ومنعاً، وإحساناً وعدلاً، وثواباً وعقاباً. واسم «البر المحسن، المعطى، المنان» ونحوها تقتضى آثارها وموجباتها.

إذا عرف هذا. فمن أسمائه سبحانه «الغفار، التواب، العفو» فلا بد لهذه الأسماء من متعلقات. ولا بد من جنابة تغفر، وتوبة تقبل، وجرائم يعفى عنها. ولا بد لاسمه «الحكيم» من متعلق يظهر فيه حكمه. إذ اقتضاء هذه الأسماء لآثارها كإقتضاء اسم «الخالق، الرازق، المعطى، المانع» للمخلوق والمرزوق والمعطى والمنوع. وهذه الأسماء كلها حسنى.

والرب تعالى يحب ذاته وأوصافه وأسماءه. فهو غفور يحب العفو، ويحب المغفرة. ويحب التوبة. ويفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرح يحظر بالبال.

وكان تقدير ما يغفره و يعفو عن فاعله، ويحلم عنه، ويتوب عليه ويسامحه: من موجب أسمائه وصفاته. وحصول ما يحبه ويرضاه من ذلك. وما يحمد به نفسه ويحمده به أهل سمواته وأهل أرضه: ما هو من موجبات كماله ومقتضى حمده.

وهو سبحانه الحميد المجيد، وحمده ومجده يقتضيان آثارهما.

ومن آثارهما: مغفرة الزلات، وإقالة العثرات، والعفو عن السيئات، والمساعدة على الجنابات.

مع كمال القدرة على استيفاء الحق. والعلم منه سبحانه بالجنابة ومقدار عقوبتها. فحلمه بمد علمه، وعفوه بعد قدرته، ومغفرته عن كمال عزته وحكمته، كما قال المسيح صلى الله عليه وسلم (١١٨:٥) **إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** أى فمغفرتك عن كمال قدرتك وحكمتك. لست كمن يغفر عجزاً. ويسامح جهلاً بقدر الحق، بل أنت عليم بحقك. قادر على استيفائه، حكيم فى الأخذ به.

فمن تأمل سريان آثار الأسماء والصفات فى العالم، وفى الأمر، تبين له أن مصدر قضاء هذه الجنابات من العبيد، وتقديرها: هو من كمال الأسماء والصفات والأفعال. وغايتها أيضاً: مقتضى حده ومجده، كما هو مقتضى ربوبيته وإلهيته.

فله فى كل ما قضاه وقدره الحكمة البالغة، والآيات الباهرة، والتعرفات إلى عبادته بأسمائه وصفاته، واستدعاء محبتهم له، وذكرهم له، وشكرهم له، وتعبدهم له بأسمائه الحسنى. إذ كل اسم فله تعبد مختص به، علماً ومعرفة وحالاً. وأكمل الناس عبودية: المتعبد بجميع الأسماء والصفات التى يطلع عليها البشر. فلا تحجبه عبودية اسم عن عبودية اسم آخر، كمن يحجبه التعبد باسمه «القدير» عن التعبد باسمه «الحليم الرحيم» أو يحجبه عبودية اسمه «المعطى» عن عبودية اسمه «المانع» أو عبودية اسمه «الرحيم والعفو والغفور» عن اسمه «المنتقم» أو التعبد بأسماء «التودد، والبر، والطف، والإحسان» عن أسماء «العدل، والجبروت والعظمة، والكبرياء» ونحو ذلك.

وهذه طريقة الكُتَل من السائرين إلى الله. وهى طريقة مشتقة من قلب القرآن. قال الله تعالى (١٨٠:٧) **وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا** والدعاء بها يتناول دعاء المسألة، ودعاء الشناء ودعاء التعبد. وهو سبحانه يدعو عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته، ويشنوا عليه بها، ويأخذوا بحظهم من عبوديتها. وهو سبحانه يحب موجب أسمائه وصفاته.

فهو «عليم» يحب كل عليم «جواد» يحب كل جواد «وتر» يحب الوتر «جميل» يحب الجمال «عفو» يحب العفو وأهله «حيي» يحب الحياء وأهله «بر» يحب الأبرار «شكور» يحب الشاكرين «صبور» يحب الصابرين «حليم» يحب أهل الحلم. فلمحبته سبحانه للتوبة والمغفرة، والعفو والصفح: خلق من يغفر له، ويتوب عليه ويعفوه عنه. وقدر عليه ما يقتضى وقوع المكروه والمغفوس له. ليرتب عليه المحبوب له الرضى له.

● مشهد زيادة الايمان وتعدد شواهدہ

وهذا من أطف المشاهد، وأخصها بأهل المعرفة. ولعل سامعه يبادر إلى إنكاره، ويقول: كيف يشهد زيادة الإيمان من الذنوب والمعاصي؟ ولا سيما ذنوب العبد ومعاصيه. وهل ذلك إلا منقص للإيمان، فإنه بإجماع السلف: يزيد بالطاعة، و ينقص بالمعصية.

فاعلم أن هذا حاصل من التفات العارف إلى الذنوب والمعاصي منه ومن غيره وإلى ترتب آثارها عليها. وترتب هذه الآثار عليها عظم من أعلام النبوة، وبرهان من براهين صدق الرسل، وصحة ما جاءوا به. فإن الرسل — صلوات الله وسلامه عليهم — أمروا العباد بما فيه صلاح ظواهرهم وبواطنهم، في معاشهم ومعادهم. ونهواهم عما فيه فساد ظواهرهم وبواطنهم في المعاش والمعاد. وأخبروهم عن الله عز وجل: أنه يحب كذا وكذا، وييب عليه بكذا وكذا، وأنه يبغض كيت وكيت، و يعاقب عليه بكيت وكيت. وأنه إذا أطيع بما أمر به: شكر عليه بالإمداد والزيادة، والنعم، في القلوب والأبدان والأموال. وَوَجَدَ الْعَبْدُ زِيَادَتَهُ وَقُوَّتَهُ فِي حَالِهِ كُلِّهَا، وأنه إذا خولف أمره ونهيه، ترتب عليه من النقص، والفساد، والضعف، والذل والمهانة، والحقارة، وضيق العيش وتنكد الحياة ما ترتب، كما قال تعالى (١٦: ٩٧) من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى — وهو مؤمن — فلنجنيه حياة طيبة، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) وقال (٣٩: ١٠) قُلْ: يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ. لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ، وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ) وقال تعالى (١١: ٣) واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى. وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ) وقال تعالى (٢٠: ١٢٤ و ١٢٥) ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً. ونحشره يوم القيامة أجمعاً).

وقد يكون المراد بلفظ «ذكرى» ما يذكر بالله سبحانه. وهو أولاً المشار إليه بقوله (٥١: ٢١) وقى أنفسكم. أفلا تبصرون) وبقوله (٦٧: ٢٣) هو الذي أنشأكم. وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون) وهذا كثير جداً في القرآن. فإن الغفلة عن آيات الله وعن آثار أسمائه وصفاته في الأنفس والآفاق والإسلاخ منها: هو الذي أركس الإنسان في ظلمات الجاهلية. ويمكن لولاية الشيطان منه فاتب وحيه الجاهل الوثني واتخذ القرآن مهجوراً. فلم يحاول أن يتدبر آياته، ولا أن يتلوه حق تلاوته، لأنه زعم له أنه ليس بحاجة إليه لا في عقيدة ولا عمل ولا خلق ولا حال. فقد جمع له كل ذلك فيما زخرف له من القول غروراً. وزاده غروراً وخادعة بليها مه أن تكرار ألفاظ القرآن للموتى والتبرك، واتخاذ المصحف تيمية يخرج به عن المرضين عن ذكر الله.

وُفُتِرَتِ الْمَعِيشَةُ الضَّنْكَ: بعذاب القبر. والصحيح: أنها في الدنيا، وفي البرزخ. فإن من أعرض عن ذكره الذي أنزله، فله من ضيق الصدر، وَتَنَكَّدَ الْعِيشَ، وكثرة الخوف، وشدة الحرص

والتعبد على الدنيا، والتحسر على فواتها قبل حصولها وبعد حصولها، والآلام التي في خلال ذلك — مالا يشعر به القلب، لسكرته، وانغماسه في السكر. فهو لا يصحوساعة إلا أحس وشعر بهذا الألم. فبادر إلى إزالته بسكر ثان. فهو هكذا مدة حياته. وأى عيشة أضيق من هذه لو كان للقلب شعور؟.

فقلوب أهل البدع، والمعرضين عن القرآن، وأهل الغفلة عن الله، وأهل المعاصي: في جحيم قبل الجحيم الأكبر. وقلوب الأبرار في نعيم قبل النعيم الأكبر (٨٢: ١٣، ١٤) إن الأبرار لفي نعيم. وإن الفجار لفي جحيم) هذا في دورهم الثالث. ليس مختصاً بالدار الآخرة. وإن كان تمامه وكماله وظهوره: إنما هو في الدار الآخرة، وفي البرزخ دون ذلك، كما قال تعالى (٥٢: ٤٧) وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك) وقال تعالى (٢٧: ٧١، ٧٢) ويقولون: متى هذا الوعد، إن كنتم صادقين؟ * قل: عسى أن يكون زدّف لكم بعض الذي تستعجلون).

وفي هذه الدار دون ما في البرزخ، ولكن يمنع من الإحساس به: الاسترقاق في سكرة الشهوات، وطرح ذلك عن القلب، وعدم التفكير فيه.

والعبد قد يصيبه ألم جسّي فيطرحه عن قلبه. ويقطع التفاته عنه. ويجعل إقباله على غيره. لثلاً يشعر به جملة. فلوزال عنه ذلك الالتفات، لصاح من شدة الألم. فما الظن بعذاب القلوب وآلامها؟!

وقد جعل الله سبحانه للحنات والطاعات آثاراً محبوبة لذينة طيبة. لذتها فوق لذة المعصية بأضعاف مضاعفة. لا نسبة لها إليها. وجعل للسيئات والمعاصي آلاماً وآثاراً مكروهة، وحزازات تُزبّي على لذة تناولها بأضعاف مضاعفة. قال ابن عباس «إن للحسنة نوراً في القلب، وضياء في الوجه، وقوة في البدن. وزيادة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق. وإن للسيئة سواداً في الوجه. وظلمة في القلب، ووهن في البدن. ونقص في الرزق. وبغضة في قلوب الخلق» وهذا يعرفه صاحب البصيرة. ويشهده من نفسه ومن غيره.

فما حصل للعبد حال مكروهة قط إلا بذنب. وما يعفو الله عنه أكثر. قال الله تعالى (٤٢: ٣٠) وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم. ويعفو عن كثير) وقال لخيار خلقه وأصحاب نبيه (٣: ١٦٥) أولئنا أصابكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم: أنى هذا؟ قل هو من عند أنفسكم) وقال (٤: ٧٩) ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك).

والمراد بالحسنة والسيئة هنا: النعم والمصائب التي تصيب العبد من الله. ولهذا قال «ما أصابك» ولم يقل: ما أصبت.

فكل نقص وبلاء وشر في الدنيا والآخرة. فسببه الذنوب، ومخالفة أوامر الرب، فليس في
النعالم شر قط إلا الذنوب وموجباتها.

وآثار الحسنات والسيئات في القلوب والأبدان والأموال: أمر مشهود في العالم. لا ينكره ذو
عقل سليم. بل يعرفه المؤمن والكافر، والبر والفاجر.

وشهود البعيد هذا في نفسه وفي غيره، وتأمله ومطالعه: مما يقوى إيمانه بما جاءت به الرسل.
وبالشواهد والمقاب. فإن هذا عدل مشهود محسوس في هذا العالم. ومثوبات وعقوبات عاجلة،
دالة على ما هو أعظم منها لمن كانت له بصيرة. كما قال بعض الناس: إذا صدر مني ذنب ولم
أبادره. ولم أتداركه بالتوبة: انتظرت أثره السيء. فإذا أصابني — أوقوه أو دونه — كما
حسبت: أكثر قول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله. ويكون ذلك من
شواهد الإيمان وأدلته. فإن الصادق متى أخبرك أنك إذا فعلت كذا وكذا ترتب عليه من المكروه
كذا وكذا. فجعلت كلما فعلت شيئاً من ذلك وحصل لك ما قال من المكروه، لم تزد إلا علماً
بصدقته وببصيرة فيه. وليس هذا لكل أحد. بل أكثر الناس قرين الذنوب على قلبه. فلا يشهد
شيئاً من ذلك ولا يشعر به ألبته.

وإنما يكون هذا لقلب فيه نور الإيمان وأهوية الذنوب والمعاصي تعصف فيه. فهو يشاهد هذا
وهذا. ويرى حال مصباح إيمانه مع قوة تلك الأهوية والرياح. فيرى نفسه كراكب البحر عند
هيجان الرياح، وتقلب السفينة وتكثفها ولا مئماً إذا انكسرت به وبقي على لوح تلعب به
الرياح. فهكذا المؤمن يشاهد نفسه عند ارتكاب الذنوب، إذا أريد به الخير، وإن أريد به غير
ذلك فقلبه في واد آخر.

ومتى انفتح هذا الباب للعبد: انتفع بمطالعة تاريخ العالم، وأحوال الأمم. ومجريات الخلق.
بل انتفع بمجريات أهل زمانه وما يشاهده من أحوال الناس وفهم حيثنذ معنى قوله تعالى (١٣):
٣٣ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) وقوله (٣: ١٨) شهد الله أنه لا إله إلا هو
والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط. لا إله إلا هو العزيز الحكيم) فكل ما تراه في الوجود —
من شر وألم وعقوبة وجذب، ونقص في نفسك وفي غيرك — فهو من قيام الرب تعالى بالقسط.
وهو عدل الله وقسطه، وإن أجراه على يد ظالم. فالمسلط له أعدل العادلين، كما قال تعالى لمن
أفسد في الأرض (١٧: ٥) بعثنا عليكم عبداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار —
الآية).

فالذنوب مثل السموم مفسدة بالذات. فإن تداركها من سقى بالأدوية المقاومة لها، وإلا
قهرت القوة الإيمانية، وكان الهلاك. كما قال بعض السلف «المعاصي بريد الكفر، كما أن
الحمى بريد الموت».

فشهد العبد نقص حاله إذا عصى ربه، وتغير القلوب عليه، وجفولها منه، وانسداد الأبواب في وجهه، وتوغل المسالك عليه، وهوانه على أهل بيته وأولاده وزوجته وإخوانه، وتطلبه ذلك حتى يعلم من أين أتى؟ ووقوعه على السبب الموجب لذلك: مما يقوى إيمانه. فإن أفلح وباشر الأسباب التي تقضى به إلى ضد هذه الحال، رأى العز بعد الذل، والغنى بعد الفقر، والسرور بعد الحزن، والأمن بعد الخوف، والقوة في قلبه بعد ضعفه ووهته — ازداد إيماناً مع إيمانه. فتقوى شواهد الإيمان في قلبه وبراهينه وأدلتها في حال معصيته وطاعته. فهذا من الذين قال الله فيهم (٣٩: ٣٥) ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويمجزهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون).
 وصاحب هذا المشهد متى تبصر فيه، وأعطاه حقه: صار من أطباء القلوب العالمين بدائها ودوائها. فنفعه الله في نفسه. ونفع به من شاء من خلقه. والله أعلم.

● مشهد الرحمة

فإن العبد إذا وقع في الذنب خرج من قلبه تلك الغلظة والقسوة، والكيفية الغضبية التي كانت عنده لمن صدر منه ذنب، حتى لو قدر عليه لأهلكه، وربما دعا الله عليه أن يهلكه ويأخذنه، غضباً منه لله، وحرصاً على أن لا يعصى. فلا يجد في قلبه رحمة للمذنبين الخاطئين. ولا يراهم إلا بعين الاحتقار والازدراء. ولا يذكرهم إلا بلسان الطعن فيهم، والعيب لهم والذم. فإذا جرت عليه المقادير وخلت ونفسه استغاث الله والتجأ إليه. وتقلل بين يديه تملل السليم. ودعاه دعاء المضطر. فتبدلت تلك الغلظة على المذنبين رقة. وتلك القساوة على الخاطئين رحمة. وليناً مع قيامه بحدود الله. وتبدل دعاؤه عليهم دعاء لهم. وجعل لهم وظيفة من عمره. يسأل الله أن يغفر لهم.

فما أنفعه له من مشهد! وما أعظم جدواه عليه. والله أعلم.

● مسكين هذا العاجز!

ثم يشهد الضعف، وأنه أعجز شيء عن حفظ نفسه وأضعفه، وأنه لا قوة له ولا قدرة ولا حول إلا بربه. فيشهد قلبه كبرشة ثلثاة بأرض قلاية تثلثها الرياح يمينا وشمالاً. ويشهد نفسه كراكب سفينة في البحر تهيج بها الرياح وتتلاعب بها الأمواج، ترفعه تارة. وتخفضها تارة أخرى. تجري عليه أحكام القدر. وهو كالألة طريحاً بين يدي وليه، ملقى ببابه، واضعاً تحته على نثرى أعصابه. لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً. ليس له من نفسه إلا

الجهل والظلم وآثارهما ومقتضياتهما. فالهلاك أدنى إليه من شرك نعله كشاة ملقاة بين الذئاب والباع. لا يردّها عنها إلا الراعي. فلو تحلّى عنها طرفة عين لتقاسمها أعضاء.

وهكذا حال العبد ملقى بين الله وبين أعدائه، من شياطين الإنس والجن فإن حماه منهم وكفّهم عنه لم يجدوا إليه سبيلاً. وإن تحلّى عنه وتوكّله إلى نفسه طرفة عين لم ينقسم عليهم، بل هو نصيب من قلّقه منهم.

وفي هذا المشهد يعرف نفسه حقاً، ويعرف ربه. وهذا أحد التأويلات للكلام المشهور «من عرف نفسه عرف ربه» وليس هذا حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن يمكن تأويله بثلاث تأويلات:

أحدها: أن من عرف نفسه بالضعف عرف ربه بالقوة. ومن عرفها بالعجز عرف ربه بالقدرّة. ومن عرفها بالذل عرف ربه بالعزيز. ومن عرفها بالجهل عرف ربه بالعلم. فإن الله سبحانه استأنر بالكمال المطلق، والحمد والثناء، والمجد والعتى. والعبد فقير ناقص محتاج. وكلما ازدادت معرفة العبد بنقصه وعييه وقرره وذله وضعفه: ازدادت معرفته لربه بأوصاف كماله.

الثأويل الثاني: أن من نظر إلى نفسه ومافيها من الصفات المدوحة من القوة والإرادة والكلام والمشيئة والحياة، عرف أن من أعطاه ذلك وخلقه فيه أولى به. فمعطى الكمال أحق بالكمال. فكيف يكون العبد حياً متكلاً تسميماً بصيراً مريداً عالماً، يفعل باختياره، وتمنّ خلقه وأوجده لا يكون أولى بذلك منه؟ فهذا من أعظم المحال. بل من جعل العبد متكلاً أولى أن يكون هو متكلاً ومن جملة حياً عليماً سميماً بصيراً فاعلاً قادراً، أولى أن يكون كذلك.

الثأويل الأول من باب الضد. وهذا من باب الألوية. والثأويل الثالث: أن هذا من باب النفي. أي كما أنك لا تعرف نفسك التي هي أقرب الأشياء إليك. فلا تعرف حقيقتها، ولا ماهيتها ولا كيفيتها. فكيف تعرف ربك وكيفية صفاته؟.

والمقصود: أن هذا المشهد يُعرّف العبد أنه عاجز ضعيف. فتزول عنه رعونات الدعاوى، والإضافات إلى نفسه، ويعلم أنه ليس له من الأمر شيء، إن هو إلا محض القهر والعجز والضعف.

● استشعار الافتقار لله

ثم مشهد الذل، والانكسار، والخضوع، والافتقار للرب جل جلاله. فيشهد في كل ذرّة من

ذَرَاتِهِ الباطنة والظاهرة: ضرورة تامة، وافتقاراً تاماً إلى ربه ووليه، ومن بيده صلاحه وفلاحه،
وهده وسعادته. وهذه الحال التي تحصل لقلبه لا تنال العبارة حقيقتها. وإنما تدرك بالحصول.
فيحصل لقلبه كثرة خاصة لا يشبهها شيء. بحيث يرى نفسه كالإناء المرنووس تحت الأرجل.
الذي لاشييء فيه، ولا به ولا منه، ولا فيه منفعة، ولا يرغب في مثله. وأنه لا يصلح للارتفاع إلا
بجبر جديد من ضانعه وقيمه. فحينئذ يستكثر في هذا المشهد ما من ربه إليه من الخير. ويرى أنه
لا يستحق قليلاً منه ولا كثيراً. فأتي خبر ناله من الله استكثره على نفسه. وعلم أن قدره دونه،
وأن رحمة ربه هي التي اقتضت ذكره به، وسياقته إليه. واستقل ما من نفسه من الطاعات لربه،
ورآها — ولو ساءت طاعات الشقلين — من أقل ما ينبغي لربه عليه. واستكثر قليل معاصيه
وذنوبه. فإن الكثرة التي حصلت لقلبه أوجبت له هذا كله.

فما أقرب الجبر من هذا القلب المكسور! وما أدنى النصر والرحمة والرزق منه! وما أنفع هذا
المشهد له. وأجده عليه! وذرة من هذا ونفس منه أحب إلى الله من طاعات أمثال الجبال من
المبدلين الممجين بأعمالهم وعلومهم وأحوالهم. وأحب القلوب إلى الله سبحانه: قلب قد تمكنت
منه هذه الكسرة. وتمكنت هذه الذلة. فهو ناكس الرأس بين يدي ربه. لا يرفع رأسه إليه حياء
وخجلاً من الله.

قيل لبعض العارفين: أيسجد القلب؟ قال: نعم يسجد سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم
اللقاء. فهذا سجود القلب.

فقلب لا تباشره هذه الكسرة فهو غير ساجد السجود المراد منه. وإذا سجد القلب لله — هذه
السجدة العظمى — سجدت معه جميع الجوارح. وعنا الوجه حينئذ للحى القيوم. وخشع الصوت
والجوارح كلها. وذلل العبد وخضع واستكان، ووضع خده على عتبة العبودية، ناظراً بقلبه إلى
ربه ووليه نظر الدليل إلى العزيز الرحيم. فلا يرى إلا متملقاً لربه، خاضعاً له، ذليلاً مستعظفاً
له. يسأله عطفه ورحمته. فهو يرضى ربه كما يرضى المحب الكامل المحبة محبوبه المالك له.
الذي لا غنى له عنه. ولا بد له منه. فليس له قم غير استرضائه واستعطفاه. لأنه لا حياة له
ولا فلاح إلا في قربه ورضاه عنه، وعبته له، يقول: كيف أغضب من حياتي في رضاه؟ وكيف
أعدل عن سعادتي وفلاحي وفوزي في قربه وحبه وذكره؟.

وصاحب هذا المشهد: يشهد نفسه كرجل كان في كنف أبيه يفتدوه باطبيب الطعام
والشراب واللباس، ويربيه أحسن التربية، ويرقيه على درجات الكمال أتم الترقية. وهو القيم
بمصلحه كلها. فيبته أبوه في حاجة له. فخرج عليه في طريقه عدو فأسره وكتمه وثاقاً. ثم
ذهب به إلى بلاد الأعداء فسامه سوء العذاب. وعامله بضد ما كان أبوه يعامله به. فهو يترك

تربية والده وإحسانه إليه الفتيّة بعد الفينة. فتبهج من قلبه لواعج الحسرات كلما رأى حاله
و يتذكر ما كان عليه وكل ما كان فيه. فيبينا هو في أسر عدوه يسومه سوء العذاب، ويريد نخره
في آخر الأمر. إذ حانت منه التفاتة إلى ديار أبيه. فرأى أباه منه قريباً. فسمى إليه. وألقى نفسه
عليه، وانطرح بين يديه. يستغث: يا أبتاه، يا أبتاه، يا أبتاه! انظر إلى ولدك وما هو فيه. ودموعه
تستيق على خديه، قد اعتنقه والتزمه، وعدوه في طلبه، حتى وقف على رأسه. وهو ملتزم لوالده
ممسك به. فهل تقول: إن والده يسلمه مع هذه الحال إلى عدوه، ويغلى بينه وبينه؟ فما الظن بمن
هو أرحم بعبده من الوالد بولده، ومن الوالدة بولدها؟ إذا قرّع عبد إليه، وهرب من عدوه إليه،
وألقى بنفسه طريحاً ببابه. يُترغّ خذّه في قرى أعتابه باكياً بين يديه، يقول: يارب، يارب، ارحم
من لا راحم له سواك، ولا ناصر له سواك، ولا مؤوى له سواك، ولا مغيث له سواك. مسكينك
وفقيرك، وسائلك ومؤملك ومرجيك. لاملجأ له ولا منجأ له منك إلا إليك. أنت معاذه وبك
ملاذه.

يامن ألوذ به فيما أؤمله ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجبر الناس عظماً أنت كاسره ولا يهيفون عظماً أنت جابره

فإذا استبصر في هذا المشهد، وتمكن من قلبه. وباشره وذاق طعمه وحلاوته ترغى منه إلى
مشهد العبودية والمحبة، والشوق إلى لقائه، والابتهاج به، والفرح والسرور به. فتقرّبه عينه،
ويسكن إليه قلبه. وتطمئن إليه جوارحه ويستولى ذكره على لسان حبه وقلبه. فتصير خطرات
المحبة مكان خطرات المعصية. وإرادات التقريب إليه وإلى مرضاته، مكان إرادة معاصيه
ومساخطه، وحركات اللسان والجوارح بالطاعات، مكان حركاتها بالمعاصي. قد امتلأ قلبه من
حبه. ولهج لسانه بذكره. وانقادت الجوارح لطاعته. فإن هذه الكسرة الخاصة لها تأثير عجيب في
المحبة لا يعبر عنه.

ومحكى عن بعض العارفين، أنه قال: دخلت على الله من أبواب الطاعات كلها. فما
دخلت من باب إلا رأيت عليه الزحام. فلم أتمكن من الدخول، حتى جئت باب الذل
والافتقار. فإذا هو أقرب باب إليه وأوسع. ولا مزاحم فيه ولا معوق.. فما هو إلا أن وضعت
قدمي في عتبته. فإذا هو — سبحانه — قد أخذ بيدي وأدخلني عليه.
وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رضى الله عنه يقول: من أراد السعادة الأبدية، فليأزم عتبة
العبودية.

وقال بعض العارفين: لا طريق أقرب إلى الله من العبودية.
والقصد: أن هذه الذلة والكسرة الخاصة تدخله على الله، وترميه على طريق المحبة. فيفتح

له منها باب لا يفتح له من غير هذه الطريق . وإن كانت طرق سائر الأعمال والطاعات تفتح للعبد أبواباً من المحبة . لكن الذي يفتح منها من طريقه ، إقبال والانكسار والافتقار وازدراء النفس ، ورؤيتها بعين الضعف والعجز والعيب والنقص والذم ، بحيث يشاهدها ضيعة وعجزاً ، وتفريطاً وذنبا وخطيئة : نوع آخر وفتح آخر . والسالك بهذه الطريق غريب في الناس . وهم في وادٍ وهو في وادٍ . قاله المستعان . وهو خير الغافرين .

وهذا الذي حصل له من آثار محبة الله له ، وفرحه بتوبة عبده . فإنه سبحانه يحب التوابين ، ويرفع بتوبتهم أعظم فرح وأكمله .

فكلما طالع العبد من ربه سبحانه عليه قبيل الذنب ، وفي حال مواقفته ، وبعده ، وبره به وحلمه عنه ، وإحسانه إليه : هاجت من قلبه لواضع محبته والشوق إلى لقائه . فإن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها . وأى إحسان أعظم من إحسان من يبارزه العبد بالمعاصي ، وهو يُبْغِضُهُ بنعمه ، ويعامله بالطاقة ، ويُثْبِلُ عليه ستره ؟

ولنقتصر على هذا القدر من ذكر «التوبة» وأحكامها وثمراتها . فإنه ما أطيل الكلام فيها إلا لفطر الحاجة والضرورة إلى معرفتها ، ومعرفة أحكامها ، وتفصيلها ومساثلها . والله الموفق لمراعاة ذلك . والقيام به عملاً وحالاً . كما وفق له علماً ومعرفة . فما خاب من توكل عليه . ولا ذبه ولباً إليه . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

(٧) مَنْزِلَةُ الْإِنْبَاءِ

قد علمت أن مَنْزِلَ في منزلة «التوبة» وقام في مقامها نزل في جميع منازل الإسلام. فإن «التوبة» الكاملة متضمنة لها . وهي مندرجة فيها . ولكن لابد من إفرادها بالذكر والتفصيل .
تبييناً لحقائقها وخواصها وشروطها .

فإذا استقرت قدمه في منزل «التوبة» نزل بعده منزل «الإنابة» وقد أمر الله تعالى بها في كتابه . وأثنى على خليله بها ، قال (٣٩:٥٤) وَأَنْبِئُوا إِلَى رَبِّكُمْ) وقال (١١:٧٥) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ) وأخبر أن آياته إنما يتبصرها ويتذكر أهل الإنابة . فقال (٥٠:٦-٨) أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا؟ إِلَى أَنْ قَالَ - بَصَرَةٌ وَذَكَرَى لَكَ عِيدَ مُنِيبٍ) وقال تعالى (٤٠:١٣) هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا . وَهَاتِذْكَ آيَاتُ الْيَوْمِ) وقال تعالى (٣٠:٣١) عَنِيبٌ إِلَيْهِ أَتَقْوَاهُ . وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ - (الآية)

قد «منيبين» منصوب على الحال من الضمير المستكن في قوله «فَأَقُمْ وَجْهَكَ» لأن هذا الخطاب له ولأمته . أي أقم وجهك أنت وأمتك منيبين إليه . تظنيره قوله (٦٥:١) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ وَبَيَّزَ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنَ الْمَقْمُولِ فِي قَوْلِهِ «فَطَرِ النَّاسَ عَلَيْهَا» أَي فَطَرَهُمْ مِنْبِينَ إِلَيْهِ . فَلَوْ غَلَّوْا وَفَطَرَهُمْ مَا عَدَّلْتَ عَنْ الْإِنَابَةِ إِلَيْهِ . وَلَكِنَّا تَحَوَّلَ وَتَغَيَّرَ عَمَّا فَطَرْتَ عَلَيْهِ . كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ - وَفِي رِوَايَةٍ: عَلَى الْمِلَّةِ - حَتَّى يَمْرُوبَ عَنْ لِسَانِهِ» . . . وقال عن نبيه داود (٣٨:٢٤) فَاسْتَغْفِرْ رَّبَّهُ وَخُزَّاعًا كَأَمْ وَأَنْابَ) وأخبر أن ثوابه وجنته لأهل الحشية والإنابة . فقال (٥٠:٣١ - ٣٤) وَأَزْلَفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدَ * هَذَا مَا تَوْعَدُونَ لِكُلِّ أَزْوَاجٍ حَفِيظٍ * مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ) وأخبر سبحانه أن البشرى منه إنما هي لأهل الإنابة . فقال (٣٩:١٧) وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى).

و«الإنابة» إنابتان: إنابة لربوبيته . وهي إنابة المخلوقات كلها . يشترك فيها المؤمن والكافر، والبر والفاجر . قال الله تعالى (٣٠:٣٣) وَإِذَا مِنَ النَّاسِ تُرِدُّوهُمُ رَبَّهُمْ مِنْبِينَ إِلَيْهِ) فهذا عام في حق كل داع أصابه ضرر . كما هو الواقع . وهذه «الإنابة» لا تستلزم الإسلام، بل تجامع الشرك والكفر . كما قال تعالى في حق هؤلاء (٣٠:٣٣، ٣٤) ثُمَّ إِذَا أَذَقْتَهُمُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يَشْكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ) فهذا حالهم بعد إنابتهم .

و«الإنابة» الثانية هي إنابة أوليائه . وهي إنابة لإلهيته، إنابة عبودية وعبية .

وهي تتضمن أربعة أمور: محبته، والخضوع له، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه . فلا

يستحق اسم «النيب» الا من اجتمعت فيه هذه الأربع . وتفسير السلف لهذه اللفظة يدور على ذلك.

وفي اللفظة معنى الإسراع والتقدم. و «النيب» إلى الله: المسرع إلى مرضاته، الراجع إليه كل وقت: المتقدم إلى محابه. وهي في اللغة: الرجوع. وهي هنا الرجوع إلى الحق.

قال الشيخ الهروي:

«وهي ثلاثة أشياء: الرجوع إلى الحق إصلاحاً، كما رجع إليه اعتذاراً. والرجوع إليه وفاء، كما رجع إليه عهداً. والرجوع إليه حالاً، كما رجعت إليه إجابة». أي لما كان التائب قد رجع إلى الله بالاعتذار والإقلاع عن معصيته، كان من تمة ذلك: رجوعه إليه بالاجتهاد، والنصح في طاعته. كما قال (٢٥: ٧٠) إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً وقال (٢: ١٦٠) إلا الذين تابوا وأصلحو فلا تنفع توبة وبطالة. فلا بد من توبة وعمل صالح: ترك لما يكره، وفعل لما يحب، تخَلَّ عن معصيته. وتَحَلَّ بطاعته.

وكذلك الرجوع إليه بالوفاء بعهده، كما رجعت إليه عند أخذ العهد عليك. فرجعت إليه بالدخول تحت عهده أولاً. فعليك بالرجوع بالوفاء بما عاهدته عليه ثانياً. والدين كله: عهد ووفاء. فإن الله أخذ عهده على جميع المكلفين بطاعته. فأخذ عهده على أنبيائه ورسله على لسان ملائكته، أو منته إلى الرسول بلا واسطة كما تكلم موسى. وأخذ عهده على الأمم بواسطة الرسل. وأخذ عهده على الجاهل بواسطة العلماء. فأخذ عهده وعلى هؤلاء بالتعلم. وعلى هؤلاء بالنعم. ومدح الموفين بعهده. وأخبر بما لهم عنده من الأجر، فقال (٤٨: ١٠) ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً وقال (١٧: ٣٤) وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً وقال (١٦: ٩١) وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم وقال (٢: ١٧٧) والموفون بعهدهم إذا عاهدوا.

وهذا يتناول عهودهم مع الله بالوفاء له بالإخلاص والإيمان والطاعة. وعهودهم مع الخلق. وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم: أن من علامات النفاق «القدر بعد العهد».

فما أناب الى الله من خان عهده وغدر به. كما أنه لم يُبَيِّبْ إليه من لم يدخل تحت عهده. فالإنابة لا تتحقق إلا بال التزام العهد والوفاء به.

وقوله «والرجوع إليه حالاً. كما رجعت إليه إجابة».

أي هو سبحانه قد دعاك فأجبت بليكي وسعديك قولاً. فلا بد من الإجابة حالاً تُصَدِّقُ به المقال. فإن الأحوال تصدق الأقوال أوتكذبها. وكل قول فلصدقه وكذبه شاهد من حال قائله. فكما رجعت الى الله اجابة بالمقال. فارجع اليه اجابة بالحال. قال الحسن: ابن آدم: لك قول وعمل. وعملك أولى بك من قولك. ولك سريرة وعلانية. وسريرتك أملك بك من علانيتك.

• رجوع الاصلاح

قال «وانما يستقيم الرجوع إليه إصلاحاً بثلاثة أشياء: بالخروج من التبعات . والتوجع لتعثرات . واستدراك الفاتئات».

والخروج من التبعات: هو بالتوبة من الذنوب التي بين العبد وبين الله . وأداء الحقوق التي عليه للخلق.

ثم أن يتوجع لعثرته إذا عثر، فيتوجع قلبه وينصدع . وهذا دليل على إنابته الى الله . بخلاف من لا يتألم قلبه ، ولا ينصدع من عثرته . فإنه دليل على فساد قلبه وموته .

وأيضاً أن يتوجع لعثرة أخيه المؤمن إذا عثر حتى كأنه هو الذي عثر بها ولا يشمت به . فهو دليل على رقة قلبه وإنابته .

و يكمل ذلك باستدراك الفاتئات: وهو استدراك ما فاتته من طاعة وقرية بأمثالها ، أو خير منها ، ولا سيما في بقية عمره ، عند قرب رحيله إلى الله . فبقية عمر المؤمن لا قيمة لها . يستدرك بها ما فات . ويحيى بها ما أمان .

• الرجوع وفاء بالمعهد

قال «وانما يستقيم الرجوع اليه عهداً: بثلاثة أشياء . بالخلاص من لذة الذنب . و بترك الاستهانة بأهل الغفلة ، تخوفاً عليهم ، مع الرجاء لنفسك . وبالاتصاف في رؤية علة الخدمة» .

فإن العبد إذا صَفَّتْ له الإنابة إلى ربه تخلص من الفكرة في لذة الذنب . وعاد مكانها ألماً وتوجعاً لذكره ، والفكرة فيه . فما دامت لذة الفكرة فيه موجودة في قلبه ، فإنابته غير صافية .

فإن قيل: أي الحالين أعلى؟ حال من يجد لذة الذنب في قلبه ، فهو يجاهدها لله ، و يتركها من خوفه وعيبته وإجلاله أو حال من ماتت لذة الذنب في قلبه وصار مكانها ألماً وتوجعاً وطمانينة إلى ربه ، وسكوناً إليه ، والتذاذاً بحبه ، وتنعماً بذكره؟ .

قيل : حال هذا أكمل وأرفع . وغاية صاحب المجاهدة: أن يجاهد نفسه حتى يصل إلى مقام هذا ومثله ، ولكنه يتلوه في المنزلة والقرب ومنوط به .

فإن قيل : فأين أجر مجاهدة صاحب اللذة ، وتركه محابته لله ، وإيثاره رضا الله على هواه ؟ وبهذا كان النوع الإنساني أفضل من النوع الملكي عند أهل السنة وكانوا خير البرية . والمطمئن قد استراح من ألم هذه المجاهدة وعوفى منها . فبينهما من التفاوت ما بين درجة المعافى والمبتلى . قيل: النفس لها ثلاثة أحوال: الأمر بالذنب، ثم اللوم عليه والتندم منه ، ثم الطمانينة إلى

ربها والإقبال بكليتها عليه. وهذه الحال أعلى أحوالها. وأرفعها وهي التي يشمر إليها المجاهد، وما يحصل له من ثواب مجاهدته وصبره فهو تشميره إلى درجة الطمأنينة إلى الله. فهو بمنزلة راكب القفار والمهام والأهوال، ليصل إلى البيت فيطمئن قلبه برؤيته والطواف به. والآخر بمنزلة من هو مشغول به طائفاً وقائماً، وراكعاً وساجداً. ليس له التفات إلى غيره. فهذا مشغلاً، ملاغماً، وذلك بالوسيلة. وكل له أجر. ولكن بين أجر الغايات وأجر الوسائل بؤن.

وما يحصل للمطمئن من الأحوال والعبودية والإيمان فوق ما يحصل لهذا المجاهد نفسه في ذات الله، وإن كان أكثر عملاً، فقد راعى المظمّن المنيب بجملة وكيفيته أعظم، وإن كان هذا المجاهد أكثر عملاً. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. فما سبق الصديق الصحابة بكثرة عمل. وقد كان فيهم من هو أكثر صياماً وحجاً وقراءة وصلاة منه. ولكن بأمر آخر قام بقلبه، حتى إن أفضل الصحابة كان يسابقه ولا يراه إلا أمامه.

ولكن عبودية مجاهد نفسه على لذة الذنب والشهوة قد تكون أشق. ولا يلزم من مشقتها تفضيلها في الدرجة. فأفضل الأعمال الإيمان بالله. والجهد أشق منه وهو تاليه في الدرجة. ودرجة الصديقين أعلى من درجة المجاهدين والشهداء.

● وَجَل ... دُونَ بَاسٍ

ومن علامات الإنابة: ترك الاستهانة بأهل الغفلة والخوف عليهم، مع فتحك باب الرجاء لنفسك. فترجو لنفسك الرحمة، وتحشى على أهل الغفلة النعمة، ولكن أرجو لهم الرحمة. وأخشى على نفسك النعمة. فإن كنت لا بد مستهيناً بهم ماقاً لهم، لا تكشف أحوالهم لك، ورؤية ما هم عليه. فكأن لنفسك أشد مقتاً منك لهم، وكن أرجى لهم لرحمة الله منك لنفسك. قال بعض السلف: لن تفقه كل الفقه حتى تمقت الناس في ذات الله، ثم ترجع إلى نفسك فتكون لها أشد مقتاً.

وهذا الكلام لا يفقه معناه إلا الفقيه في دين الله. فإن من شهد حقيقة الخلق، وعجزهم وضعفهم وتقصيرهم، بل تقريظهم، وإضاعتهم لحق الله، وأقبالهم على غيره، وبيعهم حظهم من الله بأبخس الثمن من هذا العاجل الفاني — لم يجد بداً من مقتهم. ولا يمكنه غير ذلك ألبتة. ولكن إذا رجع إلى نفسه وحاله وتقصيره، وكان على بصيرة من ذلك: كان لنفسه أشد مقتاً واستهانة. فهذا هو الفقيه.

وأما الاستقصاء في رؤية علل الخدمة: فهو التفقش عما يشوبها من حظوظ النفس، وتمييز حق الرب منها من حظ النفس. ولعل أكثرها — أو كلها — أن تكون حظاً لنفسك وأنت

لا تشعر.

فلا إله إلا الله. كم في النفوس من علل وأغراض وحظوظ تمنع الأعمال: أن تكون لله خالصة، وأن تصل إليه؟ وإن العبد ليعمل العمل حيث لا يراه بشر ألبته، وهو غير خالص لله. ويعمل العمل والعيون قد استدارت عليه نطاقاً، وهو خالص لوجه الله. ولا يميز هذا إلا أهل انبصائر وأطباء القلوب العالمون بأدواتها وعللها.

فبين العمل وبين القلب مسافة. وفي تلك المسافة قُطَاع تمنع وصول العمل إلى القلب. فيكون الرجل كثير العمل وما وصل منه إلى قلبه عبة ولا خوف ولا رجاء، ولا زهد في الدنيا ولا رغبة في الآخرة. ولا نور يفرق به بين أولياء الله وأعدائه، وبين الحق والباطل، ولا قوة في أمره. فلور وصل أثر الأعمال إلى قلبه لاستنار وأشرق. ورأى الحق والباطل. ويميز بين أولياء الله وأعدائه. ووجب له ذلك المزيد من الأحوال.

ثم بين القلب وبين الرب مسافة. وعليها قطاع تمنع وصول العمل إليه، من كبير وإعجاب و دلال، ورؤية العمل، ونسيان التلة. وعلل خفية لو استقصى في طلبها لرأى العجب. ومن رحمة الله تعالى: سترها على أكثر العمال، إذ لو رآوها وعانيتها لوقعوا فيما هو أشد منها، من اليأس وسقوط والاستحسار، وترك العمل، وخود العزم، وفقر الهمة. ولهذا لما ظهرت «رعاية» أبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي واشتغل بها العباد عطلت منهم مساجد كانوا يعمرونها بعبادة. والطبيب الحاذق يعلم كيف يطب النفوس. فلا يعمر قصرأ ويهدم مصرأ.

● ولا بد من حال يصدق المقال

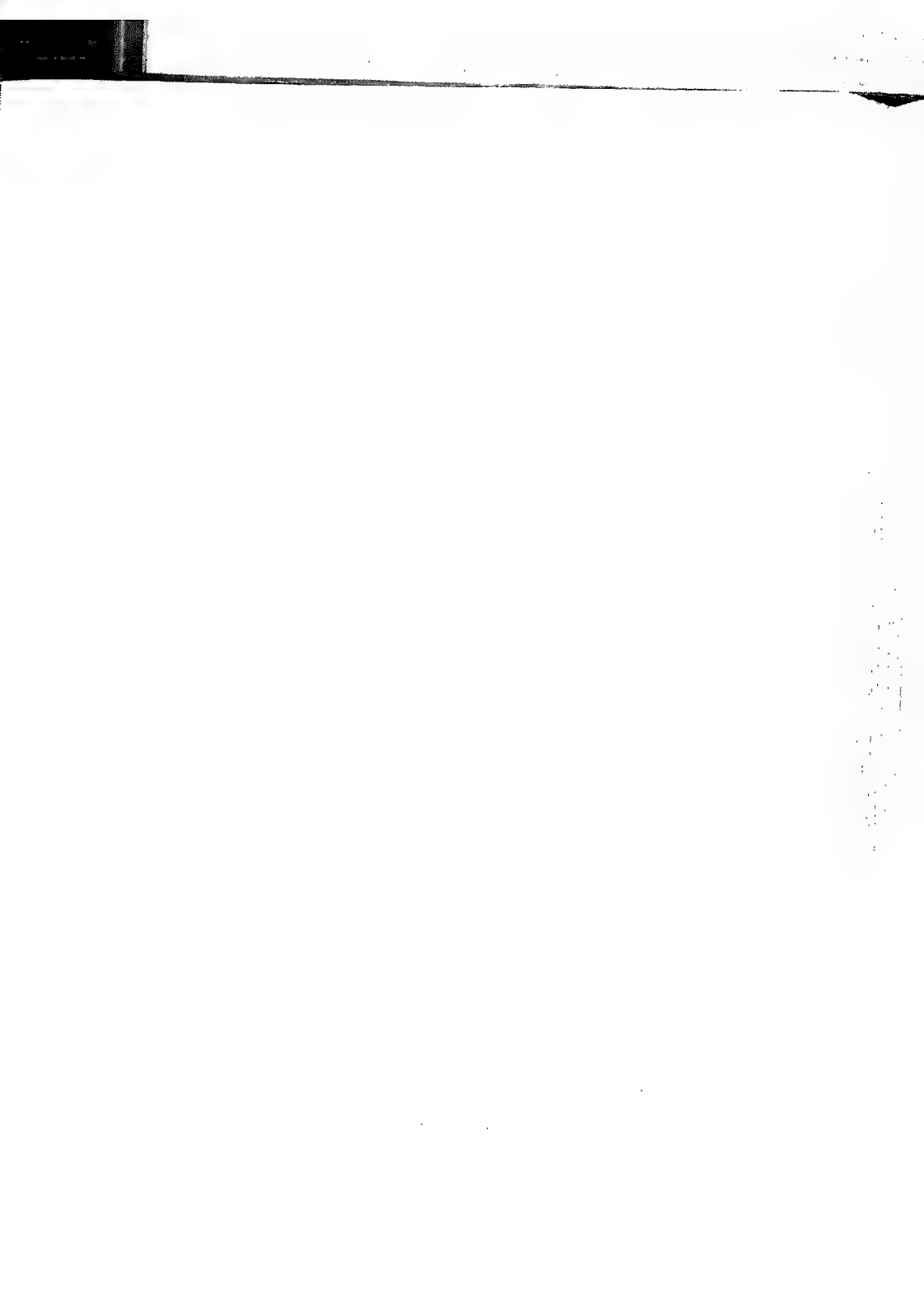
وإنما يستقيم الرجوع إليه حالاً بثلاثة أشياء: بالإيثار من عملك. وبمعاناة اضطراك، ورؤية لطفه بك.

فتيأس من النجاة بعملك. وترى النجاة إنما هي برحمته تعالى وعمله وفضله، كما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «لن ينجي أحداً منكم عمله. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل».

وأما معاناة الاضطراب: فانه إذا أيس من عمله: شهد أن الله عز وجل غني بالذات، فإن الغنى وصف ذاتي للرب، والفقر والحاجة والضرورة وصف ذاتي للعبد. قال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه:

والفقر وصف ذات لازم أبداً كما الغنى أبداً وصف له ذاتي

وعلى العبد بعد ذلك ان ينظر إلى الطاف الله، و يعلم ان كل ما هو فيه وما يرجوه وما تقدم له: لطف من الله به، ومنه قرأ بها عليه، وصدة تصدق بها عليه بلا سبب منه. إذ هو المحسن بالسبب والسبب. والأمر له من قبل ومن بعد. وهو الأول والآخر. لا اله غيره. ولا رب سواه.



(٨) مَنَزِلَةُ التَّذَكُّرِ

ثم ينزل القلب منزل «التذكر» وهو قرين الإنابة. قال الله تعالى (٤٠: ١٣) وما يتذكر إلا من ينسب) وقال (٥٠: ٨ تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) وهو من خواص أولي الألباب. كما قال تعالى (١٣: ٢١) إنما يتذكر أولو الألباب) وقال تعالى (٢: ٢٦٩) وما يتذكر إلا أولو الألباب).

و «التذكر» و «التفكير» منزلان يشتركان أنواع المعارف، وحقائق الإيمان والإحسان. والمعارف لا يزال يعود بتفكيره على تذكره، وبتذكره على تفكيره، حتى يفتح قفل قلبه بإذن الفتح العليم. قال الحسن البصري: ما زال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكير، و بالتفكير على التذكر، و يناطقون القلوب حتى نطقن.

و «التذكر» تفعل من الذكر. وهو ضد النسيان. وهو حضور صورة المذكر العلمية في القلب. واختير له بناء الفعل، لحصوله بعد مهلة وتدرج. كالتبصر والتفهم والتعلم.

فمنزلة «التذكر» من «التفكير» منزلة حصول الشيء المطلوب بعد التفطيش عليه. ولهذا كانت آيات الله المستلوة والمشهودة ذكرى. كما قال في التلوة (٤٠: ٥٤) ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بنى إسرائيل الكتاب. هدى وذكرى لأولي الألباب) وقال عن القرآن (٦٩: ٤٨) وأنه لتذكركم للمتقين) وقال في آياته المشهودة (٥٠: ٥-٨ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج. والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي. وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج. تبصرة وذكرى لكل عبد منيب).

فـ «التبصرة» آلة البصر، و «التذكركم» آلة الذكر. وقرن بينهما وجعلهما لأهل الإنابة. لأن العبد إذا أناب إلى الله أبصر مواقع الآيات والعبر. فاستدل بها على ما هي آيات له. فزال عنه الإعراض بالإنابة، والمعنى بالتبصرة، والغفلة بالتذكركم. لأن التبصرة توجب له حصول صورة المدلول في القلب بعد غفلته عنها. فترتيب المنازل الثلاثة أحسن ترتيب، ثم إن كلا منها بيد صاحبه ويقويه ويشمره.

وقال تعالى في آياته المشهودة (٥٠: ٣٦، ٣٧) وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشاً. فنقبوا في البلاد، هل من محيص؟ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد).

والناس ثلاثة: رجل قلبه ميت. فذلك الذي لا قلب له. فهذا ليست هذه الآية ذكرى في

حقه

الثانى: رجل له قلب حى مستعد، لكنه غير مستمع للآيات المتلوة، التى يخبر بها الله عن الآيات المشهودة: إما لعدم ورودها، أو لوصولها إليه، ولكن قلبه مشغول عنها بغيرها. فهو غائب القلب ليس حاضراً. فهذا أيضاً لا تحصل له الذكرى، مع استعداده ووجود قلبه.

والثالث: رجل حى القلب مستعد. تليت عليه الآيات. فأصغى بسمعه، وألقى السمع وأحضر قلبه. ولم يشغله بغير فهم ما يسمعه. فهو شاهد القلب. ملق السمع. فهذا القسم هو الذى ينتفع بالآيات المتلوة والمشهودة.

فالأول: بمنزلة الأعمى الذى لا يبصر.

والثانى: بمنزلة البصير الطامح ببصره إلى غير جهة المنظور إليه، فكلاهما لا يراه.

والثالث: بمنزلة البصير الذى قد حَاقَ إلى جهة المنظور، وأتبعه بصره. وقابله على توسط من البعد والقرب. فهذا هو الذى يراه.

فسبحان من جعل كلامه شفاء لما فى الصدور.

فإن قيل: فما موقع «أو» من هذا النظم على ما قررت؟

قيل فيها سر لطيف، ولنا نقول: إنها بمعنى الواو. كما يقوله ظاهرية النحاة.

فاعلم أن الرجل قد يكون له قلب وقَّاد، ملء باستخراج العبر. واستنباط الحكم. فهذا قلبه يوقمه على التذكر والاعتبار. فإذا سمع الآيات كانت له نوراً على نور. وهؤلاء أكمل خلق الله. وأعظمهم إيماناً وبصيرة. حتى كأن الذى أخبرهم به الرسول مشاهد لهم.

فصاحب هذا القلب إذا سمع الآيات وفى قلبه نور من البصيرة: ازداد بها نوراً إلى نوره. فإن لم يكن للمعبد مثل هذا القلب فألقى السمع وشهد قلبه ولم يقب حصل له التذكر أيضاً (٢: ٢٦٥) فإن لم يصحبها وإبل فقتل والوايل والطل فى جميع الأعمال وآثارها، وموجباتها. وأهل الجنة سابقون مقربون، وأصحاب يمين، وبينهما فى درجات التفضيل ما بينهما. حتى إن شراب أحد الشوعين الصنف يطيب به شراب النوع الآخر ويوزج به مزجا. قال الله تعالى (٦: ٣٤) ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك الحق. ويهدى إلى صراط العزيز الحميد) فكل مؤمن يرى هذا. ولكن رؤية أهل العلم له لون، ورؤية غيرهم له لون آخر.

• تفكر يقود الى صالح العمل

وأبنية التذكر ثلاثة: الانتفاع بالعظة. والاستبصار بالعبرة. والظفر بشمرة الفكرة.

الانتفاع بالعظة: هو أن يقدح فى القلب قاذح الخوف والرجاء. فيتحرك للعمل، طلباً للخلاص من الخوف، ورغبة فى حصول المرجو.

و «العظة» هي الأمر والنهي، المعروف بالترغيب والترهيب.

و «العظة» نوعان: عظة بالمسموع، وعظة بالمشهود. فالعظة بالمسموع: الانتفاع بما يسمعه من الهدى والرشد، والنصائح التي جاءت على لسان الرسل وما أوحى إليهم. وكذلك الانتفاع بالعظة من كل ناصح ومرشد في مصالح الدين والدنيا.

و «العظة» بالمشهود: الانتفاع بما يراه ويشهده في العالم من مواقع العبر، وأحكام القدر، وعجائبه. وما يشاهده من آيات الله الدالة على صدق رسله.

وأما استبصار العبرة: فهو زيادة البصيرة عما كانت عليه في منزل التفكير بقوة الاستحضار. لأن التذكر يعتقل المعاني التي حصلت بالتفكير في مواقع الآيات والعبر. فهو يظفر بها بالتفكير. وتتصل له وتنجلي بالتذكر. فيقوى العزم على السير بحسب قوة الاستبصار. لأنه يوجب تحديد النظر فيما يحرك المطلب إذ الطلب فرع الشعور. فكلمة قوى الشعور بالمحجوب اشتد سفر القلب إليه. وكلمة اشتغل الفكر به ازداد الشعور به والبصيرة فيه. والتذكر له.

وأما الظفر بشرة الفكرة: فهذا موضع لطيف.

وللفكرة ثمرتان: حصول المطلوب تاماً بحسب الإمكان، والعمل بموجبه رعاية لحقه. فإن القلب حال التفكير كان قد كثر بأعماله في تحصيل المطلوب. فلما حصلت له المعاني وتخمرت في القلب، واستراح العقل: عاد فتذكر ما كان حصله وطالعه. فابتهج به وفرح به. وصحح في هذا المنزل ما كان فاتته في منزل التفكير. لأنه قد أشرف عليه في مقام التذكر، الذي هو أعلى منه. فأخذ حينئذ في الثمرة المقصودة. وهي العمل بموجبه مراعاة لحقه. فإن العمل الصالح: هو ثمرة العلم النافع، الذي هو ثمرة التفكير.

وإذا أردت فهم هذا بمثال حسي. فطالب المال ما دام جاداً في طلبه، فهو في كلال وتعبد. حتى إذا ظفر به استراح من كد الطلب. وقديماً من سفر التجارة. فطالع ما حصله وأبصره. وصحح في هذا الحال ما عساه غلط فيه في حال اشتغاله بالطلب. فإذا صح له وبردت غنيمته له. أخذ في صرف المال في وجوه الانتفاع المطلوبة منه. والله أعلم.

● شروط الانتفاع بالعظة

وإنما ينتفع بالعظة بعد حصول ثلاثة أشياء: شدة الافتقار إليها. والعمى عن عيب الواعظ.

وتذكر الوعد والوعيد.

إذ يشتد افتقار العبد إلى العظة — وهي الترغيب والترهيب — إذا ضعفت إنابته وتذكره، وإلا فمتى قويت إنابته وتذكره: لم تشتد حاجته إلى التذكير والترغيب والترهيب، ولكن تكون

الحاجة منه شديدة إلى معرفة الأمر والنهي.

فالمُنِيب المتذكر: شديد الحاجة إلى الأمر والنهي، والمعرض الغافل شديد الحاجة إلى الترغيب والترهيب. والمعارض المتكبر: شديد الحاجة إلى المجادلة.

فجاءت هذه الثلاثة في حق هؤلاء الثلاثة في قوله (١٦: ١٢٥) ادع إلى سبيل ربك بالحكمة، والموعظة الحسنة. وجادلهم بالتى هي أحسن) أطلق الحكمة، ولم يقيد بها بوصف الحسنة. إذ كلها حسنة، ووصف الحسن لها ذاتي.

وأما «الموعظة» فقيدها بوصف الإحسان. إذ ليس كل موعظة حسنة.

وكذلك «الجدال» قد يكون بالتى هي أحسن. وقد يكون بغير ذلك. وهذا يحتمل أن يرجع إلى حال المجادل وغلظته، ولينه وحدته ورقته. فيكون مأموراً بمجادلتهم بالحال التى هي أحسن.

ويحتمل أن يكون صفة لما يجادل به، من الحجج والبراهين، والكلمات التى هي أحسن شيء وأبينه، وأدله على المقصود. وأوصله إلى المطلوب. والتحقيق: أن الآية تتناول النوعين. وأما العمى عن عيب الواعظ: فإنه إذا اشتغل به حُرِم الانتفاع بموعظته. لأن النفوس مجبولة على عدم الانتفاع بكلام من لا يعمل بعلمه ولا ينتفع به.

ولأجل هذه النارة: قال شعيب عليه السلام لقومه (١١: ٨٨) وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) وقال بعض السلف: إذا أردت أن يُقبل منك الأمر والنهي: فإذا أمرت بشيء فكن أول الفاعلين له، والمؤقرين به. وإذا نهيت عن شيء، فكن أول المنتهين عنه. وقد قيل:

يا أيها الرجل المعلم غيره	هلا لنفسك كان ذا التعليم؟
تصف الدواء لذي السقام من الضنى ومن الضنى قسي وأنت مقيم	
لا تله عن خُلُق. وتأتى مثله	عار عليك إذا فعلت ذميم
ابداً بنفسك فأنهها عن غيها	فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يُقبل ما تقول ويُقتدى	بالقول منك. وينفع التعليم

فالعمى عن عيب الواعظ: من شروط تمام الانتفاع بموعظته.

وأما تذكر الوعد والوعيد: فإن ذلك يوجب خشية والحذر منه. ولا تنفع الموعظة إلا لمن آمن به، وخافه ورجاه. قال الله تعالى (١١: ١٠٣) إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة) وقال (٨٧: ١٠) سيذكر من يخشى) وقال (٧٩: ٤٥) إنما أنت منذر من يخشاها) وأصرح من ذلك قوله تعالى (٥٠: ٤٥) فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) فالإيمان بالوعد والوعيد وذكره: شرط في الانتفاع بالعظات والآيات والعبر. يستحيل حصوله بدونه.

• شروط استبصار العبرة

وإنما تَسْتَبْصِرُ العبرة بثلاثة أشياء: بحياة العقل. ومعرفة الأيام. والسلامة من الأغراض.
و«العبرة» هي الاعتبار. وحقيقتها: العبور من حكم الشيء إلى حكم مثله. فإذا رأى من
قد أصابته محنة وبلاء لسبب ارتكبه، علم أن حكم من ارتكب ذلك السبب كحكمه.
وحياة العقل: هي صحة الإدراك. وقوة الفهم وجودته. وتحقق الانتفاع بالشيء والتضرر به.
وهو نور ينص الله به من يشاء من خلقه. وبحسب تفاوت الناس في قوة ذلك النور وضعفه،
ووجوده وعدمه، يقع تفاوت أذهانهم وأفهامهم وإدراكاتهم. ونسبته إلى القلب كنسبة النور
الباصر إلى العين.

ومن تجربات السالكين، التي جربوها فألفوها صحيحة: أن من أدمن «ياحى يا قيوم لا
إله إلا أنت» أورثه ذلك حياة القلب والعقل.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية — قدس الله روحه — شديد المهج بها جداً. وقال لى يوماً:
لهذين الاسمين — وهما «الحى القيوم» — تأثير عظيم فى حياة القلب.

وأما معرفة الأيام: فبأن يعلم قصرها، وأنها أنفاس معدودة منصرفة. كل نفس منها يقابله
آلاف آلاف من السنين فى دار البقاء. فليس لهذه الأيام الخالية قط نسبة إلى أيام البقاء. وهى
كمدة المنام لمن له عقل حى وقلب واع. فما أولاه أن لا يصرف منها نفساً إلا فى أحب الأمور
إلى الله. فلو صرفه فيما يحبه وترك الأحب لكان مفرطاً فكيف إذا صرفه فيما لا ينفعه؟ فكيف
إذا صرفه فيما يحق عليه ربه؟ قاله المستعان ولا قوة إلا به.

وكذلك يتذكر أيام الله التى أمر رسله بتذكير أممهم بها. كما قال تعالى (١٤: ٥) ولقد
أرسلنا موسى بآياتنا: أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور. وذكّرهم بأيام الله) وقد
فسرت «أيام الله» بنعمه، وفسرت بنقمه من أهل الكفر والمعاصي. فالأول تفسير ابن عباس
وأبى بن كعب ومجاهد. والثانى: تفسير مقاتل.

والصواب: أن أيامه نعم النوعين. وهى وقائمه التى أوقعها بأعدائه، ونعمه التى ساقها إلى
أوليائه. وسميت هذه النعم والنقم الكبار المتحدّث بها «أياماً» لأنها ظرف لما. تقول العرب:
فلان عالم بأيام العرب وأيام الناس. أى بالوقائع التى كانت فى تلك الأيام. فمعرفة هذه
الأيام توجب للعبد استبصار العبر. وبحسب معرفته بها تكون عبرته وعظته. قال الله تعالى
(١٢: ١١١) لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب).

ولا يتم ذلك إلا بالسلامة من الأغراض. من متابعة الهوى والانقياد لداعي النفس الأمارة
بالسوء. فبأن اتبع الهوى يطمس نور العقل. ويعمى بصيرة القلب. ويصد عن اتباع الحق.

ويضل عن الطريق المستقيم. فلا تحصل بصيرة العبرة معه ألبتة. والعبد إذا اتبع هواه فسد رأيه ونظره. فازتته نفسه الحسن في صورة القبيح، والقبيح في صورة الحسن. فالتبس عليه الحق بالباطل. فأنى له الانتفاع بالتذكر، أو بالتفكر، أو بالعظة؟

• ثمرة الفكرة تُجتنى يقصر الأمل

وانما تُجتنى ثمرة الفكرة بثلاثة أشياء:

أحدها: قصر الأمل. والثاني: تدبر القرآن. والثالث: تجتنب مفسدات القلب الخمسة. فاما قصر الأمل: فهو العلم بقرب الرحيل، وسرعة انقضاء مدة الحياة. وهومن أنفع الأمور للقلب. فإنه يبعثه على معانضة الأيام، وانتهاز الفرص التي تمر مر السحاب، ومبادرة طي صحائف الأعمال. ويثير ساكن عزماته إلى دار البقاء، ويحثه على قضاء جهاز سفره، وتدارك الفارط. ويزهده في الدنيا. ويرغبه في الآخرة. فيقوم بقلبه — إذا دام مطالعة قصر الأمل — شاهداً من شواهد اليقين. يريه فناء الدنيا. وسرعة انقضائها. وقلة ما بقي منها. وأنها قد ترحلت مُدْبِرَةً. ولم يبق منها إلا ضبابية كضبابة الإناء يتصايبها صاحبها. وأنها لم يبق منها إلا كما بقي من يوم صارت شمس على رؤوس الجبال. ويريه بقاء الآخرة ودوامها، وأنها قد ترحلت مقبلة. وقد جاء أشراطها وعلامتها، وأنه من لقاءها كمسافر خرج صاحبه يتلقاه، فكل منهما يسير إلى الآخر، فيوشك أن يلتقيا سريراً.

ويكفي في قصر الأمل قوله تعالى (٢٦: ٢٠٥ — ٢٠٧ أفرأيت إن متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون. ما أغنى عنهم ما كانوا يمتثلون) وقوله تعالى (١٠: ٤٥ ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم) وقوله تعالى (٧٩: ٤٦ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا غشية أو حهاها) وقوله تعالى (٢٣: ١١٣، ١١٤ قالوا: لبثنا يوماً أو بعض يوم. فاسأل العاذنين. قال: إن لبثتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون) وقوله تعالى (٤٦: ٣٥ كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار، بلاغ. فهل يهلك إلا القوم الفاسقون) وقوله تعالى (٢٠: ١٠٣، ١٠٤ يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشراً. نحن أعلم بما يقولون. إذ يقول أمثلهم طريقة: إن لبثتم إلا يوماً) وخطب النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه يوماً والشمس على رؤوس الجبال فقال «إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه» وقصر الأمل بناؤه على أمرين: يتيقن زوال الدنيا ومفارقتها، ويتيقن لقاء الآخرة وبقائها ودوامها. ثم يقايس بين الأمرين و يؤثر اولاهما بالأ يثار.

● تدبر القرآن بولد الافكار

وأما التأمل في القرآن: فهو تحديق ناظر القلب إلى معانيه. وجمع الفكر على تدبره وتعقله. وهو المقصود بإنزاله، لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبر. قال الله تعالى (٣٨: ٢٩) كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبروا آياته. وليتذكروا أولو الألباب) وقال تعالى (٤٧: ٢٤) أفلا يتدبرون القرآن، أم على قلوب أقفاها؟) وقال تعالى (٢٣: ٦٩) أفلم يتدبروا القول) وقال تعالى (٤٣: ٣) إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) وقال الحسن: نزل القرآن ليُتدبر ويعمل به. فتحذوا تلاوته عملا.

فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاذه، وأقرب إلى نجاته: من تدبر القرآن، وإطالة التأمل. وجمع فيه الفكر على معاني آياته. فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرها. وعنى طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما، وآمال أهلها. وثبتت قواعد الإيمان في قلبه: وتشيد بنيانه. وتوطد أركانه. وتريه صورة الدنيا والآخرة، والجنة والنار في قلبه. وتُخَصِّرُهُ بين الأسم، وتريه أيام الله فيهم. وتُصَوِّرُهُ مواقع العبر. وتشهده عدل الله وفضله. وتعرفه ذاته، وأسماء وصفاته وأفعاله، وما يحبه وما يبغضه، وصراطه الموصل إليه، وما لسالكه بعد الوصول والقدوم عليه، وقواطع الطريق وآفاتهما. وتعرفه النفس وصفاتها، ومفاسد الأعمال ومصححاتها وتعرف طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم، وأحوالهم وسيماهم. ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسام الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه. وافتراقهم فيما يفترون فيه.

وبالجملة تعرفه الرب المدعو إليه، وطريق الوصول إليه، وما له من الكرامة إذا قدم عليه. وتعرفه في مقابل ذلك ثلاثة أخرى: ما يدعو إليه الشيطان، والطريق الموصلة إليه، وما نستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه.

فهذه ستة أمور ضروري للعبد معرفتها. ومشاهدتها ومطالعتها. فتشاهده الآخرة حتى كأنه فيها، وتغيبه عن الدنيا حتى كأنه ليس فيها. وتُمَيِّزُ له بين الحق والباطل في كل ما اختلف فيه العالم. فتريه الحق حقا، والباطل باطلا. وتعطيه فرقاناً ونوراً يفرق به بين الهدى والضلال. والغي والرشاد. وتعطيه قوة في قلبه، وحياة وسعة وانشراحا وبهجة وسرورا. فيصير في شأن الناس في شأن آخر.

فإن معاني القرآن دائرة على التوحيد وبراهينه، والعلم بالله وماله من أوصاف الكمال، وما ينزه عنه من سمات النقص، وعلى الإيمان بالرسول، وذكر براهين صدقهم، وأدلة صحة نبوتهم.

والتعريف بحقوقهم، وحقوق مرسلهم. وعلى الإيمان بملكته، وهم رسله في خلقه وأمره،
وتدبيرهم الأمور بإذنه ومشيئته، وما جعلوا عليه من أمر العالم العلوى والسفلى، وما يختص بالنوع
الإنسانى منهم، من حين يستقر فى رحم أمه إلى يوم يوفى ربه ويقدم عليه. وعلى الإيمان باليوم
الآخر وما أعد الله فيه لأوليائه من دار النعيم المطلق، التى لا يشعرون فيها بألم ولا نكد
وتنقيص. وما أعد لأعدائه من دار العقاب الوبيل، التى لا يخالطها سرور ولا رخاء ولا راحة
ولا فرح. وتفصيل ذلك أئتم تفصيل وأبينه. وعلى تفاصيل الأمر والنهى، والشرع والقدر،
والحلال والحرام، والمواعظ والعبر، والقصص والأمثال، والأسباب والحكم، والمبادئ
والغايات، فى خلقه وأمره.

فلا تزال معانيه تنهض العيد إلى ربه بالوعد الجميل، وتحذره وتخوفه بوعيده من العذاب
الوبيل، وتحشه على التضمر والتخفف للقاء اليوم الثقيل. وتهديه فى ظلم الآراء والمذاهب إلى
سواء اليسيل. وتصدّه عن اقتحام طرق البدع والأضاليل وتبعته على الازدياد من النعم بشكر ربه
الجليل. وتبصره بحدود الحلال والحرام. وتوقفه عليها لئلا يتعداها فيقع فى العناء الطويل.
وتثبت قلبه عن الزيف والميل عن الحق والتحويل. وتسهل عليه الأمور الصعاب والعقبات الشاقة
غاية التسهيل. وتناديه كلما فترت عزماته، ووتى فى سيره: تقدم الركب وفاتك الدليل.
فاللحاق للحاق، والرحيل الرحيل. وتخلّو به وتسير أمامه سير الدليل. وكلما خرج عليه كمين
من كمين العدو، أو قاطع من قطاع الطريق نادته: الحذر الحذرا فاعْتَصِمْ بالله، واستعن به،
وقل: حسبى الله ونعم الوكيل.

وفى تأمل القرآن وتدبره، وتفهمه، أضعاف أضعاف ما ذكرنا من الحكم والفوائد.

● مكدرات القلوب

وأما مفسدات القلب فهي: كثرة الخلطة، والتمني، والتعلق بغير الله، والشيع، والنام.
فهذه الخمسة من أكبر مفسدات القلب. ذلك أن القلب يسير إلى الله عز وجل، والدار
الآخرة، ويكشف عن طريق الحق ونهجه، آفات النفس والعمل، وقطاع الطريق بنوره وحياته
وقوته، وصحته وعزمه، وسلامة سمعه وصحته وبصره، وغيبة الشواغل والقواطع عنه. وهذه
الخمسة تطفئ نوره، وتعمور عين بصيرته، وتثقل سمعه، إن لم تَصُمْه وتُنْكِبْه — وتضعف قواه
كلها. وتوهن صحته وتُفَكِّرْ عزيمته، وتوقف همته، وتنكسه إلى روائه. ومن لا شعور له بهذا فميت
القلب. وما لجرح يميت إيلام. فهي عائقة له عن نبل كماله. قاطعة له عن الوصول إلى ما خلق
له. وجعل نيّمه وسعاده وابتهاجه ولذته فى الوصول إليه.

فإنه لا نعيم له ولا لذة، ولا ابتهاج، ولا كمال، إلا بمعرفة الله ومحبه، والطمانينة بذكره،
والفرح والابتهاج بقربه، والشوق إلى لقائه. فهذه جنته، العاجلة. كما أنه لا نعيم له في الآخرة،
ولا فوز إلا بجواره في دار النعيم في الجنة الآجلة. فله جنتان. لا يدخل الثانية منهما إن لم
يدخل الأولى.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية — قدس الله — وحده — يقول: إن في الدنيا جنة من لم
يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

وقال بعض العارفين: انه ليمر بالقلب اوقات. أقول: ان كان اهل الجنة في مثل هذا.
انهم لفي عيش طيب.

وقال بعض المحبين: مساكن أهل الدنيا خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيّب ما فيها، قالوا:
وما أطيّب ما فيها؟ قال: عجة الله، والأنس به، والشوق إلى لقائه، والإقبال عليه، والإعراض
عما سواه — أونحو هذا من الكلام.

وكل من له قلب حي يشهد هذا ويعرفه ذوقاً.
وهذه الأشياء الخمسة: قاطمة عن هذا، حائلة بين القلب وبينه، عائقة له عن سيره، ومعدّنة
له أمراضاً وعللاً إن لم يتداركها المريض خيف عليه منها.

● نخالط الناس في الخير فقط

فأما ما تؤثره كثرة الخلطة: فامتلاء القلب من دخان أنفاس بنى آدم حتى يسود، ويوجب
له تشبهاً وتفرقاً، وهما وغما، وضعفاً، وحلاً لما يعجز عن حمله من مؤنة قرناء السوء، وإضاعة
مصالحه والاشتغال عنها بهم وبأمورهم، وتقسّم فكره في اودية مطالبهم وأراداتهم، فماذا يبقى
منه لله والدار الآخرة؟.

هذا، وكم جلبت خلطة الناس من نقمة، ودفعت من نعمة؟ وأنزلت من محنة، وعطلت من
منحة، وأحلت من رزية، وأوقعت في بلية؟ وهل آفة الناس إلا الناس؟ وهل كان على أبى
طالب — عند الوفاة — أضر من قرناء السوء؟ لم يزالوا به حتى حالوا بينه وبين كلمة واحدة
توجب له سعادة الأبد.

وهذه الخلطة التي تكون على نوع مودة في الدنيا، وقضاء وطر بعضهم من بعض — تنقلب إذا
حقّت الحقائق عداوة، ويمض المخلط عليها يديه ندماً، كما قال تعالى (٢٥: ٢٧ — ٢٩)
ويوم بعض الظالم على يديه، بقول: يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً. يا ويلتى ليتنى
لم اتخذ فلاناً خليلاً. لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى) وقال تعالى (٤٣: ٦٧)

الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو، إلا المتقين) وقال خليله إبراهيم لقومه (٢٩: ٢٥) إنما اتخذتم من دون الله آوثناً مودةً بينكم في الحياة الدنيا. ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض، ويلعن بعضهم بعضاً - ومأواكم النار وما لكم من ناصرين) وهذا شأن كل مشتركين في غرض. يتوادون ماداموا متساعدين على حصوله، فإذا انقطع ذلك الغرض، أعقب ندامة وحزناً وألماً. وانتقلت تلك المودة بغضا ولعنة، وذما من بعضهم لبعض، لما انقلب ذلك الغرض حزناً وعذاباً، كما يشاهد في هذه الدار من أحوال المشتركين في خزيه، إذا أخذوا وعوقبوا. فكل متساعدين على باطل، متوادين عليه: لا بد أن تنقلب مودتهما بغضاً وعداوة.

والضابط النافع في أمر الخلطة: أن يخالط الناس في الخير - كالجمعة والجماعة، والأعياد والحج، وتعلم العلم، والجهاد، والنصيحة - ويعتزلهم في الشر، وفضول المباحات. فإن دعت الحاجة إلى خلطتهم في الشر، ولم يمكنه اعتزالهم: فالحذر الحذر أن يوافقهم. وليصبر على أذاهم، فإنهم لا بد أن يؤذوه إن لم يكن له قوة ولا ناصر. ولكن أذى يعقبه عز وعجة له وتعظيم، وثناء عليه منهم ومن المؤمنين ومن رب العالمين. وموافقتهم يعقبها ذلّ وبقص له، ومقت، وذم منهم ومن المؤمنين، ومن رب العالمين.

فالصبر على أذاهم خير وأحسن عاقبة، وأحد مآلا، وإن دعت الحاجة إلى خلطتهم في فضول المباحات. فليجتهد أن يقلب ذلك المجلس طاعة لله، إن أمكنه، ويشجع نفسه ويقوى قلبه، ولا يلتفت إلى الوارد الشيطاني القاطع له عن ذلك، بأن هذا رياء وعجة لإظهار علمك وحالك، ونحو ذلك، فليحاربه، وليستعن بالله، ويؤثر فيهم من الخير ما أمكنه.

فإن أعجزته المقادير عن ذلك، قَلْبَلْ قلبه من بينهم كسلّ الشعرة من العجين، وليكن فيهم حاضرّاً غائباً، قريباً بعيداً، نائماً يقظاً. ينظر إليهم ولا يبصرهم، ويسمع كلامهم ولا يعبه، لأنه قد أخذ قلبه من بينهم، ورفق به إلى الملأ الأعلى، يسبح حول العرش مع الأرواح العلوية الزكية. وما أصعب هذا وأشقاه على النفوس، وإنه ليسير على من يسره الله عليه. فبين العبد وبينه أن يصدق الله تبارك وتعالى، ويدب اللجأ إليه، ويلقى نفسه على ربه طريقاً ذليلاً، ولا يعين على هذا إلا عجة صادقة، والذكر الدائم بالقلب واللسان، وتجنب المفسدات الأربع الباقية الآتية ذكرها. ولا ينال هذا إلا بعدة صالحة ومادة قوة من الله عز وجل، وعزيمة صادقة، و فراغ من التعلق بغير الله تعالى. والله تعالى أعلم.

• في التمني مزيد فساد

ويفسد القلب أيضاً بركوبه بحر التمني وهو بحر لا ساحل له. وهو البحر الذي يركبه

مغاليس العالم، كما قيل: إن المتى رأس أموال المغاليس. وبضاعة ركباه مواعيد الشيطان. وخيالات المحال والبهتان، فلا تزال امواج الامانى الكاذبة، والخيالات الباطلة، تتلاعب ببراكبه، وكل حسب حاله: من متمنٍ للقدرة والسلطان، وللضرب في الارض والتطواف في البلدان، او للاموال والاثمان، فيمثل المتمنى صورة مطلوبه في نفسه وقد فاز بوصولها، والتذ بالظفر بها. فيتنا هو على هذه الحال، إذ استيقظ فإذا يده والحصير. وصاحب المهمة العاليه أمانيه حائمة حول العلم والإيمان. والعمل الذى يقربه إلى الله. ويدنيه من جواره.

فأمانى هذا إيمان ونور وحكمة. وأمانى أولئك خدع وغرور. وقد مدح النبي صلى الله عليه وسلم متمنى الخير. وربما جعل أجره في بعض الأشياء كأجر قاعله، كما قال: لو أن لي مالا لعملت بعمل فلان الذى يتقى في ماله ربه. ويصل فيه رحمه، ويخرج منه حقه. وقال «هما في الأجر سواء».

● تمام الخذلان فى التعلق بغير الله

وانفسد الثالث من مفسدات القلب التعلق بغير الله تبارك وتعالى. وهذا أعظم مفسداته على الإطلاق.

فليس عليه أضر من ذلك. ولا أقطع له عن مصالحه وسعادته منه، فإنه إذا تعلق بغير الله وكله الله إلى ما تعلق به. وخذله من جهة ما تعلق به. وفاته تحصيل مقصوده من الله عز وجل، بتعلقه بغيره، والتفاتة إلى سواء. فلا على نصيبه من الله حصل. ولا إلى ما أمله من تعلق به وصل. قال الله تعالى (١٩: ٨١ - ٨٢) واتخذوا من دون الله آله ليكونوا لهم عزاً. كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً) وقال تعالى (٣٦: ٧٥) واتخذوا من دون الله آله لعلهم ينصرون. لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون).

فأعظم الناس خذلاناً من تعلق بغير الله. فإن ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه، أعظم مما حصل له من تعلق به. وهو معرض للزوال والفوات. ومثل التعلق بغير الله: كمثّل المستظل من الحر والبرد بيت العنكبوت، أو هن البيوت.

وبالجمله: فأساس الشرك وقاعدته التى بى عليها: التعلق بغير الله. ولصاحبه الذم والخذلان، كما قال تعالى (١٧: ٢٢) لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً) مذموماً لا حامد لك. مخذولاً لا ناصر لك. إذ قد يكون بعض الناس مقهوراً محموداً كالذى قهر بباطل. وقد يكون مذموماً منصوراً كالذى قهر وتسلط عليه بباطل.. وقد يكون محموداً منصوراً

كالذى تمكن ومملك بحق. والمشارك المتعلق بغير الله قسمه اردأ الأقسام الأربعة، لا محمود ولا منصور.

• النهم المميت

ومن مفسدات القلب: الطعام. والمفسد منه ذلك نوعان: احدهما ما يفسده لعينه وذاته كالمحرمات. وهى نوعان: محرمات لحق الله، كالميتة والدم، ولحم الخنزير، وذى الناب من السباع والمخلب من الطير. ومحرمات لحق العباد. كالمسروق والمغصوب والمنهوب. وما أخذ بغير رضا صاحبه، إما قهراً وإما حياءً وتذمماً.

والثانى: ما يفسده بقدرة. وتعدى حده، كالإسراف فى الحلال، والشبع المفرط، فإنه يثقله عن الطاعات. ويشغله بمزاولة مؤنة البطنة ومحاولتها، حتى يظفر بها. فإذا ظفر بها شغله بمزاولة تصرفها ووقاية ضررها، والتأذى بشقلها، وقوى عليه مواد الشهوة، وطرق مجارى الشيطان ووسعها، فإنه يجرى من ابن آدم مجرى الدم. فالصوم يضيق مجاريه ويد عليه طرقه، والشبع يطرقها ويوسعها. ومن أكل كثيراً شرب كثيراً. فنام كثيراً. فخر كثيراً. وفى الحديث المشهور «ما ملأ آدمى وعاء شراً من بطنه. بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه. فإن كان لا بد فاعلا فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه».

• رقاد الغافلين

والمفسد الخامس. كثرة النوم، اذ النوم الكثير يميم القلب، ويثقل البدن، ويضيع الوقت، ويورث كثرة الغفلة والكسل. ومنه المكروه جداً. ومنه الضار غير النافع للبدن. وأنفع النوم: ما كان عند شدة الحاجة اليه. ونوم أول الليل أهد وأنفع من آخره. ونوم وسط النهار أنفع من طرفيه. وكلما قرب النوم من الطرفين قل نفعه. وكثر ضرره. ولا سيما نوم العصر. والنوم أول النهار إلا لسهران.

ومن المكروه عندهم: النوم بين صلاة الصبح وطلوع الشمس. فإنه وقت غنيمة. وللسير ذلك الوقت عند السالكين مزية عظيمة. حتى لو ساروا طول ليلهم لم يسمحوا بالقعود عن السير ذلك الوقت حتى تطلع الشمس. فإنه أول النهار ومفتاحه. ووقت نزول الأرزاق، وحصول القسم، وحلول البركة. ومنه ينشأ النهار. وينسحب حكم جميعه على حكم تلك الحصة. فينبغي أن يكون نومها كنوم المضطر.

وبالجملة فأعدل النوم وأنفعه : نوم نصف الليل الأول ، وسدسه الأخير. وهو مقدار ثمان ساعات . وهذا أعدل النوم عند الأطباء . وما زاد عليه أو نقص منه أثر عندهم في الطبيعة انحرافاً بحسبه .

ومن النوم الذي لا ينفع أيضاً : النوم أول الليل ، عقيب غروب الشمس ، حتى تذهب فحمة العشاء . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرهه . فهو مكروه شرعاً وطبيعاً .
وكما أن كثرة النوم - مورثة . لهذه الآفات ، فمداقته ومجره ، مورث لآفات أخرى عظام : من سوء المزاج ويجهسه ، وانحراف النفس ، وجفاف الرطوبات المعينة على الفهم والعمل . ويورث أمراضاً متلفة لا ينتفع صاحبها بقلبه ولا بدنه معها . وما قام الوجود إلا بالعدل . فمن اعتصم به فقد أخذ بحظه من مجامع الخير . وبالله المستعان .

(٩) مَنْزِلُ اللَّهِ عَنِصَمًا

ثم ينزل القلب منزل الاعتصام.

وهو نوعان: اعتصام بالله، واعتصام بحبل الله. قال الله تعالى (٣: ١٠٣) واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا وقال (٢٢: ٧٨) واعتصموا بالله هو مولاكم. فنعم المولى ونعم النصيب.

و «الاعتصام» افتعال من العصمة. وهو التمسك بما يعصمك، ويمنعك من المحذور والمخوف. فالعصمة: الحمية. والاعتصام: الاحتما. ومنه سميت القلاع: العواصم، لمنعها وحمايتها.

ومدار السعادة الدنيوية والأخروية: على الاعتصام بالله، والاعتصام بحبله. ولانجاة الا لمن تمسك بهاتين العصمتين. فأما الاعتصام بحبله: فانه يعصم من الضلالة. والاعتصام به: يعصم من الملكة. فإن السائر الى الله كالسائر على طريق نحو مقصده. فهو محتاج الى هداية الطريق. والسلامة فيها. فلا يصل الى مقصده إلا بعد حصول هذين الأمرين له. فالدليل كفيل بعصته من الضلالة، وأن يهديه إلى الطريق، والثقة والقوة والسلاح التي بها تحصل له السلامة من قطاع الطريق وآفاتهما.

فالاعتصام بحبل الله: يوجب له الهداية واتباع الدليل. والاعتصام بالله، يوجب له القوة والعدة والسلاح، والمادة التي يستلزم بها في طريقه. ولهذا اختلفت عبارات السلف في الاعتصام بحبل الله، بعد إشارتهم كلهم إلى هذا المعنى.

فقال ابن عباس: تمسكوا بدين الله.

وقال ابن مسعود: هو الجماعة. وقال «عليكم بالجماعة. فإنها حبل الله الذي أمر به، وإن ما تكرهون في الجماعة والطاعة خير مما تحبون في الفرقة».

وقال مجاهد وعطاء «بعهد الله» وقال قتادة والسدي وكثير من أهل التفسير «هو القرآن».

وقال مقاتل: بأمر الله وطاعته، ولا تفرقوا كما تفرقت اليهود والنصارى.

وفي الموطأ من حديث مالك عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إن الله يرضى لكم ثلاثاً. ويسخط لكم ثلاثاً. يرضى لكم: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً. وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم. ويسخط لكم: قيل وقال. وإضاعة المال. وكثرة السؤال» رواه مسلم في الصحيح.

فالاعتصام بحبل الله: هو المحافظة على طاعته، مراقباً لأمره.

ونريد بمراقبة الأمر: القيام بالطاعة لأجل أن الله أمر بها وأحبها. لا لمجرد العادة، أو لئلا يباعثه سوى امتثال الأمر. كما قال طلق بن حبيب في حبيب في التقوى «هى العمل بطاعة الله على نور من الله. ترجو ثواب الله، وترك معصية الله على نور من الله، تخاف عقاب الله» وهذا هو الإيمان والاحتساب، المشار إليه في كلام النبي صلى الله عليه وسلم كقوله «(من صام رمضان إيماناً واحتساباً. ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً - غفر له» فالصيام والتقوى: هو الطاعة و«الإيمان» مراقبة الأمر. وإخلاص الباعث: هو أن يكون الإيمان الأمر، لا شيء سواه. و«الاحتساب» رجاء ثواب الله.

فلا اعتصام بحبل الله يحصى من البهجة وآفات العمل. والله أعلم. وأما الاعتصام به: فهو التوكل عليه. والامتناع به، والاحتماء به، وسؤاله أن يحصى العبد ونعمه، ويعصمه ويدفع عنه، فإن ثمرة الاعتصام به: هو الدفع عن العبد. والله يدافع عن الذين آمنوا. فيدفع عن عبده المؤمن إذا اعتصم به كل سبب يقضى به إلى المطب، ويحميه منه. فيدفع عنه الشبهات والشهوات، وكيد عدوه الظاهر والباطن، وشر نفسه. ويدفع عنه موجب أسباب الشر بعد انمقاداتها، بحسب قوة الاعتصام به وتمكنه. فتفتقد في حقه أسباب المطب. فيدفع عنه موجباتها ومسبباتها. ويدفع عنه قدره بقدره، وإرادته بإرادته، ويعيذه به منه.

• درجات الاعتصام

وهو على ثلاث درجات: اعتصام العامة بالخير، استسلاماً وإذعاناً. بتصديق الوعد والوعيد، وتعظيم الأمر والنهي. وتأسيس المعاملة على اليقين والإنصاف. فالعامة اعتصموا بالخبر الوارد عن الله، استسلاماً من غير منازعة، بل إيماناً. وانقادوا إلى تعظيم الأمر والنهي والإذعان لها، والتصديق بالوعد والوعيد. وأسسوا معاملتهم على اليقين. لا على الشك والتردد. وسلوك طريقة الاحتياط. كما قال القائل:

زعم المنجم والطبيب كلاهما لا تُبْعَثُ الأجساد. قلت: إليكما
إن صَحَّ قولكما فلست بخاسر أو صَحَّ قولِي فإخسار عليكما

هذه طريق أهل الريب والشك. يقومون بالأمر والنهي احتياطاً. وهذه الطريق لا تنجى من عذاب الله. ولا تحصل لصاحبها السعادة. ولا توصله إلى المأمَن. وأما الإنصاف الذي أسسوا معاملتهم عليه: فهو الإنصاف في معاملتهم لله ولخلقه. فأما الإنصاف في معاملة الله: فأن يعطى اليهودية حقها، وأن لا يتنازع ربه صفات إلهيته التي لا تليق بالعبد ولا تنبغى له: من العظمة، والكبرياء، والجبروت. ومن إنصافه لربه: أن لا يشكر سواه على نعمه وينساه. ولا يستعين بها على معاصيه.

● لا علائق

واعتصام الخاصة: وهو إسبال الخلق عن الخلق بسطاً، ورفض العلائق عزماً.
فإن حسن الخلق وتركية النفس بمكارم الأخلاق: يدل على سعة قلب صاحبه، وكرم نفسه وسجيته. وفي هذا الوصف: يكف الأذى، ويحمل الأذى.
وأما رفض العلائق عزماً: فهو العزم التام على رفض العلائق، وتركها في ظاهره وباطنه.
والأصل هو قطع علائق الباطن. فمتى قطعها لم تضره علائق الظاهر. فمتى كان المال في يديك وليس في قلبك لم يضرك ولو كثرت. ومتى كان في قلبك ضرك ولو لم يكن في يدك منه شيء.

قيل للإمام أحمد: أليكون الرجل زاهداً. ومعه ألف دينار؟ قال: نعم على شريطة ألا يفرح إذا زادت ولا يحزن إذا نقصت.

وتعلمه — رحمه الله — بقصد فرح الأثر والبطر. أما فرح المؤمن بالنعمة ليقدرها ويشكرها بحسن وضعها في موضعها من عاب الله ومراضها. فلا يمكن أن يكره ذلك الإمام أحمد.
ولهذا كان الصحابة أزهد الأمة مع ما بأيديهم من الأموال.
وقيل لسفيان الثوري: أليكون ذو المال زاهداً؟ قال: نعم إن كان إذا زيد في ماله شكر، وإن نقص شكر وصبر.

وإنما يحمّد قطع العلائق الظاهرة في موضعين: حيث يخاف منها ضرراً في دينه، أو حيث لا يكون فيها مصلحة راجحة. والكمال من ذلك: قطع العلائق التي تصير كلاليب على الصراط تمنعه من العبور. وهي كلاليب الشهوات والشبهات. ولا يضره ما تعلق به بعدها.
وذروة الاعتصام إنما تكون بالقرب. إذ لا ريب أن العبد يقرب من ربه، والرب يقرب من عبده. فأما قرب العبد: فكقوله تعالى (٩٦ : ١٩) واسجد واقترب) وقوله في الأثر الإلهي «من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً» وكقوله «وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه. ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها. ورجله التي يمشي بها. فبما يسمع. وبما يبصر. وبما يبطش. وبما يمشي». وفي الحديث الصحيح «أقرب ما يكون الرب من عبده: في جوف الليل الأخير» وفي الحديث أيضاً «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد» وفي الحديث الصحيح — لما ارتفعت أصواتهم بالتكبير مع النبي صل الله عليه وسلم في السفر — فقال «يا أيها الناس، أربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً. إن الذي تدعونه سميع قريب. أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته».

١٠٠) مَنَزِلَةُ الْفِرَارِ

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» «منزلة الفرار».
قال الله تعالى (٥١ : ٥٠) ففروا إلى الله) وحقيقة الفرار: الهرب من شيء إلى شيء. وهو نوعان: فرار السعداء. وفرار الأشقياء.

ففرار السعداء: الفرار إلى الله عز وجل. وفرار الأشقياء: الفرار منه لا إليه.
وأما الفرار منه إليه: ففرار أوليائه. قال ابن عباس في قوله تعالى (ففروا إلى الله) فروا منه إليه، وعملوا بطاعته. وقال سهل بن عبد الله: فروا عما سوى الله إلى الله. وقال آخرون: اهربوا من عذاب الله إلى ثوابه بالآيمان والطاعة.
وأدته: الفرار من الجهل إلى العلم عقداً وسعيًا. ومن الكسل إلى التشمير جداً وعزماً. ومن الضيق إلى السعة ثقةً ورجاءً.

و «جهل» نوعان: غم العلم بالحق النافع، وعدم العمل بموجبه ومقتضاه. فكلاماً جهل لغة وعرفاً وشرعاً وحقيقة. قال موسى (٢ - ٦٧) أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) لما قال له قومه (أتتخذنا هزواً) أي من المستهزئين. وقال يوسف الصديق (١٢ : ٣٣) وإلاّ تصيرف عني كئيدهن أضب إليهن. وأكن من الجاهلين) أي من مرتكبي ما حرمت عليهم. وقال تعالى (٤ : إغما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة) قال قتادة: أجمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن كل ما عصي الله به فهو جهالة. وقال غيره: أجمع الصحابة أن كل من عصي الله فهو جاهل.

فاسفرار المذكور: هو الفرار من الجهلين: من الجهل بالعلم إلى تحصيله، اعتقاداً ومعرفة وبصيرة. ومن جهل العمل: إلى السعي النافع، والعمل الصالح قصداً وسعيًا.
ثم يفر من إجابة داعي الكسل إلى داعي العمل والتشمير بالجد والاجتهاد.
و «بخد» بجهنا هو صدق العمل، وإخلاصه من شوائب الفتور، ووعود التسويف والتهاون. وهو تحت السين وسوف، وعسى، ولعل. فهي أضر شيء على العبد. وهي شجرة ثمرها الخسران والتدائمات.

والفرق بين الجد والعزم: أن «العزم» صدق الإرادة واستجماعها. و«الجد» صدق العمل وبذل الجهد فيه. وقد أمر الله سبحانه وتعالى بتلقى أوامره بالعزم والجد. فقال (٢ : ٦٣) خذوا ما آتيناكم بقوة) وقال (٧ : ١٤٥) وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء. فخذها بقوة) وقال (١٩ : ١٢) يا يحيى خذ الكتاب بقوة) أي بجهد واجتهاد وعزم. لا كمن يأخذ ما أمر به بتردد وتور.

ثم يهرب العبد من ضيق صدره بالهموم والغموم والأحزان والمخاوف التي تعتريه في هذه الدار من جهة نفسه. وما هو خارج عن نفسه مما يتعلق بأسباب مصالحه، ومصالح من يتعلق به، وما يتعلق بماله وبدنه وأهله وعدوه. يهرب من هميق صدره بذلك كله إلى سعة فضاء الثقة بالله تبارك وتعالى، وصدق التوكل عليه، وحسن الرجاء لجميع صنته به، وتوقع المرجو من لطفه وبره. ومن أحسن كلام العامة قولهم: لا هم مع الله. قال الله تعالى (٦٥ : ٢، ٣) ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب) قال الربيع بن خثيم: يجعل له مخرجا من كل ما ضاق على الناس. وقال أبو العالية: مخرجا من كل شدة. وهذا جامع لشدائد الدنيا والآخرة، ومضايق الدنيا والآخرة. فإن الله يجعل للمتق من كل ما ضاق على الناس واشتد عليهم في الدنيا والآخرة مخرجا. وقال الحسن: مخرجا مما نهاء عنه (٦٥ : ٣) ومن يتوكل على الله فهو حسبه) أي كافي من يشق به في نوائبه ومهماته. يكفيه كل ما أمه. و«الحسب» الكافي (٩ : ٥٩) حسبنا الله) كافينا الله.

وكلما كان العبد حسن الظن بالله، حسن الرجاء له، صادق التوكل عليه، فإن الله لا يخيب أمله فيه ألبتة. فانه سبحانه لا يخيب أمل آمل، ولا يضع عمل عامل. وعبر عن الثقة وحسن الظن بالسعة. فانه لا أشرح للصدر، ولا أوسع له — بعد الإيمان — من ثقته بالله ورجائه له وحسن ظنه به.

● تجريد

وأبعد الفرار: الفرار من الرسوم الى الأصول، ومن المخطوط الى التجريد، فإن أرباب الغرائم في السير لا يقتنعون برسم الاعمال وظواهرها، ولا يعتدوا إلا بأرواحها وحقائقها. وهذا القدر هو الذي فات الزنادقة وقطاع الطريق، فانهم لما علموا أن حقائق هذه الأمور هي المطلوبة أرواحها، لا صورها وأشباحها ورسومها، قالوا: نجمع هممتنا على مقاصدها وحقائقها، ولا حاجة لنا إلى رسومها وظواهرها، بل الاشتغال برسمها اشتغال عن الغاية بالوسيلة، وعن المطلوب لذاته بالمطلوب لغيره. وغرهم ما رأوا فيه الواقفين مع رسوم الأعمال وظواهرها دون مراعاة حقائقها

ومقاصدها وأرواحها. فرأوا نفوسهم أشرف من نفوس أولئك، وحمهم أعلى، وأنهم المشتغلون باللب وأولئك بالقتل. فتركب من تقصير هؤلاء وعدوان هؤلاء تعطيل.

وجملة الأمر: أن هؤلاء عطلوا سره ومقصوده وحقيقته. وهؤلاء عطلوا رسمه وصورته. فظنوا أنهم يصلون إلى حقيقته، من غير رسمه وظاهره، فلم يصلوا إلا إلى الكفر والزندقه. وجحدوا ما علم بالضرورة جحىء الرسل به. فهؤلاء كفار زنادقة منافقون. وأولئك مقصرون غير كاملين. والقائمون بهذا وهذا هم الذين يرون أن الأمر متوجه إلى قلوبهم قبل جوارحهم. وأن على القلب عبودية في الأمر كما على الجوارح. وأن تعطيل عبودية القلب بمنزلة تعطيل عبودية الجوارح.

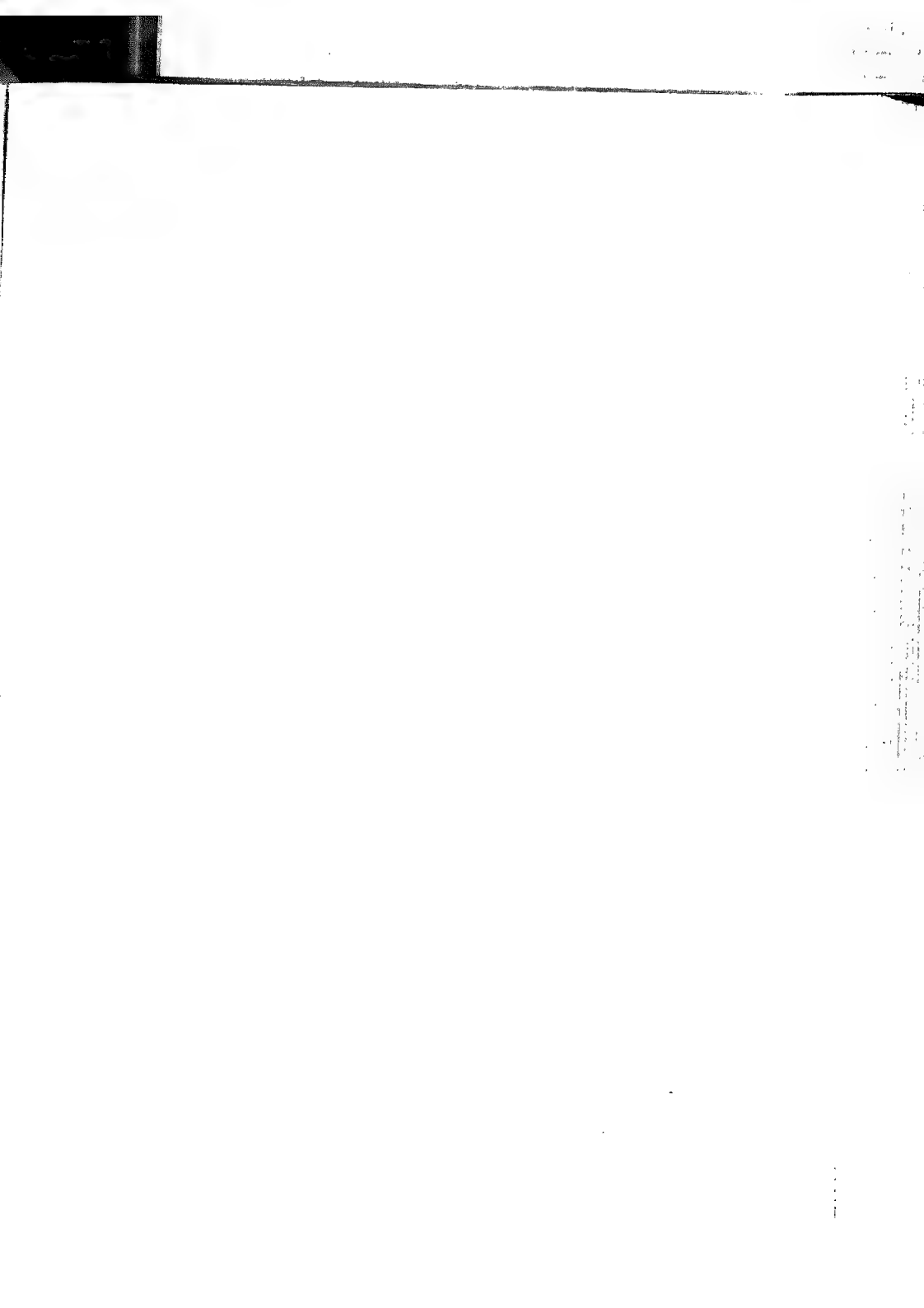
فهؤلاء خواص اهل الايمان واهل العلم والعرفان، الذين يكملون فرارهم بفرار من حظوظ النفس على اختلاف مراتبها، الى التجريد. وهذه الحظوظ لا يعرفها الا المعتنون بمعرفة الله ومراده، وحقه على عبده، ومعرفة نفوسهم واعمالهم وآفاتهما، ورُبّ مطالب عالية لقوم من العباد هي حظوظ لقوم آخرين يستغفرون الله منها و يفرون إليه منها. يرونها حائلة بينهم وبين مظهرهم.

والحظ: ما سوى مراد الله الديني منك، كائنا ما كان. وهو ما يبرح حظ محرم إلى مكروه إلى مباح إلى مستحب، غيره أحب إلى الله منه. ولا يتميز هذا إلا في مقام الرسوخ في العلم بالله وأمره، وبالنفس وصفاتها وأحوالها.

فهناك تبين له الحظوظ من الحقوق. و يفرون الى التجريد. وأكثر الناس لا يصلح لهم هذا. لأنهم إنما يعبدون الله على الحظوظ وعلى مرادهم منه.

و بالجملة فصاحب هذا التجريد: لا يقنع من الله بأمر يسكن إليه دون الله، ولا يفرح بما حصل له دون الله، ولا يأسى على ما فاته سوى الله، ولا يستغنى برتبة شريفة، وإن عظمت عنده أو عند الناس. فلا يستغنى إلا بالله. ولا يفتقر إلا إلى الله. ولا يفرح إلا بموافقة لمرضاة الله. ولا يحزن إلا على ما فاته من الله. ولا يخاف إلا من سقوطه من عين الله، واحتجاب الله عنه. فكله بالله، وكله لله. وكله مع الله. وسيره دائماً إلى الله. قد رُفِعَ له علمه فشمّر إليه. وتجرد له مطلوبه فعمل عليه. تناديه الحظوظ: إني، وهو يقول: إنما أريد من إذا حصل لي حصل لي كل شيء. وإذا فاتني فاتني كل شيء. فهو مع الله مجرد عن خلقه. ومع خلقه مجرد عن نفسه. ومع الأمر مجرد عن الحظ المزاحم للأمر. وأما الحظ المعين على الأمر: فانه لا يحطه تناوله عن مرتبته ولا يسقطه من عين ربه.

وهذا أيضاً موضع غلط فيه من غلط من الشيخ. فظنوا أن إرادة الحظ: نقص في الإرادة. والتحقيق فيه: أن الحظ نوعان، حظ يزاحم الأمر، وحظ يوازر الأمر فينفذه. فالأول هو المذموم. والثاني محمود. وتناوله من تمام العبودية. فهذا لون وهذا لون.



(١١) مَنَزِلُ السَّمْعِ

من منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «السمع».

وهو اسم مصدر كالنبات. وقد أمر الله به في كتابه. وأثنى على أهله. وأخبر أن البشري له. فقال تعالى (٥ : ١٠٨) واتقوا الله واسمعوا وقال (٦٤ : ١٦) واسمعوا وأطيعوا وقال (٤ : ٤٦) ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم) وقال (٣٩ : ١٧، ١٨) فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله. وأولئك هم أولو الألباب) وقال (٧ : ٢٠٤) وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا) وقال (٥ : ٨٣) وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق).

وجعل الاسماع منه والسمع منهم دليلاً على علم الخير فيهم، وعدم ذلك دليلاً على عدم الخير فيهم. فقال (٨ : ٢٣) ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون).

وأخبر عن أعدائه: أنهم هجروا السماع ونهوا عنه. فقال (٤١ : ٢٢) وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه).

فإن السماع رسول الايمان إلى القلب وداعيه ومعلمه. وكم في القرآن من قوله (أفلا يسمعون؟) وقال (٢٢ : ٤٦) أفلم يسيرا في الأرض، فتكون لهم قلوب يعقلون بها، أو آذان يسمعون بها؟ — الآية).

فإن السماع أصل العقل، وأساس الايمان الذي انبنى عليه. وهورائده وجليسه ووزيره. ولكن شأن كل الشأن في السمع. وفيه وقع خبط الناس واختلافهم. وغلط منهم من غلط. وحقيقة «السمع» تنبيه القلب على معاني السمع. وتحريكه عنها: طلباً وهرباً وحجاً وبغضاً. فهو حاد يحدو بكل أحد إلى وطنه ومآله. وأصحاب السماع، منهم: من يسمع بطبعه ونفسه وهواه. فهذا حظه من مسموعه: ما وافق ضبعه.

ومنهم: من يسمع بحاله وإيمانه ومعرفته وعقله. فهذا يفتح له من المسموع بحسب استعداده وقوته ومادته.

ومنهم: من يسمع بالله، لا يسمع بغيره. كما في الحديث الإلهي الصحيح «فبي يسمع. وببي يبصر» وهذا أهل سماع، وأصح من كل أحد.
وانكلام في «السماع» — مدحاً وذمّاً — يحتاج فيه إلى معرفة صورة المسموع، وحقيقته وسببه، والباعث عليه، وثمرته وغايته، فهذه الفصول الثلاثة يتحرر أمر «السماع» ويميز النافع منه والضار. والحق والباطل. والمدوح والمذموم.
فأما «المسموع» فعمل ثلاثة أضرب.

أحدها: مسموع بحجة الله ورضاه. وأمر به عبادته. وأثنى على أهله. ورضى عنهم به.

الثاني: مسموع بيقضه ويكرهه ونهى عنه. ومدح المعرضين عنه.

الثالث: مسموع مباح مأذون فيه. لا يحبه ولا ييقضه. ولا مدح صاحبه ولاذمه. فحكمه حكم سائر المباحات: من الناظر، والمشام، والطعومات، والملبوسات الباحة. فمن حرم هذا النوع الثالث فقد قال على الله ما لا يعلم. وحرم ما أحل الله. ومن جعله ديناً وقُربة يُتقرب به إلى الله، فقد كذب على الله، وشرع ديناً لم يأذن به الله. وضأها بذلك المشركين.

• السماع الإيماني

فأما النوع الأول: فهو السماع الذي مدحه الله في كتابه. وأمر به وأثنى على أصحابه، وذم المعرضين عنه ولعنهم. وجعلهم أفضل من الانعام سبيلاً. وهم القائلون في النار (٦٧ : ٩٠) لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير) وهو سماع آياته المتلوة التي أنزلها على رسوله. فهذا السماع أساس الإيمان الذي يقوم عليه بناؤه. وهو على ثلاثة أنواع. سماع إدراك: بحاسة الأذن وسماع فهم وعقل. وسماع فهم وإجابة وقبول. والثلاثة في القرآن.

فأما سماع الإدراك: ففى قوله تعالى حكاية عن مؤمنين الجن قولهم (٧٢ : ١) إنا سمعنا قرآناً عجيباً يهذى إلى الرشد فأمنّا به) وقوله (٤٦ : ٣٠) يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى — الآية) فهذا سماع إدراك اتصل به الإيمان والاجابة.

وأما سماع الفهم: فهو المنفى عن أهل الاعراض والغفلة. بقوله تعالى (٣٠ : ٥٢) فانك لا تسمع الموتى. ولا تسمع الصم الدعاء) وقوله (٣٥ : ٢٢) إن الله يسمع من يشاء. وما أنت بمسمع من في القبور).

فالتخصيص ههنا لاسماع الفهم والعقل. وإلا فالسمع العام الذي قامت به الحجة: لا تخصيص فيه. ومنه قوله تعالى (٨ : ٢٣) ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم. ولو أسمعهم لتولّوا وهم معرضون) أى لو علم الله في هؤلاء الكفار قبولاً وانقياداً لأسمعهم، وإلا فهم قد سمعوا من ادراك «ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون» أى ولو أفهمهم لما إنقادوا ولا انتضوا بما فهموا. لأن في قلوبهم من داعي التولي والاعراض ما يمنهم عن الانتفاع بما سمعوه.

وأما سماع القيول والاجابة: ففى قوله تعالى حكاية عن عباده المؤمنين: أنهم قالوا (٢٤ : ٥١ سمعنا وأطعنا) فان هذا سمع قبول واجابة مشر للطاعة.

والتحقيق: أنه متضمن للأشكال الثلاثة. وأنهم أخبروا بأنهم أدركوا المسموع وفهموه. واستجابوا له.

ومن سمع القبول: قوله تعالى (٩ : ٤٧) وفيكم سماعون لهم) أي قابلون منهم مستجيبون لهم.

والمقصود: أن سماع المقرين: هو سماع القرآن بالاعتبارات الثلاثة: إدراكاً وفهماً، وتدبراً، وإجابة. وكل سماع في القرآن مدح الله أصحابه وأئنتى عليهم، وأمر به أوليائه: فهو هذا السماع.

وهو سماع الآيات، لاسماع الأبيات، وسماع القرآن، لاسماع مزامير الشيطان. وسماع كلام رب الأرض والسماء لاسماع قصائد الشعراء. وسماع الراشد، لاسماع القصائد. وسماع الأنبياء والمرسلين، لاسماع المغنين والمطربين.

فهذا السماع حاد يحدو القلوب، إلى جوار علام الغيوب، وسائق يسوق الأرواح إلى ديار الأنفراح. ويحرك يثير ساكن العزومات، إلى أعلى المقامات وأرفع الدرجات. ومناد ينادى للاميان. ودليل يسير بالركب في طريق الجنان. وداع يدعو القلوب بالسماء والصباح. من قيل فالق الاصباح «حيّ على الفلاح، حيّ على الفلاح».

فلم يعدم من اختار هذا السماع إرشاداً لحجة، وبصيرة لعبرة، وتذكراً لمعرفة، وفكرة في آية، ودلالة على رشد، ورداً على ضلالة، وإرشاداً من غي، وبصيرة من عمى، وأمرأ بمصلحة، ونهياً عن مضرة ومفسدة. وهداية إلى نور، وإخراجاً من ظلمة، وزجراً عن هوى. وحثاً على تقى. وجلاء لبصيرة، وحياة لقلب، وغذاء ودواء وشفاء. وعصمة ونجاة، وكشف شبهة، وإيضاح برهان، وتحقيق حق، وإبطال باطل.

فمن قرىء عليه القرآن فليقدر نفسه كأنما يسمعه من الله يخاطبه به، وعندئذ تزدحم معاني المسموع ولطائفة وعجائبه على قلبه، فما شئت من علم وحكمه، وبصيرة وهداية، فيزداد حثاً لنفسه وسفرأ إلى الغاية المقصودة بالمسموع الذي جعل وسيلة إليها. وهو الحق سبحانه. فانه غاية

كل مطلب (٥٣ : ٤٢) وأن إلى ربك المنتهى) وليس وراء الله مرمى، ولا دونه مستقر. ولا تترك العين بغيره ألبته. وكل مطلوب سواء فظل زائل، وخيال مفارق مائل وإن تمتع به صاحبه فمتاع الغرور.

• السماع المذموم

وسماع آخر يفضه الله ويكرهه. ويمدح المعرض عنه. وهو سماع كل ما يضر العبد في قلبه ودينه. كسماع الباطل كله، إلا إذا تضمن رده وإبطاله والاعتبار به وقصد أن يعلم به حسن ضده. فإن الضد يظهر حسنه الضد. كما قيل:

وإذا سمعتُ إلى حديثك زادنى حياً له: سمى حديث سواك

وكسماع اللغو الذي مدح التاركين لسماعه، والمعرضين عنه بقوله (٢٨ : ٥٥) وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه) وقوله (٢٥ : ٧٢) وإذا مروا باللغو مروا كراماً) قال محمد بن الحنفية: هو الفناء. وقال الحسن أو غيره: أكرموا نفوسهم عن سماعه.

قال ابن مسعود «الفناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل» وهذا كلام عارف بأثر الفناء وثمرته. فانه ما اعتاده أحد إلا نافق قلبه وهو لا يشعر. ولو عرف حقيقة النفاق وغايته لأبصره في قلبه. فانه ما اجتمع في قلب عبد قط محبة الفناء ومحبة القرآن إلا طردت إحداها الأخرى. وقد شاهدنا نحن وغيرنا ثقل القرآن على أهل الفناء وسماعه، وتبرؤهم به، وصياحهم بالقارئ إذا طول عليهم. وعدم انتفاع قلوبهم بما يقرأه. فلا تتحرك ولا تطرب، ولا تهيج منها بواعث الطلب.

ثقل الكتاب عليهم لما رأوا	تقييده بأوامر ونواهي
وعليهم حث الفناء لما رأوا	إطلاقه في اللهودون مناهي
يا فرقه ماضٍ دين محمد	وتجنى عليه وتله إلا هي
سمعوا له زهداً وبرقاً إذ حوى	زجراً وتخويفاً بفعل مناهي
ورأوه أعظم للنفس عن	شهواتها. يا وعها التناهي
وأتى السماع موافقاً أغراضها	فلأجل ذلك غدا عظيم الجاه

ومن أعجب العجائب: استدلال من استدل على أن هذا السماع مباح: يكونه مثلاً طبعاً. تلذذ النفوس، وتستروح إليه. وأن الطفل يسكن إلى الصوت الطيب، والجمل يقاسى تعب السير ومشقة الحمولة. فيهون عليه بالخداء، وبأن الصوت الطيب نعمة من الله على صاحبه، وزيادة في خلقه، وبأن الله ذم الصوت الفظيخ، فقال (٣١ : ١٩ إن انكر الأصوات لصوت الحمير) وبأن الله وصف نعيم أهل الجنة. فقال فيه (٣٠ : ١٥ فهم في روضة يحبرون). وأن ذلك هو سماع الطيب. فكيف يكون حراماً وهو في الجنة؟ وبأن الله تعالى ما أذن لشيء كآذنه — أى كاستماعه — لنبي حسن الصوت يتغنّى بالقرآن. وبأن أبا موسى الأشعري استمع النبي صلى الله عليه وسلم إلى صوته، وأثنى عليه بحسن الصوت. وقال (لقد أوتى هذا مزماراً من مزامير آل داود) فقال له أبو موسى «لو علمت أنك استمعت لتخبرته لك تحبيراً» أى زينت لك وحسنته. وبقروله صلى الله عليه وسلم (زينوا القرآن بأصواتكم).

وبقروله صلى الله عليه وسلم (ليس منا من لم يتغن بالقرآن) والصحيح: أنه من التغنّى بمعنى تحمين الصوت. وبذلك فسره الامام أحمد رحمه الله، فقال: يحسنه بصوته ما استطاع. وبأن النبي صلى الله عليه وسلم أقر عائشة على غناء القنيتين يوم العيد. وقال لأبي بكر ادعهما. فإن لكل قوم عيداً. وهذا عيدنا أهل الإسلام).

وبأنه صلى الله عليه وسلم أذن في المرسى في الغناء وسماه لهواً. وقد سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخدء. وأذن فيه. وكان يسمع أنساً والصحابة، وهم يرتجزون بين يديه في حفر الخندق.

نحن ندينس بايعوا محمداً على الجهاد ما بقيت أبدأ

ودخل مكة والمرجز يرتجز بين يديه بشعر عبد الله بن رواحة. وحدا به الحادى فى منصرفه من حبير. فجعل يقول.

و لله لولا الله ما اهتدينا	ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلنا مكيمة علينا	وثبت الأقدام إن لاقينا
الدير قد بغو علينا	إذا أرادوا فتنة أبينا
وسحرنا صبحنا أتينا	وبالصياح عوّلوا علينا
وسحر عن فلك ما استقمينا	

فدعا لقاتله.

وسمع قصيدة كعب بن زهير. وأجازه ببردة.

واستنشد الأسود بن سريع قصائد حَمِيدَ بها ربه.

واستنشد من شعر أُمَيَّة بن أَبِي الصلت مائة قافية.

وأنشده الأعشى شيئاً من شعره فسمعه.

وصَلَّى لبيداً في قوله «ألا كل شيء ما خلا الله باطل»

ودعا لحسان (أَنْ يُؤَيِّدَهُ اللهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ مَا دَامَ يَنْتَافِعُ عَنْهُ) وكان يعجبه شعره. وقال له

(أَلَمْ يَجْعَلْهُمُ رُوحَ الْقُدُسِ مَعَكُمْ).

وبأن ابن عمر رضى الله عنهما رخص فيه. وعبد الله بن جعفر، وأهل المدينة.

وبأن الاجماع منقاد على إباحة أصوات الطيور المطربة الشجية، فلذة سماع صوت الآدمي.

أولى بالاباحة، أو مساوية.

وبأن السماع يحذور روح السامع وقلبه إلى نحو محبوبه. فإن كان محبوبه حراماً كان السماع

معيناً له على الحرام. وإن كان مباحاً كان السماع في حقه مباحاً. وإن كانت محبته رحمانية كان

السماع في حقه قرينة وطاعة. لأنه يحرك المحبة الرحمانية ويقويها ويهيئها.

وبأن التذاذ الأذن بالصوت الطيب كالتذاذ العين بالمنظر الحسن. والشم بالروائح الطيبة،

والفم بالطعوم الطيبة. فإن كان هذا حراماً كانت جميع هذه اللذات والادراكات محرمة.

فالجواب: أن هذه حثيثة عن المقصود. وروغان عن محل النزاع. وتعلق بما لا متعلق به. فإن

جهة كون الشيء مستلزماً للحاسة ملائماً لها، لا يدل على إباحته ولا تحريمه، ولا كراهته ولا

استحبابه. فإن هذه اللذة تكون فيما فيه الأحكام الخمسة: تكون في الحرام، والواجب.

والمكروه. والمستحب. والمباح. فكيف يستدل بها على الاباحة من يعرف شروط الدليل، ومواقع

الاستدلال؟

وهل هذا إلا مجتزأة من استدلال على إباحة الزنا بما يجده فاعله من اللذة، وأن لذته لا ينكرها

من له طبع سليم، وهل يستدل بوجود اللذة والملازمة على حل اللذيذ الملائم أحد؟ وهل خلت

غالب المحرمات من اللذات؟ وهل أصوات المعازف التي صاع عن النبي صلى الله عليه وسلم

تحريمها، وأن في أمته من سيئتها بأصح إسناد، وأجمع أهل العلم على تحريم بعضها. وقال

جمهورهم: بتحريم جملتها إلا للذينة تُلذذ السمع؟ وهل في التذاذ الجميل والطفل بالصوت الطيب

دليل على حكمه: من إباحة، أو تحريم؟

وأعجب من هذا: الاستدلال على الاباحة بأن الله خلق الصوت الطيب. وهو زيادة نعمة

منه لصاحبه.

فسيقال: والصورة الحسنة الجميلة، أليست زيادة في النعمة. والله خالقها. ومعطى حسناتها؟
أفيدل ذلك على إباحة التمتع بها، والالتذاذ على الإطلاق بها؟

وهل هذا الا مذهب الاباحة
وأعجب من هذا: الاستدلال على الاباحة بسمع أهل الجنة. وما أجدر صاحبه أن يستدل
على إباحة الخمر بأن في الجنة خراً. وعلى حل لباس الحرير بأن لباس أهلها حرير. وعلى جل
أواني الذهب والفضة والتحلل بهما للرجال: بكون ذلك ثابتاً وجود النعيم به في الجنة.
أما القصائد التي مُدح بها الله ورسوله ودينه وكتابه، وهجي بها أعداؤه، فهذه لم يزل
المسلمون يروونها و يسمعونها و يتدارسونها. وهي التي سمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم
وأصحابه وأتباع عليها. وحرص حسناً عليها. وهي التي غرّت أصحاب السماع الشيطاني.
فقالوا: تلك قصائد وسماعنا قصائد. فنعم إذن. والسنة كلام. والبدعة كلام والتسيب كلام.
والنقية كلام. والنقاء كلام. والقدف كلام.

ونظير هذا: ما غرهم من استحسانه صلى الله عليه وسلم الصوت الحسن بالقرآن. وأذنه له
وأذنه فيه، وعبه الله له.
فثقلوا هذا الاستحسان إلى صوت النسوان، بالفناء المقرون بالمعازف والشاهد. وذكر القدا
والشهد والخمر، ووصف العيون وفعلها، والعتاب والاستعطاف، والاشتياق، والقلق والفراق،
وما جرى هذا المجرى. مما هو أفسد للقلب من شرب الخمر، بما لا نسبة بينهما.
وأعجب من هذا: استدلالهم على إباحة السماع - المركب مما ذكرنا من الهيئة
الاجتماعية - بفناء بنتين صغيرتين دون البلوغ، عند امرأة صبية في يوم عيد وفرح، بأبيات من
أبيات العرب، في وصف الشجاعة والحروب، ومكارم الأخلاق والشيم. فأين هذا من هذا؟
والعجب أن هذا الحديث من أكبر الحجج عليهم. فإن الصديق الأكبر رضى الله عنه سعى
ذلك «مزموراً من مزامير الشيطان» وأقره رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذه التسمية.
ورخص فيه لجريرتين غير مكلفتين، ولا مفسدة في إنشادهما. ولا استماعهما. أفيدل هذا على
إباحة ما تعملونه وتعلمونه من السماع المشتمل على ما لا يخفى فياسبحان الله! كيف ضلت
المقول والأفهام؟

وأعجب من هذا كله: الاستدلال على إباحته بما سمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم من
الحدهاء المشتمل على الحق والتوحيد؟ وهل حرم أحد مطلق الشعر، وقوله واستماعه؟
وأعجب من هذا: الاستدلال على إباحته بإباحة أصوات الطيور اللذيذة. وهل هذا إلا من
جنس قياس الذين قالوا (٢ : ٢٧٥) إنما البيع مثل الربا) وأين أصوات الطيور إلى نفقات
الغيد الحسان، والأوتار والعيان؟

والذى يفصل النزاع فى حكم هذه المسألة أن تعلم أنه إذا وقع النزاع فى حكمه فعل من الأفعال، أو حال من الأحوال، أو ذوق من الأذواق، هل هو صحيح أو فاسد؟ وحق أو باطل؟ وجب الرجوع فيه إلى الحجة المقبولة عند الله وعند عباده المؤمنين. وهى وحى الذى تتلقى أحكام النوازل والأحوال والواردات منه. وتعرض عليه وتوزن به، فما زكاه منها وقبله ورجحه وصححه فبهو المقبول. وما أبطله وردة فهو الباطل المردود. ومن لم يتبين على هذا الأصل علمه وسلوكه وعمله: فليس على شيء من الدين. وإن وإن. وإنما معه خدع وغرور (٢٤ : ٣٩ كسر اب بقيقة بحسبه الظلمات ماء. حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً. ووجد الله عنه فوقاه حساباً. والله سريع الحساب).

فإذا أشكل على الناظر أو السالك حكم شيء: هل هو الإباحة أو التحريم؟ فينظر إلى مفسدته وثمرته وغايته. فإن كان مشتملاً على مفسدة راجحة ظاهرة، فإنه يستحيل على الشارع الأمر به أو إباحته. بل العلم بتحريمه من شرعه قطعى، ولا سيما إذا كان طريقاً مفضياً إلى ما يغضب الله ورسوله موصلاً إليه عن قرب، وهو رقية له ورائد ويريد. فهذا لا يشك فى تحريمه وأولو البصائر. فكيف يظن بالحكيم الخير أن يحرم مثل رأس الأبرة من السكر. لأنه يسوق النفس إلى السكر الذى يسوقها إلى المحرمات ثم يبيع ما هو أعظم منه سقواً للنفوس إلى الحرام بكثير؟ فإن الغشاء — كما قال ابن مسعود رضى الله عنه هو «رقية الزنا» وقد شاهد الناس: أنه ما عاناه صبى إلا وفسد، ولا امرأة إلا وبغت، ولا شاب إلا وإلا، ولا شيخ إلا وإلا. والعيان من ذلك يغنى عن البرهان.

وإذا لم يكن بُد من المحاكمة إلى الذوق. فهلم نحاكمك إلى ذوق لا ننكره نحن ولا أنت، غير هذه الأذواق التى ذكرناها.

فالقلب يعرض له حالتان: حالة حزن وأسف على مفقود، وحالة فرح ورضى بوجود. وله بمقتضى هاتين الحالتين عبادتان.

وله بمقتضى الحالة الأولى: عبودية الرضاء. وهى للسابقين. والصبر. وهى لأصحاب اليمين. وله بمقتضى الحالة الثانية: عبودية الشكر والشاكرون فيها أيضاً نوعان: سابقون، وأصحاب يمين. فاقطعت النفس والشيطان عن هاتين العبادتين، بصوتين أحقن فاجرين. هما للشيطان لا للرحمن: صوت التذنب والنياحة عند الحزن وفوات المحبوب. وصوت اللهم والمزمار والفناء عند الفرح وحصول المطلوب فعوضه الشيطان بهذين الصوتين عن تبتك العبوديتين.

وقد أشار النبى صلى الله عليه وسلم إلى هذا المعنى بعينه فى حديث أنس رضى الله عنه (إنما نهيت عن صوتين أحقن، فاجرين: صوت وِئَلٍ عند مصيبة. وصوت مزمار عند نعمة).

فدواء صاحب مثل هذا الحال: أن يتقل بالتدريج إلى سماع القرآن بالأصوات الطيبة. مع الامعان في تفهم معانيه، وتدبر خطابه قليلا قليلا. إلى أن يتخلع من قلبه سماع الآيات. ويلبس محبة سماع الآيات. ويصير ذوقه وشربه وحاله ووجده فيه. فحينئذ يعلم هو من نفسه: أنه لم يكن على شيء، ويشتمل حينئذ بقول القائل:

وكننت أرى أن قد تنهاى بى الموى إلى غاية ما فوقها لى مطلب
فلما تلاقينا. وعانيت حسنها تيقنت أنى إذا كنت ألعب

ومنافاة النوح للصبر والفتاء للشكر: أمر معلوم بالضرورة من الدين. لا يمتري فيه إلا أبعد الناس من العلم والایمان. فإن الشكر هو الاشتغال بطاعة الله لا بالصوت الأحق الفاجر، الذى هو للشيطان. وكذلك النوح ضد الصبر، كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى السائحة — وقد ضربها حتى بدا شعرها — وقال «لا حرمة لها. إنها تأمر بالجزع. وقد نهى الله عنه. وتنهى عن الصبر. وقد أمر الله به. وتقتن الحى وتؤذى الميت. وتبيع عبرتها. وتبكي شجر غيرها».

ومعلوم عند الخاصة والعامة: أن فتنة سماع الغناء والمعازف أعظم من فتنة النوح بكثير. وأذى شاهدناه — نحن وغيرنا — وعرفناه بالتجارب: أنه ما ظهرت المعازف وآلات اللهى فى قومه. وفشت فيهم. واشتغلوا بها، إلا سلب الله عليهم العدو، وبلوا بالقحط والجذب وولاة السوء.

ذلك أنهم باللهى والفتاء يقلبون حياتهم من الجد الى اللعب والسخرية. ومن الرشد الى السفه والغى. ومن القوة الى الضعف والوهن. فإن حياة الغناء واللهى واللعب لا بد تحل عناصر القوة والنشاط العلمى والعملى الذى لانجاح للأمة ولا قوة لها الا به. فتضعف صناعاتها واقتصادها وزراعتها وعسكرياً فضلاً عن انهيارها الخلقى، وشدة تعرضها للعتة الله. ويصبح أمرها فرطاً. لأن قلوبها غفلت عن الحق فى سنن الله وآياته وحكمته. واتبعت هواها. فهوى بها الى درك الوهن والضعف.

(١٢) مَنَزِلَةُ الْخَوْفِ

ومن منازل «اياك نعبد واياك نستعين» منزلة «الخوف»

وهي من أجل منازل الطريق، وانفعها للقلب، وهي فرض على كل احد. قال الله تعالى (١٧٥:٣) فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين وقال تعالى (٤٠:٢) فأياي ذرهبون وقال (٤٤:٥) فلا تخشوا الناس واخشون ومدح أهله في كتابه وأثنى عليها فقال (٥٧:٢٣) — ٦١ ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون — الى قوله — أولئك بسارعون في الخيرات وهم لها سابقون وفي السند والترمذي عن عائشة رضى الله عنها قالت: قلت «يا رسول الله، قوله الله (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجة) أهو الذي يزنى، ويشرب الخمر، ويسرق؟ قال: لا، يا ابنة الصديق. ولكنه الرجل يصوم ويصل وينصدق، ويخاف أن لا يقبل منه» قال الحسن: عملوا والله بالطاعات، واجتهدوا فيها، وخافوا أن ترد عليهم. ان المؤمن جمع احسانا وخشية، والمنافق جمع اساءة وأمانا.

و«الوجل» و«الخوف» و«الخشية» و«الرهبة» الفاظ متقاربة غير مترادفة. قال ابو القاسم الجنيد: الخوف توقع العقوبة على مجاري الانفاس.

وقيل: الخوف اضطراب القلب وحركته من تذكر الخوف.

وقيل: الخوف قوة العلم بمجاري الاحكام، وهذا سبب الخوف، لا أنه نفسه.

وقيل: الخوف هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره.

و«الخشية» أخص من الخوف، فإن الخشية للعلماء بالله، قال الله تعالى (٢٨:٣٥) إنما

يخشى الله من عباده العلماء) فهي خوف مقرون بمعرفة. وقال النبي صلى الله عليه وسلم «إني أنفاكم لله، وأشدكم له خشية».

فالخوف حركة. والخشية انجماع، وانقباض وسكون. فإن الذي يرى العدو والسيل ونحو ذلك: له حالتان.

إحداها: حركة للهرب منه، وهي حالة الخوف.

والثانية: سكونه وقراره في مكان لا يصل اليه فيه. وهي الخشية. ومنه: انخش الشيء،

والمضاعف والمعتل اخوان. ككتفى البازي وتقضض.

وأما «الرهبنة» فهي الامتناع في الحرب من المكروه . وهي ضد «الرغبة» التي هي سفر القلب في طلب المرغوب فيه .

وبين الرقبَ والحرب تناسب في اللفظ والمعنى . يجمعهما الاشتقاق الأوسط الذي هو عقد تقاليب الكلمة على معنى جامع .

وأما «الرجل» فرجفان القلب ، وانصداعه لذكر من يخاف سلطانه وعقوبته ، او لرؤيته .
وأما «المهيبة» : فخوف مقارن للتعظيم والاجلال ، واكثر مايكون مع المحبة والمعرفة . والاجلال : تعظيم مقرون بالحب .

فالخوف لامة المؤمنين . والخشية للعلماء العارفين . والمهبة للمحبين . والاجلال للمقرين . وعلى قدر العلم والمعرفة يكون الخوف والخشية . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم «إني لاعلمكم بالله . وأشدكم له خشية» وفي رواية «خوفا» وقال «لو تعلمون ما اعلم لضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيرا ، ولما تلذذتم بالنساء على الفراش ولخرجتم الى الصعدات تجأرون الى الله تعالى» .

فصاحب الخوف : يلتجئ الى الحرب . والامساك ، وصاحب الخشية : يلتجئ الى الاعتصام بالعلم . ومثلها مثل من لاعلم له بالطب . ومثل الطبيب الحاذق ، فالاول يلتجئ الى الحمية والحرب . والطبيب يلتجئ الى معرفته بالأدوية والأدواء .

قال ابو حنيفة : الخوف سوط الله ، يُقَوِّم به الشاردين عن بابه . قال : الخوف سراج في القلب . به يبرر ما فيه من الخير والشر . وكل أحد اذا خفته هربت منه الا الله عز وجل . فإنك اذا خفته هربت اليه .

فالخائف هارب من ربه الى ربه .

قال ابو سليمان : ما فارق الخوف قلباً الا خرب . وقال ابراهيم بن سفيان : اذا سكن الخوف القلوب احرق مواضع الشهوات منها . وطرد الدنيا عنها . وقال ذو النون : الناس على الطريق مالم يزل عنهم الخوف . فاذا زال عنهم الخوف ضلوا الطريق .

والخوف ليس مقصودا لذاته . بل هو مقصود لغيره قصد الوسائل . ولهذا يزول بزوال المخوف فإن أهل الجنة لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

والخوف يشعل بالافعال . والمحبة تتعلق بالذات والصفات . ولهذا تتضاعف محبة المؤمنين لربهم اذا دخلوا دار النعيم . ولا يلحقهم فيها خوف . ولهذا كانت منزلة المحبة ومقامها أعلى وأرفع من منزلة الخوف ومقامه .

والخوف المحمود الصادق : محال بين صاحبه وبين عارم الله عز وجل . فاذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط .

قال ابو عثمان: صدقُ الخوفُ هو الورع عن الآثام ظاهراً وباطناً.
وسمعت شيخ الاسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: الخوفُ الحمدُ: ما حجزك
عن محارم الله.

وقال صاحب المنازل الشيخ الهروي رحمه الله:
«الخوف: هو الانخلاع من طمأنينة الأمن بمطالعة الخير».
يعني الخروج عن سكون الأمن باستحضار ما أخبر الله به من الوعد والوعيد.
قال: «واول الخوف: الخوف من العقوبة، وهو الخوف الذي يصح به الايمان . وهويتولد من
تصديق الوعيد ، وذكر الجناية ، ومراقبة العاقبة».

والخوف مسبوق بالشعور والعلم . فمحال خوف الانسان مما لا شعور له به .
وله متعلقان. احدهما: نفس المكروه المحذور وقوعه . والثاني: السبب والطريق المفضي اليه -
فعل قدر شعوره بإفشاء السبب الى المخوف ، وبقدر المخوف: يكون خوفه . وما نقص من
شعوره بأحد هذين نقص من خوفه بحسبه .

فمن لم يعتقد أن سبب كذا يفضي الى محذور كذا: لم يخف منه ذلك السبب . ومن المعتقد
أنه يفضي الى مكروه ما ، ولم يعرف قدره: لم يخف منه ذلك الخوف . فاذا عرف قدر المخوف ،
وتيقن افشاء السبب اليه : حصل له الخوف .
هذا معنى تولده من تصديق الوعيد، وذكر الجناية.

وفي مراقبة العاقبة: زيادة استحضار المخوف ، وجعله نصب عينه ، بحيث لا ينساه . فإنه -
وان كان عالماً به - لكن نسيانه وعدم مراقبته يحول بين القلب وبين الخوف . فلذلك كان
الخوف علامة صحة الايمان . وترحلّه من القلب علامة ترحل الايمان منه . والله أعلم .
ومن الخوف المحمود: خوف المكرفي جريان الانفاس المستفرقة في اليقظة، المشوبة
بالحلاوة.

يريد : ان من حصلت له اليقظة بلا غفلة، واستفرقت انفاسه فيها : استحل ذلك . فإنه لا
أحل من الحضور في اليقظة . فإنه ينبغي ان يخاف المكرف، وان يُتَلَب هذا الحضور ، واليقظة
والحلاوة . فكف من مضبوط بحالة انعكس عليه الحال . ورجع من حسن المعاملة الى قبيح
الاعمال . فأصبح يُتَلَب كُفْيهِ ويضرب باليمين على الشمال؟ بينما يذُرُ أحواله مستثيراً في ليالي
التمام . اذ أصابه الكسوف فدخل في الظلام . فبُدِّل بالأنس وحشة، وبالحضور غيبة،
وبالاقبال اعراضاً، وبالتقريب ابعاداً، وبالجمع تفرقة.

• تكامل الخوف والرجاء

القلب في سيره الى الله عز وجل بمنزلة الطائر. فالمحبة رأسه. والخوف والرجاء جناحاه . فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران. ومتى قطع الرأس مات الطائر ومتى فقد الجناحان فهو عرضه لكل صائد وكاسر. ولكن السلف استحبوا ان يقوى في الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا يقوى جناح الرجاء على جناح الخوف. هذه طريقة ابي سليمان وغيره.

قال: ينبغي للقلب ان يكون الغالب عليه الخوف. فإن غلب عليه الرجاء فسد . وقال غيره: أكمل الأحوال : اعتدال الرجاء والخوف ، وغلبة الحب، فالمحبة هي المركب. والرجاء حاد. والخوف سائق. والله الموصول بجنه وكرمه.

(١٣) مَنَزِلَةُ الْإِشْفَاقِ

ومن منازل «اياك نعيد واياك نستعين» منزلة «الاشفاق»
 قال الله تعالى (٢١: ٤٩) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ وقال
 تعالى (٥٢: ٢٥ - ٢٧) وَأَقْبِلْ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا : إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا
 مُشْفِقِينَ * فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا . ووقانا عذاب السموم) .
 «الاشفاق» رقة الخوف . وهو خوف برحة من الخائف لمن يخاف عليه . فنسبته الى الخوف
 نسبة الرأفة الى الرحمة . فإنها ألطف الرحمة وأرقها .
 - وبدايته: اشفاق على النفس ان تجمع الى العناد، او ان تسرع وتذهب الى طريق الهوى
 والعصيان وممانعة العبودية . ثم هو اشفاق على العمل ان يصير الى الضياع .
 فيخاف على عمله ان يكون من الاعمال التي قال الله فيها (٢٥: ٢٣) وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى النَّاسِ فِي
 مَا مَلَكَتْ أَيْدِيهِمْ فَسَخَّرْنَا لَهُمْ الْبَحْرَ وَجَعَلْنَا فِيهِ لُجُجًا يَرْكَبُونَ . واما جماعي تفرقه
 وطمعه . فيذهب ضائماً . ويكون حال صاحبه كحال التي قال الله تعالى عن أصحابها
 (٢: ٢٦٥) أَيْدُوا أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ . لَهُ
 فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ — الآية) قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه للصحابه رضي الله عنهم
 «فيمعن ترون هذه الآية نزلت؟ فقالوا: الله أعلم . فغضب عمر، وقال: قولوا: نعلم، أولا نعلم .
 فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين . قال: يا ابن أخي قل . ولا تَخَيَّرَنَّ نَفْسُكَ .
 فقال ابن عباس: ضُربت مثلاً للعمل . قال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس: للعمل . قال عمر:
 لرجل غشي بعمل بطاعة الله فبعث الله اليه الشيطان . فعمل بالمعاصي حتى اغرق جميع
 اعماله» .

وأوسطه : اشفاق على الوقت: أن يشوبه تفرق .
 أي يحدّر على وقته: أن يخالطه ما يفرقه عن الحضور مع الله عز وجل، وعلى القلب: ان يزاحمه
 عارض .
 والعارض المزاحم: إما فترة، وإما شبهة، وإما شهوة: وكل سبب يعوق السالك .

ونهايته: اشفاق يهون سعيه عن العُجب، ويكف عن مخاصمة الخلق، ويحمل صاحب
الارادة على حفظ الجِد.

فالمعجب: يفسد العمل كما يفسده الرياء. فيشفق على سعيه من هذا الفساد شفقة تصونه
عنه.

والمخاصمة للخلق: مفسدة للخلق. فيشفق على خلقه من هذا الفساد شفقة تصونه عنه.
والارادة: يفسدها عدم الجِد. وهو الهزل واللعب، فيشفق على ارادته مما يفسدها فإذا صح له
عمله وخلقته وارادته: استقام سلوكه وقلبه وحاله. والله المستعان.

(١٤) مَنَازِلُ الْخُشُوعِ

ومن منازل «اياك تعبد واياك نستعين» منزلة «الخشوع»

قال الله تعالى (١٦:٥٧) ألم يأتِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ، وما نزل من الحق؟ قال ابن مسعود رضى الله عنه «ما كان بين اسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين» وقال ابن عباس «إن الله استبطأ قلوب المؤمنين، فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن» وقال تعالى (١:٢٣) قد أفلق المؤمنون. الذين هم في صلاتهم خاشعون).

و«الخشوع» في أصل اللغة: الانخفاض، والذل، والسكون. قال تعالى (١٠٨:٢٠) وخشعت الأصوات للرحمن أي سكنت، وذلت، وخضعت. ومنه وصف الأرض بالخشوع. وهو يبسها، وانخفاضها، وعدم ارتفاعها بالرى والنبات. قال تعالى (٣٩:٤١) من آياته أنك ترى الأرض خاشعة. فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت ووزيت).

و«الخشوع» قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل، والجمعية عليه. وقيل «الخشوع» الانقياد للحق. وهذا من موجبات الخشوع. فمن علاماته: أن العبد إذا خولف وُزِدَ عليه بالحق، استقبل ذلك بالقبول والانذار. وقيل «الخشوع» خمود نيران الشهوة. وسكون دخان الصدور. وإشراق نور الله طيم في القلب.

وقال الجنيد: الخشوع تذلل القلوب لعلام الغيوب. وأجمع العارفون على أن «الخشوع» عله القلب. وثمرته على الجوارح. وهي تقية. و«رأى النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة، فقال: لو خشي الله لنب هذا تخشعت جوارحه» وقال النبي صلى الله عليه وسلم «التقوى ههنا». وأشار: صدره — ثلاث مرات» وقال بعض العارفين: حسن أدب الظاهر عنوان أدب الباطن. أي بعضهم رجلاً خاشع التكوين والبدن. فقال: يا فلان، الخشوع ههنا. وأشار إلى صدره. لا ههنا. وأشار إلى

وكان بعض الصحابة — رضى الله عنهم — وهو حذيفة، يقول «اياكم وخشوع النفاق. فقل له: وما خشوع النفاق؟ قال: ان ترى التجسد خاشعاً والقلب ليس بخاشع» ورأى عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — رجلاً طأطأ رقبته في الصلاة. فقال «يا صاحب الرقبة، ارفع رقبتك. ليس الخشوع في الرقاب. إنما الخشوع في القلوب» ورأت عائشة — رضى الله عنها — «شباباً يمشون ويتماوتون في مشيتهم، فقالت لأصحابها: من هؤلاء؟ فقالوا: نُسَّاك. فقالت: كان عمر بن الخطاب إذا مشى أسرع. وإذا قال: أسمع. وإذا غرب: أوجع. وإذا أطمع: أشبع. وكان هو الناسك حقاً» وقال الفضيل بن عياض: كان يكره أن يرى الرجل من الخشوع أكثر مما في قلبه. وقال حذيفة رضى الله عنه «أول ماتفقدون من دينكم الخشوع. وآخر ماتفقدون من دينكم الصلاة. ورب مصلى لاخير فيه. ويوشك أن تدخل مسجد الجماعة فلا ترى فيهم خاشعاً» وقال سهل: من خشع قلبه لم يقرب منه الشيطان.

• الخشوع تذلل واستسلام

وجام الخشوع: التذلل للأمر. والاستسلام للحكم، والاتضاع لنظر الحق. التذلل للأمر: تلقينه بذلة القبول والالتقياد والامتثال. ومواطأة الظاهر الباطن، مع اظهار الضعف، والاتضار الى الهداية للامر قبل الفعل، والاعانة عليه حال الفعل، وقبوله بعد الفعل. وأما الاستسلام للحكم الشرعي: فيعدم معارضته برأي أو شهوة. وأما الاتضاع لنظر الحق: فهو اتضاع القلب والجوارح، وانكسارها لنظر الرب اليها، واطلاعه على تفاصيل ماني القلب والجوارح وهذا احد التأويلين في قوله تعالى (٤٦: ٥٥) ولن يخاف مقام ربه جنتان) وقوله (٤٠: ٧٩) وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى) وهو مقام الرب على عبده بالاطلاع والقدرة والربوبية. فخوفه من هذا المقام: يوجب له خشوع القلب لاعماله. وكلما كان اشد استحضاراً له كان أشد خشوعاً. وإنما يفارق القلب اذا غفل عن اطلاع الله عليه، ونظره اليه. والتأويل الثاني: انه مقام العبد بين يدي ربه عند لقائه. فعلى الأول: يكون من باب اضافة المصدر الى الفاعل. وعلى الثاني: — وهو البقي بالآية — يكون من باب اضافة المصدر الى المخوف. واعلم ان نحو الخشوع انما يكون بترقب آفات النفس والعمل، ورؤية كل ذي فضل عليك، فان انتظار ظهور نقائص نفسك وعملك وعيوبهما لك: يجعل القلب خاشعاً لاعماله، لمطالعة عيوب نفسه وأعماله ونقائصهما: من الكبير، والعجب، والرياء، وضعف الصديق، وقلة اليقين،

وتشتت النية، وعدم تجرد الباعث من الهوى النفساني، وعدم إيقاع العمل على الوجه الذي ترضاه لربك ، وغير ذلك من عيوب النفس ، ومفسدات الأعمال .
وأما رؤية فضل كل ذي فضل عليك : فهو ان تراعي حقوق الناس فتؤديها . ولا ترى ان مافعلوه من حقوقك عليهم . فلا تمارضهم عليها . فإن هذا من زعزعات النفس وحقاقتها . ولا تطالبهم بحقوق نفسك . وتعترف بفضل ذي الفضل منهم . وتثنى بفضل نفسك .
وسمعت شيخ الاسلام ابن تيمية — قدس الله روحه — يقول : العارف لا يرى له على احد حقاً . ولا يشهد له على غيره فضلاً . ولذلك لا يعاتب ، ولا يطالب ، ولا يضارب .

• افتقار واستار

و يكمل الخشوع بصفية الوقت من مراعاة الخلق، وتجريد رؤية الفضل، فيخفي أحواله عن الخلق جهده، كخشوعه وذله وانكساره، فلا يراها الناس فيمجبه اطلاعهم عليها، ورؤيتهم لها . فيفسد عليه وقته وقلبه وحاله مع الله . وكم قد اقتطع في هذه المفازة من ماله؟ والمعصوم من عصمه الله . فلا شيء انفع للصادق من التحقق بالسكنة والفاقة والذل ، وانه لا شيء . وانه ممن ثم يصح له بعد الاسلام حتى يدعى الشرف فيه .

ولقد شاهدت من شيخ الاسلام ابن تيمية — قدس الله روحه — من ذلك امراً لم أشاهده من غيره . وكان يقول كثيراً: مالي شيء، ولا منى شيء، ولا في شيء . وكان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت:

أنا المُكْدَى وابنُ الكدى وهكذا كان أبى وجدى
وكان اذا أثنى عليه في وجهه يقول: والله اني الى الآن اجدد اسلامي كل وقت . وما أسلمت بعد إسلاماً جيداً .

وبعث الله في آخر عمره قاعدة في التفسير بخطه . وعلى ظهرها أبيات بخطه من نظمه:

أنا الفقير الى رب البريات أنا المسكين في مجموع حالاتي
أنا الظلم لِنَفْسِي . وهي ظالمتي والخير ان يأتنا من عنده يأتي
لا أستطيع لِنَفْسِي جلب منفعة ولاعن النفس لي دفع المضرات
والفقر لي وصف ذات . لازم أبداً كما الغنى أبداً وصف له ذاتي
وهذه الحال حال الخلق أجمعهم وكلهم عنده عيب له آتني

واما تجريد رؤية الفضل: فهو أن لا يرى الفضل والاحسان إلا من الله، فهو المان به بلا سبب من العبد، ولا وسيلة سبقت منه توصل بها الى احسانه، بل ان جميع ما وصله من خير فمن منة الله عليه. وبفضله عليه من غير استحقاق منه. ولا بذل عوض استوجب به ذلك. كما قال تعالى (١٧:٤٩) يَمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا، قُلْ: لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ، بَلِ اللَّهُ يَمُنْ عَلَيْكُمْ أَنْ هَذَا كُمْ لِلْإِيمَانِ أَنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ).

وكذلك يشهد أن ما زوى عنه من الدنيا، او مالهقه منها من ضرر وأذى فهو منة أيضاً من الله عليه من وجوه كثيرة، ويستخرجها الفكر الصحيح. كما قال بعض السلف «يا ابن آدم، لا تدري أي النعمتين عليك أفضل: نعمته فيما أعطاك، أو نعمته فيما زوى عنك؟» وقال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه «لا أبالي على أي حال أصبحت أو أصبحت، إن كان الغنى، إن فيه للثُّكُر. وإن كان الفقر، إن فيه للصَّبْر» وقال بعض السلف «نعمته فيما زوى عنى من الدنيا أعظم من نعمته فيما بسط لي منها. إنى رأيته أعطاه قوما فآغثوا».

(١٥) منزلة الإخبات

ومن منازل «اياك نعبد واياك نستعين» منزلة «الاخبات»

قال الله تعالى (٢٢: ٣٤) وبشر المخبتين) ثم كشف عن معناهم . قال: (الذين اذا ذكر الله ورجعت قلوبهم . والصائرين على ما أصابهم ، ولتقضي الصلاة . وما رزقناهم ينفقون) وقال (١١: ٢٣) ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا الى ربهم ، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون).

و«الْخَبَتِ» في أصل اللغة: المكان المنخفض من الأرض . وبه فسر ابن عباس رضي الله عنهما وقادة لفظ «المخبتين» وقالوا: هم المتواضعون . وقال مجاهد: المخبت المطنن الى الله عز وجل . قال: والخبت: المكان المطنن من الأرض . وقال الأخفش: الخاشعون . وقال ابراهيم النخعي: المصلون المخلصون . وقال الكلبي: هم الرقيقة قلوبهم . وقال عمر بن اوس : هم الذين لا يظلمون ، واذا ظلموا لم ينتصروا .

وهذه الاقوال تدور على معنيين : التواضع ، والسكون الى الله عز وجل ، ولذلك عُذِيَ بِإِلَى ، تضميناً لمعنى الطمأنينة ، والإنابة والسكون الى الله . وهو من أول مقامات الطمأنينة .

كالسكينة ، واليقين ، والثقة بالله ونحوها . فالإخبات: مقدمتها ومبدؤها . وبه يكون ورود المأثري من الرجوع والتردد .

إذ لما كان «الإخبات» أول مقام يتخلص فيه السالك من التردد — الذي هو نوع غفلة وأعراض — والسالك مسافر الى ربه ، سائر اليه على مدى انفاسه . لا ينتهي مسيره اليه مادام نفسه يصحبه — كان حصول الاخبات له كالماء العذب الذي يردده المسافر على ظمأ وحاجة في أول مناهله . فيرويه مورده ، ويزيل عنه خواطر تردده في اتمام سفره ، اورجوعه الى وطنه لمشقة السفر . فإذا ورد ذلك الماء: زال عنه التردد ، وخاطر الرجوع . كذلك السالك اذا ورد مورد «الاخبات» تخلص من التردد والرجوع ، ونزل اول منازل الطمأنينة بسفره ، وجَدَّ في السير .

وهو على ثلاث درجات . الدرجة الاولى: ان تستغرق العصمة الشهوة وتستدرك الارادة الغفلة . ويستهرى الطلب السلوة .

المريد السالك: تعرض له غفلة عن مراده، تضعف ارادته. وشهوة تعارض ارادته. فتصده عن مراده. ويرجع عن مراده، وسلوة عنه.

فهذه الدرجة من الاختبات تحمي عن هذه الثلاثة. فتستغرق عصمته شهوته. و«العصمة» هي الحماية والحفظ. و«الشهوة» الميل الى مطالب النفس. و«الاستغراق» للشيء الاحتواء عليه والاحاطة به.

فتغلب عصمته شهوته وتظهرها، وتستوفى جميع اجزائها. فإذا استوفت العصمة جميع اجزاء الشهوة: فذلك دليل على اخباته. ودخوله في مقام الطمأنينة، ونزوله اول منازلها، وخلاصه في هذا المنزل من تردد الخواطر بين الاقبال والادبار، والرجوع والعزم، الى الاستقامة والعزم الجازم، والجد في السير. وذلك علامة السكينة.

وتستدرك ارادته غفلته. و«الارادة» عند القوم: هي اسم لاول منازل القاصدين الى الله. و«المريد» هو الذي خرج من وطن طبعه ونفسه. واخذ في السفر الى الله، والدار الآخرة. فإذا نزل في منزل «الاختبات» احاطت ارادته بغفلته. فاستدركها، واستدرك بها فارطها. واما «استهواء طلبه لسلوته» فهو قهر محبته لسلوته، وغلبتها له. بحيث تهوى السلوة وتسقط، كالذي يهوى في بشر. وهذا علامة المحبة الصادقة: ان تقهر فيه وارد السلوة، وتدفعها في لهوة لاتباعها بعدها أبداً.

فالخلاص: أن عصمته وحايته: تقهر شهوته. وارادته تقهر غفلته. ومحبته تقهر سلوته.

الدرجة الثانية: ان لا يوحش قلبه عارض، ولا يقطع عليه الطريق فتنه.

و«العارض» هو المخالف. كالشيء الذي يعترضك في طريقك. فيجىء في عرضها. ومن اقوى هذه المعارض: عارض وحشة التفرد. فلا يلتفت اليه، كما قال بعض الصادقين: انفرادك في طريق طلبك: دليل على صدق الطلب. وقال آخر: لا تستوحش في طريقك من قلة السالكين. ولا تغتر بكثرة الهالكين.

وأما «الفتنة» التي تقطع عليه الطريق: فهي الواردات التي ترد على القلوب، تمنعها من مطالعة الحق وقصده. فإذا تمكن من منزل «الاختبات» وصحة الارادة والطلب: لم يطمع فيه عارض الفتنة.

وهذه المعزائم لا تصح الا لمن أشرق على قلبه أنوار آثار الأسماء والصفات. وتجلت عليه معانيها.

الدرجة الثالثة: ان يستوى عنده المدح والذم، وتدوم لائيمته لنفسه.

فاعلم انه متى استقرت قدم العبد في منزلة «الاختبات» وتمكن فيها: ارتفعت همته، وعلت

نفسه عن خطفات المدح والذم . فلا يفرح بمدح الناس ، ولا يحزن لذمهم . هذا وصف من خرج عن حظ نفسه .

وصار قلبه مطرحاً لأشعة أنوار الأسماء والصفات . وياشر حلاوة الايمان واليقين قلبه . والوقوف عند مدح الناس وذمهم : علامة انقطاع القلب ، وخلوه من الله ، وانه لم تباشره روح محبته ومعرفته ، ولم يذق حلاوة التعلق به والطمأنينة اليه .

ولا يذوق العبد حلاوة الايمان ، وطعم الصدق واليقين ، حتى تخرج الجاهلية كلها من قلبه . والله لو تحقق الناس في هذا الزمان ذلك من قلب رجل لرموه عن قوس واحدة . وقالوا : هذا مبتدع ، ومن دعاة البدع . قال الله المشتكى . وهو المسؤول الصبر ، والثبات . فلا بد من لقائه (٢٠ : ٦١) وقد خاب من افترى (٢٦ : ٢٢٧) وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون . والمراد بالنفس ، عند القوم : ما كان مملوئاً من أوصاف العبد ، منموماً من أخلاقه وأفعاله . سواء كان ذلك غريباً ، أو خلقياً . فهو شديد اللامعة لها . وهذا احد التأويلين في قوله تعالى (٧٥ : ٢) ولا أقسم بالنفس اللوامة قال سعيد بن جبير وعكرمة : تلوم على الخير والشر . ولا تصير على السراء . ولا على الضراء .

وقال قتادة : اللوامة : هي الفاجرة .

وقال مجاهد : تندم على مافات ، وتقول : لو فعلت ؟ ولو لم أفعل ؟ .

وقال الضراء : ليس من نفس برة ولا فاجرة الا وهي تلوم نفسها : ان كانت عملت خيراً قالت : هلا زدت ؟ وان عملت شراً قالت : ليتني لم أفعل .

وقال الحسن : هي النفس المؤمنة . ان المؤمن — والله — ماتراه الا يلوم نفسه : ما أردت بكلمة كذا ؟ ما أردت بأكلة كذا ؟ ما أردت بكذا ؟ ما أردت بكذا ؟ وان الفاجر يمضي قُدماً ، ولا يحاسب نفسه ولا يعاتبها .

وقال مقاتل : هي النفس الكافرة . تلوم نفسها في الآخرة على ما فرطت في امر الله في الدنيا . والقصد : ان من بذل نفسه لله بصدق كره بقاءه معها . لأنه يريد ان يتقبلها من بذلت له . لأنه قد قُرِبَ بها له قرباً . ومن قُرِبَ قُرْباً قُتِلَ منه . ليس كمن دُءِ عليه قربانه . فبقاء نفسه معه دليل على أنه لم يتقبل قربانه .

فالنفس جبل عظيم شاق في طريق السير الى الله عز وجل . وكل سائر لا طريق له الا على ذلك الجبل . فلا بد أن ينتهي اليه ، ولكن منهم من هو شاق عليه . ومنهم من هو سهل عليه . وان يسير على من يسره الله عليه .

وفي ذلك الجبل أودية ، وعقبات ، وشوك ، ولصوص يقتطعون الطريق على السائرين . ولا سيما أهل الليل المدجلين . فإذا لم يكن معهم حُدُ الايمان ، ومصابيح اليقين تنقد بزيت

الاخبات، والا تعلقت بهم تلك الموانع . وتشبثت بهم تلك القواطع . وحالت بينهم وبين السير .
فإن أكثر السائرين فيه رجعوا على اعقابهم لما عجزوا عن قطعه واقتحام عقباته . والشيطان
على قُلَّة ذلك الجبل . يحذر الناس من صعوده وارتفاعه . ويخوفهم منه . فيتفق مشقة الصعود وقعود
ذلك المخوف على قُلَّته، وضعف عزيمة السائر ونيته . فيتولد من ذلك : الانقطاع والرجوع .
والمعصوم من عصمه الله .

وكلما رقى السائر في ذلك الجبل اشتد به صياح القاطع ، وتحذيره وتخويفه . فإذا قطعه وبلغ
قلته : انقلب لتلك المخاوف كلهن أماناً . وحيث يسهل السير ، وتزول عنه عوارض الطريق ،
ومشقة عقباتها . ويرى طريقاً واسعاً آمناً . يفضي به الى المنازل والمناهل . وعليه الأعلام . وفيه
الاقامات ، قد أعدت لركب الرحمن .

فبين العبد وبين السعادة والفلاح : قوة عزيمة ، وصبر ساعة ، وشجاعة نفس ، وثبات قلب .
والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء . والله ذو الفضل العظيم .

(١٦) فَزِلْنَا الزَّهْدَ

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الزهد».

قال الله تعالى (ما عندكم يتفقد وما عند الله باق) وقال تعالى (٥٧ : ٢٠) اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة، وتفاخر بينكم، وتكاثر في الأموال والأولاد. كمثل غيث أعجب الكفار نباته. ثم يهيج فتراه مصفراً. ثم يكون حطاماً. وفي الآخرة عذاب شديد، ومغفرة من الله ورضوان. وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) وقال تعالى (١٠ : ٢٤) إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض — الآية وقال تعالى (١٨ : ٤٥، ٤٦) واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض. فأصبح هشيماً تذروه الرياح — إلى قوله — وخير أملاً) وقال تعالى (٤ : ١٥) قل متاع الدنيا قليل. والآخرة خير لمن اتقى) وقال (٨٧ : ١٤، ١٧) بل تؤثرون الحياة الدنيا. والآخرة خير وأبقى) وقال (٢٠ : ١٣١) ولا تَمُدَّنْ عَيْنَكَ إِلَى مَا مَتَعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى) وقال تعالى (١٨ : ٧، ٨) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا. وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً) وقال (٤٣ : ٣٣ — ٣٥) وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفاً مِنْ فِضَّةٍ — إلى قوله — وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ).

والقرآن مملوء من التزهيد في الدنيا، والاخبار بخستها وقتلها وانقطاعها، وسرعة فنائها. والترغيب في الآخرة، والاخبار بشرفها ودوامها. فإذا أراد الله بعبد خيراً أقام في قلبه شاهداً يعاين به حقيقة الدنيا والآخرة. ويؤثر منهما ما هو أول بالاثار.

وقد أكثر الناس من الكلام في «الزهد» وكل أشار إلى ذوقه. ونطق عن حاله وشاهده. فان غاب عبارات القوم عن أذواقهم وأحوالهم. والكلام بلسان العلم: أوسع من الكلام بلسان الذوق، وأقرب إلى الحجة والبرهان.

وسمعت شيخ الاسلام ابن تيمية — قدس الله روحه — يقول: الزهد ترك ما لا ينفع في الآخرة. والورع: ترك ما تخاف ضرره في الآخرة.

وهذه العبارة من أحسن ما قيل في «الزهد، والورع» وأجمعها.

وقال سفيان الثوري: الزهد في الدنيا قصر الأمل. ليس بأكل الغليظ، ولا لبس العباء.

ذلك ان الزهد في الشيء في لغة العرب — التي هي لغة الاسلام — الانصراف عنه احتقاراً له، وتصغيراً لشأنه للاستغناء عنه بخير منه. ولم يحىء في القرآن إلا في شأن الذين شروا يوسف (١٢ : ٢٠) بثمن بخس دراهم معدودة. وكانوا فيه من الزاهدين) والزهد فيما أنعم الله وتفضل به على الانسان في هذه الحياة، بما جعله بلاء وعزاً للمهتدين على الايمان والهدى وصالح الأعمال للمتقين، فيكون باقياً صالحاً للآخرة، وعزاً على الكفر والفسوق والعصيان، عند العاقلين الكافرين — الزهد في ذلك: إعراض عن نعم الله وتحقيرها. وليس هذا من هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا هدي أصحابه. وإنما كان هداهم تقدير هذه النعم وحبيها والتفرح بفضل الله عليهم بها وشكرها بالاستعانة بها على النجاح والفلاح فيما ابتلاهم الله به.

وقال الجنيد: الزهد في قوله تعالى (٥٧ : ٢٣) لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم. والله لا يحب كل مختال فخور) فالزاهد لا يفرح من الدنيا بموجود. ولا يأسف منها على مفقود.

وقال يحيى بن معاذ: الزهد يورث السخاء بالملك، والحب يورث السخاء بالروح.
وقال ابن الجلاء: الزهد هو النظر إلى الدنيا بعين الزوال، فتصغر في عينك، فيسهل عليك الاعراض عنها.

وقيل: هو عزوف القلب عن الدنيا بلا تكلف.
وقال الجنيد: الزهد خلو القلب عما خلت منه اليد.
وقال الامام أحمد: الزهد في الدنيا قصر الأمل.
وعنه رواية أخرى: أنه عدم فرحه باقبالها. ولا حزنه على إدارها. فانه سئل عن الرجل يكون معه ألف دينار. هل يكون زاهداً؟ فقال: نعم. على شريطة أن لا يفرح إذا زادت، ولا يحزن إذا نقصت.

وقال أبو سليمان الداراني: ترك ما يشغل عن الله.
وسأل رويم الجنيد عن الزهد؟ فقال: استصغار الدنيا، ومحو آثارها من القلب. وقال مرة: هو خلو اليد عن الملك، والقلب عن التبع.
وقال يحيى بن معاذ: لا يبلغ أحد حقيقة الزهد حتى يكون فيه ثلاث خصال: عمل بلا علاقة، وقول بلا طمع، وعز بلا رياسة.

وقيل: الزهد الايثار عند الاستغناء، والفتوة الايثار عند الحاجة. قال الله تعالى (٥٩ : ٩) ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة).

وقد قال الامام أحمد بن حنبل: الزهد على ثلاثة أوجه. الأول: ترك الحرام. وهو زهد العوام. والثاني: ترك الفضول من الحلال. وهو زهد الخواص. والثالث: ترك ما يشغل عن الله. وهو زهد العارفين.

وهذا الكلام من الامام أحد يأتي على جميع ما تقدم من كلام المشايخ، مع زيادة تفصيله وتبيين درجاته. وهو من أجمع الكلام. وهويديل على أنه رضى الله عنه من هذا العلم بالمحل الأعلى. وقد شهد الشافعي رحمه الله بامامته في ثمانية أشياء «أحدها الزهد».

والذي أجمع عليه العارفون: أن الزهد سفر القلب من وطن الدنيا، وأخذه في منازل الآخرة. وعلى هذا صنف المتقدمون كتب الزهد. كالزهد لعبد الله بن المبارك، وللإمام أحمد، ولوكيع، ولحناد بن السري، ولغيرهم.

ومتعلقه ستة أشياء. لا يستحق العبد اسم «الزهد» حتى يزهد فيها. وهي المال، والصبر، والرياسة، والناس، والنفس، وكل ما دون الله.

وليس المراد رفضها من الملك. فقد كان سليمان ودأود عليهما السلام من أزهد أهل زمانهما. ولهما من المال والملك والنساء ما هما. وكان نبيتا صلى الله عليه وسلم من أزهد البشر على الإطلاق. وله تسع نسوة. وكان علي بن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف والزبير وعثمان - رضي الله عنهم - من الزهاد. مع ما كان لهم من الأموال، وكان الحسن بن علي رضي الله عنه من الزهاد، مع أنه كان من أكثر الأمة محبة للنساء وتكاحاً لهن، وأغناهم. وكان عبد الله بن المبارك من الأئمة الزهاد، مع مال كثير. وكذلك الليث بن سعد من أئمة الزهاد. وكان له رأس مال يقول: لو لا هو لتمتدل بتنا هؤلاء.

ومن أحسن ما قيل في الزهد، كلام الحسن أو غيره: ليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال. ولكن أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك، وأن تكون في ثواب المصيبة - إذا أصبت بها - أرغب منك فيها لو لم تصبك. فهذا من أجمع كلام في الزهد وأحسنه. وقد روى مرفوعاً.

● ستة الزهد ماهية

وقد اختلف الناس في «الزهد» هل هو ممكن في هذه الأزمنة أم لا؟ فقال أبو حنيفة: الزهد لا يكون إلا في الحلال. ولا حلال في الدنيا، فلا زهد. وخالفه الناس في هذا. وقالوا: بل الحلال موجود فيها. وفيها الحرام كثيراً، وعلى تقدير: أن لا يكون فيها الحلال. فهذا أدعى إلى الزهد فيها، وتناول ما يتناوله المضطر منها، كتناوله للمدينة والدم ولحم الخنزير.

وقال يوسف بن أسباط: لو بلغني أن رجلاً بلغ في الزهد منزلة أبي ذر وأبي الدرداء وسلمان والمقداد وأشباههم من الصحابة رضي الله عنهم ما قلت له زاهد. لأن الزهد لا يكون إلا في

الحلال المحض. والحلال المحض لا يوجد في زماننا هذا. وأما الحرام: فإن ارتكبه عذبك الله عز وجل.

ثم اختلف هؤلاء في متعلق الزهد.

فقالت طائفة: الزهد إنما هو في الحلال. لأن ترك الحرام فريضة.

وقالت فرقة: بل الزهد لا يكون إلا في الحرام. وأما الحلال: فنعمة من الله تعالى على عبده. والله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده. فشكره على نعمه، والاستعانة بها على طاعته، واتخاذها طريقاً إلى جنته: أفضل من الزهد فيها، والتخل عنها، ومجانبة أسبابها. والتحقيق: أنها إن شغلته عن الله. فالزهد فيها أفضل. وإن لم تشغله عن الله، بل كان شاكراً لله فيها، فحاله أفضل. والزهد فيها تحريد القلب عن التعلق بها، والطمأنينة إليها. والله أعلم.

● استبراء واستعلاء

وهو على ثلاث درجات. الدرجة الأولى: الزهد في الشهوة. بعد ترك الحرام بالخدر من المتعقبة، والأنفة من المتعصية، وكراهة مشاركة الفساق.

أما الزهد في الشهوة: فهو ترك ما يشتهى على العبد: هل حلال، أو حرام؟ كما في حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم (الحلال بين. والحرام بين. وبين ذلك أمور مشتهيات. لا يعلمهن كثير من الناس. فمن اتقى الشبهات اتقى الحرام. ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى. يوشك أن يرتع فيه. ألا وإن لكل ملك حمى. ألا وإن حمى الله محارمه. ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد. وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد. ألا وهي القلب).

ثم يأتي لنفسه من نقصه عند ربه، وسقوطه من عينه. لا أنفته من نقصه عند الناس، وسقوطه من أعينهم. وإن كان ذلك ليس مذموماً، بل هو محمود أيضاً. ولكن المذموم: أن تكون أنفته كلها من الناس، ولا يأتيه من الله.

أما كراهة مشاركة الفساق: فذلك أن الفساق يزدحون على مواضع الرغبة في الدنيا. ولتلك المواقف بهم كظيظ من الزحام. فالزاهد يأتيه من مشاركتهم في تلك المواقف. ويرفع نفسه عنها، لحسة شركائه فيها، كما قيل لبعضهم: ما الذي زهدك في الدنيا؟ قال: قلة وفاتها، وكثرة جفائها، وخسة شركائها.

إذا لم أتترك الماء اتقاء تركت لكثرة الشركاء فيه
إذا وقع الذباب على طعام رفعت يدي ونفسي تشتهي
وتجنب الأسود ورود ماء إذا كان الكلاب يلفن فيه

● بناء... في سكون

الدرجة الثانية: اغتنم الفراغ الى عمارة الوقت، وحسم الجأش.
إذ لما كان الزهد لأهل الدرجة الأولى: خوفاً من الممّنة، وحذراً من المنقصة: كان الزهد لأهل هذه الدرجة أعلى وأرفع. وهو اغتنم الفراغ لعمارة أوقاتهم مع الله. لأنه إذا اشتغل بفضول الدنيا، فاته نصيبه من انتهاز فرصة الوقت. فالوقت سيف إن لم تقطعه ولا قطعك.
وعمارة الوقت: الاشتغال في جميع آثائه بما يقرب إلى الله، أو يعين على ذلك من مأكّل أو مشرب، أو متكح، أو متنام، أو راحة. فانه متى أخذها بنية القوة على ما يحبه الله، وتجنب ما يسخطه. كانت من عمارة الوقت، وإن كان له فيها أتم لذة فلا تحسب عمارة الوقت بهجر اللذات والطيّات.

يل لا تحسب أن عمارة الوقت بالصلاة ونحوها فحسب. فان عمارة الوقت بالعمل الصالح شكر الله، بالزراعة والصناعة، والعمل في عمارة الأرض واستخراج كنوزها وإصلاحها، وتنمية الثروات وإعداد القوة والمعد والمعد، لتكون الأمة قادرة على تمكين دينها، وإقامة شرائع الاسلام، ومد ظل عدله ورحمته على الناس، وإخراجهم به من الظلمات إلى النور، وكذلك حسن العشرة مع الأهل والولد والجار بكل ما يجعل العشرة حسنة من مأكّل ومشرب وملبس، وغير ذلك مما يهيئ الحياة الرغيدة، والعيش السعيد للأسرة، لتكون في جو وبينة صالحة كريمة، لانشاء جيل جديد من أبناء صالحين نافعين. عاملين لقوة الأمة وعزتها، وكذلك التمهيد في الصناعات والحرف التي تسبق بها الأمة غيرها في مضمار العمران، كل ذلك ونحوه من شكر الله على نعمه فيما أعطى، وحسن الانتفاع به. ينبغي أن يعمر الوقت به.

فالمحب الصادق ربما كن سيره القلبي في حال أكله وشربه، وراحته، أقوى من سيره البدني في بعض الأحيان.
ولا ريب أن النفس إذا نالت حظاً صالحاً من الدنيا قويت به وسرت، واستجمعت قواها وجمعيتها. وزال تشتهاها.

وأما «حسم الجأش» فهو قطع اضطراب القلب، المتعلق بأسباب الدنيا، رغبة ورهبة، وجباً وبغضاً، وسعياً. فلا يصح الزهد للبعد حتى يقطع هذا الاضطراب من قلبه. بأن لا يلتفت إليها،

ولا يتعلق بها في حالتها مباشرة لما وتركه. فإن الزهد زهد القلب، لا زهد الترك من اليد وسائر الأعضاء. فهو تخلي القلب عنها. لا خلوا اليد منها.

● زهد بماذا... وما ثم شيء!!

الدرجة الثالثة: الزهد في الزهد. وهو ثلاثة أشياء: استحقار ما زهدت فيه. واستواء الحالات فيه عندك. والذهاب عن شهود الاكتساب. فالزهد في الزهد يفسر بثلاثة أشياء.

أحدها: احتقاره ما زهد فيه. فإن من امتلأ قلبه بحبة الله وتعظيمه لا يرى أن ما تركه لأجله من الدنيا يستحق أن يجعل قرباناً. لأن الدنيا بحذاقها لا تساوي عند الله جناح بعوضة. فالعارف لا يرى زهده فيها كبيراً أمر يمتد به ويحتفل له، فيستحي من صبح له الزهد أن يجعل ما تركه لله قدراً يلاحظ زهده فيه، بل يفنى عن زهده فيه كما فنى عنه. ويستحي من ذكره بلسانه، وشهوده بقلبه.

وأما استواء الحالات فيه عنده: فهو أن يرى ترك ما زهد فيه وأخذه: متساويين عنده. إذ ليس له عنده قدر. وهذا من دقائق فقه الزهد. فيكون زاهداً في حال أخذه، كما هو زاهد في حال تركه، إذ همته أعلى عن ملاحظته أخذاً وتركاً، لصفره في عينه.

وأما «الذهاب عن شهود الاكتساب» فمعناه:

أن يشاهد تفرد الله بالعطاء والمنع. فلا يرى أنه ترك شيئاً ولا أخذ شيئاً. بل الله وحده هو المعطي والمنع. فما أخذه فهو مجرى لعطاء الله إياه، كمجرى الماء في النهر. وما تركه لله، فالله سبحانه وتعالى هو الذي منعه منه. فيذهب بمشاهدة القفال وحده عن شهود كسبه وتركه.

(١٧) مِثْلَةُ الْوَرَعِ

ومن منازل «إياك نعبه وإياك نستعين» منزلة «الورع»

قال الله تعالى (٢٣ : ٥١) يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً. إني بما يعملون عليم) وقال تعالى (٧٤ : ٤) وثيابك فطهر) قال قتادة ومجاهد: نفسك فطهر من اللخب. فكفى عن النفس بالتوب. وهذا قول إبراهيم النخعي والضحاك، والشعمي، والزهرى، والمحققين من أهل التفسير. قال ابن عباس: لا تلبسها على معصية ولا غدر. ثم قال: أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفي:

وإني - بحمد الله - لا ثوب غادر لبست. ولا من غدرت أتقنع

والعرب تقول في وصف الرجل بالصدق والوفاء: طاهر الثياب. وتقول للغادر والفاجر: دنس الثياب. وقال أتي بن كعب: لا تلبسها على الغدر، والظلم والاثم. ولكن البسها وأنت برّ ظاهر.

وقال الضحاك: عملك فأصلح. قال السدي: يقال للرجل، إذا كان صالحاً: إنه لظاهر الثياب. وإذا كان فاجراً: إنه لخبيث الثياب. وقال سميد بن جبير: وقلبك وبيتك فطهر. وقال الحسن والقرظي: وخلقك فحسن.

وقال ابن سيرين وابن زيد: أمر بتطهير الثياب من النجاسات التي لا تجوز الصلاة معها. لأن المشركين كانوا لا يطهرون، ولا يطهرون ثيابهم.

وقال طاووس: وثيابك فقصر. لأن تقصير الثياب طهارة لها.

والقول الأول: أصح الأقوال.

ولا ريب أن تطهيرها من النجاسات وتقصيرها من جملة التطهير المأمور به، إذ به تمام إصلاح الأعمال والأخلاق. لأن نجاسة الظاهر تورث نجاسة الباطن. ولذلك أمر القائم بين يدي الله عز وجل بازائها والبعد عنها.

والمقصود: أن «الورع» يطهر دنس القلب ونجاسته. كما يطهر الماء دنس الثوب ونجاسته. وبين الشياطين والقلوب مناسبة ظاهرة وباطنة. ولذلك تدل ثياب المرء في المنام على قلبه وحاله. ويؤثر كل منهما في الآخر. ولهذا نهى عن لباس الحرير والذهب، وجلود السباع، لما تؤثر في القلب من أهنية المنافية للعبودية والخشوع. وتأثير القلب والنفس في الثياب أمر خفي. يعرفه أهل البصائر من نظافتها ودنسها ورائحتها، وبهجتها وكسفتها، حتى إن ثوب البر يعرف من ثوب الفاجر، وليسا عليهما.

وقد جمع النبي صلى الله عليه وسلم الورع كله في كلمة واحدة. فقال (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه) فهذا يعم الترك لما لا يعني: من الكلام، والنظر والاستماع، والبطش، والمشي، والفكر، وسائر الحركات الظاهرة والباطنة. فهذه الكلمة كافية شافية في الورع. قال اسحاق بن خلف: الورع في المنطق أشد منه في الذهب والفضة، والزهد في الرياسة: أشد منه في الذهب والفضة، لأنهما يذلان في طلب الرياسة. وقال أبو سليمان الداراني: الورع أول الزهد، كما أن القناعة أول الرضا.

وقال يحيى بن معاذ: الورع الوقوف على حد العلم من غير تأويل. وقال: الورع على وجهين. ورع في الظاهر، وورع في الباطن. فورع الظاهر: أن لا يتحرك إلا لله، وورع الباطن: هو أن لا تدخل قلبك سواه. وقال: من لم ينظر في الدقيق من الورع لم يصل إلى الجليل من العطاء. وقيل: الورع الخروج من الشهوات، وترك السيئات. وقال يونس بن عبيد: الورع الخروج من كل شبهة، وعاسبة النفس في كل طرفة عين. وقال سفيان الثوري: ما رأيت أسهل من الورع، ما حاك في نفسك فاتركه. وقال سهل: الحلال هو الذي لا يعصى الله فيه، والصالح منه الذي لا يتسى الله فيه. وسأل الحسن غلاماً. فقال له: ما يلاك الدين؟ قال: الورع. قال: فما آفته؟ قال: الطمع. فمجبب الحسن منه.

وقال أبو هريرة: جلساء الله غداً أهل الورع والزهد. وقال بعض السلف: لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع مالا بأس به حذراً مما به بأس.

● انتباه القلب بصون الجوارح

قال صاحب المنازل شيخ الإسلام الهروي:
«الورع: توق متعمق على حذر. وتخرج على تعظيم». يعني أن يتوقى الحرام والشبه، وما يخاف أن يضره أقصى ما يمكنه من التوقى. لأن التوقى

والحذر متقاربان. إلا أن «التوقى» فعل الجوارح. و«الحذر» فعل القلب. فقد يتوقى العبد الشيء لا على وجه الحذر والخوف. ولكن لأمر أخرى: من إظهار تراهة، وعزة وتصوف، أو اعتراض آخره كتوقى الذين لا يؤمنون بمعاد، ولا جنة ولا ناراً ما يتوقونه من الفواحش والدناءة، تصوراً عنها. ورغبة ينفوسهم عن مواقعتها، وطلباً للمحمدة، وتحذراً.

وقوله «أو تخرج على تعظيم» بمعنى أن الباعث على الورع عن المحارم والشبه إما حذر خلل الوعيد. وإما تعظيم الرب جل جلاله، وإجلاله له أن يتعرض لما نهى عنه.

فالورع عن المعصية إما تخوف، أو تعظيم. واكتفى بذكر التعظيم عن ذكر الحب الباعث على ترك معصية المحبوب. لأنه لا يكون إلا مع تعظيمه. وإلا فلورع القلب من تعظيمه لم تستلزم محبة ترك مخالفته، كمحبة الإنسان ولده، فإذا قارنه التنظيم أوجب ترك المخالفة.

والورع عسوا يبعث على تجنب القبائح، ليصون النفس، وتوفير الحسنات، وصيانة الايمان. فهذه ثلاث فوائد من فوائد تجنب القبائح.

إحداها: صون النفس. وهو حفظها وحمايتها عما يشتها، ويميتها ويؤذي بها عند الله عز وجل «وملائكته، وعباده المؤمنين وسائر خلقه. فأن من كرمت عليه نفسه وكبرت عنده صانها وحماها، وزكاها وعلاها، ووضعتها في أعلى المحال. وزاحم بها أهل العزائم والكمالات. ومن هانت عليه نفسه وصغرت عنده ألقاها في الرذائل. وحل زمامها وأرخاه. ودساها ولم يصنها عن قبيح. فأقن ما في تجنب القبائح: صون النفس.

ولما «توفير الحسنات» فمن وجهين.

أحدهما: توفير زمانه على اكتساب الحسنات. فإذا اشتغل بالقبائح نقصت عليه الحسنات التي كان مستعداً لتحصيلها.

والثاني: توفير الحسنات المقولة عن نقصانها، بموازنة السيئات وحبوطها، كما تقدم في منزلة التوبة: أن السيئات قد تحبط الحسنات، وقد تستغرقها بالكلية أو تنقصها. فلا بد أن تضعفها قطعاً، فتجنيها يوفر ديوان الحسنات. وذلك بمنزلة من له مال حاصل. فإذا استدان عليه، فاما أن يستغرقه الدين أو يكثره أو ينقصه، فهكذا الحسنات والسيئات سواء.

وأما «صيانة الايمان» فلأن الايمان عند جميع أهل السنة يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية. وقد حكاه الشافعي وغيره عن الصحابة والتابعين، ومن بعدهم. وإضعاف المعاصي للايمان أمر معلوم بالذوق والوجود. فان العبد — كما جاء في الحديث — «إذا أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء. فان تاب واستغفر صفل قلبه. وإن عاد فأذنب نكت فيه نكتة أخرى، حتى تملو قلبه. وذلك الران الذي قال الله تعالى (٨٣ : ١٤) كلاب ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) فالقبائح تسود القلب. وتطفىء نوره. والايمان هو نور القلب. والقبائح تذهب به أو

تقلله قطعاً. فالחסنات تزيد نور القلب. والمسيئات تطفىء نور القلب وقد أخبر الله عز وجل أن كسب القلوب سبب للران الذي يعملوها. وأخبر أنه أركس المنافقين بما كسبوا. فقال (٤٠ : ٨٨) والله أركسهم بما كسبوا) وأخبر أن نقض الميثاق الذي أخذه على عباده سبب لتقسية القلب. فقال (٥ : ١٣) فيما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية، يحرفون الكلم عن مواضعه. ونسوا حظاً مما ذكروا به) فجعل ذنب النقض موجباً لهذه الآثار: من تقسية القلب، واللعنة، وتحريف الكلم، ونسيان العلم.

فإيمان صاحب القبايح كقوة المريض على حسب قوة المرض وضعفه. وهذه الأمور الثلاثة — وهى صون النفس، وتوفير الحسنات، وصيانة الإيمان — هى أرفع من باعث العامة على الورع. لأن صاحبها أرفع همه، لأنه عامل على تركية نفسه وصونها، وتأهيلها للوصول إلى ربها. فهو يصونها عما يشينها عنده. ومحجبها عنه. ويصون حسناته عما يسقطها ويضعها. لأنه يسير بها إلى ربه. ويطلب بها رضاه. ويصون إيمانه بربه: من حبه له، وتوحيده، ومعرفته به.

● رجال المراتب العالية

ويرتقي الورع بصاحبه حتى يؤدي به إلى حفظ الحدود عندما لا بأس به، إبقاء على الصيانة والتقوى، وتخلصاً عن إقتحام الحدود.

فمن صعد إلى هذه الدرجة من الورع: يترك كثيراً مما لا بأس به من المباح، إبقاء على صيافته، وخوفاً عليها أن يتكدر صفوها. ويظفأ نورها. فان كثيراً من المباح يكدر صفو الصيانة، ويذهب بهجتها، ويطفىء نورها. ويخلق حسنها وبهجتها.

وقال لي يوماً شيخ الاسلام ابن تيمية — قدس الله روحه — فى شىء من المباح: هذا يتناقى المراتب العالية، وإن لم يكن تركه شرطاً فى النجاة. أو نحو هذا من الكلام.

فالعارف يترك كثيراً من المباح إبقاء على صيافته. ولا سيما إذا كان ذلك المباح برزخاً بين الحلال والحرام.

والفرق بين صاحب الورع العام وصاحب هذا: أن ذلك يسعى فى تحصيل الصيانة. وهذا يسعى فى حفظ صفوها أن يتكدر ونورها أن يظفأ ويذهب.

وأما التخلص عن إقتحام الحدود، فالحدود: هى النهايات. وهى مقاطع الحلال والحرام. فحيث ينقطع وينتهى، فذلك حده. فمن اقتحمه وقع فى المعصية. وقد نهى الله تعالى عن تعدي حدوده وقربانه. فقال (٢ : ٨٧) تلك حدود الله فلا تقربوها).

وقال (٢ : ٢٢٩) تلك حدود الله فلا تعتدوها) فان الحدود يراد بها أواخر الحلال. وحيث نهى عن اقترابان فالحدود هناك: أوائل الحرام. يقول سبحانه: لا تعتدوا ما أبحث لكم. ولا تقربوا ما حرمت عليكم. فالورع يخلص العبد من قربان هذه وتعدي هذه. وهو اقتحام الحدود.

● الثمرات الطيبة

واعلم أن الخوف يشمر الورع والاستعانة وقصر الأمل. وقوة الإيمان باللقاء تشمر الزهد. والمعرفة تشمر المحبة والخوف والرجاء. والقناعة تشمر الرضاء. والذكر يشمر حياة القلب. والإيمان بالقدر يشمر التوكل. ودوام تأمل الأسماء والصفات يشمر المعرفة. والورع يشمر الزهد أيضاً. والتوبة تشمر المحبة أيضاً، ودوام الذكر يشمرها. والرضا يشمر الشكر. والغزوة والصبر يشمران جميع الأحوال والمقامات. والاخلاص والصدق كل منهما يشمر الآخر ويقتضيه. والمعفة تشمر الخلق. والفكر يشمر العزيمة. والمراقبة تشمر عمارة الوقت، وحفظ الأيام والحياة، والخشية والانابة. وإماتة النفس وإذلالها وكسرها: يوجب حياة القلب وعزه وجبره. ومعرفة النفس ومقتها يوجب الحياء من الله عز وجل. واستكثار ما منه، واستقلال ما منك من الطاعات. ومحو أثر الدعوى من القلب واللسان وصحة البصيرة تشمر اليقين. وحسن التأمل لما ترى وتسمع من الآيات المشهودة والمتلوة يشمر صحة البصيرة.

وملاك ذلك كله: أمران. أحدهما: أن تنقل قلبك من وطن الدنيا فتسكنه في وطن الآخرة. ثم تقبل به كله على معاني القرآن واستجلالها وتدبرها. وفهم ما يراد منه وما نزل لأجله. وأخذ نصيبك وحظك من كل آية من آياته، وتنزلها على داء قلبك.

فهذه طريق مختصرة قريبة سهلة. موصلة إلى الرفيق الأعلى. أمانة لا يلحق سالكها خوف ولا عطب، ولا جوع ولا عطش، ولا فيها آفة من آفات سائر الطرق أليته. وعليها من الله حارس وحافظ يكلأ السالكين فيها ويحميهم، ويدفع عنهم. ولا يعرف قدر هذه الطريق إلا من عرف طرق الناس وغوائلها وآفاتها وقطاعها. والله المستعان.

(١٨) مَنَزِلَةُ التَّبَتُّلِ

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «التبتل».
قال الله تعالى (٧٣ : ٨) واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتلاً).

و «التبتل» الانقطاع. وهو قَمَلٌ من البَتْل وهو القطع. وسيت مریم «البتل» لانقطاعها عن الأزواج، وعن أن يكون لها نظراء من نساء زمانها. ففاقت نساء الزمان شرقاً وفضلاً. وقطعت منهن. ومصدر «بتل» «تبتلاً» كالتعلم والتفهم، ولكن جاء على التفعيل — مصدر تفعّل — لسر لطيف. فان في هذا الفعل إيذاناً بالتدريج والتكلف والعمل والتكسر والمبالغة. فأتى بالفعل الدال على أحدهما، وبالمصدر الدال على الآخر. فكأنه قيل: بتل نفسك إلى الله تبتلاً، وتبتل إليه تبتلاً. ففهم المعنيان من الفعل ومصدره. وهذا كثير في القرآن. وهو من أحسن الاختصار والابجاز.

فالتبتل: الانقطاع الى الله بالكليّة. وقوله عز وجل (١٣ : ١٤) له دعوة الحق) اي التجريد المحض، اي التبتل عن ملاحظة الاعراض، بحيث لا يكون التبتل كالأجير الذي لا يخدم إلا لأجل الاجرة، فاذا أخذها انصرف عن باب المستأجر.

والاستشهاد بقوله (له دعوة الحق) في هذا الموضع: فيه ارادة هذا المعنى، وانه تعالى صاحب دعوة الحق لذاته وصفاته، وان لم يوجب لداعية بها ثواباً. فانه يستحقها لذاته. فهو أهل أن يعبد وحده، ويدعى وحده، ويقصد ويشكر ويحمد، ويحب ويرجى ويخاف، ويتوكل عليه، ويستعان به، ويستجار به، ويلجأ إليه، ويصمد إليه. فتكون الدعوة الالهية الحق له وحده.

ومن قام بقلبه هذا — معرفة وذوقاً وحالاً — صبح له مقام التبتل، والتجريد المحض. وقد فسّر السلف «دعوة الحق» بالتوحيد والاخلاص فيه والصدق ومرادهم: هذا المعنى. فقال علي رضي الله عنه دعوة الحق: «التوحيد» وقال ابن عباس رضي الله عنهما «شهادة أن لا إله إلا الله» وقيل: الدعاء بالاخلاص. والدعاء الخالص لا يكون إلا الله. ودعوة الحق دعوة الالهية وحقوقها وتجريدها وإخلاصها.

● اتصال... وانفصال

و «التبطل» يجمع أمرين: اتصالاً وانفصالاً. لا يصح إلا بهما.
فالانفصال : انقطاع قلبه عن حفظ النفس المزاحة لمراد الرب منه. وعن التفات قلبه إلى ما سوى الله، أو رغبة فيه، أو مبالاة به، أو فكراً فيه.
والاتصال: لا يصح إلا بعد هذا الانفصال. وهو اتصال القلب بالله، وإقباله عليه، وإقامة وجهه له، حباً وخوفاً ورجاء، وإناة وتوكلًا.
والذى يَخْنِئُ مادة رجاء المخلوقين من قلبك: هو الرضى بحكم الله عز وجل وقسمه لك، فمن رضى بحم الله وقسمه، لم يبق لرجاء الخلق في قلبه موضع.
والذى يحسم مادة الخوف: هو التسليم لله. فان من سلم لله واستسلم له، وعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له — لم يبق لخوف المخلوقين في قلبه موضع أيضاً. فان نفسه التى يخاف عليها قد سلمها إلى وليها ومولاها. وعلم أنه لا يصيبها إلا ما كتب لها. وأن ما كتب لها لا بد أن يصيبها. فلا معنى للخوف من غير الله بوجه.

وفى التسليم أيضاً فائدة لطيفة. وهى أنه إذا سلمها الله فقد أودعها عنده. وأحضرها فى جيزه. وجعلها تحت كتفه. حيث لا تنالها يد عدو عاد ولا تبقى بأغ عات.
فهذا هو الانقطاع عن الخلق، ولكن التبطل لا يكتمل حتى يكون انقطاع التبطل عن النفس، بمجانبة الهوى، وتُسَمُّ روح الأنس، فان فى مجانبة الهوى ومخالفته ونهي نفسه عنه: تنسم روح الانس بالله، والروح للروح كالروح للبدن، فهو روحها وراحتها، وانما حصل له هذا الروح لما اعرض عن هواه، فحينئذ يتنسم روح الانس بالله، ويجد راحته، اذ النفس لا بد لها من التعلق، فلما انقطع تعلقها من هواها: وجدت روح الانس بالله، وهبت عليها نسماته، فريحتها وأحيتها، وجعلت صاحبها حياً على مراد الله الدينى الامرى النبوي منه، وتنفيذه بين أهل العناد والمعارضة والبغى، فينفس فيهم، يمزقون أديمه، ويرمونه بالمظالم، ويغيثونه بأنواع المخاوف، ويتطلبون دمه بجهدهم، لا تأخذه فى جهادهم فى الله لومة لائم. يصعد بالحق عند من يخافه ويرجوه، قد زهد فى مدحهم وثنائهم. يصيح فيهم بالنصائح جهاراً. ويعلن لهم بها. ويسر لهم أسراراً.

(١٩) مَنَزِلَةُ الرَّجَاءِ

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الرجاء»

قال الله تعالى (١٧: ٥٧) أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته وغفاه عذابه) فابتغاء الوسيلة إليه: طلب القرب منه بالمعوية والمحبة. فذكر مقامات الإيمان الثلاثة التي عليها بناؤه: الحب، والخوف، والرجاء. قال تعالى (٢٩: ٥) من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت) وقال (١٨: ١١١) فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) وقال تعالى (٢: ٢١٨) أولئك يرجون رحمة الله، والله غفور رحيم).

وفي صحيح مسلم عن جابر رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول — قبل موته بثلاث — «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه» وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم «يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء» «الرجاء» «حاد يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب. وهو الله والدار الآخرة. ويطيب لها السير. وقيل: هو الاستبشار بجود وفضل الرب تبارك وتعالى. والارتياح لمطالعة كرمه سبحانه. وقيل: هو الثقة بجود الرب تعالى.

والفرق بينه وبين «التمني» أن «التمني» يكون مع الكسل. ولا يسلك بصاحبه طريق الجهد والاجتهاد. و«الرجاء» يكون مع بذل الجهد وحسن التوكل.

فالأول: كحال من يتمنى أن يكون له أرض يذرّها ويأخذ زرعها.

والثاني: كحال من يشق أرضه ويفلحها ويذرّها. ويرجو طوع الزرع.

ولهذا أجمع العارفون على أن «الرجاء» لا يصح إلا مع العمل.

قال شاه الكرماني: علامة صحة الرجاء: حسن الطاعة.

والرجاء ثلاثة أنواع: نوعان محمودان ونوع غرور مذموم.

فالأولان: رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله. فهو راجٍ لثوابه. ورجل أذنب ذنباً

ثم تاب منها. فهو راجٍ لمغفرة الله تعالى وعفوه وإحسانه وجوده وحلمه وكرمه.

والثالث: رجل متمسك في التفریط والحطايا، يرجو رحمة الله بلا عمل. فهذا هو الغرور
والتمني والرجاء الكاذب.

وللسالك نظران: نظر إلى نفسه وعيوبه وآفات عتملة، يفتح عليه باب الخوف إلى سعة فضل
ربه وكرمه وبره. ونظريفتح عليه باب الرجاء.

ولهذا قيل في حد «الرجاء»: هو النظر إلى سعة رحمة الله.

وسئل أحمد بن عاصم: ما علامة الرجاء في العبد؟ فقال: أن يكون إذا أحاط به الإحسان
أهم الشكر، راجيا لتمام النعمة من الله عليه في الدنيا والآخرة، وتقام عفوه عنه في الآخرة.
واختلفوا، أي الرجائي أكمل: رجاء المحسن ثواب إحسانه، أو رجاء المسيء التائب مغفرة
ربه وعفوه؟

فطائفة رجحت رجاء المحسن. لقوة أسباب الرجاء معه. وطائفة رجحت رجاء المذنب. لأن
رجاءه مجرد عن علة رؤية العمل، مقرون بذلة رؤية الذنب.

قال يحيى بن معاذ: يكاد رجائي لك مع الذنوب يغلب رجائي لك مع الأعمال لأنني أجدني
أعتمد في الأعمال على الإخلاص، وكيف أصفيها وأحزرها؟ وأنا بالأفات معروف. وأجدني
في الذنوب أعتمد على عفوك، وكيف لا تغفرها وأنت بالجوذ موصوف؟

وقال أيضاً: إلهي، أخل العطايا في قلبي رجاؤك. وأعذب الكلام على لساني ثناؤك.
وأحب الساعات إلّي ساعة يكون فيها لقاءك.

• مبنى المحبة على الرجاء

والرجاء من أجل المنازل، وأعلاها وأشرفها. وعليه وعلى الحب والخوف مدار السير إلى الله.
وقد مدح الله تعالى أهله، وأثنى عليهم. (٢١:٣٣) لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة
لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً.

وفي الحديث الصحيح الإلهي عن النبي صلى الله عليه وسلم — فيما يروى عن ربه عز
وجل — «يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي»
وروى الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال
«يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه. إذا ذكرني في نفسه، ذكرته في
نفسي. وإن ذكرني في ملاء، ذكرته في ملاء خير منهم. وإن اقترب إلّي شبراً، اقتربت إليه
ذراعاً. وإن اقترب إلّي ذراعاً، اقتربت إليه باعاً. وإن أتاني يمشي، أتيته هرولة» رواه
مسلم.

وقد أخبر تعالى عن خواص عباده الذين كان المشركون يزعمون أنهم يتقربون بهم إلى الله تعالى: أنهم كانوا راجعين له خائفين منه. فقال تعالى (٥٧، ٥٦، ١٧) قل ادعوا الذين زعمتم من دونه. فلا يمكن كشف الضر عنكم ولا تحويلا. أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب. ويرجون رحمته ويخافون عذابه. إن عذاب ربك كان محذورا.

يقول تعالى: هؤلاء الذين تدعونهم من دوني: هم عبادي، يتقربون إليّ بطاعتي، ويرجون رحمتي، ويخافون عذابي، فلماذا تدعونهم من دوني؟ فأنتى عليهم بأفضل أحوالهم ومقاماتهم: من الحب، والخوف، والرجاء.

وهو عبودية، وتعلق بالله من حيث اسمه «الحسن البز» فذلك التعلق والتعبد بهذا الاسم والمعرفة بالله. هو الذي أوجب للمعبود الرجاء، من حيث يدري ومن حيث لا يدري. فتوة الرجاء على حسب قوة المعرفة بالله وأسمائه وصفاته، وغلبة رحمته غضبه. ولولا روح الرجاء لثقلت عبودية القلب والجوارح. ولما تمت صوامع، وبيوت، وصلوات، ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا. بل لولا روح الرجاء لما تحركت الجوارح بالطاعة. ولولا رغبة الطيبة لما جرت سفن الأعمال في بحر الإرادات. ولي من آيات:

لولا التعلق بالرجاء تقطعت	نفس المحب تحسرا وتمزقا
وكذاك لولا برده بحرارة الـ	سا كباد ذابت بالحجاب تحرقا
أىكون قط حليف حب لا يترى	برجائه بحبيبه متعلقا ١٩
أم كلما قويت محبته له	قوى الرجاء فزاد فيه تشوقا
لولا الرجا يحدو المطي لما سرت	بحمولها لديارهم ترجوا للقا

وعمل حسب المحبة وقوتها يكون الرجاء. فكل محب راج خائف بالضرورة فهو أرجى ما يكون لحبيبه أحب ما يكون إليه. وكذلك خوفه. فإنه يخاف سقوطه من عينه، وطرده محبوه له وإبعاده، واحتجابه عنه. فخوفه أشد خوف. ورجاؤه ذاتي للمحبة. فإنه يرجوه قبل لقائه والوصول إليه. فإذا لقيه ووصل إليه اشتد الرجاء له، لما يحصل له به من حياة روحه، ونعيم قلبه من ألطف محبوه، وبره وإقباله عليه، ونظرة إليه بعين الرضا، وتأهيله في محبته، وغير ذلك مما لاحياة للمحب، ولانعيم ولا فوز إلا بوصوله إليه من محبوه، فرجاؤه أعظم رجاء، وأجله وأتمه.

فتأمل هذا الموضوع حق التأمل يطلعك على أسرار عظيمة من أسرار العبودية والمحبة. فكل محبة فهي مصحوبة بالخوف والرجاء. وعلى قدر تمكنها من قلب المحب يشتد خوفه ورجاؤه، لكن خوف المحب لا يصحبه وحشة. بخلاف خوف المسيء، ورجاء المحب لا يصحبه علة، بخلاف رجاء الأجير. وأين رجاء المحب من رجاء الأجير؟ وبينهما كما بين حالهما.

وبالجملة: فالرجاء ضروري للمريد السالك، والعارف لوفارقه لحظة تلف أو كاد. فإنه دائرين ذنب يرجو غفرانه، وعيب يرجو إصلاحه، وعمل صالح يرجو قبوله، واستقامة يرجو حصولها ودوامها، وقرب من الله ومنزلة عنده يرجو وصوله إليها. ولا يترك أحد من السالكين عن هذه الأمور أو بعضها.

و يكون الراجي دائماً راغباً راهباً. مؤملاً لفضل ربه. حسن الظن به، متملق الأمل بربه وجوده، عابداً له بأسمائه «المحسن، البر، المعطي، الغفور، الجواد، الوهاب، الرزاق» والله سبحانه وتعالى يحب من عبده أن يرجوه. ولذلك كان عند رجاء العبد له وطنه به.

● رب غفور يحب أن نرجوه

وليس في «الرجاء» ولا في «الدعاء» معارضة لتصرف الله في ملكه، كما يظن بعض الجهلة، فإنه إنما يرجو تصرفه في ملكه أيضاً بما هو أولى وأحب الأمرين إليه. فإن الفضل أحب إليه من العدل. والعفو أحب إليه من الانتقام، والمساحة أحب إليه من الاستقصاء. والترك أحب إليه من الاستيفاء. ورحته غلبت غضبه.

فالراجي علق رجاءه بتصرفه المحبوب له المرضي له. فلم يوجب رجاءه خروجه عن تصرفه في ملكه. بل اقتضى عبوديته، وحصول أحب التصرفين إليه. وهو سبحانه وتعالى لا ينتفع باستيفاء حقه وعقوبة عبده، حتى يكون رجاءه مبطلاً لذلك، وإنما العبد استدعى العقوبة، وأخذ الحق منه لشركه بالله وكفره به. واجتهاده في غضبه. لغضبه موجبات وآثار ومقتضيات — والعبد مؤثر لها — ساع في تحصيلها، عامل عليها بإيثاره إياها وسعيه في أسبابها. فهو المهلك لنفسه. وربّه يحذره ويبصره ويناديه: هلم إلى أهلك وأصنك، وأنجك مما تحذر، وأؤمنك من كل ما تخاف. وهو يأبى إلا شروداً عليه وتفارقاً عنه، ومصالحة لعدوه، ومظاهرة له على ربه. ومتطلباً لمرضاة خلقه بما خاطه. رضا المخلوق آثر عنده من رضا خالقه. وحقه أكد عنده من حقه. وخوفه ورجاءه وحبه في قلبه أعظم من خوفه من الله ورجائه وحبه. فلم يدع لفضل ربه وكرامته وثوابه إليه طريقاً، بل سد دونه طرق مجاريها بجهده. وأعطى بيده لعدوه. فصالحه وسمع له وأطاع. وانقاد إلى مرضاته. فجاء من الظلم بأقبحه وأشدّه.

فهو الذي عارض مراده به منه بمراده وهواه وشهوته. واعترض لمحابه ومراضيه بالدفع. ولم يأذن لها في الدخول عليه. فأضاع حظه وبخس حقه. وظلم نفسه. وعادى حبيبه. ووالى عدوه. وأسخط من حياته في رضاه. وأرضى من حياته في سخطه. وجاد بنفسه لعدوه. وبخل بها عن حبيبه ووليه.

و رب تبارك وتعالى ليس له ثار عند عبده فيدركه بعقوبته. ولا يشفى بعقابه. ولا يزيد ذلك في مسكه مشقال ذرة. ولا ينقص مغفرته. ولو غفر لأهل الأرض كلهم لما نقص مثقال ذرة من ملكه. كيف، والرحمة أوسع من العقوبة وأسبق من الغضب وأغلب له؟ وهو قد كتب على نفسه الرحمة فرجاء العبد له لا ينقص شيئاً من حكمته. ولا ينقص ذرة من ملكه. ولا يخرج عن كمال تصرفه. ولا يوجب خلاف كماله. ولا تعطيل أوصافه وأسمائه. ولولا أن العبد هو الذي سد على نفسه طرق الخيرات، وأغلق دونها أبواب الرحمة سوء اختياره لنفسه: لكان ربه له فوق رجائه وفوق أمه.

وأم مستسلام العبد لربه، واستسلامه بانطراحه بين يديه، ورضاه بمواقع حكمه فيه: فما دنا إلا رجاء منه أن يرحمه، ويقلبه عثرته، ويعفوه عنه، ويقبل حسناته مع عيوب أعماله وآفاتهما. ويشجأور عن سيئاته. فتقوة رجائه أوجب له هذا الاستسلام والانقياد، والانطراح بالباب. ولا يتصور هذا بدون الرجاء ألبته. فالرجاء حياة الطلب. والإرادة روحها.

• شبهات اليائسين

وظنت طائفة أن في الرجاء وقوفاً مع الحظ. والسالكون قد خرجوا عن نفوسهم، فكيف حظوظهم؟

فيا له العجب! ... أي غلط في رجاء العبد ربه، وطمعه في بره وإحسانه وفضله، وسؤاله ذلك بقلبه ولسانه؟ فإن الرجاء هو استشراف القلب لتبيل ما يرجوه. فإذا كان العبد دائماً مستشرقاً بقلبه، سائلاً بلسانه، طالباً لفضل ربه. فأي خطأ في ذلك؟ أو لم يبلغهم دعاء النبي صلى الله عليه وسلم «اللهم إني أعوذ برضائك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وبك منك. لا أحصي ثناء عليك. أنت كما أثنيت على نفسك»؟ وقوله لعمه العباس رضي الله عنه «يا عباس، يا عم رسول الله. سبلي الله العاقبة» وقوله للصديق الأكبر رضي الله عنه «وقد سأله أن يعلمه دعاء يدعو به في صلاته — «قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً. ولا يغفر الذنوب إلا أنت. فاغفر لي مغفرة من عندك. وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم» وقوله لصديقة النساء — وقد سأله دعاء تدعوه، إن وافقت ليلة القدر — فقال «قولي: اللهم إنك عفوٌ تحب العفو فاعف عني» وقوله في دعائه الذي كان لا يدعه: وإن دعا بدعاء أردفه إياه «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة. وقنا عذاب النار».

وقد أنشئ الله تعالى على خاصته. وهم أولو الألباب، بأنهم سألو: أن يقيمهم عذاب النار. فقالوا (٣: ١٩١) ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه. ففنا عذاب النار. وقال صلى الله عليه وسلم لأم حبيبة «لو سألت الله أن يغيرك من عذاب النار لكان خيراً لك» و«كان يستعيز كثيراً من عذاب النار. ومن عذاب القبر» و«أمر المسلمين: أن يستعذوا في تشهدهم من عذاب القبر، وعذاب النار. وفتنة المحيا والممات. وفتنة المسيح الدجال» حتى قيل: إن هذا الدعاء واجب في الصلاة. لا تصح إلا به. قاله ابن حزم وغيره. وهذا اعظم من أن نستعصيه.

وفي المسند عنه صلى الله عليه وسلم قال «ما سئل الله شيئاً أحب إليه من سؤال العفو والعافية» وقال لبعض أصحابه «ما تقول إذا صليت؟ فقال: أسأل الله الجنة. وأعوذ به من النار، أما إني لا أحسن ذنبتك، ولا ذنبة معاذ. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنا حولها نذندن».

● الرجاء الولود

وكما أن الرجاء يُبرد حرارة الخوف، فإن له فوائد كثيرة أخر مشاهدة. ومنها: إظهار العبودية والفاقة، والحاجة إلى ما يرجوه من ربه. ويستشفه من إحسانه، وأنه لا يستغنى عن فضله وإحسانه طرفة عين. ومنها: أنه سبحانه يحب من عباده أن يؤملوه ويرجوه. ويسألوه من فضله. لأنه الملك الحق الجواد، أجود من سئل، وأوسع من أعطى. وأحب ما إلى الجواد: أن يرجى، ويؤمل ويسأل. وفي الحديث «من لم يسأل الله يغضب عليه» والسائل راج وطالب. فمن لم يرج الله يغضب عليه.

فهذه فائدة أخرى من فوائد الرجاء. وهي التخلص به من غضب الله. ومنها: أن الرجاء حاد يحدوه في سيره إلى الله. ويطيب له المسير. ويحث عليه. ويبعث على ملازمته. فلولا الرجاء لما سار أحد. فإن الخوف وحده لا يحرك العبد. وإنما يحركه الحب. ويزعجه الخوف. ويحدوه الرجاء.

ومنها: أن الرجاء يطرحه على عتبة المحبة. ويلقيه في دلهيزها. فإنه كلما اشتد رجاءه وحصل له ما يرجوه ازداد حباً لله تعالى، وشكراً له، ورضاً به وعنه. ومنها: أنه يبعث على أعلى المقامات. وهو مقام الشكر، الذي هو خلاصة العبودية. فإنه إذا حصل له مرجوه كان أدعى لشكره.

ومنها: أنه يوجب له المزيد من معرفة الله وأسمائه ومعانيها، والتعلق بها. فإن الراجي متعلق بأسمائه الحسنی، متعبد بها داع بها. قال الله تعالى (٧: ١٨٠) ولله الأسماء الحسنی فادعوه بها) فلا ينبغي أن يعطل دعاؤه بأسمائه الحسنی التي هي أعظم ما يدعوا بها الداعي. فالقلق في مقام الرجاء تعطيل لعبودية هذه الاسماء، وتمطيل للدعاء بها. ومنها: أن المحبة: لا تنفك عن الرجاء — كما تقدم — فكل واحد منهما يمتد الآخر ويقويه.

ومنها: أن الخوف مستلزم للرجاء. والرجاء مستلزم للخوف. فكل راج خائف. وكل خائف راج. ولأجل هذا حسن وقوع الرجاء في موضع يحسن فيه وقوع الخوف. قال الله تعالى (١٣: ٧١) ما لكم لا ترجون لله وقارا؟ قال كثير من المفسرين: المعنى ما لكم لا تخافون لله عظمة؟ قالوا: والرجاء بمعنى الخوف.

والتحقيق: أنه ملازم له. فكل راج خائف من فوات مرجوه. والخوف بلارضاء يأس وقنوط. وقال تعالى (١٤: ٤٥) قل للذين آمنوا يتقوا للذين لا يرجون أيام الله) قالوا في تفسيرها: لا يخافون وقائع الله بهم، كوقائعه من قبلهم من الأمم. ومنها: أن العبد إذا تعلق قلبه برباء ربه، فأعطاه مارجاء: كان ذلك ألطف موقعا، وأحل عند العبد. وأبلغ من حصول ما لم يرجه. وهذا أحد الأسباب والحكم في جعل المؤمنين بين الرجاء والخوف في هذه الدار. فقل قدر رجائهم وخوفهم يكون فرحهم في القيامة بمحصل مرجوهم واندفاع تخوفهم.

ومنها: أن الله سبحانه وتعالى يريد من عبده تكميل مراتب عبوديته: من الذل والانكسار والتوكل والاستمانة، والخوف والرجاء والصبر والشكر، والرضا والإنابة وغيرها. ولهذا قدر عليه الذنب وابتلاه به، لتكامل مراتب عبوديته بالتوبة التي هي من أحب عباديات عبده إليه، فكذا تكميلها بالرجاء والخوف.

ومنها: أن في الرجاء — من الانتظار والترقب والتوقع لفضل الله — ما يوجب تعلق القلب بذكره، ودوام الالتفات إليه بملاحظة أسمائه وصفاته. وتنقل القلب في رياضها الأنيقة، وأخذه بنصيبه من كل اسم وصفة — كما تقدم بيانه — فإذا فنى عن ذلك وغاب عنه: فاته حظه ونصيبه من معاني هذه الاسماء والصفات.

ومنها: ان المحب الصادق في رجائه لا بد أن يقارنه أحيانا فرح محبوبه. ويشد فرحه به. ويرى مواقع لطفه به، وبره به، وإحسانه إليه، وحسن دفاعه عنه، والتلطف في إيصاله النافع

والمسار والمباراة إليه بكل طريق، ودفع المضار والمكاره عنه بكل طريق. وكلما فتش عن ذلك اطلع منه على أمور عجيبة. لا يقف وهمه ومقتبسه لها على غاية. بل ما خفى عنه منها أعظم. فيدخله من شهود هذه الحالة نوع انبساط.

ولا ينكر فرح القلب بالرب تعالى وسروره به، وابتهاجه وقره عينه، ونعيمه بحبه، والشوق إلى لقائه: إلا كثيف الحجاب، حجري الطباع.

ومنها: سرعة السير، وهذا كمن هوسائر إلى مدينة. فإذا شارفها ورآها: رأى الطريق حيثئذ واضحة إليها، واستنار له ضياؤها واتصالها بالمدينة، وكان قبل مشاهدة المدينة على علم — أو ظن — يجوز معه أن يضع عن باب المدينة. وأما الآن: فقد أمن من أن يضع عن الباب. وكذلك الراجي: إذا انقطعت عنه الموانع، واستبان له الطريق. طمع بالوصول؛ وصارت حاله حال معانين باب المدينة من حين يقع بصره عليه. وكحال معانين الشفق الأحمر قرب طلوع الشمس، حيث يتقن أن الشمس بعده.

فتستجمع له قوى الظاهر والباطن على قصد الوصول والعزم عليه، لمشاهدته ما هوسائر إليه. وهكذا عادة المسافر: أنه إذا عاين القرية التي يريد دخولها أسرع السير، وبذل الجهد. وكذلك المسابق إذا عاين الغاية: استفرغ قوى جريه وسوقه. وكذلك الصادق في آخر عمره: أقوى عزما وقصداً من أوله، لقربه من الغاية التي يجري إليها. وكذلك الراجي يتخلص من تخذيل اليأس، فيعاين نعيم الآخرة فيسرح السير. إلى فوائد أخرى كثيرة. يطالعها من أحسن تأمله وتفكره في استخراجها. وبالله التوفيق.

• قبل الافتحام شوق

واعلم أن أول الرجاء: رجاء بيعت العامل على الاجتهاد. ويولد التلذذ بالخدمة. ويوظف الطباع للسباحة بترك المناهي، فينشطه لبذل جهده لما يرجوه من ثواب ربه. فإن من عرف قدر مطلوبه هان عليه ما يبذل فيه.

وأما توليده للتلذذ بالخدمة: فإنه كلما طالع قلبه ثمرتها وحسن عاقبتها التذ بها. وهذا كبحال من يرجو الأرباح العظيمة في سفره، ويقاسي مشاق السفر لأجلها. فكلما صورها لقلبه هانت عليه تلك المشاق والتذ بها. وكذلك المحب الصادق الساعي في مرضى محبوبه الشاقة عليه، كلما تأمل ثمرة رضاه عنه وقبوله سعيه، وقربه منه: تلذ بتلك المساعي. وكلما قوى علم العبيد بإقضاء ذلك السبب إلى المسبب المطلوب، وقوى علمه بقدر المسبب وقرب السبب منه. ازداد التذاذاً بتعاطيه.

• . يبقا الطباع للسماحة بترك المناهي: فإن الطباع لها معلوم ورسوم تنقأها من العبد. ولا سمح له تركها إلا بموص هو أحب إليها من معنومها ورسومها، وأجل عندها منه وأنفع لها. فبد قوى تعلق الرجاء بهذا العوض الأفضل الأشرف: سمحت الطباع بترك تلك الرسوم وذلك معنوم. فإن النفس لا تترك محبوباً إلا لمحبوب هو أحب إليها منه. أو حذراً من مخوف هو أعظم مفسدة لها من حصول مصلحتها بذلك المحبوب. وفي الحقيقة ففراها من ذلك المخوف إشار صده المحبوب لها. فما تركت محبوباً إلا لما هو أحب إليها منه. فإن من قُدّم إليه طعام لذيد بصره و يوجب له السقم. فإنما يتركه محبة للعافية التي هي أحب إليه من ذلك الطعام. وعن من هذا الرجاء: رجاء أرباب القلوب. وهو رجاء لقاء الخالق الباعث على الاشتياق، المبغض المنغص للعيش، المزهد في الخلق.

هد الرجاء أفضل أنواع الرجاء وأعلاها. قال الله تعالى (١٨: ١١١) فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) وقال تعالى: (٢٩: ٥) من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت).

• هـ. الرجاء هو محض الإيمان وزبدته، وإليه شخصت أبصار المشتاقين. ولذلك سلاهم الله ربه بآيات أجل لقاؤه وصر لهم أجلاً يسكن نفوسهم ويطمئنها. و «الاشتياق» هو سفر القلب في طلب محبوبه.

ولا ريب أن عيش المشتاق منغص حتى يلقى محبوبه. فهناك تقر عينه. و يزول عن عيشه نغيصه وكذلك يزهد في الخلق غاية التزهد. لأن صاحبه طالب للأنس بالله والقرب منه. فهو رهد شيء في الخلق، إلا من أعانته على هذا المطلوب منهم وأوصله إليه. فهو أحب خلق الله إليه. ولا يأنس من الخلق بغيره. ولا يسكن إلى سواه. فعليك بطلب هذا الرقيق جهداً. فإن لم تضره فاتخذ الله صاحباً. ودع الناس كلهم جانباً

ت. وكر في خيفارة الحب سائر	لا تخف وحشة الطريق إذا جئت
فإذا لم تُجِبْ لصبر فصابر	وصبر خمس ساعة عن مواهم
سعيش بعد الفطام نحرك صائر	وقطيم النفس عن سواه. فكل الـ
تب صبر مؤيد بالبصائر	بـ أحد الله، إنما السير عزه
سرق يوم الحريد فوق المنياير	سـ من تلاته من ثقلهـ



(٢٠) مَنَزِلَةُ الرَّغْبَةِ

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الرغبة»
 قال الله عز وجل (٢١: ٩٠) **يَدْعُونَا رَغْبًا وَرَهْبًا** والفرق بين «الرغبة» و«الرجاء» أن
 الرجاء طمع. والرغبة طلب. فهي ثمرة الرجاء. فإنه إذا رجا الشيء طلبه. والرغبة من الرجاء
 كالهروب من الخوف. فمن رجا شيئاً طلبه ورغب فيه. ومن خاف شيئاً هرب منه.
 والمقصود: أن الراجي طالب، والخائف هارب، وأن الرغبة هي الرجاء بالحقيقة، لأن
 الرجاء ضمع يحتاج إلى تحقيق، أي: طمع في مغيب عن الراجي مشكوك في حصوله، وإن كان
 متحققاً في نفسه، كرجاء العبد دخوله الجنة، فإن الجنة متحققة لاشك فيها، وإنما الشك في
 دخوله إليها. بخلاف الرغبة، فإنها طلب، فإذا قوي الطمع صار طلباً.
 وأولها: رغبة تتولد من العلم، فتبحث على الاجتهاد المنوط بالشهود، وتصون السالك عن
 هذه الفترة والتكسل.
 فهذا الإيمان متصل بمنزلة «الاحسان»، منه يشرف عليه ويصل إليه. ولهذا كان مقترناً
 بالشهود. وذلك الشهود هو مشهد مقام الاحسان، وهو أن تعبد الله كأنك تراه، ولا مشهد للعبد
 في الدنيا أعين من هذا.
 ولو كان فوق مقام «الاحسان» مقام آخر لذكره النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل .
 ولسأله جبريل عنه. فإنه جمع مقامات الدين كلها في الإسلام والإيمان والإحسان.
 وتحقيق مقام الإحسان: أن يفنى بحبه وخوفه ورجائه، والتوكل عليه وعبادته، والتبتل إليه
 عن غيره. وليس فوق ذلك مقام يطلب إلا ما هو من عوارض الطريق.
 وتتصاعد الرغبة حتى تكون رغبة لا تبقى من المجهود مبذولاً، ولا تدع للهمة ذبولاً، ولا تترك
 غير المقصد مأولاً.
 فرغبته لا تدع من مجهوده مقدوراً له إلا بذله، ولا تدع لهمة وعزمته فتوراً ولا خوداً، وعزمته في
 مزيد، ولا تترك في قلبه نصيباً لغير مقصوده.
 فإذا اكتملت رغبته: اكتمل معها خلق «الرعاية» الإيمانية، وهي: مراعاة العلم وحفظه
 بالعمل، ومراعاة العمل بالاحسان والاخلاص، وحفظه من المفسدات، وصيانه.

ومراتب العلم والعمل ثلاثة «رواية» وهي مجرد النقل وحمل المروي و«دراية» وهي فهمه وتعلل معناه. و«رعاية» وهي العمل بموجب ما علمه ومقتضاه.

فالثقة همتهم الرواية. والعلماء همتهم الدراية. والعارفون همتهم الرعاية. وقد ذم الله من لم يرفع ما اختاره وابتدعه من الرهبانية حق رعايته. فقال تعالى (٢٦:٥٧) وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة، ورهبانية ابتدعوها - ما كتبناها عليهم - إلا ابتغاء رضوان الله. فما رعوها حق رعايتها، أي لم يفعلوها إلا لطلب رضوان الله. ودل على هذا قوله «ابتدعوها» ثم ذكر الحامل لهم والباعث على ابتداء هذه الرهبانية، وأنه هو طلب رضوان الله. ثم ذمهم بترك رعايتها. إذ من التزم لله شيئاً لم يلزمه الله إياه من أنواع القرب لزمه رعايته وإتمامه. حتى ألزم كثير من الفقهاء من شرع في طاعة مستحبة بإتمامها، وجعلوا التزامها بالشروع كالالتزام بالتذرع. كما قال أبو حنيفة ومالك وأحمد في إحدى الروايتين عنه.

وقد ابتدع النصارى الرهبانية، زاعمين أنها من سنن عيسى بن مريم وهداه عليه السلام، وكذبهم الله. وبين أنهم هم الذين ابتدعوها من عند أنفسهم. وعيسى عليه السلام يرى منها. فإنها على خلاف الفطرة التي فطر الله الناس عليها والله لا يشرع ما يصاد الفطرة، ولا يحبه. ولذلك فإنهم لم يستطيعوا - ولن يستطيعوا - أن يرفعوها حق رعايتها. لأن سنن الله لا يقدر أحد على تبديلها.

والقصد: أن الله سبحانه وتعالى ذم من لم يرفع قربة ابتدعها لله تعالى حق رعايتها. فكيف بمن لم يرفع قربة شرعها الله لعباده. وأذن بها وحث عليها؟ ومن أهم أركان الرعاية: رعاية الأعمال وفق النمط الأوسط، مع استصغارها والقيام بها من غير نظر إليها.

فأول رعاية الأعمال: العدول بها عن طرقي التفريط بالنقص، والإفراط بالزيادة، على الوجه المشروع في حدودها وصفاتها وشروطها وأوقاتها. ثم استصغارها في عينه. واستقلالها، وأن ما يليق بعظمة الله وجلاله وحقوق عبوديته أمر آخر. وأنه لم يؤفقه حقته، وأنه لا يرضى لربه بعمله، ولا بشيء منه.

وقد قيل: علامة رضا الله عنك: إعراضك عن نفسك. وعلامة قبول عملك: احتقاره واستقلاله، وصفره في قلبك. حتى إن العارف ليستغفر الله عقيب طاعته، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سلم من الصلاة استغفر الله ثلاثاً. وأمر الله عباده بالاستغفار عقيب الحج. ومدهم على الاستغفار عقيب قيام الليل. وشرع النبي صلى الله عليه وسلم عقيب الطهور التوبة والاستغفار.

ممن شهد واجب ربه ومقدار عمله، وعيب نفسه: لم يجد بداً من استغفار ربه منه، واحتقاره إياه واستصغاره.

ثم القيام بها بتوفيتها حقها، وجعلها قائمة كالشهادة القائمة، والصلاة القائمة، والشجرة القائمة على ساقها التي ليست بساقطة، من غير أن يلتفت إليها ويعددها ويذكرها، غافة العجب والبيئة بها، فيسقط من عين الله، ويحبط عمله، بل اللائق أن يتهم يقينه، وأنه لم يحصل له اليقين على الوجه الذي ينبغي، بل ما حصل له منه هو كالعارية لا الملك المستقر، ويزداد اتهاماً لنفسه وتطهيراً لها من رعونة الادعاء، وتحليصاً للقلب من نصيب الشيطان، بأن يقف مع كل خطوة بمقدار تصحيحها، نية وقصدًا وإخلاصًا ومتابعة، فلا يخطو هجماً وهمجاً، بل يقف قبل الخطو حتى يصحح الخطوة، في سمّت من الاستعداد ولطف الإدراك، ثم ينقل قدم عزمه، فإذا صحت له ونقل قدمه: انفصل عن نفسه. ولما كانت النفس محل الأكدار: كان انفصاله عنها محض الصفاء ونهاية الرعاية.

(٢١) مَنَازِلُ الْمُرَاقِبَةِ

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «المراقبة»
قال الله تعالى (٢٣٥:٥٢) واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه) وقال تعالى
(٥٢:٣٣) وكان الله على كل شيء رقيباً) وقال تعالى (٤:٥٧) وهو معكم أينما كنتم)
وقال تعالى (١٤:٩٦) ألم يعلم بأن الله يرى؟) وقال تعالى (٨:٥٢) فإنك بأعيننا) وقال
تعالى (١٩:٤٠) يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور) إذ غير ذلك من الآيات.

وفي حديث جبريل عليه السلام: أنه (سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإحسان؟
فقال له: أن تعبد الله كأنك تراه. فإن لم تكن تراه فإنه يراك). ومن هذا الحديث يتضح
أن «المراقبة» هي دوام علم العبد، وتيقنه باطلاع الحق سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه.
فاستدامته لهذا العلم واليقين: هي «المراقبة» وهي ثمرة علمه بأن الله سبحانه رقيب عليه، ناظر
إليه، سامع لقوله. وهو مطلع على عمله كل وقت وكل لحظة، وكل نفس وكل طرفة عين.
وقد قيل: من راقب الله في خواطره، عصمه في حركات جوارحه.

وقال الجنيد: من تحقق في المراقبة خاف على فوات لحظة من ربه لا غير.
وقال ذو النون: علامة المراقبة إيثار ما أنزل الله، وتعظيم ما عظم الله، وتصغير ما صغر الله.
وقال إبراهيم الخواص: المراقبة خلوص السر والعلانية لله عز وجل.
وقيل: أفضل ما يلزم الإنسان نفسه في هذه الطريق: المحاسبة والمراقبة، وسياسة عمله
بالعلم.

وقال أبوحفص لأبي عثمان النيسابوري: إذا جلست للناس فكُن واعظاً لقلبك ونفسك،
ولا يغرنك اجتماعهم عليك، فإنهم يراقبون ظاهرك، والله يراقب باطنك.
وأرباب الطريق مجمعون على أن مراقبة الله تعالى في الخواطر: سبب لحفظها في حركات
الظواهر. فمن راقب الله في سره، حفظه الله في حركاته في سره وعلانيته.
و «المراقبة» هي التعبد بأسمائه «الرقيب، الحفيظ، العظيم، السميع، البصير» فمن عقل
هذه الأسماء، وتعبد بمقتضاها: حصلت له للمراقبة.

ومن اللطف ما وصفت به المراقبة انها:

مراقبة الحق تعالى في السير اليه على الدوام، بين تعظيم مُذهِل ومداناة حاملة، وسرور باعث. فأما التعظيم المذهل فهو: امتلاء القلب من عظمة الله عز وجل، بحيث يذهله ذلك عن تعظيم غيره، وعن الالتفات إليه. فلا ينسى هذا التعظيم عند حضور قلبه مع الله. بل يستصحبه دائماً. فإن الحضور مع الله يوجب أنساً وحبّة، إن لم يقارنهما تعظيم، أورتاه خروجاً عن حدود العبودية ورعونة. فكل حب لا يقارنه تعظيم المحبوب: فهو سبب للبعد عنه، والسقوط من عينه. وبذلك تضمن الوصف خمسة أمور: سير الى الله، واستدامة هذا السير، وحضور القلب معه، وتعظيمه، والذهول بعظمته عن غيره.

وأما المداناة الحاملة فهي: الدنو الحامل له على هذه الامور الخمسة، وهذا الدنو يحمله على التعظيم الذي يذهله عن نفسه. وعن غيره. فإنه كلما ازداد قرباً من الحق ازداد له تعظيماً، وذهولاً عن سواه، وبعداً عن الخلق.

وأما السرور الباعث فهو الفرحه والتعظيم، واللذة التي يجدها في تلك المداناة فإن سرور القلب بالله وفرحه به، وقرّة العين به. لا يشبهه شيء من نعيم الدنيا أثبتة. وليس له نظير يقاس به. وهو حال من أحوال أهل الجنة. حتى قال بعض العارفين: إنه لتمرّبي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا، إنهم لفي عيش طيب.

ولاريب أن هذا السرور يبعثه على دوام السير الى الله عز وجل، وبذل الجهد في طلبه، وابتغاء مرضاته. ومن لم يجد هذا السرور، ولا شيئاً منه، قلّبتهم إيمانه وأعماله. فإن الإيمان حلاوة، من لم ينفقها فليرجع، وليقتبس نوراً يجد به حلاوة الإيمان.

وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ذوق طعم الإيمان ووجد حلاوته. فذكر الذوق والوجد، وعلقه بالإيمان. فقال «ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً» وقال «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله. ومن يكره أن يعود في الكفر. بعد إذ أنقذه الله منه — كما يكره أن يلقى في النار».

وسمعت شيخ الاسلام ابن تيمية — قدس الله روحه — يقول: إذا لم تجد للعمل حلاوة في قلبك وانتشراحاً، فاتهمه. فإن الرب تعالى شكور. يعني أنه لا بد أن يثيب العامل على عمله في الدنيا من حلاوة يجدها في قلبه. وقوة انشراح وقرّة عين فحيث لم يجد ذلك فعمله مدخول.

ذلك أن «الثواب» هو الرافع للعامل على عمله. فلأعمال عاقبة تعود على صاحبها وتتصل بحياته وجميع شؤونه. فالصلاة تنهه عن الفحشاء والمنكر. وتهذب الأخلاق وتربي أهل تربية يحبها الرب سبحانه. وهكذا الصيام يقوى العزيمة، ويمكن للنفس اللوامة، والبعوضة أن تشرق فيرى الصراط السوي فيكون من المتقين.

وهكذا كل الأعمال الصالحة فإن لها ثوابا يصلح الشؤون كلها هنا، فتسعد به الحياة في الأسرة والتجمع، كما أن أعمال السوء لها كذلك (للذين أحسنوا الحسنى) و (للذين أساءوا السوأى).

والقصد : أن السرور بالله وقربه، وقرّة العين به، تبث على الازدياد من طاعته، وتحت على الجسد في السير إليه، والانتقال الى مراقبة اخرى تحملك على الاعراض عن الاعتراض، بصيانة الباطن والظاهر. فصيانة الظاهر: بحفظ الحركات الظاهرة. وصيانة الباطن: بحفظ الخواطر والإرادات والحركات الباطنة، التي منها رفض معارضة أمره وخبره.

فيتجرد الباطن من كل شهوة وإرادة تعارض أمره، ومن كل إرادة تعارض إرادته. ومن كل شبهة تعارض خبره. ومن كل عجة تراجم محبته. وهذه حقيقة القلب السليم الذي لا ينجس إلا من شئى الله به. وهذا هو حقيقة تجريد الأبرار للمقربين العارفين. وكل تجريد سوى هذا فناقص.. وهذا تجريد أرباب العزائم.

و «الاعتراض» ثلاثة أنواع سارية في الناس. والمعصوم من عصمه الله منها. النوع الأول: الاعتراض على أسمائه وصفاته بالشبهة الباطلة، التي نفوا لأجلها ما أثبتته بنفسه، وأثبتته له رسوله صلى الله عليه وسلم. وأثبتوا مانفاه، والوا بها أعداءه. وعادوا بها أوليائه. وحرقوا بها الكلم عن مواضعه. ونسوا بها نصيباً كثيراً مما ذكروا به وتقطعوا لها أمرهم بينهم زبراً، كل حزب بما لديهم فرحون.

والعاصم من هذا الاعتراض: التسليم المحض للوحي. فإذا سلم القلب له: رأى صحة ما جاء به، وأنه الحق بصريح العقل والفطرة. فاجتمع له السمع والعقل والفطرة. وهذا أكمل الإيمان. ليس كمن الحرب قائم بين سمعه وعقله وفطرته.

النوع الثاني: الاعتراض على شرعه وأمره. وأهل هذا الاعتراض انواع: منهم: المعترضون عليه بأرائهم وأقيستهم، المتضمنة تحليل ما حرم الله سبحانه وتعالى، وتخريم ما أباحه، وإسقاط ما أوجبه، وإيجاب ما أسقطه، وإبطال ما صححه، وتصحيح ما أبطله، واعتبار ما ألغاه، وإلغاء ما اعتبره، وتقييد ما أطلقه، وإطلاق ما قيد. وهذه هي الآراء والأقيسة التي اتفق السلف قاطبة على ذمها، والتحذير منها، وصاحوا على أصحابها من أقطار الأرض. وحذروا منهم، ونفروا عنهم.

ومنهم المعترضون على حقائق الإيمان والشرع بالأذواق، والخيالات، والكشوفات الباطلة الشيطانية، المتضمنة شرع دين لم يأذن به الله، وإبطال دينه الذي شرعه على لسان رسوله، ولتعرض عن حقائق الإيمان بخدع الشيطان.

وهؤلاء في حظوظ اتخذوها ديناً، وقدموها على شرع الله ودينه. واغتالوا بها القلوب. واقتطعوا عن طريق الله. فتولد من معقول أولئك، وآراء الآخرين وأقيستهم الباطلة، وأذواق هؤلاء: خراب العالم، وفساد الوجود، وهدم قواعد الدين، وتفاقم الأمر وكاد. لولا أن الله ضمن أنه لا يزال يقوم به من يحفظه، ويبين معاله، ويحميه من كيد من يكيد.

ومنهم: أهل الاعتراض على ذلك بالسياسات الجائرة، التي لأرباب الولايات التي قدموها على حكم الله ورسوله. وحكموا بها بين عباده، وعطلوا لها وبها شرعه وعدله وحدوده.

فقال الأولون: إذا تعارض العقل والنقل: قدمنا العقل.

وقال الآخرون: إذا تعارض الأثر والقياس: قدمنا القياس.

وقال أصحاب الذوق والكشف: إذا تعارض الذوق والكشف وظاهر الشرع: قدمنا الذوق والكشف.

وقال أصحاب السياسة: إذا تعارضت السياسة والشرع قدمنا السياسة. فجعلت كل طائفة

قُبالة دين الله وشرعه طاغوتاً يتحاكمون إليه.

فهؤلاء يقولون: لكم النقل. ولنا العقل. والآخرون يقولون: أنتم أصحاب آثار وأخبار. ونحن أصحاب أقيسة وآراء وأفكار. وأولئك يقولون: أنتم أرباب الظاهر، ونحن أهل الحقائق. والآخرون يقولون: لكم الشرع. ولنا السياسة. فيألفها من بلية، غمّت فأغمّت، ورزية رُمّت فأضمت، وفئة دعت القلوب فأجابها كل قلب مفتون، وأهوية عصفت. فضمت منها الآذان، وعصيت منها العيون. عطلت لها — والله — معالم الأحكام. كما نفيت لها صفات ذي الجلال والإكرام. واستند كل قوم إلى ظلم وظلمات آرائهم، وحكموا على الله وبين عباده بمقالاتهم الفاسدة وأهوائهم. وصار لأجلها الوحي عرضة لكل تحريف وتأويل، والدين وفقاً على كل إفساد وتبديل.

النوع الثالث: الاعتراض على أفعاله وقضائه وقدره. وهذا اعتراض الجهال. وهو ما بين جلي

وخفي، وهو أنواع لا تحصى.

وهو سار في النفوس سريان الحمى في بدن المحموم. ولوتأمل العبد كلامه وأمنيته وإرادته وأحواله، لراى ذلك في قلبه عياناً. فكل نفس معترضة على قدر الله وقسمه وأفعاله، إلا نفساً قد اطمأنثت إليه وعرفته حق المعرفة التي يمكن وصول البشر إليها. فتلك حظها التسليم والانقياد. والرضا كل الرضاء.

(٢٢) مَنَازِلُ تَعْظِيمِ الْحَرَمَاتِ

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين»
منزلة «تعظيم حرمت الله عز وجل»

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ (٢٢: ٣٠) وَمَنْ يَعِظْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ قَالَ جَمَاعَةٌ مِنْ الْمُفَسِّرِينَ «حُرُمَاتِ اللَّهِ» هُنَا مَغَاضِبُهُ وَمَانِهِيُّ عَنْهُ، وَ«تَعْظِيمُهَا» تَرْكُ مَلَابَسَتِهَا. قَالَ لَلِئِثِ: حُرُمَاتِ اللَّهِ: مَا لَا يَحِلُّ انْتِهَاجُهَا. وَقَالَ قَوْمٌ: الْحُرُمَاتُ: هِيَ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ. وَقَالَ لَزَجَاجٌ: الْحُرْمَةُ مَا وَجِبَ الْقِيَامُ بِهِ، وَحَرَمُ التَّقْرِيطِ قِيَمُهُ. وَقَالَ قَوْمٌ: الْحُرُمَاتُ هُنَا الْمَنَاسِكُ، بِمَشَاعِرِ الْحَجِّ زَمَانًا وَمَكَانًا.

وَالصَّوَابُ: أَنَّ «الْحُرُمَاتِ» تَعْمُ هَذَا كَلِمَةً. وَهِيَ جَمْعُ «حُرْمَةٍ» وَهِيَ مَا يَجِبُ احْتِرَامُهُ، وَحِفْظُهُ: مِنْ أَحَقِّقِ، وَالْأَشْخَاصِ، وَالْأَزْمَةِ، وَالْأَمَاكِنِ. فَتَعْظِيمُهَا: تَوَقُّفُهَا حَقُّهَا، وَحِفْظُهَا مِنَ الْإِضَاعَةِ، وَالْخُرُوجِ مِنْ حَرَجِ الْمَخَالَفَةِ، وَجَسَارَةِ الْأَقْدَامِ عَلَيْهَا، بِتَعْظِيمِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، خَوْفًا مِنَ الْعُقُوبَةِ، وَطَلِبًا لِلْآثَرَةِ.

وَنَحْتَاجُ فِي ذَلِكَ بِأَحْوَالِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ وَالصَّدِيقِينَ، وَدَعَائِهِمْ وَسُؤَالِهِمْ، وَالشَّاءَ عَلَيْهِمْ خَوْفُهُمْ مِنَ النَّارِ، وَرَجَائُهُمْ لِلْجَنَّةِ. كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي حَقِّ خَوَاصِّ عِبَادِهِ الَّذِينَ عَبَدُوهُ لِمُشْرِكُونَ: إِنَّهُمْ يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ — كَمَا تَقَدَّمَ — وَقَالَ عَنْ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ ٩٠، ٨٩: ٢١ «وَذَكِّرْنَا إِذْ نَادَى رَبُّهُ — إِلَى أَنْ قَالَ — إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ. يَدْعُونَنا رَغْبًا وَرَهْبًا. وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ) أَي رَغْبًا فِيمَا عِنْدَنَا، وَرَهْبًا مِنْ عَذَابِنَا. وَالضَّرِيرُ، قَوْلُهُ «إِنَّهُمْ» عَائِدٌ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ الْمَذْكُورِينَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ عِنْدَ عَامَةِ الْمُفَسِّرِينَ.

وَكَذَلِكَ مَا فِي أَوَّلِ قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ (٢١: ٥١ — ٩٠) وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ — الْآيَاتِ) فَإِنَّمَا فِي ذِكْرِ هَذِهِ الْأَنْبِيَاءِ وَمَا أَحَاطَ بِهِمْ مِنْ شَدَائِدِ نَجَاهِ اللَّهِ بِهَا بِدَعَائِهِمْ وَلِجَاهِهِمْ إِلَيْهِ وَحْدَهُ رَغْبًا وَرَهْبًا.

و«الرَّغْبُ وَالرَّهْبُ» رَجَاءُ الرَّحْمَةِ، وَالْخَوْفُ مِنَ النَّارِ عِنْدَهُمْ أَجْمَعِينَ.

وَذَكَرَ سُبْحَانَهُ عِبَادَهُ، الَّذِينَ هُمْ خَوَاصُّ خَلْقِهِ. وَأَتَيْنِي عَلَيْهِمْ بِأَحْسَنِ أَعْمَالِهِمْ. وَجَعَلَ مِنْهَا: شِعَادَتَهُمْ مِنَ النَّارِ، فَقَالَ تَعَالَى (٢٥: ٦٦) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ

جهنم. إن عذابها كان غراماً. إنها ساءت مُسْتَقَرّاً ومُقَاماً) وأخبر عنهم: أنهم توسلوا إليه بإيمانهم أن ينجيهم من النار. فقال تعالى (١٦:٣) الذين يقولون ربنا إنا آتينا فأغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار) فجعلوا أعظم وسائلهم إليه: وسيلة الإيمان، وأن ينجيهم من النار. وأخبر تعالى عن سادات العارفين أول الأكياب: أنهم كانوا يسألونه جنته. ويتعبدون به من ناره. فقال تعالى (١٩٠:٣) إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لآولي الالباب — الآيات إلى آخرها) ولاخلاف أن الموعود به على ألسنة رسله: هي الجنة التي سألوها.

وقال عن خليله إبراهيم صلى الله عليه وسلم (٨٢:٢٦) والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين. رب هب لي حكماً وألحني بالصالحين. واجعلني من ورثة جنة النعيم. واغفر لأبي إنه كان من الضالين. ولا تخزني يوم يبعثون. يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم) فسأل الله الجنة، واستعاذ به من النار. وهر الخزي يوم البعث. وأخبرنا سبحانه عن الجنة: أنها كانت وعداً عليه مسؤولاً (١٦:٢٥) أي يسأله إياها عباده وأوليائه.

وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أمته: أن يسألوا له في وقت الإجابة — عقب الأذان — أعلى منزلة في الجنة. وأخبر: أن من سأله له «أجلت عليه شفاعته».

وقال له سليم الانتصاري «أما إني أسأل الله الجنة. وأستعيذ به من النار، لا أحسن ذنبتك ولا ذنبتة معاذ، فقال: أنا ومعاذ حولها قُذَّيْن».

وفي الصحيح — في حديث الملائكة السيرة الفضل عن كتاب الناس — «إن الله تعالى يسألهم عن عباد — وهو أعلم تبارك وتعالى — فيقولون: أتيناك من عند عباد لك يهللونك، ويكبرونك، وعمدونك، ومعبدونك. فيقول عز وجل: وهل رأوني؟ فيقولون: لا. يارب. ما رأوك. فيقول عز وجل: كيف لورأوني؟ فيقولون: لورأوك لكانوا لك أشد تمجيداً. قالوا: يارب. ويسألونك جنتك. فيقول: هل رأوها؟ فيقولون: لا. وعزتكم ما رأوها. فيقول: فكيف لورأوها؟ فيقولون: لورأوها لكانوا لها أشد طلباً. قالوا: ويستميذون بك من النار، فيقول عز وجل: وهل رأوها؟ فيقولون: لا وعزتكم ما رأوها. فيقول: فكيف لو رأوها؟ فيقولون: لورأوها لكانوا أشد منها هرباً. فيقول: إني أشهدكم أنني قد غفرت لهم، وأعطيتهم ما سألوها، وأعدتهم مما استعاذوا».

والقرآن والسنة مملوءان من الثناء على عباده وأوليائه بسؤال الجنة ورجائها، والاستعاذة من النار والخوف منها.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه «استعيذوا بالله من النار» وقال لمن سألته مرافقته في الجنة «أعني على نفسك بكثرة السجود».

والعمل على طلب الجنة والنجاة من النار مقصود الشارع من أمته ليكون دائماً على ذكر منهم فلا يتسولهم. ولأن الإيمان بهما شرط في النجاة. والعمل على حصول الجنة والنجاة من النار هو محض إيمان.

وقد حض النبي صلى الله عليه وسلم عليها أصحابه وأمه. فوصفها وجمالها لهم ليخطبوا، وقال «ألا مُشَقَّر للجنة؟ فإنها — ورب الكعبة — نور يتلألأ. وريحانة تهتز، وزوجة حسناء. وفاكهة نضيجة، وقصر مشيد، ونهر مُقَطَّر — الحديث — فقال الصحابة: يا رسول الله، نحن المشقَّرون ها. فقال: قولوا: إن شاء الله».

ولو ذهبت نذكر ما في السنة من قوله «من عمل كذا وكذا أدخله الله الجنة» تحريضاً على عمله لها، وإن تكون هي الباعثة على العمل: نطال ذلك جداً. وذلك في جميع الأعمال. ورسول الله صلى الله عليه وسلم يحرض، ويقول «من فعل كذا فتحت له أبواب الجنة الثمانية» و «من قال سبحان الله وبحمده غُرست له نخلة في الجنة» و «من كسا مسلماً على عرى كساء الله من حُلل الجنة» و «عائذ المريض في خرفة الجنة» والحديث مملوء من ذلك.

وأيضاً فإنه سبحانه يحب من عباده أن يسألوه جنته. ويستعيذوا به من ناره. فإنه يحب أن يُسأل. ومن لم يسأله بغضب عليه. وأعظم ما سئل «الجنة» وأعظم ما استعيذ به «من النار». قاله لطلب الجنة محبوب للرب، مرضى له. وطلبها عبودية للرب. والقيام بعبوديته كلها أولى من تعطيل بعضها.

وإذا خلا قلب من ملاحظة الجنة والنار، ورجاء هذه والمهرب من هذه: ففرت عزائمه، وضعفت همته. وهى باعثه، وكلما كان أشد طلباً للجنة، وعملأ لها: كان الباعث له أقوى، والهمة تُشد، وسمي أتم. وهذا أمر معلوم بالذوق ولو لم يكن هذا مطرباً للشارع لما وصف الجنة لنبياد، وزينها لهم، وعرضها عليهم. وأخبرهم عن تفاصيل ما تصل إليه عقولهم منها، وما عداه. أخبرهم به بجملا. كل هذا تشويقاً لهم إليها. وحثاً لهم على السعي لها سعيها.

وقد قال الله عز وجل (٢٥:١٠) والله يدعو إلى دار السلام وهذا حث على إجابة هذه الدعوة، والمبادرة إليها، والمصارعة في الإجابة.

ثم لا يخفى أن الجنة ليست اسماً لمجرد الأشجار والفواكه، والطعام والشراب، والخور العين، والأنهار والقصور. وأكثر الناس يغفلون في مسمى الجنة. فإن «الجنة» اسم لدار النعيم المطلق الكامل. ومن أعظم نعيم الجنة: التمتع بالنظر إلى وجه الله الكريم، وسماع كلامه، وقرّة العين

بالقرب منه و برضوانه . فلا نسبة للذة ما فيها من المأكول والمشروب والملبوس والصورة إلى هذه اللذة أبداً . فأيسر يسر من رضوانه : أكبر من الجنان وما فيها من ذلك . كما قال تعالى (٧٢ : ٩) ورضوان من الله أكبر وأتى به مُتَنَكِّراً في سياق الاثبات . أي أي شيء كان من رضا عن عبده : فهو أكبر من الجنة .

قليل منك يتقنني . ولكن قليلك لا يقال له قليل
وفي الحديث الصحيح — حديث الرؤية — «فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إلى وجهه» .

ولأريب أن الأمر هكذا . وهو أجل مما يخطر بالبال ، أو يدور في الخيال . ولا سيما عند فوز المحبين هناك بجميعة المحبة . فإن المرء مع من أحب . ولا تخصيص في هذا الحكم . بل هو ثابت شاهداً وغائباً .

فأي نعيم ، وأي لذة ، وأي قرة عين ، وأي فوز يداني نعيم تلك نلعية ولذتها ، وقرة العين بها ؟ .

وهل فوق نعيم قرة العين جميعة المحبوب ، الذي لا شيء أجل منه ، ولا أكمل ولا أجل : قرة عين ألبتة ؟ .

وهذا — والله — هو التَّكَمُّم الذي شمر إليه المحبون ، واللواء الذي آثم العافون . وهو روح مسمى «الجنة» وحياتها . وبه طابت الجنة . وعليه قامت .

وكذلك «النار» أعاذنا الله منها . فإن لأربابها من عذاب الحجاب عن الله وراهنته ، وغضبه وسخطه ، والبعد عنه : أعظم من التهاب النار في أجسامهم وأرواحهم . بل التهاب هذه النار في قلوبهم : هو الذي أوجب التهابها في أبدانهم . ومنها سَرَتْ إليها . فمطلوب الأنبياء والمرسلين والصديقين ، والشهداء والصالحين : هو الجنة . ومهر بهم : من النار .

وخير العباد من يريد الله ويريد ثوابه ، وهؤلاء خواص خلقه . قال الله تعالى (٢٩ : ٣٣) وَإِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدار الآخرة ، فَإِنَّ اللَّهَ آخِذٌ بِالْمَحْسَنَاتِ مِنْكُمْ أَجْراً عظيماً) فهذا خطابه لخير نساء العالمين ، أزواج نبيه صلى الله عليه وسلم . وقال الله تعالى (٩ : ١٧) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ . وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا — وهو مؤمن — فأولئك كان سعيهم مشكوراً) فأخبر أن السعى للمشكور : سعى من أراد الآخرة . وأصرح منها : قوله لخواص أوليائه — وهم أصحاب نبيه صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم — في يوم أحد (١٥٢ : ٣) مِنْكُمْ مَنْ يَرِيدُ الدُّنْيَا ، وَمِنْكُمْ مَنْ يَرِيدُ الْآخِرَةَ) فقسهم إلى هذين القسمين اللذين لا ثالث لهما .

وقد غلط من قال: فأين من يريد الله؟ فإن إرادة الآخرة عبارة عن إرادة الله تعالى ونزاهه.
فإرادة الثواب لا تنافي لإرادة الله.

• على معالم الستة ... بلا تأويل

وذروة تعظيمنا لحرمان الله تعالى: إجراء الخبر على ظاهره. وهو أن تبقى اعلام التوحيد
الخبرية على فنواهرها، لا نتكلف لها تأويل، ولا نتجاوز ظواهرها تمثيلاً.
فحفظ حرمة نصوص الاسماء والصفات: بإجراء اخبارها على ظواهرها، كما قال مالك
رحمه الله وقد سئل عن قوله تعالى (٥:٢٠ الرحمن على العرش استوى) كيف استوى؟ فأطرق
مالك. حتى علاه الرخصاء. ثم قال: الاستواء معلوم، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب،
والسؤال عنه بدعة.

ففرق بين المعنى المعلوم من هذه اللفظة. وبين «الكيف» الذي لا يعقله البشر. وهذا
الجواب من مالك رضي الله عنه شاف، عام في جميع مسائل الصفات.
فمن سأل عن قوله (٤٦:٢٠) إني معكما أسمع وأرى) كيف يسمع ويرى؟ أجيب
بهذا الجواب بعينه. فقل له: السمع والبصر معلوم، والكيف غير معقول.

وكذلك من سأل عن العلم، والحياة، والقدرة، والإرادة، والنزول، والغضب، والرضا،
والرحمة، والضحك، وغير ذلك. فمعانيها كلها مفهومة. وأما كيفيتها: فغير معقولة، إذ تعقل
الكيفية فرع العلم بكيفية الذات وكنهها. فإذا كان ذلك غير معقول للبشر، فكيف يعقل لهم
كيفية الصفات؟

والعصاة النافعة في هذا الباب: أن يوصف الله بما وصف به نفسه. وبما وصفه به رسوله
صلى الله عليه وسلم، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل. بل تثبت له
الأسماء والصفات. وتنفي عنه مشابهة المخلوقات. فيكون إثباتك متزها عن التشبيه. ونفيك
متزها عن التعطيل. فمن نفى حقيقة «الاستواء» فهو معطل. ومن شبهه باستواء المخلوق على
المخلوق فهو ممثّل. ومن قال: استواء ليس كمثل شيء. فهو الموحد المنزه.

وهكذا الكلام في السمع، والبصر، والحياة، والإرادة، والقدرة، واليد، والوجه، والرضا،
الغضب، والنزول، والضحك، وسائر ما وصف الله به نفسه.
والمراد بالتأويل المنهي عنه هاهنا: التأويل الاصطلاحي، وهو صرف اللفظ عن ظاهره
من المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح.

وقد حكى غير واحد من العلماء: إجماع السلف على تركه. ومن حكاه البغوي، وأبو المعالي
الجويني في رسالته النظامية، بخلاف ماسلكه في «شامله» و«إرشاده» ومن حكاه: سعد بن
على الزنجاني.

وقبل هؤلاء خلافت من العلماء لا يمحضهم إلا الله.

وفي ذكر عدم تجاوز ظاهرها تمثيلا إشارة لطيفة. وهي أن ظواهرها لا تقتضي التمثيل، كما
تظنه المصلحة النفاة، وأن التمثيل تجاوز لظواهرها إلى مالا تقتضيه، كما أن تأويلها تكلف،
وحمل لها على مالا تقتضيه. فهي لا تقتضي ظواهرها تمثيلا، ولا تحمل تأويلا. بل إجراء على
ظواهرها بلا تأويل ولا تمثيل. فهذه طريقة السالكين بها سواء السبيل.

(٢٣) مَنَزِلَةُ الْإِخْلَاصِ

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الإخلاص»

قال الله تعالى (٥:٩٨) وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) وقال (٣:٣٩) إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين. الا لله الدين الخالص) وقال لنبينا صلى الله عليه وسلم (١٥:١٤:٣٩) قل الله أعبد مخلصاً له ديني، فاعبدوا ما شئتم من دونه) وقال له (١٦٣، ١٦٢:٦) قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين. لا شريك له. وبذلك أمرت. وأنا أول المسلمين) وقال (٢:٦٧) الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً) قال الفضيل بن عياض: هو أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: إن العمل إذا كان خالصاً، ولم يكن صواباً، لم يقبل. وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً: لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص: أن يكون لله، والصواب: أن يكون على السنة. ثم قرأ قوله تعالى (١١٨:١٠) فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً. ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) وقال تعالى (١٢٥:٤) ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن؟) فإسلام الوجه: إخلاص القصد والعمل لله. والإحسان فيه: متابعة رسوله صلى الله عليه وسلم وستته. وقال تعالى (٢٣:٢٥) وقد معنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً) رعي الأعمال التي كانت على غير السنة. أو أريد بها غير وجه الله. قال النبي صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه «إِنَّكَ لَنْ تُخَلَّفَ، فَتَعْمَلْ عَمَلًا تَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى: إِلَّا أَزْدَدْتَ بِهِ خَيْرًا، وَدَرَجَةً وَرَفَعَةً» وفي الصحيح من حديث أنس ابن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ثَلَاثٌ لَا يَغْلُظُ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَمَنَاصِحَةُ وَلَاةِ الْأَمْرِ. وَلِزُومُ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ. فَإِنْ دَعَوْتَهُمْ تَحِيْطٌ مِنْ وَرَائِهِمْ» أي: لا يبقى فيه غُلٌّ، ولا يحمل الغُلُّ مع هذه الثلاثة، بل تنفي عنه غُلٌّ. وتُنْقِيه منه. وتخرجه عنه. فإن القلب يغل على الشرك أعظم غل. وكذلك يغل على الفتن. وعلى خروجه عن جماعة المسلمين بالبدعة والضلالة. فهذه الثلاثة تملؤه غلا ودَغَلًا. ودواء هذا الغل، واستخراج أخلاطه: بتجريد الإخلاص والنصح، ومتابعة السنة.

و «سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل: يقاتل رياء، ويقاقل شجاعة. ويقاقل حجة: أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله».

وأخبر عن أول ثلاثة تُسَمَّر بهم النار: قارئ القرآن، والمجاهد، والمتصدق بماله، الذين فعلوا ذلك ليُقَال: فلان قارئ، فلان شجاع، فلان متصدق، ولم تكن أعمالهم خالصة لله. وفي الحديث الصحيح الإلهي يقول الله تعالى «أنا أغنى الشركاء عن الشرك. من عمل عملاً أشرك فيه غيري فهو للذي أشرك به. وأنا منه بريء».

وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم، ولا إلى صوركم. ولكن ينظر إلى قلوبكم» وقال تعالى (٣٧: ٢٢) لن ينال الله لحوفها ولا دماؤها، ولكن يناله التقوى منكم).

وقد تنوعت عباراتهم في «الإخلاص» و «الصدق» والقصد واحد.

ف قيل: هو أفراد الحق سبحانه بالقصد في الطاعة.

وقيل: تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين.

وقيل: التوقي من ملاحظة الخلق حتى عن نفسك. و «الصدق» التنقي من مطابقة النفس. فالخلص لا رياء له، والصادق لا إعجاب له. ولا يتم الإخلاص إلا بالصدق، ولا الصدق إلا بالإخلاص. ولا يمتان إلا بالصبر.

وقيل: الإخلاص استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن. والرياء أن يكون ظاهره خيراً من باطنه. والصدق في الإخلاص: أن يكون باطنه أعمر من ظاهره.

وقيل: الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق. ومن تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله.

ومن كلام الفضيل: ترك العمل من أجل الناس: رياء. والعدل من أجل الناس: شرك. والإخلاص: أن يعافيك الله منهما.

قال الجنيد: الإخلاص سر بين الله وبين العبد. لا يعلمه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده. ولا هو فيميله.

وقيل لسهل: أي شيء أشد على النفس؟ فقال: الإخلاص. لأنه ليس لها فيه نصيب.

وقال بعضهم: الإخلاص أن لا تطلب على عملك شاهداً غير الله، ولا مجازياً سواه.

وقال مكحول: ما أخلص عبد قط أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه.

وقال أبو سليمان الداراني: إذا أخلص العبد انقطعت عنه كثرة الوسواس والرياء.

● مغزى الاخلاص: تنقية العمل من الشوائب

لما الهروي فجعل الإخلاص: تصفية العمل من كل شوب. أي لا يمازج عمله ما يشوبه من شوائب إرادات النفس: إما طلب التزين في قلوب الخلق، وإما طلب مدحهم، والمهرب من ذمهم، أو طلب تعظيمهم، أو طلب أموالهم، أو خدمتهم وعبيتهم، وقضائهم حوائجه، أو غير ذلك من العلل والشوائب، التي عَقْد متفرقاتها: هو إرادة ما سوى الله بعمله، كائن ما كان.

وأول درجاته عنده: إخراج رؤية العمل عن العمل. والإخلاص من طلب العوض على العمل. والنزول عن الرضا بالعمل، يعرض للعامل في عمله ثلاث آفات: رؤيته، وملاحظته، وطلب العوض عليه، ورضاه به، وسكونه إليه.

ففي هذه الدرجة يتخلص من هذه البلية قالذي يختصه من رؤية عمله: مشاهدته لمحة الله عليه، وفضله وتوقيفه له. وأنه بالله لا يتفesse، وأنه إنما أوجب عمله مشية الله لأمشيته هو، كما قال تعالى (٨١: ٩٢) وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين.

فهنا يتفesse شهود الجبر، وأنه آلة محضة، وأن فعله كحركات الأشجار، وهبوب الرياح، وأن المحرك له غيره، والفاعل فيه سواء، وأنه ميت — واليت لا يفعل شيئاً — وأنه لو دخل ونفث لم يكن من فعله الصالح شيء ألبتة. فإن النفس جاهلة ظالمة، طبعها الكسل، وإيثار الشهوات، والبطالة. وهي منبع كل شر، وماوى كل سوء. وما كان هكذا لم يصدر منه خير، ولا هو من شأنه.

فالخير الذي يصدر منها: إنما هو من الله، وبه. لامن العبد، ولا به. كما قال تعالى (٢٤: ٢١) ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً، ولكن الله يركي من يشاء) وقال أهل الجنة (٧: ٤٣) الحمد لله الذي هدانا لهذا) وقال تبارك وتعالى لرسوله صل الله عليه وسلم (١٧: ٧٤) ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً) وقال تعالى (٩: ٧) ولكن الله حَبَّبَ إليكم الإيمان. وزينه في قلوبكم — الآية).

فكل خير في العبد فهو مجرد فضل الله ومنته، وإحسانه ونعمته. وهو المحمود عليه.

والذي يختصه من رضا بعمله وسكونه إليه: أمران:

أحدهما: مطالعة غيره وآفاته، وتقصيره فيه، ومافيه من حظ النفس، ونصيب الشيطان. فقلَّ عمل من الأعمال إلا وللشيطان فيه نصيب، وإن قل. وللنفس فيه حظ. سئل النبي صل الله عليه وسلم عن الصفات الرجل في صلاته؟ فقال «هو اختلاص يختلسه الشيطان من صلاة العبد».

فإذا كان هذا التفاتٌ ظرفه أو لحظه، فكيف التفات قلبه إلى ماسوى الله؟ هذا أعظم نصيب الشيطان من العبودية.

وقال ابن مسعود «لا يجعل أحدكم للشيطان حظاً من صلاته، يرى أن حقاً عليه: أن لا ينصرف إلا عن يمينه» فجعل هذا القدر اليسير التزحزحاً ونصيباً للشيطان من صلاة العبد. فما الظن بما فوقه؟

وأما حظ النفس من العمل: فلا يعرفه إلا أهل البصائر الصادقون. الشايني: علمه بما يستحقه الرب جل جلاله: من حقوق العبودية، وآدابها الظاهرة والباطنة، وشروطها، وأن العبد أضعف وأعجز وأقل من أن يوفيها حقاً، وأن يرضى بها لربه. فالعارف لا يرضى بشيء من عمله لربه، ولا يرضى نفسه لله طريقة عين. ويستحيى من مقابلة الله بعمله. فسوء ظنه بنفسه وعمله وبفضله، وكراهته لأنفاسه وصعودها إلى الله: يحول بينه وبين الرضا بعمله، والرضا عن نفسه.

وقال بعضهم: آفة العبد: رضاء عن نفسه، ومن لم يهتم نفسه على دوام الاوقات فهو مغرور.

• عمل لا ينفي الخجل

وقيل: لا بد من الخجل من العمل، مع بذل المجهود.

فمن اخلاص العابد: «خجله» من عمله. وهوشدة حياته من الله. إذ لم يردك العمل صالحاً له، مع بذل مجهوده فيه. قال تعالى (٢٣: ٦٠) والذين يؤتوا ما آتوا وقلوبهم وجلة: أنهم إلى ربهم راجعون) قال النبي صلى الله عليه وسلم «هو الرجل يصوم، ويصلي، ويتصدق، ويتخاف أن لا يقبل منه».

فالمؤمن: جمع إحساناً في مخافة، وسوء ظن بنفسه. والمغرور: حسن الظن بنفسه مع إساءته. وخلال كل ذلك: تجعل عملك تابعاً للعلم، موافقاً له مؤتماً به. تسير بسيره وتقف بوقوفه، وتتحرك بحركته. نازلاً منازل، مرتوياً من موارده. ناظراً إلى الحكم الديني الأمرى متقيداً به، فعلاً وتركاً وطلباً وهرباً. وناظراً إلى ترتب الثواب والعقاب عليه سبباً وكسباً. ومع ذلك فتسير أنت بقلبك، مشاهداً للحكم الكوني القضائي، الذي تنطوي فيه الأسباب والمسببات، والحركات والسكنات ولا يبقى هناك غير محض المشيئة، وتفرد الرب وحده بالأفعال، ومصدرها عن إرادته ومشيئته. فيكون قائماً بالأمر والنهي: فعلاً وتركاً، سائراً بسيره، وبالقضاء والقدر: إيماناً وشهوداً وحقيقة. فهو ناظر إلى الحقيقة. قائم بالشرعية.

وهذان الأمران هما عبودية هاتين الآيتين (٢٨: ٢٩، ٢٩: ٢٨) لمن شاء منكم أن يستقيم. وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين) وقال تعالى (٧٦: ٢٩، ٣٠) إن هذه تذكرة. فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً. وما تشاءون إلا أن يشاء الله. إن الله كان عليماً حكيمًا.

فترك العمل يسير سير العلم: مشهد «لمن شاء منكم أن يستقيم» وسير صاحبه مشاهدًا للحكم: مشهد «وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين».

وهذا هو تهذيب العمل، بأن يمنح العامل فيه إلى العلم، وهو: التفاته إليه، وإصغائه إلى ما يأمر به، وتحكيمه عليه، فمتى لم يمنح إليه هذا الجنوح كان سره مذمومًا، ناقصًا، مبعثًا عن الله، فإن كل سير لا يصحبه علم: يُخاف عليه أن يكون من خدع الشيطان، وهذا القدر هو الذي أفسد على أهل الثور ثغورهم، وشردهم عن الله كل مشرد. وطردهم عنه كل مطرد. حيث لم يحكموا العلم، وأعرضوا عنه صفحا، حتى قادهم إلى الانسلاخ من حقائق الإيمان، وشرائع الإسلام.

وهم الذين قال فيهم سيد الطائفة الجنيد بن محمد — لما قيل له: أهل المعرفة يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى الله — فقال الجنيد: إن هذا كلام قوم تكلموا بإسقاط الأعمال عن الجوارح. وهو عندي عظيمة. والذي يزني ويسرق أحسن حالا من الذي يقول هذا. فإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله. وإليه رجعوا فيها. ولوبقت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة، إلا أن يحال بي دونها.

وقال: الطرق كلها مسدودة على الخلق، إلا على من اقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وسلم. وقال: من لم يحفظ القرآن، ويكتب الحديث: لا يقتدى به في طريقنا هذا. لأن طريقنا وعلمنا مقيد بالكتاب والسنة.

وقال: علمنا هذا مشيد بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. واعلم أن المعرفة الصحيحة: هي روح العلم، وإن العلم الصحيح والعمل المستقيم: هما ميزان المعرفة الصحيحة.

فهذه الأركان: هي أركان السير، وأصول الطريق التي من لم يثبت عليها سلوكه وسيره فهو مقطوع. وإن ظن أنه سائر، فسيره إما إلى عكس جهة مقصوده، وإما سير المقعد والمقيّد، وإما سير صاحب الدابة الجموح. كلما مشت خطوة إلى قدام رجعت عشرة إلى خلف.

فإن عديم الإخلاص والمتابعة: انمكس سيره إلى خلف. وإن لم يبدل جهده ويؤخذ طلبه: سار سير المقيد.

وإن اجتمعت له: فذلك الذي لا يجازى في مضمار سيره. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. والله ذو الفضل العظيم.

(٢٤) منزلة التهذيب

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «التهذيب، والتصفية». وهوسبك العبودية في كثير الامتحان طلباً لإخراج ما فيها من الخبث والفش. وأولها: تهذيب الخدمة، أن لا يتجالها جهالة. ولا يشوبها عادة، ولا يقف عندها همة. أي: تخليص العبودية، وتصفيتها من هذه الأنواع الثلاثة. وهي: غالبة الجهالة، وشوب العادة، ووقوف همة الطالب عندها.

النوع الأول: غالبة الجهال. فإن الجهالة متى خالطت العبودية، أوردتها العبد غير موردها. ووضعها في غير موضعها، وفعلها في غير مستحقها. وفعل أفعالا يعتقد أنها صلاح. وهي إفساد لخدمته وعبوديته، بأن يتحرك في موضع السكون، أو يسكن في موضع التحرك، أو يتقدم في موضع إحجام، أو يتخجم في موضع إقدام، أو يتقدم في موضع وقوف، أو يقف في موضع تقدم. ونحو ذلك من الحركات، التي هي في حق الخدمة: كحركات الثقل البغيض في حقوق الناس. فالخدمة مالم يصحبها علم ثان بآدابها وحقوقها، غير العلم بها نفسها، كانت في مظنة أن تبعد صاحبها، وإن كان مراده بها التقرب. ولا يلزم حبوط ثوابها وأجرها فهي إن لم تبعده عن الأجر والثواب أبعدته عن المنزلة والقربة. ولا تنفصل مسائل هذه الجملة إلا بمعرفة خاصة بالله وأمره، ومحبة تامة له. ومعرفة بالنفس وما منها.

النوع الثاني: شوب العادة. وهو أن يمازج العبودية حكم من أحكام عوائد النفس تكون منفذة لها، معينة عليها. وصاحبها يعتقدها قربة وطاعة، كمن اعتاد الصوم — مثلاً — وقرن عليه. فإلغى النفس، وصار لها عادة تتقاضاها أشد اقتضاء فيظن أن هذا التقاضي محض العبودية. وإنما هو تقاضي العادة.

وعلازمة هذا: أنه إذا عرض عليها طاعة دون ذلك، وأيسر منه، وأتم مصلحة: لم تؤثرها إيثارها لما اعتادته وألفته.

فاعبد الله على مقتضى أمره. لا على ما تراه من رأيك. ولا يكون الباعث لك داعي العادة. كما هو باعث من لا بصيرة له، غير أنه اعتاد أمراً فجرى عليه. ولو اعتاد ضده لكان كذلك. وحاصله: أنه لا يكون باعته على العبودية مجرد رأى، وموافقة هوى ومحبة وعادة. بل الباعث

مجرد الأمر. والرأي والمحبة والمهوى والموائد: منفذة تابعة. لا أنها مطاعة باعثة. وهذه نكتة لا يتنبه لها إلا أهل البصائر.

النوع الثالث: وقوف همة عند الخدمة. وذلك علامة ضمها وقصورها. فإن العبد المحض لا تقف همة عند خدمة. بل همة أعلى من ذلك. إذ هي طالبة لرضا مخدومه. فهو دائماً مستغفر خدمته له. ليس واقفا عندها. والقناعة تحمد من صاحبها إلا في هذا الموضع. فإنها عين الحرمان. فالمحب لا يقتنع بشيء دون محبوبه. فوقوف همة العبد مع خدمته وأجرتها: سقوط فيها وحرمان.

● تهذيب القصد

ويكمل تهذيب الخدمة بتهذيب القصد، وهو تصفيته من ذل الإكراه، وحفظه من مرض الفتور، ونصرته على قبول العلم.

وهذه ثلاثة أشياء تهذب قصد العامل وتصفيه:

أحدها: تصفيته من ذل الإكراه. أي لا يسوق نفسه إلى الله كرها. كالأجير المسخر الكلف. بل تكون دواعي قلبه وجواذبه منساقة إلى الله طوعاً وحباً وإيثاراً. كجريان الماء في منحدره. وهذه حال المحبين الصادقين. فإن عبادتهم طوعاً وحباً ورضاً. ففيها قوة حيونهم، وسرور قلوبهم، ولذة أرواحهم. كما قال النبي صلى الله عليه وسلم «وجعلت قرة عيني في الصلاة» وكان يقول «يا بلال أريخنا بالصلاة» .

فقرة عين المحب ولذته ونعيم روحه: في طاعة محبوبه. بخلاف الطمع كرها، التحمل للخدمة ثقلاً، الذي يرى أنه لولا ذل قهره لما أطاع، فهو يتحمل طاعته كالملك الذي أذله مكرهه وقاهره. بخلاف المحب الذي يعد طاعة محبوبه قوتاً ونعيماً، ولذة وسروراً فهذا ليس الحامل له ذل الإكراه.

والثاني تحفظه من مرض الفتور. أي توقيه من مرض فتور قصده، وخود تار طلبه. فإن العزم هو روح القصد، ونشاطه كالصحة له. وفتوره مرض من أمراضه. فتهديب قصده وتصفيته بحييته من أسباب هذا المرض الذي هو فتوره. وإنما يتحفظ منه بالحيثية من أسبابه. وهوان يلهو عن الفضول من كل شيء. ويحرص على ترك ما لا يعنيه. ولا يتكلم إلا فيما يرجو فيه زيادة إيمانه وحاله مع الله ولا يصحب إلا من يعينه على ذلك. فإن بل بل من لا يعينه فليدراه عنه ما استطاع، و يدفعه دفع الصائل.

الثالث: نصرة قصده على منازعات فضول العلم. ومعنى ذلك: نصرة خاطر العبودية المحضّة، والاقبال على الله بكلية القلب، وأبعاد القلب عن مجاذبات تفاريع مسائل العلم الخلافية وفضلاته التي تشوش عليه وتضعف انتباهه الى قواعد العلم الشرعي الجامعة التي بها حياة القلب واستقامة السير.

(٢٥) منزلة الاستقامة

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الاستقامة»

قال الله تعالى (٤١: ٣٠) **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا: رَبُّنَا اللَّهُ. ثُمَّ اسْتَقَامُوا، تَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ: أَنْ لَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا. وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ** وقال (٤٦: ١٣)، **١٤ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا: رَبُّنَا اللَّهُ. ثُمَّ اسْتَقَامُوا، فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** وقال لرسوله صلى الله عليه وسلم (١١: ١١٢) **فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** فبين أن الاستقامة ضد الطغيان. وهو مجاوزة الحدود في كل شيء.

وقال تعالى (٤١: ٦) **قُلْ: إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ. فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوا** وقال تعالى (٧٢: ١٦) **وَأَنْ لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَهُمْ مَاءً غَدَقًا لَنُفْتِنَهُمْ فِيهِ**

سئل صديق الأمة وأعظمها استقامة — أبو بكر الصديق رضى الله عنه — عن الاستقامة؟ فقال «أن لا تشرك بالله شيئاً» يريد الاستقامة على محض التوحيد، فإن من استقام على محض التوحيد الصادق الذى يدين به الصديق. واستقام له توحيد على العلم الصادق بأسماء الله وصفاته، وآثارها فى الأنفس والآفاق: استقام فى كل شأنه على الصراط المستقيم. فاستقام له كل عمل وكل حال.

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه «الاستقامة: أن تستقيم على الأمر والنهى. ولا تروغ وروغان الثعلب».

وقال عثمان بن عفان رضى الله عنه «استقاموا: أخلصوا العمل لله». وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه، وابن عباس رضى الله عنهما «استقاموا أدوا الفرائض»

وقال الحسن «استقاموا على أمر الله. فعملوا بطاعته، واجتنبوا معصيته». وقال مجاهد «استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى لحقوا بالله».

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: استقاموا على عبته وعبوديته، فلم يلتفتوا عنه يثمة ولا يشرة.

وفي صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله رضي الله عنه قال: قلت «يا رسول الله قل لي الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك». قال: قل آمنت بالله ثم استقم»
وفيه عن ثوبان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «استقيموا. ولن تحصوا. واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة. ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن»

والمطلوب من العبادة الاستقامة. وهي السداد. فإن لم يقدر عليها فالمقاربة. فإن نزل عنها: فالتفريط والإضاعة. كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «سددوا وقاربوا. واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل».

فجمع في هذا الحديث مقامات الدين كلها. فأمر بالاستقامة. وهي السداد، والإصابة في نيات والأقوال والأعمال.

وأخبر في حديث ثوبان: أنهم لا يطبقونها. فنقلهم إلى المقاربة. وهي أن يقربوا من الاستقامة بحسب طاقتهم: كالذي يرمى إلى الغرق، فإن لم يصبه يقاربه. ومع هذا فأخبرهم: أن الاستقامة والمقاربة لا تنجي يوم القيامة. فلا يركن أحد إلى عمله. ولا يعجب به. ولا يرى أن نجاته به. بل إنما نجاته برحمة الله وعفوه وفضله.

فالاستقامة كلمة جامعة، آخذة بمجامع الدين. وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق، والوفاء.

والاستقامة تتعلق بالأقوال، والأفعال، والأحوال، والنيات. فالاستقامة فيها: وقوعها لله. وبالله، وعلى أمر الله.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله تعالى روحه - يقول: اعظم الكرامة لزوم الاستقامة.

● اجتهد على درب السنة ... في اقتصاد

وهي عند شيخ الإسلام الهروي: الاستقامة على الاجتهاد في الاقتصاد. لا عاديًا رشم العلم، ولا متجاوزاً حدّ الإخلاص، ولا مخالفاً نهج السنة.

هذه درجة تتضمن ستة أمور: عملاً واجتهاداً فيه. وهو بذل المجهود. واقتصاد: وهو السلوك بين طرفي الإفراط، وهو الجور على النفس. والتفريط بالاضاعة. ووقفاً مع ما يرسمه العلم. وإفراد المعبود بالإرادة. وهو الإخلاص. ووقوع الأعمال على الأمر. وهو متابعة السنة.

فيهذه الأمور الستة تتم لأهل هذه الدرجة استقامتهم. وبالحروج عن واحد منها يخرجون عن الاستقامة: إما خروجاً كلياً، وإما خروجاً جزئياً.

والسلف يذكرون هذين الأصلين كثيراً، وهما الاقتصاد في الأعمال، والاعتصام بالسنة — فإن الشيطان يشم قلب العبد ويختبره. فإن رأى فيه داعية للبدعة، وإعراضاً عن كمال الانقياد للسنة: أخرجه عن الاعتصام بها. وإن رأى فيه حرصاً على السنة، وشدة طلب لها ولم يظفر به منقطعاً عنها: أمره بالاجتهاد، والجور على النفس، ومجاورة حد الاقتصاد فيها. قاتلاً له: إن هذا خير وطاعة. والزيادة والاجتهاد فيها أكمل. فلا تفتقر مع أهل الفتور. ولا تتم مع أهل النوم، فلا يزال يحشه ويحرضه. حتى يخرج عن الاقتصاد فيها. فيخرج عن حدها. كما أن الأول خاراج عن هذا الحد. فكذا هذا الآخر خاراج عن الحد الآخر، وكلا الأمرين خروج عن السُّنة إلى البدعة. لكن هذا إلى بدعة التفريط، والاضاعة. والآخر إلى بدعة المجاوزة والإسراف.

وقال بعض السلف: ما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان، إما إلى تفريط، وإما إلى مجاوزة، وهى الإفراط. ولا يبالى بأيهما ظفر: زيادة أو نقصان.

وقال النبى صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما «يا عبد الله بن عمرو، إن لكل عامل شرة. ولكل شرة فترة. فمن كانت فترة إلى سنة أفلح، ومن كانت فترة إلى بدعة خاب وخسر» قال له ذلك حين أمره بالاقتصاد في العمل. فكل الخير في اجتهاد باقتصاد، وإخلاص مقرون بالاتباع. كما قال بعض الصحابة: اقتصاد في سبيل وسنة، خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة، فأحرصوا أن تكون أعمالكم على منهاج الأنبياء عليهم السلام وستتهم.

وكذلك الرياء في الأعمال يخرج عن الاستقامة. والفتور والتواني يخرج عن أيضاً. والذي يعين العابد على هذا التمييز أن يقف في مقام الفرق، فيشهد الفرق بين الأمر والنهي، والثواب والعقاب، والموالة والمعادة، والفرق بين ما يحبه الله ويرضاه، وبين ما يبغضه ويسخطه، فهو في مقام الفرق الذي لا يحصل للعبد درجة الاسلام — فضلاً عن مقام الاحسان — إلا به.

ولا يحصل هذا إلا بالبقاء مع نور اليقظة، فهو الدوام في اليقظة، لا يطفىء نوره. بظلمة الغفلة، بل يستديم يقظته، ويرى أنه في ذلك كالمجذوب المأخوذ عن نفسه، حفظاً من الله له، لا أن هذه المواهب تحصل بتحفظه واحترازه، وليشهد أن الله هو المقيم له والمقوم، وإن استقامته وقيامه بالله، لا بنفسه ولا بطلبه.

وهذا القدر من موجبات شهود معنى اسمه «القيوم» وهو الذي قام بنفسه، فلم يحتاج إلى أحد، وقام كل شيء به، فكل ما سواه محتاج إليه.

(٢٦) مَنَزِلَةُ التَّوَكُّلِ

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «التوكل»

قال الله تعالى (٥: ٢٦) وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين وقال (١٤: ١٢) وعلى الله فتوكل المؤمنون وقال (٦٥: ٣) ومن يتوكل على الله فهو حسبه وقال عن أوليائه (٦٠: ٤) ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير وقال لرسوله (٦٧: ٢٩) قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا وقال لرسوله صلى الله عليه وسلم (٢٧: ٢٩) فتوكل على الله إنك على الحق المبين وقال له (٤: ٨١) وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً وقال له (٢٥: ٥٨) وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وقال له (٣: ١٩٥) فإذا عزم فتوكل على الله، إن الله يحب المتوكلين وقال عن أنبيائه ورسله (١٤: ١٢) وما لنا ألا نتوكل على الله؟ وقد هدانا سُبُلًا وقال عن أصحاب نبيه (٣: ١٧٣) الذين قال لهم الناس: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل وقال (٨: ٢) إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون

والقرآن مملوء من ذلك.

ومن أسمائه صلى الله عليه وسلم «المتوكل» وتوكله أعظم توكل. وقد قال الله له (٢٧: ٧٩) فتوكل على الله إنك على الحق المبين وفي ذكر أمره بالتوكل، مع إخباره بأنه على الحق: دلالة على أن الدين بمجموعه في هذين الأمرين: أن يكون العبد على الحق في قوله وعمله، واعتقاده ونيتيه، وأن يكون متوكلاً على الله وإتقاً به. فالذين كله في هذين المقامين. وقال رسل الله وأنبياءه (١٤: ١٢) وما لنا أن لا نتوكل على الله وقد هدانا سبيلنا؟ قالعبد آفته: إما من عدم الهداية، وإما من عدم التوكل. فإذا جمع التوكل إلى الهداية فقد جمع الإيمان كله. وفي الصحيحين — في حديث السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب — «هم الذين لا يشترقون، ولا يتطرون، ولا يكتنون، وعلى ربهم يتوكلون».

وفى صحيح البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال «حسبنا الله ونعم الوكيل». قالها إبراهيم على الله عليه وسلم، حين ألقى فى النار. وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا له (إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم. فزادهم إيماناً. وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل)».

وفى الصحيحين: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول «اللهم لك أسلمتُ وبك آمنت. وعليك توكلت. وإليك أنبت. وبك خاصمت. اللهم إني أعوذ بعزتك، لا إله إلا أنت: أن تضلني. أنت الحى الذى لا يموت. والجن والانس يموتون».

وفى الترمذى عن عمر رضى الله عنه مرفوعاً «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خفافاً وتروح بظاناً».

وفى السنن عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من قال — يعني إذا خرج من بيته — بسم الله. توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، يقال له: هُديت ووُقيت وكُفيت. فيقول الشيطان للشيطان آخر: كيف لك برجل قد هُدى وكفى ووفى؟».

«التوكل» تصف الدين. والنصف الثانى «الإنباء» فإن الدين استعانة وعبادة. فالتوكل هو الاستعانة، والإنباء هى العبادة. بل هو محض العبودية وخالص التوحيد، إذا قام به صاحبه حقيقة.

ولله درسيد القوم، وشيخ الطائفة سهل بن عبد الله التستري. إذ يقول: العلم كله باب من التبعّد. والتعبّد كله باب من الورع. والورع كله باب من الزهد، والزهد كله باب من التوكل. ومنزلته: أوسع المنازل وأجمعها. ولا تزال معمورة بالنازليين، لسعة متعلق التوكل، وكثرة حوائج العالمين، فأهل السموات والأرض — المكلفون وغيرهم — فى مقام التوكل، وإن تباين متعلق توكلهم. فأولياؤه وخاصته يتوكلون عليه فى الايمان، ونصرة دينه، وإعلاء كلمته، وجهاد أعدائه، وفق عيابه وتنفيذ أوامره.

ودون هؤلاء من يتوكل عليه فى استقامته فى نفسه، وحفظ حاله مع الله، فارغاً عن الناس. ودون هؤلاء من يتوكل عليه فى معلوم يناله منه. من رزق أو عافية، أو نصر على عدو، أو زوجة أو ولد، ونحو ذلك.

فأفضل التوكل: التوكل فى الواجب — أعنى واجب الحق، وواجب الخلق، وواجب النفس — وأوسعها وأنفعها: التوكل فى التأثير فى الخارج فى مصلحة دينية. أو فى دفع مفسدة دينية،

وهو توكل الأنبياء في إقامة دين الله، ودفع فساد المفسدين في الأرض، وهذا توكل ورثتهم. ثم الناس بعد في التوكل على حسب مهمهم ومقاصدهم، فمن متوكل على الله في حصول الملك، ومن متوكل في حصول رغبة.

ومن صدق توكله على الله في حصول شيء ناله. فإن كان غريباً له مرضياً كانت له فيه العاقبة المحمودة، وإن كان مسخوطاً مبنوفاً كان ما حصل له بتوكله مضرة عليه، وإن كان مباحاً حصلت له مصلحة التوكل دون مصلحة ما توكل فيه. إن لم يستمن به على طاعته. والله أعلم.

• معاني التوكل ودرجاته

فلنذكر معنى «التوكل» ودرجاته. وما قيل فيه.

قال الإمام أحمد: التوكل عمل القلب. ومعنى ذلك: أنه عمل قلبي. ليس بقول اللسان، ولا عمل الجوارح. ولا هو من باب العلوم والإدراكات.

ومن الناس: من يجعله من باب المعارف والعلوم فيقول: هو علم القلب بكفاية الرب للعبد. ومنهم: من يفسره بالسكون. وغود حركة القلب. فيقول: التوكل هو انطراح القلب بين يدي الرب، وهو ترك الاختيار والاسترسال مع مجارى الأقدار.

قال سهل: التوكل الاسترسال مع الله مع ما يريد.

ومنهم: من يفسره بالرضا. فيقول: هو الرضا بالمقدور.

وقيل: التوكل هجر العلائق، ومواصلة الحقائق.

وحقيقة الأمر: أن التوكل حال مركبة من مجموع أمور. لا تتم حقيقة التوكل إلا بها. وكل أشار إلى واحد من هذه الأمور، أو اثنين أو أكثر.

فأول ذلك: معرفة بالرب وصفاته: من قدرته، وكفايته، وقبوميته، وانتهاء الأمور إلى علمه، وصدورها عن مشيئته وقدرته. وهذه المعرفة أول درجة يضع بها العبد قدمه في مقام التوكل.

قال شيخنا رضى الله عنه: ولذا لا يصح التوكل ولا يتصور من فيلسوف. ولا من القدرية النخاسة القائلين: بأنه يكون في ملكه ما لا يشاء. ولا يستقيم أيضاً من الجهمية النفاة لصفات الرب جل جلاله. ولا يستقيم التوكل إلا من أهل الإثبات.

فأى توكل لمن يعتقد أن الله لا يعلم جزئيات العالم سفليه وعلويه؟ ولا هو فاعل باختياره؟ ولا له إرادة ومشية. ولا يقوم به صفة؟ فكل من كان بالله وصفاته أعلم وأعرف: كان توكله أصح وأقوى. والله سبحانه وتعالى أعلم.

• لانتفي الاسباب

الدرجة الثانية: إثبات في الاسباب والمسببات.
فإن من نفاها فتوكله مدخول. وهذا عكس ما يظهر في بدوات الرأي: أن إثبات الاسباب يقدر في التوكل، وأن نفيها تمام التوكل.
فاعلم أن نفاة الاسباب لا يستقيم لهم توكل أئمة. لأن التوكل من أقوى الاسباب في حصول التوكل فيه. فهو كالدعاء الذي جعله الله سبباً في حصول المدعوه. فإذا اعتقد العبد أن توكله لم ينصبه الله سبباً. ولا جعل دعاءه سبباً لنيل شيء، فقد وقع في الوهم الباطل، فإن الله سبحانه وتعالى قضى بحصول الشيع إذا اكل المرء، والري إذا شرب، فإذا لم يفعل لم يشيع ولم يرو.
وقضى بحصول الحج والوصول الى مكة إذا سافر وركب الطريق، فإذا جلس في بيته لم يصل الى مكة.
وقضى بدخول الجنة إذا أسلم، وأتى بالأعمال الصالحة. فإذا ترك الإسلام ولم يعمل الصالحات: لم يدخلها أبداً.
وقضى بطلوع الحبوب التي تزرع بشق الأرض، والقاء البذر فيها. فما لم يأت بذلك لم يحصل إلا الخيبة.
فوزان ما قاله منكرو الاسباب: أن يترك كل من هؤلاء السبب الموصل. ويقول: إن كان قضى لي وسبق في الأزل حصول الشيع، والري، والحج ونحوها. فلا بد أن يصل الي، تحركت أو سكنت، سافرت أو قعدت. وإن لم يكن قد قضى لي لم يحصل لي أيضاً، فعلت أو تركت.
فهل يعد أحد هذا من جملة المقلاء؟ وهل البهائم إلا أفقه منه؟ فإن البهيمة تسعى في السبب بالمهداية العامة.
فالتوكل من أعظم الاسباب التي يحصل بها المطلوب، ويندفع بها المكروه. فمن أنكر الاسباب لم يستقم منه التوكل. ولكن من قام التوكل: عدم الركون إلى الاسباب. وقطع علاقة القلب بها. فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها، وحال بدنه قيامه بها.
فبالاسباب محل حكمة الله وأمره ودينه. والتوكل متعلق برؤيته وقضائه وقدره. فلا تقوم عبودية الاسباب إلا على ساق التوكل. ولا يقوم ساق التوكل إلا على قدم العبودية.
بل التجرد من الاسباب جملة متمتع عقلاً وشرعاً وحساً، وما أخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء من الاسباب، وقد ظاهرين درعين يدم أحد، ولم يحضر الصف قط عريانا، كما يفعله من لا علم عنده ولا معرفة. واستأجر دليلاً مشركاً على دين قومه، يدل على طريق الهجرة.

وقد هدى الله به التهايلين. وعصمه من الناس أجمعين. وكان يدخر لأهله قوت منه وهو سيد المتوكلين. وكان اذا سافر في جهاد أو حج أو عمرة حمل الزاد والمزاد. وبيع أصحابه. وهم أولو التوكل حقاً، وأكمل المتوكلين بعدهم: هو من اشتهم رائحة توكلهم من مسيرة بعيدة، أو لحق أثراً من غيارهم.

● التجريد اساس التوكل

الدرجة الثالثة: رمخ القلب في مقام توحيد التوكل. فإنه لا يستقيم توكل العبد حتى يصح له توحيد. بل حقيقة التوكل: توحيد القلب. فما دامت فيه علائق الشرك، فتوكله معلول مدخول. وعلى قدر تجريد التوحيد: تكون صحة التوكل، فإن العبد متى التفت إلى غير الله أخذ ذلك الالتفات شعبة من شعب قلبه. فنقص من توكله يقدر ذهاب تلك الشعبة. ومن ههنا ظن من ظن أن التوكل لا يصح إلا برفض الأسباب. وهذا حق لكن رفضها عن القلب لاعت الجوارح. فالتوكل لا يتم إلا برفض الأسباب عن القلب، وتعلق الجوارح بها. فيكون منقطعاً عنها متصلاً بها. والله سبحانه وتعالى أعلم.

● اللجوء الى الله بمنحنا السكينة

الدرجة الرابعة: اعتماد القلب على الله، واستناده اليه، وسكونه اليه. بحيث لا يبقى فيه اضطراب من تشويش الأسباب، ولا سكون اليها. بل يخلع السكون اليها من قلبه. ويلبسه السكون الى مسببها. وعلامة هذا: أنه لا يباي باقبالها وادبارها. ولا يضطرب قلبه، ويتحقق عند ادبار ما يحب منها، واقبال ما يكره. لأن اعتماده على الله، وسكونه اليه، واستناده اليه، قد حصنه من خوفها ورجائها. فحال من خرج عليه عدو عظيم لا طاقة له به. فرأى حصناً مفتوحاً، فأدخله ربه إليه. وأغلق عليه باب الحصن. فهو يشاهد عدوه خارج الحصن. فاضطراب قلبه وخوفه من عدوه في هذه الحال لا معنى له.

وقد مثل ذلك بحال الطفل الرضيع في اعتماده وسكونه. وطمانيته بشد أمه لا يعرف غيره. وليس في قلبه التفات الى غيره، كما قال بعض العارفين: المتوكل كالطفل. لا يعرف شيئاً يأوى اليه إلا ثدى أمه، كذلك المتوكل لا يأوى إلا الى ربه سبحانه.

• سبحانه أهل المنّ والتفضل

الدرجة الخامسة: حسن الظن بالله عز وجل.
فعلی قدر حسن ظنك بربك ورجائك له. يكون توكلك عليه. ولذلك فسر بعضهم التوكل بحسن الظن بالله.
والتحقيق: أن حسن الظن به يدعو إلى التوكل عليه. إذ لا يتصور التوكل على من ساء ظنك به، ولا التوكل على من لا ترجوه. والله أعلم.

• استسلام

الدرجة السادسة: استسلام القلب له، وانجذاب دواعيه كلها إليه، وقطع منازعاته.
وهذا معنى قول بعضهم: التوكل إسقاط التدبير. يعني الاستسلام لتدبير الرب لك. وهذا في غير باب الأمر والتهني. بل فيما يفعله بك. لا فيما أمرك بفعله.
فإن توكل العبد هذا التوكل: أورثه علماً بأنه لا يملك قبل عمله استطاعة، ويعود لا يأمن مكر الله.
فاستطاعته بيد الله، لا بيده. فهو مالكها دونه. فإنه إن لم يقطعه الاستطاعة فهو عاجز. فهو لا يتحرك إلا بالله، لا بنفسه. فكيف يأمن المكر. وهو محرك لا محرك؟ يحركه من حركته بيده، فإن شاء تبيطه وأقعدته مع القاعدين. كما قال فيمن منعه هذا التوفيق (٩: ٤٦) ولكن كره الله انبعاثهم فنبطهم، وقيل أقعدوا مع القاعدين).

فهذا مكر الله بالعبد: أن يقطع عنه مواد توقيفه. ويخل بينه وبين نفسه. ولا يبعث دواعيه. ولا يحركه إلى مرضاه وعمايه. وليس هذا حقاً على الله. فيكون ظالماً بمنعه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. بل هو مجرد فضله الذي يحمده على بذله لمن بذله، وعلى منعه لمن منعه إياه. فله الحمد على هذا وهذا.

ومن فهم هذا فهم باباً عظيماً من سر القدر. وانجلبت له إشكالات كثيرة. فهو سبحانه لا يريد من نفسه فعلاً يفعله بعينه يقع منه ما يحبه ويرضاه. فيمنعه فعل نفسه به، وهو توقيفه. لأنه يكرهه. ويقهره على فعل مساخطه. بل يكله إلى نفسه وحوله وقوته، ويتخلى عنه. فهذا هو المكر.

• نفرض أمرنا الى الله

الدرجة السابعة: التفويض.

وهو روح التوكل وليّه وحقيقته. وهو إلقاء أموره كلها الى الله، وانزالها به طلباً واختياراً، لا كرهاً واضطراً. بل كتفويض الابن العاجز الضعيف المغلوب على أمره: كل أموره الى أبيه، العالم يشفقه عليه ورحته، وتعام كفايته، وحسن ولايته له، وتديره له. فهو يرى أن تدبير أبيه له خير من تدبيره لنفسه. وقيامه بمصالحه وتوليّه لها خير من قيامه هو بمصالح نفسه وتوليّه لها. فلا يجد له أصلح ولا أرفق من تفويضه أموره كلها الى أبيه، وراحته من حلّ كلّها ونقل حملها، مع عجزه عنها، وجهله بوجوه المصالح فيها، وعلمه بكمال علم من فوض اليه، وقدرته وشفقته. وقد جاء التفويض في القرآن، فيما حكاه عن مؤمن آل فرعون وقوله (٤٠: ٤٤) والفوض أمرى الى الله).

والمفوض لا يفوض أمره الى الله إلا لارادته أن يقضى له ما هو خير له في معاشه ومعاده. وإن كان للمقضى له خلاف ما يظنه خيراً. فهو راض به. لأنه يعلم أنه خير له. وإن خفيت عليه جهة المصلحة فيه. وهكذا حال المتوكل سواء. بل هو أرفع من المفوض. لأن معه من عمل القلب ما ليس مع المفوض. فإن المتوكل مفوض وزيادة. فلا يستقيم مقام «التوكل» إلا بالتفويض. فإنه إذا فوّض أمره اليه اعتمد بقلبه كله عليه بعد تفويضه.

ونظير هذا: أن من فوض أمره الى رجل، وجعله اليه. فإنه يجد من نفسه — بعد تفويضه — اعتماداً خاصاً، وسكوناً وطمأنينة الى المفوض اليه أكثر مما كان قبل التفويض. وهذا هو حقيقة التوكل.

• الرضا ثمرة التوكل

فإذا وضع قدمه في هذه الدرجة. انتقل منها الى درجة «الرضا».

وهي ثمرة التوكل. ومن فسر التوكل: بها. فانما فسرّه بأجلّ ثمراته، وأعظم فوائده. فإنه اذا وكل حق التوكل رضى بما يفعله وكيله.

وكان شيخنا — رضى الله عنه — يقول: المقدور يكتنفه أمران: التوكل قبله، والرضا بعده. فمن توكل على الله قبل الفعل. ورضى بالمقضى له بعد الفعل. فقد قام بالعبودية. أو معنى هذا.

قلت: وهذا معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم في دعاء الاستخارة «اللهم إني
أستخيرك بعلمك. وأستقدرك بقدرتك. وأسألك من فضلك العظيم» فهذا توكل
وتفويض. ثم قال «فإنك تعلم ولا أعلم. وتقدر ولا أقدر. وأنت علام الغيوب» فهذا تبرؤ
إلى الله من العلم والحول والقوة، وتوكل إلى سبحانه بصفاته التي هي أحب ما توكل إليه بها
المتوسلون. ثم سأل ربه أن يقضى له ذلك الأمر إن كان فيه مصلحة عاجلاً، أو أجلاً، وأن
يصرفه عنه إن كان فيه ضرره عاجلاً أو أجلاً، فهذا هو حاجته التي سألها. فلم يبق عليه إلا
الرضا بما يقضيه له. فقال «وَأَقْضِ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ. ثُمَّ رَضِيتُ بِهِ».

فقد اشتمل هذا الدعاء على هذه المعارف الإلهية، والحقائق الإيمانية، التي من جملتها:
التوكل، والتفويض، قبل وقوع المقدور، والرضا بعده. وهو ثمرة التوكل. والتفويض علامة
صحة، فإن لم يرض بما قضى له. فتفويضه معلول فاسد.

فياستكمال هذه الدرجات الثمان يستكمل العبد مقام التوكل. وثبت قدمه فيه. وهذا
معنى قول بشر الحافي: يقول أحدهم: توكلت على الله، يكذب على الله. لو توكل على الله لرضى
بما يفعله الله به.

• أوهام بعض المتوكلين

وكثيراً ما يشتبه في هذا الباب المحمود الكامل بالمذموم الناقص. فيشبه التفويض
بالإضاعة. فيضيع العبد حظه. ظناً منه أن ذلك تفويض وتوكل. وإنما هو تضييع لا تفويض.
فالتضييع في حق الله. والتفويض في حقك.

ومنه: اشتباه التوكل بالراحة، والقاء حمل الكل. فيظن صاحبه أنه متوكل.

ومنه: اشتباه خلع الأسباب بتعطيلها. فخلعها توحيد، وتعطيلها الحاد وزندقة. فخلعها عدم
اعتماد القلب عليها، وثوقه وركونه إليها مع قيامه بها. وتعطيلها إلقاؤها عن الجوارح.

ومنه: اشتباه الثقة بالله بالغرور والعجز. والفرق بينهما: أن الواثق بالله قد فعل ما أمره الله
به، وثق بالله في طواعية ثمرته، وتنميته وتزكيتها، كفارس الشجرة، وباذر الأرض. والمغتر
لعاجز: قد فرط فيما أمر به، وزعم أنه واثق بالله. والثقة إنما تصح بعد بذل المجهود.

ومنه: اشتباه الطمأنينة إلى الله والسكون إليه، بالطمأنينة إلى المعلوم، وسكون القلب إليه.
لا يميز بينهما إلا صاحب البصيرة. كما يذكر عن أبي سليمان الداراني: أنه رأى رجلاً بمكة
يشتاقل شيئاً لا شربة من ماء زمزم. فمضى عليه أيام. فقال أبو سليمان يوماً: أرايت لو غارت
زمزم، أي شيء كنت تشرب؟ فقال وقيل رأسه، وقال: جزاك الله خيراً، حيث أرشدتني. فإني
كنت أعبد زمزم منذ أيام. ثم تركه ومضى.

و كثر المتوكلين سكونهم وطمأنينتهم الى المعلوم. وهم يظنون انه الى الله. وعلامة ذلك: أنه متى انتقطع معلوم أحدهم حضره همّة وبُئس وخوفه. فعلم أن طمأنينته وسكونه لم يكن الى الله. ومنته: اشتباه علم التوكل بحال التوكل. فكثير من الناس يعرف التوكل وحقيقته وتفصيله. فيظن أنه متوكل. وليس من أهل التوكل. فحال التوكل: أمر آخر من وراء العلم به. وهذا كعمرفة المحبة والعلم بها وأسبابها ودواعيها. وحال المحب العاشق وراء ذلك. وكعمرفة علم الخوف، وحال الخائف وراء ذلك. وهو شبه بمعرفة المريض ماهية الصحة وحقيقتها وحاله بخلافها.

فهذا الباب يكثر اشتباه الدعاوي فيه بالحقائق، والموارض بالمطالب، والآفات القاطمة بالأسباب الموصلة. والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم.

● أسماء تحسنى يتعبد بها المتوكلون

«التوكل» من أهم المقامات تعلقاً بالأسماء الحسنى. فإن له تعلقاً خاصاً بعامة أسماء الأفعال، وأسماء الصفات.

فله تعلق باسم «الغفار» والتواب، والعفو، والرؤوف، والرحيم» وتعلق باسم «الفتاح، والوهاب، والرزاق، والمطي، والمحسن» وتعلق باسم «المعز، المذل، الحافظ، الرافع، المانع» من جهة توكله عليه في اذلال أعداء دينه، وخفضهم ومنعهم أسباب النصر. وتعلق بأسماء «القدرة، والارادة» وله تعلق عام بجميع الاسماء الحسنى. ولهذا فسر من الأئمة بأنه المعرفة بالله.

وإنما أراد أنه بحسب معرفة العبد يصح به سم سموس
توكله عليه أقوى.

● المهمة الواطئة توقع المتوكل في الخلا؛

وكثير من المتوكلين يكون مغبوراً في توكله. وقد توكل حقيقة التوكل وهو مغبور. كمن صرف توكله الى حاجة جزئية استفرغ فيها قوة توكله. ويمكنه نيلها بأيسر شيء. وتفرغ قلبه للتوكل في زيادة الايمان والعلم، ونصرة الدين، والتأثير في العالم خيراً. فهذا توكل العاجز القاصر المهمة. كما يصرف بعضهم همته وتوكله. ودعائه الى وجع يمكن مداواته بأدنى شيء، أو جوع يمكن زواله بنصف رغيف، أو نصف درهم، ويدع صرفه الى نصرة الدين، وقمع المبتدعين، وزيادة الايمان، ومصالح المسلمين.

وحال النبي صلى الله عليه وسلم وحال أصحابه محك الأحوال وميزانها. بها يعلم صحيحها من سقيمها. فإن همهم كانت في التوكل أهل من هم من يهدم. فإن توكلهم كان في فتح بصائر القلوب. وأن يُعيد الله في جميع البلاد، وأن يوحد جميع العباد، وأن تشرق شمس الدين الحق على قلوب العباد، فملأوا بذلك التوكل القلوب هدى وإيماناً. وفتحوا بلاد الكفر وجعلوها دار إيمان. وهبت رياح روح نسمات التوكل على قلوب أتباعهم فملأها يقيناً وإيماناً. فكانت هم الصحابة — رضى الله عنهم — أعلى وأجل من أن يصرف أحدهم قوة توكله واعتماده على الله في شيء يحصل بأدنى حيلة وسعى. فيجعله نصب عينيه، ويعمل عليه قوى توكله.

● لا إيمان لمن لا توكل له

أخبر الله سبحانه وتعالى أنه يحب المتوكلين عليه، كما يحب الشاكرين. وكما يحب المحسنين، وكما يحب الصابرين. وكما يحب التوابين. وأخبر: أن كفايته لهم مقرونة بتوكلهم عليه، وأنه كاف من توكل عليه وحسبه. وجعل لكل عمل من أعمال البر، ومقام من مقاماته جزاء معلوماً.

وجعل نفسه جزاء المتوكل عليه وكفايته. فقال (٢:٦٥) ومن يتق الله يجعل له مخرجاً (٥:٦٥) ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته (٤:٦٥) ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً (٦٩:٤) ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين — الآية). ثم قال في التوكل (٣:٦٥) ومن يتوكل على الله فهو حسبه).

فانظر الى هذا الجزاء الذي حصل للمتوكل، ولم يجعله لغيره. وهذا يدل على أن التوكل أقوى السبل عنده وأحبها إليه. وليس كونه وكل الأمور الى نفسه بناف لتوكل العبد عليه. بل هذا تحقيق كون الأمور كلها موكولة الى نفسه. لأن العبد اذا علم ذلك وتحققه معرفة: صارت حاله التوكل قطعاً على من هذا شأنه، لعلمه بأن الأمور كلها موكولة إليه، وأن العبد لا يملك شيئاً منها. فهو لا يبعد بدا من اعتماده عليه. وتفويضه إليه، وثقته به من الوجهين: من جهة فقره، وعدم ملكه شيئاً ألبته. ومن جهة كون الأمر كله بيده وإليه. والتوكل ينشأ من هذين العلمين. ولما كان الأمر كله لله عز وجل، وليس للعبد فيه شيء ألبته، كان توكله على الله تسليم الأمر من هو له، وعزل نفسه عن منازعات مالكه، واعتماده عليه فيه، وخروجه عن تصرفه بنفسه، وحوله وقوته، وكونه به، الى تصرفه بربه، وكونه به سبحانه دون نفسه. وهذا مقصود التوكل، فاذا عزل العبد نفسه عن مقام التوكل: عزلها عن حقيقة المبودية. وقد خاطب الله

بالتوكل في كتابه خواص خلقه، وأقر بهم اليه، وأكرمهم عليه، وشروا في إيمانهم أن يكونوا متوكلين، والمعلق على الشرط يعدم عند عدمه.

وهذا يدل على انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكل. فمن لا توكل له: لا إيمان له قال الله تعالى (٢٣:٥) وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) وقال تعالى (١٣:١٤) وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وقال تعالى (٢:٨) إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً، وعلى ربهم يتوكلون) وهذا يدل على انحصار المؤمنين فيمن كان بهذه الصفة.

وأخبر تعالى عن رسله بأن التوكل ملجأهم ومعادهم. وأمر به رسوله في أربعة مواضع من كتابه. وقال (١٠:٨٤، ٨٥) وقال موسى: يا قوم، ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مؤمنين * فقالوا على الله توكلنا).

(٢٧) منزلة الثقة

ومن منازل «أياك نعبد وأياك نستعين» منزلة «الثقة بالله تعالى» وهي التي لفتها الله تعالى لام موسى بقوله لها (٧: ٢٨) فإذا خفت عليه فألقيه في اليم، ولا تخافي ولا تحزني فإن فلها هذا هو عين ثقتها بالله تعالى، إذ لولا كمال ثقتها بربها لما ألقت بولدها وقلدها كبدها في تيار الماء. تتلاعب به أمواجه، وتجزياته إلى حيث ينتهي أو يقف. ومدار التفويض عليها، وهي في وسطه كحال النقطة من الدائرة. فإن النقطة هي المركز الذي عليه استدارة المحيط. ونسبة جهات المحيط إليها نسبة واحدة. وكل جزء من أجزاء المحيط مقابل لها. كذلك «الثقة» هي النقطة التي يدور عليها التفويض. كما أنها سويداء قلب التسليم، فإن القلب أشرف ما فيه سويداؤه، وهي المهجة التي تكون بها الحياة، وهي في وسطه. فلو كان «التفويض» قلباً لكانت «الثقة» سويداءه. ولو كان عينا لكانت سوادها. ولو كان دائرة لكانت نقطتها. وقد تقدم أن كثيرا من الناس يفسر «التوكل» بالثقة. ويجعله حقيقتها. ومنهم من يفسره بالتفويض. ومنهم من يفسره بالتسليم.

فعلمت: أن مقام التوكل يجمع ذلك كله. فكأن «الثقة» هي روح. و«التوكل» كالبدن الحامل لها. ونسبتها إلى التوكل كنسبة الاحسان إلى الإيمان.

وعنوانها: أمن العبد من فوت المقدور. وانتقاض المصور. فيظفر بروح الرضا، وإلا فبعين اليقين. والإفيلطف الصبر.

وذلك: أن من تحقق بمعرفة الله، وأن ما قضاه الله فلا مرد له ألبته: أمن من فوت نصيبه الذي قسمه الله له. وأمن أيضا من نقصان ما كتبه الله له، وسقطه في الكتاب المصور. فيظفر بروح الرضا أي براحته ولذته ونعيمه. لأن صاحب الرضا في راحة ولذة وسرور. كما في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إن الله — بعدله وقسطه — جعل الرِّيحَ والفرحَ في اليقين والرضا. وجعل الهم والحزن في الشك والسخط».

فإن لم يقدر العبد على «روح الرضا» ظفر «بعين اليقين» وهو قوة الايمان، ومباشرة للقلب، فيكون التسليم.

وهو نوعان: تسليم لحكمة الديني الأمرى. وتسليم لحكمة الكوني القدرى.
فأما الأول: فهو تسليم المؤمنين العارفين. قال تعالى (٦٥:٤) فلا وربك لا يؤمنون حتى يُحكّموك فيما شجر بينهم. ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً).
فهذه ثلاث مراتب: التحكيم، وسعة الصدر بانتفاء الحرج. والتسليم.
وأما التسليم للحكم الكوني: فمزلة أقدام، وتفضلة أفهام. خير الأنام، وأوقع الخصام. وهي مسألة الرضا بالقضاء. وقد تقدم الكلام عليها بما فيه كفاية. وبيننا أن التسليم للقضاء بحمد اذا لم يؤمر العبد بمنزاعته ودفعه. ولم يقدر على ذلك، كالمصائب التي لا قدرة له على دفعها.
وأما الأحكام التي أمر بدفعها: فلا يجوز له التسليم اليها، بل العبودية: مدافعتها بأحكام أخرى، أحب الى الله منها.

● فطرة تلهمنا تفهينا عن طلب الادلة

وأول التسليم: ان لا تطلب على التوحيد دليلاً.
فكيف تخرج وليك وحبيك الى أن يقيم لك الدليل على التوحيد والمعركة بحيث لا تسير اليه حتى يقيم لك دليلاً على وجوده ووحدانيته، وقدرته ومشيتة؟
ولو أن رجلاً دعاك الى داره. فقلت للرسول: لا آتى معك حتى تقيم لي الدليل على وجود من أرسلك، وأنه مطاع، وأنه أهل أن يثني بابه. لكنت في دعوى الفتنة زنيماً. فكيف بمن وجوده، ووحدانيته، وقدرته، وربوبيته والهيته: أظهر من كل دليل تطلبه؟ فما من دليل يستدل به، الا ووحدانية الله وكماله أظهر منه. فإقرار الفطر بالرب سبحانه خالق العالم: لم يوقفها عليه موقف. ولم تحتج فيه الى نظر واستدلال، ولهذا لم تدع الرسل قط الأمم الى الاقرار بالصانع سبحانه وتعالى، وإنما دعوهم الى عبادته وتوحيده. وخاطبهم خطاب من لاشبهة عنده قط في الاقرار بالله تعالى. ولا يحتاج الى الاستدلال عليه. ولهذا (١٠:١٤) قالت لهم رسلهم: أفي الله شك فاطر السموات والأرض؟ وكيف يصح الاستدلال على مدلول هو أظهر من دليله؟ حتى قال بعضهم: كيف أطلب الدليل على من هو دليل على كل شيء؟ فتقيد السائر بالدليل وتوقفه عليه، دليل على عدم يقينه. بل إنما يتقيد بالدليل الموصول الى المطلوب بعد معرفته به. فإنه يحتاج — بعد معرفته — الى دليل يوصله اليه، ويدله على طريق الوصول اليه. وهذا الدليل: هو الرسول صلى الله عليه وسلم. فهو موقوف عليه يتقيد به. لا يخطو خطوة إلا وراؤه، فيكون علمه و يقينه وتور بصيرته مغنياً له عن كثير من الادلة التي يتكلفها المتكلفون وأرباب القول. فإنه مشغول عنها بما هو أهم منها. وهو الغاية المطلوبة.

مثاله: أن المتكلم يفنى زمانه في تقرير حدوث العالم، وإثبات وجود الصانع. وذلك امر مفروغ منه عند السالك الصادق صاحب اليقين. فالذي يطلبه هذا بالاستدلال — الذي هو عرضة الشبه، والأسئلة، والارادات التي لانهاية لها — هو كشف و يقين للسالك. فتقيده في سلوكه بحال هذا المتكلم انقطاع، وخروج عن الفتوة.

وهذا حق لاينزاع فيه عارف، فشرى المتكلم يبحر في الزمان والمكان، والجواهر والأعراض، والأكوان. وحمته مقصورة عليها لايعدوها ليصل منها الى المكون وعبوديته. والسالك قد جاوزها الى جمع القلب على المكون وعبوديته بمقتضى أسمائه وصفاته. لايلتفت الى غيره. ولايشغل قلبه بسواه.

فالمتكلم متفرق مشتغل في معرفة حقيقة الزمان والمكان. والعارف قد شغ بالزمان أن يذهب ضائعا في غير السير الى رب الزمان والمكان. فصاحب التسليم لايتعلق في سيره بدليل.

• الشبهات والشهوات سبب الانقطاع

وقام «التسليم» بالخلاص من شبهة تعارض الخير، أو شهوة تعارض الأمر، أو إرادة تعارض الإخلاص، أو اعتراض يعارض القدر والشرع. وصاحب هذا التخلص: هو صاحب القلب السليم الذي لاينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به، فإن التسليم ضد المنازعة. والمنازعة: إما بشبهة فاسدة، تعارض الايمان بالخبر عما وصف الله به نفسه من صفات وأفعاله، وما أخبر به عن اليوم الآخر، وغير ذلك. فالتسليم له: ترك منازعته بشبهات التكلمير الباطلة.

وأما بشهوة تعارض امر الله عز وجل. فالتسليم للأمر: بالتخلص منها. أو إرادة تعارض مراد الله من عبده، فتعارضه إرادة تتعلق بمراد العبد من الرب. فالتسليم بالتخلص منها.

أو اعتراض يعارض حكمته في خلقه وأمره، بأن يظن أن مقتضى الحكمة خلاف ماشرع وخلاف ماقتضى وقدر. فالتسليم: التخلص من هذه المنازعات كلها. وبهذا يتبين أنه من أجل مقامات الايمان، وأعلى طرق الخاصة، وأن «التسليم» هو معطر الصديقية، التي هي بعد درجة النبوة، وأن أكمل الناس تسليما: أكملهم صديقية.

(٢٨) مَنَزِلَةُ الصَّبْرِ

ومن منازل «اياك نعبد واياك نستعين» منزلة الصبر.
قال الامام أحمد رحمه الله تعالى: الصبر في القرآن في نحو تسعين موضعاً.
وهو واجب باجماع الأمة. وهو نصف الايمان. فإن الايمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر.

وهو مذكور في القرآن على ستة عشر نوعاً.
الأول: الأمر به. نحو قوله تعالى (٣٥:٢) يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة)
وقوله (٤٥:٢) واستعينوا بالصبر والصلاة) وقوله (٢٠٠:٣) اصبروا وصابروا) وقوله
(١٢٧:١٦) واصبر وماصبرك إلا بالله).
الثاني: النهي عن ضده كقوله (٣٥:٤٦) فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل،
ولا تستعجل لهم) وقوله (١٥:٨) ولا تؤثروهم الأديان) فإن تولية الأديان: ترك للصبر والمصابرة.
وقوله (٣٣:٤٧) ولا تبطلوا أعمالكم) فإن ابطالها ترك الصبر على إتمامها. وقوله (١٣٩:٣)
فلا تهتوا ولا تحزنوا) فإن الوهن من عدم الصبر.
الثالث: الثناء على أهله، كقوله تعالى (١٧:٣) الصابرين والصادقين — الآية) وقوله
(١٧٦:٢) والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس. أولئك الذين صدقوا. وأولئك
هم المتقون) وهو كثير في القرآن.

الرابع: إيجابه سبحانه محبته لهم. كقوله (١٤٦:٢) والله يحب الصابرين).
الخامس: إيجاب معيته لهم. وهي معية خاصة. تتضمن حفظهم ونصرهم، وتأييدهم.
ليست معية عامة. وهي معية العلم، والإحاطة. كقوله (٤٧:٨) واصبروا. إن الله مع
الصابرين) وقوله (٢٤٩:٢ و٦٦:٨) والله مع الصابرين).
السادس: اخباره بأن الصبر خير لأصحابه. كقوله (١٢٦:١٦) ولئن صبرتم لهو خير
للصابرين) وقوله (٢٤:٤) وإن تصبروا خير لكم).
السابع: إيجاب الجزاء لهم بأحسن أعمالهم. كقوله تعالى (٩٦:١٦) ولنجزين الذين
صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون).

الثامن: إيجابه سبحانه الجزاء لهم بغير حساب. كقوله تعالى (٣٩:١٠) إِنَّمَا يَوْفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ).

التاسع: اطلاق البشرى لاهل الصبر. كقوله تعالى (١٥٥:٢) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ. وبشر الصابرين).

العاشر: ضمان النصر والمدا لم. كقوله تعالى (١٢٥:٣) بلى، إن تصبروا وتتقوا، ويأتوكم من فورهم هذا يُمِدْ لَكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم «واعلم أن النصر مع الصبر».

الحادي عشر: الاخبار منه تعالى بأن أهل الصبر هم أهل العزائم. كقوله تعالى (٤٣:٤٢) وَلَن صَبِرٍ وَتَغْفِرَ إِن ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ).

الثاني عشر: الاخبار أنه ما يُلْقَى الأعمال الصالحة وجزاءها والحفظ العظيمة إلا أهل الصبر، كقوله تعالى (٨٠:٢٨) وَلَكُمْ. ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً. ولا يلقاها إلا الصابرون) وقوله (٣٥:٤١) وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم).

الثالث عشر: الإخبار أنه إنما ينتفع بالآيات والعبر أهل الصبر. كقوله تعالى لموسى (٥:١٤) أَن أَخْرَجَ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ. وَذَكَّرَهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) وقوله في أهل سبأ (١٩:٣٤) فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ. وَمَرْقَنَاهُمْ كُلَّ مُقَرَّبَةٍ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) وقوله في سورة الشورى (٣٣:٤٢) وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ. إِنَّ يَسَاءَ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ).

الرابع عشر: الاخبار بأن الفوز المطلوب المحبوب، والنجاة من المكروه الرهوب، ودخول الجنة، إنما نالوه بالصبر. كقوله تعالى (٢٦:١٣) وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ. سلام عليكم بما صبرتم. فنعم عقبى الدان).

الخامس عشر: أنه يورث صاحبه درجة الامامة. سمعت شيخ الاسلام ابن تيمية — قدس الله روحه — يقول: بالصبر واليقين تنال الامامة في الدين. ثم تلا قوله تعالى (٢٤:٣٢) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا، وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ).

السادس عشر: اقتصراته بمقامات الاسلام، والايمان، كما قرنه الله سبحانه باليقين وبالايمان. وبالتقوى والتوكل. وبالشكر والعمل الصالح والرحمة.

ولهذا كان الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولايمان لمن لا صبر له. كما أنه لا جسد لمن لا رأس له. وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه «خير عيش ادركناه بالصبر» وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح «أنه ضياء» وقال «مَنْ يَتَصَبَّرْ يُصْبِرْهُ الله».

وفي الحديث الصحيح «عجباً لأمر المؤمن! إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن. إن أصابته سراء شكر. فكان خيراً له. وإن أصابته ضراء صبر. فكان خيراً له». وأمر الأنصار - رضى الله تعالى عنهم - بأن يصبروا على الأثرة التي يلقونها بعده، حتى يلقوه على الخوض.

وأمر عند ملاقاته العدو بالصبر. وأمر بالصبر عند المصيبة. وأخبر «أنه إنما يكون عند الصدمة الأولى».

وأمر صلى الله عليه وسلم المصاب بأنفع الأمور له، وهو الصبر والاحتساب. فإن ذلك يخفف مصيبته، ويؤخر أجره. والجزع والتسخط والتشكي يزيد في المصيبة، ويذهب الأجر. وأخبر صلى الله عليه وسلم أن الصبر خير كله، فقال «ما أعطي أحد عطاء خيراً له وأوسع: من الصبر».

• ارفع الصبر ما كان اختياراً

و «الصبر» في اللغة: الحبس والكف. ومنه: قُتل فلان صبراً. إذا أمسك وحبس. ومنه قوله تعالى (١٨: ٢٨) واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) أي احبس نفسك معهم.

فالصبر: حبس النفس عن الجزع والتسخط. وحبس اللسان عن الشكوى. وحبس الجوارح عن التشويش.

وهو ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله. وصبر عن معصية الله. وصبر على امتحان الله.

فالأولان: صبر على ما يتعلق بالكسب. والثالث: صبر على ما لا كسب للعبد فيه.

وسمعت شيخ الاسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها: أكمل من صبره على لقاء اخوته له في الحب، وبيعه وتفريقهم بينه وبين أبيه. فإن هذه امور جرت عليه بغير اختياره لا كسب له فيها، ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر. وأما صبره عن المعصية: فصبر اختيار ورضا، ومحاربة للنفس. ولا سيما مع الأسباب التي تقوى معها دواعي الموافقة. فإنه كان شاباً، وداعية الشباب اليها قوية. وعزياً ليس له ما يعرضه ويبرد شهوته. وغريباً، والغريب لا يستحي في بلد غربته مما يستحي منه من بين

أصحابه ومعارفه وأهله. ومملوكاً. والمملوك أيضاً ليس وازعه كوازع الحر. والمرأة جيلة. وذات منصب. وهي سيدته. وقد غاب الرقيب. وهي الداعية له الى نفسها. والحريصة على ذلك اشد الحرص، ومع ذلك توعدته ان لم يفعل: بالسجن والضار. ومع هذه الدواعي كلها: صبر اختياراً، وإيثاراً لما عند الله. وأين هذا من صبره في الحب على ما ليس من كسبه؟
وكان يقول: الصبر على أداء الطاعات: أكمل من الصبر على اجتناب المحرمات وأفضل فان مصلحة فعل الطاعة: أحب الى الشارع من مصلحة ترك المعصية. ومفسدة عدم الطاعة: أبغض اليه وأكزره من مفسدة وجود المعصية.
وله — رحمه الله — في ذلك مصنف قرره فيه بنحو من عشرين وجهاً. ليس هذا موضع ذكرها.

والمقصود: الكلام على «الصبر» وحقيقته ودرجاته ومرتبته. والله الموفق.

• مراتب الصبر

وهو على ثلاثة أنواع: صبر بالله. وصبر لله. وصبر مع الله.
فالأول: الاستعانة به، ورؤيته أنه هو المصبر، وأن صبر العبد بربه لا بنفسه. كما قال تعالى (١٦: ١٢٧) واصبر وما صبرك إلا بالله) يعني ان لم يصبرك هولم تصبر.
والثاني: الصبر لله. وهو أن يكون الباعث له على الصبر محبة الله، وأرادة وجهه، والتقرب اليه. لا لإظهار قوة النفس، والاستحسان الى الخلق، وغير ذلك من الاعراض.
والثالث: الصبر مع الله. وهو دوران العبد مع مراد الله الديني منه، ومع احكامه الدينية. صابراً بنفسه معها، سائراً بسيرها. مقيماً باقامتها. يتوجه معها أين توجهت ركائبها. وينزل معها أين استقلت مضاربها.
فهذا معنى كونه صابراً مع الله، أي قد جعل نفسه وقفاً على أوامره وعما به. وهو أشد أنواع الصبر وأصعبها. وهو صبر الصديقين.
قال الجنيد: المسير من الدنيا الى الآخرة سهل حين على المؤمن. وهجران الخلق في جنب الله شديد. والمسير من النفس الى الله صعب شديد. والصبر مع الله أشد.
وسئل عن الصبر؟ فقال: تجرع المرارة من غير تمهيس.
وقيل: تعويد النفس المهجوم على المكار.
وقيل: المقام مع البلاء بحسن الصلابة، كالمقام مع العافية.
وقال عمرو بن عثمان: هو الثبات مع الله، وتلقى بلائه بالرحب والدعة.

وقال الخواص: هو الثبات على أحكام الكتاب والسنة.

وقيل: مراتب الصابرين خمسة: صابر، ومصطبر، ومتصبر، وصبور، وصبار. فالصابر: أعمها، والمصطبر: المكتسب الصبر الملىء به. والمتصبر: المتكلف حامل نفسه عليه. والصبور: المعظم الصبر الذي صبره أشد من صبر غيره. والصبار: الكثير الصبر. فهذا في القدر والكم. ولذي قبله في الوصف والكيف.

وقيل في قوله تعالى (٣: ٢٠٠) اصبروا وصابروا ورابطوا) إنه انتقال من الأدنى الى الأعلى. فـ «الصبر» دون المصابرة. و «المصابرة» دون «المراقبة» و «المراقبة» مفاعلة من الربط وهو الشد. وسمى الرابط رابطاً: لأن الرابطين يربطون خيولهم ينتظرون الفزع. ثم قيل لكل منتظر قد ربط نفسه لطاعة ينتظرها: رابط. ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم «ألا أخبركم بما يحجر الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟ إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا الى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط فذلكم الرباط» وقال «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها».

وقيل: اصبروا بنفوسكم على طاعة الله. وصابروا بقلوبكم على البلوى في الله. ورابطوا بأسراركم على الشوق الى الله.

وقيل: اصبروا في الله. وصابروا بالله. ورابطوا مع الله.

وقيل: اصبروا على النعماء. وصابروا على البأساء والضراء. ورابطوا في دار الأعداء. وانتقوا إله الأرض والسماء. لعلكم تغلحون في دار البقاء.

«فالصبر» مع نفسك، و «المصابرة» بينك وبين عدوك. و «المراقبة» الثبات وإعداد العدة. وكما أن الرباط لزوم الثغر لئلا يهجم منه العدو. فكذلك الرباط أيضاً لزوم ثغر القلب. لئلا يهجم عليه الشيطان، فيملكه أو يخرجه أو يشغته.

وقيل: تجرّع الصبر، فإن قتلك قتلك شهيداً. وإن أحيأك أحيأك عزيزاً.

وقيل: الصبر لله غناء وبالله تعالى بقاء. وفي الله بلاء. ومنع الله وفاة. وعن الله جفاء.

والصبر على الطلب عنوان الظفر وفي المحن عنوان الفرج.

وقيل: حان العبد مع الله رباطه، وما دون الله أعداؤه.

وفي كتاب الأدب للبخاري «سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان؟ فقال:

الصبر، والسماحة» ذكره عن موسى بن اسماعيل. قال: حدثنا سويد قال: حدثنا عبد الله بن

عبيد بن عمير عن أبيه عن جده — فذكره.

وهذا من اجمع الكلام . واعظمه برهاناً وأوعبه لمقامات الايمان من أولها الى آخرها .
فإن النفس يراد منها شيطان: بذل ما أمرت به وإعطاؤه . فالحامل عليه: السامح . وترك
مانهيت عنه ، والبعد منه . فالحامل عليه: الصبر .
وقد أمر الله سبحانه وتعالى في كتابه بالصبر الجميل ، والصفح الجميل ، والمهجر الجميل ،
فسمعت شيخ الاسلام ابن تيمية — قدس الله روحه — يقول «الصبر الجميل» هو الذي
لا شكوى فيه ولا معه . و«الصفح الجميل» هو الذي لا عتاب معه . و«المهجر الجميل» هو الذي لا
أذى معه .

وقال ابن عيينة في قوله تعالى (٢٣:٣٢) وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا) قال
«أخذوا برأس الأمر فجعلهم رؤساء» .

والشكوى الى الله عز وجل لا تنافي بالصبر . فإن يعقوب — عليه السلام — وعد بالصبر
الجميل . والنبي إذا وعد لا يخلف ، ثم قال (٨٦:١٢) إنما أشكوتني وحزني إلى الله) وكذلك
أيوب أخبر الله عنه: أنه وجده صابراً مع قوله (٨٣:٢١) قسنى الضر . وأنت أرحم الراحمين) .
وإنما ينافي الصبر شكوى الله ، لا الشكوى الى الله . كما رأى بعضهم رجلاً يشكو الى آخر
فاقةً وضرورة فقال: يا هذا، تشكون من يرحمك الى من لا يرحمك؟ ثم أنشد:

وإذا عرّضك بلى فاصبر لها صبر الكريم . فإنه بك أعلم
وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

● الصعب اللذيذ

ولكن مهما تنوعت المبارات فانه لاخلاف بين اهل العلم ان اظهر معاني الصبر : حبس
النفس على المكروه ، وانه من اصعب المنازل على العامة ، واوحشها في طريق المحبة .
وانما كان صعباً على العامة: لأن العامي مبتدئ في الطريق وليس له دُرّة في السلوك ،
ولا تهذيب المرتاض بقطع المنازل . فإذا أصابته المحن أدركه الجزع وصعب عليه احتمال البلاء .
وعز عليه وجدان الصبر . لأنه ليس من أهل الرياضة . فيكون مستوطناً للصبر . ولا من أهل
المحبة ، فيلتذ بالبلاء في رضا محبوه .

وأما كونه وحشة في طريق المحبة: فلأنها تقتضي التذاذ المحب بامتحان محبوه له . والصبر
يقتضي كراهيته لذلك . وحبس نفسه عليه كرهاً . فهو وحشة في طريق المحبة .
وفي الوحشة نكسة لطيفة . لأن الالتذاذ بالمحنة في المحبة هو من موجبات أنس القلب

بالمحبوب . فإذا أحس بالألم — بحيث يحتاج الى الصبر — انتقل من الانس الى الوحشة . ولولا الوحشة لما أحس بالألم المستدعى للصبر .

والصبر من آكد المنازل في طريق المحبة ، وأزهرها للمحبين . وهم أحوج الى منزلته من كل منزلة . وهو من أعرف المنازل في طريق التوحيد وأبينها .

وحاجة المحب اليه ضرورية .

فان قيل : كيف تكون حاجة المحب اليه ضرورية ، مع منافاته لكمال المحبة . فانه لا يكون الا مع منازعات النفس لمراد المحبوب ؟ .

قيل : هذه هي النكته التي لأجلها كان من آكد المنازل في طريق المحبة وأعلتها بها . وبه يعلم صحيح المحبة من معلوها ، وصادقها من كاذبها . فإن بقوة الصبر على المكاره في مراد المحبوب يعلم صحة محبته .

ومن ههنا كانت عجة أكثر الناس كاذبة . لأنهم كلهم ادعوا عجة الله تعالى . فعين امتحنهم بالمكاره انخلوا عن حقيقة المحبة . ولم يثبت معه إلا الصابرون . فلولا تحمل المشاق ، وتحشم المكاره بالصبر : لما ثبتت صحة محبتهم . وقد تبين بذلك أن أعظمهم عجة أشدهم صبراً . ولهذا وصف الله تعالى بالصبر خاصة أوليائه وأحبابه . فقال عن حبيبه أيوب (٤٤ : ٣٨) إنا وجدناه صابراً ثم أنشئ عليه . فقال (نعم العبد . إنه أواب) .

وأمر أحب الخلق اليه بالصبر لحكمه ، وأخبر أن صيره به . وانشئ على الصابرين أحسن الشفاء . وضمن لهم أعظم الجزاء . وجعل أجر غيرهم محسوباً ، وأجرهم بغير حساب . وقرن الصبر بمقامات الاسلام ، والايمان ، والاحسان — كما تقدم — فجعله قرين اليقين ، والتوكل ، والايمان ، والأعمال ، والتقوى .

وأخبر أن آياته انما ينتفع بها أولو الصبر . وأخبر أن الصبر خير لأهله . وأن الملائكة تسلم عليهم في الجنة بصبرهم ، كما تقدم ذلك .

وليس في استكراه النفوس لألم ماتصبر عليه ، واحساسها به ، ما يقدح في محبتها ولا توحيدها . فان احساسها بالألم ، ونفرتها منه : أمر طبيعي لها . كاتقضاها للغذاء من الطعام والشراب . وتألمها بفقد . فلوازم النفس لاسبيل الى اعدامها أو تعطيلها بالكلية . وإلا لم تكن نفساً إنسانية . ولا رفعت المحنة . وكانت عالماً آخر .

و«الصبر» و«المحبة» لا يتناقضان . بل يتواحيان ويتصاحبان بلى علة الصبر في الحقيقة : المناقضة للمحبة ، المزاحة للتوحيد — أن يكون الباعث عليه غير إرادة رضا

المحبوب. بل إرادة غيره، أو مزاحته بإرادة غيره، أو المراد منه. لامراده. هذه هي وحشة الصبر ونكارتة.

وأما من رأى صبره بالله، وصبره لله، وصبره مع الله، مشاهداً أن صبره به تعالى لا بنفسه. فهذا لا تلحق محبته وحشة. ولا توحيده نكارة.

• الورع حياء أنبل من الورع خشية

والخوف من الوعيد جد مفيد في حل المرء على الصبر عن المعاصي والبعد عنها، والبعد عنها جد مفيد بدوره في حفظ الإيمان والابقاء عليه، فإن المعصية تنقصه، أو تذهب به، أو تذهب رونقه وبهجته، أو تطفئ نوره، أو تضعف قوته، أو تنقص ثمرته. هذا أمر ضروري بين المعصية وبين الإيمان. يُعلم بالوجود والخبر والعقل، كما صح عنه صل الله عليه وسلم «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن. ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن. ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن. ولا ينتهب ثوبا ذات شرف — يرفع اليه الناس فيها أبصارهم حين ينتهبها — وهو مؤمن. فإياكم إياكم. والتوبة معروضة بعد».

ولكن لما كان «الحياء» من شيم الأشراف، وأهل الكرم والنفوس الزكية: كان صاحبه أحسن حالا من أهل الخوف ومطالعة الوعيد.

لأن في الحياء من الله ما يدل على مراقبته وحضور القلب معه.

ولأن فيه من تعظيمه وإجلاله ما ليس في وازع الخوف.

فتمن وازعه الخوف: قلبه حاضر مع العقوبة. ومن وازعه الحياء: قلبه حاضر مع الله. والخائف مراعى جانب نفسه وحمايتها. والمستحي مراعى جانب ربه وملاحظ عظمته. وكلا المقامين من مقامات أهل الإيمان.

غير أن الحياء أقرب إلى مقام الاحسان، وألصق به، إذ أنزل نفسه منزلة من كأنه يرى الله. فنبعت ينابيع الحياء من عين قلبه وتفجرت عيونها.

وايضاً: فإن فعل الطاعة أكد من ترك المعصية، فيكون الصبر عليها فوق الصبر عن ترك المعصية في الدرجة، إذ ترك المعصية إنما كان لتكميل الطاعة، وأما المنهى عنه فإنه لما كان يُضعف المأمور به ويتفكسه: نهى عنه حماية، وصيانة لجانب الأمر. فجانب الأمر أقوى وأكد. وهو بمنزلة الصحة والحياة والنهي بمنزلة الحمية التي تتراد حفظ الصحة وأسباب الحياة. والصبر في هذه الدرجة بثلاثة أشياء: دوام الطاعة. والاخلاص فيها. ووقوعها على مقتضى العلم. وهو تحسينها علماً.

أما ترك الاخلاص فيها ، بأن يكون الباعث عليها غير وجه الله ، وإراداته ، والتعرب إليه .
فحفظاً من هذه الآفة : برعاية الاخلاص .

وأما أن لا تكون مطابقة للعلم . بحيث لا تكون على اتباع السنة . فحفظها من هذه الآفة :
بتجريد المتابعة . كما أن حفظها من تلك الآفة بتجريد القصد والارادة .

● حلاوة أجر المحنة تنسينا شدتها

أما نصبر في المحن على اذى الظالمين ، وعند النوازل والبلاء ، فإن العبد يستجلبه و يستعين
عليه بثلاثة أشياء :

إحداها : « ملاحظة حسن الجزاء » ، وعلى حسب ملاحظته والوثوق به ومطالعة يخفف حمل
البلاء ، تشهود الموض . وهذا كما يخفف على كل متحمل مشقة عظيمة حملها ، لما يلاحظه من
لذة عاقبتها وطفه بها . ولولا ذلك لتمطلت مصالح الدنيا والآخرة . وما أقدم أحد على تحمل
مشقة عجلة إلا لشمرة مؤجلة ، فالنفس موكلة بحب العاجل . وإنا خاصة العقل : تلمع
انعراق ، ومطالعة الغابات .

واجمع عقلاء كل أمة على أن النعيم لا يدرك بالنعيم . وأن من رافق الراحة : حصل على
انشقة وقت الراحة في دار الراحة ، فإن على قدر التعب تكون الراحة .

عنى قدر أهل العزم تأتي العزائم	وتأتي على قدر الكرم الكرائم
ويكبر في عين الصغير صغيها	وتصغر في عين العظيم العظائم

وقصد : أن ملاحظة حسن العاقبة تعين على الصبر فيما تتحملة باختيارك وغير اختيارك .
والثاني « انتظار الفرج » .

أى راحته ونسيمة لذته . فإن انتظاره ومطالعة وترقبه يخفف حمل المشقة . ولا سيما عند قوة
اسرجاء ، أو القطع بالفرج . فانه يجد في حشو البلاء من روح الفرج ونسيمة وراحته : ما هو من
خفي الألفاف ، وما هو فرج معجل . وبه — وبغيره — يفهم معنى اسمه « اللطيف » .

والثالث : « تهوين البلية » بأمرين .

أحدهما : أن يعد نعم الله وأياديه عنده . فاذا عجز عن عدها ، وأيس من حصرها ، هان

عليه ما هو فيه من البلاء ورأه — بالنسبة إلى أيادي الله ونعمه — كقطرة من بحر.
 الثانى: تذكر سوائف النعم التى أنعم الله بها عليه. فهذا يتعلق بالماضى. وتعداد أيادى
 المنن: يتعلق بالحال. وملاحظة حسن الجزاء، وانتظار الجزاء، وانتظار روح الفرج: يتعلق
 بالمستقبل. وأحدهما فى الدنيا. والثانى يوم الجزاء.
 ويحكى عن امرأة من العابدات أنها عثرت. فانقطعت أصبعها. فضحكت. فقال لها بعض
 من معها: أنضحكين، وقد انقطعت إصبعك؟ فقالت: أخاطبك على قدر عقلك. حلاوة أجرها
 أنستنى مرارة ذكرها. إشارة إلى أن عقله لا يحتمل ما فوق هذا المقام. من ملاحظة المبتلي.
 ومشاهدة حسن اختياره لها فى ذلك البلاء، وتلذذها بالشكر له، والرضا عنه، ومقابلة ما جاء من
 قبله بالحمد والشكر.
 ● صبر لله .. وبالله

والصبر ثلاثة أنواع:
 صبر لله. أى رجاء ثوابه، وخوف عقابه. وصبر المريدن: إما هو بالله. فهم لا يرون
 لأنفسهم صبراً، ولا قوة لهم عليه. بل حالهم التحقق بـ «لا حول ولا قوة إلا بالله» علماً ومعرفة
 وحالاً:
 فالصبر لله فوق الصبر بالله، وأعلى درجة منه وأجل. فان الصبر لله متعلق بالهيئة. والصبر
 به: متعلق برؤيته. وما تعلق بالهيئة أكمل وأعلى مما تعلق برؤيته.
 ولأن الصبر له: عبادة. والصبر به استعانة. والعبادة غاية. والاستعانة وسيلة. والغاية مرادة
 لنفسها. والوسيلة مرادة لغيرها.
 ولأن الصبر به مشترك بين المؤمن والكافر، والبر والفاجر، فكل من شهد الحقيقة الكونية
 صبر به.
 وأما الصبر له: فمتمثلة الرسل والأنبياء والصديقين، وأصحاب مشهد «إياك نعبد وإياك
 نستعين».
 ولأن الصبر له: صبر فيما هو حق له، محبوب له مرضي له. والصبر به: قد يكون فى ذلك
 وقد يكون فيما هو مسخوط له. وقد يكون فى مكروه أو مباح، فأين هذا من هذا؟
 والثالث: «الصبر على أحكامه».
 فهذا هو الصبر على أقداره، وقد عرفت بما تقدم: أن الصبر على طاعته، والصبر عن معصيته:
 أكمل من الصبر على أقداره — كما ذكرنا فى صبر يوسف عليه السلام — فان الصبر فيها صبر
 اختيار وإيثار ومحبة. والصبر على أحكامه الكونية: صبر ضرورة. وبينهما من البون ما قد
 عرفت.

وكذلك كان صبر نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام، على ما نالهم في الله
باختيارهم وفعلهم، ومقاومتهم قومهم: أكمل من صبر أيوب على ما ناله في الله من ابتلائه
وامتحانه بما ليس مسببا عن فعله.
وكذلك كان صبر اسماعيل الذبيح. وصبر أبيه إبراهيم عليهما السلام على تنفيذ أمر الله
أكمل من صبر يعقوب على فقد يوسف.
فعلمت بهذا أن الصبر لله أكمل من الصبر بالله. والصبر على طاعته والصبر عن معصيته
أكمل من الصبر على قضائه وقدره. والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(٢١) منزلة الرضا

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الرضا».

وقد اجمع العلماء على أنه مستحب، مؤكد استحبابه. واختلفوا في وجوبه. على قولين. وكان شيخ الاسلام ابن تيمية — قدس الله روحه — يذهب الى القول باستحبابه.

قال: ولم يجرى الأمر به، كما جاء الأمر بالصبر. وإنما جاء الثناء على أصحابه ومدحهم. قال: وأما ما يروى من الأثر «من لم يصبر على بلائي، ولم يرض بقضائي، فليتخذ رباً سوائى» فهذا أثر اسرائيل، ليس يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم. قلت: ولا سيما عند من يرى أنه من جملة الأحوال التي ليست بمكتسبة، بل هي موهبة محضة. فكيف يؤمر به. وليس مقدوراً عليه؟

وقال الخراسانيون: الرضا من جملة المقامات، وهو نهاية التوكل. فعل هذا: يمكن أن يتوصل العبد اليه باكتسابه. لأن الله مدح أهله، وأثنى عليهم، فدل ذلك على أنه مقدور لهم. والعراقيون قالوا: هو من جملة الاحوال، وليس كسبياً للعبد، بل هو نازلة تحمل بالقلب كسائر الأحوال.

والفرق بين المقامات والأحوال: أن المقامات عندهم من المكاسب، والأحوال مجرد المواهب. وحكمت فرقة ثالثة بين الطائفتين. منهم القشيري — صاحب الرسالة — وغيره فقالوا: يمكن الجمع بينهما، بأن يقال: بداية «الرضا» مكتسبة للعبد، وهي من جملة المقامات، وأما نهايته: فهي حال من الاحوال. والله أعلم.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم «ذاق طعم الايمان من رضى بالله رباً، وبالاسلام ديناً، وبمحمد رسولاً».

وقال «من قال حين يسمع النداء: رضيت بالله رباً، وبالاسلام ديناً، وبمحمد رسولاً. غفرت له ذنوبه».

وهذان الحديثان عليهما مدار مقامات الدين، واليهما ينتهي. وقد تضمننا الرضا بربوبيته سبحانه وألوهيته، والرضا برسوله، والالتقياد له، والرضا بدينه، والتسليم له. ومن اجتمعت له

هذه الأربعة: فهو الصديق حقاً. وهى سهلة بالدعوى واللسان. وهى من أصعب الأمور عند حقيقة الامتحان. ولا سيما إذا جاء ما يخالف هوى النفس ومرادها من ذلك: تبين أن الرضا كان لسانه به ناطقاً. فهو على لسانه لا على حاله.

فالرضا بألهيته يتضمن الرضا بحبته وحده، وخوفه، ورجائه، والانبابة والتبذل إليه، وانجذاب قوى الإرادة والحب كلها إليه. فعل الراضى بحبويه كل الرضا. وذلك يتضمن عبادته والاخلاص له.

والرضا برؤيته: يتضمن الرضا بتدبيره لعبده ويتضمن إفراذه بالترك كل عليه، والاستعانة به، والثقة به، والاعتماد عليه. وأن يكون راضياً بكل ما يفعله به.

فالأول: يتضمن رضاه بما يؤمر به. والثاني: يتضمن رضاه بما يقدر عليه.

وأما الرضا بنبىه رسولاً: فيتضمن كمال الانقياد له. والتسليم المطلق إليه، بحيث يكون أولى به من نفسه. فلا يتلقى الهدى إلا من مواقع كلماته. ولا يحاكم إلا إليه. ولا يحكم عليه غيره، ولا يرضى بحكم غيره أبنة. لافى شيء من أساء الرب وصفاته وأفعاله. ولا فى شيء من أذواق حقائق الايمان ومقاماته. ولا فى شيء من احكام ظاهرة وباطنه. لا يرضى فى ذلك بحكم غيره. ولا يرضى الا بحكمه.

وأما الرضا بدينه: فاذا قال، أو حكم. أو أمر، أو نهى: رضى كل الرضا. ولم يبق فى قلبه حرج من حكمه. وتسلم له تسليمًا. ولو كان غافلاً لمراد نفسه أو هواها، أو قول مُقلِّده هو وشيخه وطائفته.

وههنا يوحشك الناس كلهم إلا الغرباء فى العالم فاياك أن تستوحش من التفرد. فانه والله عين العزة، والصحبة مع الله ورسوله، وروح الأنس به. والرضا به رباً، ومحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً وبالاسلام ديناً.

بل الصادق كلما وجد من الاغتراب وذاق حلاوته، وتَشَمَّ روحه. قال: اللهم زدنى اغتراباً، ووحشة من العالم، وأنساً بك.. وكلما ذاق حلاوة هذا الاغتراب، وهذا التفرد: رأى الوحشة عين الأنس بالناس، والذلّ عين العزّ بهم. والجهل عين الوقوف مع آرائهم. وزبالة ذهانهم، والانقطاع عين التقيد برسومهم وأوضاعهم. فلم يؤثر بنصيبه من الله أحداً من الخلق. ولم يَبْغَ حظه من الله بموافقتهم فيما لا يُجِدَى عليه إلا الحرمان. وغايته: مودّة بينهم فى الحياة الدنيا. فاذا انقطعت الأسباب. وَحَقَّتْ الحقائق، وبُعثَ رُفُفُ القبور، وَحُصِّلَ ما فى الصدور، وبُيِّنَت السرائر، ولم يجد من دونه مولاة الحق من قوة ولا ناصر: تبين له حينئذ مواقع الربح والخسران. وما الذى يَخْفَى أو يرجح به الميزان. والله المستعان، وعليه التكلان.

والتحقيق في المسألة: أن «الرضا» كسبي باعتبار سببه، مؤهبى باعتبار حقيقته. فيمكن ان يقال بالكسب لأسبابه. فإذا تمكن في أسبابه وغرس شجرته: اجتتى ثمره الرضا. فان الرضا آخر التوكل، فمن رسخ قدمه في التوكل والتسليم والتفويض: حصل له الرضا ولا بد. ولكن لمزته وعدم اجابة أكثر النفوس له، وصعوبته عليها — لم يؤجبه الله على خلقه، رحمة بهم، وتخفيفاً عنهم. لكن نذبهم اليه. وأثنى على أهله، وأخبر أن ثوابه رضا عنهم، الذي هو أعظم وأكبر وأجل من الجنان وما فيها. فمن رضى عن ربه رضى الله عنه. بل رضا العبد عن الله من نتائج رضا الله عنه. فهو عفيف بتوحيين من رضاه عن عبده: رضا قبله، أوجب له أن يرضى عنه. ورضاه بعده. هو ثمرة رضاه عنه. ولذلك كان الرضا باب الله الاعظم، وجنة الدنيا، ومستراح المارين، وحياة المحيين، ونعيم العابدين، وقرّة عيون المشتاقين. ومن أعظم اسباب حصول الرضا: أن يلزم ما جعل الله رضاه فيه. فإنه يوصله الى مقام الرضا ولا بد.

قيل لسيحى بن معاذ: متى يبلغ العبد الى مقام الرضا؟ فقال: اذا أقام نفسه على اربعة اصول فيما يعامل به ربه، فيقول: ان اعطيتي قبلت. وان منعتي رضيت. وان تركتني عبت. وان دعوتني اجبت.

وقال الجنيد: الرضا هو صحة العلم الواصل الى القلب. فاذا باشر القلب حقيقة العلم اداه الى الرضا.

وليس «الرضا والمحبة» كالرجاء والخوف. فان الرضا والمحبة حالان من احوال اهل الجنة. لا يفارقان المتلبس بهما في الدنيا، ولا في البرزخ، ولا في الآخرة. بخلاف الخوف والرجاء، فإنهما يفارقان اهل الجنة بحصول ما كانوا يرجونه، وأمنهم بما كانوا يخافونه، وان كان رجاؤهم لما ينالون من كرامته دائماً، لكنه ليس رجاء مشوباً بشك، بل هو رجاء وثاق بوعده صادق، من حبيب قادر. فهذا لون ورجاؤهم في الدنيا لون.

• المهمة العالية شيمتها الرضا

وليس من شرط «الرضا» ألا يُحس بالألم والمكاره. بل ألا يعترض على الحكم ولا يتسخطه. ولهذا أشكل على بعض الناس الرضا بالمكروه، وطعنوا فيه، وقالوا: هذا ممتنع على الطبيعة. وانما هو الصبر، الا فكيف يجتمع الرضا والكراهية؟ وما ضدان. والمصواب: أنه لا تناقض بينهما، وان وجود التألم وكراهة النفس له لا ينافي الرضا، كرضا

المريض بشرب الدواء الكبريه، ورضا البهائم في اليوم الشديد الحر بما يناله من ألم الجوع والظمأ، ورضا المجاهد بما يحصل له في سبيل الله من ألم الجراح، وغيرها.

وطريق الرضا طريق مختصرة، قريبة جداً، موصلة الى أجل غاية. ولكن فيها مشقة. ومع هذا فليست مشقتها بأصعب من مشقة طريق المجاهدة، ولا فيها من العقبات والمفاوز ما فيها. وإنما عقبتها همة عالية. ونفس ذكية، وتوطن النفس على كل ما يرد عليها من الله.

و يسهل ذلك على العبد: علمه بضعفه وعجزه ورحمته به، وشقيقته عليه، وبره به. فإذا شهد هذا وهذا، ولم يطرح نفسه بين يديه، ويرضى به وعنه. وتنجذب دواعي حبه ورضاه كلها اليه. فنفسه نفس مطرودة عن الله، بعيدة عنه. ليست مؤهلة لقربه ومولاته، أو نفس ممتحنة مبتلاة بأصناف البلايا والمحن.

فطريق الرضا والمحبة: تُستّر العبد وهو مستلق على فراشه. فيصبح أمام الركب بمراحل. وثمره الرضا: الفرح والسرور بالرب تبارك وتعالى.

ورأيت شيخ الاسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - في المنام. فذكرت له شيئاً من أعمال القلب. وأخذت في تعظيمه ومنفحته - لا أذكره الآن - فقال: أما أنا فطريقتي: الفرح بالله، والسرور به، أو نحو هذا من العبارة.

وهكذا كانت حاله في الحياة. يبدو ذلك على ظاهره. وينادي به عليه حاله.

وقيل للحسين بن علي رضي الله عنهما: إن أبا ذر رضي الله عنه يقول: الفقر أحب الي من الغنى، والسقم أحب الي من الصحة. فقال: رحم الله أبا ذر. أما أنا، فأقول: من اتكل على حسن اختيار الله له لم يتمم غير ما اختار الله له.

وقال الفضيل بن عياض لبشر الحافي: الرضا أفضل من الزهد في الدنيا. لأن الراضي لا يمتنى فوق منزلته.

وسئل ابو عثمان عن قول النبي صلى الله عليه وسلم «أسألك الرضا بعد القضاء» فقال: لأن الرضا قبل القضاء عزم على الرضا. والرضا بعد القضاء هو الرضا.

وقيل: الرضا ارتفاع الجزع في أي حكم كان.

وقيل: رفع الاختيار. وقيل: استقبال الأحكام بالفرح.

وقيل: سكون القلب تحت مجاري الأحكام.

وكتب عمر بن الخطاب الى أبي موسى رضي الله عنهما «أما بعد، فإن الخير كله في الرضا.

فإن استطعت أن ترضى وإلا فاصبر»

والرضا ثلاثة أقسام: رضا العوام بما قسمه الله وأعطاه. ورضا الخواص بما قدره وقضاه. ورضا خواص الخواص به بدلاً من كل ما سواه.

● الرضا وليد الطمأنينة

والنفس انما تنال الرضا بالطمأنينة والسكينة، فمن درّب نفسه على الطمأنينة حصل له الرضا عن الله تعالى، ورضي الله عنه، وذلك قوله سبحانه (٢٧: ٢٧) — ٣٠ يا أيها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية، فادخلي في عبادي، وادخلي جنتي). وهذا نظير قوله تعالى (٣٢: ١٦) الذين تتوفاهم الملائكة طيبين. يقولون: سلام عليكم. ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) فإنما أوجب لهم هذا السلام من الملائكة والبشارة بقيد، وهو وفاتهم طيبين. فلم تبق الآية لغير الطيب سبيلا الى هذه البشارة. وفي وقت هذه المقالة ثلاثة أقوال للسلف. أحدهم: انه عند الموت. وهو الأشهر. قال الحسن: اذا أراد قبضها اطمأنت الى ربها. ورضيت عن الله، فيرضى الله عنها.

وقال آخرون: انما يقال لها ذلك عند البعث. هذا قول عكرمة وعطاء والضحاك وجاعة. وقال آخرون: الكلمة الأولى — وهي «ارجعي الى ربك راضية مرضية» — يقال لها عند الموت. والكلمة الثانية — وهي «فادخلي في عبادي وادخلي جنتي» — يقال لها يوم القيامة. وانصبوب ان هذا القول يقال لها عند الخروج من الدنيا، ويوم القيامة. فإن اول بعثها عند مفارقتها الدنيا. وحيثئذ فهي في الرفيق الاعلى، ان كانت مطمئنة الى الله. فأول ذلك عند الموت. وقامه ونهايته: يوم القيامة، فلا اختلاف في الحقيقة.

● الرضا بالله رباً: أساس الايمان

وارفع الرضا: الرضا بالله رباً، وتسخط عبادة مادونه. وهذا قطب رحي الاسلام. الرضا بالله رباً: أن لا يتخذ ربّاً غير الله تعالى يسكن الى تدبيره وينزل به حوائجه. قال الله تعالى (١٦٤: ٦) قل اغير الله ابغي ربّاً، وهو رب كل شيء؟ قال ابن عباس رضي الله عنهما «سيداً والها» يعني فكيف أطلب رباً غيره، وهو رب كل شيء؟ وقال في اول السورة (١٤: ٦) قل اغير الله اتخذ ولياً؟ فاطر السموات والأرض يعني معبوداً وناصرأ ومعيناً وملجأً وهو من الموالاة التي تتضمن الحب والطاعة. وقال في وسطها (١١٤: ٦) افغير الله ابغني حكماً؟ وهو الذي أنزل اليكم الكتاب مفصلاً اي افغير الله ابغني من يحكم بيني وبينكم. فتحاكم اليه فيما اختلفنا فيه؟ وهذا كتابه سيد الحكام، فكيف نتحاكم الى غير كتابه؟ أنزله مفضلاً، مبيناً كافياً شافياً.

وأنت اذا تأملت هذه الآيات الثلاث حق التأمل، رأيتها هي نفس الرضا بالله رباً، وبالاسلام ديناً، وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسلاً، ورأيت الحديث يترجم عنها، ومشتقاً منها، فكثير من الناس يرضى بالله رباً، ولا يبغي رباً سواه، لكنه لا يرضى به وحده ولياً وناصراً. بل يوالي من دونه أولياء، ظناً منه أنهم يقرّبونه الى الله، وأن موالاهم كموالاة خواص الملك. وهذا عين الشرك . بل التوحيد: ان لا يتخذ من دونه أولياء. والقرآن مملوء من وصف المشركين بأنهم اتخذوا من دونه أولياء.

وهذا غير موالاة انبيائه ورسله، وعباده المؤمنين به . فإن هذا من تمام الايمان ومن تمام موالاته . فموالاة أوليائه لون واتخاذ الولي من دونه لون. ومن لم يفهم الفرقان بينهما فليطلب التوحيد من أساسه . فإن هذه المسألة أصل التوحيد وأساسه. وكثير من الناس يتغنى بغيره حكماً، يتحاكم اليه، ويخاصم اليه، ويرضى بحكمه. وهذه المقامات الثلاث هي اركان التوحيد : ان لا يتخذ سواه رباً ، ولا إلهاً، ولا غيره حكماً. وتفسير الرضا بالله رباً: ان يسخط عبادة مادونه . هذا هو الرضا بالله الهأ. وهو من تمام الرضا بالله رباً، فمن أعطى الرضا به رباً حقه سخط عبادة ما دونه قطعاً. لأن الرضا بتجريد ربوبيته يستلزم تجريد عبادته، كما أن العلم بتوحيد الربوبية يستلزم العلم بتوحيد الإلهية. فممدار رضى الإسلام على ان يرضى العبد بعبادة ربه وحده، وان يسخط عبادة غيره. وقد تقدم أن العبادة هي الحب مع الذل. فكل من ذللت له وأطعته وأحببته دون الله، فأنت عابد له.

● الرضا بالقضاء من مكملات الايمان

ثم يتلو: الرضا عن الله، وبه ايضاً نطقت آيات التنزيل، وهو الرضا عنه في كل ما قضى وقدر.

وانما كان هذا الرضا تالياً لأن الرضا بالله رباً أعلى شأنأ وأرفع قدراً، ودرجته مختصة بالمؤمنين، بينما درجة الرضا عن الله مشتركة. فإن الرضا بالقضاء يصح من المؤمن والكافر. وغايته التسليم لقضاء الله وقدره. فأين هذا من الرضا به رباً والهأ ومعبوداً؟.

وايضاً فالرضا به رباً فرض. بل هو من أكد الفروض باتفاق الأمة. فمن لم يرض به رباً، لم يصح له إسلام ولا عمل ولا حال.

وأما الرضا بقضائه: فأكثر الناس على أنه مستحب. وليس بواجب. وقيل: بل هو واجب، وهما قولان في مذهب أحمد.

فالفرق بين الدرجتين فرق ما بين الفرض والتدب. وفي الحديث الإلهي الصحيح «يقول الله عز وجل: ما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه» فدل على أن التقرب إليه سبحانه بأداء فرائضه أفضل وأعلى من التقرب إليه بالنوافل.

وأيضاً: فإن الرضا به رباً يتضمن الرضا عنه، ويستلزمه. فإن الرضا بربوبيته: هو رضا العبد بما يأمر به، وينهاه عنه، ويقسمه له ويُقدِّره عليه، ويعطيه إياه، ويمنعه منه. فمضى لم يرض بذلك كله لم يكن قد رضى به رباً من جميع الوجوه. وإن كان راضياً به رباً من بعضها. فأرضاه به رباً من كل وجه: يستلزم الرضا عنه، ويتضمنه بلا ريب.

وأيضاً: فالرضا به رباً متعلق بذاته، وصفاته وأسمائه، وربوبيته العامة والخاصة. فهو الرضا به خالقاً ومدرراً، وأمرأً ونهياً، وملكاً ومعطياً ومانعاً، وحكماً، ووكيلاً وولياً، وناصرًا ومعيناً، وكافياً وحسيباً وقيياً، وميتلياً ومعافياً، وقابضاً وباسطاً، إلى غير ذلك من صفات ربوبيته.

وما أرضاه عنه: فهو رضا العبد بما يفعله به، ويعطيه إياه. ولهذا لم يجر إلا في الثواب وجزاء. كقوله تعالى (٢٨٩: ٢٧) يا أيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فهذا برضاها عنه لما حصل لها من كرامته. كقوله تعالى (٨: ٩٨) خالدين فيها أبداً. رضى الله عنهم، ورضوا عنه. ذلك لمن خشى ربه).

والرض به: أصل الرضا عنه، والرضا عنه: ثمرة الرضا به.

وسر المسألة: أن الرضا به متعلق بأسمائه وصفاته. والرضا عنه: متعلق بثوابه وجزائه.

وأيضاً: فإن النبي صلى الله عليه وسلم علق ذوق طعم الايمان بمن رضى بالله رباً. ولم يعلق بمن رضى عنه، كما قال صلى الله عليه وسلم «ذاق طعم الايمان من رضى بالله رباً. وبالاسلام ديناً، وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً» فجعل الرضا به قرين الرضا بدينه ونبيه. وهذه الثلاثة هي أصول الإسلام، التي لا يقوم إلا بها وعليها.

وأيضاً: فالرضا به رباً يتضمن توحيده وعبادته، والإنابة إليه، والتوكل عليه. وخوفه ورجاءه ومحبته، والصبر له وبه. والشكر على نعمه: يتضمن رؤية كل مائة نعمه وإحساناً. وإن ساء عبده. فرضا به يتضمن «شهادة أن لا إله إلا الله» والرضا بمحمد رسولاً. يتضمن «شهادة أن محمداً رسول الله» والرضا بالاسلام ديناً: يتضمن التزام عبوديته، وطاعته، واطاعة رسوله. فجمعت هذه الثلاثة الدين كله.

وأيضاً: فالرضا به رباً يتضمن اتخاذ معبوداً دون ماسواه. واتخاذ ولياً ومعبوداً، وإبطال عبادة كل ماسواه. وقد قال تعالى لرسوله (١١٤: ٦) أفغفر الله لأبغني حكماً؟ وقال (١٣: ٦) أغفر الله لأخذ ولياً؟ وقال (١٦٤: ٦) قل: أغفر الله لأبغني رباً؟ وهو رب كل شيء) فهذا هو عين الرضا به رباً.

وأيضاً: فإنه جعل حقيقة الرضا به رباً: أن يسخط عبادة مادونه. فمتى سخط العبد عبادة ماسوى الله من الآلهة الباطلة، حباً وخوفاً، ورجاء وتعظيماً، وإجلالاً — فقد تحقق بالرضا به رباً، الذي هو قطب رضى الإسلام.

وإنما كان قطب رضى الدين: لأن جميع العقائد والأعمال، والأحوال: إنما تبنى على توحيد الله عز وجل في العبادة، وسخط عبادة ماسواه. فمن لم يكن له هذا القطب لم يكن له رضى تدور عليه. ومن حصل له هذا القطب ثبتت له الرضى. ودارت على ذلك القطب. فيخرج حينئذ من دائرة الشرك الى دائرة الإسلام. فتدور رضى إسلامه وإيمانه على قطبها الثابت اللازم. وأيضاً: فإنه جعل حصول هذه الدرجة من الرضا موقفاً على كون المرضى به رباً — سبحانه — أحب الى العبد من كل شيء، وأولى الأشياء بالتعظيم، وأحق الأشياء بالطاعة. ومعلوم أن هذا يجمع قواعد العبودية، ويتنظم فروعها وشعبها.

ولما كانت المحبة التامة ميل القلب بكليته الى المحبوب: كان ذلك الميل حاملاً على طاعته وتعظيمه. وكلما كان الميل أقوى: كانت الطاعة أتم، والتعظيم أوفر. وهذا الميل يلزم الإيمان، بل هو روح الإيمان وألبه. فأى شيء يكون أعلى من أمر يتضمن أن يكون الله سبحانه أحب الأشياء الى العبد، وأولى الأشياء بالتعظيم، وأحق الأشياء بالطاعة؟.

وبهذا يجد العبد حلاوة الإيمان. كما في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب اليه مما سواهما. ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله. ومن كان يكره أن يرجع الى الكفر — بعد إذ أنقذه الله منه — كما يكره أن يلقى في النار».

فلعل ذوق الإيمان بالرضا بالله رباً. وعلق وجود حلاوته بما هو موقوف عليه. ولا يتم إلا به، وهو كونه سبحانه أحب الأشياء الى العبد هو ورسوله.

ولما كان هذا الحب التام، والإخلاص — الذي هو ثمرته — أعلى من مجرد الرضا بربوبيته سبحانه: كانت ثمرته أعلى. وهى وجد حلاوة الإيمان. وثمره الرضا: ذوق طعم الإيمان. فهذا وجد حلاوة، وذلك طعم. والله المستعان.

وإنما ترتب هذا وهذا على الرضا به وحده رباً، والبراءة من عبودية ماسواه، وميل القلب بكليته اليه، وانجذاب قوى المحب كلها اليه. ورضاه عن ربه تابع لهذا الرضا به. فمن رضى بالله رباً رضى الله له عبداً. ومن رضى عنه في عطائه ومنعه وبلائه وعافيته: لم ينل بذلك درجة رضا الرب عنه، إن لم يرض به رباً، وبنييه رسولاً، وبالإسلام ديناً. فإن العبد قد يرضى عن الله ربه فيما أعطاه وفيما منعه، ولكن لا يرضى به وحده معبوداً وإلهاً.. ولهذا إنما ضمن رضا العبد يوم القيامة لمن رضى به رباً. كما قال النبي صلى الله عليه وسلم «من قال كل يوم:

رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً: إلا كان حقاً على الله أن يرضيه يوم القيامة» وقد نطق التنزيل بهذا الرضا أيضاً كقوله عز وجل (١١٩:٥) قال الله: هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم. لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً، رضى الله عنهم ورضوا عنه. ذلك الفوز العظيم) وقال تعالى في آخر سورة المجادلة (٢٢:٥٨) ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها. رضى الله عنهم ورضوا عنه. أولئك حزب الله. ألا إن حزب الله هم المفلحون) وقال في آخر سورة «لم يكن» (٨:٩٨) خالدين فيها أبداً رضى الله عنهم ورضوا عنه، ذلك لمن خشي ربه).
فتضمنت هذه الآيات: جزاءهم على صدقهم وإيمانهم، وأعمالهم الصالحة، ومجاهدة أعدائه، وعدم ولايتهم، بأن رضى الله عنهم. فأرضاهم. فرضوا عنه. وإنما حصل لهم هذا بعد الرضا به رباً، وبمحمد نبياً، وبالإسلام ديناً.

• وجوب التفريق بين مشيئة الله ومحبة

واعلم أن الله سبحانه وتعالى قد انكر على من جعل مشيئته وقضاه مستلزماً لمحبة ورضاه، فقال سبحانه (١٤٨:٦) يقول الذين أشركوا: لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا، ولا حرمنا من شيء. كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا. قل: هل عندكم من علم فتخرجوه لنا؟ إن تبعمون إلا الظن. وإن أنتم إلا تخرصون) وقال تعالى (٣٥:١٦) وقال الذين أشركوا: لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا، ولا حرمنا من دونه من شيء. كذلك فعل الذين من قبلهم) وقال تعالى (٢٠:٤٣) وقالوا: لو شاء الرحمن ما عبدناهم. ما لهم بذلك من علم) فهم استدلوا على محبة لشركهم ورضاه عنه بمشيئته لذلك. وعارضوا بهذا الدليل أمره ونهيه. وفيه أبين الرد لقول من جعل مشيئته غير محبة ورضاه. فالإشكال إنما نشأ من جعلهم المشيئة نفس المحبة. فنشأ من ذلك إلزامهم بكونه تعالى راضياً محباً لذلك، وانترام رضاهم به.

والذي يكشف هذه الغمّة، ويبصر من هذه العماية، ويوضح المعنى الصحيح للرضا بالقضاء: إنما هو تفريق بين مافرق الله بينه، وهو المشيئة والمحبة. فزنيهما ليسا واحداً. ولا هما متلازمان. بل قد يشاء مالا يحبه، ويحب مالا يشاء كونه.

فالآل و: كمشيئته لوجود إبليس وجنوده. ومشيئته العامة لجميع ما في الكون مع بغضه

لبعضه.

والثاني: كمحبه إيمان الكفار، وطاعات الفجار، وعدل الظالمين، وتوبة الفاسقين. ولو شاء ذلك لوجد كله وكان جميعه. فإنه ما شاء كان. وما لم يشأ لم يكن.

فإذا تقرر هذا الأصل، وأن الفعل غير المفعول، والقضاء غير المقضى، وأن الله سبحانه لم يأمر عباده بالرضا بكل ما خلقه وشاءه: زالت الشبهات. وانتحل الاشكالات. والله الحمد.

ولم يبق بين شرع الرب وقدره تناقض، بحيث يظن ابطال أحدهما للآخر. بل القدر ينصر الشرع. والشرع يصدق القدر. وكل منهما يحقق الآخر.

إذا عرف هذا، فالرضا بالقضاء الديني الشرعي واجب. وهو أساس الإسلام وقاعدة الإيمان. فيجب على العبد أن يكون راضياً به بلا حرج، ولا منازعة ولا معارضة، ولا اعتراض.

قال الله تعالى (٦٥: ٤) فلا، وربك لا يؤمنون حتى تحكموك فيما شجر بينهم. ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً).

فأقسم: أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله، وحتى يرتفع الحرج من نفوسهم من حكمه، وحتى يسلموا لحكمه تسليماً. وهذا حقيقة الرضا بحكمه.

فالتحكيم: في مقام الإسلام. وانتفاء الحرج: في مقام الإيمان. والتسليم: في مقام الإحسان.

ومتى خالط القلب بشاشة الإيمان، واكتحلت بصيرته بحقيقة اليقين، وحسى بروح الوحي، وتمهدت طبيعته، وانقلبت النفس الأمارة مطمئنة راضية وادعة، وتلقى أحكام الرب تعالى بصدر واسع منشرح مسلم: فقد رضى كل الرضا بهذا القضاء الديني المحبوب لله ولرسوله.

والرضا بالقضاء الكوني القدري، الموافق لمحبة العبد وإرادته ورضاه — من الصحة، والغنى، والعافية، واللذة — أمر لازم بمقتضى الطبيعة. لأنه ملائم للعبد، محبوب له. فليس في الرضا به عبودية. بل العبودية في مقابلته بالشكر، والاعتراف بالمنة، ووضع النعمة مواضعها التي يحب الله أن توضع فيها، وأن لا يعمى المنعم بها، وأن يرى التقصير في جميع ذلك.

والرضا بالقضاء الكوني القدري، الجاري على خلاف مراد العبد ومحبته — مما لا يلائمه. ولا يدخل تحت اختياره — مستحب. وهو من مقامات أهل الإيمان وفي وجوبه قولان. وهذا كالمرض والفقر، وأذى الخلق له، والحر والبرد، والآلام ونحو ذلك.

والرضا بالقدر الجاري عليه باختياره — مما يكرهه الله ويسخطه، وينهى عنه — كأنواع الظلم والفسوق والعصيان: حرام يعاقب عليه. وهو مخالفة لربه تعالى. فإن الله لا يرضى بذلك ولا يحب. فكيف تتفق المحبة ورضا ما يسخطه الحبيب ويبغضه؟ فعليك بهذا التفصيل في مسألة الرضا بالقضاء.

فإن قلت: كيف يريد الله سبحانه أمراً لا يرضاه ولا يحبه؟ وكيف يشاء ويؤكّنه؟ وكيف تجتمع إرادة الله له وبغضه وكرهيته؟

فأعلم أن «المراد» نوعان: مراد لنفسه. ومراد لغيره.
فالمراد لنفسه: مطلوب محبوب لذاته ولما فيه من الخير. فهو مراد إرادة الغايات والمقاصد.
والمراد لغيره: قد لا يكون في نفسه مقصوداً للمريد، ولا فيه مصلحة له بالنظر إلى ذاته. وإن كان وسيلة إلى مقصوده ومراده. فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته، مراد له من حيث إفضاؤه وإيصاله إلى مراده. فيجتمع فيه الأمران: بغضه وإرادته، ولا يتناقضان. لاختلاف متعلقهما. وهذا كالدواء التتاهي في الكراهة، إذا علم متناوله أن فيه شفاء، وكقطع العض المتأكل إذا علم أن في قطعه بقاء جسده، وكقطع المسافة الشاقة جداً إذا علم أنها توصله إلى مراده ومحبوبه. يبل العاقل يكتفي في إثارة هذا المكروه وإرادته بالظن الغالب، وإن خفيت عنه عاقبته، وطويت عنه متعبته، فكيف بمن لا تخفى عليه العواقب؟ فهو سبحانه وتعالى يكره الشيء ويبغضه في ذاته. ولا ينافي ذلك إرادته لغيره، وكونه سبباً إلى ما هو أحب إليه من فوته.

مثال ذلك: أنه سبحانه خلق إبليس، الذي هو مادة لفساد الأديان والأعمال، والاعتقادات والارادات. وهو سبب شقاوة العبيد، وعملهم بما يغضب الرب تبارك وتعالى. وهو الساعي في وقوع خلاف ما يحبه الله ويرضاه بكل طريق وكل حيلة. فهو مبغوض للرب سبحانه وتعالى، مسخوط له. لعنه الله ومقته. وغضب عليه. ومع هذا فهو وسيلة إلى محاب كثيرة للرب تعالى برتبته على خلقه. وجودها أحب إليه من عدمها.

منها: أن تظهر للعباد قدرة الرب تعالى على خلق المتضادات المتقابلات فخلق هذه الذات التي هي أحبب الذوات وشرها. وهي سبب كل شر في مقابلة ذات جبريل، التي هي أشرف الذوات، وأطهرها وأزكاها. وهي مادة كل خير. فتبارك الله خالق هذا وهذا. كما ظهرت لهم قدرته الشامة في خلق الليل والنهار، والضياء والظلام، والداء والدواء، والحياة والموت، والحار والبارد، والحسن والقبيح، والأرض والسماء، والذكر والأنثى، والماء والنار، والخير والشر.

وذلك من أدل الدلائل على كمال قدرته وعزته، وسلطانه وملكوته. فإنه خلق هذه المتضادات. وقابل بعضها ببعض. وسلط بعضها على بعض. وحملها محاماً تصرفه وتديبه. وحكمته. فخلو الوجود عن بعضها بالكلية تعطيل لحكمته، وإكمال تصرفه وتديبه لمملكته.

ومنها: ظهور آثار أسمائه القهرية، مثل «القهار، المنتقم، العدل، الضار، وشديد العقاب، وسريع الحساب، وذو البطش الشديد، والخافض، والمذل» فإن هذه الأسماء والأفعال كمال. فلا بد من وجود متعلقاتها. ولو كان الخلق كلهم على طبيعة الملك: لم يظهر أثر هذه الأسماء والأفعال.

ومنها: ظهور آثار أسمائه المتضمنة لحلمه وعقوه، ومقدرته وستره، وتجاوزه عن حقه، وعتقه لمن شاء من عبده. فلولا خلق ما يكره من الأسباب المفضية الى ظهور آثار هذه الأسماء لتعطلت هذه الحكم والقوائد. وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم الى هذا بقوله «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله. فيغفر لهم». ومنها: حصول العبودية المتنوعة التي لولا خلق ابليس لما حصلت. ولكان الحاصل بعضها، لا كلها.

فإن عبودية الجهاد من أحب أنواع العبودية اليه سبحانه. ولو كان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوابها: من الموالاة فيه سبحانه، والمعاداة فيه، والحب فيه والبغض فيه. وبذل النفس له في محاربة عدوه، وعبودية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعبودية الصبر ومحاربة الهوى، وإظهار محاب الرب على محاب النفس.

ومنها: عبودية التوبة، والرجوع اليه واستغفاره. فإنه سبحانه يحب التوابين. ويجب توبتهم. فلو عطلت الأسباب التي يتاب منها لتعطلت عبودية التوبة والاستغفار منها. ومنها: عبودية مخالفة عدوه، ومراغمته في الله، وإغاضته فيه. وهي من أحب أنواع العبودية إليه. فإنه سبحانه يحب من وليه أن يفيض عدوه وبراغمه ويسوءه. وهذه عبودية لا يتفطن لها إلا الأكياس.

ومنها: أن يتعبد له بالاستعاذة من عدوه، وسؤاله أن ينجيه منه، ويعصمه من كيده وأذاه. ومنها: أنهم يتألون ثواب مخالفته ومعاداته، الذي حصوله مشروط بالمعاداة والمخالفة. فأكثر عبادات القلوب والجوارح مرتبة على مخالفته.

ومنها: أن نفس اتخاذه عدواً من أكبر أنواع العبودية وأجلها. قال الله تعالى «٦:٣٥ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا»، فاتخاذه عدواً أنفع شيء للعبد. وهو محبوب للرب. ومنها: أن الطبيعة البشرية مشتملة على الخير والشر، والطيب والخبيث. وذلك كامن فيها كعمون النار في الزناد. فخلق الشيطان مستخرجاً لما في طبائع أهل الشر من القوة الى الفعل. وأرسلت الرسل تستخرج مافي طبيعة أهل الخير من القوة الى الفعل، فاستخرج أحكم الحاكمين مافي قوى هؤلاء من الخير الكامن فيها، ليرتب عليه آثاره، وما في قوى أولئك من الشر، ليرتب عليه آثاره. وتظهر حكمته في الفريقين. وينفذ حكمه فيهما. و يظهر ما كان معلوماً له مطابقاً لعلمه السابق.

وهذا هو السؤال الذي سألته ملائكته حين قالوا (٢: ٣٠) أنجعل فيها من يفسد فيها
ويسفك الدماء؟ ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال: إني أعلم ما لا تعلمون) فظننت
الملائكة أن وجود من يسبح بحمده ويطيعه ويعبده أولى من وجود من يعصيه ويتألفه. فأجابهم
سبحانه بأنه يعلم من الحكم والمصالح والغايات المحسودة في خلق هذا النوع ما لا تعلمه
الملائكة.

ومنها: أن ظهور كثير من آياته وعجائب صنعه: حصل بسبب وقوع الكفر والشر من النفوس
انكافرة الظلمة، كآية الطوفان، وآية الريح، وآية إهلاك ثمود وقوم لوط، وآية انقلاب النار على
إبراهيم برداً وسلاماً، والآيات التي أجراها الله تعالى على يد موسى، وغير ذلك من آياته التي
يقول سبحانه عقيب ذكر كل آية منها في سورة الشعراء (إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم
مؤمنين * وإن ربك هو العزيز الرحيم) فلولا كفر الكافرين، وعناد الجاحدين، لما ظهرت
هذه الآيات الباهرة، التي يتحدث بها الناس جيلاً بعد جيل الى الابد.

ومنها: أن خلق الأسباب للتقابلة التي يقهر بعضها بعضاً، و يكسر بعضها بعضاً: هو من
شأن كمال الربوبية، والقدرة النافذة، والحكمة التامة، والملك الكامل — وإن كان شأن
الربوبية كاملاً في نفسه، ولولا تخلق هذه الأسباب — لكن خلقها من لوازم كماله وملكه،
وقدرته وحكمته. فظهور تأثيرها وأحكامها في عالم الشهادة: تحقيق لذلك الكمال، وموجب من
موجباته. فتعظيم مراتب الغيب والشهادة بأحكام الصفات من آثار الكمال الإلهي المطلق
بجميع وجوه وأقسامه وغاياته.

وبالجملة: فالعبودية والآيات والعجائب التي ترتبت على خلق ما لا يحبه ولا يرضاه وتقديره
ومشيئته: أحب اليه سبحانه وتعالى من قواتها، وتعطيلها بتعطيل أسبابها.
فإن قلت: فهل كان يمكن وجود تلك الحكم بدون هذه الأسباب؟
قلت: هذا سؤال باطل. إذ هو فرض وجود الملزوم بدون لازمه. كفرض وجود الابن بدون
الأب، والحركة بدون المتحرك، والتربة بدون الثائب.
فإن قلت: كيف يرضى لعبده شيئاً، ولا يعينه عليه؟

قلت: لأن إعائته عليه قد تستلزم قوات محبوب له أعظم من حصول تلك الطاعة التي رضىها
نه. وقد يكون وقوع تلك الطاعة منه يتضمن مفسدة هي اكراهه اليه سبحانه من محبة لتلك
النضاعة، بحيث يكون وقوعها منه مستلزماً لمفسدة راجحة، ومفوتاً لصلحة راجحة. وقد أشار تعالى
في ذلك في قوله (٩: ٤٦، ٤٧) ولو أرادوا الخروج لأعدوا له غذاءً، ولكن كره الله انبعاثهم
فنبأهم، وقيل: افعدوا مع القاعدين. لو خرجوا فيكم.

ما زادوكم إلا خبالاً. ولأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ، يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ فِيكُمْ سَمَاحُونَ سَم. والله عليم بالظالمين) فأخبر سبحانه: أنه كره اتباعهم مع رسوله صلى الله عليه وسلم للغزو. وهو طاعة وقرية، وقد أمرهم به. فلما كرهه منهم كَبَّطَهُمْ عنه. ثم ذكر سبحانه بعض المفسد التي كانت ستترتب على خروجهم لو خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال «لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً» أي فساداً وشرّاً «ولأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ» أي سبوا فيما بينكم بالفساد والشر «يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ وفيكم سماعون لهم» أي قابلون منهم مستجيبون لهم. فيتوكل من بين سعى هؤلاء بالفساد وقبول أولئك منهم من الشر ما هو أعظم من مصلحة خروجهم. فاقضت الحكمة والرحمة: أن يمنعهم من الخروج، وأقدمهم عنه. فاجعل هذا المثال أصلاً لهذا الباب. وقس عليه.

• ثمرات الرضا اليانعة

وللرضا ثمرات إيمانية كثيرة وافرة تنتج عنه، يرتفع بها الراضي الى اعلى المنازل. منها: أن تمام عبوديته في جريان ما يكرهه من الاحكام عليه. ولولم يمر عليه منها إلا ما يحب لكان أبعد شيء عن عبودية ربه. فلا تنتم له عبوديته — من الصبر، والتوكل، والرضا، والتضرع، والافتقار، والذل، والخضوع، وغيرها — إلا بجريان القدر له بما يكرهه. وليس الشأن في الرضا بالقضاء الملائم للطبيعة. إنما الشأن في القضاء المولم المنافر للطبع. الثاني عشر: أن يعلم أن رضاه عن ربه سبحانه وتعالى في جميع الحالات يشمر رضا ربه عنه. فإذا رضى عنه بالقليل من الرزق: رضى ربه عنه بالقليل من العمل. وإذا رضى عنه في جميع الحالات، واستوت عنده، وجده أسرع شيء الى رضاه إذا ترضاه وتَمَلَّقه. ومنها: أن السخط باب الهمِّ والغَمِّ والحَزْنِ وشات القلب، وكشف البال، وسوء الحال، والظن بالله خلاف ما هو أهله. والرضا يخلصه من ذلك كله ويفتح له باب جنة الدنيا قبل جنة الآخرة.

فالرضا يوجب له الطمأنينة، وبُزْد القلب، وسكونه وقراره. والسخط يوجب اضطراب قلبه، وزينته وانزعاجه، وعدم قراره.

كما أن الرضا يُنزل عليه السكينة التي لا أنفع له منها. ومتى نزلت عليه السكينة: استقام. وصلحت أحواله، وصلح بآله. والسخط يبعده منها بحسب قلته وكثرته. وإذا ترحلت عنه السكينة ترحل عنه السرور والأمن والدعة والراحة، وطيب العيش. فمن أعظم نعم الله على عبده: تنزل السكينة عليه. ومن أعظم أسبابها: الرضا عنه في جميع الحالات.

ومنها: أت الرضا بخلص العبد من غصاصة الرب تعالى في أحكامه وأقضيته. فإن السخط عليه غصاصة له فيما لم يرض به العبد. وأصل غصاصة إبليس لربه: من عدم رضاه بأقضيته وأحكامه الدينية والكونية.

ومنها: أن تحكم الرب تعالى ماض في عبده، وقضاه عدل فيه، كما في الحديث «ماض في حكمك، عدل في قضاؤك» ومن لم يرض بالعدل فهو من أهل الظلم والجور. وقوله «عدل في قضاؤك» يعم قضاء الذنب، وقضاء أثره وعقوبته. فإن الأمرين من قضائه عز وجل. وهو أعدل العادلين في قضائه بالذنب، وفي قضائه بعقوبته.

أما عدله في العقوبة: فظاهر. وأما عدله في قضائه بالذنب: فإن الذنب عقوبة على غفلة عن ربه. وإعراض قلبه عنه. فإنه إذا غفل قلبه عن ربه ووليه، ونقص إخلاصه: استحق أن يُعْزَبَ بهذه العقوبة. لأن قلوب الغافلين معدن الذنوب. والعقوبات واردة عليها من كل جهة. وإلا فمع كمال الإخلاص والذكر والإقبال على الله سبحانه وتعالى وذكره، يستحيل صدور الذنب. كما قال تعالى (٢٤: ١٢) كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء. إنه من عبادنا المخلصين).

فإن قلت: قضاؤه على عبده بإعراضه عنه، ونسيانه إياه، وعدم إخلاصه: عقوبة على ماذا؟ قلت: هذا طبع النفس وشأنها، فهو سبحانه إذا لم يرد الخير بعبده خلى بينه وبين نفسه وطبعه وهواه. وذلك يقتضي أثرها من الغفلة والنسيان، وعدم الإخلاص واتباع الهوى. وهذه الأسباب تقتضي آثارها من الآلام، وفوات الخيرات والذات. كاقترضاء سائر الأسباب نسبياتها وآثارها.

فإن قلت: فهل خلقه على غير تلك الصفة؟

قلت: هذا سؤال فاسد، ومضمونه: هلا خلقه ملكا لا إنسانا؟

فإن قلت: فهل أَعْطَاهُ التوفيق الذي يتخلص به من شر نفسه، وظلمة طبعه؟

قلت: مضمون هذا السؤال: هلا سوى بين جميع خلقه؟ ولم خلق المتضادات والمخالفات؟ وهذا من أفسد الأسئلة. وقد تقدم بيان اقتضاء حكمته وربوبيته وملكه لخلق ذلك.

ومنها: أن عدم الرضا إما أن يكون لفوات ما أخطأ مما يحبه ويريده. وإما لإصابة ما يكرهه ويسخطه. فإذا تيقن أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه. وما أصابه لم يكن ليخطئه: فلا فائدة في سخطه بعد ذلك إلا فوات ما ينفعه وحصول ما يضره.

ومنها: أن الرضا يفتح له باب السلامة. فيجعل قلبه سليماً تقيّاً من الغش والدغل والنز. ولا ينجو من عذاب الله إلا من أتى الله بقلب سليم. كذلك وتستحيل سلامة القلب مع السخط وعدم الرضا. وكلما كان العبد أشد راضاً كان قلبه أسلم. فالعَبَث والدَغَل والغش: قرين السخط. وسلامة القلب وبره ونصحه: قرين الرضا. وكذلك الحسد: هو من ثمرات السخط. وسلامة القلب منه من ثمرات الرضا.

ومنها: أن السخط يفتح عليه باب الشك في الله، وقضائه وقدره، وحكمته وعلمه. فقل أن يسلم الساخط من شك يداخل قلبه ويتغلغل فيه، وإن كان لا يشعر به. فلو فتش نفسه غاية التفطيش لوجد يقينه معلولاً مدخولاً. فإن الرضا واليقين أخوان مصطحبان. والشك والسخط قرينان. وهذا معنى الحديث الذي في الترمذي — أو غيره «إن استطعت أن تعمل بالرضا مع اليقين فافعل. فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره النفس خيراً كثيراً».

ومنها: أن من ملأ قلبه من الرضا بالقدر: ملأ الله صدره غنى وأمنًا وقناعة. وقرغ قلبه لمحبهته، والإنابة إليه، والتوكل عليه. ومن فاته حظه من الرضا: ملأ قلبه بضد ذلك. واشتغل عما فيه سعادته وفلاحه.

فالرضا يفرغ القلب لله، والسخط يفرغ القلب من الله.

ومنها: أن الرضا يشمر الشكر، الذي هو من أعلى مقامات الإيمان، بل هو حقيقة الإيمان. والسخط يشمر ضده. وهو كفر النعم. وربما أثمر له كفر النعم. فإذا رضى العبد عن ربه في جميع الحالات: أوجب له ذلك شكره. فيكون من الراضين الشاكرين. وإذا فاته الرضا: كان من الساخطين. وسلك سبيل الكافرين.

ومنها: أن الشيطان إنما يظفر بالإنسان غالباً عند السخط والشهوة. فهناك يصطاده. ولا سيما إذا استحکم سخطه. فإنه يقول مالا يرضى الرب. ويفعل مالا يرضيه. وينو مالا يرضيه. ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم عند موت ابنه إبراهيم «يَتَخَرَّنُ الْقَلْبُ. وَتَدْمَعُ الْعَيْنُ. وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى الرَّبُّ» فإن موت البنين من العوارض التي توجب للعبد السخط على القدر. فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم: أنه لا يقول في مثل هذا المقام — الذي يسخطه أكثر الناس. فيتكلمون بما لا يرضى الله. ويفعلون مالا يرضيه — إلا ما يرضى ربه تبارك وتعالى.

ومنها: أن الرضا يخرج الهوى من القلب. فالراضي هواء تبع لمرء ربه منه. أعنى المراد الذي يحبه ربه ويرضاه. فلا يجتمع الرضا واتباع الهوى في القلب أبداً. وإن كان معه شعبة من هذا وشعبة من هذا، فهو للغالب عليه منهما.

• ندوة لطيفة في الرضا

ومنها: أن الراضى واقف مع اختيار الله له. معرض عن اختياره لنفسه. وهذا من قوة معرفته بربه تعالى. ومعرفته بنفسه.

وقد اجتمع وهيب بن الورد، وسفيان الثوري، ويوسف بن أسباط. فقال الثوري: قد كنت أكره موت الفجاءة قبل اليوم. وأما اليوم: فوددت أني ميت.

فقال - يوسف بن أسباط: ولم؟ فقال: لما أتخوف من الفتنة.

فقال يوسف: لكني لا أكره طول البقاء.

فقال لثوري: ولم تكره الموت؟

قال: نعل أصادف يوماً أتوب فيه وأعمل صالحاً.

فقيل لهيب: أي شيء تقول أنت؟

فقال: أنا لا أختار شيئاً، أحب ذلك إلى أحب إلى الله.

فقيل لثوري بين عينية. وقال: روحانية ورب الكعبة.

فهذه حال عبيد قد استوت عنده حالة الحياة والموت. وقف من اختيار الله له منهما. وقد كـ وهيب - رحمه الله - له المقام العالي من الرضا وغيره.

• رضا الله عن العبد أكبر الثواب

ومنها: أن رضا الله عن العبد أكبر من الجنة وما فيها. لأن الرضا صفة الله والجنة خلقه، قال الله تعالى (٧٢:٩) ورضوان من الله أكبر بعد قوله (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر. ذلك هو الفوز العظيم) وهذا الرضا جزاء على رضاهم عنه في الدنيا، ولما كان هذا الجزاء أفضل الجزاء، كان سببه أفضل الأعمال.

ومنها: أن العبد إذا رضى به وعنه في جميع الحالات: لم يتخير عليه المسائل. وأغناه رضاها بما يتقسمه له ويقدره ويفعله به عن ذلك. وجعل ذكره في محل سؤاله. بل يكون من سؤاله له الإعانة على ذكره، وبلوغ رضاه. فهذا يُعطى أفضل ما يعطاه سائل. كما جاء في الحديث «من شغله ذكرى عن مسألة أعطيته أفضل ما أعطى السائلين» فإن السائلين سألوه. فأعطاهم الفضل الذي سألوه. والراضون رضوا عنه فأعطاهم رضاه عنهم، ولا يمنع الرضا سؤاله أسباب الرضا. بل صحبه مُلِحُّون في سؤاله ذلك.

ومنها: أن الرضا يشمر سرور القلب بالمقدور في جميع الأمور، وطيب النفس وسكونها في كل حال، وطمأنينة القلب عند كل مفزع مُهلِك من أمور الدنيا، وبرد القناعة، واعتباط العبد بقسمة من ربه، وفرحه بقيام مولاه عليه، واستسلامه لمولاه في كل شيء، ورضاه منه بما يجريه عليه، وتسليمه له الأحكام والقضايا. واعتقاد حسن تدبيره، وكمال حكمته. ويذهب عنه شكوى ربه إلى غيره وتبرمه بأفضيته. ولهذا سعى بعض العارفين الرضا: حسن الخلق مع الله. فإنه يوجب ترك الاعتراض عليه في ملكه، وحذف فضول الكلام التي تقدح في حسن خلقه.

وقال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله: أصبحت ومالي سرور إلا في مواقع القدر. وقال ابن مسعود رضى الله عنه «الفقر والغنى مطيتان ما أبالي أيهما ركبت. إن كان الفقر فإن فيه الصبر. وإن كان الغنى فإن فيه البذل».

ومنها: أن الرضا بالقدر يخلص العبد من أن يُرضى الناس بسخط الله. وأن يذمهم على ما لم يؤته الله. وأن يحمدهم على ما هو عين فضل الله. فيكون ظالماً لهم في الأول — وهو رضاهم وذمهم — مشركاً بهم في الثاني — وهو حمدهم — فإذا رضى بالقضاء تخلص من ذمهم وحمدهم. فخلصه الرضا من ذلك كله.

• قلب الراضي بارد

ومنها: أن الرضا يفرغ قلب العبد. ويقلل همه وغمه. فيتفرغ لعبادة ربه بقلب خفيف من أثقال الدنيا وهمومها وغمومها. كما ذكر ابن أبي الدنيا عن بشر بن بشار المجاشعي — وكان من العلماء — قال: قلت لعابد: أوصني. قال: ألق نفسك مع القدر حيث ألقاك. فهو أخرى أن يُفَرِّغَ قلبك. ويقلل همك. وإياك أن تسخط ذلك، فيجلب بك السخط وأنت عنه في غفلة لا تشعر به. فيلحقك مع الذين سخط الله عليهم.

وقال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله «لقد تركتني هؤلاء الدعوات، ومالي في شيء من الأمور كلها أرب، إلا في مواقع قدر الله. وكان كثيراً ما يدعو: اللهم رضى بقضائك، وبارك لي في قدرك، حتى لا أحب تعجيل شيء أخرته. ولا تأخير شيء عجلته».

وقال: ما أصبح لي هوى في شيء سوى ما قضى الله عز وجل.

ومنها: أن الله تعالى نهى عن التقدم بين يديه ويدى رسوله في حكمه الديني الشرعي. وذلك عبودية هذا الأمر. فعبودية أمره الكوني القديري: أن لا يتقدم بين يديه إلا حيث كانت المصلحة الراجحة في ذلك. فيكون التقدم أيضاً بأمره الكوني والديني. فإذا كان فرضه الصبر أو ندبه، أو فرضه الرضا حتى ترك ذلك: فقد تقدم بين يدي شرعه وقدره.

• ليس لأعمال القلوب نهاية

ومنها: أن أعمال الجوارح تضاعف إلى حد معلوم محسوب. وأما أعمال القلوب: فلا ينتهي تضعيفها. وذلك لأن أعمال الجوارح: لها حد تنتهي إليه. وتقف عنده. فيكون جزاؤها بحسب حدها. وأما أعمال القلوب: فهي دائمة متصلة، وإن توارى شهود العبد لها. مثله: أن المحبة والرضا حال المحب الراضى، لا تذرعه أصلاً. وإن توارى حكمها. فصاحبها في مزيد متصل. فعزيد المحب الراضى: متصل بدواء هذه الحال له. فهورى مزيد، ولو فترت جورجه. بل قد يكون مزیده في حال سكونه وفتره أكثر من مزيد كثير من أهل التوافل بما بالنسبة بينهما.

فإن أنكرت هذا فتأمل مزيد نائم بالله، وقيام غافل عن الله. قاله سبحانه إنما ينظر إلى السبب، والمهم والعزائم لا إلى صور الأعمال. وقيمة العبد: همه وإرادته. فمن لا يرضيه غير الله — ونوأعطى الدنيا بحدافيرها — له شأن. ومن يرضيه أدنى حظ من حظوظها له شأن. وإن كانت أعمالهما في الصورة واحدة. وقد تكون أعمال المتنفت إلى المفظوظ أكثر وأشق. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. والله ذو الفضل العظيم.

• الإلحاح في الدعاء عين العبودية

ودعاء لا يتناقى الرضا، بل إذا ألح العبد على الله في سؤاله بما فيه رضاء والقرب منه: فإن ذلك لا يقدر في مقام الرضا. وفي الأثر «إن الله يحب الملحين في الدعاء» وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه — يوم بدر — للنبي صلى الله عليه وسلم «يا رسول الله، قد ألححت على ربك. كفك بعض مناشدتك لربك» فهذا الإلحاح عين العبودية. وفي سنن ابن ماجه من حديث أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من لم يسأل الله بغضب عليه». فإذا كان سؤاله يرضيه لم يكن الإلحاح فيه منافياً لرضاه. وحقيقة الرضا: موافقته سبحانه في رضاء. بل الذى يتناقى الرضا: أن يلج عليه متحكماً عليه متخيراً عليه ما لم يعلم: هل يرضيه أم لا؟ كمن يلج على ربه في ولاية شخص، أو إغنائيه، أو قضاء حاجته. فهذا يتناقى الرضا، لأنه ليس على يقين أن مرضاة رب في ذلك. وربما يفتح على قلبه — حال السؤال — من معرفة الله وعبته. والذل له، والخضوع والتملق:

ما ينسبه حاجته. ويكون ما فتح له من ذلك أحب إليه من حاجته، بحيث يجب أن تدوم له تلك الحال، وتكون أثر عنده من حاجته. وفرحه بها أعظم من فرحه بحاجته لو عجلت له وفاته ذلك. وقال بعض العارفين: إنه لتكون لي حاجة إلى الله، فأسأله إياها. فيفتح عليّ من مناجاته ومعرفته، والتذلل له، والتملق بين يديه: ما أحب معه أن يؤخر عني قضاءها. وتدوم لي تلك الحال.

(٣٠) مَنَزِلَةُ الشُّكْرِ

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الشكر» وهي من أعلى المنازل. وهي فوق منزلة «الرضا» وزيادة. فأرضا مندرج في الشكر. إذ يستحيل وجود شكر بدونه.

وهو نصف الإيمان — كما تقدم — والإيمان نصفان: نصف شكر. ونصف صبر. وقد أمر الله به. ونهى عن ضده، وأثنى على أهله. ووصف به خواص خلقه. وجعله غاية خلقه وأمره. ووعد أهله بأحسن جزائه. وجعله سبباً للمزيد من فضله. وحارساً لنعمته. وأحبر أن أهله هم المنتفعون بآياته. واشتق لهم اسماً من أسمائه. فإنه سبحانه هو «التكوير» وهو يوصل الشكر إلى مشكوره بل يعيد الشاكر مشكوراً. وهو غاية الرب من عبده. وأهله هم القبيح من عباده. قال الله تعالى (١٧٢: ٢) واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون) وقال (١٥٢: ٢) واشكروا لي ولا تكفرون) وقال عن خليله إبراهيم صلى الله عليه وسلم (١٦: ١٣٠). إن إبراهيم كان أمة فانتأ لله خনিڤاً. ولم يك من المشركين شاكرأ لأنعمه) وقد عن نوح عليه السلام (١٧: ٣) إنه كان عبداً شكوراً) وقال تعالى (١٦: ٧٨) والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً. وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة. لعلكم تشكرون) وقال تعالى (٢٩: ١٧) واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون) وقال تعالى (٣: ١٤٤) وسيجزي الله الشاكرين) وقال تعالى (١٤: ٧) وإذا تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم. ولئن كفرتم إن عذابي لشديد) وقال تعالى (٣١: ٣١) إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور).

وسمى نفسه «شاكرأ» «وشكورأ» وسمى الشاكرين بهذين الاسمين. فأعطاهم من وصفه. وسماه به اسمه. وحسبك بهذا محبة للشاكرين وفضلا.

وأعذته لشاكر مشكورأ. كقوله (٧٦: ٢٢) إن هذا كان لكم جزاء. وكان سعيكم مشكورأ) ورضا الرب عن عبده به. كقوله (٣٩: ٧) وإن تشكروا يرضه لكم) وقلة أهله في العالمين تدل على أنهم هم خواصه. كقوله (٣٤: ١٣) وقليل من عبادي الشكور) وفي

الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم «أنه قام حتى تورمت قدماه. فقيل له: تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: أفلا أكون عبداً شكوراً؟».

وقال لمعاذ «والله يامعاذ، إني لأحبك. فلا تنس أن تقول في دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك».

وفي المسند والترمذي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم «كان يدعو بهؤلاء الكلمات: اللهم أعني ولا تعن عليّ. وانصرني ولا تنصر عليّ. وامكّرني ولا تمكّر بي. واهدني ويسر الهدى لي. وانصرني على من بغى عليّ. رب اجعلني لك، شَكَاراً لك. ذَكَاراً لك. رِقَاباً لك. مطاوعاً لك. مغتاً إليك. أوّاهاً منيباً. رب تقبل توبتي. واغسل حوبتي. وأجب دعوتي. وثبت حجتي. واهد قلبي. وسدد لساني. واسئل سخيمة صدرى».

• قواعد الشكر

وأصل «الشكر» في وضع اللسان: ظهور أثر الغذاء في أبدان الحيوان ظهوراً بيناً. يقال: شَكَرَتْ الدبابة تَشْكُرُ شَكْرًا على وزن سَمَنْتَ تَسْمَنُ سَمناً: إذا ظهر عليها أثر العلف، ودابة شكور: إذا ظهر عليها من السمن فوق ماتأكل. وتعطى من العلف.

وفي صحيح مسلم «حتى إن الدواب لتشكر من لحومهم» أى لتسمن من كثرة ماتأكل منها.

وكذلك حقيقته في العبودية. وهو ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده: ثناء واعترافاً. وعلى قلبه: شهوداً ومجبة. وعلى جوارحه: انقياداً وطاعة. و«الشكر» مبني على خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور، وجبه له. واعتراؤه بنعمته. وثناؤه عليه بها. وأن لا يستعملها فيما يكره.

فهذه الخمس: هى أساس الشكر. وبناءؤه عليها. فمتى عُدم منها واحدة: اختل من قواعد الشكر قاعدة.

وكل من تكلم في الشكر وحّده، فكلامه إليها يرجع. وعليها يدور.

فقيل: حده الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع.

وقيل: الثناء على المحسن بذكر إحسانه.

وقيل: هو عكوف القلب على محبة المنعم، والجوارح على طاعته، وجريان اللسان بذكره، والثناء عليه.

وقيل: هو مشاهدة المنّة. وحفظ الحرمة.

وم - نطف ما قال حمدون القصار: شكر النعمة أن ترى نفسك فيها طفيليا.
وق - أبو عثمان: الشكر معرفة العجز عن الشكر.
وق - الجنيد: الشكر أن لا ترى نفسك أهلا للنعمة.
هـ - معنى قول حمدون «أن يرى نفسه فيها طفيليا».
وق - رويم: الشكر استفراغ الطاقة.
وشكر العامة: على المطعم والمشرب والملبس، وقوت الأبدان.
وشكر الخاصة: على التوحيد والإيمان وقوت القلوب.
وق - الجنيد - وقد سأله سرى عن الشكر، وهو صبي؟ - الشكر: أن لا يستعان بشيء من نعم الله على معاصيه. فقال: من أين لك هذا؟ قال: من مجالسك.
وقيل: من قصرت يده عن المكافآت فليطل لسانه بالشكر.
واسنكر معه المزيد أبدا. لقوله تعالى (١٤: ٩) لئن شكرتم لأزيدنكم) فمتى لم تر حالك في مزيد. فستقبل الشكر.
وفي شر إلهي: يقول الله عز وجل «أهل ذكرى أهل مجالستي، وأهل شكرى أهل زيادتي. وأهل طاعتي أهل كرامتي، وأهل معصيتي لأقنظهم من رحمتي. إن تابوا فأنا حبيبهم. وإن لم يتوبوا فأنا طيبهم. أبتليهم بالمصائب، لأطهرهم من المعائب».
وقيل: من كنم النعمة فقد كفرها. ومن أظهرها ونشرها فقد شكرها.
وهـ - مأخوذ من قوله صلى الله عليه وسلم «إن الله إذا أنعم على عبد بنعمة أحب أن يرى أثر نعمته على عبده».
وفي هذا قيل:

ومن الرزية: أن شكرى صامت عما فعلك. وأن برك ناطق
ورى الصنيعة منك ثم أسرها إنسى إذا لندى الكريم لسارق

• نعرف نعمة الرب، ونقبلها، ونحدث بها

أما معرفتها: فهو إحضارها في الذهن، ومشاهدتها وتمييزها.
فمعرفةتها: تحصيلها ذهنا، كما حصلت له خارجاً. إذ كثير من الناس تحسن إليه وهو لا يدرى. فلا يصح من هذا الشكر.
وقيفاً: هو تلقيها من النعم باظهار الفقر والفاقة إليها. وأن وصولها إليه بغير استحقاق منه، ولا بذل تمن. بل يرى نفسه فيها كالطفيل. فإن هذا شاهد بقبولها حقيقة.

أما الثناء على المنعم، المتعلق بالنعمة فيوعان: عام، وخاص. فالعام: وصفه بالجود والكرم، والبر والإحسان، وسعة العطاء، ونحو ذلك.

والخاص: التحدث بنعمه، والإخبار بوصولها إليه من جهته. كما قال تعالى (٩٣: ١١) وأما بنعمة ربك فحدث). وفي هذا التحديث المأمور به قولان.

أحدهما: أنه ذكر النعمة، والإخبار بها. وقوله: أنعم الله عليّ بكذا وكذا. قال مقاتل: يعنى اشكر ما ذكر من النعم عليك في هذا السورة: من جبر اليتيم، والهدى بعد الضلال، والإغناء بعد العيلة.

والتحدث بنعمة الله شكر. كما في حديث جابر مرفوعاً «(من صُنِعَ إليه معروف فليُشكر به، فإن لم يجد ما يُشكر به فليُشكر. فإنه إذا أنسى عليه فقد شكره. وإن كتمه فقد كفره، ومن تحلى بما لم يُعَفَّ كَانَ كلابس ثوبي زور)». فذكر أقسام الخلق الثلاثة: شاكر النعمة المثني بها، والجاحد لها والكاتم لها. والمظهر أنه من أهلها، وليس من أهلها. فهو متحلٍ بما لم يعطه.

وفي أثر آخر مرفوع «(من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله. والتحدث بنعمة الله شكر. وتركه كفر. والجماعة رحمة. والفرقة عذاب)».

والقول الثاني: أن التحدث بالنعمة المأمور به في هذه الآية: هو الدعوة إلى الله، وتبليغ رسالته، وتعليم الأمة. قال مجاهد: هي النبوة. قال الزجاج: أي بلغ ما أرسلت به، وحدث بالنبوة التي آتاك الله. وقال الكلبي: هو القرآن. أمره أن يقرأه.

والصواب: أنه يعم التوعين. إذ كل منهما نعمة مأمور يشكرها والتحدث بها. وإظهارها من شكرها.

و «الشكر» سبيل رسل الله وأنبيائه — صلى الله عليهم وسلم أجمعين — أنقص خلقه، وأقربهم إليه.

وليس من مقام أرفع من «الشكر» الذي يندرج فيه جميع مقامات الإيمان، حتى المحبة والرضا، والتوكل وغيرها فإن «الشكر» لا يصح إلا بعد حصولها وتالله ليس لخواص أولياء الله، وأهل القرب منه سبيل أرفع من «الشكر» ولا أعلى.

وإنعام الرب تعالى على عبده: إحسان إليه، وتفضل عليه، ويجرد امتنان. لا حاجة منه إليه، ولا لمساوأة، ولا لاستعانة به، ولا ليتكبر به من قلة، ولا ليتزبه من ذلّة، ولا ليقوى به من ضعف. سبحانه وبحمده.

وأمره له بالشكر أيضاً: إنعام آخر عليه. وإحسان منه إليه. إذ منفعة الشكر ترجع إلى العبد دنيا وآخرته. لا إلى الله. والعبد هو الذى ينتفع بشكره. كما قال تعالى (٣١: ١٢) ومن شكر فإنما يشكر لنفسه) فشكر العبد إحسان منه إلى نفسه دنيا وآخرته، فإنه إما هو محسن إلى نفسه بالشكر. لا أنه مكافئ به لنعم الرب. فالرب تعالى لا يستطيع أحد أن يكافئه بنعمه أبداً، ولا أقلها، ولا أدنى نعمة من نعمه. فإنه تعالى هو المنعم المتفضل، الخالق للشكر والشاكر، وما يُشكر عليه. فلا يستطيع أحد أن يحصى ثناء عليه. فإنه هو المحسن إلى عبده بنعمه، وأحسن إليه بأن أوزعه شكرها. فشكره نعمة من الله أنعم بها عليه. تحتاج إلى شكر آخر. وهلم جرا.

ومن تمام نعمته سبحانه، وعظيم بره وكرمه وجوده: محبته له على هذا الشكر. ورضاه منه به. وثناؤه عليه به، ومنفعته وفائدته مختصة بالعبد. لا تعود منفعة على الله. وهذا غاية الكرم الذى لا كرم فوقه. ينعم عليك ثم يوزعك شكر النعمة، ويرضى عنك. ثم يعيد إليك منفعة شكرك. ويجعله سبباً لتوالى نعمه واتصالها إليك، والزيادة على ذلك منها.

وهذا الوجه وحده يكفى للبيب ليتنبه به على ما بعده.

• شكر اعلی من شكر

والشكر على المكاره: أشد وأصعب من الشكر على المحاب. ولهذا فهو فوقه فى الدرجة. ولا يكون إلا من أحد رجلين:

إما رجل لا يميز بين الحالات. بل يستوى عنده المكروه والمحبوب. فشكر هذا: إظهار منه للرضا بما نزل به. وهذا مقام الرضا.

الرجل الثانى: من يميز بين الأحوال. فهو لا يحب المكروه. ولا يرضى بنزوله به، فإذا نزل به مكروه شكر الله تعالى عليه، فكان شكره كظلمة للغيظ الذى أصابه، وسترًا للشكوى، ورعاية للأدب، وسلوكاً لمسلك العلم. فإن العلم والأدب يأمران بشكر الله على السراء والضراء فهو يسلك بهذا الشكر مسلك العلم لأنه شاكر لله شكر من رضى بقضائه، كحال الذى قبله. فالذى قبله: أرفع منه.

(٣١) مَنَزِلَةُ الْحَيَاءِ

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الحياء»
 قال الله تعالى (٩٦: ١٤) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى؟ وقال تعالى (٤: ١) إِنْ اللَّهَ كَانَ
 عَلَيْكُمْ رَقِيبًا وقال تعالى (٤٠: ١٩) يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ.
 وفي الصحيح من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم «مَرَّ
 بِرَجُلٍ — وَهُوَ يَعْطُ أَخَاهُ فِي الْحَيَاءِ — فَقَالَ: دَعْنِي فَإِنَّ الْحَيَاءَ مِنَ الْإِيمَانِ».
 وفيهم عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
 «الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ».

وفيهم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «الْإِيمَانُ
 ضَعُ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً — أَوْ بَعْضُ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً — فَأَفْضَلُهَا: قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وَأَدْنَاهَا
 إِصَابَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ. وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ».
 وفيهم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ فِي خِذْرِهَا. فَإِذَا رَأَى شَيْئًا يَكْرَهُهُ عَرَفَنَاهُ فِي وَجْهِهِ».
 وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم «إِنْ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ الْأُولَى: إِذَا
 لَمْ تَسْتَغْ فَاصْنَعِ مَا شِئْتَ» وفي هذا قولان.

أحدهم: أنه أمر تهديد. ومعناه الخبر: أي من لم يستغ صنع ما شاء.
 والثاني: أنه أمر إباحة. أي أنظر إلى الفعل الذي تريد أن تفعله. فإن كان مما لا يستحي منه
 فافعله. وإلا وإن أصح. وهو قول الأكثرين.
 وفي الترمذي مرفوعاً «اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ. قَالُوا: إِنَّا نَسْتَحْيِي بِرَسُولِ اللَّهِ.
 قَالَ: لَيْسَ ذَلِكَ، وَلَكِنْ مِنْ اسْتَحْيَى مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ فَلْيَحْفَظِ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى.
 وَلْيَحْفَظِ الْبَطْنَ وَمَا حَوَى. وَلْيَذْكُرِ الْمَوْتَ وَالْيَلَّ. وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا. فَمَنْ
 فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَى مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ».

• حياة القلب في الحياء

و «الحياء» من الحياة. ومنه «الحيا» للمطر، لكن هو مقصور. وعلى حسب حياة القلب يكون فيه قوة تُخلق الحياء. وقلة الحياء من موت القلب والروح. فكلما كان القلب أحيى كان الحياء أتم.

قال الجنيد - رحمه الله: الحياء رؤية الآلاء. ورؤية التقصير، فيتولد بينهما حالة تسمى الحياء. وحقيقته خلق يبعث على ترك القبائح. ويمنع من التفريط في حق صاحب الحق. وقال السري: إن الحياء والأنس بطرقان القلب. فإن وجد في الزهد والورع وإلا رحلا. وقال الفضيل بن عياض: خمس من علامات الشقوة: القسوة في القلب. وجود العين. وقلة الحياء. والرغبة في الدنيا. وطول الأمل.

وقال يحيى بن معاذ: من استحيى من الله مطيعاً استحيى الله منه وهو مذهب. ومعناه: أن من غلب عليه خلق الحياء من الله حتى في حال طاعته. فقلبه مطرق بين يديه إطراق مستح خجل: فإنه إذا واقع ذنباً استحيى الله عز وجل من نظره إليه في تلك الحال لكرامته عليه. فيستحي أن يرى من وليه ومن يكرّم عليه: ما يشينه عنده. كما أنه حياء كرم وبر وجود وجلال. فإنه تبارك وتعالى حيي كريم يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفراً. ويستحي أن يعذب ذا شية شابت في الإسلام.

• أنواع الحياء

وقد قسم «الحياء» على عشرة أوجه: حياء جنابة وحياء تقصير. وحياء إجلال. وحياء كرم. وحياء حشمة. وحياء استصغار للنفس واحتقار لها. وحياء محبة. وحياء عبودية. وحياء شرف وعزة. وحياء المستحي من نفسه.

فأما حياء الجنابة: فمنه حياء آدم عليه السلام لما قرّ هارباً في الجنة. قال الله تعالى: أفرأى مني يا آدم؟ قال: لا يارب. بل حياء منك.

وحياء التقصير: كحياء الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فإذا كان يوم القيامة قالوا: سبحانك! ما عبدناك حق عبادتك.

وحياء الإجلال: هو حياء المعرفة. وعلى حسب معرفة العبد بربه يكون حياءه منه. وحياء الكرم: كحياء النبي صلى الله عليه وسلم من القوم الذين دعاهم إلى وليمة زينب، وظلّوا الجلوس عنده. فقام واستحيى أن يقول لهم: انصرفوا.

وحياء الحشمة: كحياء على بن طالب رضى الله عنه أن يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المذى لمكان ابنته منه.

وحياء الاستحغار، واستصغار النفس: كحياء العبد من ربه عز وجل حين يسأله حوائجه، احتقاراً لشأن نفسه، واستصغاراً لها.

وقد يكون لهذا النوع سببان.

أحدهم: استحغار السائل نفسه. واستعظام ذنوبه وخطاياها.

الثاني: استعظام مسؤوله.

وأمر حياء المحبة: فهو حياء المحب من محبوبه، حتى إنه إذا خطر على قلبه في غيبته حاج الخياء من قلبه، وأحس به في وجهه. ولا يدرى ما سببه. وكذلك يمرض للمحب عند ملاقاته محبوه ومفاجأته له روعة شديدة. ومنه قولهم «جمال رائم» وسبب هذا الحياء والروعة مما لا يعرفه كثير الناس.

وأمر حياء العبودية: فهو حياء ممتزج من محبة وخوف. ومشاهدة عذم صلاح عبوديته لعبوده، وأن قدره على وأجل منها. فعبوديته له توجب استحياؤه منه لاختلافه.

وأمر حياء الشرف والعزة: فحياء النفس العظيمة الكبيرة إذا صدر منها ما هو دون قدرها من مدح وعطاء وإحسان. فإنه يستحي مع بذله حياء شرف نفس وعزة. وهذا له سببان.

أحدهما: هذا. والثاني. استحيائه من الآخذ، حتى كأنه هو الآخذ السائل. حتى إن بعض أهل كرم لا تطاوعه نفسه بمواجهته لمن يعطيه حياء منه. وهذا يدخل في حياء التلوم. لأنه يستحي من خجلة الآخذ.

وأمر حياء المرء من نفسه: فهو حياء النفوس الشريفة العزيزة الرفيعة من رضاها لنفسها بالنقص، وقتناعتها بالدون فيجد نفسه مستحياً من نفسه، حتى كأن له نفسين، يستحي بإحدهم من الأخرى. وهذا أكمل ما يكون من الحياء. فإن العبد إذا استحيى من نفسه. فهو دائماً يستحي من غيره أجدر.

• حياء الرقابة

وأمر الحياء: حياء يتولد من علم العبد بنظر الحق إليه. فيجذبه إلى تحمل هذه المجاهدة. ويحمّله على استقبح الجنائى. ويسكت عن الشكوى.

فإن العبد متى علم أن الرب تعالى ناظر إليه أورثه هذا العلم حياء منه. يجذبه إلى احتمال أعداء صفة.

وأرفع منه درجة: الاستقبح الحاصل عن المحبة. فاستقبح المحب أتم من استقبح الخائف. ولذلك فإن هذا الحياء يكف العبد أن يشتكى لغير الله. فيكون قد شكّا الله إلى حلقه. ولا يمنع الشكوى إليه سبحانه. فإن الشكوى إليه سبحانه فقر، وذلة، وفاقة، وعبودية. فالحياء منه في مثل ذلك لا ينافيها.

● الحياء من الإبطاء في التشمير

ثم أرفع منه: حياء يتولد من النظر في علم القرب فيدعو إلى ركوب المحبة. ويربطه بروح الأنس. ويكرّه إليه ملابسة الخلق.

والنظر في علم القرب هو تحقق القلب بالمعية الخاصة مع الله. فإن المعية نوعان: عامة. وهى: معية العلم والإحاطة. كقوله تعالى (٥٧: ٤) وهو معكم أينما كنتم) وقوله (٥٨: ٧) ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم، ولا خمسة إلا هو سادسهم، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا).

وخاصة: وهى معية القرب، كقوله تعالى (١٦: ١٣٨) إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) وقوله (٢: ١٥٣) إن الله مع الصابرين) وقوله (٢٩: ٦٩) وإن الله مع المحسنين).

فهذه معية قرب. تتضمن الموالاة، والنصر، والحفظ. وكلا المعينين مصاحبة منه للعبد. لكن هذه مصاحبة اطلاع وإحاطة. وهذه مصاحبة موالاة ونصر وإعانة. فـ «مع» في لغة العرب تفيد الصحبة اللاتقة، لا تشعر بامتزاج ولا اختلاط، ولا مجاورة، ولا مجانبة. فمن ظن منها شيئاً من هذا فمن سوء فهمه أئى.

وأما القرب: فلا يقع في القرآن إلا خاصاً. وهو نوعان: قربه من داعيه بالإجابة. وقربه من عابده بالإثابة.

فالأول: كقوله تعالى (٢: ١٨٦) وإذا سألك عبادى عنى؟ فإنى قريب. أجيب دعوة الداعى إذا دعان) ولهذا نزلت جواباً للصحابة رضى الله عنهم. وقد سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم «ربئنا قريب فتناجيه؟ أم بعيد فتناديه؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية». والثانى: قوله صلى الله عليه وسلم «أقرب ما يكون العبد من ربه: وهو ساجد. وأقرب ما يكون الرب من عبده: فى جوف الليل» فهذا قربه من أهل طاعته.

وفي الصحيح: عن أبي موسى رضي الله عنه. قال «كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر. فارتفعت أصواتنا بالتكبير. فقال: يا أيها الناس، اربعوا على أنفسكم. إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً. إن الذي تدعون سميع قريب. أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته».

فهذا قرب خاص بالداعي دعاء العبادة والثناء والحمد. وهذا القرب لا ينافي كمال مباينة الرب لخلقته. و مستواه على عرشه. بل يجامعه ويلازمه. فإنه ليس كقرب الأجسام بعضها من بعض. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. ولكنه نوع آخر. والعبد والشاهد يجد روحه قريبة جداً من محبوب بينه وبينه مفاور تنقطع فيها أعناق المطى. ويجده أقرب إليه من جليسه.

وأهل السنة أولياء رسول الله صلى الله عليه وسلم وورثته وأجباؤه الذين هو عندهم أول بهم من أنفسهم. وأحب إليهم منها: يجدون نفوسهم أقرب إليه. وهو في الأقطار النائية عنه من جيران حجرته في المدينة، والمحبون المشاقق للكعبة والبيت الحرام يجدون قلوبهم وأرواحهم أقرب إليها من جيرانها ومن حولها. هذا مع عدم تأني القرب منه. فكيف بمن يقرب من خلقه كيف يشاء، وهو مستوعب عرشه. وأهل الذوق لا ينتفتون في ذلك إلى شبهة معادل بعيد من الله، خلقي من محبته ومعرفته.

والقصد: أن هذا القرب يدعو صاحبه إلى ركوب المحبة. وكما ازداد حباً ازداد قرباً. فالمحبة بين قرينين: قرب قبلها، وقرب بعدها. وبير صيرفتين: معرفة قبلها حملت عليها، ودعت إليها، ودلت عليها. ومعرفة بعدها. هي من نتائجها وآثارها.

وأما ربطه بروح الأنس. فهو تعلق قلبه بروح الأندلس. تعلقاً لازماً لا يفارقه. بل يجعل بين القلب والأنس رابطة لازمة. ولا ريب أن هذا يُكرِّه إليه ملازمة الخلق. بل يجد الوحشة في ملا يستهم بقدر أنسه بربه، وقرّة عينه بحبه وقربه منه. فإنه ليس مع الله غيره. فإن لابسهم لابسهم برسمه دون برّه وروحه وقلبه. فقلبه وروحه في ملا. وبدنه ورسمه في ملا.

(٣٢) مَنَزَلَةُ الصَّادِقِ

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الصدق» وهو منزل القوم الأعظم. الذي منه تنشأ جميع منازل السالكين، والطريق الأقوم الذي من لم يسر عليه فهو من المنتظمين الهالكين. وبه تميز أهل النفاق من أهل الإيمان، وسكان الجنان من أهل النيرات. وهو سيف الله في أرضه الذي ما وضع على شيء إلا قطعه. ولا واجهه باطلاً إلا أنهضه وصردعه. من صال به لم ترد صولته. ومن نطق به علت على الخصوم كلمته. فهو روح الأعمال، ومحك الأحوال، والحامل على اقتحام الأهوال، وأنباب الذي دخل منه الواصلون إلى حضرة ذي الجلال. وهو أساس بناء الدين، وعمود قسطة اليقين. ودرجته تالية لدرجة «النسوة» التي هي أرفع درجات العالمين. ومن مساكنهم في الجنات: تجري العيون والأنهار إلى مساكن الصديقين. كما كان من قلوبهم إلى قلوبهم في هذه الدار مد متصل ومعين.

وقد أمر الله سبحانه أهل الإيمان: أن يكونوا مع الصادقين. وخص المنعم عليهم بالنبين والصديقين والشهداء والصالحين. فقال تعالى (١١٩:٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ وقال تعالى (٦٩:٤) وَمَنْ يَطْعَ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشَّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ فَهُمْ فِي رُفُقٍ الْأَعْلَى (وَحَسَنَ أُولَئِكَ رُفُقًا) ولا يزال الله يمدُّهم بأنعمه وألطافه ومزيده إحساناً منه وتوفيقاً. ولم مرتبة المعية مع الله. فمن الله مع الصادقين، ولم منزلة القرب منه. إذ درجتهم منه ثاني درجة النبیین. وأخبر تعالى أن مَنْ صَدَّقَهُ فهو خير له. فقال (٢١:٤٧) فَإِذَا عَزَمْتَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ).

وأخبر تعالى عن أهل البر. وأثنى عليهم بأحسن أعمالهم: من الإيمان، والإسلام، والصدقة، والصبر. بأنهم أهل الصدق فقال (١٧٧:٢) وَلَكِنْ أَتَيْنَا مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ. وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ. وَالسَّائِلِينَ، وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا. وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ. أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ).

وهذا صريح في ثن «الصدق» بالأعمال الظاهرة والباطنة. وأن «الصدق» هو مقام الإسلام والإيمان.

وقسم الله سبحانه الناس إلى صادق ومنافق. فقال (٣٣: ٢٤) ليحزى الله الصادقين بصدقهم. ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم). والإيمان أساسه الصدق. والنفاق أساسه الكذب. فلا يجتمع كذب وإيمان إلا وأحدهما محارب للآخر.

وأخبر سبحانه: أنه في يوم القيامة لا ينفع العبد وينجيه من عذابه إلا صدقه. قال تعالى (٥: ١١٩) هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم. لهم جنات تجري من تحتها الأنهار. خالدون فيها أبداً. رضى الله عنهم ورضوا عنه. ذلك الفوز العظيم) وقال تعالى (٣٩: ٣٤) والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون) فالذي جاء بالصدق: هو من شأنه الصدق في قوله وعمله وحاله. فالصدق: في هذه الثلاثة.

فالصدق في الأقوال: استواء اللسان على الأقوال، كاستواء السنبلة على ساقها. والصدق في الاعمال استواء الأفعال على الأمر والمتابعة كاستواء الرأس على الجسد والصدق في الأحوال: استواء أعمال القلب والجوارح على الإخلاص. واستفراغ الوسع، وبذل الطاقة. فبذلك يكون العبد من الذين جاءوا بالصدق. وبحسب كمال هذه الأمور فيه وقيامها به: تكون صديقيته. ولذلك كان لأبي بكر الصديق رضى الله عنه وأرضاه: ذروة مقام الصديقية، سُمي «الصديق» على الإطلاق، و«الصديق» أبلغ من الصدوق والصدوق أبلغ من الصادق.

فأعلى مراتب الصدق: مرتبة الصديقية. وهي كمال الانقياد للرسول صلى الله عليه وسلم، مع كمال الإخلاص للمرسِل.

وقد أمر الله تعالى رسوله: أن يسأله أن يجعل مَدْخَلَهُ وَمَخْرَجَهُ على الصَّدق. فقال (١٧: ٨٠) وَقُلْ: رَبِّ أَدْخِلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ. وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ. واجل لي من لَدُنْكَ سلطاناً نصيراً) وأخبر عن خليله إبراهيم صلى الله عليه وسلم، أنه سأله أن يهب له لسان صدق في الآخرين. فقال (٣٦: ٨٤) واجعل لي لسان صدق في الآخرين) وبشر عباده بأن لهم عنده قَدَمَ صدق، وَمَقْعَدَ صدق. فقال تعالى (١٠: ٢) وبشر الذين آمنوا أن لهم قَدَمَ صدق عند ربهم) وقال (٥٤: ٥٤، ٥٥) إن المتقين في جنات ونهر. في مَقْعَدٍ صِدْقٍ عند مليك مقتدر).

فهذه خمسة أشياء: مَدْخَلُ الصدق، وَمَخْرَجُ الصدق. ولسان الصدق، وقَدَمُ الصدق، ومَقْعَدُ الصدق.

وحقيقة الصدق في هذه الأشياء: هو الحق الثابت، المتصل بالله، الموصل إلى الله. وهو ما كان به وله، من الأقوال والأعمال، وجزء ذلك في الدنيا والآخرة. فمدخل الصدق، ومخرج الصدق: أن يكون دخوله وخروجه حقاً ثابتاً بالله، وفي مرضاته. بالتَّفَرُّق بالبغيّة، وحصول المطلوب، ضد مخرج الكذب ومدخله الذي لا غاية له يوصل إليها. ولا له ساق ثابتة يقوم عليها. كمخرج أعدائه يوم بدر. ومخرج الصدق كمخرجه صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه في تلك الغزوة.

وكذلك مدخله صلى الله عليه وسلم المدينة: كان مدخل صدق بالله، والله، وابتغاء مرضاة الله. فاتصل به التأييد، والظفر والنصر، وإدراك ما طلبه في الدنيا والآخرة، بخلاف مدخل الكذب الذي رام أعداؤه أن يدخلوا به المدينة يوم الأحزاب. فإنه لم يكن بالله، ولا لله، بل كان محادة لله ورسوله، فلم يتصل به إلا الخذلان واليوار.

وكذلك مدخل من دخل من اليهود المحاربين لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين بنى قُريظة. فإنه لما كان مدخل كذب: أصابه معهم ما أصابهم. فكل مدخل معهم ومخرج كان بالله والله. فصاحبه ضامن على الله. فهو مدحن صدق، ومخرج صدق. وكان بعض السلف إذا خرج من داره: رفع رأسه إلى السماء، وقال: اللهم إني أعوذ بك أن أخرج مغرباً لا أكون فيه ضامناً عليك.

يريد: أن لا يكون المخرج مخرج صدق. ولذلك قُسر مدخل الصدق ومخرجه: بخروجه صلى الله عليه وسلم من مكة، ودخوله المدينة. ولا ريب أن هذا على سبيل التمثيل فإن هذا المدخل والمخرج من أجل مداخله ومخارجه صلى الله عليه وسلم. والا فمدخله كلها مداخل صدق، ومخارجه مخارج صدق. إذ هي لله وبالله وبأمره، ولا ابتغاء مرضاته. ومخرج أحد من بيته ودخل سوقه - أو مدخل آخر - إلا بصدق أو بكذب، فمخرج كل واحد ومدخله: لا يعدو الصدق والكذب. والله المستعان.

وأما لسان الصدق: فهو الثناء الحسن عليه صلى الله عليه وسلم من سائر الأمم بالصدق. ليس ثناء بالكذب. كما قال عن إبراهيم وذريته من الأنبياء والرسل عليهم صلوات الله وسلامه (١٩: ٥٠) وجعلنا لهم لسان صدق غليظاً والمراد بالإنسان ههنا: الثناء الحسن. فله كان التصديق باللسان، وهو عمله. أطلق الله سبحانه ألسنة العباد بالثناء على الصادق، جزاء وفاق. وغيره عنه.

فإن اللسان يراد به ثلاثة معان: هذا، واللغة. كقوله تعالى (١٤: ٤) وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) وقوله (٣٠: ٢٢) واختلاف ألسنتكم وألوانكم) وقوله (١٦: ١٠٣) لسان الذي يلحدون إليه أعجمي. وهذا لسان عربي مبين) ويراد به الجارحة نفسها. كقوله تعالى (٧٥: ١٦) لا تحرك به لسانك لتعجل به).

وأما قدم الصدق: ففسر بالجنة. وفسر بمحمد صلى الله عليه وسلم. وفسر بالأعمال الصالحة. وحقيقة «القدم» ما قدموه وما يتقدمون عليه يوم القيامة. وهم قدّموا الأعمال والإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم، ويتقدمون على الجنة التي هي جزاء ذلك. فمن فسره بها أراد: ما يتقدمون عليه. ومن فسره بالأعمال وبالنبي صلى الله عليه وسلم: فلأنهم قدموها. وقدموا الإيمان به بين أيديهم. فالثلاثة قدّم صدق. وأما مقعد الصدق: فهو الجنة عند الرب تبارك وتعالى.

ووصف ذلك كله بالصدق مستلزم ثبوته واستقراره، وأنه حق، ودوامه ونفعه، وكمال عائدته. فإنه متصل بالحق سبحانه، كائن به وله، فهو صدق غير كذب. وحق غير باطل. ودائم غير زائل. ونافع غير ضار. وما للباطل ومتعلقاته إليه سبيل ولا مدخل. ومن علامات الصدق: طمأنينة القلب إليه. ومن علامات الكذب: حصول الرية، كما في الترمذى - مرفوعاً - من حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (الصدق طمأنينة. والكذب رية).

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (إن الصدق يهدي إلى البر. وإن البر يهدي إلى الجنة. وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً. وإن الكذب يهدي إلى الفجور. وإن الفجور يهدي إلى النار. وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً) فجعل الصدق مفتاح الصديقة ومبدأها. وهى غايته. فلا ينال درجتها كاذب أبته. لا في قوله، ولا في عمله، ولا في حاله. ولا سيما كاذب على الله في أسمائه وصفاته، ونفى ما أثبتته، أو إثبات ما نفاه عن نفسه. فليس في هؤلاء صديق أبداً.

وكذلك الكذب عليه في دينه وشرعه. بتحليل ما حرمه. وتحريم ما لم يحرمه. واسقاط ما اوجب، وإيجاب ما لم يوجب، وكراهة ما أحبه، واستحباب ما لم يحبه. كل ذلك مناف للصديقة.

وكذلك الكذب معه في الأعمال: بالتخلي بحلية الصادقين المخلصين، والزاهدين التوكلين. وليس في الحقيقة منهم.

فمنك كانت الصديقية: كمال الاخلاص والانقياد، والتابعة للخير والامر. ظاهراً
و- حقاً، حتى إن صدق المتبايعين يُجِلُّ البركة في بيعهما، وكذبهما يحق بركة بيعهما كما في
صحيحين عن حكيم بن حزام رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
(السيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كذبا وكتما:
فُحِقت بركة بيعهما)

• كلمات في حقيقة الصدق

ف- عبد الواحد بن زيد: الصدق الوفاء لله بالعمل.
وقيل: موافقة السر النطق.
وقيل: استواء السر والعلانية. يعني أن الكاذب علانيته خير من سريره. كالمنافق الذي
ظاهرة خير من باطنه.
وقيل: الصدق القول بالحق في مواطن الهلكة.
وقيل: كلمة الحق عند من يخافه وترجموه.
وقال الجنيد: الصادق يتقلب في اليوم أربعين مرة. والمرأى يثبت على حالة واحدة أربعين
سنة.
وهذا الكلام يحتاج إلى شرح. وقد يسبق إلى الذهن خلافه، وأن الكاذب متون. لأن
الكذب ألوان، فهو يتلون بتلونه. والصادق مستمر على حالة واحدة. فإن الصدق واحد في نفسه،
وصحبه لا يتلون ولا يتغير.
مكن مراد الشيخ أبى القاسم صحيح غير هذا. فإن المعارضات والواردات التي ترد على
الصدق لا ترد على الكاذب المرائي. بل هو فارغ منها. فإنه يرد عليه من يَلحق موارد
الصادقين على الكاذبين المرائين. ولا يعارضهم الشيطان. كما يعارض الصادقين. فإنه لا أرب
له في خيرية لأشياء فيها. وهذه الواردات توجب تقلب الصادق بحسب اختلافها وتنوعها. فلا
نراه لا هارباً من مكان إلى مكان ومن عمل إلى عمل. ومن حال إلى حال. ومن سبب إلى
سبب. لأنه يخاف في كل حال يطمئن إليها. ومكان وسبب: أن يقطعه عن مطلوبه. فهو لا
يسكن حالة ولا شيئاً دون مطلوبه. فهو كالمجول في الآفاق في طلب الغنى الذي يفوق به
الأغنياء. والأحوال والأسباب تتقلب به، وتقيمه وتقمده. وتحركه وتسكنه. حتى يجد فيها ما
يعينه على مطلوبه. وهذا عرير فيها. فقلبه في تقلب، وحركة شديدة بحسب سعة مطلوبه.

وعظمته ومهته أعلى من أن يصفه دواء مصد على رسمه وحال. وبه كرسية غيره فهو كالحب الصادق، الذي منه تنبتش على غيره. وكذا حال الصادق في طلب العلم، وحده الصادق في طلب الدنيا. فكل صادق في صب شيء لا يستقر له قرار. ولا يدوم على حالة واحدة.

وأيضاً: فإن الصادق مطلوبه رضا ربه، وتنبي أوامره، وتنبع عابه. فهو متقلب فيها يسير معها أين توجهت ركائبها. ويستقل معها أين ستقلت مضاربها. فبينما هو في صلاة إذ رأيته في ذكره، ثم في غزوه، ثم في أمر معروف، أو نهي عن منكر، أو في قيام سبب فيه عمارة الدين والدنيا، ثم في عيادة مريض، أو تشييع جثة، أو نصر مظلوم - إن أمكن - إلى غير ذلك من أنواع القرب والمنافع.

فهو في تفرق دائم لله، وجمعية على الله. لا يترك رسم ولا عادة ولا وضع. ولا يتقيد بقيد ولا بشرة. ولا يمكن معين يصلي فيه لا يصلي في غيره. وزبي معين لا يلبس سواء. وعبادة معينة لا يلتفت إلى غيرها. مع فض غيرها عليها. وهي أعلى من غيرها في الدرجة. وتعد ما بينهما كبعد ما بين السماء والأرض.

فإن البلاء والآفات والرياء والتصنع، وعبادة النفس، وإثارة مرادها، والإشارة إليها: كلها في هذه الأوضاع، والرسوم والقيود، التي حبست أربابها عن السير إلى قلوبهم. فضلاً عن السير من قلوبهم إلى الله تعالى. فإذا خرج أحدهم عن رسمه ووضع وزيه وقيدته وإشارته - ولو إلى أنضل منه - استهجن ذلك. ورأه نقصاً، وسقوطاً من أعين الناس، وانحطاطاً لرتبته عندهم. وهو قد انحط وسقط من عين الله.

وقد يحس أحدهم ذلك من نفسه وحاله. ولا تدعه رسومه وأوضاعه وزيه وقيوده: أن يسمى في ترميم ذلك وإصلاحه. وهذا شأن الكذاب حرائي الذي ييدي للناس خلاف ما يعلمه الله من باطنه، العامل على عمارة نفسه ومرتبته. وهذا هو النفاق بعينه. ولو كان عاملاً على مراد الله منه، وعلى الصدق مع الله: لأنقلته تلك القيود، وحبسته تلك الرسوم، ولرأى الوقوف عندها ومعها عين الانقطاع عن الله لا إليه. ولما بالي أني ثوب لبس، ولا أتى عمل عمل، إذا كان على مراد الله من العبد.

فكلام أبي القاسم الجنيد حق، كلام رسخ في الصدق، عالم بتفاصيله وآفاته، ومواقع اشتباهه بالكذب.

وأيضاً فحمل الصدق كحمل الجبال الرواسي. لا يطيقه إلا أصحاب الغزائم. فهم يتقلبون تحته تقلب الحامل بحمله الثقيل. والرياء وكذب خفيف كالريشة لا يجد له صاحبه ثقلاً

البيت . فهو حامل له في أي موضع اتفق ، بلا تعب ولا مشقة ولا كلفة . فهو لا يتقلب تحت حمله ولا يجند عقله .

وقال بعضهم : لا يشم رائحة الصدق عبد داهن نفسه أو غيره .
وقال إبراهيم الخواص : الصادق لا تراه إلا في فرض يؤديه ، أو فضل يعمل فيه .
وقال الجنيد : حقيقة الصدق : أن تصدق في موطن لا ينجيك منه إلا الكذب .
وقيل : ثلاث لا تحطىء الصادق : الحلاوة ، والملاحة ، والهيبة .

• صدق الاستدراك

وَأَوَّلُ الصدق : صدق القصد ، وبه يتلافى كل تفريط ، ويتدارك كل فائت ، ويعمر كل خراب . وعلامة هذا الصادق : أن لا يتحمل داعية تدعو إلى نقض عهد ، ولا يصبر على صحة ضد ، ولا يقعد عن الجد بحال .

وذلك : كمال العزم ، وقوة الإرادة ، بأن يكون في القلب داعية صادقة إلى السلوك ، وميل شديد يقهر السر على صحة التوجه . فهو طلب لا يمازجه رياء ولا فتور . ولا يكون فيه قسمة بحال . ولا يصح 'الدخول في شأن السفر إلى الله ، والاستعداد للقاءه إلا به .

وهو حامل على كل سبب ينال به الوصول ، وقطع كل سبب يحول بينه وبينه . فلا يترك فرصة تفوته . وما فات من القرص السابقة تداركها بحسب الإمكان . فيصلح من قلبه ما قرّنته يد الغفلة والشهوة . ويُعَمِّر منه ما خربته يد البطالة . ويوقد فيه ما أطفأته أهوية النفس . وَيُلْئِم منه ما شَعَثته يد التفريط والإضاعة . ويسترد منه ما نهبتة أَكْثَف اللصوص والسراق . ويزرع منه ما وجده بوراً من أراضيه . ويقلع ما وجده شوكا وشبرقا في نواحيه . ويستفرغ منه ما ملأته مواد الأخلاط الرديئة الفاسدة المترامية به إلى الهلاك والعطب . ويداوي منه الجراحات التي أصابته من عبرت الرياء . ويفسل منه الأوساخ والخبوات التي تراكت عليه على تقادم الأوقات ، حتى لو اطلع عليه لأحزنه سواده ووسخه الذي صار دباغاً له ، فيطهره بالماء البارد من يتابع الصدق الخالصة من جميع الكدورات ، قبل أن يكون طهره بالحميم والحميم . فإنه لا يجاور الرحمن قسب دنس بأوساخ الشهوات والرياء أبداً . ولا بد من طهر . فالليب يؤثر أسهل الطهورين وأنفعهما . والله المستعان .

وَالصَادِقُ حقيقة : هو الذي قد انجذبت قوى روحه كلها إلى إرادة الله وطلبه ، والسير إليه ، والاستعداد للقاءه . ومن تكون هذه حاله : لا يحتمل سببا يدعو إلى نقض عهده مع الله بوجه . وكذا لا يصبر على صحة الضد ، وهم أهل الغفلة ، وقضاع طريق القلب إلى الله . وأضر

تبي على الصادق: صحبتهم، بل لا تصبر نفسه على ذلك أبداً، إلا جمع ضرورة. وتكون صحبتهم، له في تلك الحال بقلبه وشيخه، دون قلبه وروحه. فإن هذا لما استحكمت الغفلة عليه كما استحكم الصدق في الصادق: أحست روحه بالأجنبية التي بينه وبينهم بالمضادة فاشتدت النفرة. وقوى الحرب. وبحسب هذه الأجنبية وإحساس الصادق بها: تكون نفرة وهربه عن الأضداد. فإن هذا الضد إن نطق أحس قلب الصادق: أنه نطق بلسان الغفلة، والرياء والكبر، وطلب الجاه. ولو كان ذا كراً أو قارناً، أو مصلحاً أو حاجاً، أو غير ذلك. فنفر قلبه منه. وإن صمت أحس قلبه: أنه صمت على غير حضور وجمعية على الله، وإقبال بالقلب عليه، وعكوف السر عليه. فينفر منه أيضاً. فإن قلب الصادق قوى الإحساس.

فيجد الغيرة والأجنبية من الضد. ويشم القلب القلب كما يشم الرائحة الخبيثة. فيزوى وجهه لذلك. ويعتريه عبوس. فلا يأنس به إلا تكلفاً. ولا يصاحبه إلا ضرورة. فيأخذ من صحبتته قدر الحاجة، كصحبة من يشتري منه، أو يحتاج إليه في مصالحه، كالزوجة والخادم ونحوه.

• كثير قليل

وهذه المنزلة تقوده إلى أن لا يتمنى الحياة إلا للحق، ولا يشهد من نفسه إلا أثر النقصان، فهو لا يحب أن يعيش إلا ليشيع من رضا محبوبه. ويقوم بعبوديته. ويستكثر من الأسباب التي تقربه إليه، وتدنيه منه. لا لعله من علل الدنيا. ولا لشهرة من شهراتها، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه «لولا ثلاث لما أحببت البقاء: لولا أن أحمل على جياذ الخيل في سبيل الله، ومكابدة الليل، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام، كما يلتقي أطايب التمر». يريد رضي الله عنه: الجهاد، والصلاة، والعلم النافع. وهذه درجات الفضائل. وأهلها هم أهل الزلفى، والدرجات العليا.

وقال معاذ رضي الله عنه عند موته «اللهم إنك تعلم أنني لم أكن أحب البقاء لجرى الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولا لنكح الأزواج، ولكن لظماً للمواجر، ومكابدة الليل، ومزاحة العلماء بالركب عند جلق الذكر».

وهو في ذلك لا يرى نفسه إلا مقصراً. والموجب له لهذه الرؤية: استعظام مطلوبه. واستصغار نفسه، ومعرفة بعبوديتها، وقلة زاده في عينه. فمن عرف الله وعرف نفسه: لم ير نفسه إلا بعين النقصان.

وأيضاً: فإن الصادق مضطر - أشد ضرورة - إلى متابعة الأمر، والتسليم للرسول صلى الله عليه وسلم، في ظاهره وباطنه، والافتداء به، والتعبد بطاعته في كل حركة وسكون، مع إخلاص التقصد لله عز وجل. فإن الله تعالى لا يرضيه من عبده إلا ذلك. وماعدا هذا فقوت النفس، وبجرد حفظها، وإتباع أهوائها. وإن كان فيه من المجاهدات والرياضات والخلوات ما كثر. فإن الله سبحانه وتعالى أبى أن يقبل من عبده عملاً، أو يرضى به، حتى يكون على متابعة رسوله صلى الله عليه وسلم، خالصاً لوجهه سبحانه.

ومن ههنا يفارق الصادق أكثر السالكين. بل يستوحش في طريقه. وذلك لقلّة سالكيها. فإن أكثرهم سائرون على طرق أذواقهم، وتجريد أنفاسهم لنفوسهم، والصادق في وادٍ. وهؤلاء في وادٍ.

﴿٣٣﴾ مَنَزِلَةُ الْإِثَارِ

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الإيثار» قال الله تعالى (١٦:٦٤) وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ، ومن يوق شَحْمَ نفسه فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ.

فالإيثار ضد الشح. فإن المؤثر على نفسه تارك لما هو محتاج إليه. والشحيح: حريص على ما ليس بيده. فإذا حصل بيده شيء شَحَّ عليه. وبخل بإخراجه. فالبخل ثمره الشح. والشح يأمر بالبخل، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم (إياكم والشح. فإن الشح أهلك من كان قبلكم. أمرهم بالبخل فبخلوا. وأمرهم بالقطيعة فقتلوا).
فالبخيل: من أجاب داعي الشح. والمؤثر: من أجاب داعي الجود. كذلك السخاء عما في أيدي الناس هو السخاء. وهو أفضل من سخاء البذل. قال عبد الله بن المبارك: سخاء النفس عما في أيدي الناس أفضل من سخاء النفس بالبذل.

وهذا المنزل: هو منزل الجود والسماحة. وسمي بمنزل «الإيثار» لأنه أعلى
إحداها: أن لا يتقصه البذل، ولا يصعب عليه. فهو منزلة «السخاء».
الثانية: أن يعطى الأكثر، ويُبْقَى له شيء، أو يبقى مثل ما أعطى. فهو «الجود».
الثالثة: أن يؤثر غيره بالشيء مع حاجته إليه، وهو مرتبة «الإيثار» وعكسها «الأثرة» وهي استئثاره عن أخيه بما هو محتاج إليه. وهي المرتبة التي قال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم للأَنْصَارِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ (إنكم ستلقون بعدي أثرة. فاصبروا حتى تلقوني على الحوض) والأنصار: هم الذين وصفهم الله بالإيثار في قوله (١٦:٦٤) وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ فوصفهم بأعلى مراتب السخاء، وكان ذلك فيهم معروفاً.
وكان قيس بن سعد بن عباد رضى الله عنهما من الأجواد المعروفين. حتى إنه مرض مرة، فاستبطأ إخواته في العيادة. فسأل عنهم؟ فقالوا: إنهم كانوا يستحيون بمالك عليهم من الدين.

فقال: أخزى الله ما لا يمنع الإخوان من الزيارة. ثم أمر منادياً ينادي: من كان لقيس عليه مال فهو منه في حل. فما أسمى حتى انحسرت عتبة بابه، لكثرة من عاده.

فتأمل سر التقدير، حيث قدر الحكيم الخير — سبحانه — استثثار الناس على الأنصار بالدنيا — وهم أهل الإيثار — ليجازيهم على إيثارهم إخوانهم في الدنيا على نفوسهم بالمنازل العالية في جنات عدن على الناس. فتظهر حينئذ فضيلة إيثارهم ودرجته و يغبطهم من استأثر عليهم بالدنيا أعظم غبطة. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

فاذا رأيت الناس يستأثرون عليك — مع كونك من أهل الإيثار — فاعلم أنه خير يراد بك. والله سبحانه وتعالى أعلم.

• مصاعد الجود

و «الجود» عشر مراتب.

أحدها: الجود بالنفس. وهو أعلى مراتبه، كما قال الشاعر:

يجود بالنفس، إذ صَنَّ البخیل بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود
الثانية: الجود بالرياسة. وهو ثاني مراتب الجود. فيحمل الجواد جوده على امتحان رياسته،
والجود بها. والإيثار في قضاء حاجات الملتزم.

الثالثة: الجود براحته ورفاهيته، وإحسان نفسه. فيجود بها تعباً وكذاً في مصلحة غيره. ومن
هذا جود الإنسان بنومه ولذته لمسايره، كما قيل:

مُتَّيِّمٌ بالندي، لو قال سائله: هب لي جميع كرى عينيك، لم يتم

الرابعة: الجود بالعلم وبذله. وهو من أعلى مراتب الجود. والجود به أفضل من الجود بالمال.
لأن العلم أشرف من المال.

والناس في الجود به على مراتب متفاوتة. وقد اقتضت حكمة الله وتقديره الناقد: أن لا ينفع
به بخيلاً أبداً.

ومن الجود به: أن تبذله لمن لم يسألك عنه، بل تطرحه عليه طرْحاً.

ومن الجود بالعلم: أن السائل إذا سألَكَ عن مسألة: استقصيت له جوابها جواباً شافياً، لا
يكون جوابك له بقدر ما تدفع به الضرورة، كما كان بعضهم يكتب في جواب الفتيا «نعم» أو
«لا» مقتصرأً عليها.

ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية — قدس الله روحه — في ذلك أمراً عجيباً:
 كان إذا مثل عن مسألة حكمية، ذكر في جوابها مذاهب الأئمة الأربعة، إذا قدر، وماخذ
 الخلاف، وترجيح القول الراجح. وذكر متعلقات المسألة التي ربما تكون أنفع للسائل من
 مسألته. فيكون فرحه بتلك المتعلقات، واللوازم: أعظم من فرحه بمسألته. وهذه فتاويه — رحمه
 الله — بين الناس. فمن أحب الوقوف عليها رأى ذلك .
 فمن جود الإنسان بالعلم: أنه لا يقتصر على مسألة السائل. بل يذكر له نظائرها ومتعلقاتها
 ومأخذها، بحيث يشفيه ويكفيه.

وقد سألت الصحابة رضي الله عنهم النبي صلى الله عليه وسلم عن المتوضئ بماء البحر؟
 فقال (هر الطهور ماؤه، الحل ميثه) فأجابهم عن سؤالهم. وجاد عليهم بما لهم في بعض
 الأحيان إليه أخرج مما سألوه عنه.

وكانوا إذا سألوه عن الحكم نيههم على علة وحكمته. كما سألوه عن بيع الرطب بالتمر؟
 فقال (أيتقص الرطب إذا جف؟ قالوا: نعم. قال: فلا. إذن) ولم يكن يخفى عليه صلى
 الله عليه وسلم نقصان الرطب بجفافه، ولكن نيههم على علة الحكم. وهذا كثير جداً في أجوبته
 صلى الله عليه وسلم. مثل قوله (إن بيعت من أخيك ثمرة. فأصابتها جائحة فلا يحل لك أن
 تأخذ من مال أخيك شيئاً. ثم يأخذ أحدكم مال أخيه؟ بغير حق؟) وفي لفظ (أرأيت إن
 منع الله البشعة: ثم يأخذ أحدكم مال أخيه، بغير حق؟) فصرح بالعلة التي يحرم لأجلها
 إلزامه بالثمن. وهي تمنع الله الثمرة التي ليس للمشتري فيها صنع.

الخامسة: الجود بالنفع بالجاء. كالشفاعة والمشي مع الرجل إلى ذي سلطان ونحوه. وذلك
 زكاة الجاء المطالب بها العبد. كما أن التعليم ويذكر العلم زكاته.

السادسة: الجود بنفع البدن على اختلاف أنواعه. كما قال صلى الله عليه وسلم (يُضَيِّحُ
 على كل سَلَامَى من أحدكم صدقة. كل يوم تطلع فيه الشمس، يعدل بين اثنين: صدقة. ويبعين الرجل في دابته، فيحمله عليها، أو يرفع له عليها متاعه: صدقة. والكلمة
 الطيبة: صدقة، وبكل خُطوة يمشيها الرجل إلى الصلاة: صدقة. ويُيمِط الأذى عن
 الطريق: صدقة) متفق عليه.

السابعة: الجود بالعرض، كجود أبي سفيان رضي الله عنهم. كان إذا أصبح
 قال «اللهم إنه لا مال لي، أتصدق به على الناس. وقد تصدقت عليهم بعرضي، فمن شئني، أو

قذفتني: فهو في حل. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: من يستطيع منك أن يكون كأبي
ضمضم؟».

وفي هذا الجود من سلامة الصدر، وراحة القلب، والتخلص من معاداة الخلق ما فيه.

الثامنة: الجود بالصبر، والاحتمال، والإغضاء. وهذه مرتبة شريفة من مراتبه. وهي أنفع
لصاحبها من الجود بالمال، وأعز له وأنصر، وأمنك لنفسه، وأشرف لها. ولا يقدر عليها إلا
النفوس الكبار.

فمن صعب عليه الجود بما له فعليه بهذا الجود. فإنه يجتنى ثمرة عواقبه الحميدة في الدنيا قبل
الآخرة. وهذا جود الفتوة. قال تعالى (٥: ٤) والجروح قصاص. فمن تصدق به فهو كفارة
له. وفي هذا الجود. قال تعالى (٢: ٤٠) وجزاء سيئة سيئة مثلها. فمن عفا وأصلح فأجره
على الله. إنه لا يحب الظالمين) فذكر المقامات الثلاثة في هذه الآية: مقام العدل، وأذن فيه.
ومقام الفضل، وتنبإ إليه. ومقام الظلم، وحرمة.

التاسعة: الجود بالخلق والبشر والبسطة. وهو فرق الجود بالصبر، والاحتمال والعفو. وهو
الذي بلغ بصاحبه درجة الصائم القائم. وهو أثقل ما يوضع في الميزان. قال النبي صلى الله عليه
وسلم (لا تحقيرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك ووجهك منكسر إلىه) وفي هذا
الجود من المنافع والمساير. وأنواع المصالح ما فيه. والعبد لا يمكنه أن يسهم بخلقه واحتماله.

العاشرة: الجود بركة ما في أيدي الناس عليهم. فلا يتلفت إليه. ولا يستشرف له بقلبه، وإلا
يتعرض له بحاله، ولا لسانه. وهذا الذي قال عبد الله بن المبارك «إنه أفضل من سخاء النفس
بالبدل».

فلسان حال القدر يقول للفقير الجواد: وإن لم أعطك ما تجود به على الناس، فبجودك عليهم
بزهك في أموالهم. وما في أيديهم، تفضل عليهم، وتزاحمهم في الجود، وتنفرد عنهم بالراحة.
ولكل مرتبة من مراتب الجود مزيد وتأثير خاص في القلب والحال. والله سبحانه قد ضمن
المزيد للجواد، وإلا تلاف للممسك. والله المستعان.

● سعة الضيق

وبداية غارتقاء في مدارج الايثار: ان مؤثر الخلق على نفسك فيما لا يخفى عليك ديناً. ولا يقطع عليك طريقاً، ولا يفسد عليك وقتاً. وذلك بأن تقدمهم على نفسك في مصالحهم. مثل أن تطعمهم وتجويع. وتكسوهم وتغرى، وتسقيهم وتنظم، بحيث لا يؤدي ذلك الى ارتكاب إتلاف لا يجوز في الدين. ومثل أن تؤثرهم بما لك وتقتد كلاً مضطراً، مستشرفاً للناس او سائلاً.

وما أن لا يقطع عليك طريقاً: فذلك طريق الطلب والمسير الى الله تعالى، مثل أن تؤثر جليستك على ذكرك، وتوجهك وجميعتك على الله. فتكون قد آثرته على الله. وآثرت بنصيبك من الله ما لا يستحق الإيثار. فيكون مثلك كمثل مسافر سائر على الطريق لقيه رجل فاستوقفه، وأخذ يتحدث به ويهيه حتى فاتته الرفاق. وهذا حال أكثر الخلق مع الصادق السائر الى الله تعالى. فايثارهم عليه عين الغيب، الا ان تكون مجالسة ضيف او نحوه. فان ذلك من تمام الجود والايثار، كما ذكرنا.

وكذلك لا يثر بما يفسد على المؤثر وقته: قبيح ايضاً. او يؤثر بأمر قد جمع قلبه وهمته على الله. فيفرق قلبه عنه بعد جميعته، ويشتت خاطره، فهذا ايضاً ايثار غير محمود.

وكذلك لا يثار باشتغال القلب والفكر في مهماتهم ومصالحهم التي لا تمنع عليك، على الفكر النافع وشتغال القلب بالله، ما لم يكن نصر مظلوم واغاثة هفان او شفاعة حسنة. ومن هذا تكلم الفقهاء في الايثار بالقرّب. وقالوا: إنه مكروه أو حرام. كمن يؤثر بالصف لأو غيره ويتخبر هو، أو يؤثره بقربه من الإمام يوم الجمعة، أو يؤثر غيره بالأذان والإقامة.

● لا تحف في الله لومة لائم

و يظل السائر يرتقي حتى يؤثر رضى الله على رضى غيره، وإن عظمت فيه المحن، وثقلت فيه المؤن، وضعف عنه الظل والبدن.

فهو يريد و يفعل ما فيه مرضاته، ولو أغضب الخلق. وهي درجة الأنبياء. وأعلاها للرسل عليهم صلات الله وسلامه. وأعلاها لأولى العزم منهم. وأعلاها لنبينا صلى الله عليه وسلم وعليهم. فإنه قاوم العالم كله. وتجرد للدعوة الى الله. واحتمل عداوة البعيد والقريب في الله تعالى. وآثر رضى الله على رضى الخلق من كل وجه. ولم يأخذ في إيثار رضاء لومة لائم. بل كان همّه وعزمه وسعيه كله مقصوداً على إيثار مرضاة الله، وتبليغ رسالته، وإعلاء كلماته، وجهاد أعدائه. حتى ظهر دين الله على كل دين. وقامت حجة على العالمين. وقمت نعمته على

المؤمنين. فبلغ الرسالة. وأدّى الأمانة. ونصح الأمة. وجاهد في الله حق جهاده. وعبد الله حتى اتاه اليقين من ربه. فلم يزل أحد من درجة هذا الإيثار مانال. صلوات الله وسلامه عليه.

والمحنة تعظم على صاحب هذا الإيثار، ليتأخر من ليس من أهله؛ فإذا احتملها وتقدم؛ انقلبت تلك المحن منحة. وصارت تلك المون عوناً. وهذا معروف بالتجربة الخاصة والعامة. فإنه ما أثر عبد مرضاة الله عز وجل على مرضاة الخلق، وتعمل ثقل ذلك ومؤنته، وصبر على محنته؛ إلا أنشأ الله من تلك المحنة والمؤنة نعمة ومسرة، ومعونة بقدر ما تحمل من مرضاته. فانقلبت مغاورة أماناً، ومظان عظيمه بحاة، وتعبه راحة، ومؤنته معونة، وبلية نعمة، ومحنته منحة، وسخطه رضى. فيا خيبة المتخلفين، ويا ذلة المهيبين.

هذا، وقد جرت سنة الله — التي لا تبديل لها — أن من أثر مرضاة الخلق على مرضاته: أن يسخط عليه من أثر رضاه، ويخذله من جهته. ويجعل محنته على يديه. فيعود حامده ذاماً. ومن أثر مرضاته ساخطاً. فلا على مقصوده منهم حصل، ولا إلى ثواب مرضاة ربه وصل. وهذا أعجز الخلق وأحقهم.

هذا مع أن رضى الخلق: لامقدور، ولا مأمور، ولا ماثور. فهو مستحيل. بل لا بد من سخطهم عليك. فلا تزل يسخطوا عليك وتغور برضى الله عنك أحب اليك وأنفع لك من أن يسخطوا عليك والله عنك غير راض. فإذا كان سخطهم لا بد منه — على التقديرين — فأثير سخطهم الذي ينال به رضى الله. فإن هم رضوا عنك بعد هذا، وإلا فأهون شيء رضى من لا يتفعل رضاه. ولا يضرك سخطه في دينك، ولا في إيمانك، ولا في آخرتك. فإن ضرك في أمر يسير في الدنيا فمضرة سخط الله أعظم وأعظم. وخاصة العقل: احتمال أدنى المفسدين لدفع أعلامها. وتفويت أدنى المصحين لتحصيل أعلامها. فوازن بعقلك. ثم انظر أي الأمرين خير وأثمة، وأيهما شر فأبتعد عنه فهذا برهان قطعي ضروري في إثبات رضى الله على رضى الخلق.

هذا مع أنه إذا أثر رضى الله كفاه الله مؤنة غضب الخلق. وإذا أثر رضاه له بكفوه مؤنة غضب الله عليه.

قال الشافعي رضى الله عنه. رضى الناس غاية لا تدرك. فعليك بما فيه صلاح نفسك ودينك. ومن المعلوم: أن المؤثر رضى الله متصلاً لمادة الخلق وأدبه. وسببهم في إتلافه ولا. هذه سنة الله في خلقه. وإلا فبذنوب الأنبياء والرسل، والذين يأمرون بالفلسف من سر والقائمين بدين الله، الذابين عن كتابه وسنة رسوله عندهم.

فمن آثر رضى الله فلا بد أن يعاديه رذالة العالم وسقطتهم، وجُهالم، وأهل البدع والفجور منهم، وأهل انرياسات الباطلة، وكل من يخالف هديه هديه. فما يقدم على معاداة هؤلاء إلا طالب الرجوع إلى الله، عامل على سماع خطاب (٢٧: ٨٩ - ٣٠) يا أيها النفس المطمئنة. أرجعي إلى ربك راضية مرضية) ومن إسلامه صُلب كامل لا تزعزعه الرجال. ولا تقلقه الجبال، ومن عقد عزيمة صبره مُخجّم لا تحُلّه الحزن والشدائد والمخاوف.

وملاك ذلك أمران: الزهد في الحياة والثناء. فما ضعف من ضعف، وتأخر من تأخر إلا بحبه للحياة والبقاء، وثناء الناس عليه، ونفرت من ذمهم له. فإذا زهد في هذين الشينين، تأخرت عنه العواض كلها. وانغمس حينئذ في المساكر.

وملاك هذين الشينين بشيتين: صحة اليقين. وقوة المحبة.

وملاك هذين بشيتين أيضاً: بصدق اللجأ والطلب، والتصدي للأسباب الموصلة إليهما.

فإلى ههنا تنتهي معرفة الخلق وقدرتهم، والتوفيق بعد بيد من أزمة الأمور كلها بيده (٣١، ٣٠: ٧٦) وما تشاءون إلا أن يشاء الله. إن الله كان عليه حكيمًا. يدخل من يشاء في رحمته. والظالمين أعَدَّ لهم عذاباً أليماً).

(٣٤) مَنَزِلَةُ الْخُلُقِ

ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين منزلة (الخلق)

قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (٤:٦٨) وإنا لك لعل خلق عظيم). قال ابن عباس وبجاهد: لعل حين عظيم، لا دين أحب إلى ولا أرضى عندى منه. وهو دين الإسلام. وقال الحسن رضى الله عنه: هو آداب القرآن.

وقال قتادة: هو ما كان يأمر به من أمر الله. وينهى عنه من نهى الله. والمعنى: إنك لعل الخلق الذي آثرك الله به في القرآن.

وفي الصحيحين: أن هشام بن حكيم «سأل عائشة رضى الله عنها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالت: كان خلقه القرآن. فقال: لقد هممت أن أقوم ولا أسأل شيئاً».

وقد جمع الله له مكارم الأخلاق في قوله تعالى (٧:١٩٩) خذ العفو. وأعرض عن الجاهلين) قال جعفر بن محمد: أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بمكارم الأخلاق. وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية. وقد ذكر: أنه لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل (ما هذا؟ قال: لا أدري حتى أسأل، فسأل. ثم رجع إليه. فقال: إن الله يأمرك أن تَصِلَ من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك).

ولاريب أن للمطاع مع الناس ثلاثة أحوال.

أحدها: أمرهم ونهيهم بما فيه مصلحتهم.

الثاني: أخذهم منهم ما يذولونه بما عليهم من الطاعة.

الثالث: أن الناس معه قسمان: موافق له موال، ومعارض. وعليه في كل واحد من

هذه واجب.

فواجبه في أمرهم ونهيهم: أن يأمر بالمعروف. وهو المعروف الذي به صلاحهم وصلاح شأنهم. وينهاهم عن ضده.

وواجبه فيما يذلونه له من الطاعة: أن يأخذ منهم ما سب عليهم، وطوعت له به أنفسهم،
بمباحة واختياراً. ولا يحملهم على العنت والمشقة فيفسدهم.

وواجبه عند جهل الجاهلين عليه: الإعراض عنهم. وعدم مقابلتهم بالمثل والانتقام منهم
لنفسه. فقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (٧: ١٩٩) خذ العفو وأمر بالعرف.
وأعرض عن الجاهلين) قال عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما: أمر الله نبيه أن يأخذ العفو
من أخلاق الناس. وقال مجاهد: يعني خذ العفو من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تحسيس،
مثل قبول الأعذار، والعفو والمساهلة، وترك الاستقصاء في البحث، والتفتيش عن حقائق
بواطنهم.

وقال ابن عباس رضى الله عنهما: خذ ماعفا لك من أموالهم. وهو الفاضل عن العيال،
وذلك معنى قوله تعالى (٢: ٢١٩) ويسألونك ماذا ينفقون؟ قل: العفو).

ثم قال تعالى (وأمر بالعرف) وهو كل معروف. وأعرف: التوحيد. ثم حقوق العبودية
وحقوق العبيد.

ثم قال تعالى (وأعرض عن الجاهلين) يعني إذا سفه عليك الجاهل فلا تقابله بالسفه.
كقوله تعالى (٢٥: ٦٣) وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا: سلاماً) وعلى هذا فليست بمنسوخة. بل
يمرض عنه مع إقامة حق الله عليه. ولا ينتقم لنفسه.

وهكذا كان خلقه صلى الله عليه وسلم. قال أنس رضى الله عنه «كان رسول الله صلى
الله عليه وسلم أحسن الناس خلقاً» وقال «ما مسنتُ ديباجاً ولا خيراً ألين من كف
رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولا شممت رائحة قط أطيب من رائحة رسول الله صلى
الله عليه وسلم. ولقد خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين. فما قال لي
قط: أف. ولا قال لشيء فعلته: لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلت كذا؟» متفق
عليهما.

وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم «أن البر: هو حسن الخلق».
وفي صحيح مسلم عن النواس بن سمعان رضى الله عنه قال «سألت رسول الله صلى الله
عليه وسلم عن البر والإثم؟ فقال: البر حسن الخلق. والإثم ما حاك في صدرك. وكرهت
أن يطلع عليه الناس».

فقابل البر بالإثم. وأخبر: أن البر حسن الخلق. والإثم: حوار الصدور. وهذا يدل على أن
حسن الخلق: هو الدين كله. وهو حقائق الإيمان، وشرائع الإسلام. ولهذا قابله بالإثم.

وفي حديث آخر «البر: ما أطمأنت إليه النفس، والإثم فاحاك في الصدر» وقد فسر حسن الخلق بأنه البر. فدل على أن حسن الخلق: طمأنينة النفس والقلب. والإثم حواز الصدور، وماحاك فيها، واسترابت به. وهذا غير حسن الخلق وسوئه في عرف كثير من الناس. كما سيأتي في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (خياركم: أحاسنكم أخلاقاً). وفي الترمذي عن أبي الدرداء رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم «ممن شيء أنقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق. وإن الله تعالى ليبغض الفاحش البذيء» قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وفيه أيضاً — وصححه — عن أبي هريرة رضى الله عنه (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ فقال: تقوى الله، وحسن الخلق. وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار؟ فقال: الفم والفرج).

وفيه أيضاً عن عائشة رضى الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم — وصححه — «إن من أكمل المؤمنين إيماناً: أحسنهم خلقاً. وخياركم: خياركم لنسائهم». وفي الصحيح عن عائشة عنه صلى الله عليه وسلم «إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم» رواه أبو داود.

وعن ابن عمر رضى الله عنهما عنه صلى الله عليه وسلم «أنا زعيم ببيت في ربض الجنة: لمن ترك المراء وإن كان محققاً. وبيت في وسط الجنة: لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً، وبيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه» رواه الطبراني وإسناده صحيح. فجعل البيت العلوى جزءاً لأعلى المقامات الثلاثة. وهي حسن الخلق. والوسط لاوسطها. وهو ترك الكذب. والأدنى لأدناها. وهو ترك الماراة، وإن كان معه حق. ولاريب أن حسن الخلق مشتمل على هذا كله.

وفي الترمذي عن جابر رضى الله عنه عنه صلى الله عليه وسلم (إن من أحبكم إلى، وأقربكم منى مجلساً يوم القيامة: أحاسنكم أخلاقاً. وإن من أبغضكم إلى وأبعدكم منى يوم القيامة: الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون. قالوا: يا رسول الله. قد علمنا الثرثارون والمتشدقون. فما المتفيهقون؟ قال: المتكبرون) الثرثار: هو كثير الكلام بغير فائدة دينية. والمتشدد: المتكلم بملء فيه تفاصلاً وتماظماً وتطاولاً، وإظهاراً لفضله على غيره. وأصله: من الفهن. وهو الامتلاء.

• الاخلاق الاساسية

وحسن الخلق يقوم على أربعة أركان. لا يتصور قيام ساقه إلا عليها: الصبر، والعفة، والشجاعة، والعدل.

فالصبر: يحمله على الاحتمال وكظم الغيظ، وكف الأذى، والحلم والإنابة والرفق، وعدم الطيش والعجلة.

والعفة: تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل، وتحمله على الحياء. وهو رأس كل خير. وتمتعه من الفحشاء، والبخل والكذب، والغيبة والتميمة.

والشجاعة: تحمله على عزة النفس، وإثارة معالي الأخلاق والشيم، وعلى البذل والندى، الذي هو شجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب ومفارقته. وتحمله على كظم الغيظ والحلم. فإنه بقوة نفسه وشجاعته يسك عنانها، ويكبحها بلجامها عن النزغ والبطش. كما قال النبي صلى الله عليه وسلم (ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد: الذي يملك نفسه عند الغضب) وهو حقيقة الشجاعة، وهي ملكة يقتدر بها العبد على قهر خصمه.

والعدل: يحمله على اعتدال أخلاقه، وتوسطه فيها طرفي الإفراط والتفريط. فيحمله على خلق الجود والسخاء الذي هو توسط بين الذل والقحة. وعلى خلق الشجاعة، الذي هو توسط بين الجبن والتهور. وعلى خلق الحلم، الذي هو توسط بين الغضب والمهانة وسقوط النفس.

ومنشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة.

ومنشأ جميع الأخلاق الساقطة، وبناءؤها على أربعة أركان: الجهل. والظلم. والشهوة. والغضب.

فالجهل: يريه الحسن في صورة القبيح، والقبيح في صورة الحسن. والكمال نقصاً والنقص كمالاً.

والظلم: يحمله على وضع الشيء في غير موضعه، فيغضب في موضع الرضى، ويرضى في موضع الغضب، ويجهل في موضع الأناة، ويبخل في موضع البذل، ويذل في موضع البخل، ويحجم في موضع الإقدام، ويقدم في موضع الإحجام، ويلين في موضع الشدة، ويشد في موضع اللين، ويتواضع في موضع العزة، ويتكبر في موضع التواضع. والشهوة: تحمله على الحرص والشح والبخل، وعدم العفة والتهمة والجشع، والذل والدناءات كلها.

والغضب: يحمله على الكبر والحقد والحسد، والمدوان والسفه.

و يتركب من بين كل خلقين من هذه الأخلاق: أخلاق مذمومة.
وملائكة هذه أربعة أصناف: إفراط الشفس في الضعف، وإفراطها في القوة فيتولد من
إفراطها في الضعف: المهانة والبخل، والخسة واللؤم، والذل والحرص، والشح وشفس الأمور
والأخلاق.

و يتولد من إفراطها في القوة: الظلم والغضب والحدة، والفحش والطيش.
فالأخلاق الذميمة: يولد بعضها بعضاً، كما أن الأخلاق الحميدة: يولد بعضها بعضاً.
وكل خلق عمود مكتنف بخلقين ذميين. وهو وسط بينهما. وطرفاه خلقان ذميان،
كالجود: الذي يكتنفه خلقا البخل والتبذير. والتواضع: الذي يكتنفه خلقا الذل والمهانة.
والكبر العلو.

فإن النفس متى انحرفت عن «التوسط» انحرفت الى أحد الخلقين الذميين ولا بد، فإذا
انحرفت عن خلق «التواضع» انحرفت: إما الى كبر وعلو، وإما الى ذل ومهانة وحقارة. وإذا
انحرفت عن خلق «الحياء» انحرفت: إما الى قحة وجراءة، وإما الى عجز وتخور ومهانة، بحيث
يُطِيع في نفسه غيره. و يفتقر كثير من مصالحه. و يزعم أن الحامل له على ذلك الحياء. وإنما
هو المهانة والعجز. وموت النفس.

وكذلك إذا انحرفت عن خلق «الصبر المحمود» انحرفت: إما الى جزع وهلع وجشع
وتخبط. وإما الى غلظة كبد، وقسوة قلب، وتعجز طبع.
وإذا انحرفت عن خلق «الحلم» انحرفت: إما الى الطيش والترف والحدة والحفظة، وإما الى
الذل والانهانة والحقارة. ففرق بين من حلمه حلم ذل ومهانة وحقارة وعجز، وبين من حلمه حلم
اقتدار وعزة وشرف. كما قيل:

كَيْلَ حِلْمٍ أُنْصِفَ بِغَيْرِ اقْتِدَارٍ حِجَّةٌ لِأَجَىءٍ إِلَيْهَا اللَّشَامُ

وإذا انحرفت عن خلق «الأناة والرفق» انحرفت: إما الى عجلة وطيش وعنف، وإما الى
تفريط وإضاعة. والرفق والأناة بينهما.

وإذا انحرفت عن خلق «العزة» التي وهبها الله للمؤمنين، انحرفت: إما الى كبر، وإما الى
ذل. والعزة المحمودة بينهما.

وإذا انحرفت عن خلق «الشجاعة» انحرفت: إما الى تهور وإقدام غير محمود، وإما الى جبن
وتأخر مذموم.

وإذا انحرفت عن خلق «المنافسة في المراتب العالية والغلبة» انحرفت: إما الى حسد، وإما
الى مهانة، وعجز وذل ورضى بالدون.

إذا انحرفت عن «القناعة» انحرفت: أما إلى حرص وكنّ، وأما إلى نخسة ومهانة وإضاعة.

وإذا انحرفت عن خلق «الرحمة» انحرفت: إما إلى قسوة، وإما إلى ضعف قلب وجبن نفس، كمن لا يقدم على ذبح شاة، ولا إقامة حد، وتأديب ولد. ويزعم أن الرحمة تحمله على ذلك. وقد ذبح أرحم الخلق صلى الله عليه وسلم بيده في موضع واحد ثلاثاً وستين بدنة. وقطع الأيدي من الرجال والنساء، وضرب الأعناق. وأقام الحدود ورجم بالحجارة حتى مات المرجوم. وكان أرحم خلق الله على الإطلاق وأرأفهم.

وكذلك طلاقة الوجه، والبشر المحمود. فإنه وسط بين التعيس والتعطيب وتصغير الحد، وطى البشر عن البشر، وبين الاسترسال بذلك مع كل أحد، بحيث يذهب الهيبة، ويزيل الوقار، ويطمع في الجانب، كما أن الانحراف الأول يقع الوحشة والبغضة، والثغرة في قلوب الخلق.

وصاحب الخلق الوسط: مهيب محبوب، عزيز جانيه، حبيب لقائه. وفي صفة نبينا صلى الله عليه وسلم (من رآه بديهة هابه. ومن خالطه عشرة أحبه) والله أعلم.

• فضيلة المغالية

اعلم أن أصعب ماعلى الطبيعة الإنسانية: تغيير الأخلاق التي طبعت النفوس عليها. وأصحاب الرياضات الصعبة والمجاهدات الشاقة إنما عملوا عليها، ولم يظفر أكثرهم بتبديلها. لكن النفس اشتغلت بتلك الرياضات عن ظهور سلطانها. فإذا جاء سلطان تلك الأخلاق وبرز: كسر جيوش الرياضة وشتتها. واستولى على مملكة الطبع.

وهذا فصل يصل به السالك مع تلك الأخلاق. ولا يحتاج إلى علاجها وإزالتها. ويكون سيره أقوى وأجل وأسرع من سير العامل على إزالتها.

ونقدم قبل هذا مثلاً نضربه. مطابقاً لما نريده. وهو: نهر جار في صبيبه ومُتَحَدِّره، ومُتَوَسِّط إلى تغريق أرض وعمران ودور. وأصحابها يعلمون أنه لا ينتهي حتى يُخَرَّب دورهم. ويتلف أراضيهم وأموالهم. فانقسموا ثلاث فرق.

فرقة صرفت قواها وقوى أعمالها إلى سكره وحبه وإيقافه. فلا تصنع هذه الفرقة كبير أمر. فإنه يوشك أن يجتمع ثم يحمّل على السكر، فيكون إفساده وتغريبه أعظم.

وفرقة رأت هذه الحالة. وعلمت أنه لا يفتني عنها شيئاً. فقالت: لا خلاص من محذوره إلا بقطعه من أصل التنوع. فرامت قطعة من أصله. فتعذر عليها ذلك غاية التعذر، وأبت الطبيعة

النهرية عسيهم ذلك أشد الإباء، فهم دائماً في قطع الينبوع، وكلما سده من موضع نبع من موضع، فاشتغل هؤلاء بشأن هذا النهر عن الزراعات والعمارات وغرس الأشجار.

جاءت فرقة ثالثة، خالفت رأى الفرقتين. وعلموا أنهم قد ضاع عليهم كثير من مصالحهم. فأخذوا في صرف ذلك النهر عن مجراه المنتهى إلى العمران، فصرفوه إلى موضع ينتفعون بوصوله إليه. ولا يتضررون به. فصرفوه إلى أرض قابلة للنبات. وسقوها به. فأنبث أنواع العشب والكلأ والتمر المختلفة الأصناف، فكانت هذه الفرقة هم أصوب الفرق في شأن هذا النهر.

فإذا تبين هذا المثل، قاله سبحانه قد اقتضت حكمته: أن ركب الإنسان — بل وسائر الحيوان — على طبيعة محمولة على قوتين: غضبية. وشهوانية. وهي الإرادية.

وهاتان القوتان هما الحاملتان لأخلاق النفس وصفاتها. وهما مركزتان في جيلة كل حيوان. فيقوة الشهوة والإرادة: يجذب المنافع إلى نفسه. ويقوة الغضب: يدفع المضار عنها. فإذا استعمل الشهوة في طلب ما يحتاج إليه: تولد منها الحرص. وإذا استعمل الغضب في دفع المضرة عن نفسه: تولد منه القوة والغيرة فإذا عجز عن ذلك المضار: أورهت قوة الحق. وإن أعجزه وصول ما يحتاج إليه. ورأى غيره مستبداً به: أورهت الحسد. فإن ظفر به. أورهت شدة شهوته وإرادته: خلق البخل والشح. وإن اشتد حرصه وشهوته على الشيء، ولم يمكنه تحصيله إلا بالقوة الغضبية، فاستعصم فيها: أورهت ذلك العدوان، والبغى والظلم. ومنه يتولد: الكبير والفخر والحيلاء. فإنها أخلاق متولدة من بين قوتي الشهوة والغضب.

فإذا تبين هذا: فالتنهر مثال هاتين القوتين. وهو منصّب في جدول الطبيعة ومجراها إلى دور القسب وعمرانه وحواصله، يجربها و يتلفها ولا بد: فالنفوس الجاهلة الظالمة تركته ومجراه. فخيرب ديار الإيمان. وقلع آثاره. وهدم عمرانه. وأنبث موضعها كل شجرة خبيثة، من حُظُل وضريع وشوك وزقوم. وهو الذي يأكله أهل النار يوم القيامة يوم المعاد.

وأما النفوس الزكية الفاضلة: فإنها رأت ما يؤول إليه أمر هذا النهر. فافترقوا ثلاث فرق.

فأصحاب الرياضات والمجاهدات، والخلوات والتمرينات: راموا قطعه من ينبوعه. فأبى عليهم ذلك حكمة الله تعالى، وما طبع عليه الجيلة البشرية. ولم تنقد له الطبيعة. فاشتد القتال. ودام الحرب. وحى الوطيس. وصارت الحرب دولا وسجالا. وهؤلاء صرفوا قواهم إلى مجاهدة النفس على إزالة تلك الصفات.

وفرقة أعرضوا عنها. وشغلوا نفوسهم بالأعمال. ولم يحيبوا دواعي تلك الصفات مع تخليتهم إياها على مجراها، لكن لم يمتكنوا نهراً من إفساد عمرانهم. بل اشتغلتوا بتحسين العمران، وإحكام بنيانه وأساسه ورأوا أن ذلك النهر لا بد أن يصل إليه. فإذا وصل وصل إلى بناء محكم فلم يهدمه. بل أخذ عنه يميناً وشمالاً. فهؤلاء صرفوا قوة عزيمتهم وإرادتهم في العمارة، وإحكام

البناء . وأولئك صرفوها في قطع المادة الفاسدة من أصلها، خوفاً من هدم البناء .
وقد سألت عن هذه المسألة بعض الشيوخ؟ فقال لي: مثال آفات النفس مثال الحيات
والمقارب التي في طريق المسافر. فإن أقبل على تفتيش الطريق عنها، والاشتغال بقتلها:
انقطع. ولم يمكنه السفر قط. ولكن لتكن همتك المسير، والإعراض عنها، وعدم الالتفات إليها.
فإذا عرض لك فيها ما يعوقك عن المسير فاقتله. ثم امض على سيرك
إذا تبين هذا. فهذه الفرقة الثالثة: رأت أن هذه الصفات ما خلقت سُدى ولا عبثاً. وأنها
بمنزلة ماء يُشقى به الورد، والشوك، والثمار، والحطب، وأنها صوان وأصداف لجواهر منطوية
عليها. وأن ما خاف منه أولئك هو نفس سبب الفلاح والظفر. فראوا أن الكبر نهر يسقى به العلو
والفخر، والبطر والظلم والعدوان. ويسقى به علو الهمة، والألفة، والحمية، والمراعاة لأعداء
الله، وقهرهم والعلو عليهم. وهذه درة في صدفته. فصرفوا مجراه إلى هذا الفراس. واستخرجوا
هذه الدرة من صدفته. وابقوه على حاله في نفوسهم. لكن استعملوه حيث يكون استعماله أنفع.
وقد (رأى النبي صلى الله عليه وسلم أبا لجانة يتبخر بين الصفيين. فقال: إنها كَيْشِيَّة
يغضها الله، إلا في مثل هذا الموضع).

فانظر كيف خلى مجرى هذه الصفة وهذا الخلق يجري في أحسن مواضعه.
وفي الحديث الآخر— وأظنه في المسند — (إن من الخلاء ما يعجبها الله. ومنها ما يبغضها
الله. فالخلاء التي يحبها الله: اختيال الرجل في الحرب، وعند الصدفة).
فانظر كيف صارت الصفة المذمومة عبودية؟ وكيف استحال القاطع موصلاً؟
فصاحب الرياضات، والعامل بطريق الرياضات والمجاهدات، والخلاوات: هيئات هيات،
إنما يوقعه ذلك في الآفات، والشبهات، والفضالات. فإن تزكية النفوس مُسَلَّم إلى الرسل. وإفنا
بعثهم الله لهذه التزكية وولاهم إياها. وجعلها على أيديهم دعوة، وتعليماً وبياناً، وإرشاداً،
لاخلاقاً ولا إماماً. فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم. قال الله تعالى (٢: ٦٢) هو الذي بعث في
الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته. ويزكيهم. ويعلمهم الكتاب والحكمة. وإن كانوا
من قبل لفي ضلال مبين) وقال تعالى (٢: ١٥١، ١٥٢) كما أرسلنا فيكم رسولا منكم
يتلو عليكم آياتنا، ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة. ويعلمكم ما لم تكونوا
تعلمون. فاذكروني أذكركم. واشكروا لي ولا تكفرون).

وتزكية النفوس: أصعب من علاج البدان وأشد. فمن زكى نفسه بالرياضة والمجاهدة
والخلوة، التي لم يحمى بها الرسل: فهو كالمرضى الذي يعالج نفسه برأيه، وأين يقع رأيه من
معرفة الطبيب؟ فالرسل أطباء القلوب. فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحتها إلا من طريقهم. وعلى
أيديهم، ومحض الانقياد، والتسليم لهم. والله المستعان.

• من كل حسب قدرته

وأساس الاخلاق: أن تعرف مقام الخلق. وأنهم بأقدارهم مربوطون. وفي طاقتهم محبسون. وعلى الحكماء موقوفون. فتستفيد بهذه المعرفة ثلاثة أشياء: أمن الخلق منك، وعبة الخلق إليك، ونجاة الخلق بك.

فبهيئة الدرجة: يكون تحسين الخلق مع الخلق في معاملتهم، وكيفية مصاحبتهم. فانك إذا عرفت مقام الخلق، ومقاديرهم، وجريان الأحكام القدريّة عليهم، وأنهم مقيدون بالقدر، لا خروج لهم عنه ألبتة، ومحبسون في قدرتهم وطاقاتهم. لا يمكنهم تجاوزها إلى غيرها، وأنهم موقوفون على الحكم الكوني القدري لا يتعدونه، استفدت بهذه المعرفة ثلاثة أشياء: أمن الخلق منك. وذلك: أنه إذا نظر إليهم بعين الحقيقة. لم يطالبهم بما لا يقدرُونَ عليه. وامتنل فيهم أمر الله تعالى كنبيه صلى الله عليه وسلم بأخذ العفو منهم. فأمنوا من تكليفه إياهم وإلزامه لهم ما ليس في قواهم وقدرهم.

وأيضاً فإنهم يأمنون لامتته. فإنه في هذه الحال عاذر لهم فيما يجري عليهم من الأحكام فيما لم يأمر الشرع بإقامته فيهم. لأنهم إذا كانوا محبوسين في طاقتهم فينبغي مطالبهم بما يطالب به المحبوس، وعذرهم بما يعذره المحبوس. وإذا بدا منهم في حقل تقصير أو إساءة، أو تفريط. فلا تقابلهم به ولا تخاصمهم. بل اغفر لهم ذلك واعذرهم. نظراً إلى جريان الأحكام عليهم، وأنهم آلة. وههنا ينفعك الفناء بشهود الحقيقة عن شهود جنانيتهم عليك، كما قال بعض العارفين لرجل تعدى عليه وظلمه: إن كنت ظالماً فالذي سلكك علىّ ليس بظالم. وههنا للعبد أحد عشر مشهداً فيما يصيبه من أذى الخلق وجنانيتهم عليه.

• عن الدعاة ستة كونية قضاها الله

أحدها: هذا، وهو مشهد «القدر»، وأن ماجرى عليه: بشيئة الله وقضائه وقدره. فبراه كالشأذى بالحر والبرد، والمرض والألم، وهبوب الرياح، وانقطاع الأمطار. فإن الكل أوجبت مشيئة الله. فما شاء الله كان. ووجب وجوده. وما لم يشأ لم يكن، وامتنع وجوده. وإذا شهد هذا: استراح. وعلم أنه كائن لا محالة. فما للجزع منه وجه. وهو كالجزع من الحر والبرد والمرض والموت.

• للصبر في المحن لذة

المشهد الثاني: مشهد «الصبر» فيشهد وجوبه، وحسن عاقبته، وجزاء أهله، وما يترتب عليه من الغبطة والسرور. ويخلصه من تدامة المقابلة والانتقام. فما انتقم أحد لنفسه قط إلا أعقبه ذلك تدامة. وعلم أنه إن لم يصبر اختباراً على هذا — وهو عمود — صبر اضطراراً على أكبر منه. وهو مدمر.

• عز العفو

المشهد الثالث: مشهد «العفو والصفح والحلم» فإنه متى شهد ذلك وقضه وحلاوته وعزته: لم يعدل عنه إلا لعش في بصيرته. فإنه (ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً) كما صح ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم. وعلم بالتجربة والوجود. وما انتقم أحد لنفسه إلا ذلك. هذا، وفي الصفح والعفو والحلم: من اخلاوة والطمأنينة والسكينة، وشرف النفس، وعزها ورفعتها عن تشغيبها بالانتقام: عايش شيء من في المقابلة والانتقام.

• فرضي ليرضى

المشهد الرابع: مشهد «الرضا» وهو فوق مشهد «العفو والصفح» وهذا لا يكون إلا للنفس المطمئنة، سيما إن كان ما أصيب به سببه القيام لله. فإذا كان ما أصيب به في الله، وفي مرضاته وعبته: رضى بما تألها في الله. وهذا شأن كل عب صادق، يرضى بما يناله في رضا محبوبه من المكافاة. ومتى تخط به وتشكى منه، كان ذلك دليلاً على كذبه في محبته.

• نحسن لمن أساء

المشهد الخامس: مشهد «الإحسان» وهو أرفع مما قبله. وهو أن يقابل إساءة الميء إليه بالإحسان. فيحسن إليه كلما أساء هو إليه. ويهون هذا عليه علمه بأنه قد ربح عليه، وأنه قد أهدى إليه حسناته، وعماها من صحيفته. وأثبتها في صحيفة من أساء إليه. فيبقي لك أن تشكره، وتحسن إليه بما لاتبه له إلى ما أحسن به إليك.

وههنا ينفع استحضار مسألة اقتضاء المبة الثواب. وهذا المسكين قد وهبك حسنة. فإن كنت من أهل الكرم فأثبه عليها، لتثبت المبة. وتأمين رجوع الواهب فيها. وفي هذا حكايات معروفة عن أرباب المكارم. وأهل الغزائم. ويهورنه عليك أيضاً: علمك بأن الجزء من جنس العمل. فإن كان هذا عملك في إساءة المخلوق اليك عفوت عنه. وأحسن اليه، مع حاجتك وضعفك وفقره وذلك. فهكذا يفعل المحسن القادر العزيز الغني بك في إساءتك. يقابلها بما قابلت به إساءة عبده اليك. فهذا لا بد منه.

• خواطر النار تتهلك القلب

الشهد السادس: مشهد «السلامة وبرد القلب» وهذا مشهد شريف جداً لمن عرفه، وذاق حلاوته. وهو أن لا يشتغل قلبه بغيره بما ناله من الأذى، وطلب الوصول الى درك ثاره، وشفاة نفسه. بل يفرغ قلبه من ذلك. ويرى أن سلامته وبرده وخلوه منه أنفع له. وألذ وأطيب. وأعون على مصالحه. فإن القلب إذا اشتغل بشيء فاته ما هو أهم عنده، وخير له منه. فيكون بذلك مغنياً. والرشد لا يرضى بذلك. ويرى أنه من تصرفات السفيه. فأين سلامة القلب من امتلأه بالغفل والوساوس، وإعمال الفكر في ادراك الانتقام؟

• العفو يقطع الحاح الجاهل في الظلم

الشهد السابع: مشهد «الأمن» فإنه إذا ترك المقابلة والانتقام: أمن ما هو شر من ذلك. وإذا انتقم: واقع الخوف ولا بد. فإن ذلك يزرع العداوة. والباطل لا يأمن عدوه، ولو كان حقيراً. فكيف من حقير أردى عدوه الكبير؟ فإذا غفر، ولم ينتقم، ولم يقابل: أمن من تولد العداوة، أو زيادتها. ولا بد أن عفوه وحلمه وصفحه يكسر عنه شوكة عدوه. ويكف من جزعه، بعكس الانتقام. والواقع شاهد بذلك أيضاً.

• صفقة رابحة ثمنها: عرض ودماء

الشهد الثامن: مشهد «الجهاد» وهو أن يشهد تولد أذى الناس له من جهاده في سبيل الله. وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر. وإقامة دين الله، وإعلاء كلمته.

وصاحب هذا النقام: قد اشترى الله منه نفسه وماله وعرضه بأعظم الثمن. فإن أراد أن يستلم إليه الثمن فليسلم هو السلعة ليستحق ثمنها. فلا حق له على من آذاه. ولا شيء له قبله، إن كان قد رضى بعقد هذا التبايع. فإنه قد وجب أجره على الله. وهذا ثابت بالنصر وإجماع الصحابة رضى الله عنهم. ولهذا منع النبي صلى الله عليه وسلم المهاجرين من سكنى مكة — أعزها الله — ولم يَرُدَّ على أحد منهم داره ولا ماله الذي أخذه الكفار. ولم يضمنهم دية من قتلوه في سبيل الله.

ولما عزم الصديق رضى الله عنه على تضمين أهل الردة ما أتلفوه من نفوس المسلمين وأموالهم. قال له عمر بن الخطاب رضى الله عنه — بمشهد من الصحابة رضى الله عنهم «تلك دماء وأموال ذهبت في الله. وأجورها على الله. ولا دية لشهيد» فأصفق الصحابة على قول عمر. ووافقوه عليه الصديق.

فمن قام لله حتى أودى في الله: حرم الله عليه الانتقام. كما قال لقمان لابنه (١٧:٣١) وأمر بالمعروف. وآتة عن المنكر. واصبر على ما أصابك. إن ذلك من عزم الأمور.

• تكفير الخطايا بالمحسن : نعمة

المشهد التاسع: مشهد «النعمة» وذلك من وجوه. أحدها: أن يشهد نعمة الله عليه في أن جعله مظلوماً يترقب النصر. ولم يجعله ظالماً يترقب المقت والأخذ. فلو خُيِّرَ العاقل بين الحالتين — ولابد من إحداهما — لاختار أن يكون مظلوماً. ومنها: أن يشهد نعمة الله في التكفير بذلك من خطاياهم. فإنه ما أصاب المؤمن هم ولا غم ولا أذى إلا كفر الله به من خطاياهم. فذلك في الحقيقة دواء يستخرج به منه داء الخطايا والذنوب. ومن رضى أن يلقي الله بأدوائه كلها وأسقامه، ولم يداوه في الدنيا بدواء يوجب له الشفاء: فهو منبئون سقيه. فأذى الخلق لك كالدواء الكريه من الطبيب المشفق عليك. فلا تنظر إلى مرارة الدواء وكراهته ومن كان على يديه. وانظر إلى شفقة الطبيب الذي ركب لك، وبعث إليك على يدي من فقحك بمضرته.

ومنها: أن يشهد كون تلك اليلة أهون وأسهل من غيرها. فإنه مامن محنة إلا وفوقها ما هو أذى منها وأمر. فإن لم يكن فوقها محنة في البدن والمال فلينظر إلى سلامة دينه وإسلامه وتروحيده. وأن كل مصيبة دون مصيبة الدين فهينة. وأنها في الحقيقة نعمة. والمصيبة الحقيقية مصيبة الدين.

هـ . وإن العبد ليشتد فرحه يوم القيمة بما له قَبِلَ الناس من الخُتوق في المال والنفس
وعرض . فالعاقِل يُعَدُّ هذا ذخراً ليوم الفقر والذقة . ولا يبطله بالانتقام الذي لا يجدي عليه شيئاً .

• على الدرب نجدد المثال

الشَّهيد العاشر: مشهد «الأسوة» وهو مشهد شريف لطيف جداً . فإن العاقل اللبيب يرضى
أن يكون له أسوة برسُل الله ، وأنبيائه وأوليائه ، وخاصته من خلقه . فإنهم أشد الخلق امتحاناً
بِالناس . وأذى الناس اليهم أسرع من السيل في الحدور . ويكفي تدبر قصص الأنبياء عليهم
السلام مع أمهم . وشأن نبيتنا صلى الله عليه وسلم وأذى أعدائه له بما لم يُؤدِّه من قبله . وقد قال
له وَرَقَةُ بْنُ تَوَيْلٍ «تَكْذِبِينَ . وَلْتَحْزَنِي . وَلْتَوَدِّي» وقال له «ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا
عودي . وهذا مستمر في ورثته كما كان في مورثهم صلى الله عليه وسلم .
أفلا يرضى العبد أن يكون له أسوة بخيار خلق الله ، وخواص عباده : الأمثل فالأمثل ؟ .
ومن أحب معرفة ذلك فليقف على محن العلماء ، وأذى الجهال لهم . وقد صنف في ذلك
ابن عبد البر كتاباً سماه «عن العلماء» .

• السائر الى الله لا توقفه الاشواك

الشَّهيد الحادي عشر: مشهد «التوحيد» وهو أجل المشاهد وأرفعها . فإذا امتلأ قلبه بحجة
الله ، وإخلاص له ومعاملته ، وإيثار مرضاته ، والتقرب اليه ، وفرة العين به ، والإنس به ،
وطمأن اليه . وسكن اليه . واشتاق الى لقائه ، واتخذة ولياً دون من سواه ، بحيث قَوَّض اليه أموره
كلها . ورضى به وبأقضيته . وفنى بحبه وخوفه ورجائه وذكره والتوكل عليه . عن كل ما سواه :
فإنه لا يبقى في قلبه شئ من شهوة لأذى الناس له ألبتة . فضلاً عن أن يشتغل قلبه وفكره وبشره
بتطلب الانتقام والمقابلة . فهذا لا يكون إلا من قلب ليس فيه ما يغني عن ذلك ويعوض منه . فهو
قنبح جائع غير شبعان . فإذا رأى أي طعام رآه هَمَّتْ اليه نوازعه . وانبعثت اليه دواعيه . وأما من
متلأ قلبه بأعلى الأغذية وأشرفها : فإنه لا يلتفت الى مادونها . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .
ذو الفضل العظيم .

• اطلب العذر ... واشكر

ولا تتم هذه المشاهد الا بتحسين خلقك مع الحق تعالى ، بأن تعلم أن كل ما يأتي منك
يرجع عزراً ، وإن كل ما يأتي من الحق سبحانه يوجب شكراً .

وهذه الدرجة مبنية على قاعدتين:

أحدهما: أن تعلم أنك ناقص. وكل ما يأتي من الناقص ناقص. فهو يوجب اعتذاره منه
لإعماله. فعلى العبد أن يعتذر إلى ربه من كل ما يأتي به من خير وشر. أما الشر: فظاهر. وأما
الخير: فيمتد من نقصانه. ولا يراه صالحاً لربه.

فهو — مع إحسانه — معتذر في إحسانه. ولذلك مدح الله أوليائه بالوجل منه مع إحسانهم
بقوله (٢٣: ٦٠) والذين يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ وقال النبي صلى الله عليه وسلم (هو)
الرجل يصوم ، ويتصدق ، ويخاف أن لا يقبل منه) فإذا خاف فهو بالاعتذار أولى.

والحامل له على هذا الاعتذار أمران.

أحدهما: شهود تقصيره ونقصانه.

والثاني: صدق محبة. فإن المحب الصادق يتقرب إلى محبوبه بغاية إمكانه.

وهو معتذر إليه، مستحي منه: أن يواجهه بما واجهه به. وهو يرى أن قدره فوقه وأجل منه.
وهذا مشاهد في محبة المخلوقين.

القاعدة الثانية: استعظام كل ما يصدر منه سبحانه اليك، والاعتراف بأنه يوجب الشكر
عليك، وأنت عاجز عن شكره، ولا تبين هذا إلا في المحبة الصادقة. فإن المحب يستكثر من
محبوبه كل ما يناله. فإذا ذكره بشيء وأعطاه إياه: كان سروره بذكره له، وتأهيله لعطائه:
أعظم عنده من سروره بذلك العطاء بل يغيب سروره بذكره له عن سروره بالعطية.

● التجريدان المتكاملان

ومدار حسن الخلق مع الحق، ومع الخلق: على حرفين. ذكرهما عبد القادر الكيلاني فقال:

كن مع الحق بلا تخلق. ومع الخلق بلا نفس.

فتأمل. ما أجل هاتين الكلمتين، مع اختصارهما، وما أجمعهما لقواعد السلوك. ولكل خلق
جميل؟ وفساد الخلق إنما ينشأ من توسط احتق بينك وبين الله تعالى. وتوسط النفس بينك وبين
خليقه. فمضى عزلت الخلق — حال كونك مع الله تعالى — وعزلت النفس — حال كونك مع
الخلق — فقد فُزّت بكل ما أشار إليه القوم. وشرروا إليه. وحاموا حوله. والله المستعان.

(٣٥) مَنَازِلُ التَّوَّاضِعِ

ومن منازل «اياك تعبد واياك تستعين» منزلة «التواضع».

قال الله تعالى (٢٥:٦٣) وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً أي سكيناً ووقار متواضعين، غير أشربين، ولا مفرحين ولا متكبرين. قال الحسن: عداة حلماء. وقال محمد ابن نختبة: أصحاب وقار وعفة لا يفسهون. وإن شفه عليهم حلموا.

«واخون» - افتتح في اللغة: الرفق واللين. و«المون» بالضم: الهوان. فافتتح منه: صفة أهل الإيمان. والمضميم: صفة أهل الكفران. وجزأهم من الله التيران.

وقال تعالى (٥:٥٤) يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه. أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين).

لما كان - من منهم ذل رحمة وعطف وشفقة واختبات عداة بأداة «على» تضميناً لمعانى هذه الأفعال. فإنه - يرد به ذل الهوان الذي صاحبه ذليل. وإنما هو ذل اللين والانقياد الذي صاحبه ذلول. فالؤمن ذلول. كما في الحديث (المؤمن كالجمل الذلول. والمنافق والفاسق ذليل) وأربعة يمشتهم لذل أشد العشق: الكذاب. والنمام. والبخيل. والجبار.

وقوله «أعزة على الكافرين» هو من عزة القوة والمنعة والغلبة. قال عطاء رضي الله عنه: للمؤمنين كسالة لولده. وعلى الكافرين كالسبع على فريسته. كما قال في الآية الأخرى (٤٨:٢٩) أشد على الكفار رحماً بينهم).

وفي صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ: أَنْ تَوَاضَعُوا، حَتَّى لَا يَفْخَرُ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ. وَلَا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ).

وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود رضى الله عنه قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
(لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر).

وفي الصحيحين مرفوعاً (ألا أخبركم بأهل النار؟ كل غُلّ تجوّظ مستكبر).

وفي حديث احتجاج الجنة والنار (أن النار قالت: ما لي لا يدخلني إلا الجبارون،
والمتكبرون؟ وقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقّطهم) وهو في الصحيح.

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد وعن أبي هريرة رضى الله عنهما قالا: قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم (يقول الله عز وجل: العزة إزاري. والكبرياء ردائي. فمن نازعني عذّبت).

وفي جامع الترمذي مرفوعاً عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه (لا يزال الرجل يذهب
بنفسه حتى يكتب في ديوان الجبارين. فيصبيه ما أصابهم).

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يمر على الصبيان فيسلم عليهم.

وكانت الأمة تأخذ بيده صلى الله عليه وسلم. فتنتطق به حيث شاءت.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أكل لعق أصابعه الثلاث.

وكان صلى الله عليه وسلم يكون في بيته في خدمة أهله ، ولم يكن ينتقم لنفسه قط .

وكان صلى الله عليه وسلم يخصف نعله، ويرقع ثوبه، ويحلب الشاة لأهله، ويعلف البعير
ويأكل مع الخادم، ويجالس المساكين، ويمشي مع الأرملة واليتيم في حاجتهما، ويبدأ من لقيه
بالسلام، ويجيب دعوة من دعاه. ولو إلى أيسر شيء.

وكان صلى الله عليه وسلم هين المؤنة، لين الخلق. كريم الطبع. جميل المعاشرة. طلق الوجه
بساماً، متواضعاً من غير ذلّة، جواداً من غير سرف، رقيق القلب رحيماً بكل مسلم خافض
الجناح للمؤمنين، لين الجانب لهم.

وقال صلى الله عليه وسلم (ألا أخبركم بمن يحرم على النار؟ — أو تحرم عليه النار — نحرم
على كل قريب هين ثلثين سهلاً) رواه الترمذي. وقال: حديث حسن.

وقال (لو دُعيت إلى ذراع — أو كراع — لأجبت، ولو أهدى إلى ذراع — أو كراع —
لقبلت) رواه البخاري.

وكان صلى الله عليه وسلم يعود المريض. ويشهد الجنازة. ويركب الحمار، ويجيب دعوة العبد.
وكان يوم قريظة على حمار مخطوم بحبل من ليف عليه إكاف من ليف.

• دوائر التواضع

سئل الفضيل بن عياض عن التواضع؟ فقال: يخضع للحق، وينقاد له. ويقبله من قاله.
وقيل: التواضع أن لا ترى لنفسك قيمة. فمن رأى لنفسه قيمة فليس له في التواضع نصيب.
وهذا مذهب الفضيل وغيره.

وقال الجنيد بن محمد: هو خفض الجناح، ولين الجانب.
وقال ابن عطاء: هو قبول الحق ممن كان. والبر في التواضع. فمن طلبه في الكبر فهو
كتطلب الماء من النار.

وقال إبراهيم بن شيان: الشرف في التواضع. والعز في التقوى. والحرية في القناعة.
وقال عروة بن الزبير رضي الله عنهما: رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه على عاتقه قرينة
ماء، فقئت «يا أمير المؤمنين؛ لا ينبغي لك هذا. فقال: لما أتاني الوفود سامعين مطيعين. دخلت
نفسي نخوة. فأردت أن أكسرها».

وروى أبو هريرة رضي الله عنه إمامة مرة. فكان يحمل حزمة الحطب على ظهره. ويقول:
صَرَفُوا لِأُمِيرٍ.

ومر الحسن على صبيّان معهم كسر خبز. فاستضافوه. فنزل فأكل معهم، ثم حلهم إلى
منزلهم. فأطعمهم وكساهم، وقال: اليد لهم. لأنهم لا يجدون شيئاً غير ما أطعموني، ونحوه.
أكثر منه.

ويذكر أن أبا ذر رضي الله عنه غيّر بلالا رضي الله عنه بسواده، ثم ندم. فألقى بنفسه.
فحلفت: لا رفعت رأسي حتى يطأ بلال خدي بقدمه. فلم يرفع رأسه حتى فعل بلال.

وقال رجاء بن حيوة. قوّمت ثياب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه — وهو مخطب — باثني
عشر درهماً. وكانت قباء وعمامة وقميصاً وسروالاً ورداء وخفين وقلنسوة.

وبلغ عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه: أن ابناً له اشترى له خاتماً بألف درهم. فكتب إليه عمر: بلغنى أنك اشتريت خاتماً بألف درهم. فإذا أتاك كتابى فبع الخاتم. وأشيع به ألف بطن. واتخذ خاتماً بدرهمين. واجعل فضة حديداً صينياً. واكتب عليه: رحم الله امرأة عرف قدر نفسه. والله اعلم.

• الانقياد للحق روح التواضع

وروح التواضع: أن يتواضع العبد لصولة الحق. بأن يتلقى سلطان الحق بالخضوع له، والذل، والانقياد، والدخول تحت رُفاه. بحيث يكون الحق متصرفاً فيه تصرف المالك في مملوكه. فهذا يحصل للعبد خلق التواضع. ولهذا فسر النبي صلى الله عليه وسلم الكبير بضده. فقال «الكبر ينظر الحق، وغمص الناس» فبطل الحق: رُده وتجاهده، والدفع في صدره. كدفع الصائل. و«غمص الناس» احتقارهم، وازدراؤهم. ومتى احتقرهم وازدراؤهم: دفع حقوقهم. وجحدها، واستهان بها. ولما كان لصاحب الحق مقال وصولة: كانت النفوس التكبر لا تُقِرُّ له بالصولة على تلك الصولة التى فيها، ولا سيما النفوس المبطلة. فتصول على صولة الحق بكبرها وباطلها. فكان حقيقة التواضع: خضوع العبد لصولة الحق، وانقياده لها. فلا يقابلها بصولته عليها.

• لانعاض الدليل والمنقول برأى أو قياس

وركنه الأهم: التواضع للدين. وهو أن لا يعارض بمقول منقولاً. ولا ينهم للدين دليلاً. ولا يرى إلى الخلاف سبيلاً.

و«التواضع للدين» هو الانقياد لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، والاستسلام له، والإذعان. وذلك بثلاثة أشياء.

الأول: أن لا يعارض شيئاً مما جاء به بشيء من المعارضات الأربعة السارية في العالم، المسماة: بالمعقول، والقياس، والذوق، والسياسة.
فالأولى: للمتخرفين أهل الكبر من المتكلمين، الذين عارضوا نصوص الوحى بمعقولاتهم الفاسدة. وقالوا: إذا تعارض العقل والنقل: قدمنا العقل. وعزلنا النقل.

والثانية: متكبرين من المنتسبين إلى الفقه، قالوا: إذا تعارض القياس والرأى والنصوص قدمنا القياس على النص. ولم نلتفت إليه.

والثالثة: للمتكبرين المتحرفين من المنتسبين إلى التصوف والزهد. فإذا تعارض عندهم الذوق والأمر. قدموا الذوق والحال. ولم يعبأوا بالأمر.

والرابعة: لمتكبرين المتحرفين من الولاة والأمراء الجائرين. إذا تعارضت عندهم الشريعة والسياسة. قدموا السياسة. ولم يلتفتوا إلى حكم الشريعة.

فهؤلاء الأربعة: هم أهل الكبر. والتواضع: التخلص من ذلك كله.

انسانى: أن لا يتهم دليلاً من أدلة الدين، بحيث يظنه فاسد الدلالة، أو ناقص الدلالة، أو قاصرهما، أو أن غيره كان أولى منه. ومتى عرض له شيء من ذلك فليتهم فهمه، وليعلم أن الآفة منه، وتبليغ فيه. كما قيل:

وكم من غائب قولاً صحيحاً وأفته من الفهم السقيم

ولكن تأخذ الأذهان منه على قدر القرائح والفهم

وهكذا اتراقع في الواقع حقيقة: أنه ما اتهم أحد دليلاً للدين إلا وكان التهم هو الفاسد الذهن. المافون في عقله، وذهنه. فالآفة من الذهن الليل. لا في نفس الدليل.

وإذا رأيت من أدلة الدين ما يشكل عليك، وينبفهمك عنه فاعلم أنه لعظته وشرفه استصصى عليك. وأن تحته كنزاً من كنوز العلم. ولم تؤت مفتاحه بعد هذا في حق نفسك.

لأنك لم تأخذ له السبل السرى من صدق الإخلاص والفراغة إلى الله مقلب القلوب، ولأنك لم تأخذ الأسباب المصنية تنهك المنظمة لقلبك، من صدق التوجه إلى هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم، لتستاهل هذا الكنز.

وأما بالنسبة إلى غيرك: فاتهم آراء الرجال على نصوص الوحي، وليكن ردها أيسر شيء عليك لتنصوص. فما لم تفعل ذلك فلست على شيء.

قال الشافعى، قدس الله روحه: أجمع المسلمون على أن من استبان له سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم: ثم يحل له أن يدعها لقول أحد.

الثالثة: أن لا يجد إلى خلاف النص سبيلاً آتية. لا بباطنه، ولا بلسانه ولا بفعله. ولا بحاله. بل إذا أحس بشيء من الخلاف: فهو كخلاف المقيم على الزنا. وتُشرب الخمر، وقتل النفس. بل هذا الخلاف أعظم عند الله من ذلك. وهوداع إلى التفات. وهو الذى خافه الكبار. والائتمه على نفوسهم.

واعلم أن المخالف للنص — لقول متبوعه وشيخه ومقلّده، أو لرايه ومعقوله، وذوقه، وسياسته إن كان عند الله معذوراً، ولا والله ما هو بمعذور، — فالمخالف لقوله لنصوص الوحي أولى بالمعذر عند الله ورسوله، وملائكته. والمؤمنين من عباده.

قواعبها إذا اتسع بطلان المخالفين للنصوص لمعذر من خالفها تقليداً، أو تلوّحاً، أو غير ذلك. فكيف ضاق عن عذر من خالف أقوالهم، وأقوال شيوخهم. لأجل موافقة النصوص؟ وكيف نصّبوا له الحبائل. وبغوه الفوائل. ورموه بالمظالم. وجعلوه أسوأ حالا من أرباب الجرائم؟ فرموه بدائهم وأنسلوا منه لئلاّ. وقذفوه بمصائبهم. وجعلوا تعظيم المتبعين ملاذاً لهم ومعاذاً. والله أعلم.

● ثقة . . . على بصيرة

ولا يصح ذلك إلا بأن يعلم: أن النجاة في البصيرة، والاستقامة بعد الثقة. وأن البينة وراء الحجة.

فيعلم أولاً أن النجاة من الشقاء والضلال: إنما هي في البصيرة. فمن لا بصيرة له: فهو من أهل الضلال في الدنيا. والشقاء في الآخرة.

والبصيرة نور يجعله الله في عين القلب، يفرق به العبد بين الحق والباطل، ونسبته إلى القلب: كنسبة ضوء العين إلى العين.

وهذه «البصيرة» وهبية وكسبية. فمن أدار النظر في أعلام الحق وأدلته، وتجرّد لله من هواه: استنارت بصيرته. ورزق فرقاناً يفرق به بين الحق والباطل.

ثم أن يعلم أن الاستقامة إنما تكون بعد الثقة، أي لا يتصور حصول الاستقامة في القول والعمل والحال، إلا بعد الثقة بصحة مامعه من العلم. وأنه مقتبس من مشكاة النبوة. ومن لم يكن كذلك فلا ثقة له ولا استقامة.

ومبنى هذا على أن يعلم أن البينة وراء الحجة. و«البينة» هي: استبانة الحق وظهوره. وهذا إنما يكون بعد الحجة إذا قامت استبان الحق وظهور واتضح.

وفيه معنى آخر. وهو: أن العبد إذا قبل حجة الله بمحض الإيمان والتسليم والانقياد: كان هذا القبول هو سبب تبينها وظهورها، وانكشافها لقلبه.

وفيه معنى آخر أيضاً: أنه لا يتبين له عيب عمله من صحته إلا بعد العلم الذي هو حجة الله على العبد. فإذا عرف الحجة اتضح له بها ما كان مشككاً عليه من علومه، وما كان معيباً من أعماله.

• نؤاخي كل مسلم ونقبل عذره

وجاء التواضع انما يكون بأن ترضى بما رضى الحق به لنفسه عبداً من المسلمين أخاً، وان لا ترد على عدوك حقاً، وان تقبل من المعتذر معاذيره.
فإذا كان قلبه قد رضى أخاك المسلم لنفسه عبداً، أفلا ترضى انت به أخاً؟ فعدم رضاك به أخاً: عين الكبر. وأي قبيح اقبح من تكبر العبد على عبد مثله، لا يرضى بأخوته، والله راض بعبوديته؟

ولا تصح لك درجة «التواضع» حتى تقبل الحق ممن تحب ومن تبغض فتقبله من عدوك كما تقسه من وليك. وإذا لم ترد عليه حقه، فكيف تمنعه حقاً له قبلك؟ بل حقيقة «التواضع» أنه إذا جاءك قبيته منه. وإذا كان له عليك حق أديته إليه. فلا تمنعك عداوته من قبول حقه، ولا من إيتائه ياه.

وكذلك من أساء اليك ثم جاء يعتذر عن أساءته فإن «التواضع» يوجب عليك قبول معذرتة. حقاً كنت أو باطلاً. وتكفل سريرته إلى الله تعالى. كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنتفين الذين تخلفوا عنه في الغزو. فلما قدم جاءوا يعتذرون إليه. فقبل أعذارهم. ووكل سريرته إلى الله تعالى.

وعلازمة الكبر والتواضع: أنك إذا رأيت الخلل في عذره لا توقفه عليه ولا تحاجه. وقل: يمكن أن يكون ثممر كذا تقول. ولو قضى شيء لكان، والمقدور لا مدفع له. ونحو ذلك.

• انما تنجينا الرحمة

وقام تواضع: ان لا يرى العابد لنفسه حقاً على الله لاجل عمله، فانه في عبودية وفقر محض، وذل وانكسار. فمضى رأى لنفسه على الله حقاً: فسدت عبوديته، وصارت معلولة وخيف منها المقت. ولا يثنى في هذا ما أحقه سبحانه على نفسه، من إثابة عابديه وإكرامهم. فإن ذلك حق أحقه على نفسه يحض كرمه وبره وجوده وإحسانه. لا باستحقاق العبيد، وأنهم أوجبوه عليه بأعمالهم.

فعليك بالفرق في هذا الموضع الذي هو مفترق الطرق.

ولتك إجنبت لداعي الحق خالصة، إجابة محبة ورغبة، وطلب للمحبوب ذاته، غير مشوبة بطلب غير من الحفظ والأعواض، فإنه متى حصل لك حصل لك كل عوض وكل حظ به وكل قسم.

فمن أعرض عن طلب ماسوى الله، ولم يشب طلبه له بعوض، بل كان حُباً له، وإرادة خالصة لوجهه. فهو في الحقيقة الذى يفوز بالأعراض والأنعام والحفظ كلها. فإنه لما لم يجعلها غاية طلبه، توفرت عليه في حصولها. وهو محمود مشكور مقرب. واعلم أنه لا يستوجب العبد على الله بسعيه نجاته ولا فلاحاً. ولا يدخل أحداً عمله الجنة أبداً، ولا ينجيه من النار. والله تعالى — بفضله وكرمه، ومحض جوده وإحسانه — أكد إحسانه وجوده وبره بأن أوجب لعبده عليه سبحانه حقاً بمقتضى الوعد. فإن وعد الكريم إيجاب، ولرب — «عسى، ولعل».

ولهذا قال ابن عباس رضى الله عنهما «عسى: من الله واجب».

ووعده اللئيم خلف. ولو اقترن به العهد والخلف.

والمقصود: أن عدم رؤية العبد لنفسه حقاً على الله لا ينافي ما أوجبه الله على نفسه. وجعله حقاً لعبده. قال النبى صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل رضى الله عنه «يا معاذ، أتدرى ما حق الله على العباد؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال: حقه عليهم أن يعبدوه لا يشركوا به شيئاً. يا معاذ، أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: حقه عليهم عليه: أن لا يعذبهم بالنار».

فأرب سبحانه ما لأحد عليه حق. ولا يضيع لديه سعى. كما قيل:

ما للعباد عليه حق واجب	كلا. ولا سعى لديه ضائع
إن عذبوا فبعده، أو تُعموا	فبفضله. وهو الكريم الواسع

(٣٦) مَنْزِلَةُ الْفِتْوَى

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الفتوة» وهذه منزلة حقيقتها هي منزلة الإحسان إلى الناس. وكف الأذى عنهم. واحتمال أذاهم. فهي استعمال حسن الخلق معهم. فهي في الحقيقة نتيجة حسن الخلق واستعماله. والفرق بينهما وبين المروءة: أن المروءة أعم منها. فالفتوة نوع من أنواع المروءة. فإن المروءة استعمال ما يجمل ويزين عما هو مختص بالعبد، أو تمتد إلى غيره. وترك ما يندس ويشين عما هو مختص أيضاً به، أو متعلق بشيئه.

و«الفتوة» إنما هي استعمال الأخلاق الكريمة مع الخلق.

فهى ثلاثة منازل: منزلة التخلق وحسن الخلق. ومنزلة الفتوة. ومنزلة المروءة. وقد تقدمت منزلة الخلق.

وهذه منزلة شريفة، لم تعبر عنها الشريعة باسم «الفتوة» بل عبرت عنها باسم «مكارم الأخلاق» كما في حديث يوسف بن محمد المنكدر عن أبيه عن جابر رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم «إن الله يعنى لأتمم مكارم الأخلاق، وبما حسن الأعمال».

وأصل «الفتوة» من «الفتى» وهو الشاب الحديث السن. قال الله تعالى عن أهل الكهف (١٨: ١٣) **«نهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى»**

قال الفضيل بن عياض: الفتوة الصنف عن عثرات الإخوان.

وقال الإمام أحمد رضى الله عنه — في رواية ابنه عبد الله عنه، وقد سئل عن الفتوة؟ فقال: ترك ما تهوى لما تخشى.

وقال عمر بن عثمان المكي: الفتوة حسن الخلق.

وقال الخليل: الفتوة كف الأذى وبذل الندى.

وقال سهل: هي اتباع السنة.

وقيل: فضيلة تأتياها، ولا ترى نفسك فيها. وقيل: أن لا تحتجب بمن قصدك.

وقيل: أن لا تهرب إذا أقبل طالب المعروف. وقيل: إظهار النعمة وإسرار المحنة. وقيل: أن

لا تدخر ولا تمتدح.

● الفتنى . . . أرض خير

واصلها: استرسال الناس في فضلك، فانك إذا استرسلت معهم، ولم تجذب عنهم عنانك: نالوا من فضلك. فيكون استرسالك سبباً لنيلهم لفضلك، وقبض العنان سبباً للحرمان. ثم تسعهم بخلقك، باحتمال ما يبدو منهم من سوء العشرة، فخذ منهم ما أمر الله نبيه أن يأخذه من أخلاق الناس. وهو العفو. وتدعهم يطرؤونك، أى يدوسونك من لينك وتواضعك، وتخفض جناحك، بحيث لا تترك لنفسك بينهم رتبة تتقاضاهم أن يحترموك لأجلها. ولكن مع قيام العلم: بأن يكون هذا الاسترسال موافقاً للشرع. غير مخرج عن حدوده وآدابه، بحيث لا تحملهم على تعدى حدود الله، وتضييع حقه وحقوق عباده، حافظاً لقلبك مع الله، ودوام إقبالك عليه، فانت معهم مسترسل بشحك ورمسك وصورتك فقط، ومقارقتهم بقلبك وسرك، منتبهاً لسيرك في مدارج «اياك نعبد واياك نستعين» فان هذا الانتباه هو حياة القلب والروح. فاذا فات السائر وغفل عنه: غلته الكآبة، وغمره الهم والغم والاحزان، وتاه قلبه في الاودية والشعاب.

● نقص . . . وإينار

قال صاحب المنازل شيخ الاسلام الهروي رحمه الله:
«نكتة الفتوة: أن لا تشهد لك فضلا. ولا ترى لك حقاً».
يقول: قلب الفتوة، وإنسان عينها: أن تنفى بشهادة نقصك، وعيبك عن فضلك. وتغيب شهادة حقوق الخلق عليك عن شهادة حقوقك عليهم.
والناس في هذا مراتب. فأشرفها: أهل هذه المرتبة. وأخسها: عكسهم. وهم أهل الفناء في شهود فضائلهم عن عيوبهم. وشهود حقوقهم على الناس عن شهود حقوق الناس عليهم. وأوسطهم: من شهد هذا وهذا. فيشهد ما في العيب والكمال. و يشهد حقوق الناس عليه وحقوقه عليهم.

ومن مظاهرها عنده «ترك الخصومة. والتفافل عن الزلة، ونسيان الأذية».
فلا يتخاصم بلسانه. ولا ينوى الخصومة بقلبه. ولا يخطرها على باله. هذا في حق نفسه. وأما في حق ربه: فالفتوة أن يتخاصم بالله وفي الله. ويحكم إلى الله، كما كان النبي صل الله عليه وسلم يقول في دعاء الاستفتاح «أوبك خاصمت. وأليك حاكمت» وهذه درجة فترة العلماء الدعاة إلى الله تعالى.

وأما «التغصن عن الزلة» فهو أنه إذا رأى من أحد زلة يوجب عليه الشرع أخذه بها أظهر أنه لم يرها، لئلا يعرض صاحبها للوحشة.
وفتوة التفاضل: أرفع من فتوة الكتمان مع الرؤية.
وأما «نسيان الأذية» فهو بأن تنسى أذية من نالك بأذى، ليصفو قلبك له. ولا تستوحش منه.

وهنا نسيان آخر أيضاً. وهو من الفتوة. وهو نسيان إحسانك إلى من أحسنت إليه، حتى كأنه لم يصدر منك. وهذا النسيان أكمل من الأول. وفيه قيل:

ينسى صنائعه. والله يظهرها إن الجميل إذا أخفيت ظهرا

• المعاكسة البتاءة

ثم من مظاهرها عنده: «أن تُقَرَّبَ من يقصيك. وتكرم من يؤذيك. وتعتذر إلى من يجني عليك، سماحة لا كظماً، ومودة لا مصابرة»، بأن يكون الإحسان والإساءة بينك وبينه خيطين. فخطتك: الإحسان. وخطته: الإساءة.

ومن أراد فهم هذه الدرجة كما ينبغي. فلينظر إلى سيرة النبي صلى الله عليه وسلم مع الناس يجدها هذه بعينها. ولم يكن كمال هذه الدرجة لأحد سواه. ثم للورثة منها بحسب سهامهم من التركة. وما رأيت أحداً قط أجمع لهذه الخصال من شيخ الإسلام ابن تيمية — قدس الله روحه — وكان بعض أصحابه الأكابر يقول: وددت أني لأصحابي مثله لأعدائه وخصومه. وما رأيت يدعوا على أحد منهم قط، وكان يدعوا لهم.

وجئت يوماً مبشراً له بموت أكبر أعدائه، وأشدهم عداوة وأذى له. فتهنئ وتتكبر واسترجع. ثم قام من فوره إلى بيت أهله فزاهم، وقال: إني لكم مكانه، ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلى مساعدة إلا وساعدتكم فيه. ونحو هذا من الكلام. فسروا به ودعوا له. وعظموا هذه الحال منه. فرحمه الله ورضي عنه.

ومعنى الاعتذار إلى من يجني عليك: أنك تنزل نفسك منزلة الجاني لا المجني عليه، والجاني خليق بالعدو.

والذى يُشهدك هذا المشهد: أنك تعلم أنه إنما سلط عليك بذنب، كما قال تعالى (٢: ٣٠) وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم. ويعفو عن كثير
 فإذا علمت أنك بدأت بالجناية فانتقم الله منك على يده: كنت في الحقيقة أولى بالاعتذار.
 فالفتنة ككل الفتنة: إن لا يظهر له منك عتب ولا تغير عما كان له منك قبل معاداته، ولا تطوي عنه بشرك ولا ذك، وإذا لم تحجل أنت من قيامه بين يديك مقام المعتذر: لم يكن لك في الفتنة نصيب.

والذى يهون عليك هذا كله: مشاهدة تلك المشاهد العشرة المتقدمة. فعليك بها. فإن فيها كنوز المعرفة والبر.

وقوله «سماحة لا كظما. ومودة، لا مصابرة».

يعنى: اجعل هذه المعاملة منك صادرة عن سماحة، وطيبة نفس، وانشرح صدر، لا عن كظم، وضيق ومصابرة. فإن ذلك دليل على أن هذا ليس في خلقك. وإنما هو تكف يوشك أن يزول. ويظهر حكم الخلق صريحا فتفتضح. وليس المقصود إلا إصلاح الباطن والسر والقلب.
 وهذا الذى قاله الشيخ لا يمكن إلا بعد العبور على جسر المصابرة والكظم. فإذا تمكن منه أفنى به إلى هذه المنزلة بعون الله. والله أعلم.

وفضيلة «المروءة» تتلازم مع فضائل الفتنة هذه.

● سمو المروءة

و «المروءة» قسوة من لفظ المرء، كالفتنة من الفتى، والإنسانية من الإنسان ولهذا كان حقيقتها: اتصاف النفس بصفات الإنسان التى فارق بها الحيوان البهيم والشیطان الرجيم. فإن في النفس ثلاثة دواع متجاذبة: دواع يدعوها إلى الإتيان بأخلاق الشيطان: من الكبر، والحسد، والعلو، والبغى، والشر، والأذى، والفساد، والغش.

ودواع يدعوها إلى أخلاق الحيوان. وهودواع الشهوة.

ودواع يدعوها إلى أخلاق الملك: من الإحسان، والنصح، والبر، والعلم، والطاعة.

فحقيقة المروءة: بغض ذينك الداعين، وإجابة الداعي الثالث. وقلة المروءة وعدمها: هو الاستمرار مع ذينك الداعين. والتوجه لدعوتهما أين كانت.

فالإنسانية، والمروءة، والفتنة: كلها في عصيان الداعين، وإجابة الداعي الثالث. كما قال بعض السلف: خلق الله الملائكة عقولا بلا شهوة. وخلق البهائم شهوة بلا عقل. وخلق ابن آدم، وركب فيه العقل والشهوة. فمن غلب عقله شهوته: التحق بالملائكة. ومن غلبت شهوته عقله: التحق بالبهائم.

ولهذا قيل في حد المروءة إنها غلبة العقل للشهوة.
وقال الفقهاء في حدها: هي استعمال ما يجمّل العبد ويزينه، وترك ما يندسه ويشينه.
وقيل: المروءة استعمال كل خلق حسن. واجتناب كل خلق قبيح.
وحقيقة «المروءة» تنجب للدنايا والرذائل، من الأقوال، والأخلاق، والأعمال.
فمروءة اللسان: حلاوته وطيبه ولينه، واجتناء الثمار منه بسهولة ويسر.
ومروءة الخلق: سعته وبسطه للحبيب والبغض.
ومروءة المال: الإصابة بذله ومواقفه المحمودة عقلاً وعرفاً وشرعاً.
ومروءة الجاه: بذله للمحتاج إليه.
ومروءة الإحسان: تعجيله وتيسيره، وتوفيره، وعدم رؤيته حال وقوعه، ونسيانه بعد وقوعه.
فهذه مروءة البذل.

وأما مروءة التركز: فتترك الخصام، والمعاتبة، والمطالبة، والممارسة، والاضغاضع عن عيب ما يأخذ من حقه. وترك الاستقصاء في طلبه، والتغافل عن عثرات الناس، وإشعارهم أنك لا تعلم لأحد منهم عشرة، والتوقير للكبير، وحفظ حرمة النظير، ورعاية أدب الصغير، وهي على ثلاث درجات.

الدرجة الأولى: مروءة المرء مع نفسه. وهي أن يحملها قسراً على ما يجتمل ويزين. وترك ما يندس ويشين، ليصير لها ملكة في العلانية. فمن أراد شيئاً في سره وخلوته: ملكه في جهره وعلانيته. فلا يكشف عورته في الخلوة، ولا يتجشأ بصوت مزعج ما وجد إلى خلافه سبيلاً. ولا يتجشع ويتهم عند أكله وحده.

وبالجملّة: فلا يفعل خالياً ما يستحي من فعله في الملاء، إلا ما لا يحظره الشرع والعقل. ولا يكون إلا في الخلوة، كالجماع والتخلي ونحو ذلك.

الدرجة الثانية: المروءة مع الخلق، بأن يستعمل معهم شروط الأدب والحياء، والخلق الجميل. ولا يظهر لهم ما يكرهه هومن غيره لنفسه. وليتخذ الناس مرآة لنفسه. فكل ما كرهه ونفر عنه، من قول أو فعل أو خلق، فليجتنبه. وما أحبه من ذلك واستحسنه فليفعله. وصاحب هذه البصيرة ينتفع بكل من خالطه وصاحبه من كامل وناقص، وسىء الخلق وحسنه. وعديم المروءة وغزيرها.

وكثير من الناس: يتعلم المروءة، ومكارم الأخلاق من الموصوفين بأصداها كما روى عن بعض الأكابر: أنه كان له مملوك سيء الخلق، قَطُّ غليظ. لا يناسبه فثل عن ذلك؟ فقال: أدرس عليه مكارم الأخلاق.

وهذا يكون بمعرفة مكارم الأخلاق و ضد أخلاقه. و يكون بتمرين النفس على مصاحبة
ومعاشرته، والصبر عليه.

الدرجة الثالثة: المروءة مع الحق سبحانه. بالاستحياء من نظره إليك، وإطلاعه عليك في
كل لحظة ونفَس، وإصلاح عيوب نفسك جهد الإمكان. فإنه قد اشتراها منك. وأنت ساع في
تسليم المبيع، وتقاضي الثمن. وليس من المروءة: تسليمه على ما فيه من العيوب، وتقاضي الثمن
كاملاً. أو رؤية يثنت في هذا الإصلاح، وأنه هو المتول له. لا أنت. فيغنيك الحياء منه عن رسوم
الطبيعة. والاشتغال بإصلاح عيوب نفسك عن التفاتك إلى عيب غيرك، وشهود الحقيقة عن رؤية
فمالك وصلحك.

وكل ما تقدم في منزلة «الخلق» و «الفتوة» فإنه بعينه في هذه المسألة.

(٣٧) مَنَزِلَةُ الْإِرَادَةِ

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الإرادة».

قال الله تعالى (٦: ٥٢) ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) وقال تعالى (٩٢: ١٩ - ٢١) وما لأحد عنده من نعمة تُخْزَى. إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. وسوف يرضى) وقال تعالى (٣٣: ٢٩) وإن كُنتن تُرَدْنَ الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحتات منكن أجراً عظيماً).

وقد تنوعت عبارات القوم عنها. وغالبهم يخبر عنها بأنها ترك العادة. ومعنى هذا: أن عادة الناس غالباً التعرّيج على أوطان الغفلة، وإجابة داعي الشهوة، والإخلاص إلى أرض الطبيعة. والمريد منسلخ عن ذلك. فصار خروجه عنه: أمانة ودلالة على صحة الإرادة. فسمى انبلاخه وتركه إرادة. وقيل: نهوض القلب في طلب الحق.

ويقال: لوعة تهون كل روعة. وقال الشدقاني: الإرادة لوعة في الفؤاد، لذعة في القلب، غرام في الضمير، انزعاج في الباطن، تيران تأجج في القلوب.

وقيل: من صفات المريد: التحجب إلى الله بالنوافل، والإخلاص في نصيحة الأمة، والأنس بالخلوة. ولا يثار لأمر الله تعالى، والحياء من نظره، وبذل المجهود، والتعرض لكل سبب يوصل إليه، والقتاعة، وعدم قرار القلب حتى يصل إلى وليه ومعبوده.

وقيل: من حكم المريد: أن يكون نومه غلبة، وأكله فاقة، وكلامه ضرورة. وقال أبو عثمان الحيري: من لم تصح إرادته ابتداء، فإنه لا يزيده مرور الأيام عليه إلا إدباراً.

وقال: المريد إذا سمع شيئاً من علوم القوم فعمل به: صار حكمة في قلبه إلى آخر عمره ينتفع به. وإذا تكلم انتفع به من سمعه. ومن سمع شيئاً من علومهم ولم يعمل به كان حكاية يحفظها أياماً ثم ينساها.

وقال يحيى بن معاذ: أشد شئ على المرید: معاشرۃ الاضداد.
وعلم السلوك مبني على الإرادة، فهي أساسه وجمع بنائه، وهو مشتمل على تفاصيل احكام
الإرادة، وهي حركة القلب، كما ان علم الفقه يشتمل على تفاصيل احكام الجوارح.
فالفقيه: ينظر في تلك الحركات من جهة موافقتها لأمر الشرع، ونهيه وإذنه، وكراهته،
ومتعلقات ذلك.

والمرید: ينظر في تلك الحركات من جهة كونها موصلة له إلى مراده. أو قاطعة عنه، ومفسدة
لقلبه، أو مصححة له.
ولا بد في ذلك من ثلاثة أشياء: نفس مستعدة قابلة. لا تعوز إلا الداعي. ودعوة مستمرة،
وتخليه الطريق من المانع.

فما انقطع من انقطع إلا من جهة من هذه الجهات الثلاث.
ومن مقدماتها: الذهاب عن العادات بصحة العلم، مع صدق القصد، وخلع كل شاغل.
وهذا يوافق من حد «الإرادة» بأنها: مخالفة العادة. وهي ترك عوائد النفس، وشهواتها،
ورغباتها وبطالاتها. ولا يمكن ذلك إلا بهذه الأشياء وهي: صحة العلم ومعاينته. فإنه النور
الذي يُعرّف العبد مواقع ما ينبغي إثارة طلبه. وما ينبغي إثارة تركه. فمن لم يصحبه العلم: لم
تصح له إرادة باتفاق كلمة الصادقين. ولا عبرة بقطاع الطريق.
ومما يعين السالك على ترك العادة: ترك الموانع والقواطع العائقة عن السلوك، من صحة
الاغتيار اهل البطالة. فليس على المرید أضر من عُشْرائه القاطعين له عن سيره الى الله تعالى،
فليقترب عنهم بجهد.

فإذا صحت له هذه المقدمات: أسلمته الى ترويح الإنس، والسير بين القبض والبسط،
فيشتغل من مقام رسوم الاعمال الى مقام حقائقها وأذواقها واحوالها، فيترقى من الاسلام الى
الايمان، ومن الايمان الى الاحسان، فإن السالك في أول الأمر يجد تعب التكليف ومشقة
العمل. لعدم أنس قلبه بمعبوده. فإذا حصل للقلب روح الأنس زالت عنه تلك التكليف
والمشاق. فعنارت قرة عين له. وقوة ولذة. فتعبر الصلاة قرة عينه، بعد أن كانت عملاً عليه.
و يستريح بها، بعد أن كان يطلب الراحة منها. فله ميراث من قوله: صلى الله عليه وسلم
«أرحنا بالصلاة يا بلال»، «وجعلت قرة عيني في الصلاة» بحسب إرادته، ومحجته، وأنسه
بالله سبحانه وتعالى، ووحشته مما سواه.

وأما «السير بين القبض والبسط»
فـ «القبض» و «البسط» حالتان تعرضان لكل سالك. يتولدان من الخوف تارة، والرجاء
تارة. فيقبضه الخوف. ويسطه الرجاء.

ويتولدان من الوفاء تارة، والجفاء تارة. فوفاؤه: يورثه البسط. وجهه: يورثه القبض. وقد يهجم على قلب السالك قبض لا يدري ما سببه. وحكم صاحب هذا القبض: أمران. الأول: التوبة والاستغفار. لأن ذلك القبض نتيجة جناية، أو جفوة. ولا يشعر بها. والثاني: الاستسلام حتى يمضي عنه ذلك الوقت، ولا يتكلف دفعه. ولا يستقبل وقته مغالبة وقهراً. ولا يطلب طلوع الفجر في وسط الليل، ويُترُك حتى يمضي عامة الليل. ويحين طلوع الفجر. ويُقشع ظلمة الليل. بل يصبر حتى يهجم عليه الملك. فإله يقبض و يبسط. وكذلك إذا هجم عليه وارد البسط: فليحذر كل الحذر من الحركة والاهتزاز. وليحرزه بالسكون والانكماش. فالعاقل يقف على البساط، ويحذر من الانبساط، وهذا شأن عقلاء أهل الدنيا ورؤسائهم: إذا ما ورد عليهم ما يسرهم ويسطهم ويهيج أفراحهم، قابله بالسكون وشبات والاستقرار، حتى كأنه لم يهجم عليهم وقال كعب بن زهير في مدح المهاجرين: ليسوا مفاريج إن نالت رماحهم قوما. وليسوا مجازيعا إذا قيلوا فلا يخرجهم البسط عن استقامته، ولا عن انوقوف بأدب بين يدي ربه.

(٣٨) مَنَزِلَةُ الْأَدَبِ

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الأدب»
قال الله تعالى (٦٦: ٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ
وَالْحِجَارَةُ) قَالَ ابن عباس وغيره: أدبهم وعلموهم.
وهذه التلظة مؤذنة بالاجتماع. فالأدب: اجتماع خصال الخير في العبد، ومنه المأدبة. وهي
الطعام الذي يجتمع عليه الناس.
وعلم «الأدب»: هو علم إصلاح اللسان والخطاب، وإصابة مواقفه، وتحسين ألفاظه، وصيانيته
عن الخطأ والخلل. وهو شعبة من الأدب العام. والله أعلم.

• مسائل الأدب

و «الأدب» ثلاثة أنواع: أدب مع الله سبحانه. وأدب مع رسوله صلى الله عليه وسلم
وشرعه. وأدب مع خلقه.
فالأدب مع الله ثلاثة أنواع:
أحدها: صيانة معاملته: أن يشوبها بنقيصة.
الثاني: صيانة قلبه: أن يلتفت إلى غيره.
الثالث: صيانة إرادته: أن تتعلق بما يملك عليه.
قال يحيى بن معاذ: من تأدب بأدب الله صار من أهل محبة الله.
وقال ابن المبارك: نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم.
ومثل الحسن البصري رحمه الله عن أنفع الأدب؟ فقال: التفقه في الدين. والزهد في الدنيا،
والمعرفة بما لله عليك.
وقال سهل: القوم استعانوا بالله على مراد الله. وصبروا لله على آداب الله.
وقال ابن المبارك: طلبنا الأدب حين فائنا المؤدبون.
وقال: «الأدب للعارف كالطوبى للمستأنف».

وقال أبو حنيفة — لما قال له الجنيد: لقد أدبت أصحابك أدب السلاطين — فقال: حسن الأدب في الظاهر عنوان حسن الأدب في الباطن. فالأدب مع الله حسن الصحبة معه، بإتباع الحركات الظاهرة والباطنة على مقتضى التعظيم والإجلال والحياء. كحال مجالس الملوك ومصاحبهم.

وقال سهل: من قهر نفسه بالأدب فهو عبد الله بالإخلاص.
وقال عبد الله بن المبارك: قد أكثر الناس القول في «الأدب» ونحن نقول: إنه معرفة النفس وزعوماتها، وتجنب تلك الزعومات.
وقال أبو عثمان: إذا صحت المحبة تأكدت على الحب ملازمة الأدب.
وتأمل أحوال الرسل صلوات الله وسلامه عليهم مع الله، وخطابهم وسؤالهم. كيف تجدها كلها مشحونة بالأدب قائمة به.

قال النسيج عليه السلام (٥: ١١٦) إن كنت قلته فقد علمته) ولم يقل: لم أقله. وفرق بين الجوابين في حقيقة الأدب. ثم أحال الأمر على علمه سبحانه بالخال وسره. فقال (تعلم ما في نفسي) ثم برأ نفسه عن علمه بغير ربه وما يختص به سبحانه، فقال (ولا أعلم ما في نفسك) ثم أنشأ على ربه. ووصفه بتفرد يعلم الغيوب كلها. فقال (إنك أنت علام الغيوب) ثم نفى أن يكون قال لهم غير ما أمره ربه به — وهو خفض التوحيد — فقال (ما قلت لهم إلا ما أمرتني به: أن أعبدوا الله ربي وربكم) ثم أخبر عن شهادته عليهم مدة مقامه فيهم. وأنه بعد وفاته لا اطلاع له عليهم، وأن الله عز وجل وحده هو المنفرد بعد الوفاة بالاطلاع عليهم. فقال (وكننت عليهم شهيداً ما دمت فيهم. فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم) ثم وصفه بأن شهادته سبحانه فوق كل شهادة وأعم. فقال (وأنت على كل شيء شهيد) ثم قال (إن تعذبهم فإنهم عبادك) وهذا من أبلغ الأدب مع الله في مثل هذا المقام. أي شأن السيد رحمة عبده والإحسان إليهم. وهؤلاء عبيدك ليسوا عبيداً لغيرك. فإذا عذبتهم — مع كونهم عبيدك — فلولا أنهم عبيد سواه من أبغض العبيد، وأعتاهم على سيدهم، وأعصاهم له: لم تعذبهم. لأن قربة العبودية تستدعي إحسان السيد إلى عبده ورحمته. فلماذا يعذب أرحم الراحمين، وأجود الأجودين، وأعظم المحسنين إحساناً عبده؟ لولا فرط غشهم، وإياهم عن طاعته، وكمال استحقاقهم للعذاب.

وقد تقدم قوله (إنك أنت علام الغيوب) أي هم عبادك. وأنت أعلم بسرهم وعلانيتهم. فإذا عذبتهم: عذبتهم على علم منك بما تعذبهم عليه. فهم عبادك وأنت أعلم بما جتوه واكتسبوه.

فهو إقرار واعتراف وثناء عليه سبحانه بحكمته وعدله، وكمال علمه بحالهم، واستحقاقهم للعذاب.

ثم قال (٥: ١١٨) وإن تغفروهم فإنك أنت العزيز الحكيم) ولم يقل «الغفور الرحيم» وهذا من أبلغ الأدب مع الله تعالى. فإنه قاله في وقت غضب الرب عليهم، والأمر بهم إلى النار. فليس هو مقام استعطاف ولا شفاعة. بل مقام براءة منهم. فلما قال «فإنك أنت الغفور الرحيم» لأشعر باستعطافه ربه على أعدائه الذين قد اشتد غضبه عليهم. فالمقام مقام موافقة للرب في غضبه على من غضب الرب عليهم. فعدل عن ذكر الصفتين اللتين يسأل بهما عطفه ورحمته ومغفرته إلى ذكر العزة والحكمة، اللتضمنتين لكمال القدرة وكمال العلم.

والمعنى: إن غفرت لهم فمغفرتك تكون عن كمال القدرة والعلم. ليست عن عجز عن الانتقام منهم، ولا عن خفاء عليك بمقدار جرائمهم. وهذا لأن العبد قد يغفر لغيره لمجزئه عن الانتقام منه. ويظهره بمقدار اساءته إليه. والكمال: هو مغفرة القادر العالم. وهو العزيز الحكيم. وكان ذكر هاتين الصفتين في هذا المقام عين الأدب في الخطاب.

وفي بعض الآثار «حلمة العرش أربعة: اثنان يقولان: سبحانهك اللهم ربنا وبحمدك. لك الحمد على حلمك بعد علمك. واثنان يقولان: سبحانهك اللهم ربنا وبحمدك. لك الحمد على عفوك بعد قدرتك» ولهذا يقترب كل من هاتين الصفتين بالأخرى، كقوله (والله عليم حكيم) وقوله (وكان الله عفواً قديراً).

وكذلك قول إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم (٢٦: ٧٨ — ٨٠ الذي خلقني فهو يهدين) والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين) ولم يقل «وإذا أمرضني» حفظاً للأدب مع الله.

وكذلك قول الحضرة عليه السلام في السفينة (١٨: ٧٩ فأردت أن أعييبها) ولم يقل «فأراد ربك أن أعييبها» وقال في الغلامين (١٨: ٨٢ فأراد ربك أن يبلغا أشدهما).

وكذلك قول مؤمنى الجن (٧٢: ١٠ وأنا لا ندرى: أشراًريد من في الأرض) ولم يقولوا «أرادهم ربهم» ثم قالوا (أم أراد بهم ربهم رشداً).

والظن من هذا قول موسى عليه السلام (٢٨: ٢٤ رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير) ولم يقل «أضعمني».

وقول آدم عليه السلام (٧: ٢٣ ربنا ظلمنا أنفسنا. وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) ولم يقل «رب قدرت علي وقضيت علي».

وقول أيوب عليه السلام (٢١: ٨٣ مسني الضر وانت أرحم الراحمين) ولم يقل «فعاثني واشفني».

وتقول يوسف لا بيه وإخوته (١٢: ١٠٠) هذا تأويل رؤى من قبل. قد جعلها ربى حقاً. وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن) ولم يقل «أخرجنى من الحب» حفظاً للأدب مع إخوته، أن لا ينجلهم بما جرى فى الحب. وقال (وجاء بكم من البدو) ولم يقل «رفع عنكم جهد الجوع والحاجة» أدباً معهم. وأضاف ما جرى إلى السبب. ولم يصفه إلى المباشر الذى هو أقرب إليه منه. فقال (من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوانى) فأعطى الفترة والكرم والأدب حقه. ولهذا لم يكن كمال هذا الخلق إلا للرسل والأنبياء صلوات الله عليهم.

ومن هذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم الرجل: أن يستر عورته، وإن كان خالياً لا يراه أحد. أدباً مع الله، على حسب القرب منه، وتعظيمه وإجلاله، وشدة الحياة منه، ومعرفة وقاره. وقال بعضهم: الزم الأدب ظاهراً وباطناً. فما أساء أحد الأدب فى الظاهر إلا عوقب ظاهراً. وما أساء أحد الأدب باطناً إلا عوقب باطناً.

وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله: من تهاون بالأدب عوقب بحرمان السنن. ومن تهاون بالسنن عوقب بحرمان الفرائض. ومن تهاون بالفرائض عوقب بحرمان المعرفة.

وقيل: الأدب فى العمل علامة قبول العمل.

وحدة «الأدب» استعمال الخلق الجميل. ولهذا كان الأدب: استخراج ما فى الطبيعة من الكمال من القوة إلى الفعل.

فإن الله سبحانه هيا الإنسان لقبول الكمال بما أعطاه من الأهلية والاستعداد، التى جعلها فيه كامنة كالنار فى الزناد. فألهه وتكهنه، وعرفه وأرشده، وأرسل إليه رسله. وأنزل إليه كتبه

لاستخراج تلك القوة التى أهله بها لكماله إلى الفعل. قال الله تعالى (٩١: ٧ - ١٠) ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) فبعبارة عن خلق النفس بالتسوية والدلالة على الاعتدال والتمام. ثم أخبر عن قبولها للفجور والتقوى، وأن ذلك نالها منه امتحاناً واختياراً. ثم خص بالفلاح من زكاها فتمها وعلماها. ورفعها بأدابه التى أدب بها رسله وأنبياءه وأوليائه. وهى التقوى. ثم حكم بالشقاء على من دساها. فأخفاها وحقرها. وصغرها وقمها بالفجور. والله سبحانه وتعالى أعلم.

● الاخلاق النبوية السامية

وجرت عادة القوم: أن يذكروا في هذا المقام قوله تعالى عن نبيه صلى الله عليه وسلم، حين أراه ما أراه (٥٣: ١٧) ما زاغ البصر وما طغى) وأبو القاسم الشيرازي صدر باب الأدب بهذه الآية. وكذلك غيره.

وكأنهم نظروا قول من قال من أهل التفسير: إن هذا وصف لأدبه صلى الله عليه وسلم في ذلك المقام. إذ لم يلتفت جانباً. ولا يتجاوز ما رآه. وهذا كمال الأدب. والإخلاص به: أن يلتفت الناظر عن يمينه وعن شماله، أو يتطلع أمام المتطور. فلا يلتفت زيف. والتطلع إلى ما أمام المتطور: طغيان وبجائزة. فكما إقبال الناظر على المتطور: أن لا يصرف بصره عنه يمتنة ولا يسره ولا يتجاوزوه.

هذا معني ما حصلته عن شيخ الإسلام ابن تيمية. قدس الله روحه. وفي هذه الآية أسرار عجيبة. وهي من غوامض الآداب الثلاثة يأكمل البشر صلى الله عليه وسلم: تواطأ هناك بصره وبصيرته. وتوافقاً وتصادقاً فيما شاهده بصره. فالبصيرة مواطئة له. وما شاهده بصيرته فهو أيضاً حق مشهود بالبصر. فتواطأ في حقه مشهد البصر والبصيرة. ولهذا قال سبحانه وتعالى (٥٣: ١١، ١٢) ما كذب الفؤاد ما رأى أفتمارونه على ما يرى؟) أى ما كذب الفؤاد ما رآه بصره.

ولهذا قرأها أبو جعفر «ما كذب الفؤاد» ما رأى — بتشديد الذال — أى لم يكذب الفؤاد للبصر. بل صدقه وواطأه. لصحة الفؤاد والبصر. أو استقامة البصيرة والبصر. وكون المرئى للشاهد بالبصر والبصيرة حقاً. وقرأ الجمهور «ما كذب الفؤاد» بالتخفيف. وهو متعة. و«ما رأى» مفعوله: أى ما كذب قلبه ما رآه عيناه. بل واطأه ووافقه. فلمواطأة قلبه لقلبه، وظاهره لباطنه، وبصره لبصيرته: لم يكذب الفؤاد البصر. ولم يتجاوز البصر حده فيطغى ولم يعل عن المرئى فيزيغ؛ بل اعتدل البصر نحو المرئى. ما جاوز ولا مال عنه، كما اعتدل القلب في الإقبال على الله، والإعراض عما سواه. فإنه أقبل على الله بكلية. وللقب زيف وطغيان، كما للبصر زيف وطغيان. وكلاهما منتف عن قلبه وبصره. فلم يزغ قلبه التفاتاً عن الله إلى غيره. ولم يطغ بجاوزته مقامه الذى أقيم فيه.

وهذا غاية الكمال والأدب مع الله الذى لا يلحقه فيه سواه.

فإن عادة النفوس، إذا أقيمت في مقام عال رفيع: أن تتطلع إلى ما هو أعلى منه وقوته. ألا ترى أن موسى — صلى الله عليه وسلم — لما أقيم في مقام التكليم والمناجاة: طلبت نفسه الرؤية؟

ونبينا صلى الله عليه وسلم لما أقيم في ذلك المقام، وفاه حقن: فلم يلتفت بصره ولا قلبه إلى غير ما أقيم فيه ألبتة؟.

ولأجل هذا ما عاقبه عائق. ولا وقف به مراد، حتى جاوز السموات السبع حتى عاتب موسى ربه فيه، وبكى «قيل: ما يبكيك؟ قال أبكى أن غلاماً بعث بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي» ثم جاوزها علواً فلم تعقه إرادة. ولم تقف به دون كمال العبودية همة.

ولهذا كان مركوبه في مشراه يسبق خطوه الطرف. فيضع قدمه عند منتهى طرفه، مشاكلاً لحال راكبه، ويثبته شأوه، الذي سبق العالم أجمع في سيره، فكان قدم البراق لا يختلف عن موضع نظره، كما كان قدمه صلى الله عليه وسلم لا يتأخر عن محل معرفته. فلم يزل صلى الله عليه وسلم في خفارة كمال أدبه مع الله سبحانه، وتكميل مراتب عبادته له، حتى خرق حجب السموات. وجاوز السبع الطياق. وجاور سدرة المنتهى. ووصل إلى محل من القرب سبق به الأولين والآخرين. فانصبت إليه هناك أقسام القرب انصباباً. وانقشعت عنه سحاب الحجب ظاهراً وباطناً حجاباً حجاباً. وأقيم مقاماً غيظه به الأنبياء والمرسلون. فإذا كان في المعاد أقيم مقاماً من القرب ثانياً، يغبطه به الأولون والآخرون. واستقام هناك على صراط مستقيم من كمال أدبه مع الله، مازاغ البصر عنه وما طفى. فأقامه في هذا العالم على أفقر صراط من الحق والهدى. وأقسم بكلامه على ذلك في الذكر الحكيم، فقال تعالى (يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم) فإذا كان يوم المعاد أقامه على الصراط يسأله السلامة لأتباعه وأهل سنته، حتى يجوزونه إلى جنات النعيم. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. والله ذو الفضل العظيم.

• الادب يحمل العبادة

و «الأدب» هو الدين كله. فإن شتر العورة من الأدب. والوضوء وغسل الجنابة من الأدب. والتطهر من الخبث من الأدب. حتى يقف بين يدي الله طاهراً. ومن الأدب: نهى النبي صلى الله عليه وسلم المصل «أن يرفع بصره إلى السماء». فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية — قدس الله روحه — يقول: هذا من كمال أدب الصلاة: أن يقف العبد بين يدي ربه مطرقاً خائضاً طرفه إلى الأرض. ولا يرفع بصره إلى فوق. ومن الأدب مع الله: أن لا يستقبل بيته ولا يستدبره عند قضاء الحاجة. كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث أبي أيوب وسلمان وأبي هريرة وغيرهم. رضى الله عنهم. والصحيح: أن هذا الأدب: يعم القضاء والبنیان. كما ذكرنا في غير هذا الموضع.

ومنها: السكون في الصلاة. وهو الدوام الذي قال الله تعالى فيه (٧٠: ٢٣) الذين هم على صلاتهم دائمون) قال عبد الله بن المبارك عن ابن لهيعة: حدثني يزيد بن أبي حبيب: أن أبا خنيس أخبرني قال: سألتنا عقبة بن عامر عن قوله تعالى (الذين هم على صلاتهم دائمون) أهم الذين يصلون دائماً؟ قال: لا. ولكنه إذا صلى لم يلتفت عن يمينه، ولا عن شماله ولا خلفه. قلت: هما أمران. الدوام عليها. والمداومة عليها. فهذا الدوام. والمداومة في قوله تعالى (٧٠: ٣٤) والذين هم على صلاتهم يحافظون) وفسر «الدوام» بسكون الأطراف والطمأنينة. وأدبه في استماع القراءة: أن يلقى السمع وهو شهيد.

وأدبه في الركوع: أن يستوى. ويعظم الله تعالى، حتى لا يكون في قلبه شيء أعظم منه. ويتضاءل به يتصاغر في نفسه. حتى يكون أقل من الهباء. والمقصود: أن الأدب مع الله تبارك وتعالى هو القيام بدينه، والتأدب بأدبه ظاهراً وباطناً. ولا يستقيم لأحد قط الأدب مع الله إلا بثلاثة أشياء: معرفته بأسمائه وصفاته، ومعرفة بدينه وشرعه، وما يجب وما يكره. ونفس مستعدة قابلة لينة، متهيئة لقبول الحق علماً وعملاً وحالاً. والله المستعان.

● نصف التوحيد والادب: متابعة النبي صلى الله عليه وسلم

وأما الأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم: فالقرآن مملوء به. فرأس الأدب معه: كمال التسليم له، والانقياد لأمره. وتلقى خبره بالقبول والتصديق، دون أن يحمله مغارضة خيال باطل، يسميه معقولا. أو يحمله شبهة أو شكاً، أو يقدم عليه آراء الرجال، وزبالات أذهانهم، فيؤخذه بالتحكيم والتسليم، والانقياد والإذعان. كما وحده أنجيل سبحاته وتعالى بالعبادة والخضوع والذل، والإنابة والتوكل. فهم توحيدان. لانجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما. توحيد الميريل. وتوحيد متابعة الرسول. فلا يحاكم إلى غيره. ولا يرضى بحكم غيره. ولا يقف تنفيذ أمره. وتصديق خبره، على عرضه على قول شيخه وإمامه، وذوى مذهبه وطائفته، ومن يعظمه. فإن أذنوا له نفذه وقبل خبره، وإنه فإن طلب السلامة: أعرض عن أمره وخبره وفوض إليهم، وإلا حرقه عن مواضعه. وسمى تحرقه: تأويله، وحمله. فقال: نؤوله ونحمله. فلأن يلقى العبد ربه بكل ذنب على الإطلاق — ما خلا الشرك بالله — خير له من أن يلقاه بهذه الحال.

ولقد خاطبت يوماً بعض أكابر هؤلاء. فقلت له: سألتك بالله: لو قدر أن الرسول صلى الله عليه وسلم حتى بين أظهرنا. وقد واجهنا بكلامه وبخطابه: أكان فرضاً علينا أن نتبعه من غير أن نعرضه على رأي غيره وكلامه ومذهبه، أم لا نتبعه حتى نعرض ما سمعناه منه على آراء الناس وعقولهم؟

فقال: بل كان الفرض المبادر إلى الامتثال من غير التفات إلى سواء.

فقلت فما الذي نسخ هذا الفرض عنا؟ وبأى شيء نسخ؟

فوضع إصبعه على فيه. وبقي باهتاً متحيراً. وما تنطق بكلمة.

هذا أدب الخواص معه. لا مخالفة أمره والشرك به. ورفع الأصوات، وإزعاج الأعضاء بالصلاة عليه والتسليم. وعزل كلامه عن اليقين وعن أن يستفاد منه معرفة الله، أو تلقى أحكامه منه وجعل المنول في باب معرفة الله: على العقول المنهكة المتحيرة المتناقضة. وفي الأحكام: على تقليد الرجال وآرائها. والقرآن والسنة إنفاً تفرؤهما تبركاً، لا أنا نلتقى منهما أصول الدين ولا فروعه. ومن طلب ذلك ورأه عايدنا وسميناً في قطع دابره، واستصالح شأفته (٢٣: ٦٣ - ٧٤) بل قلوبهم في غمرة من هذا. ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون * حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون * لا تجأروا اليوم. إنكم منا لا تنصرون * قد كانت آياتي تأتي عليكم. فكنتم على أعقابكم تنكصون * مستكبرين به. سامراً. تهجرون * أفلم يدبروا القول؟ أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين؟ * أم لم يعرفوا رسولهم. فهم له منكرون؟ * أم يقولون به جنة؟ بل جاءهم بالحق. وأكثرهم للحق كارهون * ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن. بل أنيناهم بذكرهم. فهم عن ذكرهم معرضون * أم تسألهم خزجاً؟ فخراج ربك خير. وهو خير الرازقين * وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم * وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لنا كيون).

والناصح لنفسه. العامل على نجاتها: يتدبر هذه الآيات حق تدبرها. ويتأملها حق تأملها. وينزلها على الواقع: فيمري المنجب. ولا يظنها اختصت بقوم كانوا فبانوا «فالحديث لك: واسمعي يا جارة» والله المستعان. ومن الأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم: أن لا يتقدم بين يديه بأمر ولا نهي، ولا إذن ولا تصرف. حتى يأمر هو، وينهى ويأذن، كما قال تعالى (٤٧: ١) يأيتها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) وهذا باق إلى يوم القيامة ولم ينسخ. فالتقدم بين يدي سنته بعد وفاته، كالتقدم بين يديه في حياته، ولا فرق بينهما عند ذي عقل سليم. قال مجاهد رحمه الله: لا تفتاتوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال أبو عبيدة: تقول العرب: لا تقدم بين يدي الإمام وبين يدي الأب. أي لا تعجلوا بالأمر والنهي دونه.

وقال غيره: لا تأمر يا حتى يأمر. ولا تنهوا حتى ينهى.
ومن الأدب معه: أن لا ترفع الأصوات فوق صوته. فإنه سبب لحبوط الأعمال فما الظن برفع الآراء. وتنتائج الأفكار على سنته وما جاء به؟ أترى ذلك موجباً لقبول الأعمال، ورفع الصوت فوق صوته موجب لحبوطها؟

ومن الأدب معه: أن لا يجعل دعاءه كدعاء غيره. قال تعالى (٢٤: ٦٣) لا تعجلوا دعاء الرسول ببينكم كدعاء بعضكم بعضاً) وفيه قولان للمفسرين.
أحدهما: أنكم لا تدعونه باسمه، كما يدعو بعضكم بعضاً، بل قولوا: يا رسول الله يا نبي الله. فعلى هذا: المصدر مضاف إلى المفعول، أي دعاءكم الرسول.

الثاني: أن المعنى لا تعجلوا دعاءه لكم بمنزلة دعاء بعضكم بعضاً. إن شاء أجاب، وإن شاء ترك، بل إذا دعاكم ثم يكن لكم يؤد من إجابته، ولم يسعكم التخلف عنها ألبتة. فعلى هذا: المصدر مضاف إلى الفاعل، أي دعاؤه إياكم.

ومن الأدب معه: أنهم إذا كانوا معه على أمر جامع — من خطبة، أو جهاد، أو رباط — لم يذهب أحد منهم مذهباً في حاجته حتى يستأذنه. كما قال تعالى (٢٤: ٦٢) إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله. وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه) فإذا كان هذا مذهباً مقيداً بحاجة عارضة، لم يوسع لهم فيه إلا بإذنه فكيف بمذهب مطلق في تفاصيل الدين: أصوله، وفروعه، دقيقه، وجليله؟ هل يشرع الذهاب إليه بدون استئذانه؟ (١٦: ٤٣) فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون).

ومن الأدب معه: أن لا يتشكل قوله. بل تستشكل الآراء لقوله، ولا يعارض نصه بقياس. بل تهدر الأقيسة وتتقوى لنصوصه. ولا يحرف كلامه عن حقيقته لخلاف يسميه أصحابه معقولا، نعم هو مجهور، وعن التصواب ممزول. ولا يوقف قبول ما جاء به صلى الله عليه وسلم على موافقة أحد. فكل هذا من قلة الأدب معه صلى الله عليه وسلم. وهو عين الجرأة.

• كل الحياة ينظمها الادب

وأما الأدب مع الخلق: فهو معاملتهم — على اختلاف مراتبهم — بما يليق بهم. فلكل مرتبة أدب. والمراتب فيها أدب خاص. فمع الوالدين: أدب خاص وللأب منهما: أدب هو أخص به، ومع العالم: أدب آخر، ومع السلطان: أدب يليق به. وله مع الأقران أدب يليق بهم. ومع الأجانب: أدب غير أدبه مع أصحابه وذوى أئسه. ومع الضيف: أدب غير أدبه مع أهل بيته. ولكل حال أدب: فلاً كل آداب. وللشرب آداب. وللكوب والدخول والخروج والسفر والإقامة والنوم آداب. وللبول آداب. ولل كلام آداب. وللسكوت والاستماع آداب. وأدب المرء: عنوان سعادته وفلاحه. وقلة أدبه: عنوان شقاوته وبواره.

فما استجلب خير الدنيا والآخرة بمثل الأدب، ولا استجلب حرمانها بمثل قلة الأدب. فانظر إلى الأدب مع الوالدين: كيف نجى صاحبه من حبس الفارحين أطيقت عليهم الصخرة؟ والإخلال به مع الأم — تأويلها وأقبالاً على الصلاة — كيف امتحن به جريج الراهب بهدم صومعته وضرب الناس له، ورميه بالفاحشة؟

وتأمل أحوال كل شقى ومفتر ومدبر: كيف تجد قلة الأدب هى التى ساقته إلى الحرمان؟ وانظر أدب الصديق رضى الله عنه مع النبي صلى الله عليه وسلم فى الصلاة: أن يتقدم بين يديه. فقال «ما كان ينبغي لابن أبى قحافة أن يتقدم بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم» كيف أورثه مقامه والإمامة بالأمة بعده؟ فكان ذلك التأخر إلى خلفه — وقد أوماً إليه أن: أثبت مكانك — جئزاً، وسعياً إلى قدام؟ بكل خطوة إلى وراء مراحل إلى قدام. تنقطع فيها أعناق المطى. والله أعلم.

• آداب النمط الاوسط

وقال بعض السلف: دين الله بين الغالي فيه والجاني عنه. فإضاعة الأدب بالجفاء: كمن لم يكمل أعضاء الوضوء. ولم يوف الصلاة آدابها التى سنّها رسول الله صلى الله عليه وسلم وفعلها. وهى قريب من مائة أدب: ما بين واجب ومستحب.

وأضاعته بالغلو: كالوسوسة فى عقد النية. ورفع الصوت بها. والجهر بالأذكار والدعوات التى شرعت سراً. وتطويل ما السنة تخفيفه وحذفه. كالتشهد الأول والسلام الذى حذفه سنة. وزيادة التطويل على ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولاعلى ما يظنه شراق الصلاة

• سفارون لها ويشتهونه. فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن ليأمر بأمر ومخالفة. وقد صانه من ذلك. وكان يأمرهم بالتخفيف ويؤمهم بالصافات. ويأمرهم بالتخفيف. وتقام صلاة ظهر، فيذهب الذاهب الى البقيع، فيقضي حاجته. ويأتي أهله ويتوضأ. ويدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم في الركعة الأولى. فهذا هو التخفيف الذي أمر به. لانقر الصلاة وسرقها. فإن ذلك اختصار، بل اقتصار على ما يقع عليه الاسم. ويسمى به مصليا، وهو كأكمل المضطرب في الخمصطة ما يسد به رمقه: فليته شيع على القول الآخر، وهو كجائع قدم اليه طعام لذيقه جداً. فأكل منه لقمة او لقمتين. فماذا يغنيان عنه؟ ولكن لو أحس بجوعه لما قام من الطعام حتى يشبع منه وهو يقدر على ذلك. لكن القلب شعبان من شيء آخر.

نعم. والله. فإن الصلاة هي غذاء الروح والقلب. فإنه بحاجة الى غذائه مما يتنزل من رحمة الله. كما - الجسم بحاجة الى الغذاء مما تخرج الأرض. ولما كان كل منهما يهضم غذاءه، فيحتاج الى غذاء جديد. تفضل الله ربنا سبحانه. فجعل الصلوات خمساً مقسمة على اجزاء اليوم هذا التقسيم الحكيم ليأخذ الروح وقلب - الانساني المعنوي الكريم - وجبة الغذاء بعد اضطرابه في شؤون الحياة وفتنها التي هضبت غذاءه. كالجسم سواء بسواء. وهكذا العلم وبقية ما تفضل به علينا ربنا الكريم من العبادات. والأعمال الصالحات.

ومثال ذلك في حقوق الخلق: أن لا يفرط في القيام بحقوقهم، ولا يستغرق فيها، بحيث يشتغل بها عن حقوق الله، او عن تكميلها، او عن مصلحة دينه وقلبه، وأن لا يجفوع عنها حتى يعطلها بالكلية. فإن الطرفين من العدوان الضار. وعلى هذا الحد، فحقيقة الأدب: هي العدل. والله اعلم.

• وزن الاحوال والمقامات بالادب

ومن الادب: قنع الخوف: أن يتعدى الى اليأس، وحبس الرجاء: أن يخرج الى الأمن، وضبط السرور: أن يضاهي الجزأة.

فالاديب لا يدع الخوف يفضي به الى حد يوقعه في القنوط، واليأس من رحمة الله. فإن هذا الخوف مذموم.

وسمعت شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله - يقول: حد الخوف ما حجزك عن معاصي الله. فبأ زاد على ذلك: فهو غير محتاج اليه.

وهذا الخوف الموقع في الإيأس: اساءة أدب على رحمة الله تعالى، التي سبقت غضبه، وجهلاً بيا.

ولما حبس الرجاء: أن يخرج إلى الأمن، فهو أن لا يبلغ به الرجاء إلى حد يأمن معه العقوبة.
فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون. وهذا إغراق في الطرف الآخر.
بل حد الرجاء: ما ظيَّب لك العبادة، وحملك على السير، فهو بمنزلة الرياح التي تسير
السفينة. فإذا انقطعت وقفت السفينة. وإذا زادت قتها إلى المهالك. وإذا كانت بقدر:
أوصلتها إلى البقية.

وأما ضبط السرور فلا يقدر عليه إلا الأقوياء أرباب العزائم. الذين لا تستغفرهم السراء،
فتغلب شكرهم. ولا تضعفهم الضراء. فتغلب صبرهم. كما قيل:

لا تغلب السراء منهم شكرهم كلا . ولا الضراء صبر الصابر

والنفس قرينة الشيطان ومصاحبة، وتشبهه في صفاته. ومواهب الرب تبارك وتعالى تنزل
على القلب والروح. فالنفس تسترق السمع. فإذا نزلت على القلب تلك المواهب: وثبتت لتأخذ
قسطها منها، وتُصَيِّرُهُ من عدتها وحواصلها. فالمسترسل معها، الجاهل بها: يدعها تستوفي ذلك.
فبينا هو في موهبة القلب والروح وعدة وقوة له، إذ صار ذلك كله من حاصل النفس وألتها،
وعدها. فصالت به وطغت. لأنها رأَتْ غناها به. والإنسان يطغى أن رآه استغنى بالمال.
فكيف بما هو أعظم خطراً، وأجل قدراً من المال، بما لا نسبة بينهما: من علم، أو حال، أو
معرفة؟ فإذا صار ذلك من حاصلها: انحرف العبد به — ولا بد — إلى طرف مذموم من جرأة
أو شطح، أو ادلال. ونحو ذلك.

فوالله كم ههنا من قتل، وسلب، وجريح يقول: من أين أتيت؟ ومن أين ذهبت؟ ومن أين
أصبحت؟ وأقل ما يعاقب به من الحرمان بذلك: أن يفلق عنه باب المزيد. ولهذا كان العارفون
وأرباب البصائر: إذا نالوا شيئاً من ذلك انحرفوا إلى طرف الذل والانكسار، ومطالعة عيوب
النفس. واستدعوا حارس الخوف، وحافظوا على الرباط بملازمة الثغرين القلب وبين النفس.
ونظفوها إلى اقرب الخلق من الله، وأكرمهم عليه، وأدناهم منه وسيلة، وأعظمهم عنده جاهاً،
وقد دخل مكة يوم الفتح. وَدَقَّنَهُ تَمَسُّ قُرْبُوسِ سِرْجِهِ: انخفاضاً وانكساراً، وتواضعاً لربه تعالى
في مثل تلك الحال، التي عادة النفوس البشرية فيها: أن يملكها سرورها، وفرحها بالنصر،
والظفر، والتأييد. ويرفعها إلى عنان السماء.

فالرجل: من صان فتحه ونصيبه من الله. وواراه عن استراق نفسه. وبخل عليها به،
والماجز: من جاد لها به. فيأله من جود ما أقبحه، وسماحه ما أسفه صاحبها. والله المستعان.

(٣٩) مَنْزِلَةُ الْيَقِينِ

ومن منازل «اياك نعبد واياك نستعين» منزلة «اليقين»

وهو من الايمان بمنزلة الروح من الجسد . وبه تفاضل العارفون . وفيه تنافس المتنافسون .
واليه شمر العاملون . وعمل القوم انما كان عليه . واشاراتهم كلها اليه .
وخص سبحانه اهل اليقين بالانتفاع بالآيات والبراهين . فقال ، وهو اصدق القائلين
(٢٠:٥١) وفي الارض آيات للموقنين).

وخص اهل اليقين بالهدى والفلاح من بين العالمين ، فقال (٥:٤٠) والذين يؤمنون بما
انزل اليك وما انزل من قبلك ، وبالاخرة هم يوقنون * اولئك على هدى من ربهم .
واولئك هم المفلحون).

وأخبر عن أهل النار بأنهم لم يكونوا من أهل اليقين ، فقال تعالى (٣٢:٤٥) وإذا قيل:
ان وعد الله حق ، والساعة لا رب فيها . قلتم : ما ندري ما الساعة ؟ ان نظن الا ظنا . وما
نحن بمستيقنين).

ف«اليقين» روح اعمال القلوب التي هي ارواح اعمال الجوارح . وهو حقيقة الصديقية .
وهو قطب هذا الشأن الذي عليه مداره .

وروى خالد بن يزيد عن السفينيين عن التيمي عن خيشمة عن عبد الله بن مسعود عن
النبي صلى الله عليه وسلم قال «لأُرضينَّ أحداً بسخط الله . ولا تُخمدنَّ أحداً على فضل
الله ، ولا تُثمننَّ أحداً على ما لم يؤت الله . فإن رزق الله لا يسوقه اليك حرص حريص .
ولا يرده عنك كراهية كاره . وان الله يعذله وقسطه جمع الروح والفرح في الرضا واليقين ،
وجعل الهم والحزن في الشك والسخط» .

والصواب : ان التوكل ثمرته ونتيجته . ولهذا حسن اقتران الهدى به . قال الله تعالى
(٧٩:٢٨) فتوكل على الله . انك على الحق المبين) فالحق : هو اليقين وقالت رسل الله
(١٢:١٤) وما لنا ان لا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا؟

ومتى وصل «اليقين» الى القلب امتلاً نوراً واشراقاً. وانتقى عنه كل ريب وشك وسخط،
وقمّ وغمّ. فامتلاً محبة الله، وخوفاً منه ورضى به، وشكراً له، وتوكلاً عليه، واثابة اليه. فهو مادة
جميع المقامات والحامل لها.

وقال الجنيد: اليقين هو استقرار العلم الذي لا يتقلب ولا يحول، ولا يتغير في القلب.
وقال ابوبكر الوراق: اليقين ملاك القلب. وبه كمال الايمان. وباليقين عُرف الله.
وبالعقل عقل عن الله.

وقال ابوبكر الوراق: اليقين على ثلاثة اوجه: يقين خبر. ويقين دلالة. ويقين مشاهدة.
يريد يقين الخبر: سكون القلب الى خبر المخبر وتوثقه به. ويقين الدلالة: ما هو فوقه. وهو
ان يقيم له — مع وثوقه بصدقه — الادلة الدالة على ما أخبر به.
وهذا كعامة أخبار الايمان والتوحيد والقرآن. فإنه سبحانه — مع كونه أصدق الصادقين —
يقيم لعباده الادلة والامثال والبراهين على صدق اخباره. فيحصل لهم اليقين من الوجهين: من
جهة الخبر، ومن جهة الدليل.

فيرتفعون من ذلك الى الدرجة الثالثة. وهي «يقين المكاشفة» بحيث يصير المخبر به لقلوبهم
كالمرئي لمبصرهم. فنسبة الايمان بالغيب حينئذ الى القلب: كنسبة المرئي الى العين.
قال بعضهم: رأيت الجنة والنار حقيقة. قيل له: وكيف؟ قال: رأيتهما بعيني رسول
الله صلى الله عليه وسلم. ورؤيتي لهما بعيني: آثر عندي من رؤيتي لهما بعيني. فان بصري قد
يظنى ويزيغ، بخلاف بصره صلى الله عليه وسلم.

واركان علم اليقين: قبول ما ظهر من الحق، وقبول ما غاب، والوقوف على ما قام بالحق.
فالاول: قبول ما ظهر من الحق تعالى، والذي ظهر منه سبحانه: اوامره ونواهيه وشرعه،
ودينه الذي ظهر لنا منه على السنة رسله، فنتلقاه بالقبول والانقياد، والاذعان والتسليم
لله ربوبية. والدخول تحت رق العبودية.

الثاني «قبول ما غاب» وهو الايمان بالغيب الذي أخبر به الحق سبحانه على لسان رسله من
امور المعاد وتفصيله، والجنة والنار، وما قبل ذلك: من الصراط والميزان والحساب، وما قبل ذلك:
من تشقق السماء وانفطارها، وانتثار الكواكب، ونسف الجبال، وظئ العالم. وما قبل ذلك:
من أمور البرزخ، وتعيمة وعذابه.

فقبول هذا كله — ايماناً وتصديقاً وايقاناً — هو اليقين. بحيث لا يخالج القلب فيه شبهة.
ولاشك ولا تائب، ولا غفلة. فإنه ان لم يهلك يقينه أفسده وأضعفه.
الثالث «الوقوف على مقام بالحق» سبحانه من أسمائه وصفاته وأفعاله.
وهو علم التوحيد، الذي اساسه: اثبات الأسماء والصفات.

فاليقين هو الوقوف على ما قام بالخلق من أسمائه وصفاته ، وتنبؤت كماله ، وتوحيده . وهذه الثلاثة أشرف علوم الخلائق : علم الامر والنهي ، وعلم الاسماء والصفات والتوحيد ، وعلم المعاد واليوم الآخر . والله أعلم .

● مقام الانس بالقرآن

ومن قوي يقينه : حصل له من الانس بالقرآن ما لا يحصل للضعيف .
كما ان الانس ثمرة الطاعة والمحبة ، فكل مطيع مستأنس ، وكل عاص مستوحش .
فالسالك اذا كان محباً صادقاً طالباً لله ، عاملاً على مرضاته : كان غذاؤه بالسماع القرآني ، الذي كان غذاؤه سادات العارفين من هذه الامة ، وأبرها قلوباً ، وأصحها أحوالاً . وهم الصحابة رضي الله عنهم .

وهذا السماع القرآني سماع اهل المعرفة بالله ، والاستقامة على صراطه المستقيم . ويحصل للأذهان الصافية منه معان وإشارات ، ومعارف وعلوم . تتغذى بها القلوب المشرقة بنور الانس . فيجسد لها لذة روحانية . يصل نعيمها الى القلوب والارواح . وربما فاض حتى وصل الى الاجسام . فيجد من اللذة مالم يعمد مثله من اللذات الحسية .

فاذا تجردت الروح وكانت مستعدة . وباشر القلب روح المعنى . واقبل بكلية على المسموع . فالتقى السمع وهو شهيد . وساعده طيب صوت القاريء : كاد القلب يفارق هذا العالم . ويلج عالم آخر . ويجد له لذة وحالة لا يمهدها في شيء غيره البتة . وذلك رقيقة من حال اهل الجنة في الجنة .

فياله من غذاؤه ما أصلحه وما انتقمه .
وحرام على قلب قد تربى على غذاة السماع الشيطاني : ان يجد شيئاً من ذلك في سماع القرآن .

وليس في نعيم اهل الجنة اعلى من رؤيتهم وجه الله محبوبهم سبحانه وتعالى عياناً ، وسماع كلامه منه .

والقلب يتأثر بالسماع بحسب ما فيه من المحبة . فاذا امتلأ من محبة الله وسمع كلام محبوبه — اي بمصاحبته وحضوره في قلبه — فله من سماعه هذا شأن . ولغيره شأن آخر . والله اعلم .

• القلب الحى الى السمع

والناس في السماع على ثلاثة اقسام:

أحدها: من اتصف قلبه بصفات نفسه. بحيث صار قلبه نفساً محضه. فغلبت عليه آفات الشهوات، ودعوات الهوى. فهذا حظه من السماع: كحظ البهائم. لا يسمع الا دعاء ونداء. والفرق الذي بينها وبينه: غير طائل.

القسم الثاني: من اتصف نفسه بصفات قلبه. فصارت نفسه قلباً محضاً. فغلبت عليه المعرفة والمحبة، والعقل واللب. وعشق صفات الكمال. فاستارت نفسه بنور القلب. واطمأنت الى ربها. وقرت عينها بعبوديته. وصار نعيمها في حبه وقر به. فهذا حظه من السماع مثل — او قريب — من حظ الملائكة. وسماعه غذاء قلبه وروحه، وقره عينه ونعيمه من الدنيا، ورياضه التي يسرح فيها. وحياته التي بها قوامه.

القسم الثالث: من له منزلة بين منزلتين. وقلبه باق على فطرته الاولى. ولكن ماتصرف في نفسه تصرفاً احالها اليه. وازال به رسومها. وجلا عنه ظلمتها. ولاقويت النفس على القلب باحالتها اليها. وتصرفت فيه تصرفاً أزالته عنه نوره وصحته وفطرته.

فين القلب والنفس منازل ووقائع، والحرب بينهما دول وسجال، تدال النفس عليه تارة، ويدال عليها تارة.

فهذا حظه من السماع: حظ بين الحظين، ونصيبه منه بين النصيبين. فان صادفه وقت دولة القلب: كان حظه منه قوياً. وان صادفه وقت دولة النفس: كان ضعيفاً.

ومن ههنا يقع التفاوت في الفقه عن الله. والفهم عنه. والابتهاج والنعيم بسماع كلامه. وصاحب هذه الحال — في حال سماعه — يشغل القلب بالحرب بينه وبين النفس، فيفوته من روح السموع ونعيمه ولذته بحسب اشتغاله عنه بالحاربة. ولا سبيل له الى حصول ذلك بتمامه، حتى تضع الحرب اوزارها. وربما صادفه في حال السماع وارد حق، او الظفر بمعنى بديع لا يتقدر فكره على صيده كل وقت. فيغيب به ويستغرق فيه عما يأتي بعده. فيعجز عن صيد تلك المعاني. ويدهشه ازدحامها. فيبقى قلبه باهتاً. كما يحكي ان بعض العرب: ارسل صائداً له على صيد. فخرج الصيد عليه من امامه وخلفه، وعن يمينه وعن شماله، فوقف باهتاً ينظر عيناً وشمالاً. ولم يصطد شيئاً. فقال:

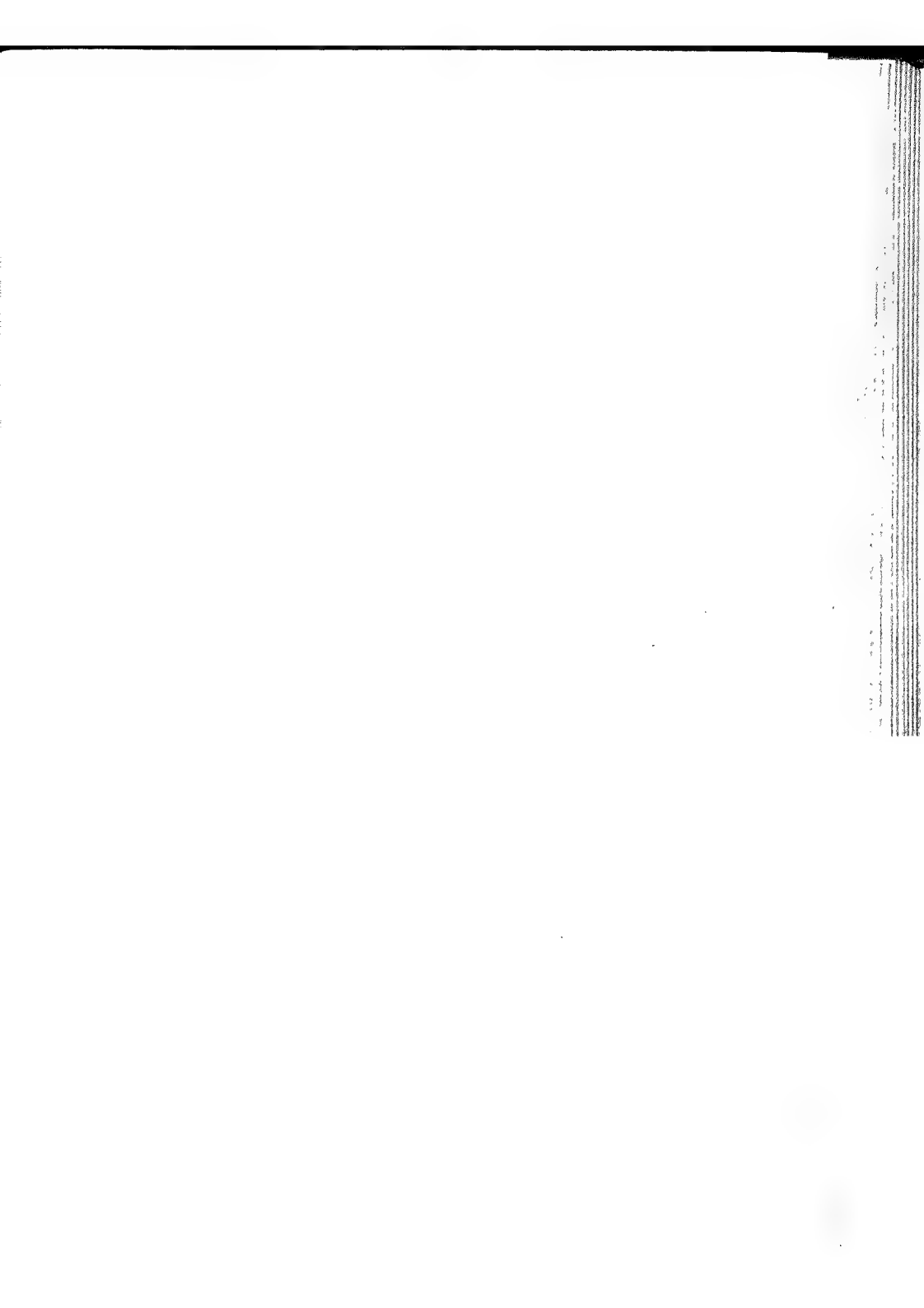
تكاثر الطباء على خراش فما يدري خراش ما يصيد

فوظيفته في مثل هذا الحال: أن يعلق قلبه بالمتكلم. وكأنه يسمع كلامه منه. ويحمل قلبه نهراً لجريانه معانيه ويفرغه من سوى فهم المراد. وينصب اليه انصباباً يتلقى فيه معانيه،

كشلقى المحب للاحباب القادمين عليه. لا يشغله حبيب منهم عن حبيب. بل يعطى كل قادم حقه. وكشلقى الضيوف والزوار. وهذا انما يكون مع سعة القلب، وقوة الاستعداد، وكمال الحضور.

فإذا سمع خطاب الترغيب والتشويق، واللفظ والاحسان: لا يقنى به عما يجيء بعده من خطاب التخييف والترهيب والعدل. بل يسمع الخطاب الثاني مستصحباً لحكم الخطاب الأول ويمزج هذا بهذا. ويسير بهما ومعهما جميعاً، عاكفاً بقلبه على المتكلم وصفاته سبحانه. وهذا سير في الله. وهو نوع آخر اعلى وارفع من مجرد السير اليه. ولا ينقطع بذلك سيره اليه. بل يدرج سيره. فإن سير القلب في معاني اسمائه وصفاته وتوحيده ومعرفته. ومتى بقيت للقلب في ذلك ملكة، واشتد تعلقه به: لم تحجبه معاني المسموع، وصفات المتكلم بعضها عن بعض، ولكن في الابتداء يصير عليه ذلك. وفي التوسط يهون عليه، ولا انتهاء ههنا ألبته.

وذلك: لأن هذا الانس المذكور يكون مبدؤه الكشف عن اسماء الصفات التي يحصل عنها الانس. ويتعلق بها. كاسم «الجميل، والبر واللطف، والودود، والحليم، والرحيم» ونحوها. ثم يقوى التعلق بها حتى يكون معه طيب الحياة، وقرّة العين، ولذة القلب، وبهجة الروح، مع كتمان العافية بلا عنة، والمداية بلا فتنة، فتخف اعباء السير، ويزول كل فتور، ويظل القلب في ازدياد من معاني الخير دائماً.



(٤٠) مَنْزِلَةُ الذِّكْرِ

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزله «الذكر»
وهي منزلة 'قوم الكبرى، التي منها يتزودون. وفيها يتجرون. وإليها دائماً يترددون.
و «الذكر» منشور الولاية، الذي من أعطيه اتصل، ومن منعه عزل. وهو قوت قلوب القوم،
الذي متى فزحها صارت الأجساد لها قبوراً. وعمارة ديارهم. التي إذا تمطلت عنه صارت بوراً.
وهو سلاحهم الذي يقاتلون به قطاع الطريق. وماؤهم الذي يطفنون به التهاب الحريق.
ودواء أسقامهم الذي متى فارقهم انتكست منهم القلوب. والسبب الواصل، والعلاقة التي
كانت بينهم وبين علام الغيوب.
به يستدفعون الآفات، ويستكشفون الكربات. وتهون عليهم به المصيبات. إذا أظلم
البلاء. فإليه ملجؤهم. وإذا نزلت بهم النوازل. فإليه مفزعهم. فهو رياض جنتهم التي فيها
يتقلبون. ويؤوس أموال سعادتهم التي بها يتجرون. يدع القلب الحزين ضاحكاً مسروراً.
ويوصل الذكر إلى المذكر بل يدع الذكر مذكوراً.
وفي كل جراحة من الجوارح عبودية مؤقتة. و«الذكر» عبودية القلب واللسان وهي غير
مؤقتة. بل هم يأمرون بذكر معبودهم ومحبوبهم في كل حال: قياماً، وعلى جنوبهم. فالقلوب بور
خراب. وهو عمارتها، وأساسها.
وهو جلاء القلوب وصقالتها. ودواؤها إذا غشيها اعتلالها. وكلما ازداد الذكر في ذكره
استغرقاً: ازداد المذكر حجة إلى لقائه واشتياقاً. وإذا واطأ قلبه للسانه في ذكره: نسي في جنب
ذكره كل شيء. وحفظ الله عليه كل شيء. وكان له عوضاً من كل شيء.
به يزول النور عن الأسماع، والبكم عن الألسن، وتنقش الظلمة عن الأبصار.
رزين الله به ألسنة الذاكرين. كما زين بالنور أبصار الناظرين. فاللسان الغافل: كالعين
العمياء، والأذن الصماء، واليد الشلاء.
وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده، ما لم يغلقه العبد بغلته.
قال الحسن البصري رحمه الله: تفقدوا الخلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة. وفي الذكر.
وقراءة القرآن. فإن وجدتم . . . ولا فاعلموا أن الباب مغلق.

وبالذكر: يصرع العبد الشيطان. كما يصرع الشيطان أهل الغفلة والنسيان.
وهو روح الأعمال الصالحة. فإذا خلا العمل عن الذكر كان كالجسد الذي لا روح فيه.
الله أعلم.

وهو في القرآن على عشرة أوجه.

الأول: الأمر به مطلقاً ومقيداً.

الثاني: النهي عن ضده من الغفلة والنسيان.

الثالث: تعليق الفلاح باستدامته وكثرته.

الرابع: الثناء على أهله، والإختبار بما أعد الله لهم من الجنة والمغفرة.

الخامس: الإخبار عن خسران من لما عنه بغيره.

السادس: أنه سبحانه جعل ذكره لهم جزاء لذكرهم له.

السابع: الإخبار أنه أكبر من كل شيء.

الثامن: أنه جعله خاتمة الأعمال الصالحة كما كان مفتاحها.

التاسع: الإخبار عن أهله بأنهم هم أهل الانتفاع بآياته. وأنهم أولو الألياب دون غيرهم.

العاشر: أنه جعله قرين جميع الأعمال الصالحة وروحها. فمتى خدمته كانت كالجسد بلا

روح.

أما الأول: فكتوبه تعالى (٣٣: ٤١) — ٤٤ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً.
و- - - به بكرة وأصيلًا * هو الذي يصلي عليكم وملائكته. ليخرجكم من الظلمات إلى
النور. وكان بالمؤمنين رحيماً) وقوله تعالى (٧: ٢٠٤) واذكروا ربك في نفسك تضرعاً وخيفة).

وفي نولان. أحدهما: في سرّك وقلبك. والثاني: بلسانك بحيث تسمع نفسك

وأما النهي عن ضده: فكتوبه (٧: ٢٠٤) ولا تكن من الغافلين) وقوله (٥٩: ١٩) ولا

تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم).

وأما تعليق الفلاح بالا كثرته: فكتوبه (٨: ٤٥، ٦٢: ١٠) واذكروا الله كثيراً

لعلكم تفلحون).

وأما الثناء على أهله، وحسن جزائهم: فكتوبه (٣٣: ٣٥) إن المسلمين والمسلمات — إلى

قوله — والذاكرين الله كثيراً والذاكرات: أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيماً).

وأما خسران من لما عنه، فكتوبه تعالى (٦٣: ٩) يا أيها الذين آمنوا لا تلتهكم أموالكم ولا

أولادكم عن ذكر الله. ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون).

وأما جعل ذكره لهم جزاء لذكرهم له، فكتوبه (٢: ١٥٢) فاذكروني أذكركم.

واشكروا لي ولا تكفرون).

وأما الإخبار عنه بأنه أكبر من كل شيء فكقوله تعالى (٢٩: ٤٥) أَتْلُ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ. إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر. ولذكر الله أكبر وفيها أربعة أقوال.

أحدها: ذكر الله أكبر من كل شيء. فهو أفضل الطاعات. لأن المقصود بالطاعات كلها: إقامة ذكره. فهو سر الطاعات وروحها.

الثاني: أن المعنى: أنكم إذا ذكرتموه ذكركم. فكان ذكره لكم أكبر من ذكركم له. فعلى هذا: المصدر مضاف إلى الفاعل. وعلى الأول: مضاف إلى المذكور.

الثالث: أن المعنى: ولذكر الله أكبر من أن يبقى معه فاحشة ومنكر. بل إذا تم الذكر: مَحَقَّ كُلَّ خَطِيئَةٍ وَمَعْصِيَةٍ. هذا ما ذكره المفسرون.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية — رحمه الله — يقول: معنى الآية: أن في الصلاة فائدتين عظيمتين.

إحداها: نهى عن الفحشاء والمنكر.

والثانية: اشتغالها على ذكر الله وتضمنها له. ولما تضمنته من ذكر الله أعظم من نهىها عن الفحشاء والمنكر.

ولعل في الآية معنى آخر: أن الصلاة هي أكبر الذكر. فقد قال الله تعالى (٢٠: ١٤) أَقِمِ الصَّلَاةَ لَذِكْرِي وَهِيَ أَكْبَرُ وَأَقْوَى وَأَشَدُّ نَاهٍ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ.

وأما ختم الأعمال الصالحة به: فكما ختم به عمل الصيام بقوله (٢: ١٨٥) وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ، وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ).

وختم الحج في قوله (٢: ٢٠٠) فَإِذَا قُضِيَتْ مِنْاسِكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا).

وختم به الصلاة كقوله (٤: ١٠٣) فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ).

وختم به الجمعة كقوله (٦٢: ١٠) فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَانْتَشَرُوا فِي الْأَرْضِ. وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ، وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) ولهذا كان خاتمة الحياة الدنيا. وإذا كان آخر كلام العبد: أدخله الله الجنة.

وأما اختصاص الذاكرين بالانشغال بآياته. وهم أولو الألباب والعقول. فكقوله تعالى (٣: ١٩٠، ١٩١) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ).

وأما مصاحبته لجميع الأعمال، واقتراحه بها، وأنه روحها فإنه سبحانه قرنه بالصلاة كقوله (٢٠: ١٤) وأقم الصلاة لذكري وقرنه بالصيام والحج ومناسكه. بل هورج الحج، وليته ومقصوده. كما قال النبي صلى الله عليه وسلم «إنما جعل الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار: لإقامة ذكر الله».

وقرنه بالجهاد. وأمر بذكره عند ملاقة الأقران، ومكافحة الأعداء. فقال تعالى (٨):
 ه يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فانبتوا واذكروا الله لعلكم تفلحون).

• الذاكرون سابقون

والذاكرون: هم أهل السبق، كما روى مسلم في صحيحه من حديث العلاء عن أبيه عن أبي هريرة رضى الله عنه قال «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير في طريق مكة. فمر على جبل يقال له جُندَان فقال: سيروا. هذا جدان سَبَقَ الْمُفْرَدُونَ. قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: الذاكرون الله كثيراً والذاكرات.»

«والمفردون» إما الموحدون. وإما الآحاد الفرادى.

وفى المسند — مرفوعاً — من حديث أبي الدراء رضى الله عنه «ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والفضة، وأن تلقوا عدوكم. فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: ذكر الله عز وجل».

وروى شعبة عن أبي إسحاق قال: سمعت الأغرق قال: أشهد على أبي هريرة وأبي سعيد رضى الله عنهما. أنهما شهدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حَفَّتْهُمُ الملائكة. وغشيتهم الرحمة. ونزلت عليهم السكينة. وذكرهم الله فيمن عنده» وهو في صحيح مسلم.

ويكنى في شرف الذكر: أن الله يباهى ملائكته بأهله. كما في صحيح مسلم عن معاوية رضى الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم «خرج على حلقة من أصحابه. فقال: ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله. ونحمده على ما هدانا للإسلام. ومقرن علينا، قال: ما أجلسكم إلا ذلك؟ قالوا: آله ما أجلسنا إلا ذلك، قال: أما إنى لم أستحلفكم تهمة لكم، ولكن أتانى جبريل، فأخبرنى: أن الله يباهى بكم الملائكة».

وسئل أعرابى رسول الله صلى الله عليه وسلم «أى الأعمال أفضل؟ فقال: أن تفارق الدنيا ولسانك رطب من ذكر الله».

وقال له رجل (إن شرائع الإسلام قد كثرت عليّ، فمرني بأمر أثبتت به). فقال:
لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله».

وفى المسند وغيره من حديث جابر، قال «خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم.
فقال: أيها الناس، ارتعوا في رياض الجنة. قلنا: يا رسول الله: وما رياض الجنة؟ فقال:
مجالس الذكر».

وقال «اغدوا وروحوا واذكروا، من كان يحب أن يعلم منزله عند الله: فليتظر كيف
منزلة الله عنده؟ فإن الله ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه».

وروى النبي صلى الله عليه وسلم عن أبيه إبراهيم صلى الله عليه وسلم — ليلة الإسراء —
أنه قال له «أفريء أمتك مني السلام. وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها
قيعان. وأن غرسها: سبحان الله. والحمد لله. ولا إله إلا الله. والله أكبر» رواه الترمذي
وأحمد وغيرهما.

وفى الصحيحين من حديث أبي موسى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم «مثل
الذي يذكر ربه والذي لا يذكره: مثل الحى والميت»
وسقط مسلم «مثل البيت الذى يذكر الله فيه، والبيت الذى لا يذكر الله فيه: مثل
الحى والميت».

فجعل بيت الذاكر بمنزلة بيت الحى. وبيت الغافل بمنزلة بيت الميت. وهو القبر.
وفى "اللفظ الأول: جعل الذاكر بمنزلة الحى فى بيوت الأحياء. والغافل كالمت فى بيوت
الموت. ولا ريب أن أبدان الغافلين قبور لقنوبهم. وقلوبهم فيها كالموت فى القبور. كما
قيل:

فسيان ذكر الله موت قلوبهم وأجسامهم قبل القبور قبور
وأرواحهم فى وحشة من جسيمهم وليس لهم حتى "نشور" نشور
وفى "الصحيح: فى الأثر الذى يرويه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه تبارك وتعالى
«من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى. ومن ذكرنى فى مألأ ذكرته فى مألأ خير منهم».

وقد ذكرنا فى الذكر نحو مائة فائدة فى كتابنا (الوابل الصيب) ورفع كنهه الطيب) وذكرنا
هناك أسرار الذكر، وعظم نفعه، وطيب ثمرته. وذكرنا فيه: أن الذكر ثلاثة أنواع.

ذكر الأسماء ونصفات ومعانيها، والثناء على الله بها. وتوحيد الله بها.

وذكر الأمر والنهى، والحلال والحرام. وذكر الآلاء والنعماء وإحسان والآبى وأنه
سلاسة أنواع أيضاً: ذكر يتواطأ عليه القلب واللسان. وهو أعلاها. وذكر بالقلب وحده. وهو فى
درجة الثانية. وذكر باللسان المجرد. وهو فى الدرجة الثالثة.

وذكر العبد لربه محفوف بذكرين من ربه له: ذكر قبله. به صار العبد ذا كراً له. وذكر بعده. به صار العبد مذكوراً. كما قال تعالى «٢: ١٥٢ فاذكروني أذكركم» وقال — فيما يروى عنه نبيه صلى الله عليه وسلم — «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم».

• أنواع الذكر

وانواع الذكر ثلاثة: ثناء، ودعاء، ورعاية.

فأما ذكر الثناء: فنحو «سبحان الله. والحمد لله. ولا إله إلا الله. والله أكبر»

وأما ذكر الدعاء فنحو «٧: ٢٣ ربنا ظلمنا أنفسنا. وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين» و «يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث» ونحو ذلك.

وأما ذكر الرعاية: فمثل قول الذاكر: الله معي. الله ناظر إلي. الله شاهدي ونحو ذلك مما يستعمل لتقوية الحضور مع الله. وفيه رعاية لمصلحة القلب، ولحفظ الأدب مع الله، والحرص من الغفلة، والاعتصام من الشيطان والنفس.

والأذكار النبوية تجمع الأنواع الثلاثة. فإنها متضمنة للثناء على الله، والتعرض للدعاء والسؤال، والتصريح به. كما في الحديث «أفضل الدعاء الحمد لله» قيل لسفيان بن عيينة: كيف جعلها دعاء؟ قال: أما سمعت قول أمية ابن الصلت لعبد الله بن جعدان يرجو ناله: أذكر حاجتي، أم قد كفاني جباؤك؟ إن شيمتك الحياء إذ أنسى عليك المرء يوماً كفاه من تعرضه الهناء فهذا مخلوق. واكتفى من مخلوق بالثناء عليه من سؤاله، فكيف برب العالمين؟

والأذكار النبوية متضمنة أيضاً لکنان الرعاية، ومصلحة القلب، والحرص من الغفلات، والاعتصام من الوسواس والشيطان، وفيها تعليم القلب مناجاة الرب، تملقاً تارة، وتضرعاً تارة، وثناء تارة، واستعظاماً تارة، وغير ذلك من أنواع المناجاة بالر والقلب.

«١» مَنْزِلَةُ الْيَقِينِ

ومن منازل «اياك نعبد واياك نستعين» منزلة «الفقر»
 هذه المنزلة أشرف منازل الطريق عند القوم، وأعلها وأرفعها، بل هي روح كل منزلة
 رها وغايتها.
 وهذا لما يعرف بمعرفة حقيقة «الفقر» والذي تريد به هذه الطائفة أخص من معناه الاصلي.
 ن لفظ «الفقر» وقع في القرآن في مواضع.
 أحدها: قوله تعالى (٢: ٢٧٣) للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله. لا يستطيعون ضرباً
 في الأرض، يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف — الآية) أي الصدقات هؤلاء. كان فقراء
 المهاجرين نحو أربع مائة. لم يكن لهم مساكن في المدينة ولا عاشر. وكانوا قد حبسوا أنفسهم
 على الجهاد في سبيل الله. فكانوا وقفا على كل سرية يبعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم.
 وهم أهل الصفة. هذا أحد الأقوال في إحصائهم في سبيل الله.
 وقيل: هو حبسهم أنفسهم في طاعة الله. وقيل: حبسهم الفقر والعُدم عن الجهاد في سبيل
 الله.
 وقيل: لما عادوا أعداء الله وجاهدوهم في الله تعالى أحصروا عن الضرب في الأرض لطلب
 المعاش. فلا يستطيعون ضرباً في الأرض.
 ونصحيح أنهم - لفقرهم وعجزهم وضعفهم - لا يستطيعون ضرباً في الأرض، ولكمال
 عفتهم وصيانتهم يحسبهم من لم يعرف حالهم أغنياء.

ومنها: قوله تعالى (٩: ٦١) إنما الصدقات للفقراء — الآية).
 ومنها: قوله تعالى (٣٥: ١٥) يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله).
 فأنصف الأول: خواص الفقراء. والثاني: فقراء المسلمين خاصهم وعامهم. والثالث:
 الفقر العام لأهل الأرض كلهم: غنيهم وفقيرهم، مؤمنهم وكافرهم.
 فالفقراء الموصوفون في الآية الأولى: يقابلهم أصحاب الجنة، ومن ليس محصراً في سبيل
 الله، ومن لا يكتف فقره تعففاً، فمقابلهم أكثر من مقابل الصنف الثاني.

والصنف الثاني: يقابلهم الأغنياء أهل الجدة. ويدخل فيهم المتعفف وغيره. والمحصري
سبيل الله وغيره.

والصنف الثالث: لامقابل هم. بل الله وحده الغني. وكل من سواه فقير إليه.
ومراد القوم بالفقر: شيء أخص من هذا كله. وهو تحقيق العبودية. والافتقار الى الله تعالى
في كل حالة.

وهذا المعنى أجل من أن يسمى فقراً. بل هو حقيقة العبودية ولُبُّها. وعزل النفس عن مزاحمة
الربوبية.

وحقيقة «الفقر» وكماله كما قال بعضهم — وقد سئل: متى يستحق الفقير اسم «الفقر»؟
— فقال: إذا لم يبق عليه بقية منه. فقليل له: وكيف ذلك؟ فقال: إذا كان له فليس له. وإذا
لم يكن له فهو له.

وهذه من أحسن العبارات عن معنى «الفقر» الذي يشير إليه القوم. وهو أن يصير كله لله عز
وجل. لا يبقى عليه بقية من نفسه وحظه وهواه. فمتى بقى عليه شيء من أحكام نفسه ففقره
مدخول.

ثم فسر ذلك بقوله «إذا كان له فليس له» أي إذا كان لنفسه فليس لله. وإذا لم يكن
لنفسه فهو لله.

فحقيقة «الفقر» أن لا تكون لنفسك. ولا يكون لها منك شيء، بحيث تكون كلك لله. وإذا
كنت لنفسك فثم ملك واستغناء مناف للفقر.

وهذا «الفقر» الذي يشيرون إليه: لا تنافيه الجدة ولا الأملاك. فقد كان رسل الله وأنبياءه
في ذروته مع جدتهم، وملكهم، كإبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم كان أبا الضيفان.
وكانت له الأموال والمواشي. وكذلك كان سليمان وداود عليهما السلام. وكذلك كان نبينا
صلى الله عليه وسلم، كان كما قال الله تعالى (٨:٩٣) ووجدك عائلاً فأغنى) فكانوا أغنياء
في فقرهم. فقراء في غناهم.

فالفقر الحقيقي: دوام الافتقار الى الله في كل حال، وأن يشهد العبد — في كل ذرة من
ذراته الظاهرة والباطنة — فاقة تامة الى الله تعالى من كل وجه.

فالفقر ذاتي للعبد. وإنما يتجدد له لشهوده وجوده حالاً، وإلا فهو حقيقة. كما قال شيخ
الإسلام ابن تيمية: قدس الله روحه:

والفقر لي وصف ذات لازم أبداً كما الغنى أبداً وصف له ذاتي
وله آثار وعلامات وموجبات وأسباب أكثر إشارات القوم إليها. كقول بعضهم: أركان
الفقر أربعة: علم يسوسه، وورع يحجزه، ويقين يحمله، وذكر يؤنسه.

ومثل سهل بن عبد الله: متى يستريح الفقير؟ فقال: إذا لم ير لنفسه غير الوقت الذي هو فيه.

وقال أبو حفص: أحسن ما يتوسل به العبد إلى الله: دوام الافتقار إليه على جميع الأحوال. وملازمة السعة في جميع الأفعال، وطلب القوت من وجه حلال.

و«الفقر» له بداية ونهاية. وظاهر وباطن، فبدايته: الذل. ونهايته: العز. وظاهره: القُدم. وباطنه: الغنى. كما قال رجل لآخر: فقر وذل؟ فقال: لا، بل فقر وعز. وإذا عرفت معنى «الفقر» علمت أنه عين الغنى بالله. فلا معنى لسؤال من سأل: أي الحائنين أكمل؟ الافتقار إلى الله، أم الاستغناء به؟.

فهذه مسألة غير صحيحة. فإن الاستغناء به هو عين الافتقار إليه.

ومثل عن ذلك محمد بن عبد الله الفرغاني؟ فقال: إذا صح الافتقار إلى الله تعالى فقد صح الاستغناء بالله، وإذا صح الاستغناء بالله أكمل الغنى به. فلا يقال أيهما أفضل: الافتقار أم الاستغناء؟ لأنهما حالتان لا تتم أحدهما إلا بالأخرى.

وأما كلامهم في مسألة «الفقر الصابر، والغنى الشاكر» وترجيح أحدهما على صاحبه. فعند أهل التحقيق والمعرفة: أن التفضيل لا يرجع إلى ذات الفقر والغنى. وإنما يرجع إلى الأعمال والأحوال والحقائق، فإن التفضيل عند الله تعالى بالتقوى، وحقائق الإيمان. لا بفقر ولا غنى. كما قال تعالى (١٣: ٤٩) إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ولم يقل أفقركم ولا أغناكم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية — قدس الله روحه — والفقر والغنى ابتلاء من الله لعبده. كما قال تعالى (١٦: ٨٩، ١٧) فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ، فيقول: ربي أكرمن * وأما إذا ما ابْتَلَاهُ فَقَدَّرَ عَلَيْهِ رُزْقَهُ، فيقول: ربي أهانن * كلا! أي ليس كل مَنْ وَثَّعْتُ عَلَيْهِ وَأَعْطَيْتُهُ: أكون قد أكرمته، ولا كل من ضيقت عليه وقُشِّرْتُ: يكون قد أهنته، فالإكرام: أن يكرم الله العبد بطاعته، والإيمان به، ومحبه ومعرفته. والإهانة: أن يسلبه ذلك.

قال — يعني ابن تيمية — ولا يقع التفاضل بالغنى والفقر، بل بالتقوى، فإن استويا في التقوى استويا في الدرجة. سمعت يقول ذلك. وتذاكروا هذه المسألة عند يحيى بن معاذ. فقال: لا يوزن غداً الفقر ولا الغنى، وإنما يوزن الصبر والشكر.

• مبدأ الفقر: التفويض

وأول قدم الفقر: الخروج عن النفس. وتسليمها لمالكها ومولاها. فلا يخاصم لها. ولا يتوكل لها. ولا يحتاج عنها ولا ينتصر لها، بل يفوض ذلك لمالكها وسيدها.
قال بندار بن الحسين: لا تخاصم لنفسك. فإنها ليست لك. دعها لمالكها يفعل بها ما يريد.

• تحطيم الأصنام

ومن لوازم ذلك: قبض اليد عن الدنيا ضيقاً أو طلباً. وإسكات اللسان عنها مدحاً. والسلامة منها طلباً أو تركاً.

و«الدنيا» عند القوم: ماسوى الله تعالى — من المال والجاه، والصور، والمراتب —. ولما كان لها تعلق بالجوارح والقلب واللسان، كان حقيقة الفقر: تعطيل هذه الثلاثة عن تعلقها بها وسلبها منها. فإذا قبض يده عن الإمساك جاد بها. وإن كانت غير حاصلة له كُفِّ يده عن طلبها. فلا يطلب معدوماً. ولا يبخل بموجودها.
وأما «تعطيلها عن اللسان».

فهو أن لا يمدحها. فإن اشتغاله بمدحها دليل على محبتها ورغبته فيها. فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره.

وكما يطالب الفقير بالسلامة من آفات طلبها، فإنه يطالب بسلامة أخرى من آفات تركها، فإن لتركها آفات. ولطلبها آفات. والفقر سلامة القلب من آفات الطلب والترك. بحيث لا يحجبه عن ربه بوجه من الوجوه الظاهرة والباطنة. لافي طلبها وأخذها ولا في تركها والرغبة عنها.

فإن قلت: عرفت الآفة في أخذها وطلبها. فما وجه الآفة في تركها والرغبة عنها؟
قلت: من وجوه شتى.

أحدها: أنه إذا تركها — وهو بشر لا مَلَك — تعلق قلبه بما يقيمه ويُقيته ويُعِشه. وما هو محتاج إليه. فيبقى في مجاهدة شديدة مع نفسه. لترك معلومها وحفظها من الدنيا. وهذه قلة فقه في الطريق، بل الفقيه العارف: يردّها عنه بلقمة. كما يرد الكلب إذا نبج عليه بكسرة. ولا يقطع زمانه بمجاهدته ومداغته، بل أعطاها حفظها، وطلبها بما عليها من الحق.

هذه طريقة الرسل صلى الله عليهم وسلم. وهي طريقة العارفين من أرباب السلوك. كما قال النبي صلى الله عليه وسلم «إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا. وَلِضَيْفِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقِّ حَقَّهُ».

والعارف البصير يجعل عوض مجاهدته لنفسه في ترك شهوة مباحة: مجاهدته لأعداء الله من شياطين الإنس والجن، وقطاع الطريق على القلوب. كأهل البدع من بنى العلم، وبنى الإرادة، ويستفرغ قواه في حربهم ومجاهدتهم. ويتقوى على حربهم بإعطاء النفس حقها من المباح. ولا يشتغل بها.

ومن آفات الشرك: تطلعه إلى مافي أيدي الناس إذا مسته الحاجة إلى مآثره، فاستدامتها كان أنفع له من هذا الترك.

ومن آفات تركها، وعدم أخذها: ما يدخله من الكبر والعجب والزهو. وهذا يقابل الزهد فيها وتركها.

فانفقر الصحيح: السلامة من آفات الأخذ والترك. وهذا لا يحصل إلا ببقه في الفقر.

• أتم شيء غير الفضل؟

وايضاً، فإن من قواعد هذا الفقه في الفقر: الرجوع إلى السبق بمطالعة الفضل. وهو يورث الخلاص من رؤية الأعمال. ويقطع شهود الأحوال. ويحصن من أذنان مطالعة المقامات. والرجوع إلى السبق هو الالتفات إلى ماسبقت به السابقة من الله بمطالعة فضله ومنته وجوده. وأن العبد — وكل ما فيه من خير — فهو محض جود الله وإحسانه. وليس للعبد من ذاته سوى العُدم. وذاته وصفاته وإيمانه وأعماله كلها من فضل الله عليه. فإذا شهد هذا وأحضره قلبه. وتحقق به: خلصه من رؤية أعماله. فإنه لا يراها إلا من الله وبالله. وليست منه هو ولا به. واتفقت كلمة الطائفة على أن رؤية الأعمال حجاب بين العبد وبين الله. ويخلصه منها: شهود السبق، ومطالعة الفضل.

فإذا طالع سبق فضل الله. علم أن كل ما حصل له من حال أو غيره، فهو محض جوده. فلا يشهد له حالاً مع الله ولا مقاماً، كما لم يشهد له عملاً. فقد جعل عدته للقاء ربه: فقره من أعماله وأحواله. فهو لا يقدم عليه إلا بالفقر المحض. فالفقر خير العلاقة التي بينه وبين ربه، والنسبة التي ينتسب بها إليه، والباب الذي يدخل منه عليه.

والفرق بين الحال والمقام: أن «الحال» معنى يرد على القلب من غير اجتلاب له، ولا اكتساب، ولا تعمد. و«المقام» يتوصل إليه بنوع كسب وطلب.
فالأحوال مواهب، والمقامات مكاسب. فالمقام يحصل ببذل المجهود. وأما الحال: فمن عين الجود.

وسئل اصحاب ابي عثمان الجيري: بماذا كان يأمركم شيخكم؟ فقالوا: كان يأمر بالتزام الطاعات، ورؤية التصدير فيها.

وتلك هي الحنيفية المحضة، فانه اذا بذل الطاعة لله وبالله: صانه ذلك عن الشرك، واذا شهد تقصيره فيها: صانه عن الاعجاب، فيكون قائما بإياك نعبد وإياك نستعين.

وأبو عثمان هذا: هوسعيد بن اسماعيل النيسابوري من جلة شيوخ القوم وعارفيهم. وكان يقال: في الدنيا ثلاثة، لارابع لهم: أبو عثمان النيسابوري بنيسابور، والجنيد ببغداد، وأبو عبد الله ابن الجلاب بالشام. وله كلام رفيع عال، وكان شديد الوصية باتباع السنة، وتحكيمها ولزومها. ولما حضرته الوفاة مرق ابنه قميصا على نفسه. ففتح ابو عثمان عينيه، وهو في السياق. فقال: يا بني خلاف السنة في الظاهر، علامة رياء في الباطن.

● الفقر اغنى الغنى

ومن افتقر الى الله تعالى: اغتنى

والغنى نوعان: غنى بالله، وغنى عن غير الله، وهما حقيقة الفقر.

واستدل المروي له بقول الله تعالى (٨:٩٣) ووجدك عاثلا فأغنى).

وفي الآية ثلاثة أقوال.

أحدها: أنه أغناه من المال بعد فقره: وهذا قول أكثر المفسرين. لأنه قابله بقوله «عاثلا»

والعائل: هو المحتاج. ليس ذا العيلة. فأغناه من المال.

والثاني: أنه أرضاه بما أعطاه. وأغناه به عن سواه. فهو غنى قلب ونفس، لا غنى مال. وهو

حقيقة الغنى.

والثالث: — وهو الصحيح — أنه يعم النوعين: نوعى الغنى، فأغنى قلبه به. وأغناه من

المال.

ويكمل غنى القلب بغنى آخر، هو: غنى النفس. وآيته: سلامتها من الخطوط، وبراءتها

من المراءاة.

ومعلوم: أن أمور القلب أكمل وأقوى من أمور النفس. لكن في هذا الترتيب نكتة لطيفة.

وهي أن النفس من جند القلب ورعيته. وهي من أشد جنده خلافاً عليه، وشقاقاً له. ومن قيلها تشوش عليه المُنكحة. ويدخل عليه الداخل. فإذا حصل له كمال بالغنى: لم يتم له إلا بغناها أيضاً. فإنها متى كانت فقيرة عاد حكم فقرها عليه. وتشوش عليه غناه. فكان غناها تماماً لغناه وكمالاً له. وغناه أصلاً بغناها. فمنه يصل الغنى إليها. ومنها يصل الفقر والضرر والعنت إليه. إذا عرفت هذا فاعلم أن غناها بشيين:

الاول: «سلامتها من الخطوط» وهي تعلقاتها الظاهرة والباطنة بما سوى الله. الثاني: «براءتها من المراءاة» وهي إرادة غير الله بشيء من أعمالها وأقوالها. فمراءاتها دليل على شدة فقرها. وتعلقها بالخطوط من فقرها أيضاً.

(٤٢) مَنَزِلَةُ الْجَبْتَاءِ

ومن منازل «أياك نعبد وأياك نستعين» منزلة «الاجتباء».

فإن المؤمن متى بلغ ذروة الإيمان: اجتباء الله واصطفاه وجذبه إليه .
وقد استبد الانبياء عليهم السلام بهذه المنزلة، وكادوا أن يحتكروها، وشغلوا عملها وفناءها،
إلا حينئذ أحلاه الله تعالى ووقفه وادخره، ليهبه ثلة من المؤمنين في كل جيل يصدقونه الحب،
فيحبهم، ويريدونه، فيريدهم.

فمن اجتباء الانبياء: إن الله سبحانه القى إلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم كتابه،
ونخصه بكرامته، وألهه لرسالة وتبوته، من غير أن يكون ذلك منه على رجاء، أو ناله بكسب، أو
توسل إليه بعمل، بل هو أمر أريد به، كما قال الله تعالى (٨٦: ٢٨) وما كنت ترجوان يلقى
إليك الكتاب، إلا رحمة من ربك).

ومنها أنه اصطفى موسى واستخلصه لنفسه. وجعله خالصاً له من غير سبب كان من موسى،
ولا وسيلة. فإنه خرج ليقبس النار. فرجع وهو كليم الواحد القهار. وأكرم الخلق عليه، ابتداء
منه سبحانه. من غير سابقة استحقاق، ولا تقدم وسيلة. وفي مثل هذا قيل:

أيها العبد، كن لما لست ترجو من صلاح أرحسى لما أنت راج
إن موسى أتى ليقبس ناراً من ضياء رآه والليل داج
فانشتى راجعاً، وقد كلمه الله، وناجاه وهو خير مناج

فأخذ من نفسه، واصطنعه لنفسه، واختاره من بين العالمين، ونخصه بكلامه.

والانبياء عليهم السلام يتفاوتون في ذلك تفاوت اتباعهم.
فمن ذلك قصة موسى صلى الله عليه وسلم، حين ألقى الألواح - وفيها كلام الله - عن
رأسه. وكسرها، وترى بلخية أخيه. وهو نبى مثله، ولم يعاتبه الله على ذلك؛ كما عتب على آدم
عليه السلام في أكل لقمة من الشجرة. ومن أنواع الاجتباء لهم: أن يغصم الله عبده وهو مستشرف للجفاء،
وأما غير الانبياء، فمن أنواع الاجتباء لهم: أن يغصم الله عبده وهو مستشرف للجفاء،
اضطراً، بتغصن الشهوات، وتعويق الملاذ، وسد مسالك العطب عليه إكراهاً.

وذلك ان العبد الصادق اذا استشرفت نفسه للجفاء بينه وبين الله تعالى بموافقة شهواته، في لحظة غفلة: عصمه الله اضطراراً، بأن ينغص عليه الشهوات، فلا تصغله البتة، بل لا ينال منها إلا مشروباً بأنواع التنغيص، الذي ربما اربى على لذتها واستهلكها، بحيث تكون اللذة في جنب التنغيص كالخلسة والغفوة، ليكرهها. وكذلك يعوق الملاذ عليه بأن يحول بينه وبينها، حتى لا يركن اليها، ولا يطمئن اليها ويساكنها، فيحول بينه وبين اسبابها.

● محمد الكامل صلى الله عليه وسلم

وأكمل من اجتهاد الله تعالى من الاء عليهم السلام: محمد صلى الله عليه وسلم. فموسى عليه السلام: كان في مظهر الجلال، ولهذا كانت شريعته شريعة جلال وقهر، وكان من اعظم خلق الله هبة وقاراً، واشدهم بأساً وغضباً لله، وبطشاً باعداء الله.

وعيسى صلى الله عليه وسلم: كان في مظهر الجمال. وكانت شريعته شريعة فضل واحسان. وكان لا يقاتل، ولا يجارب. وليس في شريعته قتال البتة. والنصارى يحرم عليهم دينهم القتال. وهم به عصاة لشرعه. فإن الانجيل يأمرهم فيه: أن «من لطمك على خدك الأيمن، فأدر له خدك الأيسر. ومن نازعك ثوبك. فأعطه رداءك. ومن سخرك ميلاً. فامش معه ميلين» ونحو هذا.

أما نبينا صلى الله عليه وسلم: فكان في مظهر الكمال، الجامع لتلك القوة والعدل، والشدة في الله. وهذا اللين والرأفة والرحمة. وشريعته أكمل الشرائع. فهو نبي الكمال، وشريعته شريعة الكمال. وأتمته أكمل الأمم. وأحوالهم ومقاماتهم أكمل الأحوال والمقامات. ولذلك تأتي شريعته بالعدل ايجاباً له وفرضاً وبالفضل ندباً اليه واستحباباً. وبالشدة في موضع الشدة. وباللين في موضع اللين. ووضع السيف موضعه. ووضع الندى موضعه. فيذكر الظلم ويحرمه. والعدل ويوجبه. والفضل ويندب اليه في بعض آيات. كقوله تعالى (٤٢: ٤٠) وجزاء سيئة سيئة مثلها) فهذا عدل (فمن عفا وأصلح فأجره على الله) فهذا فضل (إنه لا يحب الظالمين) فهذا تحريم للظلم. وقوله (١٦: ١٢٦) وإن عاقبتم فاعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) فهذا إيجاب للعدل، وتحريم للظلم (ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) ندب الى الفضل. وقوله (٢٨٠، ٢٧٩: ٢) فإن تبتم فلکم رؤوس أموالکم. لا تظلمون ولا تظلمون) تحريم للظلم (وإن كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة) عدل (وإن تصدقوا خير نكم إن كنتم تعلمون) فضل.

• أمة محمد الكاملة ... خير الامة

وكذلك تحريم ما حرم على أمته صيانة وجمية.
حرم عليهم كل خبيث وضار، وأباح لهم كل طيب ونافع. فحرمه عليهم رحمة، وعن من قبلهم لم يخل من عقوبة. وهداهم لما ضلّك عنه الأمم قبلهم. وهب لهم من علمه وحلمه. وجعلهم خير أمة أخرجت للناس. وكمل لهم من المحاسن ما فرقه في الأمم قبلهم. كما كمل لنبيهم صلى الله عليه وسلم من المحاسن ما فرقه في الأنبياء قبله. وكمل في كتابه من المحاسن ما فرقه في الكتب قبله. وكذلك في شريعته.

فهؤلاء هم المنتخبون الأخيار. كما قال تعالى (٧٨:٢٢) هو اجتباكم. وما جعل عليكم في الدين من حرج) وجعلهم شهداء على الناس. فأقامهم في ذلك مقام الأنبياء الشاهدين على أمتهم.

وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. والله ذو الفضل العظيم.

1. The first part of the document is a list of the names of the persons who were present at the meeting.

2. The second part of the document is a list of the names of the persons who were absent from the meeting.

3. The third part of the document is a list of the names of the persons who were present at the meeting.

(٤٣) مَنَزِلُ تَرَاةَ الْحَسَنِ

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الاحسان»

وهي لب الايمان، وروحه وكماله. وهذه المنزلة تجمع جميع المنازل. فجميعها منطوية فيها. وكل ما قبل من أول الكتاب الى ههنا فهو من الإحسان.

وقد استشهد على هذه المنزلة بقوله تعالى (٦٠:٥٥) هل جزاء الاحسان إلا الاحسان)، وبحديث (ان تعبد الله كأنك تراه).

وقال ابن عباس والمفسرون: هل جزاء من قال «لا إله إلا الله» وعمل بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم إلا الجنة.

وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) ثم قال «هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال يقول: هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة؟».

وأما الحديث: فإشارة الى كمال الحضور مع الله عز وجل. ومراقبته الجامعة لحشيشته، ومحبته ومعرفته، والإنابة اليه، والإخلاص له، ولجميع مقامات الإيمان.

قال شيخ الاسلام الهروي:

وأول درجاته: «الإحسان في القصد بتهذيبه علماً، وإبرامه عزمًا».

أي أن احسان القصد يكون بشيئين:

أحدهما: تهذيبه علماً، بأن يجعله تابعاً للعلم على مقتضاه مُهَذَّباً به، مُتَّقِياً من شوائب الحفظ. فلا يقصد إلا ما يجوز في العلم. و«العلم» هو اتباع الأمر والشرع.

والثاني: إبرامه عزمًا. و«الإبرام» الإحكام والقوة. أي يقارنه عزم يفضيه، ولا يصحبه فتور

وتوازل يضعفه و يوهنه

• فقه العمل السري

ومن درجاته: الاحسان في الاحوال، وهو ان يستر ما يهيه الله من حفظ وصيانة واجتباء، فيسترها عن الناس ما أمكنه، ثلثا يعلموا بها. ولا يظهرها إلا لحجة، أو حاجة، أو مصلحة راجحة. فإن في إظهارها بدون ذلك آفات عديدة. مع تعريضها للصوص والسراق والمغيرين والحاسدين.

وإظهار الحال للناس عند الصادقين: حق وعجز. وهو من حظوظ النفس والشيطان. وأهل الصدق والعزم لها أستر، وأكتم من أرباب الكنوز من الأموال لأموالهم.

• مهاجرون أبدا

وأعلى الاحسان: الاحسان في الوقت، وهو ان تجعل هجرتك الى الحق سرمداء، إذ كل متوجه الى الله بالصدق والإخلاص، فإنه من المهاجرين اليه. فلا ينبغي أن يتخلف عن هذه الهجرة، بل ينبغي أن يصحبها سرمداء. حتى يلحق بالله عز وجل.

فما هي الساعة. ثم تنقضي ويحمد غيب السير من هوسائر والله على كل قلب هجرتان. وهما فرض لازم له على الأنفاس.

هجرة الى الله سبحانه بالتوحيد والإخلاص، والانابة والحب، والخوف والرجاء والعبودية. وهجرة الى رسوله صلى الله عليه وسلم: بالتحكيم له والتسليم والتفويض، والانقياد لحكمه، وتلقى أحكام الظاهر والباطن من مشكاته. فيكون تعبد به أعظم من تعبد الركب بالدليل الماهر في ظلم الليل، ومتاهات الطريق.

فما لم يكن لقلبه هاتان الميجرتان فليحث على رأسه الرماد. وليراجع الإيمان من أصله. فيرجع وراءه ليقبس نورا، قبل أن يحال بينه وبينه، ويقال له ذلك على الصراط من وراء السور. والله المستعان.

(٤٤) مَنَزِلَةُ الْعِلْمِ

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «العلم».

وهذه المنزلة إن لم تصحب السالك من أول قدم يضعه في الطريق إلى آخر قدم ينتهي إليه: فسلوكه على غير طريق. وهو مقطوع عليه طريق الوصول، مسدود عليه سبل الهدى والفلاح: مغلفة عنه أبوابها. وهذا إجماع من شيوخ العارفين. ولم ينه عن العلم إلا قطاع الطريق منهم، ونواب إبليس وشرطه.

قال سيد الطائفة وشيخهم الجنيد بن محمد رحمه الله: الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتضى آثار الرسول صلى الله عليه وسلم. وقال: من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث، لا يقتدى به في هذا الأمر، لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة.

وقال: مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة. وقال أبو حفص رحمه الله: من لم يزن أفعاله وأحواله في كل وقت بالكتاب والسنة، ولم يهتم خواطره. فلا يمد في ديوان الرجال. وقال سهل بن عبد الله التستري رحمه الله: كل فعل يفعله العبد بغير اقتداء فهو عيش النفس.

وقال أحمد بن أبي الحواري رحمه الله: من عمل عملا بلا اتباع سنة، فباطل عمله. وقال أبو عثمان النيسابوري رحمه الله: الصحبة مع الله: بحسن الأدب، ودوام المحبة والمراقبة والصحبة مع الرسول صلى الله عليه وسلم: باتباع سنته، ولزوم ظاهر العلم. ومع أولياء الله: بالاحترام والخدمة. ومع الأهل: بحسن الخلق. ومع الإخوان: بدوام البشر. مالم يكن إثمًا. ومع الجهال: بالدعاء لهم والرحمة. زاد غيره: ومع الحفاظين: بإكرامهما واحترامهما، وإملائهما ما يحمدنك عليه. ومع النفس: بالمخالفة. ومع الشيطان: بالعداوة.

وقال أبو عثمان أيضاً: من أثمر السنة على نفسه قولاً وقولاً: نطق بالحكمة، ومن أثمر الهوى على نفسه قولاً وقولاً: نطق بالبدعة. قال الله تعالى (٢٤: ٥٤) وإن تطيعوه تهتدوا).
وقال عمرو بن عثمان المكي: العلم قائد. والخوف سائق. والنفوس حرون بين ذلك، جوع خداعة وروافة. فاحذرهما وراعها بسياسة العلم. وسقها بتهديد الخوف: يتم لك ما تريد.

● اخبرنا . . . أول علومنا

وأما الكلمات التي تروى عن بعضهم: من التزهيد في العلم، والاستغناء عنه. كقول من قال «نحن نأخذ علمنا من الحى الذى لا يموت، وأنتم تأخذونه من حى يموت». .
وقول الآخر - وقد قيل له: ألا ترحل حتى تسمع من عبد الرزاق؟ - فقال: ما يصنع بالسماع من عبد الرزاق، من يسمع من الخلاق؟

ونحو هذا من الكلمات: فجهل وكلام شيطاني، وإلا فلولا عبد الرزاق وامثاله من رواة الحديث لما وصل الى هذا وامثاله شيء من الاسلام.
ومن أحالك على غير «أخبرنا» و«حدثنا» فقد أحالك: إما على خيال صوفى، أو قياس فلسفى. أو رأى نفسى. فليس بعد القرآن و«أخبرنا» إلا الشبهات، ومن فارق الدليل، ضل عن سواء السبيل. ولا دليل إلى الله والجنة، سوى الكتاب والسنة. وكل طريق لم يصحبها دليل القرآن والسنة فهى من طرق الجحيم، والشيطان الرجيم.

و«المعلم» خير من «الحال» ، فنفع الحال لا يتعدى صاحبه. ونفع العلم كالغيث يقع على الظراب والآكام ويطون الأودية ومناكب الشجر.
دائرة العلم تسع الدنيا والآخرة. ودائرة الحال تضيق عن غير صاحبه. وربما ضاقت عنه.
والمعلم هاد والحال الصحيح مهتد به. والعلم تركة الأنبياء وراثتهم. وأهله عصبتهم ووراثتهم، وهو حياة القلوب، ونور البصائر. وشفاء الصدور. ورياض العقول. ولذة الأرواح.
وأنس المستوحشين. ودليل للمتحيرين. وهو الميزان الذى به توزن الأقوال والأعمال والأحوال.
وهو الحاكم المفرق بين الشك واليقين، والغى والرشاد، والهدى والضلال.
به يعرف الله ويعبد، ويذكر ويوحّد، ويحمد ويمجد. وبه اهتدى إليه السالكون. ومن طريقه وصل إليه الواصلون. ومن بابيه دخل عليه القاصدون.
به تعرف الشرائع والأحكام، ويتميز الحلال من الحرام. وبه توصل الأرحام وبه تعرف مرضى الحبيب، ومعرفتها ومتابعتها يوصل إليه من قريب.

وهو إمام، والمعلم مأموم. وهوقائد، والمعلم تابع. وهو صاحب في الغربة والمحدث في الخلوة، والأنيس في الوحشة. والكاشف عن الشهة. والغنى الذي لا فقر على من ظفر بكنزته. والكثف الذي لا ضيعة على من آوى إلى حرزه.

- مذاكرته تسبيح. والبحث عنه جهاد. وطلبه قرية. وبذله صدقة. ومدارسته تعدل بالصيام والقيام. والحاجة إليه أعظم منها إلى الشراب والطعام.

قال الإمام أحمد رضى الله عنه: الناس إلى العلم أخرج منهم إلى الطعام والشراب. لأن الرجل يحتاج إلى الطعام والشراب في اليوم مرة أو مرتين. وحاجته إلى العلم بعدد أنفاسه. وروينا عن الشافعى رضى الله عنه أنه قال: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة. ونص على ذلك أبو حنيفة رضى الله عنه.

وقال ابن وهب: كنت بين يدي مالك رضى الله عنه. فوضعت ألواحى وقمت أصلى. فقال: ما الذى قمت إليه بأفضل مما قمت عنه. ذكره ابن عبد البر وغيره.

واستشهد الله عز وجل بأهل العلم على أجل مشهود به وهو «التوحيد» وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته. وفي ضمن ذلك تعديلهم. فإنه سبحانه وتعالى لا يستشهد بمجروح.

ومن ههنا — والله أعلم — يؤخذ الحديث المعروف «يجمل هذا العلم من كل خلف عدوله. ينفون عنه تحريف الغالين، وتأويل المبطلين».

وهو حجة الله في أرضه. ونوره بين عباده. وقائدهم ودليلهم إلى جنته. ومدنيهم من كرامته. ويكفى في شرفه: أن فضل أهله على العباد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب. وأن الملائكة لتضع لهم أجنتها، وتظلهم بها.

ولقد رحل كلسيم الرحمن موسى بن عمران — عليه الصلاة والسلام — في طلب العلم هو وفتاه، حتى مسهما النصب في سفرهما في طلب العلم. حتى ظفرا بثلاث مسائل. وهو من أكرم الخلق على الله وأعلمهم به.

وأمر الله رسوله أن يسأله المزيد منه فقال (٢٠: ١١٤) «قل رب زدنى علماً».

• أنواع العلم

والعلم نوعان:

فمنه: علم تجلي، يدرك بالعيان، او باستقاضة صحيحة، او صحة تجربة قديمة.

اي ان هذا العلم الجلي ثلاثة أنواع:

أحدها: ما وقع عن عيان. وهو البصر.

والثاني: ما استند إلى السمع. وهو علم الاستقاضة.

والثالث: ما استند إلى العقل. وهو علم التجربة.

فهذه الطرق الثلاثة — وهي السمع، والبصر، والعقل — هي أهم طرق العلم وابوابه، ولا تنحصر طرق العلم فيها، فان سائر الخواص توجب العلم، اذ يلحق بها ما يدرك بالباطن، وهي الوجدانيات، وكذا ما يدرك بخبر المخبر الصادق، وان كان واحدا، وكذا ما يحصل بالفكر والاستبطاء، وان لم يكن عن تجربة.

ثم من المعلم: علم خفي، ينبت في القلوب الطاهرة، من الابدان الزاكية، بماء الرياضة الخالصة. و يظهر لاهل المهمة العالية، في الأحيان الخالية، والاسماع الصاخية. وهذا العلم خفي على اهل النوع الاول، وهو المسمى بالمعرفة. فهو ينبت في القلوب الطاهرة من كدر الدنيا والاشتغال بها، وعلاقتها التي تعوق الأرواح عن ديار الأفراح. فان هذه أكدار، وتنفسات في وجه مرآة القلب والروح. فلا تنجلي فيها صور الحقائق كما ينبغي. والنفس تنفّس فيها دائما بالرغبة في الدنيا والرهبة من موتها. فإذا جليت المرآة بإذهاب هذه الأكدار صفت. وظهرت فيها الحقائق والمعارف.

ولا تحصيل هذه القلوب إلا الابدان الزاكية التي زكت بطاعة الله،، ونبتت على أكل الحلال. فتمتني خلصت الأبدان من الحرام، وأدناس البشرية، التي ينهى عنها العقل والدين والمروءة، وظهرت الأنفس من علائق الدنيا: زكت أرض القلب. فقبلت بذر العلوم والمعارف. فإن سُقيت — بعد ذلك — بماء الرياضة الشرعية النبوية المحمدية — وهي التي لا تخرج عن علم، ولا تبعد عن واجب. ولا تعطل سنة — أنبتت من كل زوج كريم، من علم وحكمة وفائدة وتعرف. فاجتنتى منها صاحبها وتمن جالسه أنواع الطُرف والفوائد، والثمار مختلفة الألوان، والأذواق.

وأما «المهمم العالية» فهي التي لا تقف دون الله عز وجل. ولا تُعْرَج في سفرها على شيء سواه. وأعلى المهمم: ما تعلق بالعل الأعلى. وأوسعها: ما تعلق بصلاح العباد. وهي مهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وورثتهم.

و «الاسماع الصاخية» هي التي صحت من تملقها بالباطل واللغو، واصاغت لدعوة الحق ومنادي الايمان.

وان شئت فقل ان هذا العلم الخفي هو الالهام والفهم الخاص الذي هو ثمرة العبودية والمتابعة والصدق مع الله، وبذل الجهد في تلقي العلم من مشكاة رسوله، وكمال الانتقاد له، كما قال علي بن ابي طالب رضى الله عنه — وقد سئل: هل خضكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء دون الناس؟ — فقال: «لا، والذي قلقت الحبة، وبرأ النسمة، إلا فهماً يؤتيه الله عبداً في كتابه».

او ان شئت فقل في هذا العلم انه البصيرة، وهي التي تكون نية العلوم فيها الى القلب كنسبة الرئي الى البصر، وهذه هي الحقيقة التي اختص بها الصحابة عن سائر الأمة. وهي أعلى درجات العلماء. قال تعالى (١٧: ١٠٨) قل هذه سبيلي أدعوا الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني أى أنا وأتباعى على بصيرة.

وقيل «ومن اتبعني» عطف على المرفوع «بأدعو» أى أنا أدعوا الى الله على بصيرة. ومن اتبعنى كذلك يدعوا الى الله على بصيرة.

وعلى القولين فالآية تدل أن أتباعه هم أهل البصائر الداعين الى الله على بصيرة. فمن ليس منهم فليس من أتباعه على الحقيقة والواقعة. وإن كان من أتباعه على الانتساب والدعوى. او قل: هي «الحكمة».

قال الله تعالى (٢: ٦٩) يؤتي الحكمة من يشاء. ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً. وقال تعالى (٤: ١١٣) وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة. وعلمك ما لم تكن تعلم. وكان فضل الله عليك عظيماً وقال عن المسيح عليه السلام (٣: ٤٨) ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل).

و «الحكمة» في كتاب الله نوعان: مفردة. ومقترنة بالكتاب. فالمفردة: فسرت بالنبوة، وفسرت بعلم القرآن. قال ابن عباس رضى الله عنهما «هى علم القرآن: ناسخه ومنسوخه، وبحكمه ومشاياه. ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه. وأمثاله».

وقال الضحاك: هى القرآن والفهم فيه. وقال مجاهد: هى القرآن والعلم والفقه. وفى رواية أخرى عنه: هى الإصابة فى القول والفعل.

وقال النخعي: هى معانى الأشياء وفهمها.

وقال الحسن: الورع فى دين الله. كأنه فسرهما بثمرتها ومقتضاها.

وأما «الحكمة» المقرونة بالكتاب: فهى السنة. كذلك قال الشافعى وغيره من الأمة.

وأحسن ما قيل في الحكمة: قول مجاهد، ومالك: إنها معرفة الحق والعمل به، والإصابة في القول والعمل.

وهذا لا يكون إلا بفهم القرآن، والفقه في شرائع الإسلام، وحقائق الإيمان. و«الحكمة» حكمتان: علمية، وعملية. فالعلمية: الاطلاع على بواطن الأشياء، ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها، خلقاً وأمرأ. قدراً وشرعاً، والعملية هي وضع الشيء في موضعه. وأساس الحكمة: أن تعلمي كل شيء حقه، ولا تعديه حذو، ولا تعجله عن وقته، ولا تؤخره عنه، فإنه لما كانت الأشياء لها مراتب وحقوق تقتضيها شرعاً وقدراً، ولها حدود ونهايات تصل إليها ولا تتعداها. ولها أوقات لا تتقدم عنها ولا تتأخر — كانت «الحكمة» مراعاة هذه الجهات الثلاثة. بأن تعطى كل مرتبة حقها الذي أحقه الله لها بشرعه وقدره. ولا تتعدى بها حدها فتكون متعدياً مخالفاً للحكمة. ولا تطلب تمجيلها عن وقتها فتخالف الحكمة. ولا تؤخرها عنه فتؤخرها.

وهذا حكم عام لجميع الأسباب مع مسبباتها شرعاً وقدراً. فإضاعتها تعطيل للحكمة بمنزلة إضاعة البذر وسقي الأرض.

وتعدي الحق: كسقيها فوق حاجتها، بحيث يفرق البذر والزرع و يفسد. وتمجيلها عن وقتها: كمصاده قبل إدراكه وكماله.

فالحكمة إذاً: فعل ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي. والله تعالى أورث الحكمة آدم وبنيه. فالرجل الكامل: من له إرث كامل من أبيه، ونصف الرجل — كالمراة — له نصف ميراث. والتفاوت في ذلك لا يحصيه إلا الله تعالى.

وأكمل الخلق في هذا: الرسل صلوات الله وسلامه عليهم. وأكملهم أولو العزم. وأكملهم محمد صلى الله عليه وسلم. ولهذا امتن الله سبحانه وتعالى عليه وعلى أمته بما آتاهم من الحكمة. كما قال تعالى (٤: ١١٣) وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم) وقال تعالى (٢: ١٥١) كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يثلو عليكم آياتنا، ويزكيكم، ويعلمكم الكتاب والحكمة، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون).

فكل نظام الوجود مرتبط بهذه الصفة. وكل خلل في الوجود، وفي العبد فسببه: الإخلال بها. فأكمل الناس: أوفرهم منها نصيباً. وأتقصهم وأبعدهم عن الكمال: أقلهم منها ميراثاً. ولها ثلاثة أركان: العلم، والحلم، والأناة.

وأفاتها وأضدادها: الجهل، والطيش، والعجلة. فلا حكمة لجاهل، ولا طائش، ولا عجول. والله أعلم.

وانما تكمل الحكمة بأن تشهد نظر الله في وعده. وتعرف عدله في حكمه. وتلاحظ برة في منعه.

أى تعرف «الحكمة» في الوعد والوعيد، وتشهد حكمه في قوله (٤: ٤٠) إن الله لا يظلم مثقال ذرة. وإن تك حسنة يضاعفها. ويؤت من لدنه أجراً عظيماً فتشهد عدله في وعيده، وإحسانه في وعده.

وكذلك تعرف عدله في أحكامه الشرعية، والكونية الجارية على الخلاق. فإنه لا ظلم فيها، ولا حيف ولا جور. وإن أجراها على أيدي الظلمة. فهو أعدل العادلين. ومن جرت على يديه هو الضالم. وكذلك «تعرف برة في منعه».

فإنه سبحانه هو الجواد الذى لا ينقص خزائنه الإنفاق، ولا يفيض ما في يمينه سعة عطائه. فما منع من منعه فضله إلا الحكمة كاملة في ذلك. فإنه الجواد الحكيم. وحكمته لا تناقض وجوده. فهو سبحانه لا يضع برة وفضله إلا في موضعه ووقته. بقدر ما تقتضيه حكمته. ولو بسط الله الرزق لعباده لفسدوا وهلكوا. ولو علم في الكفار خيراً وقبولاً لنعمة الإيمان، وشكراً له عليها، وعجبه له واعتزافاً بها، لمدهم إلى الإيمان. ولماذا لما قالوا للمؤمنين (٦: ٥٣) أهؤلاء من الله عليهم من بيننا؟ أجابهم بقوله (أليس الله بأعلم بالشاكرين؟). سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: هم الذين يعرفون قدر نعمة الإيمان، ويشكرون الله عليها.

فهو سبحانه ما أعطى إلا بحكمته. ولا منع إلا بحكمته، ولا أضل إلا بحكمته.

(٤٥) مَنْزِلَةُ الْفَرَسَةِ

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الفراسة».

قال الله تعالى (١٥: ٧٥) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ قال مجاهد رحمه الله: للمتوسمين: وقال ابن عباس رضى الله عنهما: الناظرين. وقال قتادة: للمعتبرين. وقال مقاتل: للمتذكرين.

ولا تنافي بين هذه الأقوال، فإن الناظر متى نظر في آثار ديار المكذبين ومنازلهم، وما آل إليه أمرهم: أورثه فراسة وعبرة وفكرة. وقال تعالى في حق المشافقين (٤٧: ٣٠) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمُ فَلَمَّزْتَهُمْ بَسْمَاءَهُمْ. ولتعرفنهم في لَحْنِ الْقَوْلِ) فالأول: فراسة النظر والعين. والثاني: فراسة الأذن والسمع.

و «اللمح» ضربان: صواب وخطأ. قلحن الصواب نوعان. أحدهما: الفطنة. ومنه الحديث: «ولعل بعضهم أن يكون ألحن بحجته من بعض».

والثاني: التعريض والاشارة. وهو قريب من الكناية. ومنه قول الشاعر:

وحديث أله. وهو مما يشتهي السامعون يوزن وزنا

منطق صائب. وتلحن أحيانا وخير الحديث ما كان لحنا

والثالث: فساد المنطق في الإعراب. وحقيقته: تغيير الكلام عن وجهه: إما إلى خطأ، وإما

إلى معنى خفى لم يوضع له اللفظ.

والمقصود: أنه سبحانه أقسم على معرفتهم من لحن خطابهم. فإن معرفة التكلم وما في ضميره من كلامه: أقرب من معرفته بسماء وما في وجهه. فإن دلالة الكلام على قصد قائله وضميره أظهر من السياء المرئية. والفراسة تتعلق بالتنوعين بالنظر والسمع. وفي الترمذى من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «اتقوا فراسة المؤمن. فإنه ينظرنور الله. ثم تلا قوله تعالى (١٥: ٧٥) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ».

وفراسة المؤمنين صادقة دائما.

وسببها: نور يقذفه الله في قلب عبده، يفرق به بين الحق والباطل، والصادق، والكاذب.

وحقيقتها: أنها خاطر يهجم على القلب ينفي ما يضاده. يثب على القلب كوثب الأسد على الفريسة. لكن «الفريسة» فعيلة بمعنى مفعولة. وبناء «الفراصة» كبناء الولاية والإمارة والسياسة.

وهذه «الفراصة» على حسب قوة الإيمان. فمن كان أقوى إيماناً فهو أحدُ فراصة. وقال عمرو بن نجيد: كان شاه الكرمانى حاد الفراصة لا يخطيء ويقول: من غص بصره عن المحارم، وأمسك نفسه عن الشهوات، وعمر باطنه بالمراقبة وظاهره باتباع السنة، وتعود أكل الحلال: لم تخطيء فراسته. وقال أبو جعفر الحداد: الفراصة أول خاطر بلا معارض، فإن عارضه معارض آخر من جنسه. فهو خاطر وحديث نفس.

وقال المروى: لا يصدق منها إلا فراصة تُجنى من غرس الإيمان. فشبه الإيمان بالفرس، لأنه يزداد وينمو، ويزكو على السقى. ويؤتى أكله كل حين بإذن ربه. وأصله ثابت في الأرض. وفروعه في السماء. فمن غرس الإيمان في أرض قلبه الطيبة الزاكية، وسقى ذلك الفرس بماء الإخلاص والصدق والمتابعة: كان من بعض ثمره الفراصة. وقال ابن مسعود رضى الله عنه: أفرس الناس ثلاثة: العزيز في يوسف، حيث قال لامرأته (١٢: ٢١) أكرمي مثواه. عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا) وابنة شعيب حين قالت لأبيها في موسى (٢٨: ٣٦) استأجره) وأيوب كرمي عمر رضى الله عنهما، حيث استخلفه. وفي رواية أخرى: وامرأة فرعون حين قالت (٢٨: ٩) قرة عين لي ولك، لا تقتلوه. عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا).

وكان الصديق رضى الله عنه أعظم الأمة فراصة. وبعده عمر بن الخطاب رضى الله عنه. ووقائع فراسته مشهورة. فإنه ما قال لشيء «أظنه كذا» إلا كان كما قال. ويكفى في فراسته: موافقته ربه في المواضع المعروفة، مما كان في شأن اسرى بدر، ونحوها. ومبر به سواد بن قارب ولم يكن يعرفه. فقال «لقد أخطأ ظنى، أو أن هذا كاهن، أو كان يعرف الكهانة في الجاهلية» فلما جلس بين يديه قال له ذلك عمر. فقال «مبحان الله، يأمر المؤمنين، ما استقبلت أحدا من جلسائك بمثل ما استقبلتني به. فقال له عمر رضى الله عنه: ما كنا عليه في الجاهلية أعظم من ذلك. ولكن أخبرني عما سألتك عنه. فقال: صدقت يا أمير المؤمنين. كنت كاهناً في الجاهلية. ثم ذكر القصة». وفراصة الصحابة رضى الله عنهم أصدق الفراصة.

وأصل هذا النوع من الفراسة: من الحياة والنور اللذين يهبهما الله تعالى لمن يشاء من عباده،
فيحيا القلب بذلك، ويستنير، فلا تكاد فراسته تخطيء. قال الله (١٢٢: ٦) أو من كان ميتاً
فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها؟
كان ميتاً بالكفر والجهل، فأحياء الله بالإيمان والعلم. وجعل له بالقرآن والإيمان نوراً يستضيء به
في الناس على قصد السبيل. ويمشي به في الظلم. والله أعلم.

وفراسة المتفرس تتعلق بثلاثة أشياء: بعينه. وأذنه. وقلبه. فعينه للسياة والعلامات.
وأذنه: للكلام وتصريحه وتعريضه، ومنطوقه ومفهومه، ونحوه وإشارته، ولحنه وإيمانه ونحو ذلك.
وقلبه للمبور: والاستدلال من المنظور والمسموع إلى باطنه وخفيه. فيغير إلى ما وراء ظاهره، كمبور
النقاد من ظاهر النقش والسكة إلى باطن النقد والإطلاع عليه: هل هو صحيح، أو زغل؟
وكذلك عبور المتفرس من ظاهر الهيئة والدَّلَّ، إلى باطن الروح والقلب. فنسبة نقده للأرواح من
الأشباح كنسبة نقد الصيرفي ينظر للجوهر من ظاهر السكة والنقد.

وكذلك نقد أهل الحديث. فإنه يرا إسناد ظاهر كالشمس على متن مكذوب. فيخرجه
ناقدهم، كما يخرج الصيرفي الزغل من تحت الظاهر من النقطة.

وكذلك فراسة التمييز بين الصادق والكاذب في أقواله وأفعاله وأحواله.

وللفراسة سببان. أحدهما: جودة ذهن المتفرس، وحدة قلبه، وحسن فطنته.

والثاني: ظهور العلامات والادلة على المتفرس فيه. فإذا اجتمع السببان لم تكد تخطيء
للمبد فراسة. وإذا انتفيا لم تكد تصح له فراسة. وإذا قوى أحدهما وضعف الآخر: كانت فراسته
بين بين.

وكان إياس بن معاوية من أعظم الناس فراسة. وله الوقائع المشهورة. وكذلك الشافعي
رحمة الله. وقيل: إن له فيها تأليف.

1

2
3
4

5

6
7
8

9

10

11
12

13

(٤٦) مَنَزِلَةُ التَّعْظِيمِ

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «التعظيم» وهذه المنزلة تابعة للمعرفة. فعلى قدر المعرفة يكون تعظيم الرب تعالى في القلب. وأعرف الناس به: أشدهم له تعظيماً وإجلالاً. وقد ذم الله تعالى من لم يعظمه حق عظمته. ولا عرفه حق معرفته، ولا وصفه حق صفته. وأقوالهم تدور على هذا. فقال تعالى (٧١: ١٣) **هَالِكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا** قال ابن عباس وبجاهد: لا ترجون لله عظمة. وقال سميد بن جبين: ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته؟ وقال الكلبي: لا تخافون لله عظمة. وقال ابن كيسان: لا ترجون في عبادة الله أن يثيبكم على توقيركم إياه خيراً. وروح العبادة: هو الإجلال والمحبة. فإذا تحلى أحدهما عن الآخر فسدت. فإذا اقترن بهذين الشئاء على المحبوب العظيم. فذلك حقيقة الحمد. والله سبحانه أعلم. وأول التعظيم: تعظيم الامر والنهي، وهو أن لا يعارضا بترخص جاف، ولا يُقرضا لتشدد غلب.

فها هنا أمران يتأفان تعظيم الامر والنهي: أحدهما: الترخص الذي يحفوبصاحبه عن كمال الامتثال. والثاني: الغلو الذي يتجاوز بصاحبه حدود الأمر والنهي. فالأول: تفريط. والثاني إفراط. وما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما إلى تفريط وإضاعة، وإما إلى إفراط وغلو. ودين الله وسط بين الجاني عنه والغالي فيه. كالوادي بين جبلين. والهدى بين ضلالتين. والوسط بين طرفين ذميين. فكما أن الجاني عن الأمر: مضيع له، فالغالي فيه: مضيع له، هذا بتقصيره عن الحد. وهذا بتجاوزه الحد.

وقد نهى الله عن الغلو بقوله (٥: ٧٧) **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ**. و«الغلو» نوعان. نوع يخرج عن كونه مطيعاً. كمن زاد في الصلاة ركعة، أو صام الدهر مع أيام النهي، أو رمى الجمرات بالصخور الكبار التي يرمى بها في المنجنيق، أو سعى بين الصفا والمروة عشراً، أو نحو ذلك عمداً.

وغدو يخاف منه الانقطاع والاستحسار كفيه الليل كله وسرود الصيام الدهر أجمع بدور
صوم أيام النهى. والجور على التمس في العبادات والأوراد، الذي قال فيه النبي صلى الله عليه
وسلم «إن هذا الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه. فسددوا وقاربوا ويسروا.
واستعينوا بالقُدوة والروحة، وشيء من الدلجة» يعنى استعينوا على طاعة الله بالأعمال في
هذه الأوقات الثلاثة. فإن المسافر يستعين على قطع مسافة السفر بالسير فيها.

وقال صلى الله عليه وسلم «لِيُصَلَّ أَحَدُكُمْ نَسَاقِلَهُ. فَإِذَا قَتَرَ فَلْيَرْقُدْ» رواها البخارى.
وفى صحيح مسلم عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال «هَلِكِ الْمُتَنَطِّعُونَ — قَالَهَا ثَلَاثًا —
وَهُمُ الْمُتَعَمِّقُونَ الْمُتَشَدِّدُونَ».

وفى صحيح البخارى عنه صلى الله عليه وسلم «عليكم من الأعمال ما تطيقون، فوالله
لا يَمَلُّ الله حتى تَمَلُّوا»

وفى السنن عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال «إن هذا الدين متين. فأَوْغِلْ فيه بِرْفَقٍ. وَلَا
تُبْقِضَنَّ إِلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ اللَّهِ» أو كما قال.

واعظم التعظيم: تعظيم الحق سبحانه، وهو ان لا يجعل دونه سبباً، ولا يرى عليه حقاً.
فهذه الدرجة تتضمن تعظيم الحاكم سبحانه، صاحب الخلق والأمر، والاولى تتضمن تعظيم
أمره.

وانما تكون بأمرين:

أحدهما: أن لا تجعل للوصلة إليه سبباً غيره. بل هو الذى يوصل عبده إليه، فلا يوصل إلى
الله إلا الله، ولا يقرب إليه سواه. ولا يُدْنِي إليه غيره، ولا يتوصل إلى رضاه إلا به. فما دل على
الله إلا الله، ولا هدى إليه سواه. ولا أدنى إليه غيره. فإنه سبحانه هو الذى جعل السبب سبباً.
فالسبب وسببته وإيصاله: كله خلقه وفعله.

والثاني: ان لا ترى لأحد من الخلق — لالك ولا لغيرك — حقاً على الله، بل الحق لله على
خلقه.

وأما حقوق العبيد على الله تعالى: من إثابته لمطيعهم، وتوبيته على ثائبيهم، وإجابته لساألهم:
فذلك حقوق أحقها الله سبحانه على نفسه، بحكم وعده وإحسانه لا أنها حقوق أحقها هم
عليه. فالحق في الحقيقة لله على عبده، وحق العبد عليه هو ما اقتضاه جوده وبره، وإحسانه إليه
بمحض جوده وكرمه.

(٤٧) مُنْزِلَةُ السَّكِينَةِ

ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين، منزلة «السكينة»

هذه المنزلة من منازل المواهب. لا من منازل المكاسب. وقد ذكر الله سبحانه «السكينة» انتهى معناها الطمأنينة في خمسة مواضع.

الاول: قوله تعالى (٢٧:٩) ثم أنزل الله سكينة على رسوله وعلى المؤمنين).

الثاني: قوله تعالى (٤١:٩) إذ يقول لصاحبه: لا تحزن إن الله معنا. فأنزل الله سكينة عليه. وأيده بجنود لم تروها).

الثالث: قوله تعالى (٤:٤٨) هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم. ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليهما حكيماً).

الرابع: قوله تعالى (١٨:٤٨) لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة. فعلم ما في قلوبهم، فأنزل السكينة عليهم. وأثابهم فتحاً قريباً).

الخامس: قوله تعالى (٢٦:٤٨) إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية. فأنزل الله سكينة على رسوله وعلى المؤمنين) الآية.

وكن شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - إذا اشتدت عليه الأمور: قرأ آيات السكينة. وقد جربت أنا أيضاً قراءة هذه الآيات عند اضطراب القلب بما يرد عليه فرأيت لها تأثيراً عظيماً في سكونه وطمأنينته.

وأصل «السكينة» هي الطمأنينة والوقار، والسكون الذي ينزله الله في قلب عبده، عند اضطربه من شدة المخاوف. فلا ينزعج بعد ذلك لما يرد عليه. ويوجب له زيادة الإيمان، وقوة اليقين والثبات.

ولهذا أخبر سبحانه عن إنزالها على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين في مواضع التعلق والاضطراب. كيوم الهجرة، إذ هو صاحبه في الفار والعدو فوق رأسيهما. لوتنظر أحدهم إن ما تحت قدميه لرأى أقدامهم. وكيوم حنين، حين ولوا مدبرين من شدة بأس الكفار، لا يلوي أحد منهم على أحد. وكيوم المدينة حين اضطربت قلوبهم من تحكم الكفار عليهم، ودخلهم تحت

شروطهم التي لا تحملها النفوس . وحسبك بضعف عمر رضى الله عنه عن حملها — وهو عمر — حتى ثبتته الله بالصدق رضى الله عنه .

وفى الصحيحين عن البراء بن عازب رضى الله عنهما قال «رأيت النبي صلى الله عليه وسلم ينقل من تراب الخندق، حتى وارى التراب جلدة بطنه . وهو يرتجز بكلمة عبد الله ابن رواحة رضى الله عنه :

لا همُّ لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينه علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألى قد دبفوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا»

وفى صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الكتب المتقدمة «إنى باعث نبياً أمياً، ليس بفَقِيْءٍ ولا غليظ، ولا صَخَّابٍ فى الأسواق، ولا مُتَرِّين بالفحش، ولا قَوَّالٍ للخنا. أُسَدُّهُ لكل جميل. وأهبط له كل خُلُقٍ كريم. ثم أجعل السكينة لباسه، والبرَّ شعاره، والتقوى ضميره. والحكمة مقولته، والصدق والرفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والعدل سيرته. والحق شريعته، والهدى إمامه، والإسلام ملته، وأحمد اسمه».

● لسان الحكمة تُنطقه السكينة

«السكينة» إذا نزلت على القلب اطمأن بها . وسكنت إليها الجوارح . ونخشت، واكتسبت الوقار، وأنطقت اللسان بالصواب والحكمة، وحالت بينه وبين قول الخنا والفحش، واللغو والمجسر، وكل باطل. قال ابن عباس رضى الله عنهما «كنا نتحدث أن السكينة تنطق على لسان عمر وقلبه» .

وكثيراً ما ينطق صاحب «السكينة» بكلام لم يكن عن فكرة منه، ولا رواية ولا هبة، ويستغريه هوم نفسه . كما يستغرب السامع له . وربما لا يعلم بعد انقضائه بما صدر منه . وأكثر ما يكون هذا عند الحاجة . وصدق الرغبة من السائل والمجالس، وصدق الرغبة منه هو إلى الله، والإسراع بقلبه إلى بين يديه، وحضرته، مع تجرده من الأهواء، وتجريده النصيحة لله ولرسوله، ولعباده المؤمنين.

• السكينة نور وقوة وروح

وقال شيخ الاسلام ابو اسماعيل الهروي رحمه الله:
«السكينة: هي التي نزلت على قلب النبي صلى الله عليه وسلم، وقلوب المؤمنين. وهي شيء يجمع قوة وروحاً، يسكن إليه الخائف. ويتسل به الحزين والضجر. ويسكن إليه القوي والتجربى والأبى».

هذا من عيون كلامه وخرره الذي تثنى عليه الخناصر. وتعتقد عليه القلوب.
فذكر: أن هذا الشيء الذي أنزله الله في قلب رسوله صلى الله عليه وسلم. وقلوب عباده المؤمنين يشتمل على ثلاثة معان: النور، والقوة، والروح.
وذكر له ثلاث ثمرات: سكن الخائف إليه، وتسل الحزين والضجر به، واستكانة صاحب المعصية والجرأة على المخالفة والإباء إليه.
فبالروح الذي فيها: حياة القلب. وبالنور الذي فيها: استنارته، وضياؤه واشراقه. وبالقوة: ثباته وعزمه ونشاطه.

فالنور: يكشف له عن دلائل الايمان، وحقائق اليقين، ويميز له بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغنى والرشد، والشك واليقين.

والحياة: توجب كمال يقظته وفطنته، وحضوره وانتباهه من سعة الغفلة. وتأهبه للقائه.
ونقوة: توجب له الصدق، وصحة المعرفة، وقهر داعي القى والقتت، وضبط النفس عن جزعه وهلمها، واسترسالها في النقائص والميوب. ولذلك ازداد بالسكينة إيماناً مع إيمانه.
والإيمان: يثمر له النور، والحياة والقوة. وهذه الثلاثة تثمره أيضاً. وتوجب زيادته. فهو محفوف بها قبلها وبعدها.

فبالنور: يكشف دلائل الإيمان. وبالحياة: ينتبه من سعة الغفلة. ويصير يقظاناً. وبالقوة: يقهر أهوى والنفس، والشيطان. كما قيل:

وتسل مواهب الرحمن ليست	تحصل باجتهاد، أو بكسب
ونكن لا غنى عن بذل جهد	بإخلاص وجد، لا يلعب
وفضل الله مبذول. ولكن	بحكمته، وعن ذا النص يثبي
فما من حكمة الرحمن وضع الـ	كسواكب بين أحجار وتُرَب
فشكراً للذي أعطاك منه	فلو قبل المحل ل زاد ربي

فإذ حصلت هذه الثلاثة بالسكينة — وهي النور، والحياة، والروح — سكن إليها العصى.

وهو الذى سكونه إلى المعصية والمخالفة. لعدم سكونة الإيمان فى قلبه صار سكونه إليها عوض سكونه إلى الشهوات، والمخالفات. فإنه قد وجد فيها مطلوبه. وهو اللذة التى كان يطلبها من المعصية. ولم يكن له ما يعيض عنها. فإذا نزلت عليه السكونة اعتاض بلذتها وروحها، ونعيمها عن لذة المعصية. فاستراحت بها نفسه. وهاج إليها قلبه. ووجد فيها من الروح والراحة واللذة ما لا نسبة بينه وبين اللذة الجسمانية النفسانية. فصارت لذته روحانية قلبية. بعد أن كانت جسمانية فانسلب منها، وحبس عنها وخلصته. فإذا تألقت بروقها قال:

تألق البرق تجدياً. فقلت له: يا أيها البرق، إني عنك مشغول

وإذا طرقت طيوتها الخيالية فى ظلام ليل الشهوات، نادى لسان حاله، وتمثل بمثل قوله:

طرقت صائدة القلوب. وليس ذا وقت الزيارة. فأرجى بسلام

فإذا ودعته وعزمت على الرحيل، ووعدته بالموافاة، تمثل بقول الآخر:

قالت — وقد عزمت على ترحالها — ماذا تريد؟ فقلت: أن لا ترجى

فإذا باشرت هذه السكونة قلبه سكنت خوفه. وهو قوله «يسكن إليها الخائف» وسلت

حزنه. فإنها لا حزن معها. فهي سلوة المحزون. ومذهبة الهموم والغموم. وكذلك تذهب عنه وخم

ضجره. وتبعث نشوة العزم، وتحول بينه وبين الجراءة على مخالفة الأمر، وتورثه وقاراً وخشوعاً.

ومن معاني السكونة أيضاً: السكونة عند المعاملة، بمحاسبة النفوس، وملاطفة الخلق،

ومراقبة الحق.

وهذا المعنى هو الذى يحوم عليه السالكون، والتكلم الذى يشتمون اليه للمعاملة التى بينهم

وبين الله، وبينهم وبين خلقه. وتحصل بثلاثة أشياء.

أحدها: محاسبة النفس، حتى تعرف ما لها وما عليها. ولا يدعها تسترسل فى الحقوق

استرسالاً، فيضيها ويهملها.

وأيضاً فإن زكاتها وطهارتها موقف على محاسبتها. فلا تزكو ولا تطهر ولا تصلح أبنة إلا

بمحاسبتها.

قال الحسن رضى الله عنه: إن المؤمن — والله — لا تراه إلا قائماً على نفسه: ما أردت بكلمة

كذا؟ ما أردت ؟ ما أردت بدخل كذا ومخرج كذا؟ ما أردت بهذا؟ ما لى لهذا؟ والله لا

أعود إلى هذا. ونحو هذا من الكلام.

فبمحاسبتها يطلع على عيوبها ونقائصها. فيمكنه السعى فى إصلاحها.

الثانى: ملاطفة الخلق. وهى معاملتهم بما يجب أن يعاملوه به من اللطف. ولا يعاملهم

بالعنف والشدة والغلظة. فإن ذلك ينفرهم عنه. ويفريهم به. ويفسد عليه قلبه وحاله مع الله

ووقته، فليس للقلب أنفع من معاملة الناس باللطف. فإن معاملة الناس بذلك: إما أجنبى.

فتكسب مودته ومحنته. وإما صاحب وحبيب فتستديم صحبته ومودته. وأما عدو ومبغض.
فتطئن به بلطفك جمرته. وتستكفي شره. ويكون احتمالك لمبغض لطفك به، دون احتمالك
شرر ما ينالك من الغلظة عليه والعنف به.

الثالث: مراقبة الحق سبحانه. وهي الموجبة لكن صلاح وخير عاجل وآجل. ولا تصح
الدرجتان إلا ولتان إلا بهذه. وهي المقصود لذاته. وما قبله وسيلة إليه، وعون عليه بمراقبة الحق
سبحانه وتعالى: توجب إصلاح النفس، واللفظ بالخلق.

(٤٨) مِزْلَةُ الطَّمَانِينَةِ

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الطَّمَانِينَةِ» قال الله تعالى (١٣: ٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) وقال تعالى (٨٩: ٢٧ — ٣٠) يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي).

«الطَّمَانِينَةُ» سكون القلب إلى الشيء. وعدم اضطرابه وقلقه. ومنه الأثر المعروف «الصدق طمأنينة، والكذب ريبة» أي الصدق يطمئن إليه قلب السامع. ويجد عنده سكوناً إليه. والكذب يوجب له اضطراباً وارتياباً. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم «البر ما أطمأن إليه القلب» أي سكن إليه وزال عنه اضطرابه وقلقه.

وفي «ذكر الله» هاهنا قولان :

أحدهما: أنه ذكر العبد ربه. فإنه يطمئن إليه قلبه ويسكن. فإذا اضطرب القلب وقلق فليس له ما يطمئن به سوى ذكر الله.

والقول الثاني، وهو الأصح: أن ذكر الله ههنا القرآن. وهو ذكره الذي أنزله على رسوله. به طمأنينة قلوب المؤمنين. فإن القلب لا يطمئن إلا بالإيمان واليقين. ولا سبيل إلى حصول الإيمان واليقين إلا من القرآن. فإن سكون القلب وطمأنينته من يقينه. واضطرابه وقلقه من شكه. والقرآن هو المحصل لليقين، الدافع للشكوك والظنون والأوهام. فلا تطمئن قلوب المؤمنين إلا به.

ومستحيل أن ينتفع بالقرآن وهده: من لم يفقهه ويتدبره حق تدبره، وتلوه حق تلاوته. ولا يمكن أن يصح ذلك ويتحقق إلا لمن كان قلبه بصيراً حاضراً مع ربه بآثار أسمائه وصفاته في سنته الكونية في نفسه وفيما حوله في كل حركة وسكنة وشأن.

وكذلك القولان أيضاً في قوله تعالى (٤٣: ٣٦) وَقَدْ تَقَشَّى عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفَيْضُ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ).

والصحيح: أن ذكره الذى أنزله على رسوله — وهو كتابه — من أعرض عنه: قَبَضَ له شيطاناً يُضِلُّهُ وَيَصُدُّهُ عن السبيل. وهو يحسب أنه على هدى.

وكذلك القولان في قوله تعالى (٢٠: ١٢٤ — ١٢٦) ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً. ونحشره يوم القيامة أعمى).

والصحيح: أنه ذكره الذى أنزله على رسوله — وهو كتابه — ولهذا يقول المعرض عنه (رب) لَمْ حَشَرْتَنِي أَعْمَى. وقد كنت بصيراً؟ قال: كذلك. أتنتك آياتنا فنسيتها. وكذلك اليوم تُنسى).

وجعل الله سبحانه الطمأنينة في قلوب المؤمنين ونفوسهم، وجعل الغبطة والمدة والبشارة بدخول الجنة لأهل الطمأنينة. فطوبى لهم وحسن مآب.

وفى قوله تعالى (يا أيها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك) دليل على أنها لا ترجع إليه إلا إذا كانت مطمئنة. فهناك ترجع إليه. وتدخل في عبادته، وتدخل في جنته. وكان من دعاء بعض السلف «اللهم هب لي نفساً مطمئنة إليك».

• وختامها . . . أمن

وحاصل الطمأنينة: سكون يُقَوِّيه أمن صحيح، شبهه بالعيان. فالطمأنينة موجب السكينة، وأثر من آثارها، وكأنها نهاية السكينة، وهي سكون القلب مع قوة الأمن الصحيح الذى لا يكن أمن غرور. فإن القلب قد يسكن إلى أمن الغرور. ولكن لا يطمئن به لمفارقة ذلك السكون له. و «الطمأنينة» لا تفارقه، فإنها مأخوذة من الإقامة. يقال: اطمأن بالمكان والمنزل: إذا أقام به.

وسبب صحة هذا الأمن المقوى للسكون: شبهه بالعيان. بحيث لا يبقى معه شيء من مجوزات الظنون والأوهام. بل كأن صاحبه يعاين ما يطمئن به. فيأمن به اضطراب قلبه وقلقه وارتياحه.

وفرق ما بينها وبين السكينة: ان «السكينة» تصل على انفية الحاصلة في القلب. فتختصدها في بعض الأحيان. فيسكن القلب من انزعاج الهيبة بعض السكون. وذلك في بعض الأوقات. فليس حكماً دائماً مستمراً. وهذا يكون لأهل «الطمأنينة» دائماً. و يصحبه الأمن والراحة بوجود الانس. فإن الاستراحة في «السكينة» قد تكون من الخوف والهيبة فقط. والاستراحة في منزل «الطمأنينة» تكون مع زيادة انس. وذلك فوق مجرد الأمن، وقدر زائد عليه.

كذلك فإن «الطمأنينة» أعم، فإنها تكون في العلم والخبر، واليقين والتفكر بالمعلوم. ولهذا طمأننت القلوب بالقرآن لما حصل لها الإيمان به، ومعرفته والهداية به في حُكْم الآراء والمذاهب. واكتسفت به منها، وحكمتها عليها وعزَّلتها. وجعلت له الولاية بأسرها كما جعلها الله. فبه خاصست، وإليه حاكمت وبه صالت، وبه دفعت الثَّبة.

وأما «السكينة» فإنها ثبات القلب عند هجوم المخاوف عليه، وسكونه وزوال قلق واضطرابه، كما يحصل لحزب الله عند مقابلة العدو وصولته. والله سبحانه أعلم.

وابرد ما تكون الطمأنينة على عبد أدركه الضجر من قوة التكليف وأعباء الأمر والقاله — ولا سيما من أقسم مقام التبليغ عن الله، ومجاهدة أعداء الله، وقطاع الطريق إليه — فإن ما يحمله ويتحملة فوق ما يحمله الناس ويتحملونه، فلا بد أن يدركه الضجر، ويضعف صبره. فإذا أراد الله أن يريحه ويحمل عنه: أنزل عليه سكينة. فاطمأن إلى حكمه الديني، وحكمه القدري. ولا طمأنينة له بدون مشاهدة الحكمين وبحسب مشاهدته لما تكون طمأنينته. فإنه إذا اطمأن إلى حكمه الديني علم أنه دينه الحق، وهو صراطه المستقيم. وهو ناصر وناصر أهله وكاينهم ووليهم.

وإذا اطمأن إلى حكمه الكوني: علم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له، وأنه ما يشاء كان وما لم يشأ لم يكن. فلا وجه للجزع والقلق إلا ضعف اليقين والإيمان، فإن المحذور والمخوف: إن لم يتقدَّر فلا سبيل إلى صرفه بعد أن أبرم تقديره. فلا جزع حيثئذ — لا بما قدر ولا بما لم يقدر. نعم إن كان له في هذه النازلة حيلة. فلا ينبغي أن يضجر عنها، وإن لم يكن فيها حيلة، فلا ينبغي أن يضجر منها.

كما أنها ابرد ما تكون على المبتلى، فلا ريب أن المبتلى إذا قويت مشاهدته للمثوبة سكن قلبه واطمأن بمشاهدة العوض. وإنما يشتد به البلاء إذا غاب عنه ملاحظة الثواب. وقد تنوى ملاحظة العوض حتى يستلذ بالبلاء ويراه نعمة، ولا تشبه هذا. فكثير من العقلاء إذا تحقق نفع الدواء الكريه فإنه يكاد يلتذ به. وملاحظته لنفعه تنفيه عن تأمله بمذاقه أو تخففه عنه. والعمل المعول عليه: إنما هو على البصائر. والله أعلم.

[The following text is extremely faint and largely illegible due to extreme blurring and low contrast. It appears to be a continuation of the handwritten notes from the previous page.]

(٤٩) منزلة الهمة

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الهمة» و «الهمة» فُعْلَةٌ من أَلَمَّ. وهو مبدأ الإرادة. ولكن خصوها بنهاية الإرادة. فآلَهُمْ مبدؤها. والهمة نهائيتها. والهمة تقول: قيمة كل امرئ ما يحسن. والخاصة تقول: قيمة كل امرئ ما يطلب، فإن قيمة المرء همة ومطلبه.

والمراد: أن همة العبد إذا تعلقت بالحق تعالى طلباً صادقاً خالصاً محضاً. فتلك هي الهمة العالية، التي لا يقدر معها على المهلة، ولا يتمالك صبره، لغلبة سلطانه عليه، وشدة إلزامها إياه بضرب المقصود، ولا يلتفت عنها، إلى ما سوى أحكامها. وصاحب هذه الهمة: سريع وصوله وضره بمطلوبه. مالم تعقه العوائق وتقطعه العلائق. والله أعلم.

● هذه الدنيا موحشة

وأول نبضات الهمة: همة تصون القلب عن وحشة الرغبة في الفاني، وتحمله على الرغبة في الباقي، وتُصْفِيهِ من كَدَرِ التواني.

و «الفاني»: الدنيا وما عليها. أي يزهد القلب فيها وفي أهلها. والرغبة فيها «وحشة» لأنها وأهلها توحش قلوب الراغبين فيها، وقلوب الزاهدين فيها. وأما الراغبون فيها: فأرواحهم وقلوبهم في وحشة من أجسامهم. إذ فتها ما خلقت له. فهي في وحشة لفواته.

وأما الزاهدون فيها: فإنهم يرونها موحشة لهم. لأنها تحول بينهم وبين مطلوبهم ومحبوبهم. ولا شيء أوحش عند القلب مما يحول بينه وبين مطلوبه ومحبوبه. ولذلك كان من نازع الناس أمواضهم، وطلبها منهم: أوحش شيء إليهم وأبغضه.

وأيضاً: فالزاهدون فيها: إنما ينظرون إليها بالبصائر. والراغبون: ينظرون إليها بالأبصار. فيستوحش الزاهد مما يأنس به الراغب. كما قيل:

وإذا أفاق القلب وأندمل الهوى رأت القلوب، ولم تر الأبصار
وكذلك هذه المهمة تحمل على الرغبة في الباقي لذاته. وهو الحق سبحانه. والباقي بإبقائه: هو الدار الآخرة.

ثم تصفيه من كدر التواني، أي تخلصه وتمحصه من أوساخ الفتور والتواني، الذي هو سبب الإضاعة والتفريط. والله أعلم.

وتعلم المهمة حتى تورث ثقة من المبالاة بالملل، والثقة بالأمل.

و«العلل» هاهنا: هي علل الاعمال، من رؤيتها بعين التعظيم، ونحو ذلك.

فصاحب هذه المهمة: يأنف على همة، وقلبه من أن يبالي بالملل. فإن همة فوق ذلك. فبإلالتها بها، وفكرته فيها: نزول من المهمة.

وعدم هذه المبالاة: إما لأن الملل لم تحصل له. لأن علو همة حال بينه وبينها. فلا يبالي بما لم يحصل له. وإما لأن همة وسعت مطلوبه، وعلوه يأتي على تلك الملل، ويستأصلها. فإنه إذا علق همة بما هو أعلى منها تفشتت المهمة العالية. فاندرج حكمها في حكم المهمة العالية. وهذا موضع غريب عزيز جداً.

والمسام يأنف أن ينزل من سماء مطلبه العالي، فيوفي سفر دائمه بالقلب إلى الله، ليحصل له ويفوز به. فإنه طالب لربه تعالى طلباً تاماً بكل معنى واعتبار في عمله، وعبادته ومناجاته، ونومه ويقظته، وحركته وسكونه، وعزله وخلطته، وسائر أحواله. فقد انصبغ قلبه بالتوجه إلى الله تعالى أليماً صيبغة. وهذا الأمر إنما يكون لأهل المحبة الصادقة. وأحدهم لا يتقنع بمجرّد رسوم الاعمال، ولا يقف عند عوض ولا درجة. فإن ذلك نزول من همة. ومطلبه أعلى من ذلك. فإن صاحب هذه المهمة قد قصر همة على المطلب الأعلى، الذي لاشيء أعلى منه. والأعراض والدرجات دونه، وهو يعلم أنه إذا حصل له فهناك كل عوض ودرجة عالية.

وأما أنفسته من الثقة بالأمل: فإن الثقة توجب الفتور والتواني. وصاحب هذه المهمة: ليس من أهل ذلك، كيف؟ وهو طائر لاسائر. والله أعلم.

(٥٠) منزل المحبة

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «المحبة»

وهي المنزلة التي فيها تنافس المتنافسون. وإليها شخص العاملون. وإلى علمها شمر السابقون. وعليها تقاني المحبون. ويرفح نسيمها تروّج العابدون. فهي قوت القلوب، وغذاء الأرواح. وقرّة العيون. وهي الحياة التي تمّ حرّمها فهو من جملة الأموات. والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات. والشقاء الذي من عدمه حلّت بقلبه جميع الأسقام. واللذة التي من لم يظفر بها فميشه كله هموم وآلام.

وهي سمة هذه الطائفة المسافرّين إلى ربهم، الذين ركبوا جناح السفر إليه، ثم لم يفارقوه إلى حين اللقاء، وهم الذين قعدوا على الحقائق. وقد من سواهم على الرسوم. وهي عنوان طريقتهم ودليلها. فإن العنوان يدل على الكتاب، والمحبة تدل على صدق الطالب، وأنه من أهل الطريق.

كما أنها «معقد النسبة» أي النسبة التي بين الرب وبين العبد. فإنه لانسبة بين الله وبين العبد إلا محض العبودية من العبد، والربوبية من الرب. وليس في القيد شيء من الربوبية، ولا في الرب شيء من العبودية. فالعبد عبد من كل وجه. والرب تعالى هو الإله الحق من كل وجه. ومعقد نسبة العبودية هو المحبة. فالعبودية معقودة بها، بحيث متى انحلت المحبة انحلت العبودية. والله أعلم.

وهي روح الإيمان والأعمال، والمقامات والأحوال. التي متى خلّت منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه. تجمل أثقال السائرّين إلى بلاد لم يكونوا إلا يثّق الأنفس بالغيها. وتوصلهم إلى منازل لم يكونوا يدّونها أبداً وأصلها. وتوّفهم من مقاعد الصدق مقامات لم يكونوا لولاها داخلها. وهي مطايا القوم التي مسراهم على ظهورها دائماً إلى الحبيب. وطريقهم الأقوم الذي يبلغهم إلى منازلهم الأولى من قريب. تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة. إذ لهم من معة محبوهم أوفر نصيب. وقد قضى الله — يوم قدر مقادير الخلائق بمشيئته وحكمته البالغة — أن المرء مع من أحب. فيألفها من نعمة على المحبين سابقة.

تأله لقد سبق القوم الساعة ، وهم على ظهور الفرش نائمون. وقد تقدموا الركب بمراحل،
وهم في سيرهم واقفون.

من لى بمثل سيرك المدلل تمشى رويداً؟ ونحي في الأول
أجابوا منادى الشوق إذ نادى بهم: حتى على الفلاح. وبذلوا نفوسهم في طلب الوصول إلى
المحبيبهم. تأله لقد حمدوا عند الوصول شراهم. وشكروا مولاهم على ما أعطاهم. وإنما يحمد القوم
الشري عند الصباح.

فحيتلاً، إن كنت ذا همة. فقد	حدايك حادى الشوق فاظفر المراحل
وقل لمنادى حبهم ورضاهم	إذا مادعا «لبيك» ألفاً كواملا
ولا تنظر الأطلال من دونهم. فإن	نظرت إلى الأطلال عُدتَ حوائلا
ولا تنتظر بالسير رفقة قاعد	ودعه. فإن الشوق يكفيك حاملا
وخذ منهم زاداً إليهم. ويز على	طريق الهدى والفقر تصبح واصلا
وخذ قُبساً من نورهم. ثم يزيه	فنورهم يهديك، ليس المشاعلا
وتُخذُ ثَمَنُها على المنهج الذى	عليه سرى وفد المحبة أهلا
وقل: ساعدى، يانفس بالصبر ساعة	فعند اللقاء الكدُ يصبح زائلا
فما هى إلا ساعة. ثم تنقضى	ويصبح ذو الأحزان فرحان جاذلا

أول نقدة من أثمان المحبة: بذل الروح. فما للمفلس الجبان البخيل وسومها؟

بدم المحب يباع وصلهم فمن الذى يتنازع بالثمن؟

تأله ما غزلت فيستامها المفلسون. ولا كُتبت فيبيعها بالنسيئة المعسرون. لقد أقيمت
للعرض في سوق من يزيد. فلم يرض لها بثن دون بذل النفوس. فتأخر البطالون؛ وقام المحبون
ينظرون: أيهم يصلح أن يكون ثمناً؟ فدارت السلعة بينهم. ووقعت في يد (٥: ٥٤) أدلة على
المؤمنين أعزة على الكافرين).

لما كثر المدعون للمحبة طولوا بإقامة البيئة على صحة الدعوى. فلوثقتلى الناس بدعواهم
لادعى الخليلي حُرقة الشَّجِي. فتتبع المدعون في الشهود. فقيل: لا تقبل هذه الدعوى إلا ببيئة
(٣: ٣١) قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله).

فتأخر الخلق كلهم. وثبت أتباع الحبيب في أفعاله وأقواله وأخلاقه. فيطولوا بعدالة
البيئة بتزكية (٥: ٥٤) مجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم).

فتأخر أكثر المحبين وقام المجاهدون، فقيل لهم: إن نفوس المحبين وأمواهم ليست لهم.

فهللوا إلى بيعة (٩: ١١١) إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة).
فقد عرفوا عظمة المشتري، وفصل الثمن، وجلالة من جرى على يديه عقد التبائع: عرفوا قدر السلعة، وأن لها شأنًا. قرأوا من أعظم الغن أن يبيعوها لغيره بثمن بخس. فعدقوا معه بيعة الرضوان بالتراضي، من غير ثبوت خيار. وقالوا «والله لا نثقلك ولا نستثقلك».
فلما تم العقد وسلموا المبيع، قيل لهم: ماذا صارت نفوسكم وأموالكم لنا ردديها عليكم أو فرفر ما كانت، وأضعافها معاً (٣: ١٦٩، ١٧٠) ولا تحسن الذين قتلوا في سبيل الله أموالاً، بل أحياء عند ربهم يرزقون * فرحين بما آتاهم الله من فضله).
إذا عُرس شجرة حُجة في القلب، وسُقيت بماء الإخلاص ومتبعة الحبيب أثمرت أنواع الشمار. وآتت أكلها كل حين بإذن ربها. أصلها ثابت في قرارة القلب. وفرعها متصل بسدة التنهى.
لا يراى سعى الحب صاعداً إلى حبيبه لا يحجبه دونه شيء (٣٥: ١٠) إليه يصعد الكلم الطيب، والعمل الصالح يرفعه).

• من ذاق طعم المحبة ... عرفها

لا تحب المحبة بعدد أوصاف منها. فالحدود لا تزيدها إلا خفاءً وجفاءً، فحدها وجودها. ولا توصف المحبة بوصف أظهر من «المحبة».
وإنما يتكلم الناس في أسبابها وموجباتها، وعلاماتها وشواهداها، وثمراتها وأحكامها. فحدودهم ورسومهم دارت على هذه الستة. وتنوعت بهم العبارات. وكثرت الإشارات، بحسب إدراك الشخص ومقامه وحاله، وملكه للعبارة.
وهذه المادة تدور في اللغة على خمسة أشياء:
أحدها: الصفاء والبياض. ومنه قولهم لصفاء بياض الإنسان ونضارتها: حَبَّ الأسنان.
الثاني: العلو والظهور. ومنه حَبَّ الماء وحُبابه. وهو ما يعلو عند المطر الشديد. وحَبَّ الكأس منه.
الثالث: اللزوم والثبات. ومنه: حَبَّ البعير وأحب، إذا برك ولم يقيم.
قال الشاعر:

حلت عليه بالفلانة ضرباً ضرب بعير السوء إذ أحبها

الرابع: اللب. ومنه: حبة القلب، للُبِّ وداخله. ومنه: الحَبَّة لواحدة الحبوب. إذ هي أصل الشيء ومادته وقوامه.

الخامس: الحفظ والإمساك. ومنه جِبُّ الماء للوعاء الذي يحفظ فيه ويمسكه وفيه معنى الثبوت أيضاً.

ولا ريب أن هذه الخمسة من لوازم المحبة، فإنها صفاء للمودة، وهيجان إرادات القلب للمحبيب. وعلوها وظهورها منه لتعلقها بالمحبيب المراد. وثبوت إرادة القلب للمحبيب. ولزومها لزوماً لا تفارقه، ولإعطاء المحب محبوبة لئله، وأشرف ما عنده. وهو قلبه، والاجتماع عزماته وهوومه على محبوبة.

❦ آثار المحبة وشواهدا

قيل: المحبة الميل الدائم، بالقلب الهائم. وهذا الحد لا يتميز فيه بين المحبة الخاصة والمشاركة، والصحيحة والمعلولة. وقيل: إثثار المحبوب، على جميع المصحوب. وهذا حكم من أحكام المحبة وأثر من آثارها. وقيل: موافقة الحبيب، في المشهد والمغيب. وهذا أيضاً موجبها ومقتضاها. وهو أكمل من الحدين قبله. فانه يتناول المحبة الصادقة الصحيحة خاصة، بخلاف مجرد الميل والإيثثار بالإرادة. فإنه إن لم تصحبه موافقة فمحبته معلولة.

وقيل: استكثار القليل من جناتك، واستقلال الكثير من طاعتك. وقيل: معانقة الطاعة، ومباينة المخالفة. وهو لسهل بن عبد الله. وهو أيضاً حكم المحبة وموجبها. وقيل: أن تهيب كُلك لمن أحببت. فلا يبقى لك منك شيء. وهو لأبي عبد الله القرشي. وهو أيضاً من موجبات المحبة وأحكامها. والمراد: أن تهيب إرادتك وعزمك وأفعالك ونفسك ومالك ووقتك لمن تحبه، وتجعلها حبساً في مرضاته ومغايه. فلا تأخذ لنفسك منها إلا ما أعطاك. فتأخذه منه له.

• محبة ... عرافية

ومن اجمع ما قيل فيها: ماذكره ابوبكر الكتاني، قال: جرت مسألة في المحبة بمكة أعزها الله تعالى — أيام الموسم — فتكلم الشيخ فيها. وكان الجنيد أصغرهم سناً. فقالوا: هات ما عندك يا عراقي. فأطرق رأسه، ودمعت عيناه. ثم قال: عبد ذاهب عن نفسه، متصل بذكر ربه، قائم بإدائه حقوقه، ناظر إليه بقلبه، فإن تكلم فبالله. وإن نطق فعن الله. وإن تحرك فبأمر الله. وإن سكن فمع الله. فهو بالله والله ومع الله. فبكى الشيخ وقالوا: ما على هذا مزيد. جزاك الله ياتاج العارفين.

• كيف تتعلم المحبة؟

في الأسباب الجالبة للمحبة، والموجبة لها. وهي عشرة. أحدها: قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به. الثاني: التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض. فإنها توصله إلى درجة المحبوبة بعد المحبة. الثالث: دوام ذكره على كل حال: باللسان والقلب، والعمل والحال. فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر. الرابع: إثارة محابه على محابك عند غلبات الهوى، والتسليم إلى محابه، وإن صعب المرتقى. الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته، ومشاهدتها ومعرفتها. وتقلبه في رياض هذه المعرفة ومبادئها. فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله: أحبه لا محالة. السادس: مشاهدة براه وإحسانه وآلائه، ونعمه الباطنة والظاهرة. فإنها داعية إلى محبته. السابع: وهو من أعجبها — انكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى. وليس في التعبير عن هذا المعنى غير الأسماء والعبارات. الثامن: الخلوة به وقت النزول الإلهي، لمناجاته وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه. ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة. التاسع: بحالة المحبين الصادقين، والتقاط أطياب ثمرات كلامهم كما تنتقي أطياب الثمر. ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام، وعلمت أن فيه مزيداً لحالك، ومنفعة لغيرك. العاشر: مباحة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل. فمن هذه الأسباب العشرة: وصل المحبون إلى منازل المحبة. ودخلوا على الحبيب. وملاك ذلك كله أمران: استعداد الروح لهذا الشأن، وانفتاح عين البصيرة. وبالله التوفيق.

والكلام في هذه المنزلة معلق بطرفين: طرف محبة العبد لربه. وطرف محبة الرب لعبده. والذي أجمع عليه الماعرفون: أنه يحبهم، وأنهم يحبونه، على إثبات الطريقين، وأن محبة العبد لربه فوق كل محبة تقدر. ولا نسبة لسانر المحاب إليها. وهى حقيقة «لا إله إلا الله» وكذلك عندهم محبة الرب لا وليائه ورسله: صفة زائدة على رحته، وإحسانه وعطائه. فإن ذلك أثر المحبة وموجبها. فإنه لما أحبهم كان نصيبهم من رحته وإحسانه وبره أتم نصيب. وجميع طرق الأدلة — عقلاً ونقلاً وفطرة، وقياساً واعتباراً، وذوقاً ووجداً — تدل على إثبات محبة العبد لربه، والرب لعبده.

وقد ذكرنا لذلك قريباً من مائة طريق في كتابنا «روضة المحبين»، وذكرنا فيه فوائد المحبة، وما تشر لصاحبها من الكمالات، وأسبابها وموجباتها، والرد على من أنكرها. وبيان فساد قوله، وأن المنكرين لذلك قد أنكروا خاصة الخلق والأمر، والغاية التى وجدوا لأجلها. فإن الخلق والأمر، والثواب، والعقاب: إنما نشأ عن «المحبة» ولا جلاها. وهى الحق الذى به خلقت السموات والأرض. وهى الحق الذى تضمنته الأمر والنهى. وهى سر التأليه. وتوحيدها: هو شهادة أن لا إله إلا الله.

وليس كما زعم المنكرون: أن «الإله» هو الرب الخالق. فإن المشركين كانوا مقرين بأنه لا رب إلا الله، ولا خالق سواه، وبأنه وحده المتفرد بالخلق والربوبية. ولم يكونوا مقرين بتوحيد الإلهية. وهو المحبة والتعظيم، بل كانوا يؤهلون مع الله غيره. وهذا هو الشرك الذى لا يغفره الله، وصاحبه ممن اتخذ من دون الله أنداداً.

قال تعالى (٢: ١٦٥) ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله فأنه خبر أن من أحب من دون الله شيئاً، كما يحب الله تعالى: فهو ممن اتخذ من دون الله أنداداً، فهذا يؤيد في المحبة، لا في الخلق والربوبية. فإن أحداً من أهل الأرض لم يثبت هذا الند في الربوبية، بخلاف ند المحبة. فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أنداداً في الحب والتعظيم. ثم قال (والذين آمنوا أشد حبا لله) وفي تقدير الآية قولان. أحدهما «والذين آمنوا أشد حبا لله» من أصحاب الأنداد لأناداهم وألهمتهم التى يحبونها، ويعظمونها من دون الله.

والثانى: «والذين آمنوا أشد حبا لله» من محبة المشركين بالأنداد لله. فإن محبة المؤمنين خالصة، ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أناداهم بقسط منها. والمحبة الخالصة: أشد من المشتركة. والقولان مرتبان على القولين في قوله تعالى «يحبونهم كحب الله» فإن فيها قولان. أحدهما: يحبونهم كما يحبون الله. فيكون قد أثبت لهم محبة الله. ولكنها محبة يشركون فيها مع الله أنداداً.

والثانى: أن المعنى يحبون الله. كما يحب المؤمنون الله. ثم بين أن محبة المؤمنين لله أشد من محبة أصحاب الأنداد لأننادهم.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية — رحمه الله — يرجح القول الأول، ويقول: إنما دُئِموا بأن أشركوا بين الله وبين أنادهم في المحبة. ولم يخلصوها لله كمحبة المؤمنين له. وهذه التسوية المذكورة في قوله تعالى حكاية عنهم. وهم في التاريخون لأنهم وأنادهم، وهى مُخَضَّرَةٌ معهم في العذاب (٣٦: ٩٧، ٩٨) قاله إن كنا لفي ضلال مبين: إذ نسويكم برب العالمين) ومعلوم أنهم لم يسوهم برب العالمين في الخلق والربوبية. وإنما سوهم به في المحبة والتعظيم. وهذا أيضاً هو العدل المذكور في قوله تعالى (٦: ١) ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) أى يعدلون به غيره في العبادة، التى هى المحبة والتعظيم.

وفى الآية معنى آخر — والله أعلم — هو أنهم يحبون أنادهم حباً من جنس محبة المؤمنين لله، وهى محبة مخمضة بذل وتعظيم، وتقليد يحملهم على عبادتهم بالدعاء وغيره من أنواع العبادة، وكل طاعتهم فيما يشعرون لهم من الدين الخرافى.

ويمح ان يقال: بل سوهم به فى خصائص الربوبية. وهى التشريع. كما قال الله عنهم (٩: ٣١) اتخذوا أحياءهم وربانهم أرباباً من دون الله) وفى قوله (٤٢: ٢١) أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله) وفى حديث عدى بن حاتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شرح ذلك، والسألة مجرد خلاف فى الاصطلاح، فى معاني (الرب) و(الاله).

وقال تعالى (٣: ٣١) قل: إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) وهى تسمى آية المحبة. قال أبو سليمان الداراني: لما أعت القلوب محبة الله: أنزل الله لها محبة (قل: ٣) إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله).

قال بعض السلف: ادعى قوم محبة الله، فأنزل الله آية المحبة (قل: ٣) إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله).

وقال «يحببكم الله» إشارة إلى دليل المحبة وثمرتها، وفائدتها. فدليلها وعلامتها: اتباع الرسول. وفائدتها وثمرتها: محبة المرسل لكم. فبالم تحصل المتابعة. فليست محبتكم له حاصلة. ومحبته لكم متتفة.

وقال تعالى (٥: ٥٤) يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه، فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه. أئذلة على المؤمنين، أعززة على الكافرين. يجاهدون فى سبيل الله. ولا يخافون لومة لائم) فقد ذكر لهم أربع علامات:

الاولى والثانية: أنهم: أئذلة، أعززة. قيل: معناه أرقاء، رحاء مشفقين عليهم. عاطفين

عليهم. فلما ضمن «أذلة» هذا المعنى عداه بأداة «على» قال عطاء: للمؤمنين كالولد لوالده،
والعبد لسيد. وعلى الكافرين كالأسد على فريسته (٤٨: ٢٩ أشداء على الكفار رحماء
بينهم).

العلامة الثالثة: الجهاد في سبيل الله بالنفس واليد، واللسان والمال، وذلك تحقيق دعوى
المحبة.

العلامة الرابعة: أنهم لا تأخذهم في الله لومة لائم. وهذا علامة صحة المحبة فكل محب
يأخذه اللوم عن محبوبه فليس يحب على الحقيقة. كما قيل:

لا كان من لسواك فيه بقية يجد السبيل بها إليه اللوم

وقال تعالى (١٧: ٥٧) أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب —
إلى قوله — محذوراً) فذكر المقامات الثلاث: الحب. وهو ابتغاء القرب إليه، والتوسل إليه
بالأعمال الصالحة. والرجاء والخوف: يدل على أن ابتغاء الوسيلة أمر زائد على رجاء الرحمة
وخوف العذاب.

ومن المعلوم قطعاً: أنك لا تتنافس إلا في قرب من تحب قرب، وحب قربك تبع لمحبة ذاته،
بل محبة ذاته أوجب محبة القرب منه، إذ فيها حياة القلوب، ونعيم الأرواح، وبهجة النفوس،
وقرة العيون، وأعلى نعيم الدنيا والآخرة.

وقال تعالى (٦: ٥٢) ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه).
وقال أحبابه وأوليائه (٧٦: ٨) إنما نطمعكم لوجه الله. لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً).

وقال تعالى (٥٢: ٢٠، ٢١) وما لأحد عنده من نعمة تجزى، إلا ابتغاء وجه ربه
الأعلى) فجعل غاية أعمال الأبرار والمقرين والمحبين: إرادة وجهه.

وقال تعالى (٣٣: ٢٩) وإن كنتم تنشئون الله ورسوله والدار الآخرة، فإن الله أعد
للمحسنات منكن أجراً عظيماً) فجعل إرادته غير إرادة الآخرة. وهذه الإرادة لوجهه مرجبة
للذة النظر إليه في الآخرة، كما في مستدرك الحاكم وصحيح ابن حبان في الحديث المرفوع عن
النبي صلى الله عليه وسلم: أنه كان يدعو «اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق:
أحيني إذا كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي. وأسألك خشيتك في
الغيب والشهادة. وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضى. وأسألك القصد في الفقر
والغنى. وأسألك نعيماً لا ينفد. وأسألك قرة عين لا تنقطع. وأسألك الرضى بعد القضاء
وتبذل العيش بعد الموت وأسألك لذة النظر إلى وجهك. وأسألك الشوق إلى لقائك، في غير
ضراء مضرة، ولا فتنة مضيلة. اللهم زينا بزينة الإيمان. واجعلنا هداة مهتدين».

فقد اشتمل هذا الحديث الشريف على ثبوت لذة النظر إلى وجه الله، وعلى ثبوت الشوق إلى لقائه.

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما. وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله. وأن يكره أن يعوذ في الكفر— بعد إذ أنقذه الله منه — كما يكره أن يلقى في النار».

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يقول الله تعالى: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب. وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ من أداء ما افترضته عليه. ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه. فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها. ولئن سألتني ل أعطيتَه، ولئن استعاذني لأعيذنه» وفي الصحيحين عنه أيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم «إذا أحبَّ الله العبد دعا جبريل، فقال: إني أحب فلانا فأحبه. فيحبه جبريل. ثم ينادي في السماء، إن الله يحب فلانا فأحبوه. فيحبه أهل السماء. ثم يوضع له القبول في الأرض». وذكر في البعض عكس ذلك.

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها في حديث أمير السرية الذي كان يقرأ: «قل هو الله أحد» لأصحابه في كل صلاة، وقال: لأنها صفة الرحمن. فأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم «أخبروه: أن الله يحبه».

وفي جامع الترمذي من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «كان من دعاء داود صلى الله عليه وسلم: اللهم إني أسألك حبك وحب من يحبك، والعمل الذي يبلغني حبك. اللهم اجعلني حبك أحبَّ إليَّ من نفسي وأهل. ومن الماء البارد» وفيه أيضاً من حديث عبد الله بن يزيد الخطمي: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول في دعائه «اللهم ارزقني حبك، وحب من ينفعني حبه عندك. اللهم ما رزقتني مما أحب فاجعله قوة لي فيما تحب، وما زويت عني مما أحب فاجعله فراغاً فيما تحب».

والقرآن والسنة مملوآن بذلك من محبة الله سبحانه من: عباده المؤمنين. وذكر ما يحبه من: أعمالهم وأقوالهم وأخلاقهم.

١٤٨ والله يحب المحسنين (١)

إن الله يحب الذين يقاتلون

فإن الله يحب المتقين).

وقوله في خلد ذلك (٢: ٢٠٥) والله لا يحب الفساد) (٣١: ١٨) والله لا يحب كل
مفسد فخور (٣: ٥٧، ١٤٠) والله لا يحب الظالمين) (٤: ٣٥) إن الله لا يحب من كان
مختالاً فخوراً.

وكم في السنة «أحب الأعمال إلى الله كذا وكذا»، «إن الله يحب كذا وكذا» كقول
«أحب الأعمال إلى الله: الصلاة على أول وقتها، ثم بر الوالدین، ثم الجهاد في سبيل
الله» و«أحب الأعمال إلى الله: الإيمان بالله، ثم الجهاد في سبيل الله. ثم حج مبرور» و
«أحب العمل إلى الله: مداوم عليه صاحبه» وقوله «إن الله يحب أن يؤخذ برخصه».

وأضفاف أضفاف ذلك. وفرحه العظيم بتوبة عبده الذي هو أشد فرح يعلمه العباد. وهو من
عبته للتوبة وللثائب.

فلو بطلت مسألة المحبة لبطلت جميع مقامات الإيمان والإحسان. ولتطشت منازل السيرة إلى
الله. فإنها روح كل مقام ومنزلة وعمل. فإذا خلا منها فهو ميت لاروح فيه. ونسبتها إلى
الأعمال كنسبة الإخلاص إليها. بل هي حقيقة الإخلاص، بل هي نفس الإسلام. فإنه
الاستسلام بالذل والحب والطاعة لله. فمن لا محبة له لا إسلام له ألبتة. بل هي حقيقة شهادة
أن لا إله إلا الله. فإن «الإله» هو الذي يألفه العباد حباً وذكلاً، وبنوفاً ورجاء، وتعظيماً وطاعة
له. بمعنى «مالؤه» وهو الذي تألفه القلوب. أي محبة وتذل له.

والعقول تحكم بوجوب تقديم محبة الله على محبة النفس والأهل والمال والولد، وكل ما سواه.
وكل من لم يحكم عقله بهذا: فلا تمياً بعقله. فإن العقل والفطرة والشرعة والاعتبار والنظر
تدعو كلها إلى محبة سبحانه. بل إلى توحيده في المحبة. وإنما جاءت الرسل بتقرير ما في الفطر
والعقول. كما قيل:

هب الرسل لم تأت من عنده ولا أخبرت عن جمال الحبيب
أليس من الواجب المستحق محبته في اللقا والمفیب؟

فمن لم يكن عقله آمراً يذا. ماله في الحجى من نصيب
وإن العقول لتدعو إلى محبة فاطرها من قريب
أليست على ذلك مجبولة ومفطورة لا يكسب غريب
أليس الجمال حبيب القلوب لذات الجمال، وذات القلوب؟

فيا منكراً ذاك واللّه أنست عين الطريد ومن الحبيب
ويامن يوحى محبوبه ويرضيه في مشهد، أو مغيب
حظيت وخابوا فلا تبثس بكيد العدو وقبح الرقيب

وأصل «التأله» التعبد. و«التعبد» آخر مراتب الحب. يقال: قبهه الحب وبكبه: إذا ملكه
وذلكه لمحبوبه.

و «المحبة» حقيقة العبودية. وهل يمكن الإنابة بدون المحبة والرضى، والحمد والشكر،
والخوف والرجاء؟ وهل الصبر في الحقيقة إلا صبر المحبين؟ فإنه إنما يتوكل على المحبوب في
حصول عابه ومراضيه.

وكذلك «الزهد» في الحقيقة: هورهد المحبين. فإنهم يزهدون في محبة ماسوى محبوبهم
لمحبته.

وكذلك «الحياة» في الحقيقة: إنما هو حياة المحبين. فإنه يتولد من بين الحب والتعظيم.
وأما مالا يكون عن محبة: فذلك خوف محض.

وكذلك مقام «الفقر» فإنه في الحقيقة فقر الأرواح إلى عبوديتها. وهو أعل أنواع الفقر. فإنه
لا فقر أتم من فقر القلب إلى من يحبه. لا سيما إذا وجّه في الحب، ولم يجد منه عوضاً سواه.
هذا حقيقة الفقر عند العارفين.

وكذلك «الغنى» هو غنى القلب بمحصل محبة الله. كذلك «الشفقة» لا، الله تعالى، لقائه.
فإنه لب المحبة وسرها. كما سيأتى.

فمنكر هذه المسألة ومعتلها من القلوب: معطل لذلك كله. وحجابه أكثف الحجب. وقلبه
أقسى القلوب، وأبعدها عن الله. وهو منكر لخلّة إبراهيم عليه السلام. فإن «الخلّة» كما هي
المحبة. وهو يتأول «الخليل» بالمحتاج. فخليل الله عنده: هو المحتاج. فكم — على قوله — لله
من خليل من برّ وفاجر، بل مؤمن وكافر إذ كثير من الفجار والكفار من ينزل حوائجهم كلها بالله
صغيرها وكبيرها. ويرى نفسه أحوج شيء إلى ربه في كل حالة.

فلا بالخلّة أقرّ المنكرون، ولا بالعبودية، ولا بتوحيد الإلهية، ولا بحقائق الإسلام والإيمان
والإحسان. ولهذا صحنى خالد بن عبد الله القسرى بمقدّم هؤلاء ومنهم بقدر بن درهم، وقال
في يوم عيد الله الأكبر، عقيب خطبته «أيها الناس، ضموا. تقبل الله ضحاياكم. فإني فُضّج
بالجعد بن درهم. فإنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً. تعالى الله
عما يقول الجعد علواً كبيراً» ثم نزل فذبحه، فشكر المسلمون سعيه. ورحمه الله وتقبل منه.

• مراتب المحبة

أولها: «العلاقة» وسميت علاقة لتعلق القلب بالمحبيب.

الثانية «الارادة» وهى ميل القلب إلى محبوه وطلبه له.

الثالثة «الصباية» وهى انصباب القلب إليه. بحيث لا يملكه صاحبه. كانصباب الماء في الحدود. قاسم الصفة منها «صَبٌّ» والفعل صَبّاً إليه يصبو صَبّاً، وصباية، فعاقبوا بين المضاعف والمعتل، وجعلوا الفعل من المعتل والصفة من المضاعف. و يقال: صَبّاً وصَبُوةً، وصباية. فالصبا: أصل الميل. والصَبُوة: فَوْقه، والصباية: الميل اللازم. وانصباب القلب بكليته.

الرابعة «الغرام» وهو الحب اللازم للقلب، الذى لا يفارقه. بل يلزمه كملازمة الغريم لغريمه. ومنه سعى عذاب النار غراماً للزومه لأهله. وعدم مفارقتها لهم. قال تعالى (٦٥: ٢٥) **إِنْ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا**.

الخامسة «الوداد» وهو صفو المحبة، وخالصها ولُبُّها، و «الودود» من أسماء الرب تعالى. وفيه قولان.

أحدهما: أنه المودود. قال البخارى رحمه الله في صحيحه «الودود الحبيب».

والثانى: أنه الواذلعباده. أي المحب لهم. وقرنه باسمه «الغفور» إعلاماً بأنه يغفر الذنب، ويحب التائب منه، وَيُوَدُّه. فحظ التائب: نيل المغفرة منه.

وعلى القول الأول «الودود» فى معنى يكون سر الاقتران. أى اقتران «الودود بالغفور» استدعاء مودة العباد له، ومحبتهم إياه باسم «الغفور».

السادسة «الشغف» يقال: شُغِفَ بكذا. فهو مشغوف به. وقد شَغَفَهُ المحبوب. أى وصل حبه إلى شِغَاف قلبه. كما قال النسوة عن امرأة العزيز (١٢: ٣٠) **شَغَفَهَا حُبًّا** وفيه ثلاثة أقوال.

أحدها: أنه الحب المستولى على القلب، بحيث يحجب عن غيره. قال الكلبي: حجب حُبُّه قلبها حتى لا تعقل سواه.

الثانى: الحب الواصل إلى داخل القلب. قال صاحب هذا القول: المعنى أحبته حتى دخل حُبُّه شِغَاف قلبها، أى داخله.

الثالث: أنه الحب الواصل إلى غشاء القلب. و«الشغاف» غشاء القلب إذا وصل الحب إليه باشر القلب. قال السدى: الشغاف جلدة رقيقة على القلب. يقول: دخله الحب حتى أصاب القلب

وقرأ بعض السلف (شَقَّهَا) بالعين المهملة. ومعناه: ذهب الحب بها كل مذهب. وبلغ بها لعل مراتبه، ومنه: شَقَّ الجبال، لرؤوسها.

السابعة «العشق» وهو الحب المفرط الذى يخاف عن صاحبه منه. وفى اشتقاقه قولان أحدهما: أنه من الشَّقَّة — حركة — وهى نبت أصفر يلتوى على الشجرة، فشيء به العاشق.

والثانى: أنه من الإفراط وعلى القولين: فلا يوصف به الرب تبارك وتعالى، ولا العبد فى حبة ربه.

الثامنة «التَّيِّم» وهو التَّعْبِد، والتَّذَلُّل. يقال: تَيَّمَ الحُبَّ أى ذَلَّه وَعَبَّده. وتَيَّمُ الله: عبد الله. وبينه وبين «اليِّم» — الذى هو الانفراد — تناسب فى المعنى. فإن «التَّيِّم» المنفرد بحبه وشجوه. كانفراد التَّيِّم بنفسه عن أبيه، وكل منهما مكسور ذليل. وهذا كسره تَيِّم.

التاسعة «التَّعْبِد» وهو فوق التَّيِّم. فإنَّ العبد هو الذى قدملك المحبوب ربه فلم يبق له شيء من نفسه أبته. بل كله عبد لمحبوبه ظاهراً وباطناً. وهذا هو حقيقة العبودية. ومن كمل ذلك فقد كمل مرتبتها.

ولما كمل سيد ولد آدم هذه المرتبة: وصفه الله بها فى أشرف مقاماته. مقام الإسماء: كقوله (٦٧: ١) سبحان الذى أسمى عبده) ومقام الدعوة: كقوله (٧٢: ١٩) وأنه لما قام عبد الله يدعوه) ومقام التحدى كقوله (٢: ٢٣) وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا) وبذلك استحق التقديم على الخلائق فى الدنيا والآخرة.

وكذلك يقول المسيح عليه الصلاة والسلام لهم، إذا طلبوا منه الشفاعة — بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام — «اذهبوا إلى محمد، عبيد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر». سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية — قدس الله روحه — يقول: فحصلت له تلك المرتبة. عبوديته لله تعالى، وكمال مغفرة الله له.

وحقيقة العبودية: الحب التام، مع الذل التام والخضوع للمحبوب. تقول العرب «طريق معبد» أى قد ذللت الأقدام وسهلت.

العاشرة «مرتبة الخلَّة» التى انفرد بها الخليلان — إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم — كما صرح عنه أنه قال (إن الله اتخذنى خليلاً، كما اتخذ إبراهيم خليلاً) و«الخلَّة» هى المحبة التى تخللت روح المحب وقلبه، حتى لم يبق فيه موضع لغير المحبوب.

وهذا هو السر الذى لأجله — والله أعلم — أمر الخليل بذبح ولده، وثمرة فؤاده وقُلْدة كبده.

لأنه لما سأل الولد فأعطيه، تعلقت به شعبة من قلبه. و«الحلة» منصب لا يقبل الشركة والقسمة. فغار الخليل على خليله: أن يكون في قلبه موضع لغيره. فأمره بذبح الولد. ليخرج المزاحم من قلبه. فلما وُظِن نفسه على ذلك، وعزم عليه عزماً جازماً: حصل مقصود الأمر. فلم يبق في إثرها نفس الولد مصلحة. فحال بينه وبينه. وقدها بالذبح العظيم، وقيل له (١٠٥:٣٧) إنا كذلك نجزي المحسنين، نجزي من بادر إلى طاعتنا، فقُتِرَ عينه كما أقرزنا عينك بامتثال أوامرنا، وإبقاء الولد وسلامته (إن هذا هو البلاء المبين) وهو إختبار المحبوب لمحبه، وامتحانه إياه ليؤثر مرضاته. فيتم عليه نعمه، فهو بلاء محنة ومنحة عليه معاً.

وهذه الدعوة إنما دعا إليها بها خواص خلقه، وأهل الألباب والبصائر منهم: فما كل أحد يجيب داعيها. ولا كل عين قريبة بها.

فما كل عين بالحبيب قريبة	ولا كل من نودى يجيب المناديا
ومن يمس دمي لهداك قتل	يُجب كل من أضحي إلى الغي داعيا
وقل للعيون الرمد: إياك أن ترى	بنا الشمس فاستغشى ظلام الليالي
وسامح نفوساً لم يهبها لهم	ودعها وما اختارت. ولا تك جافيا
وئل للذي قد غاب: يكنى عقوبة	مغيبك عن ذا الشأن لو كنت وأعيا
ألم تر آثار القطيعة قد بدت	على حاله. فارحه إن كنت راثيا
فكن أبداً حيث استقلت ركائب الـ	عبة في ظهر العزائم ساريا
وأدليج. ولا تخش الظلام. فإنه	سيكشفك وجه الحب في الليل هاديا

• وعبة هروية

ولذلك كانت لشيخ الاسلام ابي اسماعيل الهروي رحمه الله طريقة اخرى في تعريفها، فقال: «المحبة: تعلق القلب بين الهمة والأنس». بمعنى: تعلق القلب بالمحبيب تعلقاً مقترناً بهمة المحب، وأنه بالمحبيب، في حائتي بذله ومنعه، وإفراده بذلك التعلق. بحيث لا يكون لغيره فيه نصيب. وإنما أشار إلى أنها «بين الهمة والأنس» لأن المحبة لما كانت هي نهاية شدة الطلب، وكان المحب شديد الرغبة والطلب: كانت «الهمة» من مقومات حبه، وجملة صفاته. ولما كان الطلب

بالهمة قد يقرى عن الأنس، وكان المحب لا يكون إلا مستأنساً بجمال محبوبه، وطعمه بالوصول إليه. فمن هذين يتولد الأنس؛ ويجب أن يكون المحب موصوفاً بالأنس. فصارت المحبة قائمة بين الهمة والأنس.

وبالمحبة تنفى خواطر المحب عن التعلق بالغير. وأول ما ينفي من المحب: خواطره المتعلقة بما سوى محبوبه. لأنه إذا انجذب قلبه بكلية إلى محبوبه انجذبت خواطره تبعاً.

• اعقلها وابدأ المحبة

ومباديها عند المروي: «حمة تقطع الوسواس، وتُسلي عن المصائب». فإن الوسواس والمحبة متناقضان. فإن المحبة توجب استيلاء ذكر المحبوب على القلب. والوسواس تقتضى غيبته عنه، حتى توسوس له نفسه بغيره. فبين المحبة والوسواس تناقض شديد، كما بين الذكر والغفلة. فعزومة المحبة: تنفى تردد القلب بين المحبوب وغيره. وذلك سبب الوسواس، وهيئات أن يجد المحب الصادق فراغاً لوسواس الغير، لا ستغراق قلبه في حضوره بين يدي محبوبه. وهل الوسواس إلا لأهل الغفلة والإعراض عن الله تعالى؟ ومن أين يجتمع الحب والوسواس؟

لا كان من لساك فيه بقية فيها يُقسَم فكره ويوسوس كذلك فإن المحب يجد في لذة المحبة ما ينسيه المصائب ولا يجد من مسها ما يجد غيره، حتى كأنه قد اكتسب طبيعة ثانية ليست طبيعة الخلق. بل يقوى سلطان المحبة، حتى يلتذ المحب بكثير من المصائب التي يصيبها بحبيبه أعظم من التذاذ الحلى بحفظه وشهواته. وهي حمة تثبت من مطالعة المنه، وتثبت باتباع السنة.

أي أنها تنشأ من مطالعة العبد رقة الله عليه، ونعمه الباطنة والظاهرة، فيقدر مطالعته ذلك تكون قوة المحبة. فإن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها، وبُغض من أساء إليها. وليس لتعبد قط إحسان إلا من الله. ولا إساءة إلا من الشيطان.

ومن أعظم مطالعة من الله على عبده: تأهيله لمحبه ومعرفة، وإرادة وجهه، ومتابعة حبيبه. وأصل هذا: نور يقذفه الله في قلب العبد. فإذا دار ذلك النور في قلب العبد وذاته: أشرقت ذاته. قرأى فيه نفسه، وما أهملت له من الكمالات والمحاسن. فتلَّت به همة. وقويت عزيمته. وانقشعت عنه ظلمات نفسه وطبعه. لأن النور والظلمة لا يجتمعان إلا ويطرد أحدهما صاحبه. فرقت الروح حينئذ بين الهيبة والأنس إلى الحبيب الأول.

نَقْلُ فؤادك حيث شئت من الهوى
 كما بمنزل في الأرض يألفه الفتى
 ما الحبُّ إلا للحبيب الأول
 وحسينه أبداً لأول منزل

وهذا النور كالشمس في قلوب المقرّبين السابقين، وكالبدري في قلوب الأبرار أصحاب
 اليمين، وكالنجم في قلوب عامة المؤمنين. وتفاوتهم فيه كتفاوت ما بين الزهرة والسُقى..
 ورسوخ هذه المحبة وثباتها في القلب إنما يكون بمتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم في
 أعماله، وأقواله وأخلاقه. فيحسب هذا الاتباع يكون منشأ هذه المحبة وثباتها وقوتها. وبحسب
 نقصانه يكون نقصانها، كما تقدم: أن هذا الاتباع يوجب المحبة والمحبة معاً. ولا يتم الأمر
 إلا بهما. فليس الشأن في أن تحب الله، بل الشأن في أن يحبك الله. ولا يحبك الله إلا إذا اتبعت
 حبيب ظاهراً وباطناً، وصدقة خيراً، وأطعته أمراً، وأجبت دعوة، وآثرته طوعاً، وفيتت عن
 حكم غيره بحكمه، وعن محبة غيره من الخلق بمحبته، وعن طاعة غيره بطاعته. وإن لم يكن
 ذلك فلا تمنع. وارجع من حيث شئت فالتمس نوراً. فلست على شيء.

وتأمل قوله (٣: ٣١) فاتبعوني يحبك الله أي الشأن في أن الله يحبك. لاني أنكم
 تحبونه، وهذا لا تتألمونه إلا باتباع الحبيب صلى الله عليه وسلم.

وتخصاعد المحبة حتى تبعث على إثارة الحق على غيره، وتلجج اللسان بذكره، فهي -
 لكما لها وقوتها - تقتضي من المحب أن يترك لأجل الحق ما سواه، فيؤثره على غيره، ولا يؤثر
 غيره عليه، ويجعل اللسان لهجاً بذكره، فإن من أحب شيئاً: أكثر من ذكره، حتى كأنه لا
 يشاهد غيره.

وأما تظهر هذه المحبة من مطالعة الصفات، بإثباتها أولاً، ومعرفتها ثانياً، ونفي التحريف
 والتعطيل عن نصوصها ثالثاً ونفي التمثيل والتكييف عن معانيها رابعاً. فلا يصح له مطالعة
 الصفات الباعثة على المحبة الصحيحة إلا بهذه الأمور الأربعة. وكلما أكثر قلبه من مطالعتها،
 ومعرفة معانيها: ازدادت محبته للموصف بها.

وتزداد تصاعداً بالنظر إلى الآيات نظر الفكر والاعتبار إلى آياته المشهودة وفي آياته المسموعة.
 وكل منهما داع قوي إلى محبته سبحانه. لأنها أدلة على صفات كماله، ونموت جلاله، وتوحيد
 ربوبيته وإلهيته، وعلى حكمته وبره، وإحسانه وعفوه، وحلمه. وكذلك الارتياض
 بالمقامات. فإن من كانت له رياضة وملكة في مقامات الإسلام والإيمان: كانت محبة
 أقوى. لأن محبة الله له أتم. وإذا أحب الله عبداً أنشأ في قلبه محبة.

وهذا المقدار من المعاني هو ما يسمع به التعيين، وإلا فإن أوصاف المحبة لا تتناهى، إذ لها في
 كل مقام نسبة وتعلق به، وهي روح كل مقام، والحاملة له. واقدام السالكين إنما تتحرك بهاء،
 فلها تعلق بكل قدم وحال ومقام، فلا تتناهى نموتها البتة.

• الشوق ثمرة المحبة

ومن آثار المحبة : الشوق.

قال الله تعالى (٢٩: ٥) من كان يرجو لقاء الله فإن أجلّ الله لآت).
قيل: هذا تمزية للمشتاقين، وتسلية لهم أى أنا أعلم أن من كان يرجو لقائى فهو مشتاق
إلى. فقد أجلّت له أجلاً يكون عن قريب. فإنه آت لا محالة. وكل آت قريب.
وفيه لطيفة أخرى. وهى تعليل المشتاقين برجاء اللقاء.

لولا التعلل بالرجاء لشُظمت	نفس المحب صباية وتشتوقا
ولقد يكاد يذوب منه قلبه	مما يبقاى حسرة وتحرقا
حتى إذا رُوِّح الرجاء أصابه	سكن الحريق إذا تعلل باللقا

وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول فى دعائه «أَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ،
وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ».

و «الشوق» اثر من آثار المحبة، وحكم من احكامها، فانه سَفَر القلب الى المحبوب في كل
حال.

وقيل: هو اهتياج القلوب، إلى لقاء المحبوب.
و «المحبة» أعلى منه. لأن الشوق عنها يتولد، وعلى قدرها يقوى و يضعف. قال يحيى بن
معاذ: علامة الشوق فطام الجوارح عن الشهوات.

• الشوق الى الجنة ... حق

واول معانيه عند الهروي: «شوق العابد إلى الجنة، ليأمن اخائف. ويفرح الحزين. و يظفر
بأمل».

أى ان : شوق العابد إلى الجنة فيه هذه الحكم الثلاث.
أحدها: حصول الأمن الباعث على الأمل. فإن الخوف المجرد عن الأمن من كل وجه، لا
ينبعث صاحبه لعمل ألبته، إن لم يقارنه أمل. فإن تجرد عنه قُطع وصار قنوطاً.
الثاني: فرح الحزين. فإن الحزن المجرد أيضاً إن لم يقتربه الفرح قتل صاحبه. فلولا روي

الفرح لتعطلت قوى الحزين. وقد حزنه به، ولكن إذا قعد به الحزن: قام به روح الفرح.
الثالث: روح الظفر. فإن الآمل إن لم يصحبه روح الظفر. مات أمله. والله أعلم.

• ركضاً الى الله

ومنه: الشوق الى الله عز وجل، وتعلق القلب بصفاتهِ المقدسة.
وهذا الشوق لا يتاني الشوق الى الجنة، فإن أطيب ما في الجنة: قربه تعالى، ورؤيته، وسماع
كلامه، ورضاه.
نعم. الشوق الى مجرد الأكل والشرب والخور العين ناقص بالنسبة الى شوق المحيين الى الله
تعالى والى صفاته المختصة بالمتن والاحسان، كالبرّ والعتاد، والمحسن، والجواد، والمعطي.
والغفور، والوهاب، واللطيف، ونحوها.

(٥١) مَنَزِلَةُ الْغِيْرَةِ

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الغيرة»

قال الله تعالى (٧: ٣٣ قل: إنما حَرَّمَ رَبِّي الفواحش ما ظهر منها وما بطن) وفي الصحيح عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما أحدٌ أغْيَر من الله، ومن غَيَّرته: حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن. وما أَحَدٌ أَحَبَّ إليه المدح من الله. ومن أجل ذلك: أننى على نفسه. وما أَحَدٌ أَحَبَّ إليه العذر من الله. من أجل ذلك: أرسل الرسل فيشرين ومنذرين». وفي الصحيح أيضاً، من حديث أبي سلمة، عن أبي هريرة رضى الله عنه. أن رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال «إن الله يغار، وإن المؤمن يغار، وَغِيْرَةُ الله: أن يأتى العبد ما حرم عليه».

وفي الصحيح أيضاً: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «أتعجبون من غيرة سعد؟ لأنا أغير منه. والله أغير منى».

وبما يدخل في الغيرة قوله تعالى (١٧: ٤٥ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستورا).

قال السرى لأصحابه: أتدرون ما هذا الحجاب؟ حجاب الغيرة. ولا أحد أغير من الله. إن الله تعالى لم يجعل الكفار أهلاً لفهم كلامه، ولا أهلاً لمعرفته وتوحيده ومحبته. فجعل بينهم وبين رسوله وكلامه وتوحيده حجاباً مستوراً عن العيون، غيرة عليه أن يناله من ليس أهلاً له.

«والغيرة» نوعان: غيرة من الشيء. وغيرة على الشيء

والغيرة من الشيء: هى كراهة مزاحته ومشاركته لك فى محبوبك.

والغيرة على الشيء: هى شدة حرصك على المحبوب أن يفوز به غيرك دونك أو يشاركك فى تفوز به.

و «الغيرة» أيضاً نوعان: غيرة العبد من نفسه على نفسه، كغيرته من نفسه على قلبه، ومن إعراضه على إقباله، ومن صفاته الذمومة على صفاته المدوحة. وهذه الغيرة خاصية النفس الشريفة الزكية العلوية. وما للنفس الدنية المهينة فيها نصيب. وعلى قدر شرف النفس وعلو همتها تكون هذه الغيرة.

ثم «الغيرة» أيضاً نوعان: غيرة الحق تعالى على عبده، وغيرة العبد لربه لا عليه. فأما غيرة الرب على عبده: فهي أن لا يجعله للخلق عبداً. بل يتخذة لنفسه عبداً. فلا يجعل له فيه شركاء متساكين. بل يفرده لنفسه. ويضن به على غيره. وهذه أعلى الغيرتين.

وغيرة العبد لربه، نوعان أيضاً: غيرة من نفسه. وغيرة من غيره. فالتى من نفسه: أن لا يجعل شيئاً من أعماله وأقواله وأوقاته وأنفاسه لغير ربه؛ والتى من غيره: أن يغضب لمحامره إذا انتهكها المنتهكون. ولحقوقه إذا تهاون بها المتهاونون.

والاسلام كله حث على تأجيج هذه الغيرة وانكار المنكر، وبهذا ارسلت الرسل وانزلت الكتب.

ومن تأمل أحوال الرسل مع أمهم: وجدهم كانوا قائمين بالإنكار عليهم أشد القيام. حتى لقوا الله تعالى، وأوصوا من آمن بهم بالإنكار على من خالفهم وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم: أن المستخلص من مقامات الإنكار الثلاثة ليس معه من الإيمان حبة خردل. وبالغ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أشد المبالغة، حتى قال «إن الناس إذا تركوه: أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده».

وأخبر: أن تركه يمنع إجابة دعاء الأخيار. ويوجب تسلط الأشرار. وأخبر أن تركه: يوقع المخالفة بين القلوب والوجوه. ويحل لعنة الله. كما لعن الله بنى إسرائيل على تركه.

● غيرة الاستدراك

وأول درجاتها: «غيرة العابد على ضائع يسترد ضياعه. ويستدرك فواته، ويتدارك قواه». و«العابد» هو العامل — بمقتضى العلم النافع — للعمل الصالح. فقيرته على ما ضاع عليه من عمل صالح. فهو يسترد ضياعه بأمثاله. ويجبر ما فاتته من الأوراد والتوافل وأنواع القرب بفعل أمثالها، من جنسها وغير جنسها. فيقضى ما ينفع فيه القضاء ويعوض ما يقبل العرض. ويجبر ما يمكن جبره.

والفرق بين استرداد ضائعه، واستدراك فائته، أن الأول: يمكن أن يُسترد بعينه، كما إذا فاتته الحج في عام تمكّن منه. فأضاعه في ذلك العام: استدركه في العام المقبل. وكذلك إذا أخر الزكاة عن وقت وجوبها استدركها بعد تأخيرها، ونحو ذلك.

وأما الثالث: فإنما يستدرك بنظيره. كقضاء الواجب المؤقت إذا فات وقته، أو بتوبة وندم. وأما «تدارك قواه» فهو أن يتدارك قرته ببذلها في الطاعة قبل أن تتبدل بالضعف. فهو يفرار

عليها: أن تذهب في غير طاعة الله. ويتدارك قوى العمل الذي لحقه الفزع عنه، بأن يكسوه قوة ونشاطاً، غير له وعليه.
فهذه غير العباد على الأعمال. والله أعلم.

● فراغ القلب ... يقتل الفراغ

ومنها: «الغيرة على وقت فات، فإن الوقت أبي الجانب، بطيء الرجوع». فالوقت اعز شيء على العابد، يغار عليه أن ينقضي بدون ذلك. فإذا فاته الوقت لا يمكنه استدراكه البتة. لأن الوقت الثاني قد استحق واجبه الخاص، فإذا فاته وقت فلا سبيل له إلى تداركه. كما في المسند مرفوعاً «من أفطر يوماً من رمضان، متعمداً من غير عذر: لم يقضه عنه صيام الدهر، وإن صامه».

فالوقت منقضى بذاته، متصرف بنفسه. فمن غفل عن نفسه تصرعت أوقاته، وعظم فواته. واشتدت حسرته. فكيف حاله إذا علم عند تحقق الفوت مقدار ما أضاع. وطب الرجعي فحيل بينه وبين الاسترجاع. وطلب تناول الفات. وكيف يرد الأمس في اليد الجديد؟ «٣٤: ٥٢» وأتى لهم التناوش من مكان بعيد؟ «ومنع مما يحبه ويرفضه، وعنه أن ما اقتناه ليس بما ينبغي للعاقل أن يقتنيه، وحيل بينه وبين ما يشتهي».

و يقال: إن أصعب الأحوال المنقطعة: انقطاع الأنفاس. فإن ربابه إذا صعد النفس الواحد ضَعُوه إلى نحو عيوبهم، صاعداً إليه، متلبساً بحبته والشوق إليه. فإذا أرادوا دفعه دفعوا معه نفساً آخر. فكل أنفاسهم بالله. وإلى الله، متلبسة بحبته، وشوق إليه والأنس به. فلا يفوتهم نفس من أنفاسهم مع الله إلا إذا غلبهم النوم. وكثير منهم يرى في نومه: أنه كذلك. لا لباس روحه وقلبه. فيحفظ عليه أوقات نومه ويقظته. ولا تستنكر هذه الحال. فإن المحنة إذا غلبت على القلب وملكته: أوجبته له ذلك لا محالة.

والمقصود: أن الواردات سريعة الزوال. تقرأ أسرع من السحاب، وينقضي الوقت بما فيه. فلا يعود عليك منه إلا أثره، وحكمه. فاختر لنفسك ما يعود عليك من وقت. فإنه عائد عليك لا محالة. لهذا يقال للسماء (٦٨: ٢٤) كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية) و يقال للأشقياء (٤٠: ٧٥) ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق، وبما كنتم تفرحون).

(٥٢) مَنَزِلَةُ الْوَجْدِ

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الوجد»

ثبت في الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله. وأن يكره أن يعود في الكفر - بعد إذ أنقذه الله منه - كما يكره أن يلقى في النار».

وقد استشهد صاحب المنازل بقوله تعالى في أهل الكهف (١٨ : ١٤) وربطنا على قلوبهم إذ قاموا، فقالوا: ربنا رب السموات والأرض. لن ندعو من دونه إلها، لقد قلنا إذا شططا) وهذا من أحسن الاستدلال والاستشهاد. فإن هؤلاء كانوا بين قومهم الكفار في خدمة ملكهم الكافر. فما هو إلا أن وجدوا حقيقة الإيمان والتوفيق. وذاقوا حلاوته. وباشر قلوبهم. فتأماوا من بين قومهم، وقالوا: «ربنا رب السماوات والأرض - الآية».

والربط على قلوبهم: يتضمن الشد عليها بالصبر والتثبيت، وتقويتها وتأييدها بنور الإيمان، حتى صبروا على هجران دار قومهم، ومفارقة ما كانوا فيه من خفض العيش. وفرو بدينهم إلى كهف.

والربط على القلب: عكس الخذلان. فالخذلان: حلة من رباط التوفيق. فيفصل عن ذكر ربه. ويتبع هواه، ويصير أمره فرطا.

والربط على القلب: شدة رباط التوفيق. فيتصل بذكر ربه. ويتبع مرضاته. ويجمع عليه شمله. فلهذا استشهد عليه بهذه الآية في مقام «الوجد».

• مراتب الوجد

ومراتبه أربعة. أضعفها «التواجد» وهو نوع تكلف وتعمل واستدعاء.

واختلفوا فيه: هل يسلم لصاحبه أم لا؟ على قولين.

فطائفة قالت: لا يسلم لصاحبه. وينكر عليه، لما فيه من التكلف والتصنع المبين لطريق

النفاقين. وبناء هذا الأمر على الصدق المحض.

وطائفة قالت: يسلم لصاحبه إذا كان قصده استدعاء الحقيقة، لا التشبه بأهلها. واحتجوا بقول عمر رضى الله عنه — وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر يبيكان في شأن أسارى بدر، وما قبلوا منهم من الفداء — «أخبرانى ما يبكيكما؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإلا تباكيت».

قالوا: والتكلف والتعمل في أوائل السبر والسلوك لا بد منه إذ لا يطالب صاحبه بما يطالب به صاحب الحال. ومن تأمله بنية حصول الحقيقة لمن رصد الوجد لا يذم.

المرتبة الثانية: المواجه، وهى نتائج الأوراد وثمراتها.

المرتبة الثالثة: «الوجد» وهو ثمرة أعمال القلوب، من الحب في الله والبغض فيه، كما جعله النبي صلى الله عليه وسلم ثمرة كون الله ورسوله أحب إلى العبد مما سواهما. وثمره الحب فيه، وكرهه عوده في الكفر كما يكره أن يقذف في النار. فهذا «الوجد» ثمرة هذه الأعمال القلبية، لئى هى الحب في الله والبغض في الله.

المرتبة الرابعة: «الوجود» وهى أعلى ذروة مقام الإحسان. فمن مقام الإحسان يرقى إليه. فإنه إذا غلب على قلبه مشاهدة معبوده، حتى كأنه يراه — وتمكن في ذلك — صار له ملكة أخذت أحكام نفسه، وتبدل بها أحكاما أخرى، وطبيعة ذاتية، حتى كأنه أنشأ نشأة أخرى غير نشأته الأولى، وولد ولادا جديدا.

● التدبر يقود الى الوجد

ويزيغ كوجد عارض متجدد، يستفيق له شاهد السمع، او شاهد البصر، او شاهد الفكر. وذلك يكون بانتباه السمع من سنته، اذا كان المنبه له خطاباً من خارج أو من نفسه، وما يراه ويعاينه من آيات الله، فينتقل منها الى ما نصبت آية له وعليه. ويختلط ذلك بما يفتح له من المعاني التي اوقعه عليها فكره وتأمله.

وهذه الشواهد الثلاثة التي دعا الله سبحانه عباده إلى تبينها والاستشهاد بها. وقبول الحق الذي تشهد به. وترتيب حكم هذه الشهادة عليها، من التوحيد والإقرار والإيمان. قال الله تعالى (٢٢: ٤٦) أفلم يسيروا في الأرض فتكون هم قلوب يعقلون بها؟ أو أذان يسمعون بها؟ فإنها لا تعمى الأبصار. ولكن تعمى القلوب التي في الصدور. وقال (٢٣: ٦٩) أفلم يتدبروا القول؟ وقال (٤٧: ٢٤) أفلا يتدبرون القرآن، أم على قلوب أفاها؟ وقال (١٠: ١٠١) انظروا: ماذا في خلق السماوات والأرض؟ وقال (٣٠: ٨) أفلم يتفكروا في أنفسهم؟ ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى. وقال

(١٦ : ٤٤) وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم. ولعلهم يتفكرون) والقرآن مملوء من هذا.

فإذا استفاق شاهد السمع والبصر والفكر، ووجد القلب حلاوة المعرفة والإيمان: خرج من جملة النيام الغافلين.

وهذا الوجد العارض قد يبقى واجده أثراً من أحكامه بعد مفارقتها. وقد لا يبقى. والظاهر: أنه لا بد أن يبقى أثراً، لكن قد يخفى، وينغمر بما يعقبه بعده، ويخلفه من أصداده.

• آفاق الروح أعلى من أفق الفكر

وهناك وجد آخر، مشرقه أعلى من الأول، محل البقطة فيه هو الروح، بينما عملها في الأول: السمع والبصر والفكر. والروح هي الحاملة للسمع والبصر والفكر. وهذه الأوصاف من صفاتها.

وأيضاً فلعل وجد الروح سبب آخر. وهو علو متعلقه، فإن متعلق وجد السمع والبصر والفكر: الآيات والبصائر. ومتعلق وجد الروح: تعلقها بالمحبيب لذاته.

وقد جعل الله في قلب كل مؤمن واعظاً له يأمره وينهاه، وينادي به ويحذره، ويشره وينذره. وهو الداعى الذى يدعوفوق الصراط. والداعى على رأس الصراط: كتاب الله. كما فى المسند والترمذى من حديث النّوّاس بن سمعان رضى الله عنه عن النّبي صلى الله عليه وسلم قال «ضرب الله مثلاً: صراطاً مستقيماً. وعلى جنبتي الصراط سوران. وفى السورين أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وداع يدعوى على رأس الصراط، وداع يدعوفوق الصراط. فالصراط المستقيم: الإسلام، والأبواب المفتحة: محارم الله. فلا يقع أحد فى حد من حدود الله حتى يكشف السترة. والداعى على رأس الصراط: كتاب الله. والداعى فوق الصراط: واعظ الله فى قلب كل مؤمن) فما ثم خطاب قط الا من جهة من هاتين: اما خطاب القرآن، واما خطاب هذا الواعظ.

• كمال الحرية فى وجد التجريد

ويزداد وميض شمس الوجد لمعاناً حتى يمحض العابد من دَرَنَ الحظ، ويسلبه من رق الماء والطين، فيخلص عبوديته، والتي هي حقيقته، من وسخ حظوظ نفسه وإرادتها، المزاحة لمراد ربه منه. فإن تحقيق العبودية — التى هي معنى العبد — لا يكون إلا بفقد النفس الحاملة للحظوظ.

فمتى فقدت حظوظها تمحصت عبوديتها. وكلما مات منها حظ حي منها عبودية ومعنى. وكلما حي فيها حظ ماتت عبودية، حتى يعود الأمر على نفسين وروحين وقلبين: قلب حي، وروح حية يموت نفسه وحظوظها، وقلب ميت، وروح ميتة بحياة نفسه وحظوظه. وبين ذلك مراتب متفاوتة في الصحة والمرض، وبين بين، لا يخصصها إلا الله عز وجل.

ثم يسلبه من رق الماء والطين، أى يعتقه ويحرره من رق الطبيعة والجسم المركب من الماء والطين، إلى رق رب العالمين، فخادم الجسم الشقى بخدمته عبد الماء والطين، كما قيل:

يا خادماً للجسم، كم تشقى بخدمته؟ فأنت بالروح لا بالجسم إنسان

والناس في هذا المقام ثلاثة: عبد محض. وحر محض، وبين بين.

فالعبد المحض: عبد الماء والطين. الذى قد استعبدته نفسه وشهوته. وملكته وقهرته. فانقاد لها.

والحر المحض: هو الذى قهر شهوته ونفسه وملكها. فانقادت معه، وذلت له ودخلت تحت رقه وحكمه.

والثالث: من قد عقد له سبب الحرية. وهو يسعى فى كما لها. فهو حر من وجه، وعبد من وجه، طالما بقي عليه حظ من حظوظ النفس.

فالحر من تخلص من رق الماء والطين. وفاز بعبودية رب العالمين، فاجتمعت له العبودية والحرية. فعبوديته من كمال حرية، وحرية من كمال عبوديته، ويظل أبداً في ارتقاء، كلما نظر إلى مواقع لطف ربه به — حيث أهلكه لما لم يزل له أهل البلاء، وهم أهل الغفلة والاعراض عنه — أورثه ذلك النظر تمجداً يوقعه في مزيد وجد. قال بعض العارفين في الأثر المروى «إذا رأيتم أهل البلاء فسلوا الله العافية» تدرون من أهل البلاء؟ هم أهل الغفلة عن الله.

وتعوى هذه الحال إذا انضاف إليها شهود العبد خسة قدر نفسه. فاستصغرها أن تكون أهلاً لما أهلت له. وكذلك شهود انحطاط رتبته، وتفاهة قيمته، وخستها وقتلتها.

وحاصل ذلك كله: احتقاره لنفسه، واستعظامه للطف ربه به، وتأهيله له، فيتولد من بين هذين الشهودين: محبة وحد وشكر، وعزم وإخلاص، ونصيحة في العبودية، وسرور وفرح بربه، وألْس به.

(٥٣) مَنَزِلُ الْبَرْقِ

ومن أنوار «إياك نعبد وإياك نستعين» نور «الـ»
الذى يبدو للعبد عند دخوله في طريق الهـ

وهو لا يَمِيعُ يلمع لقلبه. يشبه لامع البرق.

قال صاحب المنازل «البرق: باكورة تلمع للعبد. فتدعوه إلى الدخول في هذه الطريق».

واستشهد عليه بقوله تعالى (٢٠: ١٠، ١١) وهل أتاك حديث موسى، إذ رأى ناراً؟
فقال لأهله: امكنوا. إني آنست ناراً).

ووجه الاستشهاد: أن النار التي رآها موسى كانت مبدأ في طريق نبوته.

و«البرق» مبدأ في طريق الولاية التي هي وراثـة النبوة.

وقوله «باكورة» الباكورة: هي أول الشيء، ومنه باكورة الثمار. وهو لما سبق نوعه في

النضج.

وهذا البرق ليس هو أول طريق أهل البدايات، بل بدايته «اليقظة» التي ذكرت كأول

منزل، وإنما البرق أول طريق أرباب التوسط والنهايات.

وهو نور يقذفه الله في قلب العبد، ويديه له، فيدعوه به إلى الدخول في الطريق الأعلى:

طريق الصادقين.

● قليله كثير، وكثيرنا قليل

ومضته الأولى: تلمع من جانب العتبة في أفق الرجاء فيستكثر فيه العبد القليل من العطاء،

ويستقل فيه الكثير من الأعباء ويستحلي فيه مرارة القضاء.

والعبـة: ما وعد الله أوليائه من أنواع الكرامة في هذه الدار وعند اللقاء، من ناحيتها يضيء

البرق، فيوجب للعبد استكثار القليل، ولا قليل من الله من عطائه، والحامل له على هذا

الاستكثار: أربعة أمور.

أحدها: نظره إلى جلالة معطيه وعظمته.

الثاني: احتقاره لنفسه. فإن ازدراءه لها: يوجب استكثار ما يناله.
الثالث: محبته له. فإن المحبة إذا تمكنت من العبد استكثر قليل ما يناله من محبته.
الرابع: أن هذا قبل العطاء — لم يكن له إلف به، ولا اتصال بالعطية. فلما فاجأته: استكثرها.

وأما «استقلاله الكثير من الإعياء» — وهو التعب والنصب — فلأنه لا بدا له برق الوعد من أفق الرجاء: حمل ذلك على الجِد والطلب. وحمل عنه مشقة السير. فلم يجد لذلك من مَس الإعياء والنصب ما يجده من لم يشم ذلك.
وكذلك استحلاؤه — في هذا البرق — مرارة القضاء، وهو البلاء الذي يختبره به الله عز وجل عباده، ليبلوهم أيهم أصبر وأصدق، وأعظم إيماناً، ومحبة وتوكلاً وإجابة؟ فإذا لاح للسالك هذا البرق: استحل في مرارة القضاء.

• إشارة التأهب

ويسطع أخرى من جانب الوعيد في عين الحذر فيستقصر فيه العبد الطويل من الأمل،
ويزهد في الخلق على القرب.

فهذا البرق أفقه: غير أفق البرق الأول. فإن هذا يلعب من أفق الحذر، وذلك من أفق الرجاء. فإذا شام هذا البرق: استقصر فيه الطويل من الأمل وتحيل في كل وقت: أن المنية تعاصفه وتفاجئه. فاشتد حذره من هجومها، مخافة أن تحل به عقوبة الله، ومحال بينه وبين الاستعتاب والتأهب للقاء. فيلقى ربه قبل الطهر التام. فلا يؤذن له بالدخول عليه بغير طهارة. كما أنه لم يؤذن له في دار التكليف بالدخول عليه للصلاة بغير طهارة.

وهذا يُذَكِّر العباد بالطهر للموافاة والقدوم عليه، والدخول وقت اللقاء لمن عقل عن الله، وفهم أسرار العبادات. فإذا كان العبد لا يدخل عليه حتى يستقبل بيته المحرم بوجهه، ويستر عورته، ويطهر بدنه وثيابه، وموضع مقامه بين يديه. ثم يخلص له النية. فهكذا الدخول عليه وقت اللقاء، لا يحصل إلا بأن يستقبل ربه بقلبه كله. ويستر عورته الباطنة بلباس التقوى. ويطهر قلبه وروحه وجوارحه من أدناسها الظاهرة والباطنة. ويطهر لله طهراً كاملاً. ويتأهب للدخول أكمل تأهب. وأوقات الصلاة نظير وقت الموافاة.

فإذا تأهب العبد قبل الوقت: جاءه الوقت وهو متأهب. فيدخل على الله. وإذا فرط في التأهب: خيف عليه من خروج الوقت قبل التأهب. إذ هجوم وقت الموافاة مُصَيِّق لا يقبل

التوسعة. فلا يمكن العبد من التطهر والتأهب عند هبوب الوقت. بل يقال له: هيات، فات مافات، وقد بعثت بينك وبين التطهر المسافات. فمن شام ريق الوعيد بقصر الأمل: لم يزل على طهارة.

وأما «ترهيدة في الخلق على القرب» وإن كانوا أقاربه أو مناسبيه، أو مجاوريه وملاصقيه، أو معاشريه ومخالطيه: فلكمال حذره، واستعداده واشتغاله بما أمامه، وملاحظة الوعيد من أفق ذلك البارق الذي ليس بخُلْب، بل هو أصدق بارق.

• ألوان طيف اللطف

ثم يتوهج من جانب اللطف في عين الافتقار فينشئ سحاب السرور. ومطر مطر الطرب. ويجرى من نهر الافتخار.

فهو يلسم من أفق ملاطفة الرب تعالى لعبده بأنواع الملاطفات. ومطلع هذا البرق: في عين الافتقار، الذي هو باب السلوك إلى الله تعالى، والضريق الأعظم الذي لا يدخل عليه إلا منه. وكل طريق سواه ففسدود. ومع هذا فلا يصل العبد منه إلا بالمتابعة فلا طريق إلى الله البتة أبداً — ولو تَمَتَّى المتنبون، وتَمَتَّى التمنون — إلا الافتقار، ومتابعة الرسول فقط. فلا يتعب السالك نفسه في غير هذه الطريق. فإنه على غير شيء. وهو صيد الوحش والسياع.

وهذا السلوك، باستشعار الافتقار، من شأنه أن ينشئ للعبد سروراً خاصاً وفرحاً يرب به لأعده له بمشله، ولا نظير له في الدنيا، حتى لكأنه في نفحة من نفحات الجنة. فإذا نشأ له ذلك: طرب باطنه وسيره لما ورد عليه من عند وليه، وإذا اشتد ذلك الطرب جرى به نهر الافتخار.

فمنه: افتخار على الشيطان. وهذه غيلة معدة، طرباً وافتخاراً عليه. فإن الله لا يكره ذلك. ولهذا يجب المختال بين الصفين عند الحرب، لما في ذلك من مراغمة أعدائه، وعجب الخلاء عند الصدقة — كما جاء ذلك مصرحاً به في الحديث — لسرّ عجيب، يعرفه أولو الصدقات والبذل من نفوسهم عند ارتياحهم للمطاء، وابتهاجهم به، واختياهم على النفس الشحيحة الأمانة بالخل. وعلى الشيطان المزين لها ذلك. فهذا الافتخار من تمام العبودية.

ومنه شعوره بأنه حرٌّ بالافتخار بما تَمَيَّز به عن أبناء جنسه بما خصه الله به وإن لم يفتخر به ولم يظهره، أبقاء على عبوديته وافتقاره..

وسر ذلك: أن العبد إذا لاحظ ما هو فيه من الألفاف، وشهده من عين المنة، والوجود: شهد مع ذلك فقره إليه في كل لحظة، وعدم استغنائه عنه طرفة عين. فكان ذلك من أعظم أبواب الشكر، وأسباب المزيد، وتوالى النعم عليه. وكلما توالى عليه النعم: أنشأت في قلبه سحائب

السرور. وإذا انبسطت هذه السحاب في سماء قلبه، وامتلاً بها أفقه: أمطرت عليه وابل الطرب بما هو فيه من لذيذ السرور. فإن لم يصبه وابل فقل. وحيث يجرى على لسانه وظاهره نهر الافتخار من غير عجب ولا فخر، بل فرحاً بفضل الله ورحمته، كما قال تعالى (١٠: ٥٨ قل: بفضل الله وبرحمته، فبذلك فليفرحوا) فالافتخار على ظاهره، والافتقار والانكسار في باطنه، ولا ينافي أحدهما الآخر.

وتأمل قول النبي صلى الله عليه وسلم «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» فكيف أخبر بفضل الله ومنته عليه. وأخبر أن ذلك لم يصدر منه افتخاراً به على من دونه، ولكن إظهاراً لنعمة الله عليه، وإعلاماً للأمة بقدر إمامهم ومتبوعهم عند الله، وعلو منزلته لديه. لتعرف الأمة نعمة الله عليه وعليهم.

ويشبه هذا قول يوسف الصديق للعزير (١٢: ٥٥ اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم) فإخباره عن نفسه بذلك، لما كان متضمناً لمصلحة تعود على العزيز وعلى الأمة، وعلى نفسه: كان حسناً. إذ لم يقصد به الفخر عليهم، فمصدر الكلمة والحامل عليها يحسنها. ويهجنها. وصورته واحدة.

(٥٤) مَنْزِلَةُ الذُّوقِ

ومنها منزلة «الذوق»

و «الذوق» مباشرة الحاسة الظاهرة والباطنة للملائم والمنافر. ولا يختص ذلك بحاسة الفم في لغة القرآن، بل ولا في لغة العرب. قال الله تعالى (٣: ١٨١) وذوقوا عذاب الحريق) وقال (٣: ١٠٦) فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) وقال تعالى (٣٨: ٥٧) هذا فليذوقوه حليم وَعَسَاقٍ) وقال (١٦: ١١٢) فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ). فتأمل كيف جمع بين الذوق واللباس، ليدل على مباشرة المذوق وإحاطته وشموله. فأفاد الإخبار عن إذاقته: أنه واقع مباشر غير منتظر. فإن الخوف قد يتوقع ولا يباشر، وأناد الإخبار عن لباسه: أنه محيط شامل كاللباس للبدن.

وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم «ذاق طعم الإيمان: من رضى بالله ربا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد — صلى الله عليه وسلم — رسولا» فأخبر: أن للإيمان طعماً، وأن القلب يذوقه كما يذوق الفم طعم الطعام والشراب.

وقد عبر النبي صلى الله عليه وسلم عن إدراك حقيقة الإيمان، والإحسان، وحصوله للقلب ومباشرته له: بالذوق تارة، وبالطعام والشراب تارة، وبوجود الخلاوة تارة، كما قال «ذاق طعم الإيمان» وقال «ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله. ومن كان يكره أن يرجع في الكفر — بعد إذ أنقذه الله منه — كما يكره أن يلقى في النار» .

ولما نهاهم عن الوصال قالوا «إناك تواصل، قال: إني لست كهيتكم، إني أطعمم ومُسَقَى» وفي لفظ «إني أظلل عند ربي يطعمني ويسقيني» وفي لفظ «إني لى مُظْمِئاً يطعمني، وساقياً يسقيني»

وقد غلظ حجاب من ظن أن هذا طعام وشراب جسدى للفم. ولو كان كما ظنه هذا الظان: لم كان صائماً، فضلاً عن أن يكون مواصلاً. ولما سح جوابه بقوله «إني لست كهيتكم» فدحجاب بالفرق بينه وبينهم. ولو كان يأكل ويشرب بفيه الكريم حساً، لكان الجواب أن يقول: وأنا لست أواصل أيضاً. فلما أقرهم على قولهم «إناك تواصل» علم أنه صلى الله عليه

وسلم كان يمسك عن الطعام والشراب، ويكتفى بذلك النضام والشراب العالى الروحاني، الذى يعنى عن الطعام والشراب المشترك الحسى.

وهذا الذوق هو الذى استدل به هرقل على صحة النبوة؛ حيث قال لأبى سفيان «فهل يرتد أحد منهم سخطه لدينه؟ فقال: لا. قال: وكذلك الإيمان، إذا خالطت حلاوته بشاشة القلوب».

فاستدل بما يحصل لأتباعه من ذوق الإيمان — الذى خالطت بشاشته القلوب: لم يسخطه ذلك القلب أبداً — على أنه دعوة نبوة ورسالة، لا دعوى ملك ورياسة.

والمقصود: أن ذوق حلاوة الإيمان والإحسان، أمر يجده القلب. تكون نسبتة إليه كنسبة ذوق حلاوة الطعام إلى الفم.

فللإيمان طعم وحلاوة يتعلق بهما ذوق ووجد. ولا تزول الشبه والشكوك عن القلب إلا إذا وصل العبد إلى هذه الحال. فبأشهر الإيمان قلبه حقيقة المباشر. فيذوق طعمه ويجد حلاوته.

وليس المراد بوجد حلاوة الإيمان: الوجد الذى هو غيب القلب. فإن ذلك مصدر وجد بالشيء ووجد، وإنما هو من الوجود الذى هو الثبوت. فمصدر هذا الفعل: الوجود والوجدان، فوجد الشيء يجده وجدانا؛ إذا حصل له وثبت. كما يجد الفائد الشيء الذى بعد منه. ومنه قوله تعالى «٢٤: ٣٩ — ٩ ألم يجدك يتيما فآوى • ووجدك عائلا فأغنى؟ وقوله (٣٨: ٤٤) إنا وجدناه صابرا) فهذا كله من الوجود والثبوت. وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم «وجد بهن حلاوة الإيمان».

• هي الأعمال لا الآمال

وأول ما يذوقه العابد: أن يذوق قلبه — بالتصديق — طعم العدة، فلا يعقله ظن، ولا يقطعه أمل، ولا تعمقه أمنية.

فإن العبد المصدق إذا ذاق طعم الوعد من الله على إيمانه وتصديقه وطاعته: ثبت على حكم الوعد واستقام.

ولا يعقله ظن، أى لم يجبه ظن، تقول: عقلت فلانا عن كذا، أى منعت عنه وصددته، ومنه عقال البعير، لأنه يجبه عن الشرود. ومنه: العقل. لأنه يجبس صاحبه عن فعل مالا يحسن ولا يجمل. ومنه: عقلت الكلام، وعقلت معناه: إذا حبسته في صدرك، وحصلته في قلبك، بعد أن لم يكن حاصلا عندك. ومنه: العقل للدية. لأنها تمتع أخذها من العدوان على الجاني وعصيته.

والمقصود: أن ذوق طعم الإيمان بعد الله يمتع الذائق أن يحبه ظن عن الجلد في الطلب،
والسير إلى ربه. و «الظن» هو الوقوف عن الجزم بصحة الوعد والوعيد، بحيث لا يترجح عنده
جانب التصديق.

فالذائق بالتصديق طعم الوعد، لا يعارضه ظن يعقله عن صدق الطلب، وبحسب عزيمته عن
الجلد فيه. وفي حديث «سيد الاستغفار» قوله «وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت» أي
مقيم على التصديق بوعدك، وعلى القيام بعهدك، بحسب استطاعتي.

والحامل على هذه الإقامة والثبات: ذوق طعم الإيمان، ومباشرة للقلب. ولو كان الإيمان
مجازاً — لا حقيقة — لم يثبت القلب على حكم الوعد، والوفاء بالعهد. ولا يفيد في هذا المقام إلا
ذوق طعم الإيمان.

وكان بعض الصحابة يكثر التلبية في إحرامه، ثم يقول «لبيك. لو كان رياء لأضجل»
وقد نفى الله تعالى الإيمان عمن ادعاه. وليس له فيه ذوق. فقال تعالى (٤٩: ١٤) قالت
الأعراب: آمنا، قل: لم تؤمنوا، ولكن قولوا أسلمنا. ولما يدخل الإيمان في قلوبكم
فهؤلاء مسلمون، وليسوا بمؤمنين. لأنهم ليسوا بمن باشر الإيمان قلبه، فذاق حلاوته وطعمه. وهذا
حال أكثر المنتسبين إلى الإسلام. وليس هؤلاء كفاراً. فإنه سبحانه أثبت لهم الإسلام بقوله
(ولكن قولوا أسلمنا) ولم يرد: قولوا بألستكم، من غير مواطاة القلب. فإنه فرق بين قولهم
«آمنا» وقولهم «أسلمنا» ولكن لما لم يذوقوا طعم الإيمان، قال «لم تؤمنوا» ووعدهم سبحانه
وتعالى — مع ذلك — على طاعتهم أن لا ينقصهم من أجور أعمالهم شيئاً.

ثم ذكر أهل الإيمان الذين ذاقوا طعمه وهم الذين آمنوا به وبرسوله. ثم لم يرتابوا في
إيمانهم. وإنما انتفى عنهم الريب: لأن الإيمان قد باشر قلوبهم. وخالطتها بشاشته. فلم يبق
للريب فيه موضع. وضد ذلك الذوق: بذلهم أحب شيء إليه في رضا ربهم تعالى. وهو
أموالهم وأنفسهم. ومن الممتنع: حصول هذا البذل من غير ذوق طعم الإيمان، ووجود حلاوته.
فإن ذلك إنما يحصل بصدق الذوق والوجد. كما قال الحسن «ليس الإيمان بالتمنى، ولا
بالتحل، ولكن ما وقر في القلب، وصدقه العمل».

فالذوق والوجد: أمر باطن، والعمل دليل عليه ومصدق له. كما أن الريب والشك
والنفاق: أمر باطن. والعمل دليل عليه ومصدق له. فالأعمال ثمرات العلوم والعقائد. فاليقين:
يشتر الجهاد، ومقامات الإحسان. فعلى حسب قوته تكون ثمرته ونتيجته. والريب والشك: يشتر
الأعمال المناسبة له. وبالله التوفيق.

ومن علامات الذوق: أن لا يقطع صاحبه عن طلبه: أمل دنيا، وضع في غرض من أغراضها.
فإن الأمل والطمع يقطعان طريق القلب في سيره إلى مطلوبه.

ليس أن لا يكون له أمل، بل: «لا يقطعه أمل» فإن الأمل إذا قام به ولم يقطعه: لم يضره، عوق سيره بعض التعويق. وإنما البلاء في الأمل القاطع للقلب عن سيره إلى الله. وعند فقهاء القلوب: أن كل ما سوى الله، إرادته: أمل قاطع، كائنًا ما كان. فمن كان أملاً، ومنتهى طلبة: ليس من أهل ذوق الإيمان، فإنه من ذاق حلاوة معرفة الله والقرب بالأنس به: لم يكن له أمل في غيره. وإن تعلق أمله بسواه، فهو لإعاقته على مرضاته ومحابه. فهو يؤمله لأجله، لا يؤمله معه.

فإن قلت: فما الذي يقطع به العبد هذا الأمل؟

قلت: قوة رغبته في المطلب الأعلى، الذي ليس شيء أعلى منه. ومعرفة بخسة ما يؤمل دونه، وسرعة ذهابه. فيوشك انقطاعه. وأنه في الحقيقة كخيال طيف، أو سحابة صيف. فهو ظل زائل، ونجم قد تدلّى للغروب. فهو عن قريب أقل. قال النبي صلى الله عليه وسلم «مالي وللدنيا بما؟ إنما أنا كراكب قال في ظل شجرة ثم راح وتركها» وقال «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يذخُلُ أحدكم إصبه في اليم، فلينظر: بم ترجع؟» فشب الدنيا في جنب الآخرة بما يعلق على الإصبع من البلل حين تفتس في البحر.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه «لو أن الدنيا من أولها إلى آخرها أوتيتها رجل، ثم جاءه الموت: لكان بمنزلة من رأى في منامه ما يسره. ثم استيقظ فإذا ليس في يده شيء».

وقال مطرف بن عبد الله — أو غيره — «نعيم الدنيا بحذاقيها في جنب نعيم الآخرة: أقل من ذرة في جنب جبال الدنيا».

ومن حقائق عين بصيرته في الدنيا والآخرة: علم أن الأمر كذلك.

فكيف يليق بصحيح العقل والمعرفة: أن يقطعه أمل من هذا الجزء الحقير عن نعيم لا يزول، ولا يضمحل؟ فضلاً عن أن يقطعه عن طلب من نسبة هذا النعيم الدائم إلى نعيم معرفته وعجبه، والأنس به، والفرح بقربه، كنسبة نعيم الدنيا إلى نعيم الجنة؟ قال الله تعالى (٩: ٧٢) وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن، ورضوان من الله أكبر فيسير من رضوانه — ولا يقال له يسير — أكبر من الجنات وما فيها.

وفي حديث الرؤية «فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إلى وجهه» وفي حديث آخر «إنهم إذا رأوه — سبحانه — لم يلتفتوا إلى شيء مما هم فيه من النعيم، حتى ينواري عنهم».

فمن قطعه عن هذا أمل، فقد فاز بالحرمان. ورضى لنفسه بغاية الخسران، والله المستعان. وعليه التكلان. وما شاء الله كان.

وكذلك لا تعوقه أمنية، وهي: ما يتمناه العبد من الحفظ، وجمعها أمانى. والفرق بينها وبين «الأمل» أن الأمل يتعلق بما يرجى وجوده. والأمنية: قد تتعلق بما لا يرجى حصوله. كما يتمنى العاجز المراتب العالية.

والأمانى الباطلة: هي رؤوس أموال المغاليس. بها يقطعون أوقاتهم، ويلتذون بها، كالنذاز من زال عقله بالمسكر، أو بالخيالات الباطلة.

وفي الحديث المرفوع «الْكَيْسُ مَنْ ذَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ اتَّبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِي».

ولا يرضى بالأمانى عن الحقائق إلا ذوو النفوس الدنيئة الساقطة. كما قيل:

واتركه مَتَى النفس. لا تحسبه يشبعها إن المتى رأس أموال المغاليس

وأمنية الرجل تدل على علو همته وخستها.

• القلب الموزع: يضطرب ويفزع

ثم يدوق بالارادة طعم الأنس. فلا يعلق به شاغل. ولا يفسده عارض. ولا تكدره بفرقة. و «الإرادة» وصف المريد. والفرق بين هذه الدرجة والتي قبلها: أن الأولى وصف حال العابد الذى ذاق بتصديقه طعم وعد الرب عز وجل، فجدَّ في العبادة. وأعمال البر، لثقتة بالوعد عليها. وصاحب هذه الدرجة: ذاق إرادته طعم الأنس. فهى حال المريد.

والأنس به سبحانه أعلى من الأنس بما يرجوه العابد من نعيم الجنة. فإذا ذاق المريد طعم الأنس جدَّ في إرادته. واجتهد في حفظ أنسه، وتحصيل لأسباب المقوية له.

فيعود لا يعلق به شاغل، أى لا يتعلق به شيء يشغله عن سلوكه وسيره إلى الله، لشدة طلب التباحث عليه أنسه، الذى قد ذاق طعمه، وتلذذ بحلواته.

والأنس بالله: حالة وجدانية وهى من مقامات الإحسان، تقوى بثلاثة أشياء: دوام الذكر، وصدق المحبة، وإحسان العمل.

وقوة الأنس وضعفه: على حسب قوة القرب. فكما كان القلب من ربه أقرب، كان أنسه أقوى. وكلما كان منه أبعد، كانت الوحشة بينه وبين ربه أشد، ولذلك يفسده العارض.

والعارض المفسد: هو الذى يمدل المحب، ويومه على النشاط فى رضا محبوبه وطاعته، ويدعوه إلى الالتفات إليه، والوقوف معه دون مطلبه العالى. فهو كالذى يخبيء غرضاً يمنع المار فى طريقه عن المرور، ويلفته عن جهة مقصده إلى غيرها.

وكل ما سوى الله فهو عارض. وإرادة السوى: توقف السالك، وتنكس الطالب، وتعجب
الواصل. فإيّاك وإرادة السوى وإن علا. فإنك تعجب عن الله بقدر إرادتك لغيره. قال تعالى
إخباراً عن عباده المقربين (٧٦: ٩) إِنَّمَا نَطَعُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ. لا نريد منكم جزاء ولا
شكراً وقال تعالى (٦: ٥٢) ولا نظرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه
وقال تعالى (٩٢: ١٩، ٢٠) وما لأحد عنده من نعمة تجزى. إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى).

أما أنه لا تكدره تفرقة، فلأن التفرقة ضد الجمعية، والجمعية: هي جمع القلب والهمة على الله
بالخضوع معه بحال الأنس، خالياً من تفرقة الخواطر. و«التفرقة» من أعظم مكدرات القلب.
وهي تزيل الصفاء الذي أثمره له الإسلام والإيمان والإحسان. فإن القلب يصفو بذلك. فتجيب
التفرقة. فتكدر عليه ذلك الصفاء، وتشتت القلب. فيجد الصادق ألم ذلك الشمت وأذاه.
فيجتهد في له، ولا يُلْمُ شمتُ القلوب بشيء غير الإقبال على الله والإعراض عما سواه. فهناك
يلم شمس، ويزول كدره، ويصح سفره. ويمجد روح الحياة، ويزوق طعم الحياة الملكية، وتذوق
هته طعم الجمع.

وذلك إنما هو أثر تحلي معاني الاسماء الحسنى على قلب العبد، فترتفع حجب الغفلة والشك
والاعراض، ويتم استيلاء سلطان المعرفة على القلب.

فهو في هذه الدرجة مستغرق في شهود الاسماء والصفات، وقد استولى على قلبه نور الإيمان
بها ومعرفتها، ودوام ذكرها، والنظر إلى الواحد الفرد، الأول الذي ليس قبله شيء، الآخر الذي
ليس بعده شيء، الظاهر الذي ليس فوقه شيء، الباطن الذي ليس دونه شيء. سبق كل شيء
بأوليته. وبقى بعد كل شيء بآخريته. وعلا فوق كل شيء بظهوره. وأحاط بكل شيء ببطونه.
وهذا موضع غلط فيه طائفتان من الناس:

أحدهما: غَلَّتْ فيه، حتى قدمت الجمعية عند حصولها على الفرائض والسنن، ورأت نزولها
عنها إلى القيام بالأوامر انحطاطاً من الأعلى إلى الأدنى. حتى قيل لبعض من زعم أنه ذاق
ذلك: قم إلى الصلاة، فقال:

يُطَالَبُ بالأوامر من كان غافلاً فكيف يقلب كل أوقاته ورد؟

وهؤلاء بين كافر وناقص.

فمن لم ير القيام بالفرائض — إذا حصلت له الجمعية — فهو كافر، منسلخ من الدين. ومن
عطل لها مصلحة راجحة — كالسنن الرواتب، والعلم النافع، والجهاد، والأمر بالمعروف،
والنهي عن المنكر، والنفع العظيم المتعدى — فهو ناقص.
والطائفة الثانية: لا تعباً بالجمعية، ولا تعمل عليها. ولعلها لا تدري ما مسماها ولا
حقيقتها.

وطريقة الأنبياء، أهل الاستقامة: القيام بالجمعية في التفرقة ما أمكن. فيقوم أحدهم بالعبادات، ونفع الخلق، والإحسان إليهم، مع جمعيته على الله. فإن ضعف عن اجتماع الأمرين، وضاق عن ذلك: قام بالفرائض. ونزل عن الجمعية. ولم يلتفت إليها، إذا كان لا يقدر على تحصيلها إلا بتعطيل الفرض: فإن ربه سبحانه يريد منه أداء فرائضه. ونفسه تريد الجمعية، لما فيها من الراحة واللذة، والتخلص من ألم التفرقة وشعثها. فالفرائض حق ربه. والجمعية حفظه هو.

بل الواقع: أن الصلاة صلة العبد بربه، ليرفع إليه فيها حاجاته في دنياه وآخرته وهي قرعة عين المؤمن. كما كانت قرعة عين رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي البون على كل أمرهم. وكذلك الصيام: إنما هو حصن من أقوى أسباب الوقاية بما يريه ربه، حال كونه معه: بقوة العزيمة والإرادة الصادقة، والبصيرة النيرة، التي يكون بها المؤمن في وقاية من كل ما يخاف في أولاه وأخراه. وكل الطاعات المفروضة: إنما هي كذلك، أسباب لعبادته ووقايته من كل ما يخاف في أولاه قبل آخره. وكل شأن الإنسان في أهله، أو مسجده، أو مزرعته، أو مئنته، أو ميدان حربه: فإنما هو حظيره في الأولى قبل الأخرى. وهو به يسلم شأنه ويستسلم به لربه خلقاً وشرعاً. فتكون كل حركاته وسكناته في مطعمه وملبسه ومشربه، ونامته ويقظته: عبادة بتدليل وحسب صادقين. ونخطوات يسى بها حثياً إلى لقاء الله والمصير إليه، راضياً مرضياً في قبره وما بعده. فيسمى بها حثياً ليكون من عباد الرحمن. وهذا كان شأن الرسول صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا به. واتباعوا النبي الذي أنزل معه. ثم لما دخل الدخيل وأدخل أباطيله وبدعه الخرافية، وزخرف حسنها شياطين الإنس والجن: تغير الناس. فتغيرت الأعمال والموجبات، وصاروا يعتقدون أن الذكر: أن يجلس في خلوة ليعبد مئات لا إله إلا الله. أو ليصل ألف ركعة، أو ليقرا ألف ختمة في غفلة غافلة. وأشاء هذا مما يجعل العبادات أشكالا وصورا وتشيلا. بخلاف ما كان سبه الصحابة رضى الله عنهم. كما قال ابن مسعود رضى الله عنه «ما كنا نجاوز الآية حفظاً حتى نتقنها عملاً» أو كما قال.

فالمعبودية الصحيحة: توجب عليه تقديم أحد الأمرين على الآخر. فإذا جاء إلى النوافل، وتعارض عنده الأمران: فمنهم من يرجح الجمعية.

ومنهم من يرجح النوافل، ومنهم من يؤثر هذا في وقت وهذا في وقت. والتحقيق — إن شاء الله — أن تلك النوافل إن كانت مصلحتها أرجح من الجمعية، ولا تعوضه الجمعية عنها: اشتغل بها، ولو فانت الجمعية، كالدعوة إلى الله، وتعليم العلم النافع، وقيام وسط الليل، والذكر أول الليل وآخره، وقراءة القرآن بالتدبير، ونفل الجهاد، والإحسان إلى المضطر، وإغاثة الملهوف. ونحو ذلك. فهذا كله مصلحته أرجح من مصلحة الجمعية. وإن كانت مصلحته دون الجمعية — كصلاة الضحى، وزيارة الإخوان، والفعل لحضور الجنائز، وعيادة المرضى، وإجابة الدعوات، وضيافة الإخوان ونحو ذلك — فهذا فيه تفصيل.

فإن قويت جميعته فظهر تأثيرها فيه: فهي أولى له، وأنفع من ذلك. وإن ضمنت الجمعية، وقوى إخلاصه في هذه الأعمال: فهي أنفع له، وأفضل من الجمعية. والمعول عليه في ذلك كله: إثبات أحب الأمرين إلى الرب تعالى. وذلك يعرف بنفع العمل وثمرته، من زيادة الإيمان به، وترتب الغايات الحميدة عليه، وكثرة موافقة الرسول صلى الله عليه وسلم عليه، وشدة اعتناؤه به، وكثرة الوصية به، وإخباره: أن الله يحب قاعله. ويأهى به الملائكة. ونحو ذلك. ونكتة المسألة وحرفها: أن الصادق في طلبه يؤثر مرضاة ربه على حظه. فإن كان رضا الله في القيام بذلك العمل، وحظه في الجمعية: خلى الجمعية تذهب. وقام بما فيه رضا الله. ومتى علم الله من قبله: أن تردده وتوقفه — ليعلم: — أي الأمرين أحب إلى الله وأرضى له — أنشأ له من ذلك التوقف والتردد حالة شريفة فاضلة، حتى لو قدم المفضل — لظنه أنه الأحب إلى الله — ردت تلك النية والإرادة عليه ما ذهب عليه وفاته من زيادة العمل الآخر. وبالله التوفيق.

و «الجمع» شهود الفردانية التي تغنى فيها رسوم المشاهد، وهذا جمع في الربوبية. وأعلى منه: الجمع في الألوهية وهو جمع قلبه وهمه وسره على محبوبه ومراضيه ومراده منه. فهو عكوف القلب بكلية على الله عز وجل. لا يلتفت عنه يثمة ولا يسرة. فإذا ذاق المهمة طعم هذا الجمع: اتصل اشتياق صاحبا، وتأججت نيران المحبة والطلب في قلبه. ومجد صبره عن محبوبه من أعظم كبرائه. كما قيل:

والصبر يحمد في المواطن كلها إلا عليك فإنه لا يحمد

فله همة نفس قطعت جميع الأكوان، وسارت فما ألقت عصي السير إلا بين يدي الرحمن. تبارك وتعالى، فوجدت بين يديه سجدة الشكر على الوصول إليه. فلم تزل ساجدة حتى قيل لها (٨٩: ٢٧، ٢٨) يا أيتها النفس المطمئنة، ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي).

فسبحان من فاوت بين الخلق في مهمهم، حتى ترى بين المهمتين أبعد مما بين المشرقين والمغربين. بل أبعد مما بين أسفل سافلين وأعلى عليين. وتلك مواهب العزيز الحكيم (٥٧: ٢١ و ٦٢: ٤) ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. والله ذو الفضل العظيم).

وهكذا يجد بهذين الجمعين لذة غامرة عند مناجاة ربه، وأنسا به، وقربا منه، حتى يصير كأنه يخاطبه ويسامره، ويعتذر إليه تارة، ويتملقه تارة، ويثنى عليه تارة، حتى يبقى القلب ناطقاً بقوله «أنت الله الذي لا إله إلا أنت» من غير تكلف له بذلك. بل يبقى هذا حالا له ومقاما، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه». وهكذا

مخاطبته ومتاجاته له، كأنه بين يدي ربه، فيسكن جاشه، ويطمئن قلبه، فيزداد لهجاً بالدعاء والسؤال، تذللًا لله الغني سبحانه؛ وإظهاراً لفقر العبودية بين يدي عز الربوبية، فإن الرب سبحانه يحب من عبده أن يسأله ويرغب إليه. لأن وصول بره وإحسانه إليه موقوف على سؤاله. بل هو المتفضل به ابتداء بلا سبب من العبد، ولا توسط سؤاله وطلبه. بل قدّر له ذلك الفضل بلا سبب من العبد، ثم أمره بسؤاله والطلب منه، إظهاراً لمرتبة العبودية والفقر والحاجة، واعترافاً بعز الربوبية. وكمال غنى الرب، وتفرده بالفضل والإحسان، وأن العبد لا غنى له عن فضله طرفة عين، فيأتي بالطلب والسؤال إتياناً من يعلم: أنه لا يستحق بطلبه وسؤاله شيئاً. ولكن ربه تعالى يحب أن يسأل، ويرغب إليه، ويطلب منه. كما قال تعالى (٤٠: ٦٠) وقال ربكم ادعوني أستجب لكم) وقال تعالى (٢: ١٨٦) وإذا سألك عبادي عني إني قريب. أجيب دعوة الداع إذا دعان. فليستجيبوا لي، وليؤمنوا بآيهم لعلهم يترشدون) وقال (٤: ٣١) واسألوا الله من فضله) وقال (٢٥: ٧٧) قل ما يعبا بكم ربي لولا دعاؤكم) وقال (٧: ٥٥) ادعوا ربكم تضرعاً وخفية) وقال (٧: ٥٦) وادعوه خوفاً وطمعاً).

وقال النبي صلى الله عليه وسلم «ليسأل أحدكم ربه كل شيء، حتى يشع نعله إذا انقطع فإنه إن لم يسره لم يتسر» وقال «من لم يسأل الله يغضب عليه» وروى الترمذي عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «سألوا الله من فضله. فإن الله يحب أن يسأل من فضله. » وقال «إن لربكم في أيام ذهركم تفحات. فتعرضوا لتفحاته. واسألوا الله أن يستر عوراتكم، ويؤمن روعاتكم» وقال «ما من داع يدعو الله بدعوة إلا آتاه بها أحد ثلاث: إما أن يعجل له حاجته، وإما أن يعطيه من الخير مثلاً، وإما أن يصرف عنه من الشر مثلاً. قالوا: إذا نكثت يا رسول الله؟ قال: قاله أكثر» وقال «ليس شيء أكرم على الله من الدعاء».

وقال تعالى — في الحديث القدسي فيما روى عن أبي ذر رضى الله عنه — عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «يا عبادي، كلكم جائع إلا من أطعته. فاستطعموني أقيمكم. يا عبادي، كلكم عار إلا من كسوته. فاستكسوني أكسكم. يا عبادي، كلكم ضال إلا من هديته. فاستهدوني أهدكم. يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار. وأنا أغفر الذنوب جميعاً. ولا أباي. فاستغفروني. أغفر لكم» وقال صلى الله عليه وسلم «وأما السجود: فاجتهدوا فيه في الدعاء، فقمم أن يستجاب لكم».

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه «إني لا أحمل هم الإجابة. ولكن أحمل هم الدعاء. فإذا ألهمت الدعاء علمت أن الإجابة معه».

وفي هذا يقول القائل:

لو لم تُرَدِّ بَدَل ما أَرْجُو وأُطْلِبُه من يُجِدُ كُنْكَ ما عودتني الطلِبا
والله سبحانه وتعالى يحب تَذَلُّل عبيده بين يديه، وسؤالهم إياه، وطلبهم حوائجهم منه،
وشكواهم إليه، وعيادهم به منه، وفرارهم عنه إليه. كما قيل:
قالوا: أَتَشْكُرُ إليه من ما ليس يَنْفَعِي عليه؟
فقلت: ربي يَرْضَى من دُون العبيد لديه

• نَفَرَح بِاللَّهِ تَعَالَى، وَنَدْعُوهُ التَّثَنُّيْتُ

فإذا تم هذا الذل للعبد، تم له العلم بأن فضل ربه سبق له ابتداء قبل أن يخلقه، مع علم
الله سبحانه به وبتقصيره، وأن الله تعالى لم يمنعه علمه بتقصير عبده أن يقدر له الفضل
والإحسان.

فإذا شاهد العبد ذلك: اشتد سروره بربه، ومواقع فضله وإحسانه. وهذا فرح محمود غير
مذموم. قال الله تعالى (١٠: ٥٨) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا. هو خير مما
يجمعون) فضله: الإسلام والإيمان، ورحمته: العلم والقرآن. وهو يحب من عبده: أن يفرح بذلك
و يُتَرَبَّه. بل يحب من عبده: أن يفرح بالحسنة إذا عملها وأن يسرها. وهو في الحقيقة فرح العبد
بفضل الله حيث وقته الله لها، وأمانته عليها ويسرها له. ففي الحقيقة: إنما يفرح العبد بفضل
الله وبرحمته.

ومن أعظم مقامات الإيمان: الفرح بالله، والسرور به، فيفرح به سبحانه رباً، وإلهاً،
ومنصاً ومربياً.

ولكن العاقل اللبيب يجمع إلى هذا السرور حذراً من مكر الله تعالى، فإن السرور يسط
النفوس وينميها. ويشيها عيوبها وآفاتنا ونقائصها. إذ لو شهدت وأبصرته لشغلها ذلك عن
الفرح.

وأيضاً فإن الفرح بالنعمة قد ينسيه للنعم. فيشتغل بالخلعة التي خلعها عليه عنه. فيقطع
عليه السرور، حتى يغيب بنعمته عنه. وهنا يكون المكر إليه أقرب من اليد للثم.

ولله كم هاهنا من مُشْتَرَدٍّ منه ما يُؤْهِب له عزة وحكمة! وربما كان ذلك رحمة به. إذ لو
استمر على تلك الولاية لحيف عليه من الطغيان. كما قال تعالى (٩٦: ٦) كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ
لَيَظْلِمُ نَفْسَهُ: أن رآه استغنى، فإذا كان هذا يغنى بالحطام الفاني، فكيف بالفنى بما هو أعل من
ذلك وأكثر؟

و «المكر» الذى يخاف عليه منه: أن يُقَيَّب الله سبحانه عنه شهود أوليته في ذلك ومنته وفضله، وأنه محض منته عليه، وأنه به وحده، ومنه وحده. فيغيب عن شهود حقيقة قوله تعالى (١٦: ٥٣ وما يكتم من نعمه فمن الله) وقوله (٣: ١٥٤ قل: إن الأمر كله لله) وقوله (١٠: ١٠٧ وإن يحسبك الله بضراً فلا كاشف له إلا هو. وإن يردك بغبر فلا راد لفصله، يصيب به من يشاء من عباده. وهو الغفور الرحيم) وقوله (٢٨: ٨٦ وما كنت ترجوا أن يلقى إليك الكتاب إلا رجةً من ربك) وقوله (٢٤: ٢١ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً. ولكن الله يزكى من يشاء) وأمثال ذلك. فيغيب عن شهود ذلك. ويحيله على معرفته في كسبه وطلبه. فيحيله على نفسه التي لها الفقر بالذات، ويحجب عن الجلالة على الملأ التوفى الذى له الغنى التام كله بالذات فهذا من أعظم أسباب المكر. والله المستعان. ولو بلغ العبد من الطاعة ما بلغ، فلا ينبغي له أن يفارقه هذا الحذر. وقد خافه خيار خلقه، وصغوته من عباده. قال شعيب صلى الله عليه وسلم، وقد قال له قومه (٧: ٨٨، ٨٩) لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا، أو لنعودن في ملتنا. قال: أولو كنا كارهين؟ قد افترينا على الله كذباً إن غشنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها — إلى قوله — على الله توكلنا) فرد الأمر إلى مشيئة الله تعالى وعلمه، أديا مع الله، ومعرفة بحق الربوبية، ووقفاً مع حد العبودية. وكذلك قال إبراهيم صلى الله عليه وسلم لقومه — وقد خوفوه بأنهم — فقال (٦: ٨٠) ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً. ومع ربي كل شيء علماً) فرد الأمر إلى مشيئة الله وعلمه. وقد قال تعالى (٧: ٩٩) أفأمنوا مكر الله؟ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرين).

وقد اختلف السلف: هل يكره أن يقول العبد في دعائه اللهم لا تؤثمني مكره؟ فكان بعض السلف يدعو بذلك. ومراده: لا تخذلني، حتى آمن مكره ولا أخافه؛ وكرهه مطرف بن عبد الله بن الشخير.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الوهاب عن إسحاق عن مطرف: أنه كان يكره أن يقول: اللهم لا تنسني ذكرك، ولا تؤمنني مكره. ولكن أقول اللهم لا تنسني ذكرك، وأعوذ بك أن آمن مكره، حتى تكون أنت تؤمنني.

وبالجملة: فمن أحيل على نفسه فقد مكر به.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد — مولى بنى هاشم — حدثنا الصلت بن طريف المصلي حدثنا غيلان بن جرير عن مطرف قال: وجدت هذا الإنسان ملقى بين الله عز وجل وبين الشيطان. فإن يعلم الله تعالى في قلبه بخيراً: يجتهد إليه. وإن لم يعلم فيه خيراً: وكله إلى نفسه. ومن وكله إلى نفسه هلك.

وقال جعفر بن سليمان حدثنا ثابت عن مطرف قال: لو أخرج قلبي فجعل في يدي هذه في اليسار. ووجه بالخير فجعل في هذه اليمنى. ثم قرئت من الأخرى ما استطعت أن أولج في قلبي شيئاً حتى يكون الله عز وجل يرضه.

ومما يدل على أن الفرح من أسباب المكروء، ما لم يقارنه خوف: قوله تعالى (٦: ٤٤) فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء. حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة. فإذا هم مبسوثون) وقال قوم قارون له (٢٨: ٧٦) لا تفرح. إن الله لا يحب الفرحين) فالفرح متى كان بالله، ومما قرئ الله به، مقارناً للخوف والحذر: لم يضر صاحبه، ومتى خلا عن ذلك: ضره ولا بد.

والذي يساعد على تصفية سروره من شوائب الطغيان: أن يبالغ في الشكر، ويكثر منه، مع تيقنه أنه لن يوفي شكره حقه مهما شكر، فإن شكر العبد لربه: نعمة من الله أنعم بها عليه. فهي تستدعي شكراً آخر عليها. وذلك الشكر نعمة أيضاً. فيستدعي شكراً ثالثاً. وهكذا. فلا سبيل إلى القيام بشكر الرب على الحقيقة. ولا يشكره على الحقيقة سواء. فإنه هو المنعم بالنعمة وبشكرها. فهو الشكر لنفسه، وإن سمي عبده شكراً. فصدحة الشكر في الحقيقة: راجعة إليه، وموقوفة عليه. فهو الشاكر لنفسه بما أنعم على عبده. فما شكره في الحقيقة سواء.

والشكر هو صفة الرب جل جلاله وقطعه. فإنه سمي نفسه بالشكور، كما قال تعالى (٤: ١٤٦) وكان الله شاكراً عليمًا) وقال أهل الجنة (٣٥: ٣٤) إن ربنا لغفور شكور). فإذا لاحظ العبد سبق الفضل من الله: علم أنه سبحانه إنما فعل ذلك لمحبه للشكر، فإنه تعالى يحب أن يشكر، كما قال موسى صلى الله عليه وسلم «يا رب، هلا ساويت بين عبادك؟ قال: اني أحب ان أشكر».

وإذا كان يحب الشكر فهو أولى أن يتصف به، كما أنه سبحانه وتر، يحب الوتر، جميل يحب الجمال، محسن يحب الحسنيين، صبور يحب الصابرين، عفوي يحب العفو، قوي والمؤمن القوى أحب إليه من المؤمن الضعيف. فكذاك هو شكور يحب الشاكرين. فملاحظة العبد سبق الفضل تشهد صفة الشكر. وتبعه على القيام بفعل الشكر.

• ذكريات الابتداء تميدك إلى الشكر بعد الفتن

فإذا نسي السالك نفسه، وفرح فرحاً لا يقارنه خوف، فليرجع بذكرياته إلى بدايات سلوكه، وحده طلبه، حتى أن يعود إلى سابق ما كان منه من السير الخشيث الذي كانت تسوقه الخشية، فيترك الفتن الذي لا بد أن ينتج عن السقوط.

فَتَحَلَّلْ الفترات للسالكين: أمر لازم لا بد منه. فمن كانت فترته إلى مقاربة وتسديد، ولم تخرجه من فرض، ولم تدخله في محرم: رجب له أن يعود خيراً مما كان.
قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه «إن لهذه القلوب إقبالا وإدبارا. فإذا أقبلت فخذوها بالنوافل. وإن أدبرت فألزموها الفرائض».
وفي هذه الفترات والغيوم والحجب، التي تعرض للسالكين: من الحكم ما لا يعلم تفصيله إلا الله. وبها يتبين الصادق من الكاذب.

فالكاذب: ينقلب على عقبيه. ويعود إلى رسوم طبيعته وهواه.
والصادق: ينتظر الفرج ولا ييأس من روح الله. ويلقى نفسه بالباب طريحاً ذليلاً مسكيناً مستكيناً، كالإناء الفارغ الذي لا شيء فيه البتة، ينتظر أن يضع فيه مالك الإناء وصانعه ما يصلح له، لا بسبب من البعد — وإن كان هذا الافتقار من أعظم الأسباب — لكن ليس هو منك. بل هو الذي تمّ عليك به. وجردك منك. وأخلاك عنك. وهو الذي (أ: ٢٤) يحول بين المرء وقلبه :

فإذا رأيته قد أقامك في هذا المقام، فاعلم. أنه يريد أن يرحك. وبالأثناء فإن وضعت القلب في غير هذا الموضع فاعلم أنه قلب مضيع. فسل ربه وقرّ هوبين أصابعه: أن يرده عليك. ويجمع شملك به.

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم «إن لكل عامل شرة. ولكل شرة فترة».
فالطالب الجاد: لا بد أن تعرض له فترة. فيشتاق في تلك الفترة إلى حاله وقت الطلب والاجتهاد.

وربما كانت للسالك بداية ذات نشاط، كان فيها عالي المهمة، فيفيده عند فتوره ان يرجع الى ذكريات تلك البداية، فتتجدد له العزيمة، ويعود الى دأبه في الشكر.
وكان الجنيد رحمه الله كثير الذكر لبداية سيره، وكان اذا ذكرها يقول: واشوقه الى اوقات البداية!

يعني: لذة اوقات البداية، وجمع المهمة على الطلب، والسير الى الله، والاعراض عن الخلق.
وهكذا تكون للمؤمن الشاكر الصادق بدايات عديدة مباركة، لبداية واحدة، ويكون وقته عامراً مليئاً كله، لكل حين ما يناسبه، حتى ان التوفيق لكل عمل ينويه يأتيه في الوقت الذي هو أليق له، وعند اشتداد الحاجة اليه.

وذلك لأن الشيء إذا وقع في وقته الذي هو أليق الأوقات بوقوعه فيه: كان أحسن وأنفع وأجدى. كما إذا وقع الغيث في أحوج الأوقات إليه. وكما إذا وقع الفرج في وقته الذي يليق به.

ومن تأمل أقدار الرب تعالى، وجريانها في الخلق: علم أنها واقعة في أليق الأوقات بها. وقد استشهد المروي لذلك بقول الله تعالى (٢٠: ٤٠) جثت على قدريا موسى). ووجه واستشهاده بالآية: أن الله سبحانه قدّر مجيء موسى أحوج ما كان الوقت إليه. فإن العرب تقول: جاء فلان على قدر. إذا جاء وقت الحاجة إليه. قال جرير:

نال الخلافة إذ كانت على قدر كما أتى ربه موسى على قدر

فثبت الله سبحانه موسى: أحوج ما كان الناس إلى بعثته. وبعث عيسى كذلك. وبتت محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين: أحوج ما كان أهل الأرض إلى إرساله. فهكذا وقت المبعث مع الله يعمره بأنفع الأشياء له: أحوج ما كان إلى عمارته. وإذا أراد الله بعبده خيراً: أعانه بالوقت، وجعل وقته مساعداً له وإذا أراد به شراً: جعل وقته عليه، وناكذه وقته، فكلما أراد التائب للسير: لم يساعده الوقت، والاول: كلما همت نفسه بالقعود: أقامه الوقت وساعده.

● الرجاء الصافي يريك ما تأنس به

فإذا اقترن الصفاء بالشكر: صار الوقت وقت ونعيم صادق، غير متكلف له، ولا متمعل في تحصيله، ومنحه هذا الوجد: الأسى بما يرى من فضل الله تعالى عليه.

قال الله تعالى (٢٨: ٢٩) فلما قضى موسى الاجل وسار باهله أنس من جانب الطور نارا، قال لاهله: امكنوا، اني آنست نار.

فليس هو مجرد الرؤية، بل رؤية ما يأنس به القلب ويسكن اليه. ولا يقال لمن رأى عدوه أو مخوفاً: آنسه.

والمقصود: أن هذا الوقت وقت وجد، صاحبه صادق فيه لرؤيته ضياء فضل الله ومته عليه. و«الفضل» هو العطاء الذي لا يستحقه المعطى، أو يعطى فوق استحقاقه. فإذا آنس هذا الفضل، وطالعه بقلبه: أثار ذلك فيه وجداً آخر، باعثاً على محبة صاحب الفضل، والشوق إلى لقاءه، فإن النفوس مجبولة على حب من أحسن إليها.

ودخلت على بعض أصحابنا، وقد حصل له وجد أبكاه. فسأته عنه؟ فقال: ذكرت ما من الله به عليّ من السنة ومرفعتها، والتخلص من شبه القوم، أي أهل البدع، وقواعدهم الباطلة، وموافقة العقل الصحيح، والقطرة السليمة، لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم. فسرني ذلك حتى أبكاني.

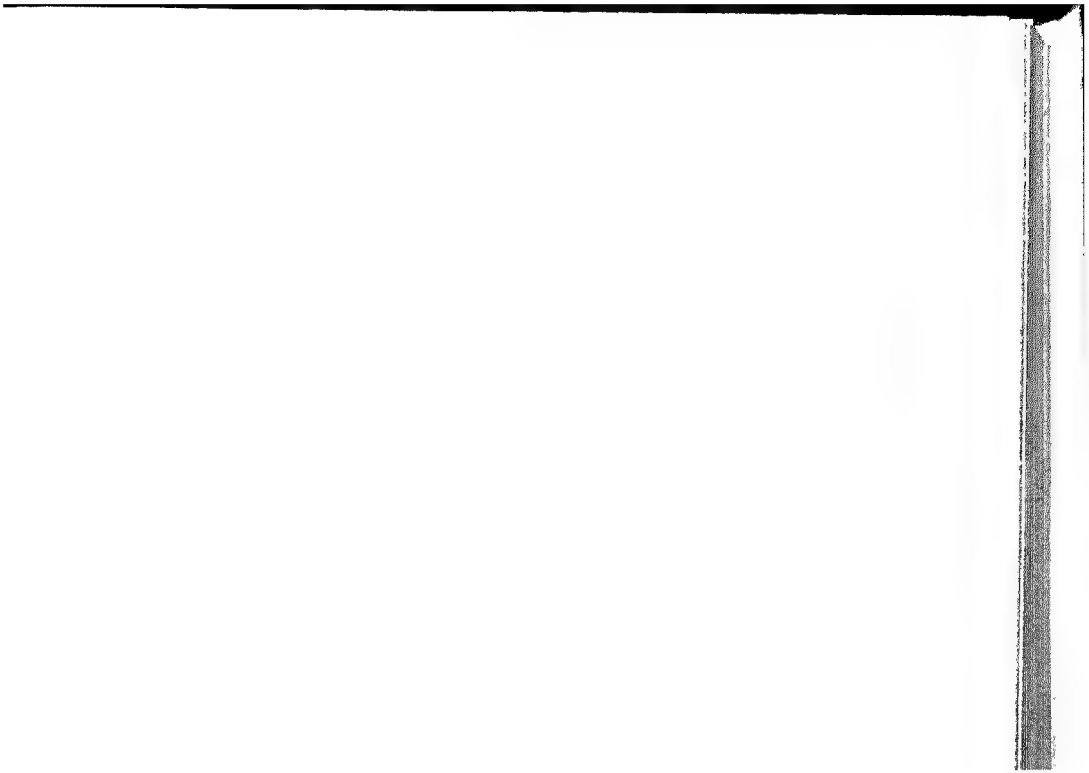
فهذا الوجد أثاره إيتان فضل الله ومته.

وهذا الوجد، أو الايناس، أو الفضل، انما يجذبه رجاء صاف غير مكدر، مقترن بشكر، والرجاء الصافي هو الذي لا يشوبه كدر توهم معاوضة منك، بل يكون رجاء عاضاً لمن هو مستهلك بالنعم من غير استحقاقك، والفضل كله له ومنه، وفي يده اسبابه وغاياته ولا يستطيع العبد ان ينال شيئاً بدون توفيقه وإذنه ومشيئته سبحانه وتعالى .

وبالمقابل، فان هناك من الوجد ما يبعث عليه صدق السالك في الخوف من الله تعالى، فالاول سببه الرجاء، وهذا سببه الخشية.

او تجذبه المحبة ايضاً، فان المحبة متى قويت: اشتعلت نارها في القلب، فحدث عنها طيب الاشتياق الى لقاء الحبيب.

وهذه الثلاثة: الحب، والخوف، والرجاء: هي التي تيمت على عمارة الوقت بما هو الأول لصاحبه والأنتفع له، وهي أساس السلوك، والسير إلى الله. وقد جمع الله سبحانه الثلاثة في قوله (١٧: ٥٧) أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة، أيهم أقرب. ويرجون رحمته. ويخافون عذابه. إن عذاب ربك كان محذورا) وهذه الثلاثة هي قطب رحى العبودية. وعليها دارت رحى الأعمال. والله أعلم.



﴿٥٥﴾ مَنَزِلَةُ الصَّفَاءِ

ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين: «منزلة الصفاء».

قال الله عز وجل (٣٨: ٤٧) وإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفِينَ الْإِخْيَارِ.

و «الصفا» اسم للبراءة من الكدر.

وجه الاستشهاد بالآية: أن «المصطفى» مفتعل من الصفوة. وهى خلاصة الشيء (تصفيته مما يشوبه: ومنه: اصطفى الشيء لنفسه. أى خلصه من شوب شركة غيره له فيه. ومنه «المُصَفَّى» وهو السهم الذى كان يصطفيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه من الغنيمة. ومنه: الشيء الصافي. وهو الخالص من كدر غيره.

● رخصة مرور... شرطها التجريد

واساسه: صفاء علم يُهْدَبُ لسلوك الطريق، ويصحح همة القاصد.

وهذا العلم الصافي هو العلم الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكان الجنيد يقول دائماً: علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة. فمن لم يحفظ القرآن ويكتب

الحديث، ولم يتفقه: لا يقتدى به.

وكان يقول: علمنا هذا متشبك بخديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال أبو سليمان الداراني: إنه لتربقلى النكتة من نُكَّتِ القوم. فلا أقبلها إلا بشاهدى

عادل، من الكتاب والسنة. وقال النصر ابادى: أصل هذا المذهب: ملازمة الكتاب والسنة.

وترك الأهواء والبدع، والاقتداء بالسلف، وترك ما أحدثه الآخرون. والإقامة على ما سلكه

الأولون.

فهذا العلم الصافي، المشتق من مشكاة الوحي والنبوة: يهذب صاحبه لسلوك طريق

المعبودية. وحقيقتها: التأدب بأدب رسول الله صلى الله عليه وسلم باطنياً وظاهراً. وتحكيمه

باطناً وظاهراً. والوقوف معه حيث وقف بك. والمسير معه حيث سار بك.

فلا تخالفه البتة، ولكن اجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم لك إماماً وقُدوةً وحكماً، فتجيبه إذا دعاك، وتقف معه إذا استوقفك، وتسير إذا سارك، وتقبل إذا قال، وتنزل إذا نزل. وتغضب لغضبه. وترضى لرضاه. وإذا أخبرك عن شيء أنزلته منزلة ما تراه بعينك. وإذا أخبرك عن الله بغير أنزلته منزلة ما تسمعه من الله بأذنك.

وبالجملة: فتجعل الرسول معلمك ومربيك ومؤدبك. وتسقط الوسائط بينك وبينه إلا في التبليغ. كما تسقط الوسائط بينك وبين الميراث في العبودية. ولا تثبت وساطة إلا في وصول أمره ونهيه ورسالته إليك.

وهذان التجريدان: هما شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله. والله وحده هو المعبود المألوه، الذي لا يستحق العبادة سواه، ورسوله: المطاع المتبع، المهتدى به، الذي لا يستحق الطاعة سواه. ومن سواه: فإنما يطاع إذا أمر الرسول ببطاعته. فيطاع تبعاً للأصل. فالعلم الحاصل بالشواهد والأدلة: هو العلم الحقيقي. وأما ما يدعى حصوله بغير شاهد ولا دليل: فلا وثوق به. وليس بعلم. نعم قد يقوى العلم الحاصل بالشواهد ويتزايد، بحيث يصير المعلوم كالمشهود، والغائب كالماضي، وعلم اليقين كمين اليقين. فيكون الأمر شعوراً أولاً. ثم تجويزاً، ثم ظناً، ثم علماً. ثم معرفة. ثم علم يقين. ثم حق يقين. ثم عين يقين. ثم تضمحل كل مرتبة في التي فوقها، بحيث يصير الحكم لها دونها. فهذا حق.

وأما دعوى وقوع نوع من العلم بغير سبب من الاستدلال: فليس بصحيح. فإن الله سبحانه ربط التعريفات بأسبابها، كما ربط الكائنات بأسبابها. ولا يحصل لبشر علم إلا بدليل يده عليه. وقد أيد الله سبحانه رسله بأنواع الأدلة والبراهين التي دللتهم على أن ما جاءهم من عند الله. ودلت أهمهم على ذلك. وكان معهم أعظم الأدلة والبراهين على أن ما جاءهم هو من عند الله. وكانت براهينهم أدلة وشواهد لهم وللأمم. فالأدلة والشواهد التي كانت لهم، ومعهم أعظم الشواهد والأدلة. والله تعالى شهد بتصديقهم بما أقام عليه من الشواهد. فكل علم لا يستند إلى دليل فدعوى لا دليل عليها، وحكم لا برهان عند قائله. وما كان كذلك لم يكن علماً.

وفائدة هذا التقرير تظهر في فهم حقيقة «العلم اللدني» الذي يدعي البعض أن الله يقذفه في قلوبهم الهاماً بلا سبب منهم ولا استدلال، فنحن نقول أن العلم اللدني: ما قام الدليل الصحيح عليه: أنه جاء من عند الله على لسان رسوله. وما عداه فلدني من لدن نفس الإنسان. منه بدأ وإليه يعود. وقد انبثق سد العلم اللدني، ورخص سره. حتى ادعت كل طائفة أن علمهم لدني. وصار من تكلم في حقائق الإيمان والسلوك وباب الأسماء والصفات بما يستحق له، ويلقيه شيطانه في قلبه: يزعم أن علمه لدني.

وقد صدق هؤلاء وكذبوا، فإن «اللذني» منسوب إلى «لذن» بمعنى «عند» فكانهم قالوا: العلم العتدى، ولكن الشأن فيمن هذا العلم من عنده ومن لذنه. وقد ذم الله تعالى بأبلغ الذم من ينسب إليه ما ليس من عنده، كما قال تعالى (٣: ٧٥) ويقولون: هو من عند الله، وما هو من عند الله، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) وقال تعالى (٢: ٧٩) فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم، ثم يقولون هذا من عند الله) وقال تعالى (٦: ٩٣) ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب، أو قال: أوحى إلي، ولم يوح إليه شيء) فكل من قال:

هذا العلم من عند الله — وهو كاذب في هذه النسبة — فله نصيب وأقر من هذا الذم. وهذا في انقتران كثير. يذم الله سبحانه من أضاف إليه ما لا علم له به، ومن قال عليه ما لا يعلم. ولهذا رتب سبحانه المحرمات أربع مراتب. وجعل أشدها: القول عليه بلا علم. فجعله آخر مراتب المحرمات التي لا تباح بحال. بل هي محرمة في كل ملة، وعلى لسان كل رسول. فالقاتل «إن هذا علمه لذني» لما لا يعلم أنه من عند الله، ولا قام عليه برهان من الله أنه من عنده: كاذب مفتر على ربه. وهو من أظلم الظالمين، وأكذب الكاذبين.

فالطريق مسدودة إلا على من اقتفى آثار الرسول صلى الله عليه وسلم، واعتدى به في ظاهره وباطنه.

فلا يتعن السالك على غير هذا الطريق. فليس حفظه من سلوكه إلا التمسب، وأعماله (٢٤: ٣٩) كسراب بقيمة يحسبه الظلمان ماء. حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده. فوفاه حسابه. والله سريع الحساب).

ولا يتعن السالك على هذا الطريق. فإنه واصل ولوزحف زحفاً. فأنياح الرسول صلى الله عليه وسلم: إذا قعدت بهم أعمالهم، قامت بهم عزائمهم وقصصهم ومتابعتهم لنبيهم. كما قيل:

من لي بمثل سيرك المدلل تمشى رويداً ونحى في الأول
والمنحرفون عن طريقه، إذا قامت بهم أعمالهم واجتهاداتهم: قعد بهم عدولهم عن طريقه.

بل الأعمال والاجتهادات على غير هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنها هي أعمال جاهلية، مهما سماها عاملوها بأسماء إسلامية. كما كان أهل الجاهلية يسمون أعمالهم الجاهلية: إبراهيمية، وحنيفية. فلن تقوم الأعمال الجاهلية بماملها إلا نكوصاً على الأعقاب، وانكباباً على الوجوه بمضى وبكم وصمم وغداوة لله ورسوله، وموالاة للشيطان قال الله (٢٥: ٢٣) وقدمنا إلى ما عملوا من عمل، فجعلناه هباءً منثوراً).

• هم الفلك السامي

وهذا الصفاء العلمي يصحح همه القاصد، ومتى صحت المهمة علت وارتفعت. فإن سقوطها ودناءتها من علتها وسقمها، وإلا فهي كالتار تطلب الصعود والارتفاع مالم تمنع.

وأعلى المهيم: همه اتصلت بالحق سبحانه طلباً وقصداً. وأوصلت الخلق إليه دعوة ونصحاً. وهذه همه الرسل وأتباعهم. وصحتها: بتمييزها من انقسام طلبها، وانقسام مطلوبها، وانقسام طريقها. بل توحد مطلوبها بالإخلاص، وطلبها بالصدق، وطريقها بالسلوك خلف الدليل الذي نصبه الله دليلاً. لآمن نصب هو دليلاً لنفسه.

وإذا أردت أن تعرف مراتب المهيم، فانظر إلى همه ربيعة بن كعب الأسلمي رضى الله عنه — وقد قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم «سلنى» — فقال «أسألك مرافقتك في الجنة» وكان غيره يسأله ما يملأ بطنه، أو يوارى جلده.

وانظر إلى همه إبراهيم واسماعيل، فإن إبراهيم صلى الله عليه وسلم لما بلغ ما بلغ — هو وولده — في المبادرة إلى الامتثال، والعزم على إيقاع الذبح المأمور به: ألقاه الوالد على جبينه في الحال. وأخذ الشفرة. وأهوى إلى حلقه — أعرض في تلك الحال عن نفسه وولده، وفنى بأمر الله عنهما. فتوسط بحر جمع السر والقلب والمهم على الله وجاوز حد التفرقة المانعة من امتثال هذا الأمر.

قوله «فلما أسلما» أى استسلما وانقادا لأمر الله. فلم يبق هناك منازعة. لآمن الوالد ولا من الولد، بل استسلام صرف، وتسليم محض.

قوله «وثقله للجبين» أى صرعه على جبينه، وهو جانب الجبهة الذى يل الأرض عند النوم، وتلك هى هيئة ما يراد ذبحه.

وانظر إلى همه رسول الله صلى الله عليه وسلم — حين عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض — فأبأها. ومعلوم أنه لو أخذها لأنفقها في طاعة ربه تعالى. فأبت له تلك المهمة العالية: أن يتعلق منها بشيء مما سوى الله ومحابه. وعرض عليه أن يتصرف بالملك، فأبأه. واختار التصرف بالعبودية المحضة. فلا إله إلا الله، خالق هذه المهمة، وخالق نفس تحملها، وخالق هم لا تعدو هم أخس الحيوانات.

• رخصة اقامة ... شرطها النقاء

ومن الصفاء: صفاء الحال.

والحال ثمرة العلم، ولا يصفو حال إلا بصفاء العلم المشر له، وعلى حسب شوب العلم يكون شوب الحال. وإذا صفا الحال : وجد العبد حلالة المناجاة.

فهذه الدرجة تختص بصفاء الحال، كما اختصت الاولى بصفاء العلم.

فمضى صفا له جاله من الشوائب خلصت له حلالوته من مرارة الأكدار. فذاق تلك الحلالة في حال مناجاته. فلو كان الحال مشوباً مكثراً لم يجد حلالة المناجاة. والحال المستندة إلى وارد تذاق به حلالة المناجاة: هو من حضرة الأسماء والصفات، بحسب ما يصادف القلب من ظهورها وكشف معانيها.

فمن ظهر له اسم «الودود» — مثلاً — وكشف له عن معاني الاسم، ولطفه، وتعلقه بظاهر العبد وباطنه: كان الحال الحاصل له من حضرة هذا الاسم مناسباً له. فكان حال اشتغال حب وشوق، ولذة مناجاة، لا أحل منها ولا أطيّب، بحسب استغراقه في شهود معنى هذا الاسم. وحظه من أثره.

فإن «الودود» — إن كان بمعنى المودود، كما قال البخارى في صحيحه «الودود» الحبيب — واستغرق العبد في مطالعة صفات الكمال. التي تدعو العبد إلى حب الموصوف بها: أثمر له صفاء علمه بها، وصفاء حاله في تعبد به بقضاءها سروراً وبهجة.

وكذلك إن كان اسم فاعل بمعنى «الواد» وهو المحب: أثمرت له مطالعة ذلك حالاً تناسبه.

فإنه إذا شاهد بقلبه غنياً كريماً جواداً، عزيزاً قادراً، كل أحد محتاج إليه بالذات. وهو غنى بالذات عن كل ما سواه. وهو — مع ذلك — يودّ عباده ويمجهم، ويتودد إليهم بإحسانه إليهم وتفضله عليهم: — كان له من هذا الشهود حالة صافية خالصة من الشوائب.

وكذلك سائر الأسماء والصفات. فصفاء الحال بحسب صفاء المعرفة بها.



مَنْزِلَةُ الْفَرْحِ (٥٦)

ومن منازل إياك تعب: «السرور والفرح».

قال الله تعالى (٥٨: ١٠) قل: بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا. هو خير مما يجمعون).

وتصدير الباب بهذه الآية في غاية الحسن. فإن الله تعالى أمر عباده بالفرح بفضلته ورحمته. وذلك تبع للفرح والسرور بصاحب الفضل والرحمة. فإن من فرح بما يصل إليه من جواد كريم، محسن: يكون فرحه بمن أوصل ذلك إليه: أول وأخرى. ونذكر ما في هذه الآية من المعنى.

قال ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، والحسن، وغيرهم «فضل الله» الإسلام. و«رحمته» القرآن. فجعلوا «رحمته» أخص من «فضله» فإن فضله الخاص: عام على أهل الإسلام، ورحمته بتعليم كتابه لبعضهم دون بعض فجعلهم مسلمين بفضلته وأنزل إليهم كتابه برحمته. قال تعالى (٢٨: ٨٦) وما كنت تترجون أن يلقي إليك الكتاب إلا رحمة من ربك وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه «فضل الله: القرآن، ورحمته: أن جعلنا من أهله».

قلت: يريد بذلك. أن ههنا أمرين.

أحدهما: الفضل في نفسه. والثاني: استعداد المحل لقبوله، كالغيث يقع على الأرض القابلة للنبات. فيتم المقصود بالفضل، وقبول المحل له. والله أعلم.

و«الفرح» لذة تقع في القلب بإدراك المحبوب، ونيل المشتى. فيتولد من إدراكه حالة تسمى الفرح والسرور. وذكر سبحانه الأمر بالفرح بفضلته وبرحمته عقيب قوله (٥٧: ١٠) يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لكم في الصدور، وهدي ورحمة للمؤمنين.) ولا شيء أحق أن يفرح العبد به من فضل الله ورحمته، التي تتضمن الموعظة — وشفاء الصدور من أدوائها بالهدى والرحمة. فأخبر سبحانه: أن ما أتى عباده من الموعظة — التي هي الأمر والنهي، المقرون بالترغيب والترهيب، وشفاء الصدور، المتضمن لعافيتها من داء الجهل، والظلمة، والغنى، والسفاهة — وهو أشد ألماً لها من أدواء البدن، ولكنها لما ألقت هذه الأدواء لم تحس بألمها. وإنما يقوى إحساسها بها عند المفارقة للعالم. فهناك يحضرها كل مؤلم

محزن. وما آتاها من ربها الهدى الذى يتضمن ثلج الصدور باليقين، وطمأنينة القلب به، وسكون النفس إليه، وحياة الروح به. و«الرحمة» التى تجلب لها كل خير ولذة. وتدفع عنها كل شر ومؤلم.

فذلك خير من كل ما يجمع الناس من أعراض الدنيا وزينتها. أى هذا هو الذى ينبغي أن يُفرَّج به. ومن فرج به فقد فرح بأجل مفروح به. لا ما يجمع أهل الدنيا منها. فإنه ليس بموضع للفرح. لأنه عرضة للآفات، وشيك الزوال، ووخيم العاقبة. وهو طيف خيال زار العصب فى المنام. ثم انقضى المنام. وولى الطيف. وأعقب مزاره المجران.

وقد جاء «الفرح» فى القرآن على نوعين. مطلق ومقيد.

فالمطلق: جاء فى الذم. كقوله تعالى (٢٨: ٧٦) لا تفرح. إن الله لا يحب الفرحين) وقوله (١١: ١٠) إنه لفرح فخور).

والمقيد: نوعان أيضاً. مقيد بالدنيا. يُنسى صاحبه فضل الله ومته. فهو مذموم. كقوله (٦: ٤٤) حتى إذا فرحوا بما آتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبسورون).

والثانى: مقيد بفضل الله وبرحمته. وهو نوعان أيضاً. فضل ورحمة بالسبب. وفضل بالسبب. فالأول: كقوله «قل بفضل الله وبرحمته. فبذلك فليفرحوا. هو خير مما يجمعون» والثانى: كقوله (٣: ١٧٠) فرحين بما آتاهم الله من فضله).

فالفرح بالله، وبرسله، وبالإيمان، وبالسنة، وبالعلم، وبالقرآن: من أعلى مقامات العارفين. قال الله تعالى (٩: ١٢٤) وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول: أيكم زادته هذه إيماناً؟ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون).

وقال (١٣: ٣٦) والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك).

فالفرح بالعلم والإيمان والسنة: دليل على تعظيمه عند صاحبه، وعبته له، وإشارته له على غيره. فإن فرح العبد بالشئ عند حصوله له: على قدر محبته له، ورغبته فيه. فمن ليس له رغبة فى الشئ لا يفرحه حصوله له، ولا يحزنه فواته.

فالفرح تابع للمحبة والرغبة.

والفرق بينه وبين الاستبشار: أن الفرح بالمحسوب بعد حصوله، والاستبشار: يكون به قبل حصوله. إذا كان على ثقة من حصوله. ولهذا قال تعالى (٣: ١٧٠) فرحين بما آتاهم الله من فضله. ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم).

و«الفرح» صفة كمال. ولهذا يوصف الرب تعالى بأعلى أنواعه وأكملها، كفرحه بتوبة التائب أعظم من فرحه الواحد لراحته التى عليها طعامه وشرابه فى الأرض المهلكة بعد فقدته لها، واليأس من حصولها.

والمقصود: أن «الفرح» أهل أنواع نعيم القلب، ولذته و بهجته. والفرح والسرور نعيمه. والهلم والحزن عذابه. والفرح بالشئ فوق الرضى به. فإن الرضى ظمائية وسكون وانشراح. والفرح لذة و بهجة و سرور. فكل فرح راض. وليس كل راض فرحاً. ولهذا كان الفرح ضد الحزن، والرضى ضد السخط. والحزن يؤلم صاحبه. والسخط لا يؤلمه، إلا إن كان مع العجز عن الانتقام.

و «السرور» والمرّة: مصدر شرّهُ سرورا ومررة. وكان معنى شرّهُ: أثر في أسارى وجهه فإنه تبرق منه أسارى الوجه. كما قال شاعر العرب:

وإذا نظرت إلى أيسرته وجهه برقت كبرق المعارض المتهلل

وأما الاستبشار: فهو من البشرى. والبشارة: هي أول خبر صادق سار.

و «البشرى» يراد بها أمران أحدهما: بشارة المخبر. والثاني سرور المخبر. قال الله تعالى (١٠: ٦٤) لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة) فُشرت «البشرى» بهذا وهذا. ففي حديث عبادة بن الصامت وأبى الدرداء رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم «هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم، أو ترى له» .

وقال ابن عباس «بشرى الحياة الدنيا: هي عند الموت تأتيهم ملائكة الرحمة بالبشرى من الله، وفي الآخرة: عند خروج نفس المؤمن إذا خرجت يرجون بها إلى الله، تُزَفُّ كما تزف العروس، تبشر برضوان الله».

وقال الحسن: هي الجنة. واختاره الزجاج والفراء. وفسرت بشرى الدنيا بالثناء الحسن، يجري له على ألسنة الناس. وكل ذلك صحيح.

فالثناء: من البشرى. والرؤيا الصالحة من البشرى، وتبشير الملائكة له عند الموت من البشرى. والجنة من أعظم البشرى. قال الله تعالى (٢: ٢٥) وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار) وقال تعالى (٤١: ٣٠) وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون).

فيل: وسميت بذلك لأنها تؤثر في بشرة الوجه. ولذلك كانت نوعين «بشرى سارة» تؤثر فيه نصارة و بهجة «وبشرى عذبة» تؤثر فيه بسوراً وحبوساً. ولكن إذا أطلقت كانت للسرور. وإذا قيدت كانت بحسب ما تقيد به.

والله تعالى نسب الفرح إلى أحوال الدنيا في قوله تعالى «حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة» وفي قوله تعالى لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين» وقوله تعالى «إنه لفرح فخور» فإن الدنيا لا تتخلص أفرحها من أحزانها وأتراحها أبتة. بل ما من فرحة إلا ومعها فترحة سابقة، أو مقارئة، أو لاحقة. ولا تتجرد الفرحة. بل لابد من فترحة تقارنها. ولكن قد تقوى الفرحة على الحزن فيفتقر حكمه والله مع وجودها. وبالعكس.

ولقد نزل القرآن أيضاً بالفرح في أمور الآخرة في مواضع، كقوله تعالى «فرحين بما آتاهم الله من فضله» وقوله تعالى «فبذلك فليفرحوا».

وورد اسم السرور في موضعين من القرآن في أحوال الآخرة. وهما:

قوله تعالى (٨٤: ٧-٩) فأما من أوتى كتابه يمينه. فسوف يحاسب حساباً يسيراً * وينقلب إلى أهله مسروراً) والموضع الثاني: قوله (٧٦: ١١) ولقاهم نضرة وسروراً). وورد السرور في أحوال الدنيا في مواضع على وجه الظم. كقوله تعالى (٨٤: ١٠-١٣) وأما من أوتى كتابه وراء ظهره. فسوف يدعو نبوراً. ويصل سعيراً. وإنه كان في أهله مسروراً).

فقد رأيت ورود كل واحد من «الفرح» و«السرور» في القرآن بالنسبة إلى أحوال الدنيا وأحوال الآخرة.

والترجيح للفرح لأن الرب تبارك وتعالى يوصف به. ويطلق عليه اسمه، دون «السرور» فدل على أن معناه أكمل من معنى السرور، وأمر الله به في قوله تعالى «فبذلك فليفرحوا» وأثنى على السعداء به في قوله «فرحين بما آتاهم الله من فضله».

• الاتصال المطرب

وسرور قلب المؤمن انما تجلبه هزتان: الاولى: هزة سرور ذوق، يذهب بثلاثة احزان: حزن اورثه خوف الانقطاع. وحزن حاجته ظلمة الجهل. وحزن بعثته وحشة التفرق. إذ لما كان «السرور» ضد الحزن. والحزن لا يجامعه: كان مُذهياً له. ولما كان سببه: ذوق الشيء السار. فإنه كلما كان الذوق أتم: كان السرور به أكمل. وهذا السرور يذهب بثلاثة احزان:

الحزن الاول: حزن اورثه خوف الانقطاع، وهذا يحزن المتخلفين عن ركب المحييين، ووفد المحية: فأهل الانقطاع هم المتخلفون عن صحبة هذا الركب، وهذا الوفد. وهم الذين (٩: ٤٧) كره الله أنيعاثهم. فَنَبْطِهم. وقيل: اقعدا مع القاعدين) فنبط عزائمهم وضمهم: أن تسير

إليه وإلى جنته. وأمر قلوبهم أمراً كونياً. قدرياً: أن تتعد مع القاعدين المتخلفين عن السعى إلى محابه. فلو عاينث قلوبهم — حين أمرت بالعود عن مرافقة الوفد، وقد غمرتها الهوم، وعقدت عليها سحائب البلاء. فأحضرت كل حزن وغم، وأمواج القلق والحسرات تتقاذف بها، وقد غابت عنها السررات. ونابت عنها الأخزان — علمت أن الإبرار في هذه الدار في نعيم. وأن المتخلفين عن رفقتهم في جحيم.

وهذا الحزن يذهب به ذوق طعم الإيمان. فيذيق الصديق طعم الوعد الذي وعد به على لسان الرسول. فلا يعقله ظن. ولا يقطعه أمل. ولا تعوقه أمنية — كما تقدم — فيأشركه حقيقة قوله تعالى (٢٨: ٦١) أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لافيه، كمن متعناه متاع الحياة الدنيا، ثم هو يوم القيامة من المحضرين؟) وقوله تعالى (٣٥: ٥) يا أيها الناس، إن وعد الله حق. فلا تغرنكم الحياة الدنيا. ولا يغرنكم بالله الغرور) وقوله تعالى (٢٣: ٢) وقدّموا لأنفسكم. واتقوا الله. واعلموا أنكم ملاقوه، وبشر المؤمنين) وأمثال هذه الآيات.

● بشاشة العلم

والحزن الثاني، الذي يذهب سرور الذوق، هو حزن ظلمة الجهل. والجهل نوعان: جهل علم ومعرفة، وجهل عمل وقِي. وكلاهما له ظلمة ووحشة في القلب. وكما أن العلم يوجب نورا وأنسا. فضده يوجب ظلمة ويوقع وحشة. وقد سعى الله سبحانه وتعالى «العلم» الذي يبعث به رسوله نوراً، وهدى وحياة. وسمى ضده: ظلمة وموتاً وضلالاً. قال الله تعالى (٢: ٢٥٧) وَلِلَّهِ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا، يخرجهم من الظلمات إلى النور. والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت. يخرجونهم من النور إلى الظلمات) وقال تعالى (٦: ١٢٢) أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس، كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها؟) وقال تعالى (٥: ٦٥) قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام. ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه. ويهديهم إلى صراط مستقيم) وقال تعالى (٤: ١٧٤) يا أيها الناس، قد جاءكم برهان من ربكم. وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً) وقال تعالى (٧: ١٥٧) فالذين آمنوا به وعزّروه ونصره، واتبعوا النور الذي أنزل معه. أولئك هم المفلحون) وقال تعالى (٢: ٥٢) وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا. ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان. ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا) فجعله «روحاً» لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح. و«نوراً» لما يحصل به من الهدى والرشاد.

وتمثل هذا التورق قلب المؤمن (٢٤: ٣٥) كمشكاة فيها مصباح. المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دري. يوقد من شجرة مباركة زيتونة، لا شرقية ولا غربية. يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار. نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء). وتمثل جمال من فقد هذا النور: بمن هوى (ظلمات في بحر أبحى يغشاه موج، من فوقه موج، من فوقه سحب. ظلمات بعضها فوق بعض. إذا أخرج يده لم يكد يراها. ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور).

• سكبنة الاجتماع

الحزن الثالث: حزن بعثه وحشة التفرق. وهو تفرق الهم والقلب عن الله عز وجل. ولهذا التفرق حزن شيق على فوات جملة القلب على الله ولذاتها ونعيمها. فلوفرض لذات أهل الدنيا بأجمعها حاصلة لرجل، لم يكن لها نسبة إلى لذة جملة قلبه على الله، وفرحه به، وأنسه بقربه، وشوقه إلى لقائه. وهذا أمر لا يصدق به إلا من ذاته. فإنما يصدقك من أشرق فيه ما أشرق فيك والله در القائل:

أيا صاحبي، أما ترى نارهم؟ فقال: تسرىنى مالا أرى
سقاك الغرام. ولم يسقنى فأبصرت مالم أكن مبصرا

فلو لم يكن في التفرق المذكور إلا ألم الوحشة، وتكد التشتت، وغبار التشتت، لكنى به عقوبة، فكيف؟ وأقل عقوبة: أن ينزل بصحة المتقين ومعاشرتهم وخدمتهم. فتصير أوقاته — التي هي مادة حياته — ولا قيمة لها، مستغرقة في قضاء خوائجهم، ونيل أغراضهم. وهذه عقوبة قلب ذاق حلاوة الإقبال على الله، والجمعة عليه، والأنس به. ثم أثر على ذلك سواء. ورضى بطريقة بني جنسه، وماهم عليه. ومن له أدنى حياة في قلبه، ونور. فإنه يستغيث قلبه من وحشة هذا التفرق.

ففى القلب شعث، لا يلمه إلا الإقبال على الله. وفيه وحشة، لا يزيلها إلا الأنس به في خلوته.

وفيه حزن: لا يذهب إلا السرور بمعرفته. وصدق معاملته.

وفيه قلق: لا يسكنه إلا الاجتماع عليه، والقرار إليه.

وفيه نيران حشرات: لا يطفئها إلا الرضى بأمره ونهيه، وقضائه ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه.

وفيه طلب شديد: لا يقف دون أن يكون هو وحده مطلوبه.
 وفيه فاقة: لا يستعاض إلا بحبه، والإنابة إليه، ودوام ذكره، وصدق الإخلاص له. ولو أعطى
 الدنيا وما فيها لم تستأ تلك الفاقة منه أبداً.
 فالتفرق يقع وخشة الحجاب. وأله أشد من ألم العذاب، قال تعالى (٨٣: ١٥، ١٦)
 كلا. إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون * ثم إنهم لصالوا الجحيم) فاجتمع عليهم عذاب
 الحجاب. وعذاب الجحيم.
 فالحزن يتولد من مفارقة المحبوب. ليس له سبب سواه. وإن تولد من حصول مكروه، فذلك
 المكروه: إنما كان كذلك لما فات به من المحبوب. فلا حزن إذاً، ولا غم ولا غم، ولا أذى ولا
 كرب إلا في مفارقة المحبوب. ولهذا كان حزن الفقر والمرض، والألم والجهد، والغمول
 والضيق، وسوء الحال ونحو ذلك: على فراق المحبوب، من المال، والوئيد والمافية، والعلم،
 والسعة، وحسن الحال. ولهذا جعل الله سبحانه وتعالى مفارقة المشتهايات من أعظم العقوبات.
 فقال تعالى (٣٤: ٥٤) وحيل بينهم وبين ما يشتهون، كما فعل بأشياهم من قبل. إنهم
 كانوا في شك مريب) فالفرح والسرور: بالظفر بالمحبيب. والهم والغم والحزن والأسف:
 بفوات المحبوب. فأطيب العيش: عيش المحب الواصل إلى محبوبه. وأثر العيش: عيش من
 حيل بينه وبين محبوبه.

• يا قومنا: اجيبوا داعي الله

أما هزة الطرب الشانية فهي هزة سرور سماع الاجابة، وهو سرور يحو آثار الوحشة. وهو
 مقيد بكونه «سماع إجابة» فإنه السماع المنتفع به، لا مجرد سماع الإدراك. فإنه مشترك بين
 المجيب والمعرض. وبه تقوم الحجة. وينقطع العذر. ولهذا قال الله عن أصحابه (٤: ٤٥) سمعنا
 وعصينا) وقال النبي صلى الله عليه وسلم — لليهودي الذي سأله عن أمور من النيب — (يتفكك
 إن حدثتكم؟) قال: أشتم بأذني. وأما سماع الاجابة: ففي مثل قوله تعالى (٩: ٤٧) وفيكم
 سماعون لهم) أي مستجيبون لهم. وفي قوله (٥: ٤١) سماعون للكذب) أي: مستجيبون له.
 وهو المراد. وهذا المراد بقول المصلي «سمع الله لمن حمده» أي أجاب الله حمده من حمده. وهو
 السمع الذي نفاه الله عز وجل عن من لم يرد به خيراً. في قوله (٨: ٢٣) ولو علم الله فيهم خيراً
 لأسمعهم) أي لجعلهم يسمعون سمع إجابة وانقياد. وقيل: المعنى لأفهمهم. وعلى هذا يكون
 المعنى لأسمع قلوبهم فإن سماع القلب يتضمن الفهم.
 والتحقيق: أن كلا الأمرين مراد. فلو علم فيهم خيراً لأفهمهم، ولجعلهم يستجيبون لما
 سمعوه وفهموه.

والمقصود: أن «سماع الإجابة» هو سماع انتباه القلب، والروح، والجوارح، لما سمعت الأذن، وهو يزِيل بقايا الوحشة التي سببها ترك الانتباه التام. فإنه على قدر فقد ذلك: تكون الوحشة. وزوالها إنما يكون بالانتباه التام.

وقد بين الله سبيل حصول هذه المرة قال (٣٧: ٥١) إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد).

قاله سبحانه كلامه ذكرى، لا يتنفع بها إلا من جمع هذه الأمور الثلاثة.

أحدها: أن يكون له قلب حي واع. فإذا فقد هذا القلب لم يتنفع بالذكرى.

الثاني: أن يصغي بسمعه. فيمليه كله نحو المخاطب. فإن لم يفعل لم يتنفع بكلامه.

الثالث: أن يحضر قلبه وذهنه عند المكلم له. وهو «الشهيد» أى الحاضر غير الغائب. فإن

غاب قلبه، وسافر في موضع آخر: لم يتنفع بالمخاطب.

وهذا كما أن البصر لا يدرك حقيقة المرئى إلا إذا كانت له قوة مبصرة، وصدق بها نحو

المرئى. ولم يكن قلبه مشغولاً بغير ذلك. فإن فقد القوة المبصرة، أو لم يصدق نحو المرئى، أو صدق

نحوه ولكن قلبه في موضع آخر: لم يدركه. فكثيراً ما يربك إنسان أو غيره، وقلبك مشغول

بغيره. فلا تشعر بمروره. فهذا الشأن يستلزم صحة القلب وحضوره، وكمال الإصغاء.

فإذا اجتمع إلى ذلك سماع إجابة من الرب عز وجل: تم السور، فإن العبد إذا دعا ربه

فسمع ربه دعاءه سماع إجابة، وأعطاه ما سأله، على حسب مراده ومطلبه، أو أعطاه خيراً منه:

حصل له بذلك سرور يحو من قلبه آثار ما كان يجده من وحشة البعد. فإن للطاء والإجابة

سروراً وأنساً وحلاوة. وللمنع وحشة ومرارة. فإذا تكرر منه الدعاء، وتكرر من ربه سماع

إجابة لدعائه: مما عنه آثار الوحشة. ولبدله بها أنساً وحلاوة.

مَنْزِلَةُ السِّرِّ (٥٧)

ومن منازل إياك نعبد: منزلة «السِّر».

قال صاحب المنازل:

«باب السر. قال الله تعالى (١١: ٣١) الله أعلم بما في أنفسهم» أصحاب السر: هم الأخفياء، الذين ورد فيهم الخبر».

أما استشهاده بالآية، فوجهه: أن أتباع الرسل، الذين صدقوهم، وآثروا الله والدار الآخرة على قومهم وأصحابهم: قد أودع الله قلوبهم سرّاً من أسرار معرفته ومحبته، والإيمان به، خفى على أعداء الرسل. فنظروا إلى ظواهرهم. وعموا عن بواطنهم. فازدروهم واحتقروهم. وقالوا للرسول «اطرد هؤلاء عنك. حتى نأتيك ونسمع منك» وقالوا (٦: ٥٣) أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا؟ فقال نوح عليه السلام لقومه (١١: ٣١) ولا أقول لكم عندى خزائن الله، ولا أعلم الغيب، ولا أقول إني ملك، ولا أقول للذين تزدري أعينكم: لن يؤتيهم الله خيراً. الله أعلم بما في أنفسهم. إني إذا لمن الظالمين) قال الزجاج: المعنى إن كنتم تزعمون أنهم إفا اتبموننى في بادى الرأي وظاهره، فليس علىّ أن أطلع على ما في انفسهم. فاذا رأيت من يوحد الله عملت على ظاهره، ورددت علم ما في نفوسهم إلى الله. وهذا معنى حسن.

والذى يظهر من الآية: أن الله يعلم ما في أنفسهم، إذ أهّلهم لقبول دينه وتوحيده، وتصديق رسله. والله سبحانه وتعالى عليم حكيم. يضع العطاء في مواضعه. وتكون هذه الآية مثل قوله تعالى (٦: ٥٣) وكذلك فتنّا بعضهم ببعض، ليقولوا: أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا؟ أليس الله بأعلم بالشاكرين؟ فإنهم أنكروا أن يكون الله سبحانه أهّلهم للهدى والحق، وحرّقه رؤساء الكفار وأهل العزة والثروة منهم. كأنهم استدلوا بعطاء الدنيا على عطاء الآخرة. فأخبر الله سبحانه: أنه أعلم بمن يؤهله لذلك لسر عنده: من معرفة قدر النعمة، ورؤيتها من مجرد فضل المنعم، ومحبته وشكره عليها. وليس كل أحد عنده هذا السر. فلا يؤهل كل أحد لهذا لعطاء.

قوله «أصحاب السر: هم الأخفياء. الذين ورد فيهم الخبر».

قد يريد به: حديث سعد بن أبي وقاص: حيث قال له ابنه «أنت ههنا والناس يتنازعون في الإمارة؟ فقال: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن الله يحب العبد التقي الفنى الحقيقى».

وقد يريد به: قوله صلى الله عليه وسلم «رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرٍ، مدفوع بالأبواب لا يؤثته له لو أقسم على الله لأَبْه».

وهم على طبعتين: الطبقة الأولى: طائفة علت همهم، وصفت قصودهم، وصح سلوكهم، حتى سبقوا السائرين، فلم يوقف لهم على رسم، ولم يُنسبوا إلى اسم، ولم يُشر إليهم بالأصابع. أي أن لهم ثلاث صفات ثبوتية. وثلاثاً سلبية.

الأولى: «علو همهم» وعلو الهمة: أن لا تنفك ذون الله، ولا تتعرض عنه بشيء سواء. ولا ترضى بغيره بدلاً منه. ولا تتبع حظها من الله، وقربه والأنس به، والفرح والسرور والابتهاج به، بشيء من المخلوقات الخسيسة الفانية. فالهمة العالية على الهمم: كالطائر العالي على الطيور. لا يرضى بمساقلهم. ولا تصل إليه الآفات التي تصل إليهم. فإن «الهمة» كلما علت بعدت عن وصول الآفات إليها. وكلما نزلت قصدتها الآفات من كل مكان. فإن الآفات قواطع وجواذب، وهي لا تملأ إلى المكان العالي فتجذب منه. وإنما تجذب من المكان السافل. فعلمت الهمة المرء: عنوان فلاحه. وسفل همة: عنوان حرمانه.

العلامة الثانية: «صفاء القصد» وهو خلاصه من الشوائب التي تمويه عن مقصوده. فصفاء القصد: تجريده لطلب المقصود له لا لغيره. فهاتان آفتان في القصد. إحداهما: أن لا يتجرد لطلبه. الثانية: أن يطلبه لغيره لا لذاته.

ويراد به: خلوص القصد من كل زيادة تراحم مراد الرب تعالى. بل يصير القصد مجرداً لمراذه الديني الأمرى.

وعلامته: اندراج حظ العبد في حق الرب تعالى. بحيث يصير حظه هو نفس حق ربه عليه. ولا يخفى على البصير الصادق علوه هذه المنزلة.

العلامة الثالثة «صحة السلوك» وهو سلامته من الآفات والموانق والقواطع والخجب. وهو إنما يصح بثلاثة أشياء.

أحدها أن يكون على الدرب الأعظم، الدرب النبوي المحمدي، لأعلى الجواذ الوضعية، والرسوم الاصطلاحية. وأن زخرفوا لها القول، ودققوا لها الإشارة، وحسنوا لها العبارة. فتلك من بقايا النفوس عليهم وهم لا يشعرون.

الثاني: أن لا يجيب على الطريق داهي البطالة والوقوف والدعة.

الثالث: أن يكون في سلوكه ناظراً إلى المقصود. وقد تقدم بيان ذلك.

فيهذه الثلاثة يصبح السلوك. والبارة الجامعة لها: أن يكون واحداً لواحد، في طريق واحد. فلا ينقسم طلبه ولا مطلوبه. ولا يتلون مطلوبه، بل يسعى الى تخليص قصده من العلائق والعوائق، التماساً للحقائق، فينبى عن عاداته، ليقطع بذلك العلائق. وهي ما يصدق بقلبه وقالبه وحسه من المألوفات. ويسبق العوائق، حتى لا تلحقه ولا تدركه.

وهذه الغيبة إنما تكون لالتماس الحقائق. فإن «العوائق» و«العلائق» تحول بينه وبين طلبها وحصولها لمضادتها لها.

و«الحقائق» جمع حقيقة، ويراد بها: الحق تعالى وما نسب إليه. فهو الحق، وقوله الحق، ووعده الحق، ولقاؤه حق، ورسوله حق، وعبوديته وحده حق، وعبودية ما سواه الباطل. فكل شيء ما خلا الله باطل.

والمقصود: أن المريد إن لم يتخلص قصده في مطلوبه عما يعوقه من الشواغل، أو ما يدركه من المحوقات: لم يبلغ مقصوده. ولم يصل إليه، وإن وصل إليه فبعد جهد شديد ومشقة، بسبب تلك الشواغل. ولم يصل القوم إلى مطلبهم إلا بقطع العلائق، ورفض الشواغل.

وصحة السلوك لامتيت الطبيعة والنفس بالكلية، ولولا ذلك لما قام سوق الامتحان والتكليف في هذا العالم. بل قهرا بسلطان العلم والمعرفة والإيمان والمحبة. والمقهور المغلوب لا يدرك أن يتحرك أحياناً — وإن قلَّت — ولكن حركة أسير مقهور، بعد أن كانت حركته حركة أمير مملط.

فمن تمام إحسان الرب إلى عبده، وتعريفه قدر نعمته: أن أراه النفس التي كانت حاكماً عليه، قاهراً له: مقهورة مغلوبة. فحينئذ يستغيث العبد بربه ووليه، ومالك أمره كله: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، يا مصرف القلوب صرف قلبي على طاعتك.

وأيضاً فإنه يزيل من قلبه آفة الركون إلى نفسه، أو عمله أو حاله. كما قيل: إن ركنت إلى العلم: أنسيناك. وإن ركنت إلى الحال: سلبناك إياه. وإن ركنت إلى المعرفة: حجبناها عنك. وإن ركنت إلى قلبك: أفسدناه فلا يركن العبد إلى شيء سوى الله البتة. ومتى وجد من قلبه ركوناً إلى غيره: فليعلم أنه قد أحيل على مفلس، بل معدم. وأنه قد فتح له الباب مكرراً. فليحذر ولوجه.

واعلم أن كل مامتك حجاب على مطلوبك. فإن وقفت معه فأنت دون الحجاب. وإن قطعت إلى تجريد المطلوب صرت فوق الحجاب. فطلبك وإرادتك وتركك، وحالك وعملك: كله حجاب. إن وقفت معه. أو كنت إليه. وأن جاوزته إلى الذي أنت به وله. وفي يديه، وتحت تصرفه ومشيئته. وليس لك ذرة واحدة إلا به ومنه. ولم تقف مع طلبك في إرادتك: فقد صرت فوق حجاب الطلب.

ومن أعظم الضرر: حجاب القلب عن الرب. وهو أعظم عذاباً من الجحيم، قال تعالى (٨٣: ١٦ و ١٥) كلا، إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون * ثم إنهم لصالوا الجحيم). فالعارف قلبه غير محجوب، بل يعيش في نور ظفقه بإقبال قلبه على الله عز وجل، وجمع همه عليه، وفنائه بمراده عن مراد نفسه. فصار واحداً لما أكثر الخلق فاقد له. قد لبس قلبه نور ذلك الوجود، حتى قاض على لسانه وجوارحه، وحركاته وسكناته. فإن نطق علاه النور وإن سكنت علاه النور. والحجب عشرة: حجاب التطليل، ونفى حقائق الأسماء والصفات. وهو أغلظها. فلا يتنبأ لصاحب هذا الحجاب أن يعرف الله، ولا يصل إليه ألبتة إلا كما يتنبأ للحجر أن يصعد إلى فوق.

الثاني: حجاب الشرك، وهو أن يتعبد قلبه لغير الله.

الثالث: حجاب البدعة القويّة، كحجاب أهل الأهواء، والمقالات الفاسدة على اختلافها.

الرابع: حجاب البدعة العملية. كحجاب أهل السلوك المتبعين في طريقتهم وسلوكهم.

الخامس: حجاب أهل الكيائير الباطنة، كحجاب أهل الكبر والعجب والرياء والحسد، والفخر والخيلاء ونحوها.

السادس: حجاب أهل الكيائير الظاهرة، وحجابهم أرق من حجاب إخوانهم من أهل الكيائير الباطنة، مع كثرة عباداتهم، وزهاداتهم واجتهاداتهم. فكياير هؤلاء أقرب إلى التوبة من كيائير أولئك. فإنها قد صارت مقامات لهم لا يتحاشون من إظهارها وإخراجها في قوالب عبادة ومعرفة. فأهل الكيائير الظاهرة: أدنى إلى السلامة منهم. وقلوبهم خير من قلوبهم.

السابع: حجاب أهل الصفات.

الثامن: حجاب أهل الفضلات، والتوسع في المباحات.

التاسع: حجاب أهل الغفلة عن استحضار ما خلقوا له وأريد منهم، وما لله عليهم من دواء ذكره وشكره وعبوديته.

العاشر: حجاب المجتهدين السالكين، المشمرين في السير عن المقصود.

فهذه عشر حجب بين القلب وبين الله سبحانه وتعالى، تحول بينه وبين هذا الشأن، وهذا المحجب تنشأ من أربعة عناصر: عنصر النفس، وعنصر الشيطان، وعنصر الدنيا، وعنصر الهوى فلا يمكن كشف هذه المحجب مع بقاء أصولها وعناصرها في القلب ألبتة.

وهذه الأربعة العناصر: تفسد القول، والعمل، والقصد، والطريق، بحسب غلبتها وقتلتها. فتقطع طريق القول والعمل والقصد: أن يصل إلى القلب. وما وصل منه إلى القلب قطعت عليه الطريق: أن يصل إلى الرب. فبين القول والعمل وبين القلب مسافة يسافر فيها العبد إلى قلبه ليرى عجائب ما هنالك. وفي هذه المسافة قطاع الطريق المذكورون. فإن حاربهم وتخلص العمل إلى قلبه دار فيه، وطلب النفوذ من هناك إلى الله. فإنه لا يستقر دون الوصول إليه (٥٣: ٢٢) وأن إلى ربك المنتهى) فإذا وصل إلى الله سبحانه أتابه عليه مزيداً في إيمانه وبقته وعقله. وتَجَمَّلَ به ظاهره وباطنه. فهداه به لأحسن الأخلاق والأعمال. وصرف عنه به سيئ الأخلاق والأعمال. وأقام الله سبحانه من ذلك العمل للقلب جنداً يحارب به قطاع الطريق للوصول إليه. فيحارب الدنيا بالزهد فيها، وإخراجها من قلبه، ولا يضره أن تكون في يده وبيته، ولا يمنع ذلك من قوة يقينه بالآخرة. يحارب الشيطان بترك الاستجابة لداعي الهوى. فإن الشيطان مع الهوى لا يفارقه ويحارب الهوى بتحكيم الأمر المطلق، والوقوف معه، بحيث لا يبقى له هوى فيما يفعله ويتركه. ويحارب النفس بقوة الإخلاص.

هذا كله إذا وجد العمل منفذاً من القلب إلى الرب سبحانه وتعالى. وإن دار فيه ولم يجد منفذاً وثَبَّتَ عليه النفس، فأخذته وصيرته جنداً لها. فصالت به وعلَّتْ وطفت. فتراه أزهى ما يكون، وأعبد ما يكون، وأشدّه اجتهاداً، وهو أبعد ما يكون عن الله. وأصحاب الكبار أقرّب قلوباً إلى الله منه، وأدنى منه إلى الإخلاص والخلاص.

فانظر إلى السجادة العباد. الزاهد الذي بين عينيه أثر السجود، ذي الخوصرة التيمي الخارجي، كيف أورثه طغيان عمله: أن أنكر على النبي صلى الله عليه وسلم، وأورث أصحابه احتقار المسلمين، حتى سلوا عليهم سيوفهم، واستباحوا دماءهم. وانظر إلى الشريب الكبير. الذي كان كثيراً ما يؤتى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فيسحده على الشراب، كيف قامت به قوة إيمانه و يقينه، ومحبة لله ورسوله، وتواضعه وانكساره لله. حتى نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن لعنته، وهو عياض بن جمار رضي الله عنه. فظهر بهذا: أن طغيان المعاصي أسلم عاقبة من طغيان الطاعات.

وأما الصفات الثلاث السلبية للطبقة الأولى من أصحاب البير، فأولها: سبقهم السائرين، بحيث لم يوقف لهم على رسم، فأنهم — لملوهمهم — قد سبقوا الناس فلم يبقوا معهم، فهم المقردون السابقون. فلسبقهم لم يوقف لهم على أثر في الطريق. ولم يعلم المتأخر عنهم أين سلكوا؟ والمشمع بعدهم: قد يرى آثار نيرانهم على بعد عظيم. كما يرى الكوكب، ويستخير بمن رأيهم: أين رأيهم؟ فحاله كما قيل:

أسائل عنكم كل غاد ورائع . وأومئ إلى أوطانكم، وأسلم

العلامة الثانية: انهم لم ينسوا إلى أسم، أى لم يشتهروا باسم يعرفون به عند الناس من الأسماء التى صارت أعلاماً لأهل الطريق.

وأيضاً، فإنهم لم يتقيدوا بعمل واحد، ويمرّ عليهم اسمه. فيعرفون به دون غيره من الأعمال. فإن هذا آفة في العبودية. وهى عبودية مقيدة. وأما العبودية المطلقة: فلا يعرف صاحبها باسم معين من معاني أسمائها. فإنه مجيب لداعيها على اختلاف أنواعها. فله مع كل أهل عبودية نصيب يضرب معهم بهم. فلا يتقيد برسم ولا إشارة، ولا اسم ولا بزي، ولا طريق وضعى اصطلاحى. بل إن سئل عن شيخه؟ قال: الرسول. وعن طريقه؟ قال: الأتباع. وعن خرقته؟ قال لباس التقوى. وعن مذهبه؟ قال: تحكيم السنة. وعن مقصوده ومطلبه؟ قال (٥٢: ٦) يريدون وجهه) وعن رباطه؟ قال (٣٦: ٢٤) في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه. يسبح له فيها بالقنود والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة) وعن نسيه؟ قال:

أبى الإسلام. لا أب لى سواه إذا افتخروا بقبس أو تميم

والعلامة الثالثة: أنهم — لحفا لهم عن الناس — لم يعرفوا بينهم، حتى يشيروا اليهم بالأصابع. أولئك ذخائر الله حيث كانوا، إذ انهم لما كانوا مستورين عن الناس بأسبابهم، غير مشار اليهم، ولا متميزين برسم دون الناس، ولا متميزين إلى اسم طريق، أو مذهب، أو شيخ: كانوا بمنزلة الذخائر الخبوة. وهؤلاء أبعد الخلق عن الآفات. فإن الآفات كلها تحت الرسوم والتقيد بها. ولزوم الطرق الاصطلاحية، والأوضاع المتداولة الحادثة. هذه هى التى قطعت أكثر الخلق عن الله، وهم لا يشعرون. والعجب أن أهلها: هم المعروفون بالطلب والآرادة، والسير إلى الله. وهم — إلا الواحد بعد الواحد — المقطوعون عن الله بتلك الرسوم والقيود.

وقد سئل بعض الأئمة عن السنة؟ فقال: ما لا اسم له سوى «السنة».

يعنى: أن أهل السنة ليس لهم اسم ينسبون إليه سواها.

فمن الناس: من يتقيد بلباس لا يلبس غيره. أو بالجلوس في مكان لا يجلس في غيره، أو مشية لا يمشي غيرها، أو بزي وهينة لا يخرج عنهما، أو عبادة معينة لا يتعبد بغيرها. وإن كانت أعلى منها، أو شيخ معين لا يلتفت إلى غيره. وإن كان أقرب إلى الله ورسوله منه. فهؤلاء كلهم محجوبون عن الظفر بالمطلوب الأعلى، معدودون عنه. قد قيدتهم العوائد والرسوم، والأوضاع والأصلاحات عن تجريد المتابعة. فأضحوا عنها بمنزل، ومنزلتهم منها أبعد منزل. فترى أحدهم يتعبد بالرياضة والحلوة، وتفرغ القلب. ويعد العلم قاطعاً له عن الطريق. فإذا ذكر له الموالاة

في الله، والمعاداة فيه، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر: عَدَ ذلك فضولاً وشرّاً. وإذا رأوا
بينهم من يقوم بذلك: اخرجوه من بينهم. وعدوه غيّراً عليهم. فهؤلاء أبعد الناس عن الله. وإن
كانوا أكثر إشارة. والله أعلم.

• اصحاب السر الأعظم

الطبقة الثانية: طائفة أشاروا عن منزل، وهم في غيره. وَوَرَّوا بأمر، وهم لغيره. ونادوا على
شأن، وهم على غيره. فهم بين غيرة عليهم تسترهم. وأدب فيهم يصونهم. وظرف فيهم
أهل هذه الطبقة استسروا اختياراً وإرادة لذلك، صيانة لأحوالهم، وكمالاً في تمكنهم.
فمقاماتهم عالية. لا ترمقها العيون. ولا تحالطها الظنون. يشيرون إلى ما يعرفه المخاطب من
مقامات المريدين السالكين، وبدايات السلوك. ويخفون ما تكتنهم فيه الحق سبحانه وتعالى، من
أحوال المحبة ومواجهتها، وآثار المعرفة وتوحيدها. فهذه هي «التورية»
فكأنهم يظهرون للمخاطب: أنهم من أهل البدايات. وهم في أعلى المقامات. يتكلمون
معهم في البداية والإرادة والسلوك، ومقامهم فوق ذلك. وهم محقون في الحالتين. لكنهم يسترون
أشرف أحوالهم ومقاماتهم عن الناس.

وبالجملة: فهم مع الناس بظواهرهم. يخاطبونهم على قدر عقولهم، ولا يخاطبونهم بما لا تصل
إليه عقولهم، فيفكرون عليهم. فيحسبهم المخاطب مثله. فالتناس عندهم. وليسوا هم عند أحد.
يشيرون إلى منزل «التوبة» و«المحاسبة»، وهم في منزل «المحبة» و«الوجد» و«الذوق».
والتورية: أن يذكر لفظاً يفهم به المخاطب معنى، وهو يريد غيره. مثاله: أن يقول أحدهم:
أنا غنى. فيوهم المخاطب له أنه غنى بالثيء. ومراده: غنى بالله عنه. كما قيل:

غنيت بلا مال عن الناس كلهم وإن الغنى العالي عن الشيء. لا به

فهم بين غيرة عليهم تسترهم، أي يغار الحق سبحانه عليهم، فيسترهم عن الخلق. ويغارون
على أحوالهم ومقاماتهم. فيسترون أحوالهم عن رؤية الخلق لها. وبين أدب فيهم يصونهم، وظرف
يهدئهم.

وهو أن يقوم بهم أدب يصونهم عن ظن السوء بهم، ويصونهم عن دناءة الأخلاق
والأعمال. فأدبهم صوناً على أحوالهم، فهمته العلية ترتفع به. وأدبه يرسوبه إلى التراب. كما
قيل:

أبْلَجُ سَهْلِ الْأَخْلَاقِ، مَمْتَنَعٌ يُبْرِزُهُ الدَّهْرُ. وَهُوَ يَحْتَجِبُ
إِذَا تَرَفُّتْ بِهِ عِزَائِمُهُ إِلَى الشَّرِيَا. رَسَا بِهِ الْأَدَبُ

فأدب المرید والسالك: صوان له. وتاج على رأسه.

و «الظرف» في هذه الطائفة: أحلى من كل حلوى وأزین من كل زين. فما قرن شيء إلى شيء أحسن من ظرف إلى صدق وإخلاص، ويزر مع الله وجمعية عليه. فإن أكثر من غنى بهذا الشأن تضيق نفسه وأخلاقه عن سوى ما هو بصدده. فتثقل وطأته على أهله وجليسه. ويضيق عليه يشره، والتبسط إليه، ولين الجانب له. ولعمرك إنه لمعذور، وإن لم يكن في ذلك بمشكور. فإن الخلق كلهم أغيار. إلا من أعانك على شأنك، وساعدك على مطلوبك.

فإذا تمكن العبد في حاله. وصار له إقبال على الله، وجمعية عليه — ملكة ومقاماً راسخاً — انس بالخلق وأنسوا به. وانبط إليهم وحلهم على صلعمهم وبطء سيرهم. فعكفت القلوب على محبته للطفه وظرفه. فإن الناس ينقرون من الكثيف ولويلغ في الدين ما بلغ. ولله ما يجلب اللطف والظرف من القلوب. ويدفع عن صاحبه من الشر. ويسهل له ما توغر على غيره. فليس الشقلاء بخواص الأولياء. وما ثقل أحد على قلوب الصادقين المخلصين إلا من آفة هناك. وإلا فهذه الطريق تكسو العبد حلاوة، ولطافة وظرفاً. فترى الصادق فيها: من أحلى الناس، وأطفهم وأظرفهم. قد زالت عنه ثقالة النفس، وكدورة الطبع. وصار روحانياً سمائياً، بعد أن كان حيوانياً أرضياً. فتراه أكرم الناس عشرة، وألينهم عريكة، وأطفهم قلباً وروحاً. وهذه خاصة المحبة. فإنها تطف وتظرف وتنطف.

ومن ظرف أهل هذه الطبقة: أن لا يظهر أحدهم على جليسه بحال ولا مقام. ولا يواجهه إذا لقيه بالحال. بل يلين الجانب، وخفض الجناح، وطلاقة الوجه. فيفرش له بساط الأنس ويجلسه عليه. فهو أحب إليه من القُرُش الوثيرة.

وبالجملة: فهذه الطريق لا تنافي اللطف والظرف.

لكن ههنا دقيقة قاطعة. وهي الاسترسال مع هذه الأمور. فإنها أقطع شيء للمرید والسالك. فمن استرسل معها قطعت. ومن عاداها بالكلية وُغِرت عليه طريق سلوكه. ومن استعان بها أراحته في طريقه. أو أراحته غيره به. وبالله التوفيق.

(٥٨) مَنَزِلَةُ الْغُرَبَاءِ

ومن منازل إياك نعبد منزلة «الغربة»

قال شيخ الإسلام: «(باب الغربة) قال الله تعالى (١١: ١١٦) فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض؟ إلا قليلاً ممن أنجينا منهم».

استشهاد بهذه الآية في هذا الباب: يدل على رسوخه في العلم والمعرفة، وفهم القرآن، فإن الغرباء في العالم: هم أهل هذه الصفة المذكورة في الآية. وهم الذين أشار إليهم النبي صلى الله عليه وسلم في قوله «بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ». فطوبى للغرباء. قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس» وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن زهير عن عمرو بن أبي عمرو — مولى المطلب بن حنطب — عن المطلب بن حنطب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «طوبى للغرباء. قالوا: يا رسول الله، ومن الغرباء؟ قال: الذين يزيدون إذا نقص الناس».

فإن كان هذا الحديث بهذا اللفظ محفوظاً — لم يتقلب على الراوي لفظه وهو «الذين ينقصون إذا زاد الناس» — فمعناه: الذين يزيدون خيراً وإيماناً وتقى إذا نقص الناس من ذلك. والله أعلم.

وفي حديث الأعمش عن أبي إسحاق — عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الإسلام بدأ غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ». فطوبى للغرباء. قيل: ومن الغرباء، يا رسول الله؟ قال: التُّرَاك من القبائل» وفي حديث عبد الله بن عمرو قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم — ذات يوم، ونحن عنده — «طوبى للغرباء. قيل: ومن الغرباء، يا رسول الله؟ قال: ناس صالحون قليل في ناس كثير، من بعضهم أكثر من بعضهم».

وقال أحمد: حدثنا الهيثم بن جميل حدثنا محمد بن مسلم حدثنا عثمان بن عبد الله عن سليمان بن هرم عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إن أحب شيء إلى الله الغرباء. قيل: ومن الغرباء؟ قال: الفرارون بدينهم. يجتمعون إلى عيسى ابن مريم عليه السلام يوم القيامة».

وفي حديث آخر «بدأ الإسلام غريباً. وسيعود غريباً كما بدأ. فطوبى للغرباء. قيل: ومن الغرباء، يا رسول الله؟ قال: الذين يحبون مبتغى. ويعلمونها الناس». وقال نافع عن مالك «دخل عمر بن الخطاب المسجد. فوجد معاذ بن جبل جالساً إلى بيت النبي صلى الله عليه وسلم، وهويكى. فقال له عمر: ما ييكى، يا أبا عبد الرحمن؟ هلك أخوك؟ قال: لا. ولكن حديثاً حدثني حبيبي صلى الله عليه وسلم، وأنا في هذا المسجد. فقال: ما هو؟ قال: إن الله يحب الأخفياء الأتقياء الأبرياء. الذين إذا غابوا لم يفتقدوا. وإذا حضروا لم يعرفوا. قلوبهم مصابيح الهدى. يخرجون من كل فتنة عمياء مظلمة».

فهؤلاء هم الغرباء المدعوون المغبوطون. ولقلتهم في الناس جداً: سمو «غرباء» فإن أكثر الناس على غير هذه الصفات. فأهل لإسلام في الناس غرباء. والمؤمنون في أهل الإسلام غرباء. وأهل العلم في المؤمنين غرباء، وأهل السنة - الذين يميزونها من الأهواء والبدع - فهم غرباء. والداعون إليها الصابرون على أذى المخالفين؛ هم أشد هؤلاء غربة. ولكن هؤلاء هم أهل الله حقاً. فلا غربة عليهم. وإنما غربتهم بين الأكثرين، الذين قال الله عز وجل فيهم (٦: ١١٦) «وإن تطيع أكثر من في الأرض يُضِلُّوك عن سبيل الله» فأولئك هم الغرباء من الله ورسوله ودينه. وغربتهم هي الغربة الوحشة. وإن كانوا هم المعروفين المشار إليهم. كما قيل:

فليس غريباً من تناعت دياره ولكن من تنأى عنه غريب

فالغربة: غربة أهل الله وأهل سنة رسوله بين هذا الخلق. وهي الغربة التي مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم أهلها. وأخبر عن الدين الذي جاء به: أنه «بدأ غريباً» وأنه «سيقود غريباً كما بدأ» وأن «أهله يصيرون غرباء».

وهذه الغربة قد تكون في مكان دون مكان، ووقت دون وقت، وبين قوم دون قوم. ولكن أهل هذه «الغربة» هم أهل الله حقاً. فإنهم لم يأووا إلى غير الله. ولم ينتسبوا إلى غير رسوله صلى الله عليه وسلم. ولم يدعوا إلى غير ما جاء به. وهم الذين قارقوا الناس أخرج ما كانوا إليهم. فإذا انطلق الناس يوم القيامة مع ألفتهم بقوا في مكانهم. فيقال لهم «ألا تطلقون حيث انطلق الناس؟ فيقولون: قارقنا الناس، ونحن أخرج إليهم منا اليوم. وإنما ننتظر ربنا الذي كنا نعيده».

فهذه «الغربة» لا وحشة على صاحبها. بل هو آتس ما يكون إذا استوحش الناس. وأشد ماتكون ونحشته إذا استأنسوا. فولية الله ورسوله والذين آمنوا، وإن عاداه أكثر الناس وجفوه.

ومن هؤلاء الغرباء: من ذكرهم أنس في حديثه عن النبي صلى الله عليه وسلم «رُبَّ أشعث أغبر. ذى طمرين لا يؤته له. لو أقسم على الله لأبره».

وفي حديث أبي إدريس الخولاني عن معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «ألا أخبركم عن ملوك أهل الجنة؟ قالوا: بلى، يا رسول الله. قال: كل ضعيف أغبر، ذى طمرين لا يؤته له. لو أقسم على الله لأبره» وقال الحسن: المؤمن في الدنيا كالغريب. لا يجزع من ذلها، ولا ينافس في عزها، للناس حال. وله حال. الناس منه في راحة. وهو من نفسه في تعب.

ومن صفات هؤلاء الغرباء — الذين غبطهم النبي صلى الله عليه وسلم — التمسك بالسنة، إذا رغب عنها الناس. وترك ما أحدثوه، وإن كان هو المعروف عندهم. وتجريد التوحيد. وإن أنكر ذلك أكثر الناس. وترك الانتساب إلى أحد غير الله ورسوله، بل هؤلاء الغرباء منتسبون إلى الله بالعبودية له وحده، وإلى رسوله بالاتباع لما جاء به وحده. وهؤلاء هم القابضون على الجمر حقاً. وأكثر الناس — بل كلهم — لا يَمُكُّ لهم. فلغريبتهم بين هذا الخلق: يعدونهم أهل شذوذ وبدعة، ومفارقة للسواد الأعظم.

ومعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم «هم النزاع من القبائل» أن الله سبحانه بعث رسوله، وأهل الأرض على أديان مختلفة. فهم بين عباد أوثان ونيران، وعباد صور وصلبان، ويهود وصابئة وفلاسفة. وكان الإسلام في أول ظهوره غريباً. وكان من أسلم منهم، واستجاب لله ورسوله: غريباً في حَيِّه وقبيلته. وأهله وعشيرته.

فكان المستجيبون لدعوة الإسلام نزعاً من القبائل. بل آحاداً منهم. تغربوا عن قبائلهم وعشائرتهم. ودخلوا في الإسلام. فكانوا هم الغرباء حقاً. حتى ظهر الإسلام، وانتشرت دعوته. ودخل الناس فيه أفواجا. فزالَت تلك الغربة عنهم. ثم أخذ في الاغتراب والترحل، حتى عاد غريباً كما بدأ. بل الإسلام الحق — الذي كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه — هو اليوم أشد غربة منه في أول ظهوره. وإن كانت أعلامه ورسومه الظاهرة مشهورة معروفة فالإسلام الحقيقي غريب جداً. وأهله غرباء أشد الغربة بين الناس.

وكيف لا تكون فرقة واحدة قليلة جداً، غريبة بين اثنتين وسبعين فرقة. ذات أتباع ورياسات، ومناصب وولايات. ولا يقوم لها سوق إلا بمخالفة ما جاء به الرسول؟ فإن نفس ما جاء به: يضاد أهواءهم ولذاتهم، وما هم عليه من الشهوات والبدع التي هي منتهى فضيلتهم وعملهم، والشهوات التي هي غايات مقاصدهم وإرادتهم؟

فكيف لا يكون المؤمن السائر إلى الله على طريق المتابعة غريباً بين هؤلاء الذين قد اتبعوا أهواءهم وأطاعوا شُحْهم، وأعجب كل منهم برأيه؟

ولهذا جعل للمسلم الصادق في هذا الوقت - إذا تمسك بدينه - أجر خسين من الصحابة. فنفى سنن أبي داود والترمذي - من حديث أبي ثعلبة الخشني - قال «سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية (١٥:٥) يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم. لا يضركم من ضل إذا اهتديتم» فقال: بل اثمروا بالمعروف. وتناهوا عن المنكر. حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة، وأعجاب كل ذي رأى برأيه. فعليك بخاصة نفسك ودع عنك العوأم. فإن من وراءكم أيام الصبر. الصبر فيهن مثل قبض على الجمر. للعامل فيهن أجر خسين رجالاً يعملون مثل عمله. قلت يا رسول الله أجر خسين منهم؟ قال أجر خسين رجالاً منكم» وهذا الأجر العظيم إنما هو نغمة بين الناس، والتمسك بالسنّة بين ظلمات أهوائهم وآرائهم.

فإذا أراد المؤمن، الذي قد رزقه الله بصيرة في دينه، وفتحاً في سنة رسوله، وفيها في كتابه، وأراه ما الناس فيه: من الأهواء والبدع والضلالات، وتكبيهم عن الصراط المستقيم، الذي كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه. فإذا أراد أن يسلك هذا الصراط: فليوطن نفسه على قبح الجهال، وأهل البدع فيه، وطنهم عليه، وأزرتهم به. وتغفر الناس عنه، وتحذيرهم منه. كما كان سلفهم من الكفار يفعلون مع متبوعه وإمامه صلى الله عليه وسلم.

فهو غريب في دينه لفساد أديانهم، غريب في تمسكه بالسنّة، لتمسكهم بالبدع. غريب في اعتقاده، لفساد عقائدهم. غريب في صلاته، لسوء صلاتهم. غريب في طريقه، لضلال وفساد طرقهم. غريب في نسبه، لمخالفة نسبهم. غريب في معاشرته لهم. لأنه يعاشرهم على ما لا تهوى أنفسهم.

وبالجملة: فهو غريب في أمور دنياه وآخرته. لا يجد من العامة مساعداً ولا مميئاً. فهو عالم بين جهال. صاحب سنة بين أهل بدع. داع إلى الله ورسوله بين دعاة إلى الأهواء والبدع. أمر بالمعروف، ناه عن المنكر بين قوم المعروف لديهم منكر والمنكر معروف.

ثم إن الناس كلهم في هذه الدار غرباء. فإنهم ليست لهم بدار مقام. ولا هي الدار التي خلقوا لها. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما «كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل» وهكذا هو في نفس الأمر. لأنه أمر أن يطالع ذلك بقلبه.

و يعرف حق المعرفة. ولي من أبيات في هذا المعنى:

وَحَيَّ عَلَى جَنَاحِ عَدْنٍ فَإِنَّهَا	منازلك الأولى. وفيها الخيم
وَلَكِنَّهَا سَبَّيَ الْعَدُوَّ فَهَلْ تَرَى	نعمود إلى أوطانينا، وتسلم؟
وَأَيُّ اغْتَرَلِبَ فَعَوْقَ غَرِيبِنَا الشَّيْ	لها أضحت الأعداء فينا تحكم؟
وَقَدْ زَعَمُوا: أَنَّ الْغَرِيبَ إِذَا نَأَى	وسقطت به أوطانه. ليس تشتم
فَمَنْ أَجَلْ ذَا لَا يَنْعَمُ الْعَبْدُ سَاعَةً	من العمر، إلا بعد ما يتألم

وكيف لا يكون البعد في هذه الدار غريباً، وهو جناح سفر. لا يحل عن راحته إلا بين أهر
القبور؟ فهو مسافر في صورة قاعد. وقد قيل:

وَمَا هَذِهِ الْأَيَّامُ إِلَّا مَرَا حِلْ	يبحث بها داع إلى الموت قاصد
وَأَعْجَبُ شَيْءٍ — لَوْ تَأَمَّلْتُ — أَنَّهَا	منازل تُظَلَّى. والمسافر قاعد

(٥٩) مَنْزِلَةُ التَّمَكُّنِ

ومن منازل إياك نعبد منزلة «التمكن»

قال صاحب المنازل:

«(باب التمكن) قال الله تعالى (٣٠: ٦٠) وَلَا يَسْتَحْفِظُكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ».

وجه استدلاله بالآية: في غاية الظهور. وهو أن التمكن لا يزال بكثرة الشراغل. ولا بمخالفة أصحاب الغفلات، ولا بمعاشرة أهل البطالات. بل قد تمكن بصبره و يقينه عن استفزازهم إياه، واستخفافهم له. ولهذا قال تعالى (٣٠: ٦٠) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَمَنْ وَفَى الصِّبْرَ حَقَّهُ، وَتَيَقَّنَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ: لَمْ يَسْتَفْزِهِ الْمِبْطُلُونَ، وَلَمْ يَسْتَحْفِظْهُ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ. ومتى ضعف صبره و يقينه — أو كلاهما — استفزه هؤلاء. واستخفه هؤلاء. فاجذبوه إليهم بحسب ضعف قوة صبره و يقينه. فكلما ضعف ذلك منه: قوى جذبهم له. وكلما قوى صبره و يقينه: قوى انجذابه منهم وجذبه لهم.

و «التمكن» هو القدرة على التصرف في الفعل والترك. ويسمى «مكانة» أيضاً، قال الله تعالى (٦: ١٣٥ و ١١: ٣٩ و ٣٩: ٣٩) قُلْ يَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ — (الآية).

وهو فوق «الطمأنينة» لأنها تكون مع نوع من المنازعة. فيطمئن القلب إلى ما يمكنه. وقد يتمكن فيه وقد لا يتمكن. ولذلك كان «التمكن» هو غاية الاستقرار. وهو تفعل من المبكيات. فكانه قد صار مقامه مكاناً لقلبه قد تبوأ منزلاً مستقراً، وصار معتصماً به، كما قال الله تعالى (٢٢: ٧٨) وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ. فنعمة المولى ونعم النصير) وقال تعالى (٣: ١٠١) وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) وقال تعالى (٤: ١٤٦) إِلَّا الَّذِينَ قَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ) وقال (٣: ١٠٣) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً).

فالاعتصام به نوعان: اعتصام توكل واستعانة وتفويض وعياذ ، وإسلام النفس إليه، والاستسلام له سبحانه.

والثاني: اعتصام بوجهه. وهو تحكيمه دون آراء الرجال ومقاييسهم، ومعقولاتهم، وأذواتهم وكشوفاتهم ومواجيدهم. فمن لم يكن كذلك فهو منسل من هذا الاعتصام. فالدين كله في الاعتصام به وبجبله، علماً وعملًا وإخلاصًا واستماتة، ومتابعة، واستمراراً على ذلك إلى يوم القيامة، وتلك هي حقيقة التمكن.

• إخلاص ... في الطريق الواسع

فمن التمكن: تمكن المريد، وهو ان يجتمع له صحة قصد يُستبره، وصحة طريق تُروّجه. فبصحة القصد: يصح سيره. وبصحة العلم: تتكشف له الطريق. وبصحة الطريق: يكون عليه السير. وكل طالب أمر من الأمور فلا بد له من تعين مطلوبه. وهو المقصود. ومعرفة الطريق للوصول إليه، والأخذ في السلوك. فمتى غاب عنه واحد من هذه الثلاث: لم يصح طلبه ولا سيره. فالأمر دائر بين مطلوب يتعين إثارة على غيره، وطلب يقوم بقصد من يقصده، وطريق توصل إليه.

فإذا تحقق العبد بطلب ربه وحده: تعين مطلوبه. فإذا بذل جهده في طلبه: صح له طلبه. فإذا تحقق باتباع أوامره، واجتناب نواهيه: صح له طريقه. وصحة القصد والطريق موقوفة على صحة المطلوب وتمينه.

فحكم القصد يُتأق من حكم المقصود. فمتى كان المقصود أهلاً للايثان: كان القصد المتعلق به كذلك. فالقصد والطريق تابعان للمقصود.

وقام العبودية: أن يوافق الرسول صلى الله عليه وسلم في مقصوده وقصده وطريقه. فمقصوده: الله وحده. وقصده: تنفيذ أوامره في نفسه وفي خلقه. وطريقه: اتباع ما أوتي به. فصحبته الصحابة رضی الله عنهم على ذلك حتى لحقوا به. ثم جاء التابعون لهم بإحسان، ففوضوا على آثارهم.

ثم تفرقت الطرق بالناس، فخير الناس: من وافقه في المقصود والطريق. وأبعدهم عن الله ورسوله: من خالفه في المقصود والطريق. وهم أهل الشرك بالعبود والبدعة في العبادة. ومنهم من وافقه في المقصود، وخالفه في الطريق. ومنهم من وافقه في الطريق، وخالفه في المقصود. فمن كان مراده الله، والدار الآخرة: فقد وافقه في المقصود. فإن عيّد الله بما به أمر على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم: فقد وافقه في الطريق. وإن عبده بغير ذلك: فقد خالفه في الطريق.

ومن كان مقصوده — من أهل العلم، والعبادة، والزهد في الدنيا — الرياسة، فقد خالفه في المقصود. وإن تنقيد بالأمر.

فإن لم يتقيد به، فقد خالفه في المقصود والطريق.

أما سعة الطريق، فبأمرين:

بسمعتها حتى لا تضيق عليه، فيعجز عن سلوكها. وباستقامتها حتى لا يزيغ عنها إلى غيرها. فإن طريق الحق واسعة مستقيمة، وطريق الباطل ضيقة معوجة.

• بازالة حجاب العلائق ندخل الانوار

ومنه: تمكن السالك. وهو أن يجتمع له صحة القطع وبرق كشف. وضياء حال.

وهذه الدرجة أتم مما قبلها. فإن تلك تمكن في تصحيح قصد الأعمال. وهذه تمكن في حال التمكن. والتمكن في الحال أبلغ من التمكن في القصد.

والمراد بصحة الانقطاع: انقطاع قلبه عن الأغيار. والشواغل الموجبة للأكدار.

ومع ذلك فحاله مع الله صاف من معارضات السوى، فلا يعارضه منه إرادة، بل متمكن في انقطاعه، وحاله نور وضياء.

وسبب هذا الضياء: أنه قد فاض على قلبه نور اليقين بالأسماء والصفات. فصار لقلبه من معرفتها والأيمان بها، وذوق حلاوة ذلك: نور خاص، غير مجرد نور العبادة، والإرادة والسلوك. وإذا بلغ العبد في مقام المعرفة إلى حد كأنه يطالع ما اتصف به الرب سبحانه من صفات الكمال، ونعوت الجلال. وأحس روجه بالقرب الخاص الذي ليس هو كقرب المحسوس من المحسوس، حتى يشاهد رفع الحجاب بين روجه وقلبه وبين ربه. فإنه حجاب هو نفسه. وقد رفع الله سبحانه عنه ذلك الحجاب بحوله وقوته: أفضى القلب والروح حينئذ إلى الرب. فصار يعبده كأنه يراه.

والله سبحانه جعل شهود الأسماء والصفات طريقاً لهذه المعرفة، ومن شاهد الصفة فلا بد أن يشاهد متعلقاتها، فإن النظر في متعلقاتها يكسبه التعظيم للمتصف بها.

فمن شاهد صفة الكلام مثلاً: زادته تعظيماً لله تعالى ولا بد، إذ لو ان البحر يمدّه من بعده سبعة أبحر، وأشجار العالم كلها أقلام يكتب بها كلام الرب جل جلاله، لفنيت البحار، ونفدت الأقلام، وكلام الله عز وجل لا ينفد ولا يفنى.

فمن شاهد الصفات الأخرى بمثل هذه المشاهدة، من العلم، والقدرة، ونحوها، وجال قلبه في عظمتها: ازداد معرفة وتعظيماً، وزاد نور قلبه، وضياء روجه.

فكلما كان بصفات الله اعرف، ولما أثبت، ومعارض الإثبات منتف عنه — كان أكمل شهوداً. ولهذا أكمل الخلق شهوداً من قال «لا أحصى ثناء عليك. أنت كما أثنيت على نفسك» ولكمال معرفته بالأسماء والصفات: استدل بما عرفه منها على أن الأمر فوق ما أحصاه وعلمه. فمشهد الصفات: مشهد الرسل والأنبياء وورثتهم، وكل من كان بها أعرف كان بالله أعلم. وكان مشهده بحسب ما عرف منها، فإن التائب الصادق في توبته إذا تاب إليه: وجده غفوراً رحيماً. والمتوكل إذا صدق في التوكل عليه: وجده حسيباً كافياً. والداعي إذا صدق في الرغبة إليه: وجده قريباً مجيباً. والمحِب إذا صدق في محبته: وجده ودوداً حبيباً. والمنهوف إذا صدق في الاستغاثه به: وجده كاشفاً للكرب غلصاً منه. والمضطر إذا صدق في الاضطرار إليه: وجده رحيماً مغيثاً. والمخائف إذا صدق في اللجاء إليه: وجده مؤمناً من الخوف. والراجي إذا صدق في الرجاء: وجده عند ظنه به.

فمحبه وطالبه ومريده الذي لا يبغي به بدلا. ولا يرضى بسواه عوضاً، إذا صدق في محبته وإرادته: وجده أيضاً وجوداً آنحس من تلك الوجودات. فإنه إذا كان المريد منه يجده. فكيف بمريده ونحبه؟ فيظفر هذا الواجد بنفسه ويريه.

أما ظفره بنفسه: فتصير منقادة له، مطيعة له، تابعة لمرضاته غير آبية، ولا أمارة. بل نصير خادمة له مملوكة، بعد أن كانت غندومة مالكة. وأما ظفره بربه: فقر به منه، وأنه به، وعمارة سره به. وفرحه وسروره به أعظم فرح وسرور.

فالوحيد يشاهد — بإيمانه وبقينه — ذاتاً جامعة للأسماء الحسنى، والصفات العل، لها كل صفة كمال، وكل اسم حسن. وذلك يجذبه إلى نفس اجتماع همه على الله، وعلى القيام بفرائضه.

والطريق — بمجموعها — لا تخرج عن هذين السبين، وإن طولوا العبارات، ودققوا الإشارات. فالأمر كله دائر على جمع الهمة على الله، واستفراغ الوسع بغاية النصيحة في التقرب إليه بالتواقل، بعد تكميل الفرائض. فلا تطول ولا تطول عليك.

(٦٠) مَنْزِلَةُ الْمَعْبَدِ الْبَائِتَةِ

ومن منازل «اياك معبد واياك ستعين» منزلة «المعابنة»

والمعابنة نوعان. معابنة نصر، ومعابنة بصيرة. فمعابنة البصر: وقوعه على نفس المرئي، أو مشاله الخارجي، كروية مثال الصورة في المرآة والماء ومعابنة البصيرة: وقوع القوة العاقلة على المثال العلمي المطابق للخارجي. فيكون ادراكه له منزلة ادراك العبر للصورة الخارجية. وقد تقوى سلطان هذا الادراك الساطع، بحيث يصير الحكم له، وبقوى استحضار القوة العاقلة نداركها، بحيث يستغرق فيه فيقلب حكم القلب على حكم الحس والمشاهدة. فيستول على سماع والبصر. بحيث يراه، ويسمع خطاه في الخارج. وهوي النفس والدهن. لكن لغلبة الشهود، وقوة الاستحضار، وتمكن حكم القلب واستيلائه على القوى. صار كأنه مرئي بالعين، مسموع بالاذن. بحيث لا يشك المدرك ولا يرتاب في ذلك البتة. ولا يقبل عدا.

وحقيقة الامر: ان ذلك كله شواهد وأمثلة علمية، تابعة للمعتقد. فذلك الذي ادرك بعبر القلب والروح: إنما هو شاهد دال على الحقيقة وليس هو نفس الحقيقة. فإن شاهد نور جلال الدات في قلب العبد ليس هو نفس نور الدات الذي لا تقوم له السموات والارض. فإنه لو ظهر لها لتدكدكت، ولأصابها ما أصاب الجبل. وكذلك شاهد نور العضة في القلب: إنما هو نور التعظيم والاجلال، لانور نفس المعظم ذي الجلال والاکرام.

وليس مع القوم الا الشواهد، والأمثلة العلمية، والرقائق التي هي ثمرة قرب القلب من الرب، وانسه به، واستغراقه في محبة وذكره، واستيلاء سلطان معرفته عيه. والرب تبارك وتعالى وراء ذلك كله منزله مقدس عن اطلاع البشر على ذاته، او انوار ذاته. او صفاته، او انوار صفاته. وإنما هي الشواهد التي تقوم بقلب العبد، كما يقوم بقلبه شاهد من الجنة والنار، وأما رؤيته سبحانه عيانا، او رؤيتهما، فمستحيل في هذه الدار الدنيا

وهذا هو الذي وجده عبد الله بن حرام الانصاري يوم احد، لما قال «واها لريح الجنة! لني اجد والله ريحها دون احد» ومن هذا قوله صلى الله عليه وسلم «اذا مررتم برياض الجنة فارتموها. قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: جلق الذكرة». ومن هذا قوله صلى الله عليه وسلم «الجنة تحت ظلال السيوف».

فالعامل: انما هو على الشواهد. وعلى حسب شاهد العيد يكون عمله.

ونحن نشير بمون الله وثوقه الى الشواهد، اشارة يعلم بها حقيقته الامر.

فأول شواهد السائر الى الية والدار الآخرة: ان يقوم به شاهد من الدنيا وحقاتها، وقلة وفائها، وكثرة جفائها، وخسة شركائها، وسرعة انقضائها. ويرى اهلها وعشاقها صرعى حولها، قد عذبتهم بأنواع العذاب، واذاقتهم امر الشراب. أضحكهم قليلا، وابكتهم طويلا. سقتهم كؤوس سمها، بعد كؤوس خرها. فسكروا بحبها. وماتوا بهجرها.

فاذا قام بالعيد هذا الشاهد منها: ترحل قلبه عنها. وسافر في طلب الدار الآخرة وحينئذ يقوم بقلبه شاهد من الآخرة ودوامها، وانها هي الحيوان حقاً. فأهلها لا يرتحلون منها. ولا يظعنون عنها. بل هي دار القرار، وعط الرحال، ومتهى السير. وان الدنيا بالنسبة اليها — كما قال النبي صلى الله عليه وسلم — «ما الدنيا في الآخرة الا كما يجعل احدكم إصبهه في اليم، فليُنظر يَمَ تَرَجع؟» وقال بعض التابعين: ما الدنيا في الآخرة الا أقل من ذرة واحدة في جبال الدنيا.

ثم يقدم بقلبه شاهد من النار وتوقدها واضطرامها. ويُبد قعرها، وشدة حرها، وعظيم عذاب أهلها. فيشاهدهم وقد سبقوا إليها شدة الوجوه، رُزق العيون، والسلاسل والاغلال في اعناقهم. فلما انتهوا إليها: فُتحت في وجوههم ابوابها. فشاهدوا ذلك المنظر الفظيع، وقد تقطعت قلوبهم حسرة وأسفاً (١٨: ٥٣) ورأى المجرمون النار فظنوا انهم مواقعوها. ولم يجهدوا عنها جهداً.

ثم اتى النداء من قبل رب العالمين : (١٤: ٥٢ — ١٦ هذه النار التي كنتم بها تكذبون * أفصح هذا؟ أم أنتم لا تبصرون؟ اضلُّوها فاصبروا، أولاً تصبروا سواء عليكم. انما تجزون ما كنتم تعملون) فيراهم وهم اليها يُدفعون و في الحميم، على وجوههم يُسحبون. وفي النار كالخيط يُسحبون (٧: ٤١ لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غَوَاش) فيبس اللحاف وبس الفراش. وإن استغاثوا من شدة العطش (١٨: ٢٩ يغاثوا بماء كالمُهل يشوي الوجوه) فإذا شربوه قُطع أمعاءهم في أجوافهم، وصهر ما في بطونهم. شربهم الحميم. وطعامهم الزقوم (٣٥: ٣٦، ٣٧ لا يُقضى عليهم فيموتوا. ولا يُحقق عنهم من عذابها. كذلك نَجْزِي كل كفور * وهم يُصْطَرخون فيها: ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل، أو لم نُعْزِكم ما يتذكر فيه مَنْ تذكر؟ وجاءكم النذير. فذوقوا فما للظالمين من نصير).

فإذا قام بقلب العبد هذا الشاهد: انخلع من الذنوب والمعاصي، وأتبع الشهوات. وليس ثياب الخوف والحذر وأخصب قلبه من مطر أحفانه. وهان عليه كل مصيبة تصيبه في غير دينه وقلبه.

وعلى حسب قوة هذا الشاهد يكون بمدد المعاصي والمخالفات. فيذب هذا الشاهد من قلبه الفضلات، والمواد المهلكة، ويتضجها ثم يخرجها. فيجد القلب لذة العافية وسرورها. فيقوم به بعد ذلك: شاهد من الجنة، وما أعد الله لأهلها فيها، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فضلاً عما وصفه الله لعباده على لسان رسوله من النعيم المفضل، الكفيل بأعلى أنواع اللذة، من المطاعم المشارب، والملابس والصور، والبهجة والسرور. فيقوم بقلبه شاهد دار قد جعل الله النعيم المقيم الدائم بحذايره فيها. تربتها المسك، وحشائرها الدُّرُّ وبنائوها لَبَن الذهب والفضة، وقصب اللؤلؤ. وشراؤها أحل من الصل، وأطيب رائحة من المسك، وأبرد من الكافور، وألذ من الزنجبيل. وتساؤها لو برز وجه أحدها في هذه الدنيا لقلب على ضوء الشمس. ولباسهم الحرير من السندس والاستبرق. وخدمهم ولدان كاللؤلؤ المنثور. وفاكهتهم دائمة، لامقطوعة ولا ممنوعة، وفُرش مرفوعة. وغذاؤهم لحم طير مما يشتهون. وشراهم عليه خمرة لا فيها غول ولا هم عنها يُثْزَفون. وخضرتهم فاكهة مما يتخيرون. وأزواجهم حور عِين كما مشال اللؤلؤ المكنون. فهم على الأرائك متكئون، وفي تلك الرياض يُخْبِرُونَ. وفيها ماتشهي الأنفس وتلد الأعين. وهم فيها خالدون.

فإذا انضم هذا الشاهد إلى الشواهد التي قبله: فهناك يسير القلب إلى ربه أسرع من سير الرياح في مهايقها، فلا يلتفت في طريقه يمينا ولا شمالا. هذا. وفوق ذلك: شاهد آخر تضمحل فيه هذه الشواهد، وينيب به العبد عنها كلها. وهو شاهد جلال الرب تعالى، وجماله وكماله، وعزه وسلطانه، وقبوميته وعلوه فوق عرشه، وخطابه للآلئته وأتبيائه.

فإذا شاهده شاهد بقلبه قيوماً قاهراً فوق عبادته، مستوياً على عرشه، منفرداً بتدبير مملكته، أمراً ناهياً، مريلاً رسله، ومنزلاً كتبه. يرضى ويغضب، ويشيب ويعاقب ويعطي ويمنع ويعز ويذل. ويغضب. ويرحم إذا استُرجِم، ويفر إذا استُغْفِر، ويعطي إذا سئل، ويحبب إذا دُعي، ويقتل إذا استُقبل. أكبر من كل شيء. وأعظم من كل شيء. وأعز من كل شيء. وأقدر من كل شيء. وأعلم من كل شيء، يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات. فلا يشغل سمع عن سمع. ولا تَغْلِيظُ المسائل. ولا يثيرم بإلحاح الملحين بمسأله عنده من أسر القول ومن جهر به. فالسر عنده علانية. والغيب عنده شهادة. يرى ديب النملة

السوداء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء. ويرى نياط عروقها، ويجارى القوت في أعضائها.

فإذا قام بقلب العبد هذا الشاهد: اضمحلت فيه الشواهد المتقدمة، من غير أن تعدم. بل تبصر الخلبة والقهر لهذا الشاهد. وتندرج فيه الشواهد كلها. ومن هذا شاهده: فله سلوك وسير خاص. ليس لغيره من هو عن هذا في غفلة، أو معرفة بحملة.

فصاحب هذا الشاهد: سائر إلى الله في يقظته ومنامه، وحركته وسكونه وفطره وصيامه، له شأن وللناس شأن. هزق واد والناس في واد.

والمقصود: أن العيان والكشف والملاحظة في هذه الدار: إنما تقع على الشواهد والأمثلة العلمية. وهو المثل الأعلى الذي ذكره سبحانه في ثلاثة مواضع من كتابه: في سورة النحل. وسورة الروم. وسورة الشورى.

وذلك قوله تعالى في سورة النحل: ٦٠ (ولله المثل الأعلى، وهو العزيز الحكيم).
وقوله في سورة الروم: ٢٧ (وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم).
وقوله في سورة الشورى: ١١ (ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير).

وهذا المثل الأعلى هو ما يقوم بقلوب عابديه وعبيده، والنبين إليه من هذا الشاهد وهو الباعث لهم على العبادة والمحبة والخشية والإنابة. وتفاوتهم فيه لا ينحصر طرفاه. فكل منهم له مقام معلوم لا يتعداه. وأعظم الناس خطأ في ذلك معترف بأنه لا يحصى ثناء عليه سبحانه، وأنه فوق ما يشئ عليه المثنون، وفوق ما يحمده الحامدون، كما قيل:

وما يبلغ المهدون نحرك مدحة	وإن أطنبوا إن الذي فيك أعظم
لك الحمد كل الحمد. لا مبدأ له	ولا منتهى. والله بالحمد أعلم

وطهارة القلب، ونزاهته من الأوصاف المذمومة، والإرادات السلبية، وخلوه وتفرغه من التعلق بغير الله سبحانه: هو كرسى هذا الشاهد، الذي يجلس عليه. ومقعده الذي يتمكن فيه. فحرام على قلب متلوث بالنجاسات والأخلاق الرديئة والصفات الذميمة، متعلق بالمرادات السافلة: أن يقوم به هذا الشاهد، وأن يكون من أهله.

نزه فؤادك عن سوانا. واتينا	فجنا بئنا حل لكل مُتَزَّه
والصبر طَلَسْم لكنز لقائنا	مَنْ حَلَّ ذا الطلسم فاز بكنزته

إذا طلعت شمس التوحيد، و باشرت جوانبها الأرواح، ونورها البصائر، تجلبت بها ظلمات النفس والطبع. وتحركت بها الأرواح في طلب من ليس كمثل شيء وهو السميع البصير. فسافر القلب في بقاء الأمر. ونزل منازل العبودية، منزلاً منزلاً. فهو ينتقل من عبادة إلى عبادة، فقيم على معبود واحد. فلا تزال شواهد الصفات قائمة بقلبه، توقظه إذا رقد، وتذكره إذا غفل، وتحدو به إذا سار، وتقيمه إذا قعد. إن قام بقلبه شاهد من الربوبية والقيومية رأى أن الأمر كله لله. ليس لأحد معه من الأمر شيء. (٣٥: ٢، ٣) ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها. وما يُعْصِيك فلا تُرْسِلْ له من بعده. وهو العزيز الحكيم * يا أيها الناس، اذكروا نعمة الله عليكم. هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض؟ لا إله إلا هو. فأنى تُؤفكون؟ (١٠: ١٠٧) وإن يستسك الله بضرف فلا كاشف له إلا هو. وإن يُرِدْكَ بخير فلا راد لِقَضَاهُ. يصيب به من يشاء من عباده. وهو الغفور الرحيم (٣٩: ٣٨) ولئن سألتهم: من خلق السموات والأرض؟ ليقولنَّ: الله، قل أفرأيت ما تدعون من دون الله؟ إن أَرَادَنِي اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ؟ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ؟ قل: حسبى الله. عليه يتوكل المتوكلون (٢٣: ٨٤ - ٨٩) قل: لمن الأرض ومن فيها، إن كنتم تعلمون؟ * يقولون: لله. قل: أفلا تذكرون؟ * قل: من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم؟ * يقولون: لله. قل: أفلا تتقون؟ * قل: من يده ملكوت كل شيء، وهو يُجِيرُ ولا يجار عليه، إن كنتم تعلمون؟ * يقولون: لله، قل: فأنى تُسْخَرُونَ؟. وإن قام بقلبه شاهد من الإلهية: رأى في ذلك الشاهد الأمر والنهي، والنبوات، والكتب والشرائع، والمحبة والرضا والكراهة والبغض، والنزب والعقاب. وشاهد الأمر نازلاً بمن هو مستوعب على عرشه، وأعمال المباد صاعدة إليه، ومعروضة عليه. يتجزى بالإحسان منها في هذه الدار وفي العقبى نُصْرَةً وسروراً، ويُقدِّم إلى مالم يكن عن أمره وشرعه منها فيجعل بهاء منشوراً. وإن قام بقلبه شاهد من الرحمة: رأى الوجود كله قائماً بهذه الصفة. قد وسَّعَ مَنْ هِيَ صِفَتُهُ كُلُّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً. وانتهت رحمته إلى حيث انتهى علمه. فاستوى على عرشه برحمته. لتسع كل شيء. كما وسع عرشه كل شيء.

وإن قام بقلبه شاهد العِزَّة والكبرياء، والمظنة والجبروت: فله شأن آخر. وهكذا جميع شواهد الصفات. فما ذكرناه إنما هو أدنى تنبيه عليها. فالكشف والعيان والمشاهدة لا تتجاوز الشواهد ألبتة.

(٦١) فَنَزَلَتْ الْحَيَاةُ

قال صاحب التنازل:

«(باب الحياة) قال الله تعالى (٦: ١٢٢) أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ».

استشهاده بهذه الآية في هذا الباب ظاهر جداً. فإن المراد بها: من كان ميت القلب، بعدم روح العلم والهدى والإيمان. فأحياءه الرب تعالى بروح أخرى، غير الروح التي أحيى بها بطنه. وهى روح معرفته وتوحيده، وعبته وعبادته وحده لا شريك له. إذ لا حياة للروح إلا بذلك. وإلا فهى فى جملة الأموات. ولهذا وصف الله تعالى من قديم ذلك بالموت، فقال (أومن كان ميتاً فأحييناه) وقال تعالى (٢٧: ٨٠) إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى. وَلَا تَسْمَعُ الضُّمُّ الدُّعَاءِ) وسمى وحيه روحاً. لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح. فقال تعالى (٤٢: ٥٢) وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا. ما كانت تدري ما الكتاب ولا الإيمان. ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا) فأخبر: أنه «روح» تحصل به الحياة، وأنه «نور» تحصل به الإضاءة. وقال تعالى (١٦: ٢) ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا اله الا انا فاتقون) وقال تعالى (٤٠: ١٥) رفيع الدرجات ذو العرش، يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده. لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ) فالروح حياة الروح، كما أن الروح حياة البدن. ولهذا من فقد هذه الروح: فقد فقد الحياة النافعة فى الدنيا والآخرة. أما فى الدنيا: فحياته حياة البهائم. وله المعيشة الضنك. وأما فى الآخرة: فله جهنم، لا يمجوت فيها ولا يجيا.

وقد جعل الله الحياة الطيبة لأهل معرفته وعبته وعبادته. فقال تعالى (١٦: ٩٧) من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى، وهو مؤمن. فلنحيينه حياة طيبة، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) وقد فسرت «الحياة الطيبة» بالقناعة والرضا والرزق الحس وغير ذلك. والصواب: أنها حياة القلب ونعيمه، و بهجته وسروره بالإيمان ومعرفة الله، وعبته، والإنابة إليه، والترك كل عليه. فإنه لا حياة أطيب من حياة صاحبها. ولا نعيم فوق نعيمه، إلا نعيم الجنة، كما كان بعض العارفين يقول: إنه لتثمرى أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة فى مثل هذا إنهم لفى عيش طيب. وقال غيره: إنه ليمر بالقلب أوقات يرقص فيها ظر با.

وإذا كانت حياة القلب حياة طيبة تبعته حياة الجوارح. فإنه ملكها. ولهذا جعل الله المعيشة الضئيلة لمن أضر عن ذكره. وهي عكس الحياة الطيبة.

وهذه الحياة الطيبة تكون في الدور الثلاث. أعني: دار الدنيا، ودار التزيخ، ودار القرار. والمعيشة الضئيلة أيضاً تكون في الدور الثلاث. فالأبرار في النعيم هنا وهناك. والفجار في الجحيم هنا وهناك، قال الله تعالى (١٦: ٣٠) للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير) وقال تعالى (١١: ٣) وإن استغفروا ربكم، ثم توبوا إليه، يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى. ويؤت كل ذي فضل فضله) فذكر الله سبحانه وتعالى، ومحبه وطاعته، والإقبال عليه: ضامن لأطيب الحياة في الدنيا والآخرة. والإعراض عنه والغفلة ومعصيته: كفيل بالحياة للنقص، والمعيشة الضئيلة في الدنيا والآخرة.

• ارتواء العلماء

والحياة مراتب:

منها: حياة العلم من موت الجهل، فان الجهل موت لأصحابه، كما قيل:

وفي الجهل — قبل الموت — موت لأهله وأجسامهم قبل القبور قبور
وأرواحهم في وخشة من جسامهم فلم يمس لهم حتى النشور نشور

فإن الجاهل ميت القلب والروح، وإن كان حي البدن. فجسمه قبر يعيش به على وجه الأرض. قال الله تعالى (١٢٢: ٦) أو من كان ميتاً فأحييناه. وجعلنا له نوراً يعيش به في الناس. كمن مثله في الظلمات، ليس بخارج منها؟) وقال تعالى (٣٦: ٦٩، ٧٠) إن هو إلا ذكر وقرآن مبين. لينذر من كان حياً. وبحق القول على الكافرين) وقال تعالى (٣٠: ٥٢) إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء) وقال تعالى (٣٥: ٢٢) إن الله يسمع من يشاء. وما أنت بمسمع من في القبور) وشبههم — في موت قلوبهم — بأهل القبور. فإنهم قد ماتت أرواحهم. وصارت أجسامهم قبوراً لما. فكما أنه لا يسمع أصحاب القبور، كذلك لا يسمع هؤلاء وإذا كانت الحياة هي الحس والحركة، وملزومها. فهذه القلوب لما لم تحس بالعلم والإيمان، ولم تتحرك له: كانت ميتة حقيقة. وليس هذا تشبيهاً لموتها بموت البدن، بل ذلك موت القلب والروح.

وقد ذكر الإمام أحمد في كتاب الزهد من كلام لقمان، أنه قال لابنه «يا بني جالس العلماء، وزاحمهم بركبتك. فإن الله يحبي القلوب بتور الحكمة، كما يحبي الأرض بوابل القطر» وقال معاذ بن جبل «تلموا العلم. فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة. لأنه معالم الحلال والحرام، ومشارئيل أهل الجنة. وهو الأئیس في الوحشة، والضاغب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء، والزین عند الأخیلاء. يرفع الله به أقواماً، فيجعلهم في الخير قادة، وأئمة تقتص آثارهم، ويقتدى بأفعالهم، ويقتفى إلى ربهم. ترغب لللائكة في خلقتهم، بأجنتها تمسحهم. يستغفر لهم كل طوب وباس، وحيثان البحر وقنواته، وسباع البر وأتنامه لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصايح الأبصار من الظلم. يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار، والدرجات العلى في الدنيا والآخرة. التذكر فيه يعدل القيام، ومدارسته تعدل القيام. به توصل الأرحام. وبه يعرف الحلال من الحرام. وهو إمام العمل. والعمل تابع له. يلهته السعداء. ويغترته الأشقياء» رواه الطبرانی وابن عبد البر وغيرهما. وقد روى مرفوعاً إلى النبی صلی الله علیه وسلم. والوقف أصح.

● المهم نابضات

ومنها: حياة الإرادة والمهمة. وضعف الإرادة، والطلب: من ضعف حياة القلب. وكلما كان القلب أتم حياة، كانت همته أعلى، وإرادته وعجته أقوى. فإن الإرادة والمحبة تتبع الشعور بالمراد المحبوب. وسلامة القلب من الآفة التي تحول بينه وبين طلبه وإرادته. فضعف الطلب، وفقر المهمة: إما من نقصان الشعور والإحساس، وإما من وجود الآفة المضعفة للحياة. فتوة الشعور، وقوة الإرادة: دليل على قوة الحياة. وضعفها دليل على ضعفها. وكما أن علو المهمة، وصديق الإرادة، والطلب من كمال الحياة: فهو سبب إلى حصول أكمل الحياة وأطيبها. فإن الحياة الطيبة إنما تنال بالمهمة العالية، والمحبة الصادقة، والإرادة الخالصة. فملى قدر ذلك تكون الحياة الطيبة. وأحسن الناس حياة أحسنهم هم. وأضعفهم محبة وطلباً، وحياة البهائم خير من حياته. كما قيل:

نهارك، يامرور سهو وغفلة وليلُك نوم والردي لك لازم
وتكدر فيما سوف تنكر غيبه كذلك في الدنيا تمشي البهائم
تسر بما يقضى. وتفرج بالمضى كما غر بالذات - في النوم - حالم

والمقصود أن حياة القلب بالعلم والإرادة والممة. والناس إذا شاهدوا ذلك من الرجل.
الوا: هو حي القلب، وحياة القلب بدوام الذكر، وترك الذنوب، كما قال عبد الله بن المبارك.
رحم الله:

وليت الذنوب تسبت القلوب	وقد يورث النذل إدمانها
وتترك الذنوب حياة القلوب	وخير لنفسك عصيانها
وهل أقصد الدين إلا اللو	ك، وأحبار سوء وُرهبانها؟
وباعوا النفوس، ولم يربحوا	ولم ينفُ في البيع أثمانها
فقد رتق القوم في جيفة	يسين لدى اللب غسراتها

وكما أن الله سبحانه جعل حياة البدن بالطعام والشراب. فحياة القلب: بدوام الذكر
والإتابة إلى الله، وترك الذنوب، والغفلة الجائمة على القلب. والتعلق بالردائل والشهوات
المنقطعة عن قريب يضمف هذه الحياة، ولا يزال الضعف يتولى عليه حتى يموت. وعلامة موته:
أنه لا يعرف معروفًا. ولا ينكر منكراً. كما قال عبد الله بن مسعود «أتدرون من ميت القلب،
الذي قيل فيه:

ليس من مات فاستراح ميت إنما الميت ميت الأحياء؟

قالوا: ومن هو؟ قال: الذي لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكراً».

والرجل: هو الذي يخاف موت قلبه، لا موت بدنه. إذ أكثر هؤلاء الخلق يخافون موت
أبدانهم، ولا يبالون بموت قلوبهم. ولا يعرفون من الحياة إلا الحياة الطبيعية. وذلك من موت
القلب والروح. فإن هذه الحياة الطبيعية شبيهة بالظل الزائل، والنبات السريع الجفاف، والنام
الذي يخيل كأنه حقيقة. فإذا استيقظ عرف أنه كان خيالا. كما قال عمر بن الخطاب رضي
الله عنه «لو أن الحياة الدنيا — من أولها إلى آخرها — أوتيتها رجل واحد. ثم جاءه الموت: لكان
بمنزلة من رأى في منامه ما يشُرُّه، ثم استيقظ. فإذا ليس في يده شيء» وقد قيل «إن الموت
موتان: موت إرادي، وموت طبيعي. فمن أمانت نفسه موتاً إرادياً كان موته الطبيعي حياة له»
ومعنى هذا: أن الموت الإرادي: هو قمع الشهوات المردية، واتخاذ نيرانها المحرقة، وتسكين
هوائجها المتلفة. فحينئذ يفرغ القلب والروح للتفكير فيما فيه كمال العبد، ومعرفة، والاشتغال
به. ويرى حينئذ أن إشار الظل الزائل عن قريب على العيش اللذيذ الدائم: أخسر الخسران.
فأما إذا كانت الشهوات وافدة، والذات مؤثرة، والموائد غالية، والطبيعة حاكمة. فالقلب
حينئذ: إما أن يكون أسيراً ذليلاً، أو مهزوماً مُخْرِجاً عن وطنه ومستقره الذي لا قرار له إلا فيه، أو

فتبيلا ميتاً وما لجرح به إيلام. وأحسن أحواله: أن يكون في حرب، يذال له فيها مرة، ويدال عليه مرة. فإذا مات العبد موته الطبيعي: كانت بعده حياة روحه بطلب العلوم النافعة، والأعمال الصالحة، والأحوال الفاضلة التي حصلت له بإماتة نفسه. فتكون حياته ههنا على حسب موته الإرادى في هذه الدار.

وهذا موضع لا يفهمه إلا ألباء الناس وعقلاؤهم. ولا يعمل بمقتضاه إلا أهل المسم العلية، والنفوس الزكية الأبية.

● الحياة حركة

ومن مراتب الحياة:

حياة الأخلاق، والصفات الحمودة، التي هي حياة راسخة للموصوف بها. فهو لا يتكلف الشرقي في درجات الكمال. ولا يشق عليه. لا تقتضاه أخلاقه وصفاته لذلك، بحيث لو فارق ذلك لفارق ما هو من طبيعته وسجيته. فحياة من قد طبع على الحياة والعفة والجلود والسخاء، والمروءة والصدق والوفاء ونحوها: أتم من حياة من يقهر نفسه، ويقالب طبعه، حتى يكون كذلك. فإن هذا بمنزلة من تمارضه أسباب الداء وهو يماجلها ويقهرها بأخذائها. وذلك بمنزلة من قد عوفى من ذلك.

وكلما كانت هذه الأخلاق في صاحبها أكمل كانت حياته أقوى وأتم. ولهذا كان خلق «الحياة» مشتقاً من «الحياة» اسماً وحقيقة. فأكمل الناس حياة: أكملهم حياة. ونقصان حياة المرء من نقصان حياته. فإن الروح إذا ماتت لم تحس بما يؤلمها من القبايح. فلا تستحي منها. فإذا كانت صحيحة الحياة أحست بذلك، فاستحيت منه. وكذلك سائر الأخلاق الفاضلة، والصفات المدوحة تابعة لقوة الحياة، وضدها من نقصان الحياة. ولهذا كانت حياة الشجاع أكمل من حياة الجبان. وحياة السخى أكمل من حياة البخيل. وحياة الفطن الذكى أكمل من حياة الغدُم البليد. ولهذا لما كان الأنبياء — صلوات الله وسلامه عليهم — أكمل الناس حياة حتى إن قوة حياتهم تمنع الأرض أن تبلى أجسامهم — كانوا أكمل الناس في هذه الأخلاق. ثم الأمثل فالأمثل من أتباعهم.

فانظر الآن إلى حياة حلائف مهين هشاز مشاء بنميم، مناع للخير معتد أثيم. عُثِلَ بعد ذلك زعيم. وحياة جواد شجاع، برّ عادل غفيف محسن — تجد الأول ميتاً بالنسبة إلى الثاني.

و «البسط» من أجل هذه الاخلاق، وأقواها في صفة الحياة، وهوما كان عليه رسول الله صل الله عليه وسلم مع أصحابه وأهله. ومع الغريب والقريب. وهى سعة الصدر، ودوام البشر،

وحسن الخلق، والسلام على من لقيه. والوقوف مع من استوفقه، والمزاج بالحق مع الصغير والكبير
أحياناً. وإجابة الدعوة. ولين الجانب. حتى يظن كل واحد من أصحابه: أنه أحبههم إليه. وهذا
للبدان لا تجذبه إلا واجباً، أو مستحباً، أو مباحاً يمين عليهما.

ومن العباد من وفقه الله تعالى فقال خطأ من هذا البسط النبوي الكريم وجعل الله
لتبساطهم مع الخلق رحة لهم. كما قال تعالى (٣: ١٥٩) فيما رحة من الله لئن لم، ولو
كنت قللاً غليظ القلب لا تقرضوا من حولك) فالرب سبحانه بسط هؤلاء مع خلقه. ليقبض
بهم السالك. ويهتدي بهم الخيران. ويشفق بهم العليل. ويستضاء بنور هدايتهم ونصحهم
ومعرفتهم في ظلمات دياجي الطبع والحرى. فالسالكون يقتدون بهم إذا سكتوا. وينضمون
بكلماتهم إذا نطقوا. فإن حركتهم وسكونهم لما كانت بالله ولله، وحل أمر الله: جذبت قلوب
الصادقين إليهم، فهتدي بهم الحائر، ويسر بهم الوقف، ويستقيم بهم الحمد، ويثقل بهم
العرض، ويكمل بهم الناقص، ويرجع بهم الناكس، ويتقوى بهم الضعيف.

وهؤلاء هم خلفاء الرسل حقاً، وهم أولو البصر واليقين، فجمعوا بين البصرة والبصر. قال
الله تعالى (٣٢: ٢٤) وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا، وكانوا بآياتنا يوقنون، فقالوا
إمامة الدين، بالصبر واليقين.

والعلماء ثلاثة: عالم استار بنوره. واستتار به الناس. فهذا من خلفاء الرسل، وورثة
الأنبياء. وعالم استار بنوره، ولم يستتر به غيره. فهذا إن لم يفرط كان ضعه قاصراً على نفسه.
فبينه وبين الأول ما بينهما. وعالم لم يستتر بنوره، ولا استتار به غيره. فهذا علمه وبال عليه.
وبسطه للناس فتة لهم. وبسطه الأول رحة لهم.

كل ذلك و«سرهم مصونة» مستورة لم يكشفوها لمن اتبسطوا إليه. وإن كان البسط
يقضى الإلف، وإطلاع كل من التباسطين على سر صاحبه. فإياك ثم إياك أن تُطلع من باسطه
على سرِّك مع الله، ولكن اجذبه وشوقه. واحفظ وديعة الله عندك، لا تعرضها للاسترجاع.

• لذة الوصول تدعو إلى استئناف السير

ومن مراتب الحياة: حياة الفرح والسرور، وقررة العين بالله. وهذه الحياة إما تكون بعد الظفر
بالمطلوب، الذي تفرَّبه عين طالبه. فلا حياة نافعة له بدونه. وحول هذه الحياة يلدن الناس
كلهم. وكلهم قد أخطأ طريقها. وسلك طرقاً لا تقضى إليها. بل تجتمع عنها، إلا أنل التقليل.
فدار طلب الكل حول هذه الحياة. وغرقتها أكثرهم.

وسبب حرمانهم إياها: ضعف العقل والتمييز والبصرة، وضعف الممة والإرادة. فإن

سادتها بصيرة وقادة، وهمة نقادة. والبصيرة كالبحر تكون عمى وعمراً وقشاً وزمداً، وقائمة النور والضياء وهذه الآفات قد تكون لها بالخلقة في الأصل. وقد تحدث فيها بالعوارض الكسبية. والمقصود: أن هذه الرتبة من مراتب الحياة هي أعلى مراتبها، ولكن كيف يصل إليها من عقله تشبي في بلاد الشهوات، وأمله موقوف على اجتناء اللذات، وسيرته جارية على أسوأ المعادات، وذنبه مستهلك بالمعاصي والمخالفات، وهمته واقفة مع السفليات، وعقيدته غير مطلقاة من مشكاة النبوات ١٩.

فهو في الشهوات منغمس، وفي الشبهات منتكس، وعن الناصح معرض، وعلى الرشد معترض، وعن السراء نائم، وقلبه في كل واد هائم. فلو أنه تجرد من نفسه. ورغب عن مشاركة أبناء جنسه. وخرج من ضيق الجهل إلى فضاء العلم. ومن سجن الملوى إلى ساحة الهدى، ومن نجاسة النفس، إلى طهارة القدس: لرأى الإلف الذي نشأ بشأته، وزاد بزيادته، وقوى بقوته، وشرف عند نفسه وأبناء جنسه بحصوله قلبي في عين بصيرته، وشجا في خلق إيمانه، ومرضاً مترامياً إلى هلاكه؟

فإن قلت: قد أشرت إلى حياة غير معهودة بين أموات الأحياء. فهل يمكنك وصف طريقها، لأيسر إلى شيء من أذواقها. فقد بان لي أن ما نحن فيه من الحياة حياة بهيمية. ربما زادت علينا فيها البهائم بخلوها من المنكرات والمفصصات وسلامة العاقبة؟

قلت: لصبر الله إن اشتياقك إلى هذه الحياة، وطلب علمها ومعرفتها: دليل على حياتك. وأنت لست من جملة الأموات.

فأول طريقها: أن تعرف الله، وتهتدي إليه طريقاً يوصلك إليه، ويحرق ظلمات الطبع بأشعة البصيرة. فيقوم بقلبه شاهد من شواهد الآخرة. فينجذب إليها بكلية. ويزهّد في العلاقات الغائبية. ويدأب في تصحيح التوبة، والقيام بالمأمورات الظاهرة والباطنة، وترك المنهيات الظاهرة والباطنة. ثم يقوم حارساً على قلبه. فلا يساعه بخطر يكرها الله، ولا بخطر فضول لا تنفعه. فيصفو بذلك قلبه عن حديث النفس ووساوسها. فيُفدّي من أسرها. ويصير طليقاً. فحينئذ يخلو قلبه بذكر ربه، ومحبة والإجابة إليه. ويخرج من بين بيوت طبعه ونفسه، إلى فضاء الخلوة بربه وذكره، كما قيل:

وأخرج من بين البيوت، لعلني أحدث عتك النفس في السرخاليا
فحينئذ يجتمع قلبه وخواطره وحديث نفسه على إرادة ربه، وطلبه والشوق إليه.
فإذا صدق في ذلك رزق حبة الرسول صلى الله عليه وسلم، واستولت روحانيته على قلبه.
فجعل له إمامه ومعلمه، وأستاذة وقُدوته، كما جعله الله نبيه ورسوله وهادياً إليه. فيطالع سيرته

وضيادى، أمره، وكيفية نزول الوحي عليه، ويعرف صفاته وأخلاقه، وآدابه في حركاته وسكونه، ويقظته ونومه، وعبادته ومعاشرته لأهله وأصحابه، حتى يصير كأنه معه من بعض أصحابه.

فإذا رسخ قلبه في ذلك: فتح عليه فهم الوحي للنزل عليه من ربه، بحيث لو قرأ السورة شاهد قلبه ما أنزلت فيه، وما أريد بها وحظه المخصص به منها، من الصفات والأخلاق، والأفعال المندوحة. فيجتهد في التخلص منها كما يجتهد في الشفاء من المرض المخوف. وشاهد حظه من الصفات والأفعال المندوحة. فيجتهد في تكميلها وإتمامها.

فإذا تمكّن من ذلك: انفتح في قلبه عين أخرى يشاهد بها صفات الرب جل جلاله، حتى تصير لقلبه بمنزلة الرئي لعينه. فيشهد علو الرب سبحانه فوق خلقه، واستواؤه على عرشه، ونزول الأمر من عنده بتدبير ملكه، وتكليمه بالوحي، وتكليمه لعبد جبريل به، وإرساله إلى من يشاء بما يشاء، وصعود الأمور إليه، وعرضها عليه.

فيشاهد قلبه رباً قاهراً فوق عباده، آمراً ناهياً، باعثاً لرسله، منزلاً لكتبه، معبوداً مطاعاً. لا شريك له. ولا مثيل، ولا عدل له. ليس لأحد معه من الأمر شيء، بل الأمر كله له. فيشهد ربه سبحانه قائماً بالملك والتدبير. فلا حركة ولا سكون، ولا تقع ولا ضرر، ولا عطاء ولا منع، ولا قبض ولا بسط إلا بقدرته وتدبيره. فيشهد قيام الكون كله به، وقيامه سبحانه بنفسه. فهو القائم بنفسه، اللقيم لكل ما سواه.

فإذا رسخ قلبه في ذلك: شهد الصفة الصحيحة لجميع صفات الكمال. وهى «الحياة» التى كمالها يستلزم كمال السمع والبصر، والقدرة والإرادة، والكلام، وسائر صفات الكمال. وصفة «القيومية» الصحيحة المصححة لجميع الأفعال. فالهى القيوم: من له كل صفة كمال. وهو القيام لما يريد.

فإذا رسخ قلبه في ذلك: فتح له مشهد «القرب» و«اللعية» فيشهد سبحانه معه، غير غائب عنه، قريباً غير بعيد، مع كونه فوق سماواته على عرشه، باقياً من خلقه، قائماً بالصنع والتدبير، والمخلق والأمر. فيحصل له — مع التعظيم والإجلال — الأُنس بهذه الصفة. فيأنس به بعد أن يفرح به بعد أن كان حزيناً. ويمجد بعد أن كان فاقداً. فيحسّ يجد طعم قوله «ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه». فإذا أحبته كنت سمعته الذى يسمع به. وبصره الذى يبصر به. ويده التى يبطش بها. ورجله التى يمشى بها. ولئن سألتى لأعطينه. ولئن استعاذتنى لأعيننه».

فأطيب الحياة على الإطلاق: حياة هذا العبد. فإنه محب محبوب، مقرب إلى ربه، ورب به قريب منه. قد صار له حبيب به لفرط استيلائه على قلبه، ولهجة بذكركه. وعكوف همته على

مرضاته، بمنزلة سمعه وبصره و يده ورجله. وهذه آلات إدراكه وعمله وسميه. فإن سمع سمع بحبيبه، وإن أبصر أبصر به. وإن بطش بطش به. وإن مشى مشى به.

فإن صعب عليك فهم هذا المعنى، وكوّن المحب الكامل المحبة يسمع و يبصر و يبطش و يمشى بحبيبه. وأداته غالبة عنه. فأضرب عنه صفحا. وتخلّ هذا الشأن لأهله.

خل الهوى لأناس يُتَرَفَقون به قد كابدوا الحب حتى لأن أضعه

فإن السالك إلى ربه لا تنال همته عاكفة على أمرين: استغراق القلب في صدق الحب، وبذل الجهد في امتثال الأمر. فلا يزال كذلك حتى يدعو على سيرة شواهد معرفته، وآثار صفاته وأسمائه. ولكن يتواري عنه ذلك أحيانا. ويبدو أحيانا. يبدو من عين الجود. ويتواري بحكم الفترة. والفترات أمر لازم للعبد. فكل عامل له شرة، ولكل شرة فترة. فأعلاها فترة الرحي. وهى للأنبياء، وفترة الحال الخاص للعارفين، وفترة الهمة للمريدن. وفترة العمل للمعابدن. وفي هذه الفترات أنواع من الحكمة والرحمة، والتعرفات الإلهية، وتعريف قدر النعمة. وتجديد الشوق إليها، ومحض التواجد إليها وغير ذلك.

ولا تنال تلك الشواهد تتكرر وتزايد، حتى تستقر، وينصبغ بها قلبه، وتصير الفترة غير قاطعة له. بل تكون نعمة عليه، وراحة له، وترويحاً وتنفيساً عنه.

فهمة المحب إذا تعلقت روحه بحبيبه، عاكفاً على مزيد محبته، وأسباب قوتها. فهو يعمل على هذا. ثم يترقى منه إلى طلب محبة حبيبه له. فيعمل على حصول ذلك. ولا يعدم الطلب الأول، ولا يفارقه البتة. بل يندرج في هذا الطلب الثاني. فتعلق همته بالأمرين جميعاً. فإنه إنما يحصل له منزلة «كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به» بهذا الأمر الثاني. وهو كونه محبوباً لحبيبه. كما قال في الحديث «إذا أحببته كنت سمعه وبصره الخ» فهو يتقرب إلى ربه، حفظاً لمحبه له، واستدعاء لمحبة ربه له.

فحينئذ يشدُّ مشر الجِدِّ في طلب محبة حبيبه له بأنواع التقرب إليه. فقلبه: للمحبة والاتابة والتوكل، والخوف والرجاء ولسانه: للذكر وتلاوة كلام حبيبه. وجوارحه: للطاعات. فهو لا يفتر عن التقرب من حبيبه.

وهذا هو السير المفضى الى هذه الغاية التي لا تنال الا به. ولا يتوصل اليها إلا من هذا الباب، وهذه الطريق. وحينئذ تجمع له في سيره جميع متفرقات السلوك: من الحضور، والمهية، والمراقبة، ونفى الخواطر، وتخليّة الباطن.

فإن المحب يشرع — أولاً — في التقربات بالأعمال الظاهرة. وهى ظاهر التقرب. ثم يترقى من ذلك إلى حال التقرب. وهو الانجذاب إلى حبيبه بكلية بروحه وقلبه، وعقله وبنته. ثم يترقى من ذلك إلى حال الإحسان. فيعبد الله كأنه يراه. فيتقرب إليه حيثن من باطنه بأعمال

القلوب: من اللجة والآنابة، والتعظيم والإجلال والخشية. فينبعث حيثئذ من باطنه الجود ببذل الروح، والجود في محبة حبيبه بلا تكلف. فيجود بروحه بنفسه، وأفاسه وإرادته، وأعماله لحبيبه حالاً، لا تكلفاً. فإذا وجد الحب ذلك فقد ظهر بحال التقرب وسره وباطنه. وإن لم يجده فهو يتقرب بلسانه وبدينه وظاهره فقط. فليتم على ذلك. وليتكلف التقرب بالأذكار والأعمال على الدوام. فمما أن يحظى بحال التقرب.

ووراء هذا «التقرب الباطن» أمر آخر أيضاً. وهو شيء لا يعبر عنه بأحسن من عبارة «تقرب الخلق إلى الله صلى الله عليه وسلم من هذا المعنى. حيث يقول حاكياً عن ربه تبارك وتعالى «من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً. ومن هرب مني ذراعاً هربت منه باعاً. ومن أتاني يمشي أتيته هرولة» فيجد هذا الحب في باطنه فوق معنى هذا الحديث ذوقاً حقيقياً.

فذكر من مراتب التقرب ثلاثة. وفيه بها على ما دونها وما فوقها. فذكر تقرب العبد إليه بالشبر، وتقربه سبحانه إلى العبد ذراعاً. فإذا ذاق العبد حقيقة هذا التقرب انتقل منه إلى تقرب الذراع. فيجد فوق تقرب الرب إليه باعاً. فإذا ذاق حلاوة هذا التقرب الثاني: أسرع للمشي حيثئذ إلى ربه. فيلحق حلاوة إتيانه إليه هرولة. وهنا ينتهي الحديث، منها على أنه إذا هزول عبده إليه كان قرب حبيبه منه فوق هرولة العبد إليه. فإما أن يكون قد أسكب عن ذلك لعظيم شاهد الجزاء، أو لأنه يدخل في الجزاء الذي لم تسمح به أذن، ولم يخطر على قلب بشر. لو إحالة له على المراتب للتقدمة فكانه قيل له: وقس على هذا. فعل قدراً تذل منك مقرباً إلى ربك: يتقرب إليك بأكثر منه. وهل هذا غلام هذا التقرب المذكور في مراتبه. أي من تقرب إلى حبيبه بروحه وجميع قواه، وإرادته وأفعاله وأعماله: تقرب الرب منه سبحانه بنفسه في مقابلة تقرب عبده إليه.

وليس التقرب في هذه المراتب كلها قرب مسافة حسية، ولا محاسة. بل الرب تعالى فوق مساواته على عرشه، والعبد في الأرض.

وهذا للوضع هو سر السلوك، وحقيقة الميودية. وهو معنى الوصول الذي يدندن حوله القدم. وسلاك هذا الأمر: هو قصد الشقرب أولاً. ثم التقرب ثانياً. ثم حال التقرب ثالثاً. وهو الاتبعات بالكلية إلى الحبيب.

وحقيقة هذا الاتبعات: أن تفتي بمراده عن هواك، وما منه عن حظك. بل يصير ذلك هو مجموع حظك ومرادك. وقد عرفت أن من تقرب إلى حبيبه بشيء من الأشياء جوزى على ذلك بتقرب هو أنعمائه. وعرفت أن أعلى أنواع التقرب: تقرب العبد بجملة بظواهره وباطنه، وبوجوده، إلى حبيبه. فمن فعل ذلك فقد تقرب ب كله ولم تبق منه بقية لغير حبيبه. كما قيل:

لا كان من لسواك فيه بقية يجد السيل بها إليه العذل

وإذا كان المتقرب إليه بالأعمال يعطى أضعاف مضاعف ما تقرب به. فما الظن بمن أغبطى حال التقرب ودوقه ووجد؟ فما الظن بمن تقرب إليه بروحه وجميع إرادته وهمة، وأتوا له وأعماله؟.

وعلى هذا فكما جاد لحبيبه بنفسه، فإنه أهل أن يُجاد عليه، بأن يكون ربه سبحانه هو حظه ونصيبه، عوضاً عن كل شيء، جزاءً وفاقاً. فإن الجزاء من جنس العمل. وشاهد هذا كثيرة. منها: قوله تعالى (٦٥: ٣، ٤) ومن يتق الله يجعل له مخرجاً. ويرزقه من حيث لا يحتسب. ومن يتوكل على الله فهو حسبه) ففرق بين الجزائين كما ترى. وجعل جزاء المتوكل عليه كونه سبحانه حسبه وكافيه.

ومنها: أن الشهيد لما بذل حياته لله أعاضه الله سبحانه حياة أكمل منها عنده في محل قر به وكرامته.

ومنها: أن من بذل لله شيئاً أعاضه الله خيراً منه.

ومنها: قوله تعالى (١٥٢: ٢) فاذا كروني أذكركم، واشكروني ولا تكفرون).

ومنها: قوله في الحديث القدسي «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه».

ومنها: قوله «من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً» الحديث.

فالسيد لا يزال رابحاً على ربه أفضل مما قدّم له. وهذا المتقرب، بقلبه وروحه وعمله: يفتح عليه ربه بحياة لا تشبه ما الناس فيه من أنواع الحياة. بل حياة من ليس كذلك بالنسبة إلى حياته: كحياة الجنين في بطن أمه بالنسبة إلى حياة أهل الدنيا ولذتهم فيها. بل أعظم من ذلك. فهذا نموذج من بيان شرف هذه الحياة وفضلها. وإن كان علم هذا يوجب لصاحبه حياة طيبة. فكيف إن اتصف القلب به، وصار حالاً ملازماً لذاته؟ قاله المستعان.

فهذه الحياة: هي حياة الدنيا ونعيمها في الحقيقة. فمن فقدتها فقدته لحياته الطبيعية أول به.

هذه حياة الفتى. فإن فقدت فقدته للحياة اليق به

فلا يعيش إلا يعيش المحبين، الذين قُرت أعينهم بحبيهم، وسكنت نفوسهم إليه، واطمأنت قلوبهم به، واستأنسوا بقر به، وتنعموا بحبه. ففى القلب فاقة لا يسدّها إلا محبة الله، والإقبال عليه، والإنابة إليه، ولا يُلْمُ شَعَثُهُ بغير ذلك البتة. ومن لم يظفر بذلك: فحياته كلها هموم وهموم، وآلام وحسرات. فإنه إن كان ذا مهمة عالية تقطعت نفسه على الدنيا حسرات. فإن همته لا ترضى فيها بالدون وإن كان مهيناً خيساً فعيثه كعيش أفسس الحيوانات. فلا تفر العيون إلا بمحبة الحبيب الأول.

تَقُلْ فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول
 كم منزل في الأرض يأنس به الفتى وحسينه أبداً لأول منزل

بل ان المعرض الصاد يقاويه الله تعالى بمثل هذه المصوم والحشرات، كما قال الله سبحانه (٣: ٢٨) وعذركم الله نفسه).

وجه الإشارة بالآية: أنه سبحانه المقرب المبعد، فليحذر القريب من الإبعاد والمصل من الانفصال. فإن الحق جل جلاله غير لا يرضى من عرقه ووجد حلاوة معرفته، واتصل قلبه بحبته والأنس به، وتعلقت روحه بإرادة وجهه الأعلى - أن يكون له التفات إلى غيره البتة.

ومن غيرته سبحانه: حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن. والله سبحانه يغار أشد الغيرة على عبده: أن يلتفت إلى سواه. فإذا أذاقه حلاوة محبته، ولذة الشوق إليه، وأنس معرفته. ثم ما كن غيره: بعده من قر به. وقطعه من وصله. وأوحش سره. وشتت قلبه. ونقص عيشه. وألبسه رداء الذل والصغار والموان. فتأذى عليه حاله، إن لم يصبر به قاله: هذا جزء من تعوض عن وليه والله وقاطره، ومن لاحياة له إلا به. بغيره وأثر غيره عليه. فاتخذ سواه حبيباً، ورضى بغيره أنيساً، واتخذ سواه ولياً. قال الله تعالى (١٨: ٥٠) وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس. كان من الجن ففسق عن أمر ربه، فلتخذونه وذريته أولياء من دوني، وهم لكم عدو؟ يس للظالمين يدل).

فإذا ضرب هذا القلب بسوط البعد والحجاب، وسلط عليه من يسيء سوء العذاب، ومثل من المصوم والغمو والأحزان، ويذل بالأنس وحشة، وبالعز ذلاً، وبالقناعة حرصاً، وبالقرب بعداً طرداً، وبالجمع شتاتاً وتفرقة - كان هذا بعض جزائه. فحينئذ تطرقه الطوارق والمؤلمات. وتعتريه وفود الأحزان والمصوم بعد وفود المسرات.

وإذا أردت أن تعرف ما حل بك من بلاء الانفصال، فانظر أين يبيت قلبك إذا أخذت مضجعك؟ وإلى أين يطير إذا استيقظت من منامك؟

لا إله إلا الله! ما أشد غبن من باع أطيب الحياة في هذه الدار المتصلة بالحياة الطيبة هناك، والنعيم المقيم بالحياة النعيسة للنعكة المتصلة بالعذاب الأليم. والمدة ساعة من نهار، أو عشية أو ضحاها، أو يوم أو بعض يوم. فيه ربح الأبد أو خسارة الأبد.

● الموت مرحلة وليس نهاية

ومن مراتب الحياة: حياة الأرواح بعد مفارقتها الأبدان وخلاصها من هذا السجن وضيقه. فإن من ورثه روحاً وربحنا وراحة. نسبة هذه الدار إليه: كنسبة بطن الأم إلى هذه الدار، أو أدنى من ذلك. قال بعض العارفين: لِيَتَكُنْ مبادرتك إلى الخروج من الدنيا كمبادرتك إلى الخروج من السجن الضيق إلى أحبتك، والاجتماع بهم في البساتين الموقرة. قال الله تعالى في هذه الحياة (٥٦: ٨٨، ٨٩) فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ: فروح وربحنا وجنة نعيم).
ويكفى في طيب هذه الحياة: مرافقة الرفيق الأعلى، ومفارقة الرفيق المؤذى المنكد، الذى تنفص رؤيته ومشاهدته الحياة، فضلاً عن مخالطته وعشرته، إلى الرفيق الأعلى الذين أنعم الله عليهم من التبيين والصدقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، في جوار الرب الرحمن الرحيم.
ولو لم يكن في الموت من الخير إلا أنه باب الدخول إلى هذه الحياة، وجسر يُقْبَر منه إليها: لكفى به تحفة للمؤمن.

جزى الله عنا الموت خيراً، فإنه
أُبْرَئَنَا مِنْ كُلِّ بَرٍّ وَالطُّفِ
يُتَجَبَّلُ تَخْلِصَ النَّفْسِ مِنَ الْأَذَى
وَيُذْنِبِي إِلَى الدَّارِ الَّتِي هِيَ أَشْرَفُ

فالاتجاه في هذا العمر القصير، والمدة القليلة، والسعي والكدح، وتحمل الأثقال، والتعب والمشقة: إنما هو لهذه الحياة. والعلوم والأعمال: وسيلة إليها. وهى يَقْطَعُ. وما قبلها من الحياة نوم. وهى عين، وما قبلها أثر. وهى حياة جامعة بين فقد المكروه، وحصول المحبوب في مقام الأنس، وحضرة القدس، حيث لا يتعذر مطلوب، ولا يفقد محبوب. حيث الطمأنينة والراحة، والبهجة والسرور. حيث لا عبارة للمبعد عن حقيقة كنهها. لأنها في بلد لا عهد لنا به. ولا إلف بيننا وبين ساكنه. فالنفس — لإلفها لهذا السجن الضيق النكد زماناً طويلاً — تكره الانتقال منه إلى ذلك البلد. وتستوحش إذا استشعرت مفارقتها.

وحصول العلم بهذه الحياة: إنما وصل إلينا بخبر إلهي، على يد أكمل الخلق وأعلمهم وأنصحهم صلى الله عليه وسلم. فقامت شواهدنا في قلوب أهل الإيمان. حتى صارت لهم بمنزلة الميعان. ففرت نفوسهم من هذا الظل الزائل، والخيال المضمحل، والعيش الفانى المشوب بالتنفيس وأنواع التضعضع، ورغبة في هذه الحياة، وشوقاً إلى ذلك الملكوت، ووجدوا بهذا السور، وطرباً على هذا الحد، واشتياقاً لهذا النسيم، الوارد من عمل النعيم المقيم.

ولعمري الله إن من سافر إلى بلد العدل والخصب، والأمن والسرورة صَبِرَ في طريقه على كل مشقة، وإعواز وجذب. وفارق المتخلفين أحوج ما كان إليهم، وأجاب النادى إذا نادى به: حى على الفلاح. ويتدل تقصُّت في الوصول بتدل المحب بالرضى والسماح، وواصل السير بالندو والرواح. فحمد عند الوصول مشراه، وإنما يحمد المسافر الشرى عند الصباح.

عند الصباح يحمد القوم الشرى وفي المساء يحمد القوم البقا

وما هذا والله بالصعب ولا بالشديد، مع هذا العمر القصير، الذى هو بالنسبة إلى تلك الدار كساعة من نهار (٤٦: ٣٥) كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار (١٠: ٤٥) ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم (٧٩: ٤٦) كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها (٣٠: ٥٥) ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة (٢٣: ١١٢ - ١١٤) قال: كم لبثتم في الأرض عدد سنين؟ قالوا: لبثنا يوما، أو بعض يوم. فاسأل العادين * قال: إن لبثتم إلا قليلا. لو أنكم كنتم تعلمون).

فتواخسرتاه على بصيرة شاهدة هاتين الحياتين على ما هما عليه، وعلى همة تؤثر الأدنى على الأعلى. وما ذاك إلا يتوحيق من أزقة الأمور بيديه. يومنه ابتداء كل شيء وانتهاؤه إليه، أقعد نفوس من غلبت عليهم الشقاوة عن السفر إلى هذه الدار، وجذب قلوب من سبقته لهم منه الحسن. وأقامهم في الطريق، وشغل عليهم ركوب الأخطار. فأضاع أولئك مراحل أعمارهم مع المتخلفين وقطع هؤلاء مراحل أعمارهم مع السائرين. وغدقت الغيرة وثار القجاج، فتوارى عنه السائرون والمتخلفون. وسيتجلى عن قريب. فيفوز العاملون، ويخسر المبطلون.

ومن طيب هذه الحياة ولذتها: قال النبي صلى الله عليه وسلم «ما من نفس تموت - لها عند الله خير - يسرها أن ترجع إلى الدنيا، وأن لها الدنيا وما فيها، إلا الشهيد. فإنه يتمنى الرجوع إلى الدنيا. لما يرى من كرامة الله له» يعنى ليقول فيه مرة أخرى. وسمع بعض العارفين منشدا يشد:

دَّة، وهو ما يقوله الفيلسفي
في حناها البليد والألمعي
من. كما صارت تحتها الكؤذي
ك والشبهة السؤال الجلي

إنما العيش في بهيمية الله
حكم كأس النون: أن يتساوى
و يصير الخبيث تحت قري الأور
قتل الأرض عنهما إن أزال الش

فقال: قاتله الله، ما أشد معاندته للدين والعقل! هذا نفّس عدو الفطرة، والشرعة، والعقل والإيمان والحكمة. يا مسكين: أمن أجل أن الموت تساوى فيه الصالح والطالح، والعالم والجاهل، وصاروا جميعاً تحت أطباق الثرى: يجب أن يتساوا في العاقبة؟ أما تساوى قوم سافروا من بلد إلى بلد في الطريق؟ فلما بلغوا القصد نزل كل واحد في مكان كان مُعدّاً له، وتلقّى بغير ما تلقّى به رفيقه في الطريق. أمّا لكل قوم دار فأُخْلِيس كل واحد منهم حيث يليق به؟ وقبول هذا بشيء، وهذا بضده؟ أما قدم على المئذ من جاءه بما يحبه. فأكرمه عليه، ومن جاءه بما يسخطه، فعاقيه عليه؟ أما قدم ركب المدينة. فنزل بعضهم في قصورها وبساتينها وأماكنها الفاضلة. ونزل قوم على قوارع الطريق بين الكلاب؟ أما قدم اثنان من بطن الأم الواحدة. فصار هذا إلى المُلْك، وهذا إلى الأسر والعناء؟.

وقولك «سل الأرض عنهما» أما إنا قد سألتناها، فأخبرتنا: أنها قد ضمت أجسادهم وجشّتهم وأوصالهم، لا كفرهم وإيمانهم، ولا أنسابهم وأحسابهم، ولا حلمهم وسفهمهم، ولا طاعتهم ومعصيتهم، ولا يقينهم وشكهم، ولا توحيدهم وشركهم، ولا جورهم وعدلهم، ولا علمهم وجهلهم. فأخبرتنا عن هذه الجثث البالية والأبدان المتلاشية، والأوصال المتمزقة، وقالت: هذا خير ما عندي.

وأما خبر تلك الأرواح، وما صارت إليه: فسألوا عنها كتب رب العالمين، ورسله الصادقين، وخلفاءهم الوارثين. سلوا القرآن، فعنده الخبر اليقين. وسلوا من جاء به، فهو بذلك أعرف العارفين. وسلوا العلم والإيمان، فهما الشاهدان المقبولان. وسلوا العقل والفطر، فعندها حقيقة الخبر (٤٥: ٢١) أم حسب الذين اجترحوا السيئات: أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات. سواء محياهم ومماتهم؟ ساء ما يحكمون) تعالى الله — أحكم الحاكمين — عن هذا الظن والحسبان. الذي لا يليق إلا بأجهل الجاهلين.

ثم قال: الناظر في هذا الباب رجلاً. رجل ينظر إلى الأشياء، ورجل ينظر في الأشياء. فالأول: يمار فيها. فإن صورها وأشكالها وتخطيطها تستفرغ ذهنه وحسه، وتبدد فكره وقلبه. فنظره إليها بعين حسّه، لا يفيد منها ثمرة الاعتبار. ولا زُبدة الاختبار. لأنه لما فقد الاعتبار أولاً، فإنه فقد الاختيار ثانياً.

وأما الناظر في الأشياء: فإن نظره يمتص على العبور من صورها إلى حقائقها والمراد بها. وما اقتضى وجودها من الحكمة البالغة، والعلم التام. فيفيد هذا النظر تمييز مراتبها، ومعرفة نافعها من ضارها، وصحيحها من سقيمها، وباقيا من فانيها، وقشرها من لبّها. ويميز بين الوسيلة والغاية، وبين وسيلة الشيء ووسيلة ضده. فيعرف حينئذ أن الدنيا قشّر والآخرة لبّها وأن الدنيا عمل الزرع، والآخرة وقت الحصاد. وأن الدنيا معبر ومر، والآخرة دار مستقر.

وإذا عرف أن الدنيا طريق وممر: كان حَرَامًا بتهيئة الزاد لقراره، و يعلم حيثنأ أنه لم ينشأ في هذه الدار للاستيطان والخلود. ولكن للجواز إلى مكان آخر، هو المنزل والموت. وأن الإنسان دُعي إلى ذلك بكل شريعة، وعلى لسان كل نبي، وبكل إشارة ودليل. ونُصب له على ذلك عِلْم، وضرب لأجله كل مثل. ونبه عليه بنشأته الأولى ومبادئه، وسائر أحواله، طعمه وشربه، وأرضه وسمائه. بحيث أزيلت عنه الشبهة، وأوضحت له المحجة، وأقيمت عليه الحجة. وأعذر إليه غاية الإعدار، وأمهّل أتم الإمهال. فاستبان لذى العقل الصحيح والفضيلة السليمة: أن الظن عن هذا المكان ضروري، والانتقال عنه حق لا مِرْيَة فيه. وأن له محلا آخر. له قد أنشأ. ولأجله قد خلق. وله هُتْيَاء. فمضيه إليه. وقدمه بلا ريب عليه. وأن داره هذه: منزل عبور، لا منزل قرار.

وبالجملة: من نظر في الموجودات، ولم يقتنع بمجرد النظر إليها وحدها: وجدها دالة على أن وراء هذه الحياة حياة أخرى أكمل منها. وأن هذه الحياة بالنسبة إليها كالنم إلى البيضة. وكالظل بالنسبة إلى الشخص. وسمعها كلها تنادي بما نادى به ربها وخلقتها وفطرها (٣٥: ٤) بأيتها الناس، إن وعد الله حق. فلا تفرنكم الحياة الدنيا، ولا يفرنكم بالله الغرور) وتنادي بلسان الحال؛ بما نادى به ربها بصريح المقال (١٨: ٤٥) واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء. فاختلط به نبات الأرض. فأصبح هشيماً تذروه الرياح. وكان الله على كل شيء مقبلاً وقال تعالى (١٠: ٢٤) إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء، فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام. حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت، وظن أهلها أنهم قادرون عليها: أتأها أمرنا ليلاً أو نهاراً. فجعلناها خصيداً كان لم تقر بالأمس. كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) وقال تعالى (٥٧: ٢٠) اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة، وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد. كمثل غيث أعجب الكفار نباته. ثم يهيج، فتراه مصفراً. ثم يكون حطاماً، وفي الآخرة عذاب شديد. ومغفرة من الله ورضوان. وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) ثم ندبهم إلى المسابقة إلى الدار الآخرة الباقية التي لا زوال لها. فقال (٥٧: ٢١) سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض. أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. والله ذو الفضل العظيم).

وسمع بعض العارفين منشداً ينشد عن بعض الزنادقة عند موته — وهو محمد ابن زكريا الرازي المتطبع —:

لعمري ما أدري — وقد أذن إليّ
بحاجل يزحالي — إلى أين ترحالي؟
وأيّن محل الروح بعد خروجه
عن الهيكل المنحل والجسد البالي؟

فقال: وما علينا من جهله. إذا لم يدرك أين ترحاله؟ ولكننا ندرى إلى أين ترحالنا وترحاله. أما ترحاله: فإلى دار الأشتياء، وعمل المتكرين لقدرة الله وحكمته، والمكذبين بما اتفقت عليه كلمة المرسلين عن ربهم. (١٣: ٥ أولئك الذين كفروا بربهم: وأولئك الاغلال في أعناقهم، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) (٣٢: ١٠ - ١٢ وقالوا: أنذا ضللتنا في الأرض أثناً لفي خلق جديد؟ بل هم ببقاء ربهم كافرون. قل: يتوفاكم ملك الموت الذي وُكِّلَ بكم. ثم إلى ربكم ترجعون. ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم. ربنا أبصرنا وسمعنا. فارجعنا لعمل صالِحاً إنا موقنون).

وأما ترحالنا، أيها المسلمون، المصدقون ببقاء ربهم، وكتبه ورسله: فإلى نعيم دائم، وخلود متصل، ومقام كريم، وجنة عرضها السموات والأرض في جوار رب العالمين، وأرحم الراحمين، وأقدر القادرين، وأحكم الحاكمين، الذي له الخلق والأمر، وبيده النفع والضر، الأول بالحق، الموجود بالضرورة، المعروف بالفطرة، الذي أقرت به العقول، ودلت عليه كل الموجودات، وشهدت بوحدانيته وربوبيته جميع المخلوقات، وأقرت بها الفطر. المشهود وجوده وقبوميته بكل حركة ومكون، بكل ما كان وما هو كائن وما سيكون. الذي خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأنتج به حدائق ذات بهجة من أنواع النباتات، وبث به في الأرض جميع الحيوانات (٢٧: ٦١ أمن جعل الأرض قراراً. وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً) الذي يجيب المضطر إذا دعاه، وينثي الملهوف إذا ناداه. ويكشف السوء ويفرج الكربات. ويقل العثرات. الذي يهدي خلقه في ظلمات البر والبحر، ويرسل الرياح بُشْراً بين يدي رحمته. فيحيي الأرض بوابل القطر. الذي يبدأ الخلق ثم يعيده. ويرزق من في السماوات والأرض من خلقه وعبيده. الذي يملك السمع والأبصار والأفئدة. ويخرج الحي من الميت. ويخرج الميت من الحي، ويدبر الأمر (٢٣: ٨٨ الذي بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه) (٢٥: ٢، ٣ الذي له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك. وخلق كل شيء فقدره تقديراً) المستعان به على كل نائبة وفادحة، والمعهود منه كل بر وكرامة. الذي عنت له الوجوه، وخشعت له الأصوات، وتبخت بحمده الأرض والسماوات، وجميع الموجودات. الذي لا تسكن الأرواح إلا بحبه، ولا تطمئن القلوب إلا بذكره، ولا تزكو العقول إلا بمرعته، ولا يُدْرَك النجاح إلا بتوقيفه، ولا تخيا القلوب إلا بتسليم لطفه وقربه، ولا يقع أمر إلا بإذنه، ولا يهتدى ضال إلا بهدائه، ولا يستقيم ذو أود إلا بتقواه، ولا يفهم أحد إلا بتفهمه. ولا يُخلص من مكروه إلا برحمته، ولا يُحفظ شيء إلا بكلاءته، ولا يُفتتح أمر إلا باسمه، ولا يتم إلا بحمده، ولا يُدْرَك مأمول إلا

بتيسيره، ولا تنال سعادة إلا بطاعته، ولا حياة إلا بذكره ومحبه ومعرفته، ولا طاب الجنة إلا بسمع خطابه ورؤيته. الذى وسع كل شئ رحمة وعلماً، وأوسع كل غلوق فصلاً وبراً
فهو الإله الحق. والرب الحق.

والملك الحق. والتفرد بالكمال المطلق من كل الوجوه. المبرأ عن النقائص والعيوب من كل الوجوه. لا يبلغ المثون — وإن استوعبوا جميع الأوقات بكل أنواع الثناء — ثناء عليه، بل ثناؤه أعظم من ذلك فهو كما أثنى على نفسه. هذا الحار.

وأما الدار: فلا تعلم نفس حستها وبهاءها، وسعتها ونعيمها. وبهجتها وروحها وراحتها. فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت. ولا خطر على قلب بشر. فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين. فهى الجامعة لجميع أنواع الأفراح والمزات، الخالية من جميع المنكذات والمنقصات، رخانة تهتز، وقصر مشيد، وزوجة حسناء، وفاكهة نضيجة

فترحالنا إليها — الصادقون المصدقون — إلى هذه الدار يادون ربنا وتوفيقه وإحسانه.

وترحال الكاذبين إلى الدار التى أعدت لمن كفر بالله ولقائه، وكتبه ورسله.

ولن يجمع الله بين الموحدين له — الطالبين لمراضاته، الساعين فى طاعته، الدائنين فى خدمته، المجاهدين فى سبيله — وبين الملحدين، الساعين فى مباحطه، الدائنين فى معصيته، المستغربين جهدهم فى أهوائهم وشهواتهم: فى دار واحدة، إلا على سبيل الجواز والعبور. كما جمع بينهما فى هذه الدنيا. ويجمع بينهم فى موقف القيامة. فحاشاه من هذا الظن السيئ الذى لا يليق بكماله وحكمته.

وفى هذه المرتبة تعلم حياة الشهداء، وأنهم عند ربهم يرزقون، وأنها أكمل من حياتهم فى هذه الدنيا، وأتم وأطيب. وإن كانت أحسادهم متلاشية، ولحومهم متفرقة. وأوصالهم متفرقة، وعظامهم نخرة. فليس العمل على القتل، بما الشأن والساكن. قال الله تعالى (٣: ١٦٨) ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً. بل أحياء عند ربهم يرزقون) وقال تعالى (٢: ١٥٤) ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء. ولكن لا تشعرون) وإذا كان الشهداء إنما نالوا هذه الحياة بمتابعه الرسل وعلى أيديهم. فما الظن بحياة الرسل فى البرزخ؟ ولقد أحسن القائل ما شاء:

فالعيش نوم. والمثبة يقظة والمرء بينهما حيال سارى

فللرسل والشهداء والصدّيقين من هذه الحياة — التى هى يقظة من يوم الدنيا — أكملها وأتمها. وعلى قدر حياة العبد فى هذا العالم يكون شوقه إلى هذه الحياة، وسعيه وحرصه على الظفر بها. والله المستعان.

• التمام هنالك، والرفاء ثم

ثم من مراتب الحياة:

الحياة الدائمة الباقية بعد طَيَّ هذا العالم. وذهاب الدنيا وأهلها في دار الحيوان. وهي الحياة التي شمر إليها المشمرون. وسابق إليها المتسابقون. ونافس فيها المتنافسون. وهي التي اجرينا الكلام إليها. ونادت الكتب السماوية ورسل الله جميعهم عليها. وهي التي يقول من فاتته الاستعداد لها (٨٩: ٢١ - ٢٦) إذا دُكَّت الأرض دكا دكا * وجاء ربك والملك صفا صفا * وجىء يومئذ بجهنم، يومئذ يتذكر الإنسان. وأتَى له الذكرى؟ * يقول: يا ليتنى قدمت لحياتى. فيومئذ لا يُعَذَّب عذابه أحد. ولا يُؤْتَق وثاقه أحد) وهي التي قال الله عز وجل فيها (٢٩: ٦٤) وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب، وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون).

والحياة المتقدمة كالنوم بالنسبة إليها. وكل ما تقدم — من وصف السير ومنزله، وأحوال السائرين، وعبوديتهم الظاهرة والباطنة — فوسيلة إلى هذه الحياة. وإنما الحياة الدنيا، بالنسبة إليها، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يُدخِل أحدكم إصبهه في اليمِّ فلينظر يرم ترجع؟».

وكما قيل: تنفست الآخرة. فكانت الدنيا نفساً من أنفاسها. فأصاب أهل السعادة نفَس نعيمها. فهم على هذا النفس يعملون. وأصاب أهل الشقاوة نفس عذابها. فهم على ذلك النفس يعملون.

وإذا كانت حياة أهل الإيمان والعمل الصالح في هذه الدار حياة طيبة. فما الظن بحياتهم في البرزخ، وقد تخلصوا من سجن الدنيا وضيقها؟ فما الظن بحياتهم في دار النعيم المقيم الذي لا يزول. وهم يرون وجه ربهم تبارك وتعالى بُكْرَةً وَعَشِيًّا و يسمعون خطابه؟. فإن قلت: ما سبب تخلف النفس عن طلب هذه الحياة التي لا تخطر لها، وما الذي زُفدها فيها؟ وما سبب رغبتها في الحياة الفانية المضمحلة، التي هى كالحَيَالِ والمُتَمَامِ؟ افساداً في تصورهما وشعورهما؟ أم تكذيب بتلك الحياة؟ أم لآفة في العقل، وعمى هناك؟ أم إثارة للحاضر المشهود بالعيان على الغائب المعلوم بالإيمان؟

قيل: بل ذلك لمجموع أمور مركبة من ذلك كله.

وأقوى الأسباب في ذلك: ضعف الإيمان. فإن الإيمان هو روح الأعمال. وهو الباع عليها، والآمر بأحسنها، والناهى عن أفئحها. وعلى قدر قوة الإيمان يكون أمره ونهيه لصاحبه، وانتشار صاحبه وانتهاؤه. قال الله تعالى (٢: ٩٣) قل بنسما بأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين).

وبالجملة: فإذا قوى الإيمان قوى الشوق إلى هذه الحياة. واشتد طلب صاحبه لها.
السبب الثاني: جُشِمَ الغفلة على القلب. فإن الغفلة نوم القلب. ولهذا نجد كثيراً من
الأيقاظ في الحس نياماً في الواقع. فتحسبهم أيقاظاً وهم رقود، ضد حال من يكون يقظاً
القلب وهو نائم إذا قويت فيه الحياة لا ينام إذا نام البدن. وكمال هذه الحياة كان لنبينا صلى
الله عليه وسلم. ولمن أحيا الله قلبه بحبته واتباع رسالته على بصيرة من ذلك بحسب نصيبه
منهما.

فالغفلة واليقظة يكونان في الحس والعقل والقلب، فمستيقظ القلب وغافله كمستيقظ البدن
ونائمه. وكما أن يقظة الحس جل نوعين. فكذلك يقظة القلب على نوعين.
فالنوع الأول من يقظة الحس: أن صاحبها يتفقد في الأمور الحسية. ويتوغل فيها بكسبه
وظفاته، واحتياله وحسن تأتية.

والنوع الثاني: أن يُقْبِلَ على نفسه وقلبه وذاته. فيعتنى بتحصيل كماله. فيلاحظ عوالم الأمور
وسفسافها. فيؤثر الأجل على الأدنى. ويقدم خير الخيرين بتقويت أدناها. ويرتكب أخف
الشرين خشية حصول أقوامها. ويتحل بمكارم الأخلاق ومعال الشيم. فيكون ظاهره جميلاً،
وباطنه أجمل من ظاهره. وسريته خيراً من علانيته. فيزاحم أصحاب المعالي عليها كما يتزاحم
أهل الدينار والدرهم عليها. فهذه اليقظة يستعد للنوعين الآخرين منهما.
أحدهما: يقظته تبثه على اقتباس الحياة الدائمة الباقية، التي لا تخطر لها، من هذه الحياة
الزائلة الفانية، التي لا قيمة لها.

فإن قلت: مثّل لي، كيف تقتبس الحياة الدائمة من الحياة الفانية؟ وكيف يكون هذا؟
فإني لا أفهمه.

قلت: وهذا أيضاً من نوم القلب، بل من موته. وهل تقتبس الحياة الدائمة إلا من هذا الحياة
الزائلة؟ وأنت قد تشعل سراجك من سراج آخر قد أشفى على الانطفاء. فيتجد الثاني ويضيء
غاية الإضاءة، ويتصل ضوءه. وينطفئ الأول. والمقتبس لحياته الدائمة من حياته المنقطعة:
إنما ينتقل من دار منقطعة إلى دار باقية. وقد توسط الموت بين الدارين. فهو قنطرة لا يعبر إلى تلك
الدار إلا عليها، وباب لا يدخل إليها إلا منه. فهما حياتان في دارين بينهما موت؛ وكما أن
نور تلك الدار مقتبس من نور هذه الدار، فحياتها كذلك مقتبسة من حياتها. فعلى قدر نور الإيمان
في هذه الدار يكون نور العبد في تلك الدار. وعلى قدر حياته في هذه الدار تكون حياته هناك.

نعم هذا النور والحياة، الذي يقتبس منه ذلك النور والحياة، لا يتقطع. بل يضيء للمبدى في
البرزخ، وفي موقف القيامة، وعلى الصراط. فلا يفارقه إلى دار الحيوان. يطفأ نور الشمس وهذا
النور لا يطفأ. وتبطل الحياة المحبوسة وهذه الحياة لا تبطل. هذا أحد نوعي يقظة القلب.

النوع الثاني: بقطة تبعث على حياة. لا تدركها العبارة. ولا ينالها التوهم. ولا يطابق فيها اللفظ لمعناه البتة. والذي يشار به إليها: حياة المحب مع حبيبه، الذي لا قوام لقلبه وروحه وحياته إلا به ولا غنى له عنه طرفة عين. ولا قرّة لعينه، ولا طمأنينة لقلبه، ولا سكون لروحه، إلا به. فهو أروح إليه من سمعه وبصره وقوته وعذاب حجاب عته: أعظم من العذاب الآخر. كما أن نعيم القلب والروح بإزالة ذلك الحجاب: أعظم من النعيم بالأكل والشرب، والتبضع بالخور العين. فهكذا عذاب الحجاب: أعظم من عذاب الجحيم. ولهذا جمع الله سبحانه لأوليائه بين النعيمين في قوله (١٠: ٢٦) للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) فالحسنى الجنة. والزيادة: رؤية وجهه الكريم. في جنات عدن. وجمع لأعدائه بين العذابين في قوله (٨٣: ١٥) كلا. إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون * ثم إنهم لصالوا الجحيم).

وللتقصود: أن الغفلة هي نوم القلب عن طلب هذه الحياة. وهي حجاب عليه. فإن كشف هذا الحجاب بالذكر وإلا تكاثف حتى يصير حجاب بطالة ولعب، واشتغال بما لا يفيد. فإن يادر إلى كشفه، وإلا تكاثف حتى يصير حجاب معاص وذنوب صفار تبعده عن الله. فإن يادر إلى كشفه، وإلا تكاثف حتى صار حجاب كباثر توجب مقت الرب تعالى له، وغضبه ولعنته. فإن يادر إلى كشفه، وإلا تكاثف حتى صار حجاب بدع عملية يعذب العامل فيها نفسه. ولا تجدى عليه شيئاً. فإن يادر إلى كشفه، وإلا تكاثف حتى صار حجاب بدع قولية اعتقادية. تتضمن الكذب على الله ورسوله. والتكذيب بالحق الذي جاء به الرسول. فإن يادر إلى كشفه وإلا تكاثف حتى صار حجاب شك وتكذيب. يقدح في أصول الإيمان الخمس. وهي: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، ولقائه. فلغلظ حجابيه وكثافته، وظلمته وسواده: لا يرى حقائق الإيمان. ويتمكن منه الشيطان، يبعده ويؤمّته، والنفس الأمارة بالسوء تهوى وتشتته. وسلطان الطبع قد ظفر بسلطان الإيمان. فأسره وسجنه، إن لم يهلكه. وتولى تدبير الملكة واستخدم جنود الشهوات، وأقطعها العوائد التي جرى عليها العمل. وأغلق باب البقطة. وأقام عليه بواب الغفلة. وقال: إياك أن تؤتى من قبلك. وأخذ حاجبا من الموى، وقال: إياك أن تمكّن أحداً يدخل عليّ إلا مئك. فأمر هذه الملكة قد صار إليك وإلى البواب. فيا بواب الغفلة، ويا حاجب الموى ليلزم كل منكما ثغره، فإن أخليتما فسد أمر مملكتنا، وعادت الدولة لغيرنا، وسامنا سلطان الإيمان شر الحزى والموان. ولا نفرح بهذه المدينة أبداً.

فلا إله إلا الله! إذا اجتمعت على القلب هذه المساكر، مع رقة الإيمان، وقلة الأعوان، والاعراض عن ذكر الرحمن، والانخراط في سلك أبناء الزمان، وطول الأمل المفسد للإنسان.

أن أثر العاجل المحاضر على الغائب الموعود به بعد على هذه الاكوان. قاله المستعان وعليه التكلاّن.

ولما كان كل حيوان متنفساً، فإن النفس موجب الحياة وعلامتها: كانت أنفاس الحياة خمسة أنفاس: نفس الخوف، ومصدره: مطالعة الوعيد، وما أعد الله لمن أثر الدنيا على الآخرة. والمخلوق على الخالق، والموى على الهدى، والقي على الرشاد.

ونفس الرجاء، ومصدره: مطالعة الوعد، وخس الظن بالرب تعالى. وما أعد الله لمن أثر الله ورسوله، والدار الآخرة، وحكم الهدى على الموى، والوحي على الآراء، والسنة على البدعة، وما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه على عوائد الخلق.

ونفس بالجنة، مصدره: مطالعة الأسماء والصفات، ومشاهدة النعماء والآلاء.

فإذا ذكر فتوبه: تنفس بالخوف. وإذا ذكر رحمة ربه، وسعة مغفرته وعفوه: تنفس بالرجاء. وإذا ذكر جماله وجلاله وكماله وإحسانه وإنعامه: تنفس بالحب. فالنفس الصادر عن هذه الملاحظة والمطالعة: أشرف أنفاس العبد على الإطلاق. فأين نفس للشقاق المحب الصادق إلى نفس الخائف الراجي؟ ولكن لا يحصل له هذا النفس إلا بتحصيل ذينك النفسين، فإن أحدهما ثمرة تركه للمخالفات. والثاني: ثمرة فعله للطاعات. فمن هذه النفسين يصل إلى النفس الثالث.

ثم نفس الاضطراب، وذلك لا تقطاع أملة مما سوى الله. فيضطر حيثن — بقلبه وروحه ونفسه ويدينه — إلى ربه ضرورة تامة. بحيث يجد في كل منبت شجرة منه قاعة تامة إلى ربه ومعبوده. فهذا النفس نفس مضطر إلى ما لا غنى له عنه طرفة عين. وضرورته إليه من جهة كونه ربه، وخالفه وفاضله وناصره، وحافظه ومعينه ورازقه، وهاديه ومعافيه، والقائم بجميع مصالحه ومن جهة كونه: معبوده وإلهه، وحبيبه الذي لا تكمل حياته ولا تنفع إلا بأن يكون هو وحده أحب شيء إليه، وأشوق شيء إليه.

فإذا علت هذه الأنفاس: حصل له القرب من ربه والأنس به، والفرح به، وبالخلق التي خلصها ربه على قلبه وروحه، مما لا يقوم لبعضه ممالك الدنيا بعذابها، فحيثن يتنفس نفساً آخر يقال له: نفس الافتخار، يجد به من التفرج والترويح والراحة والانشراح ما يشبه — من بعض الوجوه — بنفس من جعل في عنقه جبل ليخفق به حتى يموت. ثم كشف عنه وقد حبس نفسه. فتتنفس نفس من أعيدت عليه حياته. وتخلص من أسباب الموت.

فإن قلت: ما للعبد والافتخار؟ وأين العبودية من نفس الافتخار؟

قلنا: لا نريد بذلك: أن العبد يفتخر بذلك. ويختال على بني جنسه. بل هو فرح وسرور لا يمكن دفعه عن نفسه بما فتح عليه ربه. ومنحه إياه، وخصه به. وأول ما فرح به العبد: فضل ربه

عليه . فإنه تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده . ويحب الفرح بذلك . لأنه من الشكر . ومن لا يفرح بنعمة النعم لا يعد شكوراً . فهو افتخار بما هو محض منة الله ونعمته على عبده ، لا افتخار بما من العبد . فهذا هو الذي يتنافى العبودية لأذاك .

وهنا سر لطيف . وهو أن هذا النفس يفخر على أنفاسه التي ليست كذلك . كما تفخر الحياة على الموت ، والعلم على الجهل ، والسمع على الصمم ، والبصر على العمى . فيكون الافتخار للنفس على النفس ، لا للمتفلس على الناس . والله أعلم .

(٦٢) مَنْزِلَةُ الْمَعْرِفَةِ

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «المعرفة».

قال الله تعالى (٥: ٨٦) وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق.

وقد تكلموا على «المعرفة» بآثارها وشواهدا. فقال بعضهم: من إمارات المعرفة بالله: حصول المحبة منه، فمن ازدادت معرفته ازدادت هيبته.

وقال أيضاً: المعرفة توجب السكون. فمن ازدادت معرفته ازدادت سكينة.

وقال لى بعض أصحابنا: ما علامة المعرفة التى يشيرون إليها؟ فقلت له: أنس القلب بالله.

قال لى: علامتها أن يحس يقرب قلبه من الله. فيجده قريباً منه.

وقال أحمد بن عاصم: من كان بالله أعرف: كان له أخوف. ويدل على هذا قوله تعالى (٣٥: ٢٨) إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ وقول النبى صلى الله عليه وسلم «أنا أعرفكم بالله. وأشدكم له خشية».

وقال آخر: من عرف الله تعالى ضاقت عليه الدنيا بسعتها.

وقال غيره: من عرف الله تعالى اتسع عليه كل ضيق.

ولا تنافي بين هذين الأمرين. فإنه يضيق عليه كل مكان لا يساعد فيه على شأنه ومطلوبه.

ويتسع عليه ما ضاق على غيره. لأنه ليس فيه، ولا هو مساكين له بقلبه. فقلبه غير عجوس فيه.

والأول: فى بداية المعرفة. والثانى: فى نهايتها التى يصل إليها العبد.

وقال آخر: من عرف الله تعالى صفا له العيش. فطابت له الحياة. وهابه كل شئ وذهب عنه خوف المخلوقين. وأنس بالله.

وقال غيره: من عرف الله قرت عينه بالله. وقرت عينه بالموت. وقرت به كل عين. ومن لم يعرف الله تقطع قلبه على الدنيا حشرات. ومن عرف الله لم يبق له رغبة فيما سواه. ومن ادعى معرفة الله — وهو راغب فى غيره —: كذبت رغبته معرفته. ومن عرف الله أحبه على قدر معرفته به. وخافه ورجاه، وتوكل عليه، وأتاب إليه. ولهج بذكره. واشتاق إلى لقائه. واستحيا منه. وأجله وعظمه على قدر معرفته به.

ومن علامات المعرفة: أن يبدو لك الشاهد، وتضى الشاهد. وتنحل العلائق. وتنقطع الموائق. وتجلس بين يدي الرب تعالى، وتقوم وتضطجع على التأهب للقاء، كما يجلس الذي شد أحماله وأزمع السفر على التأهب له. ويقوم على ذلك ويضطجع عليه. كما ينزل المسافر من المنزل. فهو قائم وجالس ومضطجع على التأهب.

وقيل للجنيـد: إن أقواما يدعون المعرفة، يقولون: إنهم يصلون بترك الحركات من باب البر والتقوى؟ فقال الجنيـد: هذا قول أقوام تكلموا بإسقاط الأعمال، وهو عندى عظيم. والذي يسرق ويبنى أحسن حالاً من الذي يقول هذا. إن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله. ولله وجهوا فيها. ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة إلا أن يحال بيني وبينها. ومن علامات العارف: أنه لا يطالب ولا يخاصم، ولا يعاتب، ولا يرى له على أحد فضلا. ولا يرى له على أحد حقاً.

ومن علاماته: أنه لا بأسف على فاته. ولا يفرح بآت: لأنه ينظر إلى الأشياء بعين الفناء والزوال. لأنها في الحقيقة كالظلال والخيال. وقال الجنيـد: لا يكون العارف عارفاً حتى يكون كالأرض يظاها البر والفاجر، وكالسحاب يظل كل شيء، وكالمطري حتى ما يجب ومالا يجب. وقال يحيى بن معاذ: يخرج العارف من الدنيا ولم يقض وطره من شئين: بكاء على نفسه، وشاء على ربه. وهذا من أحسن الكلام. فإنه يدل على معرفته بنفسه، وعيوبه وأفاته، وعلى معرفته بربه وكماله وجلاله، فهو شديد الآراء على نفسه، لهج بالثناء على ربه.

وقال آخر: لا يكون العارف عارفاً حتى لو أعطى ملك سليمان لم يشغله عن الله طرفة عين. وهذا يحتاج إلى شرح. فإن ما هودون ذلك يشغل القلب، لكن يكون اشتغاله بغير الله لله. فذلك اشتغال به سبحانه. لأنه اشتغل بغيره لأجله لم يشغل عنه.

ومن علاماته: أنه مستأنس بربه، مستوحش ممن يقطعه عنه. وهذا قيل: العارف من أنس بالله، فأوحشه من الخلق، وانصرف إلى الله فأغناه عنهم. وذل لله فأعزه فيهم. وتواضع لله فرحمهم. واستغنى بالله فأحوجهم إليه.

قيل: والعارف يتلون أقسام المبودية. فيبينا تراه مصلياً إذ رأته ذاكرة، أو قارئاً، أو معلماً، أو مجاهداً، أو حاجاً، أو مساعداً للضعيف، أو مغنياً للملهوف. فيضرب في كل غنيمة من الغنائم بسهم. فهو مع المتعلمين متعلم، ومع الفزاة فزاة، ومع المصلين مصل، ومع المتصدقين متصدق. فهو ينتقل في منازل المبودية من عبودية إلى عبودية. وهو مقیم على معبود واحد. لا ينتقل في منازل المبودية إلى غيره.

وقال يحيى بن معاذ: العارف كائن بائن. وهذا يفسر على وجوه. منها: أنه كائن مع الخلق بظاھره. بائن عنهم بسره وقلبه.

ومنها: أنه كائن مع أبناء الآخرة، بائن عن أبناء الدنيا.
ومنها أنه كائن مع الله بموافقته. بائن عن الناس في مخالفته.
وقيل: إن من علامة العارف: «أن لا يعتقد باطناً من العلم يتقضه عليه ظاهر من الحكم.
ولا تحمله كثرة نعم الله على هتك أستار عارم الله».

وقوله «باطن العلم الذي يتقضه ظاهر الحكم» فإنه يشير به إلى ما عليه المنحرفون، ممن ينسب إلى السلوك. فإنهم يقع لهم أذواق ومواجيد، وواردات تخالف الحكم الشرعي. وتكون تلك معلومة لهم لا يمكنهم جدها. فيعتدون بها ويتركون بها ظاهر الحكم. وهذا كثير جداً. وهو الذي انتقد أئمة الطريق على هؤلاء. وصاحوا بهم من كل ناحية. ويدعواهم وضللهم به.

وقوله «ولا تحمله كثرة نعم الله على هتك أستار عارم الله» كثرة النعم تطفئ العبد، وتحمله على أن يصرفها في وجوهها وغير وجوهها. وهي تدعو إلى أن يتناول العبد بها ماحل ومالا يحل. وأكثر المنعم عليهم لا يقصرون في صرف النعمة على القدر الحلال. بل يتعداه إلى غيره، وتُسَوِّك له نفسه أن معرفته بالله ترد عليه ما انتهت منهم أيدي الشهوات والمخالفات. ويقول: العارف لا تبصره الذنوب، كما تضر الجاهل. وربما يُسَوِّك له أن ذنوبه خير من طاعات الجاهل. وهذا من أعظم المكر. والأمر بضد ذلك. فيحتل من الجاهل مالا يحتل من العارف وإذا عوقب الجاهل ضيقاً عوقب العارف ضعفين. وقد دل على هذا شرع الله قال تعالى في نساء النبي صلى الله عليه وسلم (٢٣: ٣٧) يانساء النبي قن يأتينكن فاحشاً مبيته. يُصَافِحْنَها العذاب ضعفين) فإذا أكملت النعمة على العبد، فقابلها بالإساءة والعصيان: كانت عقوبته أعظم. فدرجته أعلى وعقوبته أشد.

وقيل: بحالسة العارف تدعوك من ست إلى ست: من الشك إلى اليقين. ومن الرياء إلى الإخلاص. ومن الخفلة إلى الذكر. ومن الرغبة في الدنيا إلى الرغبة في الآخرة. ومن الكبر إلى التواضع. ومن سوء الطوية إلى النصيحة.

• ثبت صفات الله تعالى بلا تأويل ولا تشبيه

وقال شيخ الإسلام الهروي:
«المعرفة: معرفة الصفات التي وردت أساميها بالرسالة، وظهرت شواهدا في الصنعة. وهي على أربعة أركان: إثبات الصفات باسمها من غير تشبيه، ونفي التشبيه عنها من غير تعطيل، والإياس من ادراك كنهها وابتغاء تأويلها، مع إسقاط التفريق بين الصفات والذات».

وهذا من جيد الكلام، ويدل على علو كعب المروي.

وذلك أنه لا يستقر للعبد قدم في المعرفة — بل ولا في الإيمان — حتى يؤمن بصفات الرب جل جلاله، ويعرفها معرفة تجزيه عن حد الجهل بربه. فالإيمان بالصفات وتعرّفها: هو أساس الإسلام، والإيمان، وثمرة شجرة الإحسان، فمن جحد الصفات فقد هدم أساس الإسلام، وقاعدة الإيمان وثمرة شجرة الإحسان، فضلاً عن أن يكون من أهل العرفان. وقد جعل الله سبحانه منكبر صفاته مسمى الظن به. وتوعده بما لم يتوعد به غيره من أهل الشرك والكفر والكيافير. فقال تعالى (٤١: ٢٢، ٢٣) وما كنتم تسترون أن يشهد عليكم سمعكم، ولا أبصاركم، ولا جلودكم. ولكن ظننتم: أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون * وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم. فأصبحتم من الخاسرين) فأخبر سبحانه: أن إنكارهم هذه الصفة من صفاته: من سوء ظنهم به. وأنه هو الذي أهلكهم. وقد قال في الظانين به ظن السوء (٤٨: ٦٠) عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم. وأعد لهم جهنم. وساءت مصيراً) ولم يبيح مثل هذا الوعيد في غير من ظن السوء به سبحانه. وجحد صفاته وإنكار حقائق أبعاده: من أعظم ظن السوء به.

ولما كان أحب الأشياء إليه: حمده ومدحه، والثناء عليه بأسمائه وصفاته وأفعاله: كان إنكارها وجحدها أعظم الإلحاد والكفر به. وهو شر من الشرك. فالعطل شر من الشرك. فإنه لا يستوى جحد صفات الملك وحقيقة ملكه والظن في أوصافه هو، والتشريك بينه وبين غيره في الملك. فالعطلون أعداء الرسل بالذات. بل كل شرك في العالم فاصله التعطيل. فإنه لولا تعطيل كماله — أو بعضه — وظن السوء به: لما أشرك به، كما قال إمام الحنفية وأهل التوحيد لقومه (٣٧: ٨٦ و ٨٧) أنفكاً آهة دون الله تريدون؟ * فما ظنكم برب العالمين؟) أى فما ظنكم به: أن يجازيكم، وقد عبدتم معه غيره؟ وما الذى ظننتم به حتى جعلتم معه شركاء؟

أنظنتم: أنه محتاج إلى شركاء يُعينونه كالملوك؟ أم ظننتم أنه لا يقدر وحده على استقلاله بتدبيرهم وقضاء حاجتهم؟ أم هو قاس. فيحتاج إلى شفعاء يستعطفونه على عبادته؟ أم ذليل، فيحتاج إلى ولي يشكرك به من القلة، ويتمززه من الدلة؟ أم يحتاج إلى الولد، فيتخذ صاحبة يكون الولد منها ومنه؟ تعالى الله عن ذلك كله علواً كبيراً.

والمقصود: أن التعطيل مبدأ الشرك وأساسه. فلا تجدد معطلاً إلا وشركه على حسب تعطيله. فمستقل ومستكثر.

● معرفة الصفات: روح السلوك

والرسل من أولهم إلى خاتمهم — صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين — أرسلوا بالدعوة إلى الله. وبيان الطريق الموصول إليه. وبيان حال المدعوين بعد وصولهم إليه. فهذه القواعد الثلاث ضرورية في كل ملة على لسان كل رسول. فترقوا الرب المدعو إليه بأسمائه وصفاته وأفعاله تعريفاً مفصلاً، حتى كأن العباد يشاهدونه سبحانه. وينظرون إليه فوق سماواته على عرشه، يكلم ملائكته، ويدير أمر مملكته، ويسمع أصوات خلقه، ويرى أفعالهم وحركاتهم. ويشاهد بواطنهم، كما يشاهد ظواهرهم، يأمر وينهى. ويرضى ويغضب. ويحب ويسخط. ويضحك من قنوطهم وقرب غفوه. ويحبب دعوة مضطربهم. ويقيث ملهفهم. ويعين محتاجهم. ويخبر كسيرهم. ويغنى فقيرهم. ويميت ويحيي. ويمنع ويعطي. يؤتي الحكمة من يشاء. مالك الملك. يؤتي الملك من يشاء. وينزع الملك ممن يشاء. ويعز من يشاء. ويذل من يشاء. بيده الخير. وهو على كل شيء قدير. كل يوم هوفى شأن. يغفر ذنباً. ويفرج كرباً. ويفك عانياً. وينصر مظلوماً. ويقسم ظالماً. ويرحم مسكيناً. ويغيث ملهوفاً. ويسوق الأقدار إلى موافقتها. ويجريها على نظامها. ويقدم ما يشاء تقديعه. ويؤخر ما يشاء تأخير فآزجة الأمور كلها بيده. ومدار الممالك كلها عليه. وهذا مقصود الدعوة، وزبدة الرسالة.

القاعدة الثانية: تعريفهم بالطريق الموصول إليه. وهو صراط المستقيم، الذي نصبه لرحله وأتباعهم. وهو امتثال أمره، واجتناب نهيه، والإيمان بوعده ووعيدته.

القاعدة الثالثة: تعريف الحال بعد الوصول. وهو ما تضمنه اليوم الآخر من الجنة والنار. وما قبل ذلك من الحساب، والحوض والميزان والصراط.

فالإيمان بالصفات ومعرفتها، وإثبات حقائقها، وتعلق القلب بها، وشهودها: هو مبدأ الطريق ووسطه وغايته. وهو روح السالكين. وحاديهم إلى الوصول. ومحرك عزماتهم إذا فتروا. وشئير مهمهم إذا قصروا. فإن سيرهم إنما هو على الشواهد. فمن كان لا شاهد له فلا سير له، ولا طلب ولا سلوك له. وأعظم الشواهد: صفات عبودهم، ونهاية مطلوبهم. وذلك هو العلم الذي رُفِع لهم في السير فشمروا إليه، كما قالت عائشة رضي الله عنها «من رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رآه غادياً رائحاً. لم يضع لبنه على لبنة، ولكن رُفِع له علم فشمروا إليه» ولا يزال العبد في التواني والفتور والكسل، حتى يرفع الله عز وجل له — بفضلته ومَنِّه — تَقَلُّماً يشاهده بقلبه. فيشمروا إليه. ويعمل عليه.

فإن عَقَلَّتْ شواهد الصفات، ووضعت أعلامها عن القلوب، وطمست آثارها، وضربت بسياط البعد، وأشبِل دونها حجاب الطرد، وتخالفت مع المتخلفين، وأوحى إليها القَدَر: أن

اقمدي مع القاعدين. فإن أوصاف الدعوإليه، ونموت كماله، وحقائق أسمائه: هي الجاذبة للقلوب إلى محبته، وطلب الوصول إليه، لأن القلوب إنما تحب من تعرفه، وتحافه وترجوه وتشتاق إليه. وتلتذ بقربه، وتطمئن إلى ذكره، بحسب معرفتها بصفاته. فإذا ضرب دونها حجاب معرفة الصفات والإقرار بها: امتنع منها — بعد ذلك — ما هو مشروط بالمعرفة، وملزم لها. إذ وجود الملزم بدون لازمه، والشروط بدون شرطه: ممتنع.

فحقيقة المحبة، والإثابة والتوكل، ومقام الإحسان تمتع على المعطل كل الامتناع، إذ كيف تأله القلوب من لا يسمع كلامها. ولا يرى مكانها. ولا يحب ولا يهاب. ولا يقوم به فعل البتة، ولا يشكلم ولا ينكلم. ولا يقرب من شيء ولا يقرب منه شيء. ولا يقوم به رافة ولا رحمة ولا حنان، ولا له حكمة، ولا غاية يفعل ويأمر لأجلها؟.

فكيف يتصور على ذلك، ومحبته والإثابة إليه والشوق إلى لقائه، ورؤية وجهه الكريم في جنات النعيم. وهو مستر على عرشه فوق جميع خلقه؟ ألم كيف تأله القلوب من لا يحب ولا يحب، ولا يرضى ولا يضرب. ولا يخرج ولا يصحك؟.

فسيحان من حال بين اللطلة وبين محبته ومعرفة، والسرور والفرح به، والشوق إلى لقائه، وانتظار لذة النظر إلى وجهه الكريم، والتمتع بخطابه في محل كرامته ودار ثوابه! فلورأها أهلاً لذلك لمن عليها به. وأكرمها به. إذ ذاك أعظم كرامة يكرم بها عبده. والله أعلم حيث يجعل كرامته. ويضع نعمته (٥٣: ٦) وكذلك فتننا بعضهم ببعض، ويقولوا: أهؤلاء من الله عليهم من بيننا؟ أليس الله بأعلم بالشاكرين؟ (١٢٤: ٦) وإذا جاءهم آية قالوا: لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله. الله أعلم حيث يجعل رسالته (٣٢: ٤٣) أهم يقسمون رحمة ربك؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا. ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات. ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً. ورحمة ربك خير مما يجمعون) وليس جحودهم صفاته سبحانه، وحقائق أسمائه: في الحقيقة تنزيهاً. وإنما هو حجاب ضرب عليهم، فظنوه تنزيهاً. كما ضرب حجاب الشرك والبدع المضلة والشهوات المردية على قلوب أصحابها. وزين لهم سوء أعمالهم. فأروها حسنة.

وهذه الصفات دل عليها الوحي الذي جاء من عند الله على لسان رسوله. والحس الذي شاهد به البصير آثار الصنعة. فاستدل بها على صفات صانعها. والعقل الذي طابت حياته بزرع الفكر، والقلب الذي يحيا بحسن النظر بين التعظيم والاعتبار.

فأما الرسالة: فإنها جاءت بإثبات الصفات إثباتاً مفصلاً على وجه أزال الشبهة. وكشف الغطاء. وحصل العلم اليقيني. ورفع الشك والريب فتلجحت له الصدور. واطمأنت به القلوب. واستقر به الإيمان في نصابه. ففصلت الرسالة الصفات والأفعال اعظم من تفصيل الامر والنهي.

وقررت إثباتها أكمل تقرير في أبلغ لفظ، وأبعده من الإجمال والاحتمال، وأمنه من قبول التأويل. وكذلك كان تأويل آيات الصفات وأحاديثها بما يخرجها عن حقائقها من جنس تأويل آيات المعاد وأخباره. بل أبعده منه لوجوه كثيرة. ذكرتها في كتاب «الصواعق المرسلة، على الجهمية والمطلة» بل تأويل آيات الصفات — بما يخرجها عن حقائقها — كتاباً وبل آيات الأمر والنهي سواء. فالباب كله باب واحد. ومصدره واحد. ومقصوده واحد. وهوايات حقائقه والإيمان بها.

وكذلك سطاً على تأويل آيات المعاد قوم، وقالوا: فعلنا فيها كفعل المتكلمين في آيات الصفات. بل نحن أعذر. فإن اشتغال الكتب الإلهية على الصفات والعلو وقيام الأفعال: أعظم من نصوص المعاد للأبدان بكثير. فإذا ساغ لكم تأويلها، فكيف يحرم علينا نحن تأويل آيات المعاد؟

وكذلك سطاً قوم آخرون على تأويل آيات الأمر والنهي، وقالوا: فعلنا فيها كفعل أولئك في آيات الصفات، مع كثرتها وتنوعها. وآيات الأحكام لا تبلغ زيادة على خمسة آية. قالوا: وما يظن أنه معارض من العقليات لنصوص الصفات. فمتدنا معارض عقل لنصوص المعاد، من جنسه أو أقوى منه.

وقال متأولو آيات الأحكام على خلاف حقائقها وظواهرها: الذي سوغ لنا هذا التأويل: القواعد التي اصطلمحتوها لنا. وجملمتها أصلاً نرجع إليه. فلما طردناها كان طردها: أن الله ما تكلم بشيء قط، ولا يتكلم. ولا يأمر ولا ينهى ولا له صفة تقدم به. ولا يفعل شيئاً. وطرد هذا الأصل: لزوم تأويل آيات الأمر والنهي، والوعد والوعيد، والثواب والعقاب. وقد ذكرنا في كتاب «الصواعق» أن تأويل آيات الصفات وأخبارها — بما يخرجها عن حقائقها — هو أصل الفساد وزوال الممالك. وتسلط أعداء الإسلام عليه: إنما كان بسبب التأويل، ويعرف هذا من له اطلاع وخبرة بما جرى في العالم. ولهذا يحرم عقلاء الفلاسفة التأويل مع اعتقادهم لصحته. لأنه سبب لفساد العالم، وتعطيل الشرائع. ومن تأمل كيفية ورود آيات الصفات في القرآن والسنة: علم قطعاً بطلان تأويلها بما يخرجها عن حقائقها. فإنها وردت على وجه لا يحتمل معه التأويل بوجه.

فانظر إلى قوله تعالى (٦: ١٥٨) هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة، أو يأتي ربك، أو يأتي بعض آيات ربك؟ هل يحتمل هذا التقسيم والتنوع: تأويل إثبات الرب جل جلاله بإتيان ملائكته أو آياته؟ وهل يبقى مع هذا السياق شبهة أصلاً: أنه إتيانه بنفسه؟ وكذلك قوله (٤: ١٦٣، ١٦٤) إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده — إلى أن قال — وكلم الله موسى تكليماً) ففرق بين الإيماء العام، والتكليم الخاص. وجملها نوعين. ثم أكد

فعل التكليم بالمصدر الرابع لتوهم ما يقوله المحرفون. وكذلك قوله (٤٣: ٥١) وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب، أو يرسل رسولا) فتبع تكليمه إلى تكليم بواسطة، وتكليم بغير واسطة. وكذلك قوله لموسى عليه السلام (٧: ١٤٤) إني اصطفيتك على الناس برسالتي وبكلامي) ففرق بين الرسالة والكلام. والرسالة إنما هي بكلامه. وكذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم «إنكم ترون ربكم عياناً. كما ترون القمر ليلة البدر في الصحو، ليس دونه سحاب، وكما ترون الشمس في الظهيرة صحوً ليس دونها سحاب» . ومعلوم أن هذا البيان والكشف والاحتراز: يناق إرادة التأويل قطعاً. ولا يرتب في هذا من له عقل ودين.

أما الطريق الثاني من طرق إثبات الصفات، فهو دلالة الصنعة عليها. فإن المخلوق يدل على وجود خالقه، على حياته وعلى قدرته، وعلى علمه ومشيته. فإن الفعل الاختياري يستلزم ذلك استلزاماً ضرورياً. وما فيه من الإتيان والإحكام ووقوعه على أكمل الوجوه: يدل على حكمة عاقله وعنايته، وما فيه من الإحسان والنفع، ووصول المنافع العظيمة إلى المخلوق: يدل على رحمة خالقه، وإحسانه وجوده.

وآثار الكمال: تدل على أن خالقه أكمل منه. فتمطى الكمال أحق بالكمال. وخالق الأسماع والأبصار والنطق: أحق بأن يكون سميماً بصيراً متكهماً. وخالق الحياة والعلوم، والقُدَر والإرادات: أحق بأن يكون هو كذلك في نفسه. فما في المخلوقات من أنواع التخصصيات: هو من أدل شيء على إرادة الرب سبحانه، ومشيته وحكمته، التي اقتضت التخصص.

وحجج الإجابة عقيب سؤال الطالب، على الوجه المطلوب: دليل على علم الرب تعالى بالجزئيات. وعلى سمعه لسؤال عبده. وعلى قدرته على قضاء حوائجهم. وعلى رأفته ورحمته بهم. والإحسان إلى المطيعين، والتقرب إليهم والإكرام، وإعلاء درجاتهم: يدل على محبته ورضاه. وعقوبته للعصاة والظلمة، وأعداء رسله بأنواع العقوبات المشهودة: تدل على صفة «الغضب والسخط» والإبعاد. والطرْد والإقصاء: يدل على المقت والبغض. فهذه الدلالات من جنس واحد عند التأمل. ولهذا دعا سبحانه في كتابه عباده إلى الاستدلال بذلك على صفاته. فهو يثبت العلم بربوبيته ووحدانيته، وصفات كماله بآثار صفته للشهودة. والقرآن مملوء بذلك.

فيظهر شاهد اسم «الخالق» من نفس المخلوق. وشاهد اسم «الرزاق» من وجود الرزق والمرزوق. وشاهد اسم «الرحيم» من شهود الرحمة الميثوقة في العالم. واسم «المعطى» من وجود المعطاء الذي هو مدار لا يتقطع لحظة واحدة. واسم «العليم» من حلمه عن الجناة والعصاة وعدم

معاجلتهم. واسم «الغفور» و «التواب» من مغفرة الذنوب، وقبول التوبة. و يظهر شاهد اسمه «الحكيم» من العلم بما في خلقه وأمره من الجكم والمصالح ووجوه المنافع. وهكذا كل اسم من أسمائه الحسنی له شاهد في خلقه وأمره. يعرفه من عرفه ويجهله من جهله. فالخلق والأمر من أعظم شواهد أسمائه وصفاته.

وكل سليم العقل والفطرة يعرف قدر الصانع وجزءه وتبريزه على غيره، وتفرد به بكمال لم يشاركه فيه غيره: من مشاهدة صنعة، فكيف لا تعرف صفات من هذا العالم العلوى والسفلى وهذه المخلوقات : من بعض صنعه؟

وإذا اعتبرت المخلوقات والأمورات، وجدتها بأسرها كلها دالة على الصفات، وحقائق الأسماء الحسنی. وعلمت أن المظلة من أعظم الناس غمی بمكابرة. و يكفي ظهور شاهد الصنع فيك خاصة. كما قال تعالى (٥١: ٢١) وفي أنفسكم. أفلا تبصرون؟ فالوجودات بأمرها شواهد صفات الرب جل جلاله ونعوته وأسمائه. فهي كلها تشير إلى الأسماء الحسنی وحقائقها. وتنادى عليها. وتدل عليها. وتخبر بها بلسان النطق والحال. كما قيل:

تأمل سطور الكائنات. فإنها	من السلك الأعلى إليك رسائل
وقد حَظَّ فيها — لو تأملت خطها —	ألا حُلَّ شيء ما خلا الله باطل
تشير بإثبات الصفات لربها	فصامتها تهدي، ومن هو قائل

فلست ترى شيئاً أدل على شيء من دلالة المخلوقات على صفات خالقها، ونعوت كماله، وحقائق أسمائه. وقد تنوعت أدلتها بحسب تنوعها. فهي تدل عقلاً وحساً، وفطرة ونظراً، واعتباراً.

وكلما قوى النور في قلب العبد: كان بصره أتم وأكمل، وكلما قلَّ نصيبه من النور، وطفئ مصباحه في قلبه: طفيء نور التصديق بالصفات وإثباتها في قلبه. فإنه يشاهدها بذلك النور. فإذا فقدده لم يشاهدها. وجاءت شبه الباطلة مع تلك الظلمة. فلم يكن له نصيب منها سوى الإنكار.

والتفكير يساعد على هذا الإدراك، ولذلك كان من صفات المؤمنين أنهم يتفكرون في الآيات، فيستدلون بها على توحده، وصفات كماله، وصدق رسله، والعلم ببقائه. ويتفكرون في الدنيا وانقضائها، واضمحلالها وآفاتنا، والآخرة ودوامها وشرفها. وبذلك وصفهم الله تعالى إذ قال (٣٠: ٢١) ومن آياته: أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها. وجعل بينكم مودة ورحمة. إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) فالفكر الصحيح، المؤيد بحياة القلب،

ونور البصيرة: يدل على إثبات صفات الكمال ونعمت الجلال وأما فكرر مصحوب بموت القلب وعسمى البصيرة: فإنما يعطى صاحبه فيها وتعطيلها. و ينضاف إلى نور البصيرة وطيب حياة العقل: حياة القلب بحسن النظر، الدائر بين تعظيم الخالق — جل جلاله — وحسن الاعتبار بمصنوعاته الدالة عليه. فلا بد من الأمرين. فإنه إن غفل بالتعظيم عن حسن الاعتبار لم يحصل له الاستدلال على الصفات. وإن حصل له الاعتبار من غير تعظيم الخالق سبحانه: لم يستفد به إثبات الصفات. فإذا اجتمع له تعظيم وحسن النظر في صنعه: أثمر له إثبات صفات كماله ولا بد، مع أنه يستحيل أن يصح للقلب تعظيمه لربه من خلال تدبر آثار اسمائه وصفاته وتدبر آياته القرآنية، ثم يفلح به عن حسن الاعتبار، ولا أن يحصل له اعتبار من غير تعظيم.

و «الاعتبار» هو أن يغير نظره من الأثر إلى المؤثر، ومن الصنعة إلى الصانع. ومن الدليل إلى المدلول. فينتقل إليه بسرعة لطاف إدراك. فينتقل ذهنه من المزمع إلى لازمه. قال الله تعالى (٥٩: ٢) فاعتبروا يا أولي الأبصار و «الاعتبار» افتمال من العيوب. وهو عبور القلب من المزمع إلى لازمه. ومن النظر إلى نظيره.

وهذا «الاعتبار» يضعف ويقوى، حتى يستدل صاحبه بصفات الله تعالى وكماله على ما يفعله، لحسن اعتباره وصحة نظره. وهو اعتبار الخواص واستدلالهم. فإنهم يستدلون بأسماء الله وصفاته وأفعاله، وأنه يفعل كذا ولا يفعل كذا. فيفعل ما هو موجب حكمته وعلمه وغناه وحده، ولا يفعل ما يناقض ذلك. قد ذكر سبحانه هذين الطريقين في كتابه. فقال تعالى في الطريق الأول (٤١: ٥٣) سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم، حتى يتبين لهم: أنه الحق) ثم قال في الطريق الثانية (أو لم يكف بربك: أنه على كل شيء شهيد؟) فمخلوقاته دالة على ذاته وأسمائه وصفاته، وأسماءه وصفاته دالة على ما يفعله ويأمر به، وبما لا يفعله ولا يأمر به.

مثال ذلك: أن اسمه «الحميد» سبحانه يدل على أنه لا يأمر بالفحشاء والنكر. واسمه «الحكيم» يدل على أنه لا يخلق شيئاً عبثاً. واسمه «الغنى» يدل على أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً. واسمه «المليك» يدل على ما يستلزم حقيقة ملكه: من قدرته، وتدبيره، وعطائه ومنمه، وثوابه وعقابه، وبث رسله في أقطار مملكته، وإعلام عبيده بمراسيمه، وعهوده إليهم، واستوائه على سرير مملكته الذي هو عرشه المجيد. فمتى قام بالمبد تعظيم الحق — جل جلاله — وحسن النظر في الشواهد، والتبصر والاعتبار بها: صارت الصفات والنعمت مشهودة لقلبه قبلة له.

وأما أركان هذه المعرفة:

فأحدها: إثبات تلك الصفة. فلا يماطلها بالنفي والإنكار.

الثاني: أنه لا يتعدى بها اسمها الخاص الذي سماها الله به. بل يحترم الاسم كما يحترم

الصفة. فلا يعطل الصفة. ولا يغير اسمها ويعبرها اسماً آخر. كما تسمى الجهمية والمعتلة سمعه وبصره، وقدرته وحياته، وكلامه: أعراضاً. ويسمون وجهه ويديه وقدميه سبحانه: جوارح وإباضاً ويسمون حكمته وغاية فعله المطلوبة: عللاً وأعراضاً. ويسمون أفعاله القائمة به: حوادث. ويسمون علوه على خلقه، واستوائه على عرشه: تحيزاً. ويتناوون بهذا المكر الكبار إلى نفى مادل عليه الوحي، والعقل والفطرة، وأثار الصنعة من صفاته. فيشظون — بهذه الأسماء التي سموها هم وآباؤهم — على نفى صفاته وحقائق أسمائه.

وأعلم أن الله تعالى قد أطلق على نفسه أفعالا لم يتسم منها بأسماء الفاعل. كأراد، وشاء، وأحدث. ولم يسم «بالمريد» و«الشائي» و«المحدث»، كما لم يسم نفسه «بالصانع» و«الفاعل» و«المتقن» وغير ذلك من الأسماء التي أطلق أفعالها على نفسه. فباب الأفعال أوسع من باب الأسماء.

وقد أخطأ — أقبح خطأ — من اشتق له من كل فعل اسماً. وبلغ بأسمائه زيادة على الألف. فسماه «الماكر»، والمخادع، والفاتن، والكائد» ونحو ذلك. وكذلك باب الاخبار عنه بالاسم اوسع من تسميته به. فإنه يجبر عنه بأنه «شيء موجود، ومذكور، ومعلوم، ومراد» ولا يسمى بذلك.

فأما «الواجد» فلم تجيء تسميته به إلا في حديث تعداد الأسماء الحسنی. والصحيح: أنه ليس من كلام النبي صلى الله عليه وسلم. ومعناه صحيح. فإنه ذو الوجود والغنى. فهو أولى بأن يسمى به من «الوجود» ومن «الموجد» أما «الموجد» فإنه منقسم إلى كامل وناقص، وخير وشر. وما كان مسماه منقسماً لم يدخل اسمه في الأسماء الحسنی. كالشيء والمعلوم. ولذلك لم يسم بالمريد، ولا بالتكلم. وإن كان له الإرادة والكلام، لانقسام مسمى «المريد» و«التكلم» وأما «الموجد» فقد سمي نفسه بأكمل أنواعه. وهو «الخالق، الباري، المصور» فالموجد كالمحدث والفاعل والصانع.

وهذا من دقيق فقه الأسماء الحسنی. فتأمل.

الثالث: عدم تشبيهها بما للمخلوق. فإن الله سبحانه ليس كمثله شيء، لأن ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله. فالعارفون به، المصدقون لرسله، المقرون بكلامه: يثبتون له الأسماء والصفات. وينفون عنه مشابهة المخلوقات. فيجمعون بين الإثبات ونفي التشبيه، وبين التنزيه وعدم التعطيل. فمذهبهم خسة بين شيئين، وهدى بين ضلالتين. فصراطهم صراط للنعم عليهم. وصراط غيرهم صراط المغضوب عليهم والضالين. قال الامام احمد رحمه الله «لا تمزج بين صفاته من صفاته. لأجل شناعة المشنعين» وقال «التشبيه: أن تقول يد كيدى» تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. فإن العقل قد يش من تعرف كنه الصفة وكيفيتها. فإنه لا

يعلم كيف الله إلا الله، وهذا معنى قول السلف «بلا كيف» أى بلا كيف يعقله البشر. فإن من لا تعلم حقيقة ذاته وماهية، كيف تعرف نوعه وصفاته؟ ولا يقدح ذلك في الايمان بها، ومعرفة معانيها. فالكيفية وراء ذلك، كما أننا نعرف معانى ما أخبر الله به من حقائق ما في اليوم الآخر. ولا نعرف حقيقة كيفيته، مع قرب ما بين المخلوق والمخلوق. فنعجزنا عن معرفة كيفية الخالق وصفاته أعظم وأعظم.

فكيف يطعم العقل المخلوق المحصور للحدود في معرفة من له الكمال كله، والجمال كله، والعلم كله، والقدرة كلها، والعظمة كلها، والكبرياء كلها؟ من لو كشف الحجاب عن وجهه لأحرقت سبحاته السموات والأرض وما فيها وما بينهما.. وما وراء ذلك؟ الذى يقبض سمواته بيده. فتغيب كما تغيّب الخردة في كنف أحدنا. الذى نسبة علوم الخلاق. كلها إلى علمه أقل من نسبة نشرة عصفر من بحار العالم الذى لو أن البحر — يُبْدَى من بعده سبعة أبحر — مداد وأشجار الأرض — من حين خلقت إلى قيام الساعة — أقلام: لفتى للداد وفنت الأقلام، ولم تفلد كلماته.

فقاتل الله الجهمية والمطلة! أين التشبيه هنا؟ وأين التمثيل لقد اضمحل هنا كل موجود سواه. فضلا عن أن يكون له ما يماثله في ذلك الكمال، ويشابهه فيه. فسيحان من حجب عقول هؤلاء عن معرفته، ولأها ما توكت من وقوفها مع الألفاظ التى لا حرمة لها، والمعانى التى لاحقائق لها.

ولما فهمت هذه الطائفة من الصفات الإلهية ما تفهم من صفات المخلوقين، قرئت على انكار حقائقها وانتفاء تحريفها، وسئلت تأويلاً. فسيئت أولاً. وعطلت ثانياً. وأساءت الظن بربها وبكتابه وبشبهه وبأتباعه.

أما إساءة الظن بالرب: فإنها عطلت صفات كماله. ونسبت إلى أنه أنزل كتاباً مشتملاً على مظاهره كفى وباطل، وأن ظاهره وحقيقته غير مرادة. وأما إساءة ظننها بالرسول: فلأنه تلکم بذلك وقرره وأكده. ولم يبين للأمة أن الحق في خلافه وتأويله.

وأما إساءة ظننها بأتباعه: فبسيئتهم لهم إلى التشبيه والتمثيل، والجهل والحشو. الرابع: إسقاط التفريق بين الصفات والذات، إذ التفريق بين الصفات والذات في الوجود مستحيل. وهو ممكن في الشهود بأن يشهد الصفة ويذهل عن شهود الموصوف، أو يشهد الموصوف ويذهل عن شهود الصفة. فجرد الذات أو الصفات: إنما يمكن في الذهن. فالمعرفة في هذه الدرجة: تعلقت بالذات والصفات جميعاً. فلم يفرق العلم والشهود بينهما. ولا ريب أن ذلك أكمل من شهود مجرد الصفة، أو مجرد الذات

وليس المراد أنك تسقط التفريق بين الذات والصفات في الخارج والملم، بحيث تكون الصفات هي نفس الذات. فهذا لا يقوله موحد، وإن كان كثير من أرباب الكلام يقولون: إنما الصفات هي الذات. فليس مرادهم: أن الذات نفسها صفة. فهذا لا يقوله عاقل. وإنما مرادهم: أن صفاتها شيئاً غيرهما. فإن أراد هؤلاء أن مفهوم الصفة هو مفهوم الذات: فهذا مكابرة. وإن أرادوا أنه ليس ههنا أشياء غير الذات انضمت إليها وقامت بها: فهذا حق.

والتحقيق: أن صفات الرب — جل جلاله — داخلة في مسمى اسمه. فليس لاسمه «الله». والرب، والإله» أسماء لذات مجردة، لا صفة لها البتة. فإن هذه الذات المجردة وجودها مستحيل. وإنما يفرضها ذهن فرض الممتعات. ثم يحكم عليها. واسم «الله» سبحانه «والرب، والإله» اسم لذات لها جميع صفات الكمال ونعوت الجلال. كالعلم، والقدرة، والحياة، والإرادة، والكلام، والسمع والبصر، والبقاء، والقدم، وسائر الكمال الذي يستحقه الله لذاته. فصفاته داخلة في مسمى اسمه. فتجريد الصفات عن الذات، والذات عن الصفات: فرض وخيال ذهني لا حقيقة له. وهو أمر اعتباطي لا فائدة فيه. ولا يترتب عليه معرفة. ولا إيمان، ولا هو علم في نفسه. وبهذا أجاب السلف الجهمية لما استدلووا على خلق القرآن. بقوله تعالى (٣٩: ٦٢) الله خالق كل شيء (١) قالوا: والقرآن شيء.

فأجابهم السلف بأن القرآن كلامه، وكلامه من صفاته. وصفاته داخلة في مسمى اسمه، كعلمه وقدرته وحياته، وسمعه وبصره، ووجهه ويده — فليس «الله» اسماً لذات لا تمت لها، ولا صفة، ولا فعل، ولا وجه، ولا يدين. ذلك إله معدوم مفروض في الأذهان. لا وجود له في الأعيان، كإله الجهمية. الذي فرضوه غير خارج عن العالم ولا داخل فيه، ولا متصل به ولا منفصل عنه، ولا محايث له ولا مبين. وكإله الفلاسفة الذي فرضوه وجوداً مطلقاً لا يتخصص بصفة ولا نعت، ولا له مشيئة ولا قدرة، ولا إرادة ولا كلام. وكإله الاتحادية الذي فرضوه وجوداً ساريّاً في الموجودات ظاهراً فيها. هو عين وجودها. وكإله النصاري الذي فرضوه قد اتخذ صاحبة وولداً. وتدرج بناسوت ولده. واتخذ منه حجاباً. فكل هذه الآلهة مما عملته أيدي أفكارها. وإله العالمين الحق: هو الذي دعت إليه الرسل وعرفوه بأسمائه وصفاته وأفعاله فوق سمواته على عرشه، بائن من خلقه، موصوف بكل كمال، منزّه عن كل نقص. لا مثال له. ولا شريك. ولا ظهير. ولا يشفع عنده أحد إلا بإذنه (٥٧: ٣) هو الأول والآخِر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم) غنى بذاته عن كل ما سواه. وكل ما سواه فقير إليه بذاته.

فإذا علم العبد انفراد الرب سبحانه بالأزك والبقاء والفعل، وعجز من سواه عن القدرة على إيجاد ذرة أو جزء من ذرة. وأنه لا وجود له من نفسه. فوجوده ليس له، ولا به ولا منه. وتوالت هذا العلم عن القلب: يسقط ذكر غيره سبحانه عن البال والذكر. كما سقط غناه وربوبيته

وملكه وقدرته. فصار الرب سبحانه وحده: هو للمعبود والشهود والمذكور، كما كان وحده: هو الخالق للمالك، انتهى الوجود بنفسه أولاً وأبداً. ولما عا سواه: فوجوده — وتوابع وجوده — عارية ليست له: وكلما غنى العبد عن ذكر غيره وشهده: صفت هذه المعرفة في قلبه، وانجذبت روحه إلى الواحد القهار، فهي تحول في ميدان أوسع من السماوات والأرض، بعد أن كانت مسجونة في سجون المخلوقات. فإذا استمر له عكوف قلبه على الحق سبحانه، ونظر قلبه إليه كأنه يراه، ورؤية تفرده بالخلق والأمر، والنفع والضرر. كملت وقت معرفته، فإن الرب سبحانه إذا رقى عبده بالتدريج: توارب طمعه وعقله بالعلم. فرأى أنه لا خالق سواه، ولا رب غيره. ولا يملك الضر والنفع والمطامع واللذات غيره. وأنه لا يستحق أن يعبد — بنهاية الخضوع والحب — سواه. وكل معبود سوى وجهه الكريم فباطل. فهذا توحيد العلم.

ثم إذا رقا له الحق سبحانه درجة أخرى فوق هذه: أشهده عود المفصلات إلى أفعاله سبحانه. وعود أفعاله إلى أسمائه وصفاته. وقيام صفاته بذاته. فيضمحل شهود غيره من قلبه.

ثم إذا رقا له درجة أخرى: أشهده قيام العوالم كلها به وحده، أي باقامته لها وإسكانه لها، فإنه سبحانه يمسك السماوات والأرض أن تزولا، ويمسك البحار أن تفيض أو تنفخ على العالم. ويمسك السماء أن تقع على الأرض. ويمسك الطير في الهواء صافات ويقبضن. ويمسك القلوب الوقت أن تزيغ عن الإيمان. ويمسك حياة الكيوان أن تنفارق إلى الأجل المحدود. ويمسك على الموجودات وجودها. ولولا ذلك لاضمحلت وتلاشت. والكل قائم بأفعاله وصفاته التي هي من لوازم ذاته. فليس الوجود الحقيقي إلا له. أعنى الوجود الذي هو مستغن فيه عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه بالذات، لا قيام له بنفسه طرفة عين، وكلما أسرع العبد في إقباله على ربه: أسرع ربه به لا ارتقاء، لأن العبد إذا أقبل على ربه، وتفتت أحواله، وتمكن من شهود قيام ربه عليه. فإنه يكون في أول أمره: مكابداً وصابراً ومرابطاً. فإذا صبر وصابر وربط — صبر في نفسه وصابر عدوه. وربط على تفرق قلبه أن يدخل فيه خاطر لا يحبه ولله الحق — وقطع كلاليب الشهوات والشبهات، فحيث يصفوه إقباله على ربه، فيستولي نور المراقبة على أجزائه باطنه. فيمتلئ قلبه من نور التوجه، بحيث يقر قلبه، ويستريح عما سواه. ثم يسرى ذلك النور من باطنه فيعم أجزاء ظاهره. فيتشابه الظاهر والباطن فيه. فيجد آثار الجلال والجمال والجمال المقدس في قلبه وروحه. ويمجد المبدئية والمحبة، والدعاء والافتقار، والتوكل والخوف والرجاء، وسائر الأعمال القلبية: قائمة بقلبه. لا تشغله عن مشهد الروح. ولا تستغرق مشهد الروح عنه. ويمجد ملاحظته للأمر والنهي حاضراً في جذر قلبه حيث نزلت الأمانة. فلا يشغله مشهد الروح المستغرق، ولا مشهد القلب عن ملاحظة مرضى الرب تعالى وعما به، وحقه على عبده. ويمجد ترك

التدبير والاختيار وصحة التفرّض موجوداً في عمل نفسه. فيعامل الله سبحانه بذلك. بحيث لا تشغله مشاهدة الأولى عنه. ويقوم بملاحظة عقله لأسرار حكمة الله في خلقه وأمره. ولا يحجبه ذلك كله عن ملاحظة عبوديته. فيبقى مغموراً الروح بملاحظة الفردانية وجلالها وكمالها وجلالها. قد استغرقت عهته والشوق إليه. مغموراً القلب بعبادات القلوب مغموراً القلب بملاحظة الحكمة ومعاني الخطاب. طاهر القلب عن سفاف الأخلاق، مع الله تعالى ومع الخلق. قد صار عبداً محضاً لربه بروحه وقلبه وعقله، ونفسه وبدنه وجوارحه. قد قام كل ما عليه من العبودية. بحيث لا تحجبه عبودية بعضه عن عبودية البعض الآخر.

• نوحده تعالى ربّاً وإلهاً

فاهل التوحيد والاستقامة يرتقون الى هذه المنازل اذن بأمرين، احدهما ارفع من الآخر. الأمر الأول: شهود الربوبية والقيومية. فيشهد تفرد الرب تعالى بالقيومية والتدبير، والرزق، والعطاء والمنع، والضر والنفع، وأن جميع الموجودات متفعله لا فاعلة. وماله منها فضل فهو منفعل في فعله، محل محض لجريان أحكام الربوبية عليه. لا يملك شيئاً منها لنفسه ولا لغيره، فلا يملك ضرراً ولا نفعاً. فإذا تحقق العبد بهذا المشهد: خدت منه الخواطر والإرادات. نظراً إلى القيم الذي بيده تدبير الأمور، وشخصاً منه إلى مشيئته وحكمته فهو ناظر منه به إليه. فإن شهوده عن شهود ما سواه. ومع هذا فهو ساع في طلب الوصول إليه. قائماً بالواجبات والتواضعات.

الأمر الثاني: شهود الالهية، وحقيقته: إرادة الله ومحبه، والإجابة إليه، والتوكل عليه، وخوفه ورجائه، فيفتي بحبه عن حب ما سواه، وبخوفه ورجائه عن خوف ما سواه ورجائه. فحقيقة هذا الشهود: الاستفهام بالعظمة، والخوف والرجاء، والتعظيم والإجلال. وتحن نشير إلى مبادئ ذلك وتوسطه وغايته. فنقول:

اعلم أن القلب إذا خلى من الاهتمام بالدنيا والتعلق بما فيها من مال، أو رياضة أو مصورة. وتعلق بالآخرة، والاهتمام بها من تحصيل المنة، والتأهب للتدوم على الله عز وجل: فذلك أول فتوحه، وتبشير فجره. فعند ذلك يتحرك قلبه لمعرفة ما يرضى به ربه منه. فيفعله ويتقرب به إليه. وما يسخطه منه، فيجتنبه. وهذا عنوان صدق إرادته. فإن كل من أيقن بقاء الله، وأنه سائله عن كل شئ — يسأل عنهما الأولون والآخرون — ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتهم المرسلين؟ لابد أن يتنبه لطلب معرفة مبيوده، والطريق الموصلة إليه. فإذا تمكن في ذلك: فتح له باب الأتس بالخلوة والوحدة والأماكن الخالية التي تهدأ فيها الأصوات والحركات، فلا شيء أشوق إليه من ذلك. فإنها تجمع عليه قوى قلبه وإرادته. وتسد عليه الأبواب التي تفرق ذاته وتشتت قلبه. فيأنس بها ويستوحش من الخلق.

• ارشاد النبوة

ثم يفتح له باب جلالة العبادة بحيث لا يكاد يشع منها، ويجد فيها من اللذة والراحة انشراح ما كان يجد في لغة الله واللهم واللب، وبيل الشهوات. بحيث إنه إذا دخل في الصلاة ودَّ أن لا يخرج منها. ثم يفتح له باب جلالة استماع كلام الله، فلا يشع منه. وإذا سمعه هدأ قلبه به كما يهدأ الصبي إذا أعطى ما هو شديد المحبة له. ثم يفتح له باب شهود عظمة الله المتكلم به وجلاله، وكمال نعمته وصفاته وحكمته، ومعاني خطابه، بحيث يستغرق قلبه في ذلك حتى يغيب فيه. وعين قلبه وقد دخل في عالم آخر غير ما الناس فيه.

ثم يفتح له باب الحياء من الله. وهو أول شواهد المعرفة، وهو نور يقع في القلب، يُريه ذلك الشوق أنه واقف بين يدي ربه عز وجل. فيستحي منه في خلواته وجلواته. ويرزق عند ذلك دوام الرقة للرقيب. ودوام التطلع إلى حضرة العلى الأعلى، حتى كأنه يراه ويشاهده فوق سمواته، مستوياً على عرشه، ناظراً إلى خلقه، سامعاً لأصواتهم، مشاهداً لبواطنهم. فإذا استول عليه هذا الشاهد غطى عليه كثيراً من المعلوم بالدنيا وما فيها. فهورى وجوده والناس في وجود آخر. هو في وجود بين يدي ربه ووليه، ناظراً إليه بقلبه والناس في حجاب عالم الشهادة في الدنيا. فهو يزاهم وهم لا يرونه. ولا يرون منه إلا ما يناسب عالمهم ووجودهم.

ثم يفتح له باب الشعور ومشهد القيومية. فيرى سائر التقلبات الكونية وتصاريف الوجود بيده سبحانه وحده. فيشاهد مالك الغر والنعم، والخلق والرزق، والإحياء والإماتة. فيتخذ وحده وكلاً. ويرضى به رياً ومدبراً وكافياً. وعند ذلك إذا وقع نظره على شيء من المخلوقات دله على خالقه وبارئه، وصفاته كماله ونعمته وجلاله. فلا يحجبه خلقه عنه سبحانه. بل يناديه كل من للمخلوقات بلسان حاله: اسمع شهادتي لمن أحسن كل شيء خلقه. فأنا صنع الله الذي أتقن كل شيء.

فإذا استمر له ذلك: يُطوى الكون عن قلبه بحيث لا يبقى فيه إلا الله الواحد القهار. وتفيض أنوار المعرفة والمعاملة والصدق والإخلاص والمحبة من قلبه، كما يفيض نور الشمس عن جرمها. فيفرق حيثن في الأنوار كما يفرق راكب البحر في البحر. وذلك إما يكون في الرياضة والمجاهدة، وزوال أحكام الطبيعة، وطول الوقوف في الباب.

فإن استمر على حاله وفقاً لبياب مولاه. لا يلتفت عنه يمناً ولا شمالاً. ولا يجيب غير من يدعوه إليه. و يعلم أن الأمر وراء ذلك، وأنه لم يصل بعد. ومتى توهم أنه قد وصل: انقطع عنه المزيد — رجي أن يفتح له فتح آخر. هو فوق ما كان فيه. مستغرقاً قلبه في أنوار مشاهدة الجلال بعد ظهور أنوار الوجود الحق، فيبقى قلبه سابحاً في بحر من أنوار آثار الجلال، ويجد قلبه عالياً

على ذلك كله، صاعداً إلى من ليس فوقه شيء. ثم يرقبه الله سبحانه. فيشهد أنوار الإكرام بعد ما شهد أنوار الجلال. فيستغرق في نور من أنوار أشعة الجمال. وفي هذا الشهد يذوق المحبة الخاصة الملهية للأرواح والقلوب. فيبقى القلب مأسوراً في يد حبيبه ووليه، محتناً بهجه. فيأله من قلب محتن مضطرب مستغرق بما ظهر له من أشعة أنوار الجمال الأحدثى. والناس مفتنونون محتنون بما يقنى من المال والصور والرياسة. معذبون بذلك قبل حصوله، وحال حصوله، وبعد حصوله. وأعلامهم مرتبة: من يكون مفتوناً بالصور العين، أو عاملاً على تمتعه في الجنة بالأكل والشرب واللباس والنكاح. وهذا المحب قد ترقى في درجات المحبة على أهل المقامات، ينظرون إليه في الجنة كما ينظرون إلى الكوكب الدرى النابض في الأفق لمودرجته وقرب منزله من حبيبه، فإن المرء مع من أحب. ولكل عمل جزاء. وجزاء المحبة: الحب والاصطناع والقرب. فهذا هو الذى يصلح. وكفى بذلك شرفاً وفخراً في عاجل الدنيا. فما ظنك بمقاماتهم العالية عند ملك مقدر؟ فكيف إذا رأيتهم في موقف القيامة، وقد أسمعمهم النادى «ليطلق كل قوم مع ما كانوا يبدون» فيقفون في مكانهم ينتظرون مبيدهم وحبيهم الذى هو أحب شيء إليهم. حتى يأتيهم، فينظرون إليه ويتجلى لهم ضاحكاً.

والمقصود: أن هذا العبد لا يزال الله يرقبه طبقاً بعد طبق، ومنزلاً بعد منزل، إلى أن يوصله إليه. ويمكن له بين يديه، أو يموت في الطريق. فيقع أجره على الله. فالسيد كل السيد، والموفق كل الموفق: من لم يلتفت عن ربه تبارك وتعالى ميئاً ولا شمالاً. ولا اتخذ سواء رباً ولا وكيلاً. ولا حبيباً ولا مديراً. ولا حاكماً ولا ناصراً ولا رازقاً.

وجميع ما تقدم من مراتب الوصول: إما هي شواهد وأمثلة إذا تجلت له الحقائق في الغيب — بحسب استمداده ولطفه ورقته من حيث لا يراها — ظهر من تجليها شاهد في قلبه. وذلك الشاهد دال عليها ليس هو عينها. فإن نور الجلال في القلب ليس هو نور ذى الجلال في الخارج. فإن ذلك لا تقوم له السماوات والأرض. ولو ظهر للوجود لتدكدك. لكنه شاهد دال على ذلك، كما أن النمل الأهل شاهد على الذات. والحق وراء ذلك كله، منزّه عن حلول واتحاد، ومجازة خلفه. وإما تلك رقائق وشواهد تقوم بقلب العارف. تدل على قرب اللطاف منه في عالم الغيب حيث يراها.

فالوصول حق. يجد الواصل آثار تجل الصفات في قلبه. وآثار تجل الحق في قلبه. ويوقف القلب فوق الأكوان كلها بين يدي الرب تعالى. وهو على عرشه. ومن هناك يكشف بآثار الجلال والإكرام. فيجد العرش والكرسى تحت مشهد قلبه حكماً. وليس الذى يجده تحت قلبه حقيقة: العرش والكرسى. بل شاهد ومثال علمى، يدل على قرب قلبه من ربه، وقرب ربه من قلبه. وبين الذوقين تفاوت. فإذا قرب الرب تعالى من قلب عبده بقيت الأكوان كلها تحت

مشهد قلبه. وحيتذ يطلع في أفقه شمس التوحيد، وينال التحقيق، بتخليص مصحوبه من الحق، بالحق وفي الحق، كما قال الحروي، واستشهد بقوله تعالى (٢: ٢٦) أولم تؤمن؟ قال: بل، ولكن ليطمئن قلبي).

ووجه إشارة الآية: أن إبراهيم — صل الله عليه وسلم — طلب الانتقال من الإيمان بالعلم بإحياء الله الموتى إلى رؤية حقيقة حياتنا. طلب — بعد حصول العلم الذهني — تحقيق الوجود الخارجي. فإن ذلك أبلغ في طمأنينة القلب. ولا كان بين «العلم» و«اليمان» منزلة أخرى. قال النبي صل الله عليه وسلم «نحن أحق بالشك من إبراهيم» إذ قال (رب أرني كيف نحى الموتى) وإبراهيم لم يشك صل الله عليه. ورسول الله صل الله عليه وسلم لم يشك. ولكن أوقع اسم «الشك» على المرتبة العلمية باختيار التفاوت الذي بينها وبين مرتبة اليان في الخارج، وباعتبار هذه المرتبة سمي العلم اليقيني — قبل مشاهدة معلومه — ظناً. قال تعالى (٢: ٤٦) الذين يظنون أنهم ملائقورهم، وأنهم إليه راجعون) وقال تعالى (٢: ٢٤٩) الذين يظنون أنهم ملائقور الله) وهذا الظن علم جازم. كما قال تعالى (٢: ٢٢٣) واعلموا أنكم ملائقور) لكن بين الخبر واليمان فرق. وفي السند مرفوعاً «ليس الخبر كاليمان» ولهذا لا أخبر الله موسى: أنه قد قن قومه، وأن السامري أضلهم: لم يحصل له من الغضب والكيفية وإلقاء الألواح ما حصل له عند مشاهدة ذلك.

• التحقيق ميزان الموحد

إذا عرفنا هذا: كان سهلاً أن شاء الله أن تعرف هذا التعريف للتحقيق. فلفظ «التحقيق» هو تفعل. من حق الشيء تحقيقاً، فهو مصدر، فعله: حق الشيء، أي أثبت وخلصه من غيره.

أما «المصحوب» فهو ما يضرب الإنسان في قصده ومعرفة من معلوم ومراد. و«الحق» هو الله سبحانه، وما كان موثقاً إليه، مُثْبِتاً للعبد من رشاه. إذا عرف هذا، فهم مصحوب العبد من الحق: هو معرفته ومحبته، وإرادة وجهه الكريم، وما يستعين به على الوصول إليه، وما هو محتاج إليه في سلوكه فـ «التحقيق» هو تخليصه من المفسدات القاطعة عنه، الحائلة بين القلب وبين الوصول إليه. وتخصيته من المخالطات. وتخليصه من المشوشت. فإن تلك قواطع له عن مصحوبه الحق.

فصاحب مقام التحقيق: لا يقف مع العوارض، فإنها قواطع، ويتناقل عنها ما أمكنه، فإنها قمر — بالتناقل — قرأ سريعاً، لا يوسع دوائرها، فانه كلما وسعها اتسعت، ووجدت مجالاً

فسيحاً. فصالت فيه وجالت. ولوضيقتها - بالإعراض عنها والتغالل - لاضمحلت وتلاشت
فصاحب مقام التحقيق ينساها ويطمس آثارها. و يعلم أنها جاءت بحكم المقادير في ذا
المحن والآفات.

قال لي شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - مرة: العوارض والمحن هي كالخر والبرد.
فإذا علم العبد أنه لا بد منهما لم يغضب لورودهما. ولم يغتم لذلك ولم يحزن.
فإذا صبر العبد على هذه العوارض ولم ينقطع بها: رجي له أن يصل إلى مقام التحقيق.
فيبقى مع مصحوبه الحق وحده. فتهدب نفسه. وتطمئن مع الله وتنفطم عن عزائد السوء، حتى
تخسر محبة الله قلبه وروحه. وتعود جوارحه متابعة للأوامر. فيحسن قلبه حينئذ بأن معية الله معه
وتوكله له. فيبقى في حركاته وسكناته بالله لا بنفسه. وترد على قلبه التعريفات الإلهية، ويشهد
الإلهية والقيومية والفردانية. فإن على هذه المشاهد الثلاثة مدار المعرفة والوصول.

والمقصود: أن صاحب مقام «التحقيق» يعرف الحق، ويميز بينه وبين الباطل. فيمسك
بالحق. ويلقى الباطل. فهذه مرتبة. ثم يتبين له: أن ذلك ليس به، بل بالله وحده. فيبرأ حينئذ
من حوله وقوته. ويعلم أن ذلك بالحق. ثم يتمكن في ذلك المقام. ويرسخ فيه قلبه. فيصير
تحقيقه بالله وفي الله.

ففي الأول: يختص له مطلوبه من غيره، ويتجرد له من سواه.

وفي الثاني: يختص له إضافته إلى غيره، وأن يكون سواه سبحانه.

وفي الثالث: تجرد له شهوده وقصوره، بحيث صارت في مطلوبه.

فالأول: سفر إلى الله. والثاني: سفر بالله. والثالث: سفر في الله.

وإن أشكل عليك معنى «السفر فيه» والفرق بينه وبين «السفر إليه» ففرق بين حال
العارف الزاهد السائر إلى الله - الذي لم يفتح له في الأسماء والصفات والمعرفة الخاصة، وبين
حال العارف الذي قد كشف له في معرفة الأسماء والصفات والفقه فيها ما حجب عن غيره.

وانك إن كنت تنسب العلم إلى نفسك قبل وصولك إلى مقام «التحقيق» ففي حالة
«التحقيق» تعود نسبته إلى معلمه ومعلمه الحق. ولعل هذا معنى قول الرسل صلوات الله
وسلامه عليهم أجمعين. إذ جمعهم الرب تبارك وتعالى وقال (٥: ١٠٩) ماذا أجبتهم؟ قالوا: لا
علم لنا) قيل: قالوه تأدياً منه سبحانه. إذ ردوا العلم إليه. وقيل: معناه لا علم لنا بحقيقة
الباطن. وإنما أجابنا من أجابنا ظاهراً والباطن غيب. وأنت علام الغيوب.

والتحقيق - إن شاء الله - أن علومهم تلاشت في علمه سبحانه وضمحلّت. فصارت
بالنسبة إليه كلاً علم. فردوا العلم كله إلى وليه وأهله، ومن هو أولى به. فعلومهم وعلوم الخلائق
جميعهم في جنب علمه تعالى كنقرة صفور في بحر من بحار العالم.

(١٣) مَنْزِلَةُ رِعَايَةِ الْأَسْبَابِ

ومن منازل إياك نعبد: منزلة رعاية الأسباب.

ذلك ان التوحيد يقتضي القيام بالاسباب الظاهرة، كالحركات والاعمال، واعتبارها، وعدم اهمالها وتمطيلها، ولكن يقرم بها وقد عزها عن ولاية التجاح والنجاة، كما قال صل الله عليه وسلم «اعملوا، واعلموا ان احداً منكم لن ينجيه عمله».

وكذلك يقتضي القيام بالاسباب الباطنة، كالإيمان والتصديق، وعبية الله ورسوله، فان النجاة معلقة بها، بل التوحيد نفسه من الاسباب، بل هو اعظم الاسباب الباطنة.

فالقيام بالاسباب واعتبارها وانزالها منازلها التي انزلها الله فيها: هو محض التوحيد والعبودية، بتصديق الوعد والوعيد، وتمظيم الأمر والنهي. كما في الصحيح عنه صل الله عليه وسلم أنه قال «ما منكم من أحد إلا وقد علم مقعده من الجنة، ومقعده من النار. قالوا: يارسول الله، أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب؟ فقال: لا. اعملوا. فكل من قُبِرَ لما خُلِقَ له» وفي الصحيح عنه أيضاً أنه قيل له «يارسول الله، أرايت ما يَكْتَدِحُ الناس في اليوم ويعملون: أمر قُضِيَ عليهم وقُضِيَ، أم فيما يستقبلون مما آتاهم فيه الحجة؟ فقال: بل شيء قُضِيَ عليهم ومضى فيهم. قالوا: يارسول الله، أفلا ندع العمل ونتكل على كتابنا؟ قال: لا. اعملوا. فكل من سِرَ لما خُلِقَ له» وفي السنن عنه صل الله عليه وسلم أنه قيل له «أرايت أدويةً يتداوى بها، ورُقَى تَشْتَرَى بها، وَثَقَاةٌ تَنْقَى بها، هل ترد من قَدَرِ الله شيئاً؟ فقال: هي من قدر الله» وكذلك قول عمر لأبي عبيدة رضى الله عنهما، وقد قال أبو عبيدة لعمر «أَتَفِرُّ من قدر الله؟ - يعنى من الطاعون - قال: - أفرُّ من قدر الله إلى قدر الله.

وذلك في سفره عمر إلى الشام. فكان طاعون حمواس. فرجع عمر. فقال له أبو عبيدة «أَتَفِرُّ من قدر الله؟ فقال: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة؟ أفر من قدر الله إلى قدر الله. ثم نادى في الجيش: هل فيهم من سمع من رسول الله صل الله عليه وسلم في الطاعون شيئاً؟ فجاء عبد الرحمن بن عوف من أخبارات الجيش. فقال: سمعت رسول الله صل الله عليه وسلم يقول: إن كان في بلد وأنتم بها فلا تخرجوا منها. وإن سقمتم به في بلد وأنتم خارجون عنها فلا تدخلوها» ومعنى قوله تعالى (١٥: ٢١) وإن من شيء إلا عندنا خزائنه. وما ننزله

إلا بقدر معلوم) مثل قوله في الآية قبلها (١٥: ١٩) وأثبتنا فيها من كل شيء موزون) ومثل قوله (٥٤: ٤٩) إنا كل شيء خلقناه بقدر) وقوله (٣٦: ٣٩) والقمر قدرناه منازل) وقوله (٧٣: ٢٠) والله يقدر الليل والنهار) وقوله (٦٥: ٣) قد جعل الله لكل شيء قدرا) وقوله (٢٥: ٢) وخلق كل شيء فقدره تقديرا) وقوله (٨٠: ١٨، ١٩) من أي شيء خلقه؟ من نقطة خلقه فقدره) وقوله (٢٣: ١٨) وأنزلنا من السماء ماء بقدر) وقوله (٤٢: ٧) ولربط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض. ولكن ينزل بقدر ما يشاء) والمعنى في كل ذلك واضح: أنه خلقه بنظام وترتيب جعلت فيه الميقات بقدر الأسباب. ولم يخلق شيئا أنفاً بالمصادفة التي تشبه العبث سبحانه، ويعبر تقدير سابق في العلم والحكمة. فالمرض بقدر أسبابه والشفاء بقدر أسبابه. ومنها الدواء وقوة المزاج، ولا شيء بالمصادفة ولا بالخلق الأنف، كما يزعم الجاهليون الذين لا يعرفون الله بأسائه وصفاته وبآثار علمه وحكمته ورحمته.

وقد قال الله تعالى في السحاب (٧: ٥٧) فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من الثمرات) وقال تعالى (٤٥: ٥) فأحيى به الأرض بعد موتها) وقال تعالى (٥: ١٦) يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام) وقال تعالى (ما كنتم تعملون) (وما كنتم تكبون) (٨: ٥١) ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد) والقرآن مملو من ترتيب الأحكام الكونية والشرعية والثواب والعقاب على الأسباب بطرق متنوعة. فيأتي بقاء السببية تارة، وباللام تارة، وبأن تارة، وبكى تارة، ويذكر الوصف المتقضى تارة، ويذكر صريح التعليل تارة، كقوله: ذلك بأنهم فسؤا كذا، وقالوا كذا. ويذكر الجزاء تارة، كقوله (٥: ٣٢) و (٥٩: ١٧) وذلك جزاء الظالمين) وقوله (٥: ٨٨ و ٣٩: ٣٤) وذلك جزاء المحسنين) وقوله (٣٤: ١٧) وهل نجازي إلا الكفور؟) ويذكر المتقضى للحكم والمانع منه، كقوله (١٧: ٥٩) وما منعنا أن نرسل بالآيات، إلا أن كذب بها الأولون) وعند منكرى الأسباب واليحكم: لم يمنعه إلا عجز مشيئته ليس إلا، وقال (١٠: ٥) إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم) وقال (١٤: ١٥) كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم) وقال (٦٩: ٢٤) كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية) وقال (٦٥: ٢، ٣) ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب) وقال (٦٥: ٥) ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا) وقال (٨: ٢٩) إن تتقوا الله يمعن لكم فرقا) وقال (٢: ١٢٠) وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا) وقال تعالى (٤: ١٦٠) فيظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم، ويصدّهم عن سبيل الله كبيرا، وأخذهم الربا وقد نهوا عنه، وأكلهم أموال الناس بالباطل).

● نلتفت الى الاسباب دون الركون إليها

والموحد المتوكل لا يطمئن الى الاسباب، ولا يجرؤها ولا يخافها، فلا يركن إليها، ولكن يكون قائماً بها، ملتفتاً إليها، ناظراً الى مسببها سبحانه ويجريها. فلا يصح التوكل — شرعاً وعقلاً — إلا عليه سبحانه وحده. فإنه ليس في الوجود سبب تام موجب إلا مشيئته وحده. فهو الذى سبب الاسباب. وجعل فيها القوى والاقتضاء لآثارها، ولم يجعل منها سبباً يقتضى وحده أثره: بل لابد معه من سبب آخر يشاركه. وجعل لها أسباباً تضادها وتماثلها، بخلاف مشيئته سبحانه. فإنها لا تحتاج إلى أمر آخر. ولا في الاسباب الحادثة ما يطلها ويضادها، وإن كان الله سبحانه قد يبطل حكم مشيئته بمشيئته. فيشاء الأمر ثم يشاء ما يضاده ويمنع حصوله. والجميع بمشيئته واختياره. فلا يضح التوكل إلا عليه، والاتجاه إلا إليه، ولا الخوف إلا منه، ولا الرجاء إلا له، ولا الطمع إلا في رحمته، كما قال أمرف الخلق به صل الله عليه وسلم «أعوذ برهباك من سخطك، وأعوذ بمغافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك» وقال «لا تنجى ولا ملجأ منك إلا إليك».

فإذا جمعت بين التوحيد وبين إثبات الاسباب: استقام قلبك على السير إلى الله. ووضح لك الطريق الأعظم الذى مضى عليه جميع رسل الله وأنبيائه وأتباعهم. وهو الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم. وبالله التوفيق.

وما سبق به علم الله وحكمه حق. وهو لا ينافي إثبات الاسباب. ولا يقتضى إسقاطها. فإنه سبحانه قد علم وحكم: أن كذا وكذا يحدث بسبب كذا وكذا، فسبق العلم والحكم بحصوله عن سببه. فإسقاط الاسباب خلاف موجب علمه وحكمه. فمن نظر إلى الحدوث بغير الاسباب: لم يكن نظره وشهوده مطابقاً للحق، بل كان شهوده غيبية، ونظره عسى. فإذا كان علم الله قد سبق بحدوث الأشياء بأسبابها. فكيف يشهد العبد الأمور بخلاف ما هى عليه في علمه وحكمه وخلقه وأمره؟

والعملل التى تتقى في الاسباب نوهان. أحدهما: الاعتماد عليها، والتوكل عليها، والثقة بها، ورجاؤها وخوفها. فهذا شرك يرق ويظلم. وبين ذلك.

الثانى: ترك ما أمر الله به من الاسباب. وهذا أيضاً قد يكون كفراً وظلماً. وبين ذلك. بل على العبد أن يفعل ما أمره الله به من الأمر، ويتوكل على الله توكل من يعتقد أن الأمر كله بمشيئة الله. سبق به علمه وحكمه. وأن السبب لا يضر ولا ينفع، ولا يعطى ولا يمنع، ولا يقضى ولا يحكم. ولا يحصل للعبد مالم تسبق له به المشيئة الإلهية. ولا يصرف عنه ما سبق به الحكم والعلم. فيأتى بالاسباب إتيان من لا يرى النجاة والفلاح والوصول إلا بها. ويتوكل على الله

توكل من يرى أنها لا تنجيه، ولا تُحصل له فلاحاً، ولا توصله إلى المقصود. فيجرد عزمه للقيام بها حرصاً واجتهاداً، ويُتقَرُّ قلبه من الاعتماد عليها، والركون إليها، غيربدأً للتوكل، واعتماداً على الله وحده. وقد جمع النبي صلى الله عليه وسلم بين هذين الأصلين في الحديث الصحيح. حيث يقول «أحرص على ما ينفعك، واستعن بالله. ولا تعجز» فأمره بالحرص على الأسباب، والاستعانة بالسبب. ونهاه عن العجز. وهو نوعان: تقصير في الأسباب، وعدم الحرص عليها، وتقصير في الاستعانة بالله، وترك تجربتها. فالدين كله - ظاهره وباطنه، شرائعه وحقائقه - تحت هذه الكلمات النبوية.

فالأَسباب والوسائط والعلل على اعتبار الناظرين، ومعارف المستدلين (١٥: ٧٥) إن في ذلك لآيات للمُتَوَسِّمين) وكَم في القرآن من الحث على النظر والاعتبار بها، والتفكير فيها: وذم من أعرض عنها. والإخبار بأن النظر فيها والاستدلال: يوجب العلم والمعرفة بصدق رسله؟ فهو آيات كريمة مشاهدة تصدق الآيات القرآنية!!

فما علق بها آثارها مُلدى. ولا ترتب عليها مقتضياتها وأحكامها باطلاً، بل ذلك موجب كماله وكمال نعوته وصفاته. وبها عرفت ربوبيته وإلهيته، وملكوته وصفاته وأسماءه. هذا ولم يخلقها سبحانه عن حاجة منه إليها، ولا توقفاً لكمال المقدس عليها. فلم يتكبر بها من قلة. ولم يتعزَّز بها من ذلة. بل اقتضى كماله: أن يفعل ما يشاء. ويأمر ويتصرف ويدبر كما يشاء، وأن يحمّد ويعرف، ويذكرو ويعبد. ويعرف الخلق صفات كماله ونعوت جلاله. ولذلك خلق خلقاً يقصونه ويخالفونه أمره، لتعرف ملائكته وأنبياءه ورسله، وأولياؤه: كمال مغفرته، وعفوه، وحلمه وإمهاله. ثم أقبل بقلوب من شاء منهم إليه، فظهر كرمه في قبول توبته، وبره ولطفه في العود عليه بعد الإعراض عنه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم «لو لم تذنّبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ثم يستغفرون فيغفر لهم» فلمن كانت تكون مغفرته لو لم يخلق الأسباب التي يعفو عنها ويغفرها؟ والعبد الذي له يغفر؟ فخلق العبد المغفور له، وتقدير الذنب الذي يغفر. والتوبة التي يغفر بها: هو نفس مقتضى العزة والحكمة. وموجب الأسماء الحسنى، والصفات العلى.

فتمليق الكوائن بالأسباب كتعليق الثواب والعقاب بالأسباب، وهو عجز الحكمة وبموجب الكمال الإلهي. ومقتضى الحمد التام، ومظهر صفة العزة، والقدرة والملك، والشرائع كلها - من أولها إلى آخرها - مبنية على تعلق الأحكام بالعلل، والقضايا بالحجج، والثواب بالطاعة، والعقوبات بالجرائم.

(٦٤) مَنَازِلُ التَّائِبِينَ

ومن منازل إياك نعبد: منزلة استئناف التوبة

وهو تمكن يؤدي إلى استئناف التوبة من التقصير الذي رافق نزوله المنازل السابقة، وجمع القلب على المعبود وحده، وتحفيض الهمة على تنفيذ أوامر الله في الخلق دعوة وجهاداً، فإنه إن كان في باطنه مقبوضاً، لما هو فيه من جمعيته على الله، فإنه في ظاهره مبسوط مع الخلق، مظهراً لقوته، قصبداً لهدايتهم إلى الحق سبحانه ودعوتهم إليه، فهو كائن بائن، داخل خارج، متصل منفصل.

وكما إن التوبة بداية منازل السائرين، وأول مدرج من مدارج السالكين، فإنها نهاية أيضاً.

ولعل سمعك ينفر من هذا غاية النفور، وتقول: هذا كلام من لم يعرف شيئاً من طريق القوم. ولا تنزل في منازل الطريق. ولعمرك إن كثيراً من الناس ليوافقك على هذا، ويقول: أين كنا؟ وأين صرنا؟ نحن قد قطعنا منزلة «التوبة» وبيننا وبينها مائة مقام. فترجع من مائة مقام إليها. وتجعلها غاية مقام السالكين؟

فاسمع الآن وعية، ولا تعجل بالإنكار. ولا تبادر بالرد. وافتح ذهنك لمعرفة نفسك، وحقوق ربك، وما ينبغي له منك، وماله من الحق عليك. ثم أنسب أعمالك وأحوالك وتلك المنازل التي نزلتها والمقامات التي قمت فيها — لله وبالله — إلى عظيم جلاله، وما يستحقه وما هو له أهل. فإن رأيته واقية بذلك مكافئة له فلا حاجة حينئذ إلى التوبة. والرجوع إليها رجوع عن المقامات العملية، وانحطاط من علو إلى سفلى، ورجوع من غاية إلى بداية. وما ذلك بجميد من كثير من المستحسنين إلى هذا الشأن، المغرورين بأحوالهم ومعارفهم وإشاراتهم. وإن رأيت أن أضعاف أضعاف ما قمت به — من صدق وإخلاص، وإنابة وتوكل، وزهد وعبادة — لا يفي بأيسر حق له عليك، ولا يكافيء نعمة من نعمه عندك، وأن ما يستحقه — لجلاله وعظمته — أعظم وأجل وأكبر مما يقوم به الخلق، رأيت ضرورة التوبة في النهاية.

فاعلم الآن: أن التوبة نهاية كل عارف. وغاية كل سالك، وكما أنها بداية فهي نهاية. والحاجة إليها في النهاية أشد من الحاجة إليها في البداية. بل هي في النهاية في محل الضرورة.

فاسمع الآن ما خاطب الله به رسوله في آخر الأمر عند النهاية، وكيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في آخر حياته أشد ما كان استخاراً وأكثره، قال الله تعالى (٩: ١١٧) لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة الفسرة، من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم. ثم تاب الله عليهم. إنه بهم رؤوف رحيم) وهذا أنزله الله سبحانه بعد غزوة تبوك. وهي آخر الغزوات التي غزاها صلى الله عليه وسلم بنفسه. فجعل الله سبحانه «التوبة عليهم» شكراناً لما تقدم من تلك الأعمال. وذلك الجهاد. وقال تعالى في آخر ما أنزل على رسوله (إذا جاء نصر الله والفتح) ورأيت الناس يدخولون في دين الله أفواجا * فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً) وفي الصحيح «أنه صلى الله عليه وسلم ما صلى صلاة - بعد ما نزلت عليه هذه السورة - إلا قال فيها: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك. اللهم اغفر لي». وذلك في نهاية أمره صلوات الله وسلامه عليه. ولهذا فهم منها علماء الصحابة - كعمر بن الخطاب، وعبد الله بن عباس، رضي الله عنهم - أنه أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم، أعلمه الله إياه. فأمره سبحانه بالاستغفار في نهاية أحواله، وآخر ما شمع من كلامه عند قدومه على ربه «اللهم اغفر لي. وألحظني بالرفيق الأعلى». وكان صلى الله عليه وسلم يختم كل عمل صالح بالاستغفار كالصوم، والصلاة، والحج، والجهاد. فإنه كان إذا فرغ منه، وأشرف على المدينة، قال «أيها الذين آمنوا، لربنا حاضرون» وشرع أن يختم المجلس بالاستغفار وإن كان مجلس خير وطاعة، وشرع أن يختم العيد بعمل يومه بالاستغفار. فيقول عند اليوم «استغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه» وأن يتم على سيد الاستغفار العارف بالله وأسمائه وصفاته وحقوقه يعلم أن العيد أخرج ما يكون إلى التوبة في نهايته.

فبهذا الاستغفار يكون تحقيق العبودية، والقيام باعبادتها، واحتمال فرائضها وسننها وادائها، والجهاد لاعداء الله، والدعوة إلى الله، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعمل الأذى في الله، ومعرفة الاسماء والصفات، ومعرفة ما يحبه الله تعالى ويكرهه، ومعرفة خير الخيرين وشر الشرين، والعلم بمراتب العبودية ومنازلها.

فالحق أن نهاية السالكين: تكميل مرتبة العبودية صرفاً. وهذا مما لا سبيل إليه لبني الطبيعة. وإنما خص بذلك الجليلان - عليهما الصلاة والسلام - من بين سائر الخلق. أما إبراهيم الخليل - صلوات الله وسلامه عليه - فإن الله عز وجل شهد له بأنه وثقى. وأما سيد ولد آدم - صلوات الله وسلامه عليه - فإنه كمل مرتبة العبودية. فاستحق التقديم على سائر الخلق. فكان صاحب الوسيلة والشفاعات التي يتأخر عنها جميع الرسل، ويقول هو «أنا لها» ولهذا ذكره الله سبحانه وتعالى بالعبودية في أجل مقاماته، وأشرف أحواله. كقوله تعالى (١٧: ١) سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً) وقوله (٧٢: ١٩) وأنه لما قام عبد الله يدعوه) وقوله (٢: ٢٣) وإن كنتم

في رجب لما نزلنا على عبدنا) وقوله (٢٥: ١ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده) ولهذا يقول المسيح، حين يُرْعَب إليه في الشفاعة «أذهبوا إلى محمد، عبيد عُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر» فاستحق تلك الرتبة العليا بتكميل عيوديته لله، وبكمال مغفرة الله له. اما اتباع الرسل فالأمثل ثم الأمثل.

والحال الذي يحصل لمن قام بذلك: هو حال الرسل وخلفائهم. وهو جمع الهمة على الله سبحانه: محبة وإثابة وتوكلا، وخوفاً ورجاء ومراقبة. وجمع الهمة على تنفيذ أوامر الله في الخلق دعوة وجهاداً. فهما حالان: جمع القلب على المعبود وحده. وجمع الهمم له على محض عبوديته.

فإن قلت: فأين شاهد هذين الجمعين؟ قلت: في القرآن كله، فخذ من فاتحة الكتاب في قوله (إياك نعبد وإياك نستعين) وتأمل في قوله «إياك» التخصص لذاته المقدسة بالعبادة والاستعانة، وما في قوله «نعبد» الذي هو للحال والاستقبال، وللعبادة الظاهرة والباطنة: من استيفاء أنواع العبادة، حالاً واستقبلاً قولاً وعملاً، ظاهراً وباطناً. والاستعانة على ذلك به لا بغيره. ولهذا كانت الطريق كلها في هاتين الكلمتين. وهي معنى قولهم «الطريق في: إياك أريد بما تريد» فجمع المراد في واحد، والإرادة في مراده الذي يحبه ويرضاه. قال هذا دعت الرسل من أولهم إلى آخرهم. وإليه شتخص العاملون والمتوجهون. وكل الأحوال والمقامات — من أولها إلى آخرها — مندرجة في ضمن ذلك، ومن ثمراته وموجباته.

فالعبودية تجمع كمال الحب في كمال الذل، وكمال الانقياد لمراضى المحبوب وأوامره. فهي الغاية التي ليس فوقها غاية. وإذا لم يكن إلى القيام بحقيقتها — كما يجب — سبيل، فعل التوبة المعول، وقد عرفت — بهذا وبغيره — أن الحاجة إليها في النهاية أشد من الحاجة إليها في البداية. ولولا تنسم روحها لحال اليأس بين ابن الماء والطين وبين الوصول إلى رب العالمين، هذا لوقام بما يشفي عليه أن يقوم به لسيده من حقوقه. فكيف والغفلة والتقصير والتفريط والتهاون، وإيثار حظوظه في كثير من الأوقات على حقوق ربه لا يكاد يتخلص منها ؟



٦٥) مَثَلُ الْمُنْتَهِيَةِ التَّوْحِيدِ

ومن المنازل: منزلة استئناف التوحيد

وهو ظفر السالك في النهاية بحقيقة التوحيد المحض، كما ظفر به في البداية.
ان «التوحيد» أول دعوة الرسل. وأول منازل الطريق. وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله تعالى. قال تعالى (٧: ٥٥) لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه. فقال: يا قوم اعبدوا الله. ما لكم من إله غيره) وقال هود لقومه (٧: ٦٥) اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) وقال صالح لقومه (٧: ٥٣) اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) وقال شعيب لقومه (٧: ٥٨) اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) وقال تعالى (١٦: ٢٦) ولقد بعثنا في كل أمة رسلاً: أن اعبدوا الله، واجتنبوا الطاغوت).

فالتوحيد: مفتاح دعوة الرسل. ولهذا قال النبي صل الله عليه وسلم لرسوله معاذ بن جبل رضى الله عنه — وقد بعثه إلى اليمن — «إنك تأتي قوماً أهل كتاب. فليكن أول ما تدعوهم إليه: عبادة الله وحده. فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله. وأن محمداً رسول الله. فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة — وذكر الحديث» وقال صل الله عليه وسلم «أمرت أن أماتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله» ولهذا كان الصحيح: أن أول واجب يجب على المكلف: شهادة ان لا إله إلا الله. ولكن كما أن التوحيد: أول ما يدخل به في الإسلام فإنه آخر ما يخرج به من الدنيا. كما قال النبي صل الله عليه وسلم «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله: دخل الجنة» فهو أول واجب. وآخر واجب. فالتوحيد: أول الأمر وآخره.

ومجرد تنزيه الله عن الحدث لا يدل على التوحيد الذي بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه. وينجوبه المبد من النار. ويدخل به الجنة. ويخرج من الشرك فإنه مشترك بين جميع الفرق. وكل من أقر بوجود الخالق سبحانه أقرب به. ضباد الأصنام والمجوس، والنصارى، واليهود، والمشركون — على اختلاف نحلهم — كلهم ينزهون الله عن الحدث، ويثبتون قدمه. حتى أعظم الطوائف على الإطلاق شركاء، ويكفراً، وإلحاداً. وهم طائفة الاتحادية. فإنهم يقولون: هو

الوجود المطلق. وهو قديم لم يزل. وهو منزّه عن الحدث. ولم تزل المحدثات تكتسى وجوده. تلبسه وتغلمه.

والفلاسفة — الذين هم أبعد الخلق عن الشرائع وما جاءت به الأنبياء — يشنون واجب الوجود قديماً منزهاً عن الحدث.

وللشركون — عباد الأصنام الذين يعبدون منه آلهة أخرى — يشنون قديماً منزهاً عن الحدث. فالتزیه عن الحدث حق. لكن لا يعطى إسلاماً ولا إيماناً. ولا يُدخل في شرائع الأنبياء. ولا يُخرج من نحل أهل الكفر وملهم ألبته.

ومع هذا فقد سُئل سيد الطائفة الجنيد عن التوحيد؟ فقال: هو أفراد القديم عن المحدث. والجنيد: أشار إلى أنه لا تصح دعوى التوحيد. ولا مقامه ولا حاله، ولا يكون العبد موحداً إلا إذا أفرد القديم عن المحدث. فإن كثيراً ممن ادعى التوحيد لم يفرد سبحانه من المحدثات. فإن من نفس مبادئه خلقه فوق سمواته على عرشه، وجعله في كل مكان بذاته. لم يفرد عن المحدث. بل جعله حالاً في المحدثات بخلافها. موجوداً فيها بذاته.

قال الأشعري في كتاب المقالات: هذه حكاية قول قوم من النساك. وفي الأمة قوم ينتحلون النيسك، يزعمون أنه جازى على الله تعالى الحلول في الأجسام. وإذا رأوا شيئاً يستحسنونه قالوا: لا ندري! لله ربنا.

قلت: وهذه الفرق طائفتان. إحداهما: تزعم أنه سبحانه يحل في الصورة الجميلة المستحسنة. والثانية: تزعم أنه سبحانه يحل في الكُتَل من الناس. وهم الذين تجردت نفوسهم عن الشهوات. واتصفوا بالمفضائل، وتزهوا عن الرذائل. والنصارى تزعم أنه حل في بدن المسيح وتدرج به. والاتحادية تزعم أنه وجود مطلق اكتسبه الماهيات. فهو عين وجودها. فكل هؤلاء لم يفردوا القديم عن المحدث.

● هو الله الخالق ... له الاسماء الحسنی

وهذا الأفراد — الذى أشار إليه الجنيد — نومان. أحدهما: أفراد في الاعتقاد والخبر. وذلك نوعان أيضاً. أحدهما: إثبات مهابنة الرب تعالى للمخلوقات، وعلاه فوق سبع سموات. كما نطقت به الكتب الإلهية من أولها إلى آخرها. وأخبرت به جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم. والثانى: أفراد سبحانه بصفات كماله، وإثباتها له على وجه التفصيل، كما أثبتتها لنفسه، وأثبتها له رساله، منزّهة عن التعطيل والتحرير والتمثيل، والتكليف والتشبيه. بل تثبت له سبحانه حقائق الأسماء والصفات. وتنفي عنه فيها مماثلة المخلوقات، إثبات بلا تمثيل وتزیه بلا تحريف ولا تعطيل (٤٢: ١١) ليس كمثله شيء وهو السميع البصير).

وفي هذا النوع يكون إفراده سبحانه بعموم قضائه وقدره لجميع المخلوقات — أعيانها وصفاتها وأنعمائها — وأنها كلها واقعة بمشيئته وقدرته، وعلمه وحكمته. فبيان صاحب هذا الإفراد سائر فرق أهل الباطل: من الاتحادية، والحلولية، والجهمية الفرعونية — الذين يقولون: ليس فوق السماوات رب يعبد. ولا على العرش إله يصلي له و يسجد — والتدريية — الذين يقولون: إن الله لا يقدر على أفعال العباد، من الملائكة والإنس والجن، ولا على أفعال سائر الحيوانات — بل يقع في ملكه ما لا يريد. ويريد ما لا يكون. فيريد شيئاً لا يكون. ويكون شيء بغير إرادته ومشيئته. والله سبحانه أعلم.

● وهو الله المعبود ... سبحانه

والنوع الثاني من الافراد: إفراد القديس عن المحدث بالعبادة — من التأله، والحب، والخوف، والرجاء والتعظيم، والإنابة والتوكل، والاستعانة وابتغاء الوسيلة إليه — فهذا الإفراد، وذلك الإفراد: بهما بعثت الرسل، وأنزلت الكتب. وشرعت الشرائع. ولأجل ذلك خلقت السماوات والأرض. والجنة والنار. وقام سوق الثواب والعقاب. فتفريد القديم سبحانه عن المحدث: في ذاته وصفاته وأفعاله. وفي إرادته وحده ومحبته وخوفه ورجائه، والتوكل عليه، والاستعانة والخلف به، والنذر له، والتوبة إليه، والسجود له، والتعظيم والإجلال، وتوابع ذلك. ولذلك كانت عبارة الجنيـد عن التوحيد عبارة سادة مسددة.

و«التوحيد» هو الغاية المطلوبة من جميع المقامات والأعمال والأحوال. فغايتها كلها التوحيد. وإنما كلام العلماء والمحققين من أهل السلوك كله لقصد تصحيحه. وهذا بين من أول المقامات إلى آخرها. فإنها تشير إلى تصحيحه وتعميده.

فالتوكل مثلاً هو حقيقة التوحيد، ولا يتم التوحيد إلا به. وفي «باب التوكل» بيان ذلك، وأنه من مقامات الرسل.

● من ظن نفسه متوكلاً وهو واهم

للتوكل ثلاث علل تؤثر في كمال التوحيد، وتنشأ عن أوهام تجعل العبادة ناقصة:

إحداها: أن يترك ما أمر به من الأسباب، استغناء بالتوكل عنها. فهذا توكل عجز وتفريط وإضاعة. لا توكل عبودية وتوحيد. كمن يترك الأعمال التي هي سبب النجاة، ويتوكل في حصولها. ويترك القيام بأسباب الرزق — من العمل والحراثة والتجارة ونحوها — ويتوكل في

حصوله. ويترك طلب العلم، ويتوكل في حصوله. فهذا توكله عجز وتفریط. كما قال بعض السلف: لا تكن ممن يجعل توكله عجزاً. وعجزه توكلًا.

الحلة الثانية: أن يتوكل في حظوظه وشهواته دون حقوق ربه. كمن يتوكل في حصول مال أو زوجة أو رياسة. ولما التوكل في نصرة دين الله، وإعلاء كلمته وإظهار سنة رسوله، وجهاد أعدائه: فليس فيه حلة. بل هو مزيل للعلل.

الحلة الثالثة: أن يرى توكله منه. ويغيب بذلك عن مطالعة المنه وشهود الفضل، وإقامة الله له في مقام التوكل. وليس مجرد رؤية التوكل علة، كما يظنه، بل عليه أن يرى أن توكله من عين الجود، ومحض المنه، وأنه توفيق الله تعالى.

فهذه العلل الثلاث هي التي تعرض في مقام التوكل وغيره من المقامات. وهي التي يعمل المارقون بالله وأمره على تخطيها. وهكذا الكلام في سائر علل المقامات. وإنما ذكرنا هذا مثالا لما يذكر من عللها. فمثل كل مقام هي هذه الثلاثة المذكورة: أن يترك بها ما هو أعلى منها، وأن يعلقها بحظه، والانتطاع بها عن المقصود، وأن لا يراها توفيقاً ربانياً وجوداً وكرماً.

• كمال التوحيد شرط الإمامة

لا ريب أن أهل التوحيد يتفاوتون في توحيدهم — علماً ومعرفة وحالاً — تفاوتاً لا يحصى إلا الله. فأكمل الناس توحيداً: الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، والمرسلون منهم أكمل في ذلك. وأولو العزم من الرسل أكمل توحيداً. وهم نوح، وإبراهيم، وموسى، ومحمد. صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وأكملهم توحيداً: الخليلان محمد وإبراهيم صلوات الله وسلامه عليهما. فإنهما قاما من التوحيد بما لم يتم به غيرهما — علماً ومعرفة وحالاً، ودعوة للخلق وجهاداً — فلا توحيد أكمل من الذي قامت به الرسل، ودعوا إليه، وجاهدوا الأمم عليه. ولهذا أمر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقتدى بهم فيه. كما قال سبحانه — بعد ذكر إبراهيم ومناظرته أباه وقومه في بطلان الشرك وصحة التوحيد، وذكر الأنبياء من ذريته — ثم قال (٩: ٨٩)، أولئك الذين آمنوا بآياتهم الكتلبة والحكم والنبوة. فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكفنا بها قوما ليسوا بها بكافرين • أولئك الذين هدى الله. فبهذههم آتية (٩: ٩٠) فلا أكمل من توحيد من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقتدى بهم.

ولما قاموا بحقيقته — علماً وصلاً ودعوة وجهاداً — جعلهم الله أئمة للخلائق. يهدون بأمره. ويدينون إليه. وجعل الخلائق تبعاً لهم. يأتون بأمرهم. وينتھون إلى ما وقفوا بهم عنده. ونخص

بالسعادة والفلاح والهدى أتباعهم. وبالشقاء والضلال مخالفهم. وقال لإمامهم وشيخهم إبراهيم خليله (٢: ١٢٤) إني جاءك للناس إماما، قال: ومن ذريتي. قال: لا ينال عهدى الظالمين أى لا ينال عهدى بالإمامة مشرك. ولهذا أوصى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أن يتبع ملة إبراهيم. وكان يتعلم أصحابه، إذا أصبحوا: أن يقولوا «أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وملة أبينا إبراهيم، حنيفاً مسلماً. وما كان من المشركين» فملة إبراهيم: التوحيد، ودين محمد: ما جاء به من عند الله قولاً وعملاً واعتقاداً. وكلمة الإخلاص: هى شهادة أن لا إله إلا الله. وفطرة الإسلام: هى ما فطر الله عليه عباده من محبته وعبادته وحده لا شريك له والاستسلام له عبودية وذلاً، وانقياداً وإتابة.

فهذا هو توحيد خاصة الخاصة الذى من رغب عنه فهو من أسفه السفهاء. قال تعالى (٢: ١٣٠) ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفة نفسه؟ ولقد اصطفتناه فى الدنيا. وإنه فى الآخرة لمن الصالحين. إذ قال له ربه: أسلم. قال: أسلمت لرب العالمين).

فقسم سبحانه الخلائق قسمين: سفيهاً لا أسفه منه. ورشيداً. فالسفيه: من رغب عن ملته إلى الشرك. والرشيد: من تبرا من الشرك قولاً وعملاً وحالاً. فكان قوله توحيداً. وعمله توحيداً. وحاله توحيداً، ودعوته إلى التوحيد. وبهذا أمر الله سبحانه جميع المسلمين — من أولهم إلى آخرهم — قال تعالى (٢٣: ٥٢، ٥١) يا أيها الرسل، كلوا من الطيبات. واعدلوا صالحاً. إني بما تعملون عليم. وإن هذه أمتكم أمة واحدة. وأنا ربكم فاتقون) وقال تعالى (٢١: ٢٥) وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقال تعالى (٤٣: ٤٥) واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا: أجبنا من دون الرحمن آلهة يعبدون؟) وقال تعالى (٢١: ٢١ - ٢٤) أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون. لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، فسبحان الله رب العرش عما يصفون. لا يسألك عما يفعل. وهم يسألون. أم اتخذوا من دونه آلهة؟ قل هاتوا برهانكم. هذا ذكر من معي وذكر من قبلي) أى هذا الكتاب الذى أنزل عليّ. وهذه كتب الأنبياء كلهم: هل وجدتم فى شئ منها اتخذ آلهة مع الله؟ أم كلها ناطقة بالتوحيد أمرة به؟ وقال تعالى (١٦: ٣٦) ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً: أن اعبدوا الله. واجتنبوا الطاغوت) و«الطاغوت» أسم لكل ما عبدو من دون الله. فكل مشرك إلهه طاغوته.

وقد تكلم شيخ الاسلام ابن تيمية على التوحيد الذى جاءت به الرسل من أولهم إلى آخرهم، ونزلت به الكتب كلها. وبه أمر الله الأولين والآخرين. وذكر الآيات الواردة بذلك.

ثم قال: وقد أخبر الله عن كل رسول من الرسل أنه قال لقومه (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) وهذه أول دعوة الرسل وآخرها. قال النبي صلى الله عليه وسلم «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله. وأني رسول الله» وقال «من مات وهو يعلم: أن لا إله إلا الله، دخل الجنة» والقرآن مملوء من هذا التوحيد، والدعوة إليه. وتعليق النجاة والسعادة في الآخرة به. وحقيقته: إخلاص الدين كله لله. والفتاء في هذا التوحيد مقرون بالبقاء. وهو أن تثبت إلهية الحق تعالى في قلبك. وتنفى إلهية ما سواه. فتجمع بين النفي والإثبات. فالنفي هو الفتاء. والإثبات هو البقاء. وحقيقته: أن تنفى عبادة الله عن عبادة ما سواه، ومحبيته عن محبة ما سواه، وبخشيته عن خشية ما سواه. وبطاعته عن طاعة ما سواه. وكذلك بمولاته وسواله، والاستغناء به، والتوكل عليه. ورجائه ودعائه، والتفويض إليه. والتحاكم إليه، والتبأ إليه، والرغبة فيما عنده. قال تعالى (١٤:٦) قل: أغير الله اتخذ ولياً، فاطر السموات والأرض؟ وقال تعالى (١٤:٦) أفغير الله أبغى حكماً؟ وقال تعالى (١٦٤:٦) قل: أغير الله أبغى رباً؟ وهو رب كل شيء) وقال تعالى (١٤:٣٩) قل: أفغير الله تأمرونني أعبد أيها الجاهلون؟ ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك: لئن أشركت ليحبطن عملك، وتكونن من الخاسرين * بل الله فاعبد. وكن من الشاكرين) وقال تعالى (١٦١:٦) قل: إني هداني ربي إلى صراط مستقيم * ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً، وما كان من المشركين * قل: إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين. لا شريك له - الآية) وقال تعالى (٢١٣:٢٦) فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين) وقال تعالى (٢٢:١٧) لا تعمل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً) وقال تعالى (٨٨:٢٨) ولا تدع مع الله إلهاً آخر. لا إله إلا هو. كل شيء هالك إلا وجهه) وقال تعالى (٣٨:٣٩) قل: أفأمرأيتكم ما تدعون من دون الله؟ إن أرادني الله بضر: هل هنَّ كاشفاتُ ضره؟ أو أرادني برحمة: هل هنَّ محسكاتُ رحمته؟ قل: حسبى الله. عليه يتوكل المتوكلون) وقال (١٠٧:١٠) وإن يستنك الله بضر فلا كاشف له إلا هو، وإن يردك بخير فلا راداً لفضله) وقال تعالى (٣:٣٩) إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق. فاعبد الله مخلصاً له الدين) . وقال عن أصحاب الكهف (١٤:١٨) قالوا: ربنا رب السموات والأرض. لن ندعوك من دونك إلهاً. لقد قلنا إذا شططاً) وقال عن صاحب يس (٣٦:٢٢)، ٢٣ إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا يتقذون؟ وقال تعالى (أم اتخذوا من دونه أولياء؟ قاله هو الولي) .

وقال تعالى (٤٣:٣٩)، ٤٤ أم اتخذوا من دون الله شفعاء؟ قل أولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون؟ * قل لله الشفاعة جميعاً. له ملك السموات والأرض ثم إليه

ترجعون) وقال تعالى (٧٤، ٧٣: ٢٢) يا أيها الناس، ضرب مثل. فاستمعوا له. إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً، ولو اجتمعوا له. وإن يسألهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه. ضعف الطالب والمطلوب. ما قدروا الله حق قدره. إن الله لقوى عزيز. وقال تعالى (٣٦: ٤) واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً).

وهذا في القرآن كثير. بل هو أكثر من أن يذكر. وهو أول الدين وآخره وباطنه وظاهره، وذروة سنامه، وقطب رحاه، وأمرنا تعالى أن تناسى بإمام هذا التوحيد في نفيه وإثباته، كما قال تعالى (٦٠: ٤) قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه. إذ قالوا لقومهم: إنا نراء منكم وما تعبدون من دون الله. كافرين بكم، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده) وقال تعالى (٢٧، ٢٦: ٤٣) وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون * إلا الذي فطرنى، فإنه سيهدين) وقال تعالى (٦٩: ٢٦) — ٨٢ واتل عليهم نبأ إبراهيم. إذ قال لأبيه وقومه: ما تعبدون؟ قالوا: نعبد أصناماً فنظّلها عما كفين. قال: هل يسمعونكم إذ تدعون؟ * أو ينفعونكم أو يضرون؟ قالوا: بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون * قال: أفرأيتم ما كنتم تعبدون * أنتم وأبائكم الأقدمون؟ * فإنهم عذّوب إلى رب العالمين * الذى خلقنى فهو يهدين * والذى هو يطمعنى ويسفِين * وإذا مرضت فهو يشفين * والذى يميتنى ثم يحيين * والذى أطعم أن يغفر لى خطيئى يوم الدين) وإذا تدبرت القرآن — من أوله إلى آخره — رأيت يدور على هذا التوحيد، وتقريره وحقوقه.

قال شيخنا: والخليلان هم أكمل خاصة الخاصة توحيداً. ولا يجوز أن يكون في الأمة من هو أكمل توحيداً من نبي من الأنبياء. فضلاً عن الرسل، فضلاً عن أول العزم، فضلاً عن الخليلين. وكمال هذا التوحيد: هو أن لا يبقى في القلب شيء لغير الله أصلاً. بل يبقى العبد موالياً لربه في كل شيء. يحب من أحب وما أحب، ويبغض من أبغض وما أبغض، ويوالى من يوالى، ويعادى من يعادى، ويأمر بما يأمر به، وينهى عما نهى عنه. ولعمرو الله: انه لظهوره وجلاله: ارسل الله به رسله، وانزل به كتبه، وأمر الله به الأولين والآخرين من عباده.

فظهر هذا التوحيد وانجلاؤه ووضوحه. وشهادة الفطر والمقول به: من أعظم الأدلة أنه أعلى مراتب التوحيد، وذروة سنامه. ولذلك قوى على نفى الشرك الأعظم. فإن الشيء كلما عظم لا يدفعه إلا العظيم. فلو كان شيء أعظم من هذا التوحيد لدفع الله به الشرك الأعظم. ولعلّمت وشرفه: نصبت عليه القبلة واستت عليه الملة، ووجبت به الذمة، وانفصلت به دار الكفر من دار الإسلام. وانقسم به الناس إلى سعيد وشقى، ومهتد وغوى. ونادت عليه الكتب والرسل.

• التوحيد فقه قلبي لا بلاغة لسان

وهذا التوحيد مستتر في قلوب أهله وإن كان أكثرهم لا يحسن الاستدلال عليه تقريراً وإيضاحاً، وجواباً عن المعارض، ودفاعاً لشبه المعاند. ولا ريب أن أكثر الناس لا يحسنون ذلك وهذا قدر زائد على وجود التوحيد في قلوبهم. فما كل من وجد شيئاً وعلمه وتيقنه: أحسن أن يستدل عليه. ويقرره، ويدفع الشبه القادحة فيه. فهذا لون ووجوده لون.

فاستدلال كل أحد بحسبه، ولا يحصى أنواع الاستدلال ووجوهه ومراتبه إلا الله. فلكل قوم هاد، ولكل علم صحيح ويقين: دليل يوجهه، وشاهد يصح به. وقد لا يمكن صاحبه التعبير عنه عجزاً وعياً. وإن عبر عنه فقد لا يمكنه التعبير عنه باصطلاح أهل العلم وألفاظهم. بل من استقرأ أحوال الناس رأى أن كثيراً من أهل الإسلام — أو أكثرهم — أعظم توحيداً، وأكثر معرفة، وأرسخ إيماناً من أكثر المتكلمين، وأرباب النظر والجدال. ومجد عندهم من أنواع الأدلة والآيات التي يصح بها إيمانهم ما هو أظهر وأوضح وأصح مما عند المتكلمين. وهذه الآيات التي تدب الله عباده إلى النظر فيها، والاستدلال بها على توحيده، وثبوت صفاته وأفعاله، وصدق رسله: هي آيات مشهودة بالحوس، معلومة بالعقل، مستقرة في الفطر. لا يحتاج الناظر فيها إلى أوضاع أهل الكلام والجدل، واصطلاحهم، وطرقهم البتة. وكل من له حس سليم، وعقل يميزه: يعرفها ويُقِرُّ بها، وينتقل من العلم بها إلى العلم بالدلول. وفي القرآن ما يزيد على عشرات ألوف من هذه الآيات البينات. ومن لم يحفظ القرآن فإنه إذا سمعها وفهمها وعقلها انتقل ذهنه منها إلى الدلول أسرع انتقال وأقرب.

وبالجملة: فما كل من علم شيئاً أمكنه أن يستدل عليه. ولا كل من أمكنه الاستدلال عليه يحسن ترتيب الدليل وتقريره، والجواب عن المعارض.

• بذرة التوحيد قامية

قال شيخ الإسلام الهروي:

«ويجب التوحيد بالعقل والسمع، ويوجد بتوفيق الله بعد تبصيره، وينمو بإجابة داعي الحق والتبصر في الشواهد».

هذه ثلاث مسائل. إحداها: ما يجب به. والثانية: ما يوجد به. والثالثة: ما ينمو به. فأما المسألة الأولى: فاختلف فيها الناس. فقالت طائفة: يجب بالعقل. ويعاقب على تركه. والسمع مقرر لما وجب بالعقل مؤكداً له. فجعلوا وجوبه والعقاب على تركه ثابتين بالعقل.

والسمع مبين ومقرر للوجوب والعقاب. وهذا قول المعتزلة ومن أتباع الأئمة في مسألة التحسين والتقيح العقليين

وقالت طائفة: لا يشبث بالعقل. لا هذا ولا هذا. بل لا يجب بالعقل فيها شيء. وإنما الوجوب بالشرع. ولذلك لا يستحق العقاب على تركه. وهذا قول الأشعرية ومن وافقهم على نفي التحسين والتقيح.

والحق: أن وجوبه ثابت بالعقل والسمع، والقرآن على هذا يدل. فإنه يذكر الأدلة والبراهين العقلية على التوحيد. ويبين حسنة وقبح الشرك عقلاً وفطرة. ويأمر بالتوحيد وينهى عن الشرك. ولهذا ضرب الله سبحانه الأمثال. وهى الأدلة العقلية. وخطاب العباد بذلك خطاب من استقرى عقولهم وفطرتهم حسن التوحيد ووجوبه. وقبح الشرك وذمه. والقرآن يملوه بالبراهين العقلية الدالة على ذلك. كقوله (٢٩:٣٩) ضرب الله مثلاً. رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سليماً لرجل، هل يستويان مثلاً؟ الحمد لله. بل أكثرهم لا يعلمون) وقوله (١٦:٧٥، ٧٦) ضرب الله مثلاً: عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء، ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سرّاً وجهراً، هل يستويان؟ الحمد لله. بل أكثرهم لا يعلمون * وضرب الله مثلاً رجلين: أحدهما أبكم لا يقدر على شيء. وهو كلٌّ على مولاه. أينما يوجهه لا يأت بخير، هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل، وهو على صراط مستقيم؟) وقوله (٢٢:٧٤، ٧٣) يا أيها الناس، ضرب مثل. فاستمعوا له: إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه. ضعف الطالب والمطلوب. ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز) إلى أضعاف ذلك من براهين التوحيد العقلية التي أرشد إليها القرآن ونبه عليها.

ولكن ههنا أمر آخر. وهو أن العقاب على ترك هذا الواجب يتأخر إلى حين ورود الشرع. كما دل عليه قوله تعالى (١٧:١٥) وما كنا معذبين حتى ننبئ رسولا) وقوله (٦٧:٨، ٩) كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها: ألم يأتكم نذير؟ * قالوا: بلى! قد جاءنا نذير فكذبنا) وقوله (٢٨:٥٩) وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا، وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون) وقوله (٦:١٣١) ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون) فهذا يدل على أنهم ظاننون قبل إرسال الرسل. وأنه لا يهلكهم بهذا الظلم قبل إقامة الحجة عليهم. فالآية رد على الطائفتين معاً، من يقول: إنه لا يشبث الظلم والتقيح إلا بالسمع، ومن يقول: إنهم معذبون على ظلمهم بدون السمع. فالقرآن يبطل قول هؤلاء وقول هؤلاء. كما قال تعالى (٢٨:٤٧) ولولا أن نصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم، فيقولوا: ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا؟ فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين؟) فأخبر:

أن ما قدمت أيديهم قبل إرسال الرسل سبب لإصابتهم بالمصيبة. ولكن لم يفعل سبحانه ذلك قبل إرسال الرسول الذى يقيم به حجة عليهم، كما قال تعالى (١٦٥:٤) رسلا مبشرين ومنذرين. لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) وقال تعالى (١٥٥:٦) — وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحون * أو تقولوا: لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم. فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة) وقوله (٥٦:٣٩) — ٥٩ أن تقول نفس: يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله. وإن كنت لمن الساخرين * — إلى قوله — بل قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين) وهذا في القرآن كثير. يخبر أن الحجة إنما قامت عليهم بكتابه ورسوله، كما نبههم بما في عقولهم وفطرتهم: من حسن التوحيد والشكر، وقيح الشرك والكفر.

وقد ذكرنا هذه المسألة مستوفاة في كتاب «مفتاح دار السعادة» وذكرنا هناك نحواً من ستين وجهاً. تبطل قول من نفى القبح العقل، وزعم أنه ليس في الأفعال ما يقتضى حسنها ولا قبحها. وأنه يجوز أن يأمر الله بعين ما نهى عنه. وينهى عن عين ما أمر به. وأن ذلك جائز عليه. وإنما الفرق بين المأمور والمنهى بمجرد الأمر والنهى، لا بحسن هذا وقبح هذا. وأنه لو نهى عن التوحيد والإيمان والشكر لكان قبيحاً. ولو أمر بالشرك والكفر والظلم والفواحش لكان حسناً. وبيناً أن هذا القول مخالف للعقول والفطر، والقرآن والسنة.

والمقصود: وجوبه بالسمع والعقل. وإن اختلفت جهة الإيجاب. فالعقل يوجبه: بمعنى اقتضائه لفعله، وذمه على تركه، وتقبيحه لصفه. والسمع يوجبه بهذا المعنى. ويزيد: إثبات العقاب على تركه، والإخبار عن مقت الرب تعالى لتاركه، وبخضه له. وهذا قد يعلم بالعقل. فإنه إذا تقرر قبح الشيء وفحش بالعقل، وعلم ثبوت كمال الرب جل جلاله بالعقل أيضاً: اقتضى ثبوت هذين الأمرين: علم العقل بمقت الرب تعالى لمرتكبه. وأما تفاصيل العقاب، وما يوجبه مقت الرب منه: فإنما يعلم بالسمع.

واعلم أنه إن لم يكن حسن التوحيد وقبح الشرك معلوماً بالعقل، مستقراً في الفطر، فلا وثوق بشيء من قضايا العقل. فإن هذه القضية من أجل القضايا البديهيات، وأوضح ما ركب الله في العقول والفطر. ولهذا يقول سبحانه عقيب تقرير ذلك (أفلا تعقلون؟ أفلا تدكرون؟) وينفى العقل عن أهل الشرك، ويخبر عنهم بأنهم في النار: أنهم لم يكونوا يسمعون ولا يعقلون. وأنهم خرجوا عن موجب السمع والعقل، وأخبر عنهم: أنهم (١٧١:٢) صم بكم عمى فهم لا يعقلون) وأخبر عنهم (٢٦:٤٦) أن سمعهم وأبصارهم أخذتهم لم تغن عنهم شيئاً. ولو لم يكن في صريح العقل ما يدل على ذلك لم يكن في قوله تعالى «انظروا» و«اعتبروا» و«سيروا في الأرض، فانظروا» فائدة. فإنهم يقولون: عقولنا لا تدل على ذلك. وإنما هو مجرد إخبارك. فما

هذا النظر والتفكير والاعتبار والسير في الأرض؟ وما هذه الأمثال المضروبة، والأقيسة العقلية والشواهد العيانة؟ أفليس في ذلك أظهر دليل على حسن التوحيد والشكر؟

وتبجح الشرك والكفر مستقر في العقول والفطر. معلوم لمن كان له قلب حي، وعقل سليم، وفطرة صحيحة؟ قال تعالى (٢٧:٣٩) ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلمهم يتذكرون) وقال تعالى (٤٣:٢٩) وتلك الأمثال نضربها للناس. وما يعقلها إلا العالمون) وقال تعالى (٣٧:٥٠) إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) وقال تعالى (٤٦:٢٢) أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها. أو آذان يسمعون بها؟ فإنها لا تسمي الأبصار. ولكن نعيى القلوب التى فى الصدور) وقال تعالى (٢٤٣:٢) كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون) وقال تعالى (١٠:١٠) قل انظروا ماذا فى السموات والأرض. وما تنفى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون؟) وقال تعالى (٢٥:١٤) ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون).

ومن بعض الأدلة العقلية: ما أبقاء الله تعالى من آثار عقوبات أهل الشرك وآثار ديارهم، وما حل بهم، وما أبقاء من نصر أهل التوحيد وإعزازهم. وجعل العاقبة لهم. قال تعالى (٣٨:٢٩) وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم) وقال في ثمود (٢٧:٥٢، ٥٣) فتلک بیوتهم خاوية بما ظلموا. إن في ذلك لآية لقوم يعلمون * وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) وقال في قوم لوط (٣٥:٣٤:٢٩) إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون * ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون) وقال تعالى (٧٥:١٥) — ٧١) إن في ذلك لآيات للمتوسمين. وأنها لبسبيل مقيم * ان في ذلك لآية للمؤمنين * وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين * فانتقمنا منهم. وإنهما لبإمام مبين) وقال تعالى في قوم لوط (١٣٧:٢٧، ١٣٨) وإنكم لتأمرون عليهم مصبحين * وبالليل. أفلا تعقلون؟) وهو سبحانه يذكر في سورة الشعراء ما أوقع بالمشركين من أنواع العقوبات، ويذكر إنجاء لأهل التوحيد. ثم يقول (إن في ذلك لآية. وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك هو العزيز الرحيم) فيذكر شرك هؤلاء الذين استحقوا به الهلاك، وتوحيد هؤلاء الذين استحقوا به النجاة. ثم يخبر أن في ذلك آية وبرهاناً للمؤمنين، ثم يذكر مصدر ذلك كله، وأنه عن أسمائه وصفاته. فصدور هذا الأهلاك عن عزته. وذلك الإنجاء عن رحمته. ثم يقرر في آخر السورة نبوة رسوله بالأدلة العقلية أحسن تقرير. ويحجب عن شبه الكاذبين له أحسن جواب. وكذلك تقريره للمعاد بالأدلة العقلية والحسية. فضرب الأمثال والأقيسة، فدلالة القرآن سمعية عقلية.

السألة الثانية: قوله «و يوجد بتبصير الحق» وجوب الشىء شرعاً لا يستلزم وجوده حساً. فلذلك ذكر ما يوجد به بعد ذكر ما يجب به. وهو تبصير الحق تعالى. ومراحه: التبصير التام الذى

لا تختلف عنه الهداية، والا فقد يبصر العبد الحق ولا توجد منه الهداية. كما قال تعالى (١٧:٤١) وأما ثمود: فهديتهم. فاستحيوا العى على الهدى) فهو— سبحانه — بصّره. فأثروا الضلال على الهدى. وقال تعالى (١١٥:٩) وما كان الله ليضلّ قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون) وقال تعالى عن قوم فرعون (١٤:٢٧) وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً) فهذا التبصير لم يوجب وجود الهداية. لأنه سبحانه لم يرد وجودها وإنما أراد وجود مجرد البصيرة: فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

وأما التبصير التام: فإنه يستلزم وجود الهداية. وهو الذى أمرنا أن نسأله إياه في كل صلاة. وقال فيه أهل الجنة (٤٣:٧) الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله) وقال تعالى (٢٥:١٠) والله يدعوا إلى دار السلام. ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) فتم بدعوته البيان والدلالة ونخص بهديته التوفيق والإمام.

المسألة الثالثة: قوله: «وَيُشَوِّبُهَا جَاهِدُ» داعي الحق» إذ لا يكفى مجرد مشاهدة الشواهد في غوه (١٠٥:١٢) وكأين من آية في السموات والأرض يرون عليها وهم عنها معرضون؟) يمر عليها العبد ولا ينسربها ولا يزيد بل ينقص إيمانه وتوحيده. فإذا أجاب الداعي وتبصر في الشواهد فما توحيده، وقوى إيمانه. وقال تعالى (١٧:٤٧) والذين اهتدوا زادهم هدى، وآتاهم تقواهم) وقال تعالى (٧٦:١٩) ويزيد الله الذين اهتدوا هدى)، وقال تعالى (١٢٤:٩) فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً).

وقد تضمن كلام الشيخ ما دلت عليه النصوص، واتفق عليه الصحابة والتابعون: أن الإيمان والتوحيد يتناولان ويتزايدان. وهذا من أعظم أصول أهل السنة الذى فارقوا به الجهمية والمرجئة.

• تعلق الهداية بالتوفيق الرباني لا ينفي وجوب الدعوة

وتعلق العبد بالشواهد، وهي الأدلة والآيات: من التوحيد. فإن الله سبحانه نصب الأدلة على التوحيد، وأقام البراهين وأظهر الآيات، وأمرنا أن نشهد الأدلة والآيات، وننظر فيها ونستدل بها، ولا يجمع هذا الإثبات وذلك النفي البتة. والمخلوقات كلها آيات للتوحيد، وكذلك الآيات المتلوة أدلة عليه.

فالتوحيد — كل التوحيد — أن يشهد كل شيء دليلاً عليه، مرشداً إليه، والرسول هم أدلة للتوحيد، وقد قال الله تعالى لرسوله (٥٢:٤٢) وإنك لن تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم) وقال تعالى (٧:١٣) ولكل قوم هاد) والهادى هو الدليل الذى يدل بهم في الطريق إلى الله، والدار الآخرة. ولا يناقض هذا قوله (٥٦:٢٨) إنك لا تهدي من أحببت) وقوله (٨:٣٥) فإن

الله يفضل من يشاء ويهدي من يشاء) فإن الله سبحانه تكلم بهذا وهذا. فرسله الهداة هداية الدلالة والبيان. وهو الهادي هداية التوفيق والالهام فالرسل هم الأدلة حقاً. والله سبحانه هو الموفق للمهم، الخالق للهدى في القلوب.

ومن محض التوحيد: أن تشهد العبودية وقيامك بها، وتشهد أنها من عين المنة والفضل، وتشهد ففكر وفائقك، فقد خرج النبي صلى الله عليه وسلم يوماً على حلقة من أصحابه، وهم يتذاكرون. قال: «ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر ما من الله به علينا، وهذانا بك إلى الإسلام. فقال: الله، ما أجلسكم إلا ذلك؟ قالوا: الله ما أجلسنا إلا ذلك؟ فقال: أما إنني لم أستحلفكم تهمة لكم. ولكن الله يباهي بكم الملائكة».

فكان من أسباب مباهاة الله بهم الملائكة: شهودهم سبب التوحيد، ووسيلة النجاة. وأنهم من قرن الله عليهم، كما قال تعالى (٣: ١٥٥) لقد قرن الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم. ويعلمهم الكتاب والحكمة. ولا يصادم هذا الشعور بالفقران يفتخر المؤمن بما كان من منة الله تعالى عليه، إذا كان قصده ذكرها ونشرها تعليمياً وتربوياً للآخرين

فالافتخار نوعان: مذموم، ومحمود. فالمذموم: إظهار مرتبته على أبناء جنسه ترفها عليهم. وهذا غير مراد. والمحمود: إظهار الأحوال السنية، والمقامات الشريفة، بوجهاً بها. أى تصريحاً وإعلاناً، لا على وجه الفخر. بل على وجه تحظيم النعمة، والفرح بها، وذكرها ونشرها، والتحدث بها، والترغيب فيها وغير ذلك من المقاصد في إظهارها. كما قال النبي صلى الله عليه وسلم «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» و «أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ولا فخر» و «أنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر» وقال سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه «أنا أول من رمى بسهم في سبيل الله» وقال أبوذر رضى الله عنه «لقد أتى علي كذا وكذا واني ثالث الاسلام» وقال علي بن ابي طالب رضى الله عنه «إنه لعهد النبي الأُمى إليّ: أنه لا يجنى إلا مؤمن. ولا يبغيضني إلا منافق» وقال عمر رضى الله عنه «وافقت ربي في ثلاث» وقال علي رضى الله عنه — وأشار إلى صدره — «إن ههنا علماً جماً. لو أصبت له حَمَلَةً» وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه «أخذت من في رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين سورة. وإن زيدا ليلعب مع الغلمان» وقال أيضاً «ما من كتاب الله آية إلا وأنا أعلم أين نزلت؟ وماذا أريد بها؟ ولو أعلم أن أحداً أعلم بكتاب الله مني تبليغه الإبل لرحلت إليه» وقال بعض الصحابة «لأن تختلف في الأسته أحب إليّ من أن أحدث نفسي في الصلاة بغير ما أنا فيه» وهذا أكثر من أن يذكر.

• الاسلام فرق

ومن تمام التوحيد: أن يكون العبد صاحب جمع وفرق.
 و«الجمع» في اللغة الضم. والاجتماع الانضمام، والتفريق: ضده. وفي اصطلاح الصوفية:
 هو شخوص البصيرة إلى من صدرت عنه المتفرقات كلها.
 وأما «الفرق» الإسلامي: فهو الفرق بين ما شرعه الله وأمر به وأحبه ورضيه، وبين ما نهى
 عنه ونكرهه ومقت فاعله. وهذا الفرق من ألم يكن من أهله لم يشم رائحة الاسلام البتة. وقد
 حكى الله سبحانه عن أهل الشهوات: أنهم أنكروا هذا الفرق. فشهدوا الجمع بين المأمور
 والمحظور إذ قالوا (٢: ١٧٥) إنما البيع مثل الربا لا فرق بينهما. وقالوا: الميتة مثل المذكاة. لا
 فرق بينهما. وقالوا: الحلال والحرام شيء واحد. فهذا جمعهم وذلك فرقهم.

• وعبادتنا جمع

أما الجمع فجمعان:
 جمع توحيد الربوبية وجمع توحيد الإلهية. فيشهد صاحبه قيومية الرب تعالى فوق عرشه، يدبر
 أمر عباده وحده. فلا خالق ولا رازق، ولا معطى ولا مانع، ولا محيت ولا محيي، ولا مدبر لأمر
 المملكة — ظاهراً وباطناً — غيره. فما شاء كان. وما لم يشأ لم يكن. لا تتحرك ذرة إلا بإذنه.
 ولا يجرى حادث إلا بمشيئته ولا تسقط ورقة إلا بعلمه. ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات
 ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا أحصاها علمه. وأحاطت بها قدرته. ونفذت بها
 مشيئته. واقتضتها حكمته. فهذا جمع توحيد الربوبية.
 وأما جمع توحيد الإلهية، فهو: أن يجمع قلبه وقمته وعزمه على الله. وإرادته، وحركاته على
 أداء حقه تعالى، والقيام بمعبوديته سبحانه. فتجتمع شؤون إرادته على مراده الديني الشرعي.
 وهذان الجمعان: هما حقيقة «إياك نعبد وإياك نستعين» فإن العبد يشهد من قوله «إياك»
 الذات الجامعة لجميع صفات الكمال، التي لها كل الأسماء الحسنى. ثم يشهد من قوله
 «نعبد» جميع أنواع العبادة ظاهراً وباطناً. قصداً وقولاً وعملاً وحالاً واستقبالاً. ثم يشهد من قوله
 «وإياك نستعين» جميع أنواع الاستعانة، والتوكل والتفويض. فيشهد منه جميع الربوبية. ويشهد
 من «إياك نعبد» جمع الإلهية. ويشهد من «إياك» الذات الجامعة لكل الأسماء الحسنى
 والصفات العلى.

ثم يشهد من «اهدنا» عشر مراتب. إذا اجتمعت حصلت له الهداية.
 المرتبة الأولى: هداية العلم والبيان. فيجعله عالماً بالحق مدركاً له.
 الثانية: أن يُثَبِّتَهُ عليه. وإلا فهو غير قادر بنفسه.
 الثالثة: أن يجعله مريداً له.
 الرابعة: أن يجعله فاعلاً له.
 الخامسة: أن يثبتته على ذلك. ويستمر به عليه.
 السادسة: أن يصرف عنه الموانع والعوارض المضادة له.
 السابعة: أن يهديه في الطريق نفسها هداية خاصة. أخص من الأولى. فإن الأولى هداية
 إلى الطريق إجمالاً. وهذه هداية فيها وفي منازلها تفصيلاً.
 الثامنة: أن يُشْهَدَ المقصود في الطريق، ويُثَبِّهَ عليه. فيكون مطالعاً له في سيره، ملتفتاً
 إليه، غير محتجب بالوسيلة عنه.
 التاسعة: أن يُشْهَدَ فقره وضرورته إلى هذه الهداية فوق كل ضرورة.
 العاشرة: أن يُشْهَدَ الطريقين للتحرفين عن طريقها. وهما طريق أهل الغضب، الذين
 عدلوا عن اتباع الحق قصداً وعناداً. وطريق أهل الضلال الذين عدلوا عنها جهلاً وضلالاً. ثم
 يشهد جمع «الصراط المستقيم» في طريق واحد عليه جميع أنبياء الله ورسله، وأتباعهم من
 الصديقين والشهداء والصالحين.
 فهذا هو الجمع الذي عليه رسل الله وأتباعهم. فمن حصل له هذا الجمع. فهو على الصراط
 المستقيم. والله أعلم.


$$u_1 = \frac{1}{2} \left(\frac{1}{\sqrt{2}} \begin{pmatrix} 1 \\ 1 \end{pmatrix} + \frac{1}{\sqrt{2}} \begin{pmatrix} 1 \\ -1 \end{pmatrix} \right) = \begin{pmatrix} 1 \\ 0 \end{pmatrix}$$


(١١) منزلة الشهادتين

وهي من نهاية رحلة حمزة المؤمن إلى الله ورَسُولِهِ
وتقوم على تكرار السبوح والاعظاف بخواب الباب الهادي

وأخر منازل «إياك نعبد وإياك نستعين»: منزلة «الشهادة»
واعلم أن التوحيد الذي دعت إليه رسل الله، ونزلت به كتبه: نوحان: توحيد في المعرفة
والاثبات، وتوحيد في الطلب والمقصد.
فالأول: هو حقيقة ذات الرب تعالى، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وعلوه فوق سمواته عن
عرشه، وتكلمه بكلمته، وتكليمه لمن شاء من عباده، وإثبات عموم قضائه، وقدره، وحكمه. وقد
أفصح القرآن عن هذا النوع جِد الإصحاح. كما في أول سورة الحديد، وسورة طه وآخر سورة الحشر،
وأول سورة تنزيل الجدة، وأول سورة آل عمران، وسورة الإخلاص بكاملها. وغير ذلك.
النوع الثاني: مثل ما تضمنته سورة (قل: يا أيها الكافرون) وقوله (٣: ٦٤) قل يا أهل
الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم - الآية) وأول سورة «تنزيل الكتاب» وآخرها،
وأول سورة «يونس» وسطها وآخرها، وأول سورة «الأعراف» وآخرها، وجلة سورة «الأنعام»
وغالب سور القرآن، بل كل سورة في القرآن فهي متضمنة لنوع التوحيد.
بل نقول قولاً كلياً: إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد، شاهدة به، داعية إليه. فإن
القرآن: إما خير عن الله، وأسمائه وصفاته وأفعاله. فهو التوحيد العلمي الخبري. وإما دعوة إلى
عبادته وحده لا شريك له، وخلع كل ما يعبد من دونه. فهو التوحيد الإرادي الطلبي. وإما أمر
ونهي، وإلزام بطاعته في نهيه وأمره. فهي حقوق التوحيد ومكملاته. وإما خير عن كرامة الله
لأهل توحيده وطاقته، وما فعل بهم في الدنيا، وما يكرمهم به في الآخرة. فهو جزاء توحيده وإما
خير عن أهل الشرك، وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحل بهم في العقبى من العذاب. فهو
خير عن خروج عن حكم التوحيد.

فإن القرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم - (الحمد لله)
توحيد (رب العالمين) توحيد (الرحمن الرحيم) توحيد (مالك يوم الدين) توحيد (إياك نعبد)
توحيد (وإياك نستعين) توحيد (اهدنا الصراط المستقيم) توحيد متضمن لسؤال الهداية إلى
طريق أهل التوحيد، الذين أنعم الله عليهم (غير المضروب عليهم ولا الضالين) الذين قارقوا

التوحيد. ولذلك شهد الله لنفسه بهذا التوحيد. وشهد له به ملائكته، وأنبياءه ورسله. قال (١٨:٣) **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ. وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ. قَاتِلُوا الْفَاسِقِينَ. لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ.**

فتمت هذه الآية الكريمة إثبات حقيقة التوحيد، والرد على جميع هذه الطوائف، والشهادة ببطلان أقوالهم ومذاهبهم. وهذا إنما يتبين بعد فهم الآية ببيان ما تضمنته من المعارف الإلهية، والحقائق الإيمانية.

فتمت هذه الآية: أجل شهادة، وأعظمها، وأعدلها، وأصدقها، من أجل شاهده، بأجل مشهود به. وعبارات السلف في «شهادة» تدور على الحكم والقضاء، والإعلام والبيان، والإخبار. قال مجاهد: حكم، وقضى. وقال الزجاج: بين. وقالت طائفة: أعلم وأخبر. وهذه الأقوال كلها حق لا تنافي بينها فإن «الشهادة» تتضمن كلام الشاهد وخبره وقوله. وتتضمن إعلامه، وإخباره وبيانه. قلها أربع مراتب. مراتبها: علم، ومعرفة، واعتقاد لصحة المشهود به، وثبوته. وثانيها: تكلمه بذلك، ونطقه به، وإن لم يعلم به غيره. بل يتكلم به مع نفسه ويذكرها، وينطق بها أو يكتبها. وثالثها: أن يعلم غيره بما شهد به، ويخبر به، ويبينه له. ورابعها: أن يلزمه بمضمونها ويأمره به.

فشهادة الله سبحانه لنفسه بالوحدانية، والقيام بالقسط: تضمنت هذه المراتب الأربعة: علم الله سبحانه بذلك. وتكلمه به، وإعلامه، وإخباره بخلقه به، وأمرهم وإلزامهم به. أما مرتبة العلم: فإن الشهادة بالحق تتضمنها ضرورة، وإلا كان الشاهد شاهداً بما لا علم له به. قال الله تعالى (٤٣: ٨٦) **إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** وقال النبي صلى الله عليه وسلم (على مثلها فاشهد) وأشار إلى الشمس.

وأما مرتبة التكلم والخبر: فمن تكلم بشيء وأخبر به فقد شهد به، وإن لم يتلفظ بالشهادة. قال تعالى (٦: ١٥٠) **قُلْ: هَلْ مِنْ شَهِدَاءِ كَمِ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَمَ هَذَا. فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ** وقال تعالى (٤٣: ١٩) **وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنِثَاءً. أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ؟ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ.** فجعل ذلك منهم شهادة، وإن لم يتلفظوا بلفظ الشهادة. ولم يؤدوها عند غيرهم. قال النبي صلى الله عليه وسلم «عَدَلْتُ شَهَادَةَ الزُّورِ الْإِشْرَاقَ بِاللَّهِ» وشهادة الزور هي قول الزور. كما قال تعالى (٢٢: ٣١) **وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ** حنفاء لله غير مشركين به) وعند نزول هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «عَدَلْتُ شَهَادَةَ الزُّورِ الْإِشْرَاقَ بِاللَّهِ» فسمى قول الزور شهادة. وسمى الله تعالى إقرار العبد على نفسه شهادة. قال تعالى (٤: ١٣٥) **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ.**

ولو على أنفسكم) فشهادة المرء على نفسه: هي إقراره على نفسه. وفي الحديث الصحيح في قصة معاذ الأسلمي «فلما شهد على نفسه أربع مرات. رجه رسول الله صلى الله عليه وسلم» وقال تعالى (٦: ١٣٠) قالوا: شهدنا على أنفسنا. وغرتهم الحياة الدنيا. وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين).

وهذا — وأضعافه — يدل على أن الشاهد عند الحاكم وغيره: لا يشترط في قبول شهادته أن يتلفظ بلفظ الشهادة. كما هو مذهب مالك، وأهل المدينة. وظاهر كلام أحمد. ولا يعرف عن أحد من الصحابة والتابعين اشتراط ذلك. وقد قال ابن عباس «شهد عندى رجال مرضيون — وأرضاهم عندى عمر — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الصلاة بعد الصبح. حتى تطلع الشمس، وبعد العصر حتى تغرب الشمس» ومعلوم أنهم لم يتلفظوا بلفظ الشهادة: والعشرة الذين شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة. لم يتلفظ في شهادته لهم بلفظ الشهادة. بل قال «أبوبكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة» الحديث.

وأجمع المسلمون على أن الكافر إذا قال «لا إله إلا الله. محمد رسول الله» فقد دخل في الإسلام. وشهد شهادة الحق. ولم يتوقف إسلامه على لفظ الشهادة وأنه قد دخل في قوله «حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله» وفي لفظ آخر «حتى يقولوا لا إله إلا الله» فدل على أن مجرد قولهم «لا إله إلا الله» شهادة منهم. وهذا أكثر من أن تذكر شواهد من الكتاب والسنة. فليس مع من اشترط لفظ الشهادة. دليل يعتمد عليه. والله أعلم.

• آيات الله تعالى في الآفاق تشهد

وأما مرتبة الإعلام والإخبار فتوعان: إعلام بالقول. وإعلام بالفعل. وهذا شأن كل معلم لغيره بأمر: تارة يعلمه بقوله. وتارة بفعله. فشهادة الرب جل جلاله وبيانه وإعلامه. يكون بقوله تارة، وبفعله تارة أخرى. فالقول: هو ما أرسل به رسله. وأنزل به كيبه. وما قد علم بالاضطرار: أن جميع الرسل أخبروا عن الله: أنه شهد لنفسه «بأنه لا إله إلا هو» وأخبر بذلك. وأمر عباده أن يشهدوا به. وشهادته سبحانه «أن لا إله إلا هو» معلومة من جهة كل من بلغ عنه كلامه.

وأما بَيان وإعلامه بفعله فهو ما تضمنته خبره تعالى عن الأدلة الدالة على وحدانيته التي تعلم دلالتها بالفعل والقطر. وهذا أيضاً يستعمل فيه لفظ الشهادة، كما يستعمل فيه لفظ الدلالة، والإرشاد والبيان. فإن الدليل بين الدلائل عليه ويظهره كما بينه الشاهد والمخير. بل قد يكون البيان بالفعل أظهر وأبلغ. وقد يسمى شاهد الحال نقطاً وقولاً وكلاماً. لقيامه مقامه، وأدائه موداه. كما قيل:

وقالت له العيسان: سماً وطاعة
وقال الآخر:
سكاً إلى جبل طبول الشرى صبراً حلي. فكلنا مبتلى

ويسمى هذا شهادة أيضاً كما قال تعالى (٩: ١٧) ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله، شاهدين على أنفسهم بالكفر) فهذه شهادة منهم على أنفسهم بما يفعلون من أعمال الكفر وأقواله. فهي شهادة بكفرهم. وهم شاهدون على أنفسهم بما شهدت به. والمقصود: أن الله سبحانه يشهد بما جعل آياته المخلوقة دالة عليه. فإن دلالتها إنما هي بخلقه وحمله. ويشهد بآياته القولية الكلامية المطابقة لما شهدت به آياته الخلقية. فتتطابق شهادة القول وشهادة الفعل. كما قال تعالى (٤١: ٥٣) سترهم آياتنا في الآفاق ولأن أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) أي أن القرآن حق. فأخبر أنه يدل بآياته الأتية والنفسية على صدق آياته القولية الكلامية. وهذه الشهادة الفعلية قد ذكرها غير واحد من أئمة العربية والتفسير. قال ابن كيسان: شهد الله بتدبيره المجيب وأموره المحكمة عند خلقه: أنه لا إله إلا هو.

• ألا كل شيء ما خلا الله باطل

وأما المرتبة الرابعة — وهي الأمر بذلك والإلزام به، وإن كان مجرد الشهادة لا يستلزمه، لكن الشهادة في هذا الموضع تدل عليه وتضمنه — فإنه سبحانه شهد به شهادة من حكم به، وقضى وأمر، وألزم عباده به. كما قال تعالى (١٧: ٢٣) وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه) وقال تعالى (١٦: ٥١) وقال الله: لا تتخذوا إلهين اثنين. إنما هو إله واحد) وقال تعالى (٩٨: ٥) وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) وقال تعالى (١٧: ٢٢، ٣٩) لا تجعل مع الله إلهاً آخر) وقال الله سبحانه وتعالى (٢٨: ٨٨) ولا تدع مع الله إلهاً آخر) والقرآن كله شاه بذلك.

ووجه استلزام شهادته سبحانه لذلك: أنه إذا شهد أنه لا إله إلا هو، فقد أخبر، وبين وأعلم، وحكم وقضى: أن ما سواه ليس بإله. وأن إلهية ما سواه أبطل الباطل، وإثباتها أظلم الظلم. فلا يستحق العبادة سواه. كما لا تصلح الإلهية لغيره وذلك يستلزم الأمر باتخاذ وحده إلهاً، والنهي عن اتخاذ غيره معه إلهاً. وهذا يفهمه المخاطب من هذا النفي والإثبات. كما إذا رأيت رجلاً يستفتي أو يستشهد، أو يستطب من ليس أهلاً لذلك، ويدع من هو أهل له. فتقول: هذا ليس بجفت ولا شاهد ولا طيب. المفتي فلان. والشاهد فلان. والطيب فلان. فإن هذا أمر منك ونهي.

وأيضاً فإن الأدلة قد دلت على أنه سبحانه وحده المستحق للعبادة. فإذا أخبر أنه هو وحده المستحق للعبادة، تضمن هذا الإخبار: أمر العباد والزاعمين بأداء ما يستحقه الرب تعالى عليهم. وأن القيام بذلك هو خالص حقه عليهم. فإذا شهد سبحانه أنه «لا إله إلا هو» تضمنت شهادته الأمر والإلزام بتوحيده.

وأيضاً فلفظ «الحكم» و«القضاء» يستعمل في الجمل الخبرية. فيقال للجملة الخبرية «قضية» و«حكم». وقد حكم فيها بكيك وكيك، قال تعالى (٣٧: ١٥١ - ١٥٤) ألا إنهم من إفكهم ليقولون: وكذا الله، وإنهم لكاذبون * أصطفى البنايات على البنين؟ ما الحكم؟ كيف تحكمون؟ فجعل هذا الإخبار المجرد منهم حكماً. وقال في موضع آخر (٦٨: ٣٥)، أفجعل المسلمين كالمجرمين؟ ما الحكم؟ كيف تحكمون؟ لكن هذا حكم لا إلزام معه، والحكم والقضاء بأنه لا إله إلا هو: متضمن للإلزام. والله سبحانه أعلم.

• قيام الله بالقسط يقتضي التواب والمقاب

وقوله تعالى «قائماً بالقسط» القسط: هو العدل. فشهد الله سبحانه: أنه قائم بالعدل في توحيدِهِ. وبالوحدانية في عدله. و«التوحيد» و«العدل» هما جامع صفات الكمال. فإن «التوحيد» يتضمن تفردَه سبحانه بالكمال والجلال والمجد والتعظيم الذي لا يبغي لأحد سواه. و«العدل» يتضمن وقوع أفعاله كلها على السداد والصواب وموافقة الحكمة. فهذا توحيد الرسل وعلوهم: إثبات الصفات، والأمر بعبادة الله وحده لا شريك له. وإثبات القدر واليُحْكَم. والغايات المطلوبة المحمودة بفعله وأمره. لا توحيد الجهمية والمعتزلة والقدرية، الذي هو إنكار الصفات وحقائق الأسماء الحسنى، وعلوهم، الذي هو: التكنيب بالقدس أو نفى اليُحْكَم والغايات والعواقب الحميدة التي يفعل الله لأجلها ويأمر. وقيامه سبحانه بالقسط في شهادته يتضمن أمراً.

أحدها: أنه قائم بالقسط في هذه الشهادة التي هي أعدل شهادة على الإطلاق، وإنكاره وجحودها أعظم الظلم على الإطلاق. فلا أعدل من التوحيد ولا أعظم من الشرك. فهو سبحانه قائم بالعدل في هذه الشهادة قولاً وفعلاً، حيث شهد بها، وأخبر وأعلم عباده. وبين لهم تحقيقها وصحتها. وألزمهم بمقتضاها. وحكم به. وجعل الثواب والعقاب عليها. وجعل الأمر والنهي من حقوقها واجباتها. فالذين كله من حقوقها. والثواب كله عليها. والعقاب كله على تركها.

وهذا هو العدل الذي قام به الرب تعالى في هذه الشهادة. فأوامره كلها تكميل لها، وأمر بأداء حقوقها. وتواهي كلها صيانة لها عما يهضمها ويضادها. وثوابه كله عليه. وعقابه كله على تركها، وترك حقوقها. وخلقه السماوات والأرض وما بينهما كان بها ولأجلها. وهي الحق الذي خلقت به. وضدها هو الباطل والبعث الذي تزه نفسه عنه. وأخبر: أنه لم يخلق به السماوات والأرض، قال تعالى: — ردأ على المشركين المنكرين لهذه الشهادة — (٣٨: ٢٧) وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً. ذلك ظن الذين كفروا. فويل للذين كفروا من النار وقال تعالى (٤٦: ١ - ٣ حم * تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم * ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى. والذين كفروا عما أئذروا معرضون) وقال (١٠: ٥ وهو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا. وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب. ما خلق الله ذلك إلا بالحق) وقال (٣٠: ٨ أولم يتفكروا لى أنفسهم؟ ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى. وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون) وقال (٤٤: ٣٨ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا عيب * ما خلقناهما إلا بالحق) وهذا كثير في القرآن. والحق الذي خلقت به السماوات والأرض ولأجله: هو التوحيد. وحقوقه من الأمر والنهي، والثواب والعقاب. فالشرع والقدس والخلق والأمر، والثواب والعقاب قائم بالعدل. والتوحيد صادر عنها. وهذا هو الصراط المستقيم الذي عليه الرب سبحانه وتعالى. قال تعالى: — حكاية عن نبيه هود — (١١: ٥٦) إني توكلت على الله ربي وربكم. ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها. إن ربي على صراط مستقيم) فهو سبحانه على صراط مستقيم في قوله وفعله. فهو يقول الحق. ويفعل العدل (٦: ١١٥) وتحت كلمة ريك صدقاً وعدلاً. لا مبدل لكلماته. وهو السميع العليم (٣٣: ٤) والله يقول الحق. وهو يهدي السبيل).

والمقصود: أن قوله تعالى «قائماً بالقسط» هو كقوله (إن ربي على صراط مستقيم) وقوله «قائماً بالقسط» نصب على الحال. وفيه وجهان. أحدهما: أنه حال من أفاعل في «شهد الله» والعامل فيها الفعل. والمعنى على هذا: شهد الله حال قيامه بالقسط: أنه لا إله إلا هو. والثاني: أنه حال من قوله «هو» والعامل فيها معنى النفي. أى لا إله إلا هو، والثاني: أنه حال

من قوله «هو» والعامل فيها معنى النفي. أى لا إله إلا هو، حال كونه قائماً بالقسط. وبين التقديرين فرق ظاهر. فإن التقدير الأول: يتضمن أن المعنى: شهد الله — متكلماً بالعدل، مخبراً به، أمراً به، فاعلاً له، مجازياً به — أنه لا إله إلا هو. فإن العدل يكون في القول والفعل. و «المقسط» هو العادل في قوله وقطعه. فشهد الله قائماً بالعدل — قولاً وقطاً — أنه لا إله إلا هو. وفي ذلك تحقيق لكون هذه الشهادة شهادة عدل وقسط. وهى أعدل شهادة، كما أن المشهود به أعدل شيء وأصح.

وإذا كان القيام بالقسط يكون في القول والفعل كان المعنى: أنه كان سبحانه يشهد وهو قائم بالعدل عالم به، لا بالظلم. فإن هذه الشهادة تضمنت قولاً وفعلاً. فإنها تضمنت: أنه هو الذى يستحق العبادة وحده دون غيره. وأن الذين عبدوه وحده: هم المفلحون السعداء. وأن الذين أشركوا به غيره هم الضالون الأشقياء. فإذا شهد قائماً بالعدل — المتضمن جزاء المخلصين بالجنة، وجزاء المشركين بالنار — كان هذا من تمام موجب الشهادة وتحقيقها. وكان قوله «قائماً بالقسط» تنبيهاً على جزاء الشاهد بها والجاحد لها. والله أعلم.

● واحد... وذو عدل... سبحانه

وأما التقدير الثانى — وهو أن يكون قوله «قائماً» حالاً مما بعد «إلا» — فالمعنى: أنه لا إله إلا هو قائم بالعدل. فهو وحده المستحق الإلهية، مع كونه قائماً بالقسط. قال شيخنا ابن تيمية: وهذا التقدير أرجح. فإنه يتضمن: أن الملائكة وأولى العلم يشهدون له بأنه لا إله إلا هو، وأنه قائم بالقسط. قلت: مراده أنه إذا كان قوله «قائماً بالقسط» حالاً من المشهود به. فهو كالصفة له. فإن الحال صفة في المعنى لصاحبها. فإذا وقعت الشهادة على ذى الحال وصاحبها كان كلاهما مشهوداً به. فيكون «الملائكة وأولو العلم» قد شهدوا بأنه قائم بالقسط. كما شهدوا بأنه لا إله إلا هو. والتقدير الأول لا يتضمن ذلك. فإنه إذا كان التقدير: شهد الله — قائماً بالقسط — أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم يشهدون أنه لا إله إلا هو: كان القيام بالقسط حالاً من اسم «الله» وحده.

وأيضاً فكونه قائماً بالقسط فيما شهد به أبلغ من كونه حالاً من مجرد الشهادة. فإن قيل: فإذا كان حالاً من «هو» فهلا اقترن به؟ ولم فصل بين صاحب الحال وبينها بالمعطوف، فجاء متوسط بين صاحب الحال وبينها؟

قلت: فائدته ظاهرة. فإنه لو قال «شهد الله أنه لا إله إلا هو قائماً بالقسط والملائكة وأولو العلم» لأوهم عطف الملائكة وأولو العلم على الضمير في قوله «قائماً بالقسط» ولا يحسن العطف لأجل الفصل. وليس المعنى على ذلك قطعاً. وإنما المعنى على خلافه. وهو أن قيامه بالقسط يختص به، كما أنه يختص بالإلهية. فهو وحده الإله المعبود المستحق العبادة. وهو وحده المعازي المنيب المعاقب بالعدل.

قوله «لا إله إلا هو» ذكر محمد بن جعفر أنه قال: الأول وصف وتوحيد، والثانية: رسم وتعليم، أى قولوا «لا إله إلا هو» ومعنى هذا: أن الأول تضمنت أن الله سبحانه شهد بها وأخبر بها. والثاني للقرآن إنما يخبر عن شهادته هو. وليس في ذلك شهادة من التالى نفسه. فأعاد سبحانه ذكرها مجردة ليقولنا التالى. فيكون شاهداً هو أيضاً.

وأيضاً فالأول: خبر عن شهادة بالتوحيد. والثانية: خبر عن نفس التوحيد. ونظم بقوله «العزيمز الحكيم» فتضمنت الآية تويده وعدله وعزته وحكمته. فالتوحيد: يتضمن ثبوت صفات كماله، ونعوت جلاله، وعدم المائل له فيها وعبادته وحده لا شريك له. و«العدل» يتضمن وضع الأشياء موضعها، وتنزيلها منازلها، وأنه لم يختص شيئاً منها إلا بمخصص اقتضى ذلك. وأنه لا يعاقب من لا يستحق العقوبة، ولا يمنح من يستحق الطاء، وإن كان هو الذى جعله مستحقاً. و«العزة» تتضمن كمال قدرته وقوته وقهره. و«الحكمة» تتضمن كمال علمه وخبرته، وأنه أمر ونهى وخلق وهدى لما له في ذلك من الحكم والغايات الحميدة التى يستحق عليها كمال الحمد.

فاسمه «العزيمز» يتضمن الملك. واسمه «الحكيم» يتضمن الحمد. وأول الآية يتضمن التوحيد. ذلك حقيقة «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد. وهو على كل شيء قدير». وإذا نهى عن شيء كان قبيحاً في نفسه. وإذا أيا. وإذا أراد شيئاً كان أول بالإنابة من غيره.

وهذا الوصف على الكمال لا يحول إلا لله وحده.

فتضمنت هذه الآية وهذه الشهادة: الدلالة على وحدانيته المنافية للشرك. وعدله المنافي للظلم. وعزته المنافية للعجز. وحكمته المنافية للجهل والميل. ففيها الشهادة له بالتوحيد، والعدل، والقدر، والعلم والحكمة. ولهذا كانت أعظم شهادة. ولا يقوم بهذه الشهادة على وجهها من جميع الطوائف إلا أهل السنة. وسائر طوائف أهل البدع لا يقومون بها.

فهذه الشهادة العظيمة: متضمنة لإبطال ما هم عليه ورده، كما تضمنت إبطال ما عليه المشركون ورده. وهي مبسطة لقول طائفتي الشرك والتعطيل. ولا يقوم بهذه الشهادة إلا أهل الإثبات الذين يشيئون لله ما أثبتت لنفسه من الأسماء والصفات. ويتفرون عنه بمائلة المخلوقات. • يعبدونه وحده لا يشركون به شيئاً.

• شهادته سبحانه لنفسه أتم من شهادة المبتدعة

وإذا كانت شهادته سبحانه تتضمن بيانه للعباد، ودلائلهم وتعريفهم بما شهد به، فلا غرر شهد شهادة لم يتمكنوا من العلم بها: لم ينتفعوا. ولم يقدروا عليهم بها الحجة. كما أن الشاهد من العباد إذا كانت عنده شهادة ولم يبينها، بل كتمها. لم ينتفع بها أحد، ولم تقم بها حجة. وإذا كان لا يُستفاد منها إلا ببيانها. فهو سبحانه قد بينها غاية البيان بطرق ثلاثة: السمع، والبصر، والعقل.

أما السمع: فيسمع آياته المتلوة القولية المتضمنة لإثبات صفات كماله ونعوت جلاله، وعلوه على عرشه فوق سبع سمواته، وتكلمه بكتبه، وتكليمه لمن شاء من عباده تكليماً وتكليماً. حقيقة لا مجازاً.

وفي هذا إبطال لقول من قال: إنه لم يرد من عباده ما دلت عليه آياته السمعية من إثبات معانيها وحقايقها التي وضعت لها ألفاظها. فإن هذا ضد البيان والإعلام. ويعود على مقصود الشهادة بالإبطال والكتمان. وقد ذم الله من كتم شهادة عنده من الله. وأخبر أنه من أظلم الظالمين. فإذا كانت هذه الشهادة من الله، لا شك في ذلك. الرسل، وأن إبراهيم وأهل بيته
الظالمين — كما فعله أعداء رسول الله ﷺ

يعرفون أبنائهم — فكيف يظن بالله سبحانه أنه سم شهادة أحق التي يشهد بها إجماعه والمعتزلة والمعتلة. ولا يشهد بها لنفسه. ثم يشهد لنفسه بما يضادها ويناقضها، ولا يجامعها بوجه ما؟ سبحانه هذا بهتان عظيم! فإن الله سبحانه شهد لنفسه بأنه استوى على العرش، وبأنه القاهر فوق عباده، وبأن ملائكته يخافونه من فوقهم، وأن الملائكة تعرج إليه بالأمر. وتنزل من عنده به. وأن العمل الصالح يصعد إليه، وأنه يأتي ويحيى، ويتكلم، ويرضى وبغضب، ويكره، ويفرج ويضحك، وأنه يسمع ويبصر، وأنه يراه المؤمنون بأبصارهم يوم لقائه. إلى غير ذلك مما شهد به لنفسه، وشهد له به رسله. وشهدت له الجهمية بضد ذلك، وقالوا: شهادتنا أصح، وأعدل من شهادة النصوص. فإن النصوص تضمنت كتمان الحق وإظهار خلافه.

فشهادة الرب تعالى: تكذب هؤلاء أشد التكذيب. وتتضمن أن الذى شهد به قد بينه وأوضحه وأظهره، حتى جعله في أعلى مراتب الظهور والبيان. وأنه لو كان الحق فيما يقوله المعتلة والجهمية لم يكن العباد قد انتصوا بما شهد به سبحانه. فإن الحق في نفس الأمر — عندهم — لم يشهد به لنفسه. والذى شهد به لنفسه، وأظهره وأوضحه: قليس بحق. ولا يجوز أن يستفاد منه الحق واليقين.

وأما آياته العينية الحقة، والنظر فيها والاستدلال بها: فإنها تدل على ما تدل عليه آياته القولية السمعية. وآيات الرب: هي دلائله وبراهينه التى بها يعرفه العباد، وبها يعرفون أسماء وصفاته. وتوحيده، وأمره ونهيه. فالرسل تخبر عنه بكلامه الذى تكلم به. وهو آياته القولية. ويستدلون على ذلك بمفعولاته التى تشهد على صحة ذلك. وهي آياته العينية. والعقل يجمع بين هذه وهذه. فيجزم بصحة ما جاءت به الرسل. فتتفق شهادة السمع والبصر والعقل والفطرة. وهو سبحانه — لكمال عدله ورحمته، وإحسانه وحكمته، وعجته للعن، وإقامته للحجة — لم يبعث نبيا من الأنبياء إلا ومعه آية تدل على صدقه فيما أخبر به. قال تعالى (٥٧: ٢٥) لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) وقال تعالى (١٦: ٤٣، ٤٤) وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نحى إليهم. فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون * بالبينات والزبر) وقال تعالى (٣: ١٨٣: ١٨٤) قد جاءكم رسل من قبل. بالبينات وبالذي قلتم. فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين؟ فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير) وقال تعالى (٣٥: ٤) وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير).

حتى إن من أخفى آيات الرسل آيات هود عليه السلام. حتى قال له قومه (١١: ٥٣) يا هود ما جئنا ببينة) ومع هذا فبيته من أظهر البينات. وقد أشار إليها بقوله (١١: ٥٤) — ٥٦) إني أشهد الله. وأشهدوا: أنى برىء مما تشركون من دونه. فكيدونى جميعاً ثم لا تنظرون * إني توكلت على الله ربي وربكم. ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها. إن ربي على صراط مستقيم) فهذه من أعظم الآيات: أن رجلا واحداً يخاطب أمة عظيمة بهذا الخطاب. غير جزع ولا قرع، ولا خوار، بل واثق بما قاله جازم به، قد أشهد الله أولاً على براءته من دينهم، ومما هم عليه إشهاد واثق به، معتمد عليه، معلم لقومه: أنه وليه وناصره، وأنه غير منططم عليه.

ثم أشهدهم — إشهاد مجاهر لم بالمخالفة —: أنه برىء من دينهم وألغتهم، التى يوالون عليها ويعادون. ويذلون دماءهم وأموالهم فى نصرتها.

ثم أكد عليهم ذلك بالاستهانة بهم، واحتقارهم وازدراؤهم، وأنهم لو يجتمعون كلهم على كيد، وشقاء غيظهم منه، ثم يعاجلونه ولا يمهلون: لا يستطيعون، فانهم أضعف وأعجز وأقل من ذلك .

ثم قرر دعوته أحسن تقرير. وبين أن ربه تعالى وربهم، الذي نواصيهم بيده: هو ولي ووكيله، القائم بنصره وتأيدته، وأنه على صراط مستقيم. فلا يخذل من توكل عليه وآمن به. ولا يُشمت به أعدائه. ولا يكون معهم عليه. فإن صراطه المستقيم الذي هو عليه — في قوله وفعله — يمنع ذلك ويأباه.

وتحت هذا الخطاب: أن من صراطه المستقيم: أن ينتقم من خرج عنه وعمل بخلافه. وينزل به بأسه. فإن الصراط المستقيم: هو العدل الذي عليه الرب تعالى. ومنه انتقامه من أهل الشرك والإجرام. ونصره وأوليائه ورسله على أعدائهم. وأنه يذهب بهم، ويستخلف قوماً غيرهم. ولا يضره ذلك شيئاً. وأنه القائم سبحانه على كل شيء حفظاً ورعاية وتدبيراً وإحصاءً. فأى آية وبرهان أحسن من آيات الأنبياء وبراهينهم وأدلتهم؟ وهى شهادة من الله سبحانه لهم. يثبتها لعباده غاية البيان. وأظهرها لهم غاية الإظهار بقوله وفعله. وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي. فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة».

ومن أسمائه تعالى «المؤمن» وهو — في أحد التفسيرين — المصدق الذي يصدق الصادقين بما يقيم لهم من شواهد صدقهم. فهو الذي صدّق رسله وأنبياءه فيما بلغوا عنه. وشهد لهم بأنهم صادقون بالدلائل التي دل بها على صدقهم قضاء وخلقا. فإنه سبحانه أخير — وخبره الصدق. وقوله الحق — أنه لا بد أن يرى العباد من الآيات الأفقية والنفسية ما يبين لهم: أن الوحي الذي بلغته رسله حق. فقال تعالى (٤١: ٥٣) سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم. حتى يتبين لهم أنه الحق) أى القرآن. فإنه هو المتقدم في قوله (٤١: ٥٢) قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به؟ ثم قال (أولم يكف بربك: أنه على كل شيء شهيد؟) فشهد سبحانه لرسوله بقوله: أن ما جاء به حق. ووعد أنه يُرى العباد من آياته الفعلية الخلقية: ما يشهد بذلك أيضا. ثم ذكر ما هو أعظم من ذلك وأجل، وهو شهادته سبحانه على كل شيء. فإن من أسمائه «الشهيد» الذي لا يغيب عنه شيء. ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، بل هو مطلع على كل شيء مشاهد له، عليم بتفاصيله. وهذا استدلال بأسمائه وصفاته. والأول استدلال بقوله وكلماته. والاستدلال بالآيات الأفقية والنفسية استدلال بأفعاله ومخلوقاته.

فإن قلت: قد فهمت الاستدلال بكلماته والاستدلال بمخلوقاته. فينبى لي كيفية الاستدلال بأسائه وصفاته. فإن ذلك أمر لا عهد لنا به في مخاطبتنا وكتبنا.

قلت: أجل! هو لعمر الله كما ذكرت. وشأنه أجل وأعلى. فإن الرب تعالى هو المدلول عليه، وقيامه هو الدليل والبرهان.

فاعلم أن الله سبحانه في الحقيقة هو الدال على نفسه بآياته. فهو الدليل لعباده في الحقيقة بما نصبه لهم من الدلالات والآيات. وقد أودع في القدر التي لم تتجس بالتعطيل والوجود: أنه سبحانه الكامل في أسائه وصفاته، وأنه الموصوف بكل كمال، المنزه عن كل عيب ونقص. فالكمال كله، والجسمال والجلال والبهاء، والعزة والعظمة والكبرياء: كله من لوازم ذاته. يستحيل أن يكون على غير ذلك. فالحياة كلها له. والعلم كله له، والقدرة كلها له. والسمع والبصر والإرادة. والمشية والرحمة والفضى، والوجود والإحسان والبر، كله خاص له قائم به. وما خفى على الخلق من كماله أعظم وأعظم مما عرفوه منه. بل لانسبة لما عرفوه من ذلك إلى ما لم يعرفوه.

ومن كماله المقدس: اطلاعه على كل شيء. وشهادته عليه. بحيث لا يغيب عنه وجه من وجوه تفاصيله، ولا ذرة من ذراته، باطنا وظاهراً. ومن هذا شأنه: كيف يليق بالعباد أن يشركوا به. وأن يعبدوا معه غيره؟ وأن يفعلوا معه إلهاً آخر؟ وكيف يليق بكماله أن يُقر من يكذب عليه أعظم الكذب، ويخبر عنه بخلاف ما الأمر عليه. ثم ينصره على ذلك ويؤيده، ويعطى كلمته. ويرفع شأنه. ويحبب دعوته، ويهلك عدوه، ويظهر على يديه من الآيات والبراهين والأدلة ما تعجز عن مثله قوى البشر. وهو — مع ذلك — كاذب عليه مفتر، ساع في الأرض بالفساد؟؟

ومعلوم أن شهادته سبحانه على كل شيء وقدرته على كل شيء، وحكمته وعزته وكماله المقدس يابى ذلك كل الإباء ومن ظن ذلك به، ويخبره عليه: فهو من أبعد الخلق من معرفته، وإن عرف منه بعض صفاته، كصفة القدرة، وصفة المشية.

والقرآن ملوه من هذه الطريق. وهى طريق الخاصة، بل خاصة الخاصة هم الذين يستدلون بالله على أفعاله. وما يليق به أن يفعله وما لا يفعله.

وإذا تدبرت القرآن رأيت يتأدى على ذلك. فيديه ويعيده لمن له فهم وقلب واع عن الله. قال الله تعالى (٦٩: ٤٤ — ٤٧) ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحد عنه حاجزين) أفلا تراه كيف يخبر سبحانه: أن كماله وحكمته وقدرته تأبى أن يُقر من تقول عليه بعض الأقاويل؟ بل لا بد أن يجعله عبرة لعباده، كما جرت بذلك سنة في المتولين عليه. وقال تعالى (٤٢: ٢٤) أم يقولون افتري على الله كذباً؟ فإن يشأ الله يختم على قلبك) ههنا انتهى جواب الشرط. ثم أخبر جازماً غير

معلق: أنه (بحر الله الباطل. ويحق الحق) وقال تعالى (٦: ٩١) وما قدروا الله حق قدره، إذ قالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء) فأخبر أن من نفى عنه الإرسال والكلام لم يتذره حق قدره. ولا عرفه كما ينبغي، ولا عظمه كما يستحق. فكيف من ظن أنه ينصر الكاذب المفترى عليه ويؤيده؟ ويظهر على يديه الآيات والأدلة؟ وهذا في القرآن كثير جداً. يستدل بكماله المقدس، وأوصافه وجلاله على صدق رسله، وعمل وعده ووعيده. ويدعوا عباده إلى ذلك. كما يستدل بأسمائه وصفاته على وحدانيته، وعمل بطلان الشرك. كما في قوله (٥٩: ٢٢، ٢٣) هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم * هو الله الذي لا إله إلا هو. الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، سبحانه الله عما يشركون) وأضاعف أضاعف ذلك في القرآن.

و يستدل سبحانه بأسمائه وصفاته على بطلان ما نسب إليه من الأحكام والشرائع الباطلة، وأن كماله المقدس ينبع من شرعها، كقوله (٧: ٢٨) وإذا فعلوا فاحشة قالوا: وجدنا عليها آباءنا. والله أمرنا بها. قل: إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون؟) وقوله عقيب ما نهى عنه وحرمه من الشرك والظلم والفواحش والقول عليه بلا علم (١٧: ٣٩) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا) فأعلمك أن ما كان سيئاً في نفسه فهو يكرهه. وكماله يأبى أن يجعله شرعاً له وديناً. فهو سبحانه يدل عباده بأسمائه وصفاته على ما يفعله ويأمر به، وما يحبه ويبغضه، ويثيب عليه ويعاقب عليه. ولكن هذه الطريق لا يصل إليها إلا خاصة الخاصة. فلذلك كانت طريقة الجمهور الدلالات بالآيات المشاهدة فإنها أوسع وأسهل تناولاً. والله سبحانه يفضل بعض خلقه على بعض. ويرفع درجات من يشاء. وهو العليم الحكيم.

فإن القرآن العظيم قد اجتمع فيه ما لم يجتمع في غيره. فإنه هو الدعوة والحجة. وهو الدليل والملدل على. وهو الشاهد والشهود له. وهو الحكم والدليل. وهو الدعوى والبينة. قال الله تعالى (١١: ١٧) أقمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه؟) أي من ربه. وهو القرآن. وقال تعالى لمن طلب آية تدل على صدق رسوله (٢٩: ٥١، ٥٢) أولم يكن لهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم؟ إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون. قل: كفى بالله بيني وبينكم شهيداً. يعلم ما في السموات والأرض. والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون) فأخبر سبحانه أن الكتاب الذي أنزله على رسوله يكنى عن كل آية. ففيه الحجة والدلالة على أنه من الله، وأن الله سبحانه أرسل به رسوله. وفيه بيان ما يوجب لمن اتبعه السعادة وينجي من العذاب. ثم قال (قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً يعلم ما في السموات والأرض) فإذا كان الله سبحانه عالماً بجميع الأشياء: كانت شهادته أصدق شهادة وأعدلها. فإنها شهادة يعلم تام، محيط بالشهود به. فيكون الشاهد به أعدل الشهداء وأصدقهم.

وهو سبحانه يذكر علمه عند شهادته وقدرته وملكوته عند مجازاته، وحكمته عند خلقه وأمره، ورحمته عند ذكر إرسال رسوله. وحلمه عند ذكر ذنوب عياده ومعاصيهم. وسمه عند ذكر دعائهم ومساأله. وعزته وعلمه عند قضائه وقدره. فتأمل ورود أسمائه الحسنى في كتابه، وارتباطها بالخلق والأمر، والثواب والعقاب.

● يظهر الله رسله بشهادته لنفسه

ومن هذا قوله تعالى (١٣: ٤٣) ويقول الذين كفروا: لست مرسلًا. قل: كفى بالله شهيداً بيني وبينكم. ومن عنده علم الكتاب) فاستشهد على رسالته بشهادة الله له. ولا بد أن تعلم هذه الشهادة، وتقوم بها الحجة على المكذبين له. وكذلك قوله (٦: ١٩) أى شيء أكبر شهادة؟ قل: الله شهيد بيني وبينكم) وكذلك قوله (٤٠: ١٦٦) لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنه بعلمه والملائكة يشهدون، وكفى بالله شهيداً) وكذلك قوله (٢: ٢٥٢) تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق. وإنك لمن المرسلين) وقوله (٦٣: ١) والله يعلم أنك لرسوله) وقوله (٤٨: ٢٨) محمد رسول الله) فهذا كله شهادة من رسوله. قد أظهرها وبينها. وبين صحتها غاية البيان. بحيث قطع العذريته وبين عياده. وأقام الحجة عليهم. فكونه سبحانه شاهداً لرسوله: معلوم بسائر أنواع الأدلة: عقلية، وتقليدية، وقطرية، وضورية، ونظيرية.

ومن نظري ذلك وتأمليه: علم أن الله سبحانه شهد لرسوله أصدق الشهادة. وأعد لها وأظهرها. وصدق بها سائر أنواع التصديق: بقوله الذي أقام البراهين على صدقه فيه، وبفعله وإقراره، وبما فطر عليه عياده: من الإقرار بكماله، وتنزيهه عن القبايح، وعما لا يليق به. وفي كل وقت. ويحدث من الآيات الدالة على صدق رسوله ما يقيم له الحجة، ويزيل به العذر، ويحكم له ولا يتباعه بما وعدهم به من العز والنجاة والظفر والتأييد. على أعدائه ومكذبيه بما توعدهم به: من الخزي، والتكال، والعقوبات للمجلة، الدالة على تحقيق العقوبات المزمجة (٤٨: ٢٨) هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله. وكفى بالله شهيداً) فيظهره ظهورين: ظهوراً بالحجة، والبيان، والدلالة. وظهوراً بالنصر والظفر والغلبة، والتأييد. حتى يظهره على مخالفيه. ويكون منصوراً.

وقوله (لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنه بعلمه، والملائكة يشهدون) فما فيه من الخبر عن علم الله الذي لا يعلمه غيره: من أعظم الشهادة بأنه هو الذي أنزله. كما قال في الآية الأخرى (١١: ١٣)، أم يقولون افتراه. قل: فأتوا بعشر سور مثله مفتريات. وادعوا من

استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين. فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله. وأن لا إله إلا هو. فهل أنتم مسلمون؟) وليس المراد مجرد الإخبار بأنه أنزله — وهو معلوم له، كما يعلم سائر الأشياء. فإن كل شيء معلوم له من حق وباطل — وإنما المعنى: أنزله مشتملاً على علمه. فنزوله مشتمل على علمه: هو آية كونه من عنده، وأنه حق وصدق ونظير هذا قوله (٢٥: ٦ قل: أنزله الذي يعلم السرى السموات والأرض) ذكر ذلك سبحانه تذكياً ورداً على من قال (٢٥: ٤ افتراه).

● الفطر السليمة شهادة ربانية

ومن شهادته أيضاً: ما أودعه في قلوب عباده: من التصديق الجازم واليقين الثابت، والطمأنينة بكلامه ووجهه. فإن العادة تحيل حصول ذلك بما هو من أعظم الكذب، والافتراء على رب العالمين، والإخبار عنه بخلاف ما هو عليه من أسمائه وصفاته، بل ذلك يوقع أعظم الريب والشك. وتدفعه الفطر والعقول السليمة، كما تدفع الفطر — التي فطر عليها الحيوان — الأغذية الخبيثة الضارة التي لا تغذى. كالأبوال والأنثان. فإن الله سبحانه فطر القلوب على قبول الحق والانتقياء له، والطمأنينة به، والسكون إليه ومحبه. وفطرها على بعض الكذب والباطل، والتفكير عنه، والريبة به، وعدم السكون إليه.

ولو بقيت الفطر على حالها لما آثرت على الحق سواء. ولما سكنت إلا إليه، ولا اطمأنت إلا به، ولا أحببت غيره. ولهذا نذب الله عز وجل عباده — تدبر القرآن. فإن كل من تدبره أوجب له تدبره علماً ضرورياً و يقيناً جازماً: أنه حق وصدق. بل أحق كل حق، وأصدق كل صدق. وأن الذي جاء به أصدق خلق الله، وأبره. وأكملهم علماً وعملاً، ومعرفة. كما قال تعالى (٤: ٨٢ أفلا يتدبرون القرآن؟ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) وقال تعالى (٤٧: ٢٤ أفلا يتدبرون القرآن، أم على قلوب أقفهاها؟) فلورفعت الأقفال عن القلوب لباشرتها حقائق القرآن، واستنارت فيها مصابيح الإيمان. وعلمت علماً ضرورياً يكون عندها سمائر الأمور الوجدانية — من الفرح والألم، والحب، والخوف — أنه من عند الله. فيكلم به حقاً. وتبلغه رسوله جبريل عنه إلى رسوله محمد. فهذا الشاهد في قلب من أعظم الشواهد. وبه احتج هرقل على أبي سفيان حيث قال له «فهل يرتد أحد منهم سخطة لديته، بعد أن يدخل فيه؟ فقال: لا فقال له: وكذلك الإيمان إذا خالطت حلاوته بشاشة القلوب لا يسخطه أحد» وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى في قوله (٢٩: ٤٩ بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم) وقوله (٢٢: ٥٤ ويرى الذين أوتوا العلم أنه

الحق من ربك فيؤمنوا به) وقوله (٣٤: ٦) ويرى الذين أنزلوا العلم الذي أنزل إليك من ربك: هو الحق) وقوله (١٣: ٢١٩) أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى؟) وقوله (١٣: ٢٧) ويقول الذين كفروا: لولا أنزل عليه آية من ربه، قل إن الله يضل من يشاء ويهدي من أتاب) يعنى: أن الآية التى يقترحونها لا توجب هداية. بل الله هو الذى يهدى ويضل. ثم نبههم على أعظم آية وأجلها، وهى: طمأنينة قلوب المؤمنين بذكره الذى أنزله. فقال (١٣: ٢٨) الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله) أى بكتابه وكلامه (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) فطمأنينة القلوب الصحيحة، والفطر السليمة به؛ وسكونها إليه. من أعظم الآيات. إذ يستحيل فى العادة: أن تطمئن القلوب وتسكن إلى الكذب والافتراء والباطل.

● ذكر شهادة العلماء تغني عن ذكر شهادة الرسل

فإن قيل: فلم لم يذكر الله سبحانه شهادة رسله مع الملائكة، فيقول: شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة والرسل، وهم أعظم شهادة من أول العلم؟
قيل: فى ذلك عدة فوائد.

إحداها: أن أول العلم أهم من الرسل والأنبياء فيدخلون هم وأتباعهم.

وثانيها: أن فى ذكر «أولى العلم» فى هذه الشهادة، وتعليقها بهم: ما يدل على أنها من موجبات العلم ومقتضياته. وأن من كان من أول العلم: فإنه يشهد بهذه الشهادة. كما يقال إذا طلع الهلال واتضح. فإن كل من كان من أهل النظر يراه. وإذا قاحت رائحة ظاهرة. فكل من كان من أهل الشم يشم هذه الرائحة قال تعالى (٣٩: ٣٦) وبُورِزَتِ الجَـمِيعِـمِ لِمَن يَرِى) أى كل من له رؤية يراها حيثئذ عيانا. ففى هذا بيان أن من لم يشهد له الله سبحانه بهذه الشهادة: فهو من أعظم الجهال. وإن علم من أمور الدنيا ما لم يعلمه غيره. فهو من أولى الجهل، لا من أولى العلم. وقد بينا أنه لم يتم بهذه الشهادة، ويؤديها على وجهها: إلا أتباع الرسل أهل الإثبات. فهم أولو العلم. وسائر من عداهم: أولو الجهل. وإن وسَّعوا القول وأكثروا الجدل.

ومنها: الشهادة من الله سبحانه لأهل هذه الشهادة: أنهم «أولو العلم» فشهادته لهم أعدل وأصدق من شهادة الجهمية والمعتلة والفرعونية لهم بأنهم جهال. وأنهم حشوية، وأنهم مشبهة، وأنهم مجسمة ونوابت ونواصب. فكفاهم أصدق الصادقين لهم بأنهم من «أولى العلم» إذ شهدوا له بحقيقة ما شهد به لنفسه، من غير تحريف ولا تعطيل. وأثبتوا له حقيقة هذه الشهادة ومضمونها. وتخصصهم نفوا عنه حقانيتها. وأثبتوا له ألفاظها ومجازاتها.

وفي ضمن هذه الشهادة الإلهية: الثناء على أهل العلم الشاهدين بها وتعديليهم. فإنه سبحانه قرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته. واستشهد بهم — جل وعلا — على أجل مشهود به. وجعلهم حجة على من أنكر هذه الشهادة. كما يحتج بالبينّة على من أنكر الحق. فالحجة على من أنكر هذه الشهادة. كما يحتج بالبينّة على من أنكر الحق. فالحجة قامت بالرسول على الخلق. وهؤلاء نواب الرسل وخلفاؤهم حجج الله على العباد.

وكد فسر «شهادة أولى العلم» بالإقرار. وفُسر بالتبيين والإظهار، والصحيح: أنها تتضمن الأمرين. فشهادتهم إقرار، وإظهار وإعلام. وهم شهداء الله على الناس يوم القيامة. قال الله تعالى (٢: ١٤٣) وكذلك جعلناكم أمة وسطاً. لتكونوا شهداء على الناس. ويكون الرسول عليكم شهيداً) وقال تعالى (٢٢: ٧٨) هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس). أى: سماكم المسلمين فيما أنزل على الرسل من قبل وفي هذا القرآن الذى أنزله على رسولكم.

فأخبر: أنه جعلهم عدولاً خياراً. ونوه بذكرهم قبل أن يوجد لهم، لما سبق في علمه من اتخاذهم شهداء يشهدون على الأمم يوم القيامة. فمن لم يقم بهذه الشهادة — علماً وعملاً، ومعرفة وإقراراً، ودعوة وتعليماً، وإرشاداً — فليس من شهداء الله. والله المستعان.

• لا دين سوى الاسلام

وأما قوله تعالى (٣: ١٩) إن الدين عند الله الإسلام) اختلف المفسرون: هل هو كلام مستأنف، أو داخل في مضمون هذه الشهادة؟ فهو بعض المشهود به.

وهذا الاختلاف مبنى على القراءتين في كسر «إن» وفتحها. فالأكثر على كسرها على الاستئناف. وفتحها الكسائي وحده. والوجه: هو الكسر. لأن الكلام الذي قبله قد تم. فالجملّة الشانية مقررة مؤكدة لمضمون ما قبلها. وهذا أبلغ في التقرير، وأذهب في المدح والثناء. ولهذا كان كسر (٥٢: ٢٨) إنا كنا من قبل ندعوه. إنه هو البر الرحيم) أحسن من الفتح. وكان الكسر في قول الملبي «ليبك. إن الحمد والنعمة لك» أحسن من الفتح.

وارجح ما ذكر في توجيه قراءة الكسائي بالفتح: أن تكون الشهادة واقعة على الجملتين معاً، كلاهما مشهود به على تقدير حذف الواو وإرادتها. والتقدير: وأن الدين عنده الإسلام. فتكون جملة استغنى فيها عن حرف العطف بما تضمنت من ذكر المعطوف عليه. كما وقع الاستغناء

عنها في قوله (١٨: ٢٢) ثلاثة رابعهم كلبهم، ويقولون: خمسة سادسهم. كلبهم) فيحسن ذكر الواو وحذفها، كما حذف هنا. وذكرت في قوله (١٨: ٢٢) ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم).

وقد دل قوله «إن الدين عند الله الإسلام» على أنه دين جميع أنبيائه ورسله وأتباعهم من أولهم إلى آخرهم، وأنه لم يكن لله قط ولا يكون له دين سواه. قال أول الرسل نوح (١٠: ٧٢) فإن توليتم فما سألتكم من أجر. إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين) وقال إبراهيم وإسماعيل (٢: ١٢٨) ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك (٢: ١٣٢) ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب: ياتني، إن الله اصطفى لكم الدين. فلا تخوفن إلا وأنتم مسلمون) وقال يعقوب: لبنيه عند الموت (٢: ١٣٢) ما تعبدون من بعدى؟ قالوا: نعبد إلهك — إلى قوله — ونحن له مسلمون) وقال موسى لقومه (١٠: ٨٤) إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) (٣: ٥٢) فلما أحس عيسى منهم الكفر، قال: من أنصاري إلى الله؟ قال الحواريون: نحن أنصار الله. آمنا بالله. وأشهد بأننا مسلمون) وقالت ملكة سبأ (٢٦: ٤٤) رب إني ظلمت نفسي. وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين).

فالإسلام دين أهل السماوات، ودين أهل التوحيد من أهل الأرض. لا يقبل الله من أحد ديناً سواه. فأديان أهل الأرض ستة: واحد للرحمن، وخسة للشيطان. فدين الرحمن: هو الإسلام. والتي للشيطان: اليهودية. والنصرانية، والمجوسية. والصابئة. ودين المشركين. فهذا بعض ما تضمنته هذه الآية العظيمة من أسرار التوحيد والمعارف.

ويدخل السالك ضمن أولي العلم المذكورين خلالها، وشهادته معهم بقيومية الله سبحانه، وعزته وحكمته: يبلغ مقصده، ويعتلي الذروة، فيقف على القمة، شاعراً، إذ يرى بين يديه منظرأ شاملاً للمنازل التي مرَّ بها، متناثرة في وديان الاختبات والمحبة، ومجموعة على سفوح التوكل والصبر، فيخر ساجداً، حامداً إذ وصل سالماً ثابتاً، شاكراً خاشعاً.

خاتمة

(سبحان ربك رب العزة عما يصفون. وسلام على المرسلين. والحمد لله رب العالمين)
فتختتم الكتاب بهذه الآية، حامدين لله، مثنيين عليه بما هو أهله. وبما أثنى به على نفسه.
والحمد لله رب العالمين حمداً طيباً مباركاً فيه، كما يحب بنا ويرضى. وكما ينبغي لكرم وجهه، وعزّ جلاله. غير مكفّين ولا مكفّورين، ولا مُؤدّعين، ولا مستغنى عنه ربنا.
ونسأله أن يوزعنا شكر نعمته، وأن يوفقنا لأداء حقه. وأن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته. وأن يجعل ما قصدنا له — في هذا الكتاب وفي غيره — خالصاً لوجهه الكريم، ونصيحة لعباده.

فيا أيها القاريء له:

ما وجدت فيه من صواب وحق فاقبله. ولا تلتفت إلى قائله. بل انظر إلى ما قل لا إلى من قال. وقد ذم الله تعالى من يرد الحق إذا جاء به من يبغضه. ويقبله إذا قاله من يحبه. فهذا خلق الأمة الغضبية. قال بعض الصحابة «أقبل الحق ممن قاله، وإن كان بغيضاً. ورد الباطل على من قاله، وإن كان حبيباً» وما وجدت فيه من خطأ: فإن قائله لم يأل جهد الإصابة. وبأبى الله إلا أن يتفرد بالكمال. كما قيل: *

والنقص في أصل الطبيعة كامن فيه الطبيعة نقصهم لا يجحد

وكيف يُعصم من الخطأ من خلق ظلوماً جهولاً؟ ولكن من عُذّت غلطاته أقرب إلى الصواب ممن عدت إصاباته.

وعلى المتكلم في هذا الباب وغيره: أن يكون مصدر كلامه عن العلم بالحق. وغايته: النصيحة لله، ولكتابه ورسوله، ولإخوانه المسلمين. وإن جعل الحق تبعاً للهوى: فسد القلب والعمل والحال والطريق. قال الله تعالى (٢٣: ٧١) ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت الأرض ومن فيهن؟ وقال النبي صلى الله عليه وسلم «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به» فالعلم والعدل: أصل كل خير. والظلم والجهل: أصل كل شر. والله تعالى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق. وأمره أن يعدل بين الطوائف. ولا يتبع هوى أحد منهم. فقال تعالى (٤٢: ١٥) فلذلك فادع واستقم. كما أمرت ولا تتبع أهواءهم. وقل: آمنت بما أنزل الله من كتاب. وأمرت لأعدل بينكم. الله ربنا وربكم. لنا أعمالنا، ولكم أعمالكم. لا حجة بيننا وبينكم. الله يجمع بيننا وإليه المصير.

والحمد لله رب العالمين. وصلّى الله وسلّم وبارك على خاتمه المرسلين محمد وعلى آله أجمعين.

11

12

13

14

15

16

17

18

19

20

21

22

23

24

25

الفهرست

صفحة هذا التهذيب

صفحة المذارج الاصل

١٩	٢/١	• مقدمة ابن القيم
٢٣	٧/١	• فائحة المطالب العالية
٣٥	٢٤/١	• فائحة التوحيد
٤٥	٣٧/١	• مراتب الهداية
٥٣	٥٢/١	• الفائحة الشافية
٥٧	٥٨/١	• فائحة التفنيد
٦٣	٧٤/١	• عبادة واستقامة
٩٣	١٣٥ ، ١٢٢/١	• مصطلحات واساليب

•

١٠١	١٢٣/١	(١) منزلة اليقظة
١٠٥	١٤٦/١	(٢) منزلة الفكرة
١٠٦	١٢٣/١	(٣) منزلة البصيرة
١١١	١٣٢/١	(٤) منزلة العزم
١١٥	١٦٩/١	(٥) منزلة المحاسبة
١٢١	١٧٨/١	(٦) منزلة التوبة
١٥٧	٢٧٢/١	• من احكام التوبة
١٦٧	٢٩٤/١	• مفاضلة
١٧٥	٣٠٥/١	• الركيزة الجامعة

صفحة المذارج الاصل

١٨١	٣١٥/١	• صفائر دون الكباثر
١٩١	٣٣٥/١	• أجناس المحرمات
٢١١	٣٩٩/١	• مشاهد المعصية
٢٣١	٤٣٣/١	(٧) منزلة الانابة
٢٣٧	٤٤١/١	(٨) منزلة التذكر
٢٥١	٤٦٠/١	(٩) منزلة الاعتصام
٢٥٥	٤٦٩/١	(١٠) منزلة القرار
٢٥٩	٤٨١/١	(١١) منزلة السماع
٢٦٩	٥١١/١	(١٢) منزلة الخوف
٢٧٣	٥١٧/١	(١٣) منزلة الاشفاق
٢٧٥	٥٢٠/١	(١٤) منزلة الخشوع
٢٧٩	٤/٢	(١٥) منزلة الاخبات
٢٨٣	٨/٢	(١٦) منزلة الزهد
٢٨٩	٢٠/٢	(١٧) منزلة الورع
٢٩٥	٢٩/٢	(١٨) منزلة التبتل
٢٩٧	٣٥/٢	(١٩) منزلة الرجاء
٣٠٧	٥٥/٢	(٢٠) منزلة الرغبة
٣١١	٦٥/٢	(٢١) منزلة المراقبة
٣١٥	٧٤/٢	(٢٢) منزلة تعظيم الحرمات
٣٢١	٨٩/٢	(٢٣) منزلة الاخلاص
٣٢٧	٩٧/٢	(٢٤) منزلة التهذيب
٣٣١	١٠٣/٢	(٢٥) منزلة الاستقامة

٣٣٥	١١٢/٢	(٢٦) منزلة التوكل
٣٤٧	١٤٣/٢	(٢٧) منزلة الثقة
٣٥١	١٥٢/٢	(٢٨) منزلة الصبر
٣٦٣	١٧١/٢	(٢٩) منزلة الرضا
٣٨٣	٢٤٢/٢	(٣٠) منزلة الشكر
٣٨٩	٢٥٨/٢	(٣١) منزلة الحياء
٣٩٥	٢٦٨/٢	(٣٢) منزلة الصدق
٤٠٥	٢٩١/٢	(٣٣) منزلة الاثار
٤١٣	٣٠٤/٢	(٣٤) منزلة الخلق
٤٢٧	٣٢٧/٢	(٣٥) منزلة التواصل
٤٣٥	٣٤٠/٢	(٣٦) منزلة الفتوة
٤٤١	٣٦٤/٢	(٣٧) منزلة الارادة
٤٤٥	٣٧٥/٢	(٣٨) منزلة الادب
٤٥٧	٣٩٧/٢	(٣٩) منزلة الفقر
٤٦٣	٤٢٣/٢	(٤٠) منزلة الذكر
٤٦٩	٤٣٨/٢	(٤١) منزلة اليقين
٤٧٧	٤٥٣/٢	(٤٢) منزلة الاجتناء
٤٨١	٤٥٩/٢	(٤٣) منزلة الاحسان
٤٨٣	٤٦٤/٢	(٤٤) منزلة العلم
٤٩١	٤٨٢/٢	(٤٥) منزلة الفراسة
٤٩٥	٤٩٥/٢	(٤٦) منزلة التعظيم
٤٩٧	٥٠٢/٢	(٤٧) منزلة السكينة

٥٠٣	٥١٢/٢	(٤٨) منزلة الطمانينة
٥٠٧	٣/٣	(٤٩) منزلة الهمة
٥٠٩	٦/٣	(٥٠) منزلة المحبة
٥٢٧	٤٢/٣	(٥١) منزلة الغيرة
٥٣١	٦٧/٣	(٥٢) منزلة الرّشد
٥٣٥	٨٢/٣	(٥٣) منزلة البرق
٥٣٩	٨٧/٣	(٥٤) منزلة الذوق
٥٥٥	١٤١/٣	(٥٥) منزلة الصفاء
٥٦١	١٥٦/٣	(٥٦) منزلة الفرح
٥٦٩	١٧٠/٣	(٥٧) منزلة السير
٥٧٧	١٩٤/٣	(٥٨) منزلة الغربة
٥٨٣	٢١٥/٣	(٥٩) منزلة التمكين
٥٨٧	٢٤٥/٣	(٦٠) منزلة المعاينة
٥٩٣	٢٥٨/٣	(٦١) منزلة الحياة
٦١٧	٣٣٤/٣	(٦٢) منزلة المعرفة
٦٣٧	٣٩٧/٣	(٦٣) منزلة رعاية الاسباب
٦٤١	٤٣١/٣	(٦٤) منزلة استئناف التوبة
٦٤٥	٤٤٣/٣	(٦٥) منزلة استئناف التوحيد
٦٦١	٤٤٩/٣	(٦٦) منزلة الشهادة



General Organization Of the Alexandria
Library (GOAL)

Bibliotheca Alexandrina

تهذيب لأخلاق السالكين إلى
الطريق القويم وتنقية للنفوس
من شوائب الشرك بالله، من عمل
بما فيه كان على الأمة فيبلغ القمة
ويكون من الفائزين بالجنة، وهو زاد
للمعاد وحادي الأرواح إلى بلاد الأفراح

الناشر

دار البشير للثقافة والعلوم

وكيل التوزيع في المملكة المغربية

دار الاعتصام للطباعة والنشر والتوزيع
33-35 شارع الشكلى (أحياء) تحت الميناء
هاتف: 301785 فاكس: 441530



دار البشير للثقافة والعلوم

طبعنا: أمام كلية التربية النوعية

322404 / 356663 فاكس: 228277

